سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ [الحجر: ٢٤] الآية.

[٥٢٥] روى الترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم(١) عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله [ﷺ] حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾(٢).

[٥٢٦] ك.. وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصاري ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾(٣) أنزلت في سبيل الله؟ قال: لا ولكنها في صفوف الصلاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الحجر: ٤٥] الآية.

[٥٢٧] أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾(٤) فرَّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به للنبي [ﷺ]، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾(٥) فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾(٦).

قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧] الآية.

---

[٥٢٥] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق عمر بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس.

(٢) سورة الحجر: الآية (٢٤).

[٥٢٦] (٣) سورة الحجر: الآية (٢٤).

[٥٢٧] (٤) سورة الحجر: الآية (٤٣).

(٥) سورة الحجر: الآية (٤٣).

(٦) سورة الحجر: الآية (٤٥).

[٥٢٨] أخرج ابن أبي حاتم(١) عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٢) قيل: وأي غل قال: غل الجاهلية أن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ [الحجر: ٤٩] الآية.

[٥٢٩] أخرج الطبراني عن عبدالله بن الزبير قال مر رسول الله [ﷺ] بنفر من أصحابه يضحكون فقال: «أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم» فنزلت هذه الآية: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾(٣).

[٥٣٠] وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي [ﷺ] قال اطلع علينا رسول الله [ﷺ] من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «لا أراكم تضحكون» ثم أدبر ثم رجع القهقرى فقال: «إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال يا محمد إن الله يقول لك لم تقنط عبادي» ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾ [الحجر: ٩٥].

[٥٣١] ك.. أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال مرّ النبي [ﷺ] على أناس بمكة فجلعوا يغمزون في قفاه ويقولون هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل فغمز جبريل بإصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا فلم يستطع أحد أن يدنو منهم فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾(٥).

* * *

---

[٥٢٨] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٥٨ و ١٥٩) من طريق علي بن هاشم عن كثير النواء قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين.... الخبر.

(٢) سورة الحجر: الآية (٤٧).

[٥٢٩] (٣) سورة الحجر: الآية (٤٩و ٥٠).

[٥٣٠] (٤) سورة الحجر: الآية (٤٩و ٥٠).

[٥٣١] (٥) سورة الحجر: الآية (٩٥).

(١٥) سُورَةُ الحِجْرِ مَكِيَّة وآياتها تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

سورةُ الحِجْر من السور المكيةِ التي استهدفتْ المقاصد الأساسية لأركان الدعوة الإسلامية من تقرير الوحي والرسالة ، وتقرير البعث والجزاء ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين جلَّ وعلا . ومحور هذه السورة يدور حول إبراز المصير المشئوم الذي ينتظر أهلَ الجحودِ والضَّلال ، وأهلَ الكفر والعناد من المكذبين الكافرين ، ولذلك جاء التعقيب المباشر بعد ذكر قَصَص الأنبياءِ بما حلَّ بأقوامهم من النكال والدمار نتيجةً لتكذيبهم رسلَ الله . سُميت هذه السورةُ – سورةَ الحجر – لأن الله تبارك وتعالى ذكر ما حدث لقوم صالح وهم قبيلةُ ثمود – وديارهُم في الحِجْر بين المدينة والشام – وكانوا ينحتون الجبالَ بيوتاً ، يسكنون فيها وكأنهم مخلَّدون في هذه الحياة ، لا ينالهم تعبٌ ولا نَصَب ، ولا يُفرّقهم موتٌ ولا فناء ، آمنون مطمئنون حتى جاءتهم صيحة العذاب وهم في غفلتهم ساهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقد جاءهم العذاب في وقت الصباح ، وهم في البيوت الحصينة في صُلْب الجبال ، وفي جوفِ الصخرِ المتين . وفي ذلك يقول القرآن الكريم « ولقد كذَّب أصحاب الحِجْر المرسلينَ وآتيناهم آياتِنا فكانوا عنها مُعْرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فأَخَذَتْهم الصيحةُ مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » .

ابتدأت هذه السورةُ الكريمةُ بالإنذار والتهديد ، ملفَّعاً بظلٍ من التهويل

والوعيد «آلر . تلكَ آياتُ الكتاب وقرآنٍ مبين . رُبَمَا يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتعوا ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلوم . ما تَسْبِقُ من أُمةٍ أَجَلَها وما يستأخرون» ثم عرضتْ الآياتُ إلى موقفِ الجحودِ والعناد الذي وقفه الأقوام من الرسل الكرام ، فما من نبيٍ إلا سخر منه قومُه ، من لَدُن نوحٍ إلى بعثة خاتم المرسلين ، وبالأخص كفارُ مكة الذين طُمست بصائرهم فراحوا يهزءون من رسول الله ﷺ ويسخرون وقد بيَّن تعالى أن هذه سنةُ المكذبين مع الأنبياء والمرسلين ، لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم «ولقد أرسلنا من قبلِكَ في شِيَعِ الأولين . وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون . كذلك نسلكُهُ في قلوبِ المجرمين . لا يؤمنون به وقد خَلَتْ سُنَّةُ الأولين» وقد صوَّر تعالى مشهدِ المكابرة والعناد لكفار مكة في ذلك التصوير المُذْهِل ، مَشهد أولئك المكذبين وهم يصعدون في السماء ، من بابٍ ...ح لهم فيها ، وهم يصعدون بأجسامهم ويرون الأفلاك والأملاك ثم بعد ذلك يكابرون ويعاندون «ولو فتحنا عليهم باباً من السماءِ فظلو[ا] ... يَعْرُجون . لقالوا إنما سُكِّرتْ أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مَسْحورون» ومن مشهد ... ة الى مَعْرض الآيات الكونية ، مبدوءاً بمشهد السماء ، فمشهدِ الأرض . ... د الرياحِ اللواقحِ . فمشهدِ الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . ... لك آياتٌ باهرات معروضة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينص... اليد المُبْدعة ، ويشهد بالإعجاز في عظمة هذا الخالق الكبير ، ومع ... كابر المكابرون ويعارضُ المكذبون . استمعْ إلى هذا البيان الذي ينطق بج... اله ووحدانيته «ولقد جعلنا في السماءِ بروجاً وزيَّناها للناظرين . وحفظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم . إلا من استرقَ السمعَ فأَتْبَعه شهابٌ مبين . والأرضَ مَدَدْناها

وألقينا فيها رواسيَ وأنبتنا فيها من كل شيءٍ موزون . وجعلنا لكم فيها معايشَ ومن لستم له برازقين . وإنْ من شيءٍ إلا عندنا خزائنُه وما ننزّلُه إلا بقدرٍ معلوم » . ثم تردُّ الآيات الكريمة كلَّ شيءٍ في الكون إلى الإله القادر الحكيم ، خالقِ الكائنات ومبدع الأرضِ والسموات ، فترد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور ، فمنه جل وعلا ابتدأ خلق البشر وإليه يعود « وإنَّا لنحنُ نُحيي ونُميتُ ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإنَّ ربَك هو يحشرهم إنه حكيمٌ عليم » .

ثم تقص السورة الكريمة قصة البشرية الكبرى ، قصة الهدى والضلال ممثَّلة في خلق آدم وعدوه إبليس اللعين ، وتذكر قَسَم إبليس بإغواء أهلِ الأرض أجمعين إلا من خصَّهم الله بالهداية والتوفيق ، فإنَّ الشيطانَ لا يستطيعُ أن يحومَ حول ساحتهم لأنهم في حمى الرحمن « قال ربِّ بما أغويتني لأُزَيّنَنَّ لهم في الأرضِ ولأُغوينَّهم أجمعينَ . إلا عبادَكَ منهم المُخْلَصِينَ . قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ . إنَّ عبادي ليس عليهم سلطانٌ إلا من اتبعك من الغاوين . وإنَّ جهنمَ لموعدُهمْ أجمعين . لها سبعةُ أبوابٍ لكل بابٍ منهم جزء مقسوم » .

ومن قصة آدم تنتقل الآيات إلى قَصَص الأنبياء ، تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأسُ والقنوط . فتذكر قصة لوط ، وقصةَ شُعيب ، وقصة صالح ، تذكرها بالإيجاز لا بالإسهاب وما حلَّ بأقوامهم المكذبين ، بدءاً من قوله تعالى « نبىءْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم » إلى آخر قصة صالح . استمع إلى قوله تعالى عن قوم لوط « فأخذتهم الصيحةُ مشرقين . فجعلنا عاليَها سافِلَها وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل . إنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسّمينَ . وإنها لسبيلٍ مقيم » واستمع إلى قوله عن

قوم شعيب وهم أصحابُ الأَيكةِ ﴿ وإن كانَ أصحابُ الأَيْكةِ لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لَبِإمَامٍ مبين﴾ وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة من القصَص في السورة ، محققةً سنةَ الله في أخذ المكذبين عند انقضاء المدة التي حددها الله لهم فلن يُفلت أحدٌ من عذاب الله . وتختم السورة الكريمة بلفتِ الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبيان الحقِ الكامن في خلق السموات والأرض ، وبيان الساعةِ التي يعقبها الثواب والعقاب في دار العدل والجزاء « وما خلقنا السمواتِ والأرض وما بينهما إلا بالحقِ وإنَّ الساعةَ لآتيةٌ فاصفح الصفحَ الجميلَ . إن ربَّك هو الخلاقُ العليم » كما تذكّر الرسول بالصبر على الأَذى في سبيل الله ، وشكر الله وعبادته والإكثار من الصلاة والتبتل والطاعة « ولقد نعلم أَنك يضيق صدرك بما يقولون . فسّبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[١]

قوله عز وجل: **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**، قد ذكرنا فيما تقدم أنه يحتمل أن الحروف المقطعة كناية عن كتابه[2] أو آياته، أنه حملها على ما توجبه الحكمة فجعلها كتابًا أو آياتِ كتابٍ يتلى. أو تكون[3] كناية عن الإنباء والإخبار / عن الأمم السالفة التي لم يشهدها [٣٩٢ظ] رسول الله صلى الله عليه وسلم، [أي جعلنا][4] تلك الأنباء والأخبار[5] كتابًا أو آيات ليعلموا أن هذا الكتاب إنما نزل من السماء وأنه إنما عُلم بالوحي من الله. وقد ذكرنا هذا في غير موضع[6] **وقرآن مبين**، قيل:[7] بُيِّن فيه ما يُؤتَى وما يتقى. أو **مبين**، [أي] يبيِّن[8] الحق والباطل. ***والله أعلم***.

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٢]

وقوله عز وجل: **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**، قال عامة أهل التأويل: إنما يودون الإسلام والتوحيد بعد ما عذب في النار قوم من أهل التوحيد بذنوبهم ثم أخرجوا منها بالشفاعة أو بالرحمة، فعند ذلك يتمنى أهل الشرك ويودون الإسلام والتوحيد.[9]

---

[1] ن ع م + ذكر أنها مكية.

[2] ك + وآياته.

[3] جميع النسخ: يكون.

[4] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٣ظ.

[5] جميع النسخ + التي جعلناها.

[6] انظر: السور المبدوءة بالحروف المقطعة.

[7] جميع النسخ: قال، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٣ظ.

[8] جميع النسخ + بين، والتصحيح مع الزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٣ظ.

[9] ن ع م + لو كانوا مسلمين.

لكن هذا بعيد: أن لا يتمنوا إلا في النار بعد ما أخرج أولئك، وقد أصيبوا الشدائد والبلايا من قبل أن يأتوا النار، قال الله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا،[1] الآية. أخبر أنه يتمنى عند حلول الموت الإسلام، حيث طلب الرجوع إلى الدنيا، دل أنهم يودون الإسلام قبل الوقت الذي ذكروا. أو يتمنون الإسلام إذا حوسبوا، أو إذا بعث أهل الجنة الى الجنة[2] وبعثوا هم إلى النار، يتمنون الإسلام قبل ذلك في مواضع. وربما يتمنى الآحاد من الكفرة ويودون[3] لو كانوا مسلمين في أحوال وأوقات يظهر لهم الحق، و قد بان لهم الحق[4] لكن الذي يمنعهم عن الإسلام فوت شيء من الدنيا وذهاب شيء قد طمعوا فيه.

وقال الحسن في قوله: **الر تلك آيات الكتاب**، قسم لما ذكر: **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**، يقول: أقسم بالحروف المقطعة أنهم يودون الإسلام. ***والله أعلم***.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٣]

وقوله عز وجل: **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا**، هذا ليس على الأمر، ولكن على الوعيد والتهديد،[5] وإبلاغ في الوعيد وتأكيد، كقوله: اِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ،[6] الآية، هو[7] على الوعيد[8] حيث قال: إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فعلى ذلك قوله: **ذر هم يأكلوا**، وعيد بقوله: **فسوف يعلمون**. ويشبه أن يكون: ذرهم ولا تكافئهم بصنيعهم.

[٣٩٢ظ س٢٢ * وقوله: **ذر هم يأكلوا ويتمتعوا**، الآية، في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون، آيَسَ رسوله

٣٩٢ظ س٢٣] عن إيمانهم. وهو كقوله: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.[9] *

---

[1] ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٩٩-١٠٠).

[2] ع م – الى الجنة.

[3] ن: يودون.

[4] ك: و قد بين لهم الحق؛ ع – و قد بان لهم الحق.

[5] ن ع: علي التوعيد والتهدد؛ ع م: علي التوعيد.

[6] ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٠).

[7] م: وهو.

[8] ع: هو على التوعيد.

[9] ﴿ونُقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّلَ مرة ونَذَرُهم في طغيانهم يعمهون﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٠).

* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٢ظ/سطر ٢٢-٢٣.

وقوله: **ويلههم الأمل**، الأمل: الطمَع، اختلف فيه. قال بعضهم:[١] متَعَهم طمَعُهم أنهم وآباءهم[٢] قد أصابوا الحق،[٣] ذلك منعهم عن الإجابة والنظر في الآيات والحجج. والثاني تقديرهم بامتداد حياتهم ليبقى لهم الرياسة والشرف. ذلك الذي كان يمنعهم عن الإجابة[٤] والانقياد له والنظر في الآيات والحجج. والثالث يطمعون هلاك النبي صلى الله عليه وسلم ويتمنون ذلك وانقطاعَ ملكه وأمره والعودَ إليهم، فذلك الذي كان منعهم. وفي حرف حفصة:[٥] ذرهم يخوضوا ويلعبوا ويلههم الأمل.

* وقوله عز وجل: **فسوف يعلمون**، المحق من المبطل،[٦] وأن المحق والمبطل مَن: أنت أو هم؟[٧] [٣٩٢ظ س١٦
أو سوف يعلمون نصحك إياهم وشَفَقَتك لهم أنك نصحت لهم وأشفقت عليهم،[٨] لا أن خُنْتَهم.
أو يعلمون بما سخروا بكم وهَزَءوا.[٩] * ٣٩٢ظ س١٨]

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾[٤]

وقوله: **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم**، قال الحسن: وما أهلكنا أهل[١١] قرية إهلاك تعذيب إلا وقد أرسلنا إليهم رسلاً بكتاب معلوم يتلون[١٢] ذلك الكتاب المعلوم عليهم. فإذا كذّبوهم وآيسوا[١٣] من إيمانهم، فعند ذلك يهلكون إهلاك تعذيب. وهو ما قال: وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ[١٤] الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا،[١٥] فعلى ذلك الأولُ.

---

[١] ن ع م + أي.
[٢] ع م: وآباؤهم
[٣] أي منع الذين كفروا طمعهم وظنهم بأنهم و وآباءهم على طريق الحق.
[٤] ك + لهم له.
[٥] ن: وفي حرف ابن مسعود و حفصة.
[٦] ك ع م – من.
[٧] ع – وأن المحق والمبطل من أنت أو هم.
[٨] م – عليهم.
[٩] حتى وافوا جزاء ذلك.
* وقع ما بين النجمتين متقدما على موضعه، فأخرناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩٢ظ/سطر ١٦-١٨.
[١١] ك + من أهل.
[١٢] ك: يتلو؛ ن ع م: تتلوا. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٣ظ. ويتلون: أي الرسل.
[١٣] ع م: وآيس.
[١٤] جميع النسخ: ليهلك؛ الا أن هذه ترد في آية أخري: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (هود، ١١/١١٧).
[١٥] ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ (القصص، ٢٨/٥٩).

وقال بعضهم: **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم**، يقول: كتاب فيه أجل معلوم مؤقت لها؛ على هذا التأويل كأنه قد خرج جوابًا لقول[1] كان من أولئك الكفرة[2] [في] استعجالهم الإهلاك.[3]

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون**، أي ما تسبق أمة أجلها[4] الذي جعل الله لها بالإهلاك وما تستأخر عنه. وهو ما قال: لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ،[5] أى ما يستأخرون ساعة عن الوقت الذى جعل لهم ولا يتقدمونه.[6] فهذا ينقض على المعتزلة قولهم حيث قالوا: إن الله يجعل لخلقه آجالاً ثم يجيء آخرُ فيقتله قبل الأجل الذي جعله الله له،[7] والله يقول: لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ؛ وقال: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ،[8] يخبر أنه لجاءهم العذاب لولا ما جعل من أجل مسمى، قد وعد جل وعلا أنه يفي بما وعد من البلوغ إلى الأجل الذي سمي. وعلى قول المعتزلة لا يملك إنجاز ما وعد، لأنه يجيئ إنسان فيقتله فيمنع اللهَ عن وفاء ما وعد، فذلك عجز وخُلف في الوعد. فنعوذ بالله من السرف في القول والزيغ عن الحق.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر**، يعني القرآن، **إنك لمجنون**، قال الحسن: قوله: **يا أيها الذي** تدعي أنه **نزل عليه الذكر إنك لمجنون** فيما تدعي من نزول الذكر. هو على الإضمار الذي قال الحسن، وإلا في الظاهر متناقض. لأنهم كانوا لا يقرون بنزول الذكر عليه، لأنهم لو أقرّوا بنزول[9] الذكر عليه لكان قولهم متناقضا فاسدًا: **إنك لمجنون**، سموه مجنونًا.

---

[1] ن ع: بالقول.
[2] جميع النسخ + من.
[3] «جوابا لقول من كان من الكفرة يستعجلون الهلاك.» شرح *التأويلات*، ورقة ٤٢٣ظ.
[4] ك ن: من أجلها.
[5] ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (سورة الأعراف، ٣٤/٧).
[6] ع م – أى ما يستأخرون ساعة عن الوقت الذى جعل لهم ولايستقدمونه.
[7] ك: الذى جعل له.
[8] سورة العنكبوت، ٥٣/٢٩.
[9] ن م: نزول.

والذي حملهم على تسميتهم إياه مجنونًا وجوه. أحدها أنهم[1] لما رأوه أنه قد أظهر الخلاف لذوي العقول منهم والأفهام والدعاءَ إلى غير ما هم فيه،[2] فرأوا أنه ليس يخالف[3] أهل العقول والفهم إلا لجنون[4] به، فسموه مجنونًا.

والثاني رأوه / قد أظهر الخلاف للفراعنة والجبابرة الذين كانت عادتهم القتل والإهلاك [٣٩٣و] لمن[5] أظهر الخلاف لهم في أمر من أمورهم الدنيوية، فكيف من أظهر الخلاف لهم[6] في الدين؟ فظنوا أنه ليس يخالفهم ولا يخاطر بنفسه[7] وروحه إلا لجنون فيه.

والثالث، قالوا ذلك لما رأوه كان يتغير لونه عند نزول الوحي عليه فظنوا أن ذلك لآفة فيه. ومن تأمل حقيقة ذلك علم أن من قَرَفه بالجنون به[8] هو المجنون، لا هو، حيث قال: أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِنْ جِنَّةٍ،[9] الآية. وقال: مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ،[10] أخبر أنهم لو تفكروا عرفوا أنه ليس به جنة، ولكن عن معاندة ومكابرة وجهل يقولون.[11] ثم سموه[12] ساحرًا، فذلك تناقض في القول، لأنه لا يسمى ساحرًا إلا لفضل بصر وعلم، فذلك تناقض[13]

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٧]

وقوله عز وجل: **لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين**، تأويله -والله أعلم- يقولون له:[14] إنك تزعم أن الملائكة يأتونك بالوحي، فهلا أظهرتهم[15] لنا إذا أتوك فننظر إليهم،

---

[1] ك ن - أنهم.
[2] ع م - فيه.
[3] ك م: مخالف.
[4] ك ع م: بجنون.
[5] جميع النسخ: والهلاك من، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤و.
[6] ك - لهم.
[7] خاطَرَ بنفسه يُخاطِرُ: أَشْفَى بها على خَطَرِ هُلْكٍ أَو نَيْلِ مُلْكٍ. (*لسان العرب*، «خطر»).
[8] ك: فيه.
[9] سورة الأعراف، ١٨٤/٧.
[10] سورة القلم، ٢/٦٨.
[11] جميع النسخ: يقولون وجهل.
[12] جميع النسخ: وسموه.
[13] «ثم سموه ساحرا كما سموه مجنونا، والساحر عندهم يسمى من له فضل بصر وعلم وزيادة حذاقة فيكون ذلك تناقضا منهم» (*شرح التأويلات*، ورقة ٤٢٤و).
[14] ن - له.
[15] جميع النسخ: فهلا أظهرت

أملائكة هم، على ما تزعم، أم شياطين؟ وقال بعضهم: لو ما تأتينا بالملائكة فيشهدون أنك رسول[١] وأنك أُرسلت على ما تدعي من الرسالة فقال:

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾[٨]

ما ننزل الملائكة إلا بالحق،[٢] **وما كانوا إذًا منظرين.** قال بعضهم: إنه ليس[٣] في وسع البشر رؤية الملائكة على صورتهم؛ فقال: **ما ننزل الملائكة إلا بالحق،** إلا بالموت، لو رأوهم[٤] لماتوا، لما لم يجعل في وسعهم رؤية الملائكة. وهو كقوله: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ،[٥] الآية. أخبر أنه لو أنزل عليهم الملك لماتوا؛ إذ ليس في وسعهم رؤية الملك على صورته.[٦] ثم أخبر أيضًا أنه لو جعله ملكًا لجعله رجلاً،[٧] ويكون في ذلك لبس على أولئك. وقال بعضهم: **ما ننزل الملائكة إلا بالحق،** أي إلا بالحجج والآيات والبراهين على الرسل وعلى من هو أهل لذلك، ليس على كل أحد. وقال بعضهم: **إلا بالحق،** أي بالعذاب الذي يكون فيه هلاكهم. وهكذا أن الملائكة لا تنزل إلا بالعذاب الذي فيه هلاكهم أو بالحجج والبراهين. ***والله أعلم.***

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٩]

وقوله عز وجل: **إنا نحن نزلنا الذكر،** يعني القرآن، **وإنا له لحافظون،** حتى لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.[٨] وفيما وَكَّلَ الحفظ إلى نفسه لم يقدر أحد من الطاغين مع كثرتهم منذ نزل موضع الطعن فيه. وذلك يدل أنه سماوي وأنه محفوظ. وقال بعضهم: **وإنا له لحافظون،** أي محمدًا عليه أفضل الصلوات، أي نحفظه بالذكر الذي أنزل عليه، كقوله: وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ،[٩] وكقوله: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي،[١٠] الآية.

---

[١] ع م: رسول الله.

[٢] ع م + إلا بالموت.

[٣] جميع النسخ: ان ليس.

[٤] جميع النسخ: رأوا.

[٥] ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقُضِي الأمر ثم لا يُنظَرون﴾ (سورة الأنعام، ٨/٦).

[٦] ك: صورتهم.

[٧] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنا عليهم ما يَلْبِسون﴾ (سورة الأنعام، ٩/٦).

[٨] سورة فصلت، ٤٢/٤١.

[٩] سورة المائدة، ٦٧/٥.

[١٠] ﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يُوحِي إليّ ربي إنه سميع قريب﴾ (سورة سبأ، ٥٠/٣٤).

أخبر أنه إنما يهتدي بما يوحي إليه ربه، فعلى ذلك يحفظه بالقرآن الذي أنزل عليه. ويحتمل[١] **الذكر** النبوة، أي **إنا نحن نزلنا** النبوة، **وإنا له**، أي لرسوله **لحافظون**[٢] على النبوة[٣] والرسالة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾[١٠] ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١١]

وقوله عز وجل: **ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين**، قيل في مِلَل[٤] الأولين، وقيل في فِرَق[٥] الأولين، وقيل في جماعات[الأولين]، وهو واحد.

وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. يصبّر رسوله على استهزاء قومه إياه وأذاهم له.[٦] يقول -والله أعلم- لست أنت المخصوصَ بهذا ولكن لك شركاء وأصحاب في ذلك، ليَخِفّ ذلك عليه ويهون. لأن العرف في الخلق أن من كان له شركاء وأصحاب في شدة أصابته أو بلاءٍ يصيبه[٧] كان ذلك أيسر عليه وأهون من أن يكون مخصوصًا به من بين سائر الخلائق. ***والله أعلم.***

كأن هذه الآية صلة قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ،[٨] فكأنه لما سمع هذا اشتد عليه وضاق صدره بذلك، فعند ذلك قال: **ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين**، إلى آخره، يصبّره على أذاهم وهُزْئهم به. فإنما يشتد عليه ذلك على قدر شفقته ونصيحته لهم. وكان بلغ نصيحته وشفقته لهم ما ذكر: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ،[٩] وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ،[١٠] كادت نفسه تَهْلك. أو ذكر هذا له لما أن هؤلاء، أعني قومه، إنما استهزءوا به تقليدا لآبائهم واقتداءً بهم[١١] وتلقّنًا[١٢] منهم، لا أنهم أنشأوا ذلك من أنفسهم. وأولئك، أعني الأوائل،

---

[١] ك ع م + أن يكون.
[٢] ك: لحافظون له.
[٣] جميع النسخ: بالنبوة. وهو مستفاد من *الشرح*، ورقة ٤٢٤و.
[٤] ن ع م: في ملك.
[٥] ن: فريق.
[٦] ع م – له.
[٧] ك ن: أو بلاء ومصيبة؛ ع: أو بلاء مصيبة.
[٨] سورة الحجر، ٦/١٥.
[٩] ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ (الشعراء، ٣/٢٦).
[١٠] سورة فاطر، ٨/٣٥.
[١١] ك: واستهزاء بهم.
[١٢] جميع النسخ: وتلقنوا؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤و.

إنما استهزءوا برسلهم لا تقليدًا بأحد ولكن إنشاء من ذات أنفسهم. فمن استهزأ بآخر وشتمه[1] تقليدًا وإقتداء وتلقنا كان ذلك أيسر عليه وأخف ممن[2] فعل به من ذاته؛ لأنه انما يلقَّن المجانين والصبيان ومن به آفة بمثل ذلك، فهم الذين يعملون بالتلقين. وأما العقلاء والسالمون عن الآفات فلا. فذلك أهون عليه من استهزاء أولئك برسلهم. *والله أعلم*.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾[١٢] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[١٣]

وقوله عز وجل: **كذلك نسلكه في قلوب المجرمين،** اختلف فيه. قال بعضهم: كذلك نسلك التكذيب والاستهزاء **في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به،** يقول: مِن حكم الله أن يَسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذّبه، ومِن حكمه، أن يسلك التصديق في قلب من صدقه واختاره، كقوله: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ،[3] وكقوله: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ.[4] وقال بعضهم: قوله:
[٣٩٣ظ] **كذلك**... نجعل الكفر والتكذيب في قلوب المجرمين بكفرهم، كقوله: / وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ،[5] الآية، وقوله: وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً،[6] ونحوه. ويحتمل قوله: **نسلكه في قلوب المجرمين،** الحجج والآيات ليكون تكذيبهم وردهم الحجج والآيات[7] تكذيبَ عناد ومكابرة فلا يؤمنون به.

وقوله: **كذلك نسلكه في قلوب المجرمين،** أي مثل الذي سلكنا في قلوب المؤمنين من قبول الآيات والحجج والتصديق لها،[8] لما علمنا[9] أنهم يختارون ذلك، نسلك في قلوب المجرمين من تكذيب الآيات والحجج وردها، لما علمنا[10] منهم الرد والتكذيب لها. هذا يحتمل،[11] ويحتمل غير هذا، على ما ذكرنا،[12] *والله أعلم*.

---

[1] ع م: فشتمه.
[2] جميع النسخ: من؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤و.
[3] سورة الصف، ٥/٦١.
[4] سورة البقرة، ٢٦/٢.
[5] سورة الأنعام، ٢٥/٦.
[6] ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكَلِم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به﴾ (المائدة، ١٣/٥.)
[7] ن ع م: الآيات والحجج؛ جميع النسخ + وتكذيبهم.
[8] ن: بها.
[9] جميع النسخ: علم.
[10] جميع النسخ: علم.
[11] ن ع م: محتمل.
[12] ن ع م: ما ذكرنا.

وقوله عز وجل: **وقد خلت سنة الأولين**، يحتمل قوله: **وقد خلت سنة الأولين**، بالتكذيب والرد والمعاندة والمكابرة بعد قيام الحجج والآيات. ويحتمل **وقد خلت سنة الأولين**، الإهلاك[1] والاستيصال عند مكابرة حجج الله ومعاندتهم إياها.

وقال بعض أهل التأويل: **كذلك نسلكه**، أي نجعل،[2] على ما ذكرنا،الكفرَ بالعذاب في قلوب المجرمين. **لا يؤمنون به**، أي لا يصدقون بالعذاب، **وقد خلت سنة الأولين**، بالتكذيب لرسلهم [و] بالعذاب [لهم]. فهؤلاء يستنّون بسنتهم.

وقال أبو عَوْسَجة: **كذلك نسلكه**، أي نُدخله. يقال: السالك: الداخل، والسلوك: الدخول، وسلكت: أدخلت. وتصديقه قوله: كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ،[3] وقال: أُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ،[4] أي أدخِل.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون**، يخبر جل وعلا عن سفههم وعنادهم في سؤالهم الآيات وطلبهم[5] نزول الملائكة، بقوله: لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.[6] يقول: إنهم في سؤالهم[7] الآيات وما سألوا متعنتون مكابرون[8] ليسوا هم بمسترشدين، لكن أهل الإسلام لا يعرفون تعنتهم بالذكر حيث قال:[9] وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ، الآية، ثم قال: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ.[10] وذلك[11] أن المؤمنين كانوا يشفعون لهم بسؤالهم الآيات لعلهم يؤمنون فأخبر: وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ.

---

[1] جميع النسخ: والهلاك، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.

[2] ن ع م: نجعله.

[3] ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٢٠٠-٢٠١).

[4] سورة القصص، ٣٢/٢٨.

[5] جميع النسخ: وطلب.

[6] سورة الحجر ٧/١٥.

[7] جميع النسخ: إن سؤالهم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.

[8] جميع النسخ: متعنتين مكابرين، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.

[9] «لما أخبر عنهم الله بقوله» (*شرح التأويلات*، ورقة ٤٢٤ظ).

[10] ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ (سورة الأنعام، ١٠٩/٦)

[11] ع: ذلك.

فعلى ذلك قوله: **ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون**، يخبر أنهم بسؤالهم نزول الملائكة معاندون مكابرون[1] ليسوا بمسترشدين.

ثم اختلف فيه، قال بعضهم: قوله:[2] **ولو فتحنا عليهم**، يعني على الملائكة بابًا حتى رأوا وعاينوا الملائكة ينزلون من السماء ويصعدون فلا يؤمنون، **ولقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا**، قيل: حُيِّرت وسُدَّت؛ **بل نحن قوم مسحورون**، أي سحرت أعيننا فلا نرى ذلك. وقال بعضهم: قوله: **ولو فتحنا عليهم**، أي لهم **بابًا من السماء**، كقوله: وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ،[3] أي للنُّصب.

وقوله عز وجل: **فظلوا فيه** حتى[4] **يعرجون** فيه ويعاينون نزول الآيات ويشاهدون كل شيء. **لقالوا إنما سكرت أبصارنا**، يُؤيِس رسوله وأصحابه عن إيمانهم. وقوله: **لقالوا**[5] **إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**، يقولون ذلك لشدة تعنتهم وسفههم وينكرون معاينة ذلك.

[٣٩٤و س ٢١] *قال أبو عَوْسَجة: **فظلوا فيه**، أي صاروا يومهم يعرجون يرتفعون ويصعدون. وقال غيره: **فظلوا**، أي مالوا، كقوله: فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ،[6] أي مالت. وقال: قوله: **سُكِّرت أبصارنا**، أي حُيِّرت. يقال: تَسكَّر بصره، إذا تحيّر. وقال: يقال[7] أيضًا: تحيّرت. يقال: سكَّر الله بصره، أي حيّره؛ و سكَّرت الريح تسكُر سَكرًا إذا سكنت. ويقال: ليل ساكر، أي ساكن؛ وسكَّرتُ الماء أسكُره سَكْرا، أي حبسته. والسِّكر، السدّ، والسُّكور جمع. والسُّكر مصدر[8] سكِر يسكَر سُكْرا فهو سكران، وقوم سَكرى وسُكارى؛ والسَّكرة الغمرة، والغمرة الشدة. وقال عز وجل: وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ،[9] أي شدته وعَلَزه.[10] وقال القُتبي: سُكِرت، غُشيت.

---

[1] جميع النسخ: معاندين مكابرين.
[2] ع – قوله.
[3] ﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السَّبُعُ إلا ما ذكّيتم وما ذُبح على النُّصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ (المائدة، ٣/٥).
[4] ع – حتى.
[5] ع م – وقوله لقالوا.
[6] ﴿إن نشأ نُنَزِّل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ (سورة الشعراء، ٤/٢٦).
[7] ن: إذا تحير يقال.
[8] ك + والسُّكر مصدر.
[9] ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تَحيد﴾ (سورة ق، ١٩/٥٠)
[10] العلز: القلق والضجر (*لسان العرب*، «علز»).

ومنه يقال: سُكِر النهر إذا سُدَّ؛ فالسِّكر اسم ما سكَرت، وسَكْر الشراب منه، إنما هو الغطاء على العقل والعين.[١] وقال الحسن: سُكرت بالتخفيف سحِرت.[٢]* ٣٩٤و س٢٨]

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[١٦] ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[١٧] ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾[١٨]

وقوله عز وجل: **ولقد جعلنا في السماء بروجًا**، قيل: نجومًا. ويحتمل البروجُ المنازل التي ينزل فيها الشمس والقمر والنجوم. جعل لكل واحد من ذلك منزلاً ينزل في كل ليلة في منزل على حدة. ويحتمل ما ذكر من البروج هي مطالع[٤] من الشمس والقمر والنجوم [ومغاربها].[٥]

وقوله عز وجل: **وزيناها للناظرين**، يعني السماء للناظرين.

وفي قوله: **زيناها للناظرين**، دلالة [على] نقض قول من ينهى عن النظر إلى السماء من القُرَّاء،[٦] لأنه أخبر أنه زينها للناظرين؛ ولا يحتمل أن يزينها للناظرين[٧] ثم ينهى عن النظر إليها. دل أنه لا بأس للناظرين. وقال في آية أخرى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا،[٨] الآية، وقال في موضع آخر: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ.[٩] وجعل الله في الشمس والقمر والنجوم منافع يهتدون بها الطرق في ظلمات الليل وجعلها مصابيح في الظلمات.[١٠] وأخبر أنه زينها للناظرين؛ لأن ما يقبح في العين من المنظر لا يتفكر الناظر فيه ولا ينظر إليه، فزينها لهم ليحملهم ذلك على التفكر فيها[١١] والنظر إليها، ليعلموا أنه تدبير واحدٍ،

---

[١] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٥.

[٢] جميع النسخ: وسحرت، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ؛ وإلى قول الحسن انظر: *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٥.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية الآتية برقم ١٩، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٤و/سطر ٢١-٢٨.

[٤] ن + ما ذكر.

[٥] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.

[٦] يقال: قرأت أي صرت قارئا ناسكا، وتَقَرَّأتُ تقرُّؤًا في هذا المعنى.. والقارئ والمتقرئ والقُرّاء كله: الناسك (*لسان العرب*، «قرأ»).

[٧] ع م – للناظرين.

[٨] ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ (سورة الأنعام، ٩٧/٦).

[٩] ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ (سورة الملك، ٥/٦٧).

[١٠] م: في ظلمات.

[١١] جميع النسخ: فيه.

حيث جعل منافع السماء متصلة بمنافع الأرض مع بعد ما بينهما وجعل أشياء هي في الظاهر أشباهًا وهي في الحقيقة كالأضداد لها. ومنها ما هي في الظاهر أضدادًا وهي كالأشكال، نحو النور والظلمة، هي في الظاهر أضداد صارت كالأشكال حيث يضيء النجوم في ظلمات الليل حتى ينتفع بذلك أهل الأرض. وهما في الظاهر أضداد فصارت بما يظهر من منافعها كالأشكال. فإنه[1] لا ينتفع بضوء النجوم مع نور القمر ولا ينتفع بنور القمر مع ضوء الشمس، وهن أشكال بما يذهب كل واحد منهما بسلطان الآخر، كالأضداد، ليعلم أنه تدبير واحد حيث صارت الأضداد كالأشكال والأشكال كالأضداد في حق المنفعة.

وقوله عز وجل: **وحفظناها**، يعني السماء، **من كل شيطان رجيم**. ذكر أن الشياطين كانوا يصعدون السماء فيستمعون من أخبار السماء من الملائكة مما يكون في الأرض من غيث وغيره. ثم زادوا فيها ما شاءوا فيُلْقون ذلك إلى الكَهَنة، فيخبر الكهنة الناس فيقولون: ألم نخبركم بالمطر في يوم كذا وكذا، وكان حقًا؟ ثم مُنعوا[2] عن صعودهم الى السماء وأمر بحفظ السماء عنهم.[3] فجعلوا يسترقون السمع فسلط الله الشُّهُب عليهم حتى يُقذَفون. وهو قوله:

[٣٩٤و] وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا، / وقوله: فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ.[4]

ويحتمل **وحفظناها**، أي أهلها من الشيطان الرجيم، لما ذكرنا من ذكر أشياء من القرية والمصر والعير وغيره، والمراد منه، أهله.[5] فعلى ذلك هذا. إلا أن أهل السماء بأجمعهم أهل ولاية الله وأهل طاعته. وأما أهل الأرض ففيهم من الغاوين الضالين، فهم أولياء أهل الشيطان،[6] كقوله: إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ،[7] الآية.

[٣٩٤و س٢٨ *وقوله عز وجل: **بروجا**، قال: إثني عشر برجا.[8] وأصل البرج[9] الحصن والقصر.

---

[1] جميع النسخ: وجعل، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.
[2] ك ن + عن ذلك.
[3] جميع النسخ: الى السماء وحفظوا عنهم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٤ظ.
[4] ﴿لا يسمّعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨-١٠)
[5] يشير إلى قوله تعالى: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ (سورة يوسف،١٢/٨٢).
[6] ن: أهل أولياء الشيطان؛ ع: أهل أهل أولياء الشيطان.
[7] ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٩-١٠٠).
[8] ن ع م: بروجا.
[9] ع م: البروج.

وقوله: **وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع**، يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان أو يعلم من أمرها شيئًا إلا استراقا ثم يتبعه شهاب مبين، أي كوكب مضيء. وقال أبو عَوْسَجة: **إلا من استرق السمع**، يقال: استرقتُ السمع، أي تغفلت[١] قومًا حتى سمعت حديثهم وهم لا يعلمون. وهكذا لو علم الملائكة أن الشياطين يسترقون السمع ويختطفون لَمَنَعوا من[٢] ذلك وامتنعوا عن التكلم به حتى لا يستمعون كلامهم وحديثهم. **وشهاب**: كوكب. وقيل: الشهاب[٣] خشبة في طرفها نار. والشُّهْبان جماعة. وقال بعضهم: **شهاب مبين**، لرسول الله كان له خاصة لم يكن قبل.[٤] ***والله أعلم***. * [٣٩٤و س ٣٤]

ويحتمل حفظ السماء نفسها بالملائكة، وهو ما ذكر: وَيُقْذَفُونَ،[٦] الآية. ويحتمل الشُّهُبَ[٧] التي في غير آي من القرآن.[٨]

وقال بعضهم: الرجيم، اللعين. وكذلك ذكر في حرف ابن مسعود: من كل[٩] شيطان لعين. واللعين في اللغة هو المطرود المُبْعَد وهو على ما ذكر: دُحُورًا.[١٠]

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي**، وقال في آية أخرى: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ،[١١] يعني الجبال. في ظاهر هذا أن الأرض كأنها تضطرب وتنكفئ[١٢] بأهلها فأثبتها بالجبال وإلا من طبعها التسفل والانحدار. وكذلك الجبال من طبعها التسفل والانحدار،

---

[١] يقال: تغفلتُه واستغفلتُه،أي تحينتُ غفلته (*لسان العرب*، «غفل»).

[٢] ن ع: عن.

[٣] ن – الشهاب.

[٤] ع م + قبل.

* وقع ما بين النجمتين خلال تفسير الآية التالية فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٤و/سطر ٢٨-٣٤.

[٦] ﴿لا يَسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذَفون من كل جانب دُحورا ولهم عذاب واصب﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨-٩)

[٧] ن ع: بالشهب.

[٨] يشير إلى آيات وردت في هذا السياق، مثل: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٠)، ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا﴾ (سورة الجن، ٧٢/٩).

[٩] ك ع م + من كل.

[١٠] ﴿لا يَسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذَفون من كل جانب دُحورا ولهم عذاب واصب﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٨-٩).

[١١] سورة الأنبياء، ٢١/٣١.

[١٢] انكفأ: مال (*لسان العرب*، «كفأ»).

فكيف كان ثباتها بشيء طبعه التسفل والتسرب[1] إلا أن يقال: إن طبعها كان الاضطراب والانكفاء فأثبتها بالجبال عن الاضطراب والانكفاء. أو أن يقال: من طبعهما ما ذكرنا[2] [من] التسفل والانحدار، إلا أن الله بلطفه أثبت ما هو طبعه التسفل بما[3] هو طبعه كذلك ليعلم لطف الله وقدرته. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم.[4]

وقوله عز وجل: **وأنبتنا فيها من كل شيء موزون**، قال بعضهم: **فيها**، يعني في[5] الجبال، **من كل شيء موزون**، أي ما يوزن من نحو الذهب والفضة والحديد والرصاص ونحوه مما يستخرج منها. وهذا كأنه ليس بصحيح؛ لأنه لا يقال في الذهب والفضة والحديد إنه أُنبت في الأرض كما يقال ذلك لنبات وما ينبت فيها. وإنما يقال للذهب والفضة والحديد: جعلنا[6] فيها أو خلقنا[7] فيها. وقال بعضهم: **وأنبتنا فيها**، يعني في الأرض من كل ألوان النبات، **موزون**، أي معلوم مقدّر بقدر، كقوله: وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ،[8] *ليس على الجزاف على ما يكون من فعل جاهل على غير تدبير ولا تقدير. *والله أعلم*. ويحتمل **وأنبتنا** في الأرض ما يصير موزونا في الآخرة من الحبوب التي تخرج من الزروع. *والله أعلم*.*

ويحتمل قوله: **من كل شيء موزون**، ما لو اجتمع الخلائق لم يعرفوا قدر ما يزداد وينمو من النبات في لحظة واحدة وطرفة عين في أول ما يخرج ويبدو من الأرض، وذلك موزون عنده معلوم قَدرُه، ليعلم لطفه وتدبيره وقدرته وعلمه وأنه تدبير واحدٍ حيث لم يختلف ذلك ولم يتفاوت. *والله أعلم*.[10]

---

[1] ن + ما ذكرنا التسفل.
[2] ع: ما ذكر.
[3] ع م: ما.
[4] انظر: سورة الرعد، الآية ٢.
[5] ك - في.
[6] ن: وجعلنا.
[7] ع: أي خلقنا.
[8] سورة الحجر، ٢١/١٥.
* ما بين النجمتين مأخوذ من *الشرح* ورقة ٤٢٥و، ومن نسخة مدينة ٤٧٩ظ. وفي عبارة جميع النسخ تقديم وتأخير مخل بالمعنى، وهي هكذا: «وأنبتنا فيها بمعنى في الأرض من كل ألوان النبات موزون أي معلوم مقدر بعدد كقوله وما ننزله إلا بقدر معلوم ليس على الجراف على ما يكون من فعل جاهل على غير تدبر ولا تقدير».
[10] وقع هنا مقطعان من تفسير الآيات السابقة برقم ١٤-١٥، وبرقم ١٦-١٨ فقدمناهما إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٩٤و/سطر ٢١-٢٨، و ٢٨-٣٤.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾[٢٠]

وقوله: **وجعلنا لكم فيها معايش**، أي في الأرض والجبال. وقوله عز وجل: **ومن لستم له برازقين**، قال الحسن: أي جعلنا لكم[١] في الأرض معايش: ما تعيشون به ولمن حولكم أيضًا، جَعل فيها معايش لا ترزقونه أنتم، إنما ذلك على الله هو يرزقهم وإياكم. وقال بعضهم: **ومن لستم له برازقين**، الوحوش والطيور.[٢] وأما الأنعام فإنها تَشرَك[٣] البشرَ في المعايش. و[لكن] كان غير هذا أقرب وأوفق، وهو أن أهل مكة كانوا[٤] يمنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: نحن ربّيناه وغَذَّيناه وأنفقنا عليه ورزقناه ثم فعل بنا كذا، فخرج هذا جوابًا لهم: **وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين**، / أي محمدًا. [٣٩٤ظ]

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[٢١]

وقوله عز وجل: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**، يحتمل هذا -والله أعلم- **وإن من شيء** يُخزَن في الخلق **إلا عندنا خزائنه**،[٥] أي إلا عندنا تلك الخزائن، أي ما تخزنون من الأشياء فتلك عندنا وفي خزائننا.

وما ننزله إلا بقدر معلوم، على هذا [التأويل] **وما ننزله**، أي ما نعطيه **إلا بقدر معلوم**، أي وإن كان عندكم مخزونًا محبوسًا فإن ذلك كله في[٦] خزائنه، أعطى من شاء وحرَم من شاء.

ويحتمل قوله: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**، الخزائن هي الأمكنة الخفية التي تُخزن فيها الأموال، والبواطن[٧] من الأرض؛ يقول -والله أعلم- وإن من شيء كان في بواطن الأرض وأمكنة خفية إلا عندنا تدبير ذلك وعلمه. يخبر أن تدبيره وعلمه في الخفيّة من الأمكنة كهو في الظاهر؛ لا يخرج شيء عن تدبيره وعلمه، بل كل ذلك في تدبيره وعلمه.

وقال الحسن: **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه**، أي الماء الذي به جعل[٨] حياة كل شيء

---

[١] ك - لكم.
[٢] ع م: الوحش؛ جميع النسخ: والطير، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٥و.
[٣] جميع النسخ: فإنه قد أشركهم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٥و.
[٤] ن ع م: كأنهم.
[٥] ع - يحتمل هذا والله أعلم وإن من شيء يخزن في الخلق إلا عندنا خزائنه.
[٦] ع م - في.
[٧] جميع النسخ: وبواطن.
[٨] ك: جعل به.

ولا يخرج شيء عن منافعه، فهو خزائن الأشياء كلها، وبه قوام كل شيء.[١] وقال:[٢] ألا ترى أنه قال: **وما ننزله إلا بقدر معلوم**، وذكر الإنزال وهو الذي ينزل من السماء طاهرًا.

هذا الذي قاله محتمل، لكن تمامه أن يقال: إن الماء خِزانة، والخزانة هي الموضع الذي يخزن فيه. وفي الماء قوة ومعنى يكون فيه حياة الخلق ومنافعُهم فيما جُعل فيه لا في نفس الماء. ألا ترى أنه يصيب عروق الشجر فيظهر منافعه في غصونها في أعلاها. فثبت أن فيه قوة سِرِّية ومعنًى يكون المنافع بها لا بنفس الماء. ***والله أعلم بذلك.***

ثم ما ذكر من الخزائن والرياح والماء والمطر وغير ذلك من النعم يذكر على الاحتجاج عليهم؛ لأنه إنما أنشأ هذه الأشياء وخلقها لهؤلاء، لا أنه أنشأها لنفسها. فإذا كان أنشأها لهم فلا يحتمل أن يتركهم سدى:[٣] لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يمتحنهم ولا يجعل لهم عاقبة يثابون ويعاقبون[٤] [عليها]. ولذلك قال في آخره: وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ.[٥]

وقوله عز وجل: **إلا بقدر معلوم**، على التأويل الأول ما ذكرنا، أي ما نعطيه إلا بقدر معلوم وإنْ خَزَنه وحبسه. ويحتمل: **إلا بقدر معلوم**، أي بقدر[٦] سابق معلوم ذلك.[٧] إن[٨] كان على هذا فإنه يدل على أن ما[٩] يكون ويحدث إنما يكون لقدر سابق لا يكون غيرُ ما سبق تقديره. أو **بقدر معلوم**، محدود؛ أي ليس ينزل جُزافا ولكن معلوما محدودا. ***والله أعلم.***

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **وأرسلنا الرياح لواقح**، قال بعضهم: **لواقح**، حوامل. [و]قال بعضهم: هذا لا يصح؛ لو كان على هذا لكان مَلاقِح ومُلقِحات.

قال أبو عَوْسَجة: **لواقح** تُلقح الشجر، أي تُنبت ورقها وهي مُلقِحة. وقال: يقال ناقة لاقح، أي حامل قد حملت؛ ونُوق لواقح. ويقال: وحرب لاقح، أي شديدة. وسحاب لاقح،

---

[١] *تفسير القرطبي*، ١٠/١٤.
[٢] ن – وقال، صح هـ.
[٣] ع م – سُدًى.
[٤] ك ع م: ويعاتبون.
[٥] سورة الحجر، ١٥/٢٥.
[٦] ع م – معلوم أي بقدر.
[٧] ع م + أي.
[٨] ك: و إن؛ م: إذا.
[٩] م – ما.

الذي فيه ماء أي مطر. وريح لاقح، أي مُلقِح تُلقِح[١] الشجر أي تُنبت ورقه وحمْلَه. ويقال: [ريح] يُلقِح.[٢] ويقال: أَلقَح الرجل، إذا لقحتْ إبِلُه، أي حملت، ورجل مُلْقَح.[٣] واللَّقوح، الناقة التي معها ولد صغير، والجمع لِقاح، وجمع الجمع لقائِح. واللُّقَّح اللواقح وهي الحوامل من الإابل.

قال القُتبي: قال أبو عبيدة: لواقح إنما هي مَلاقح، جمع مُلقِحة.[٤] يريد أنها[٥] تُلقِح الشجر وتلقح السحاب كأنها تنتجه.[٦] واللواقح المنتجة الثمارِ من الأشجار والسحاب وغيره. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين**، هو ما ذكرنا على التأويل الأول[٧] في قوله:[٨] وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ.[٩] **وما أنتم له بخازنين**. وعلى تأويل الحسن هو ما ذكر من الماء والمطر، **وما أنتم له بخازنين**، أي حابسين لِما جرى به الذكر من المطر والماء الذي ذكر أنه أنزل من السماء. ويحتمل **وما أنتم له**، أي لله **بخازنين**، أي ليست خزائنه في أيديكم ولا بيد أحد، ولكن بيد الله عز وجل. وعلى تأويل الآخر: **وما أنتم له بخازنين**، بمدبرين ما خُزن في الأرض ودُفن.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾[٢٣]

وقوله عز وجل: **وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون**، أي الباقون. يفني الخلق كله فيبقى هو. ولذلك سُمِّي مَن خلف الميت وارثا، لأنه يموت ويبقى الوارث وهو باق. وكذلك يخرج قوله:[١٠] إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا،[١١] *والله أعلم*.

---

[١] ن ع م: يلقح.
[٢] ك: تلقح.
[٣] ك م: تلقح.
[٤] ن: ملحقة.
[٥] م – أنها.
[٦] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٦.
[٧] ك ع م – الأول.
[٨] ك + في قوله.
[٩] الآية السابقة.
[١٠] ك – قوله.
[١١] ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون﴾ (سورة مريم ١٩/٤٠).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾[٢٤] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين**، قال بعضهم: **ولقد علمنا المستقدمين**، من المكذبين منكم ما حل بهم بالتكذيب، وقد علمنا المستأخرين من المكذبين منكم. وقال بعضهم: ولقد علمنا من كان منهم[1] ومات، وعلمنا المستأخرين من يكون منهم ويولد. ولذلك قال: **وإن ربك هو يحشرهم**، من مضى ومن بقي ولم[2] يكن بعد إلى يوم القيمة. وقال الحسن: **ولقد علمنا المستقدمين منكم**، في الخير والمستأخرين في الشر. وقال بعضهم: في الصف الأول والآخِر، لكنه بعيد.

وقوله عز وجل: **إنه حكيم عليم**، الحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها؛ والثاني هو الذي يجعل الأشياء[3] مواضعها.[4] فالأول قد يعرف الخلق وضعَ الأشياء مواضعها. وأما الثاني فلا يكون ذلك إلا بالله. وقوله: **عليم**، [أي] عليم بمصالح الخلق وما لهم وما عليهم، أو عليم بوضع الأشياء مواضعها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون**، وقال في آية أخرى: [٣٩٥و] خَلَقَكُم مِّن طِينٍ،[5] وقال:[6] مِّن طِينٍ لَّازِبٍ،[7] وقال / في آية أخرى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ،[8] وقال: خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ.[9] ذكر مرة الحمأ المسنون -وقيل: هو الطين الأسود المتغير- وذكر مرةً التراب، ومرة الطين اللازب -وهو الملتزق- ومرة من سلالة الطين. فيشبه أن يكون على الأحوال واختلاف الأوقات؛ كان في حال الأول ترابًا، وفي حال طينا لازبًا،

---

[1] ع: منكم.
[2] جميع النسخ: لم، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٥ظ.
[3] ك ع م: للأشياء.
[4] ع م: موضعها.
[5] ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾ (سورة الأنعام، ٢/٦).
[6] ن + في آية.
[7] ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ (سورة الصافات، ١١/٣٧).
[8] سورة المؤمنون، ١٢/٢٣.
[9] ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

وفي حال حمأً مسنونا، وهو الذي اسوَدّ وتغير لطول مكثه، وصلصالاً وفَخّارا.[١] فقبل أن يكون خلقا مركَّبًا الجوارحُ فيه والعظام كان عليه هذه الأحوال الثلاثة على ما أخبر من تغير أحوال أولاده حيث قال: ﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾،[٢] ذكر فيه أحوالا ثلاثة قبل أن يخلق لحمًا وعَظما، في حال كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة. فعلى ذلك يحتمل ما ذكر في آدم من تراب وطين وحمأ ونحوه أن كان على اختلاف الأحوال على ما ذكرنا، أو أن يكون على التشبيه والتمثيل. ووجه التمثيل بالطين الذي ذكر، وهو أن الطين الذي يكون كالصلصال والفَخّار واللازب ونحوه هو الطين الطيب الذي يكون منه البنيان والأواني والقدور وجميع أنواع المنافع. وأما الطين الذي يَخْبُث فإنه لا يُتخذ منه شيء مما ذكرنا،[٣] ولا يتهيأ اتخاذ شيء من ذلك. فشبه خلق آدم بالطين الذي يجتمع فيه جميع أنواع المنافع. فعلى ذلك جُمع في آدم جميع أنواع المنافع والخير كالطين الطيب. ثم فيه دلالة قدرته وسلطانه وذكرُ نعمه، حيث أخبر أنه خلق آدم من تراب وطين وما ذَكر؛ وليس في التراب ولا في الطين من أثر البشرية شيء؛ وكذلك ليس في النطفة التي خُلق البشر منها [مِن] أثر البشرية[٤] شيء، ليعلم أنه قادر على إنشاء الأشياء من شيء ومن لا شيء. إذ ليس فيما ذكر من الطين والتراب الذي خَلق منه أبا البشر، من أثر البشرية[٥] شيء؛[٦] ولا في النطفة التي خلق منها أولاده من أثر البشرية والإنسانية: من اللحم والعظم والشعر وغيره وما ركب فيهم من العقل والعلم والتدبير والجوارح وغير ذلك شيء؛ ليُعلم قدرته وسلطانه على خلق الأشياء لا من شيء وليَعرفوا نعمه التي أنعمها عليهم، حيث أخبر أنه خلق آدم من طين لازب وصلصال وما ذكر. وذلك[٧] وصف الطين الطيب، لأن ما خبث من الطين لا يبلغ المبلغ الذي وصفه[٨] ولا يصير إلى تلك الحال، وإن طال مكثه، لأنه لا يُنتفع به لا من اتخاذ البنيان والأواني والقدور ولا يُنبت الزروع أيضًا. فيحتمل على التمثيل الذي ذكرنا،

---

[١] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ (سورة الرحمن، ١٤/٥٥).

[٢] ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين﴾ (سورة الحج، ٥/٢٢).

[٣] ع م + ولا يتخذ.

[٤] ن + فيه.

[٥] جميع النسخ + فيه.

[٦] ك – شيء؛ ن – ليعلم أنه قادر على إنشاء الأشياء من شيء ومن لاشيء. إذ ليس فيما ذكر من الطين والتراب الذي تخلق منه أبا البشر من أثر البشرية شيء.

[٧] ن: ولذلك.

[٨] ك ن: وصف.

لا على التحقيق أو على التحقيق على الأحوال المختلفة. فدل أنه إنما خلقه من طين طاب أصله، فعلى ذلك يحتمل النطفة التي يخلق منها البشر تكون طاهرة وهي لا تصيب شيئًا وهي على غير الوصف الذي[1] يخرج، لأنه قال: مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ،[2] وقال: مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ.[3]

والصلصال، قال بعضهم: هو التراب اليابس. والحمأ الطين الأسود. والمسنون المُنتِن المتغير.[4] وقال بعضهم: الصلصال هو الذي إذا ضربته تَصَوَّت، ومنه يقال: صلصلة اللجام والفرس، إذا كان يصلصل. وهو قول ابن عباس رضي الله عنه.

وقال القُتبي: الصلصال الطين اليابس الذي لا يصيبه النار فإذا نقرته صوّت، فإذا مَسَّتْه النار فهو فَخَّار. والمسنون، المتغير الرائحةِ، والمسنون أيضًا المصبوب. وسَنَنت الشيءَ، إذا صببته صبا سهلا. وسُنّ الماءُ على وجهك، وهو قول القُتبي.[5]

وقال أبو عَوْسَجة: **من حمأ مسنون**، الحمأ التراب الأسود يكون في أسفل البئر، ومن هذا سمي الحمأَ،[6] لأنه يحمي [من] أن يرعي، ويقال: حَمِيت الحربُ والشمس، والتنّور يحمَي إذا أشتد حرُّه. **ومسنون**، أي مخلوق. وقال الحسن: المسنون، الذي سُنّ عليه خِلقة الخَلق، يعني [سن] أولاده على خِلقته،[7] أي على خلقته خلق الخلق، وأمثال هذا. ***والله أعلم بذلك.***

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[٢٧]

وقوله عز وجل: **والجان خلقناه من قبل من نار السموم**، قال بعضهم: **الجان** هو إبليس. وقال[8] بعضهم: **الجان** هو أبو الجن، وإبليس هو أبو الشياطين. سُمُّوا شياطينَ لتمردهم في فعلهم، وذلك[9] مقتدر من فعلهم. ألا ترى أنه ذكر من الإنس والجن شياطين، وهو قوله: شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ،[10] وذلك لتمردهم. والجان مقتدر من[11] الجن. ***والله أعلم بذلك.***

[1] ع م – الذي.
[2] ﴿فلينظر الإنسان مم خُلق. خلق من ماء دافق﴾ (سورة الطارق، ٨٦/٥-٦).
[3] ﴿ ثم جَعَل نسله من سلالة من ماء مَهين﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٨).
[4] ك: المتغير المنتن.
[5] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٧-٢٣٨.
[6] ك: الحمى.
[7] ك م: خلقة. «فهو سنة للخلق من بعده من ذريته» (*شرح التأويلات*، ورقة ٤٢٦و).
[8] ع م: قال.
[9] ك – ذلك؛ ن ع م: ذلك؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.
[10] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٢).
[11] جميع النسخ: عن، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.

والسّموم، قال بعضهم: السموم[١] لهب النار[٢] وليس له دخان، وهو المارج من نار. والمارج هو المنقطع منها. وقال بعضهم: هو[٣] من جنس النار، كأنه أراد لهبها. وقال [بعضهم]:[٤] **نارِ السموم،** الحارة التي تقتل. فإن كان السموم -والمارج ما ذكر بعضهم أنه لهب النار- فمِن طبعه الارتفاع والعلوّ. فعلى ذلك ما خلق منه طبعه الارتفاع والعلو، وهو الجان الذي ذكر. والطين طبعه التسفل[٥] والانحدار إلى الأرض. فعلى ذلك ما خلق منه طبعه الهُوِيّ إلى الأرض والميل إليها.

والجانّ، قال[٦] أبو عَوْسَجة: الجن واحد الجان، والجمع جان؛ سمي بذلك[٧] لاستجنانه. وقال غيره: الجن الجماعة والجان الواحد.

[٣٩٥ظ س١٦ *وقال الحسن:[٨] في قوله: **من صلصال من حمأ مسنون،** قال: الصلصال هو الطين الحار[٩] الذي يتصلصل من صلابته ويبوسته. والحمأ الطين. والمسنون، قال: مسنون خِلْقتُه فهو سنّة للخلق بعده من ذريته أن يُخلقوا على خلقته. وقال في قوله:[١٠] وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ،[١١] يقول: استلَّها من بين ظَهْراني الطين، لا من كل طين خلقه. وكذلك قال في تناسل ذريته، وهو قوله: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ،[١٢] ليس من كل ما خلقه، ولكن استلها من بين ظهراني الماء. وقال: الجان إبليس هو أبو الجن. **خلقناه من قبل،** أي من قبل آدم، **من نار السموم.** يقول: السموم،[١٣] هو اسم من أسماء جهنم، ولها أسماء كثيرة. أخبر أنه خلقه من نار السموم، أي جهنم. ***والله أعلم.*** * ٣٩٥ظ س٢٢]

---

[١] ك ع م – هو.
[٢] ك م + كأنه.
[٣] ن + هو.
[٤] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.
[٥] م: السفل.
[٦] ع: وقال.
[٧] جميع النسخ: ذلك
[٨] ع – وقال الحسن.
[٩] جميع النسخ: الحر.
[١٠] جميع النسخ: وكقوله. والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.
[١١] سورة المؤمنون، ١٢/٢٣.
[١٢] سورة المؤمنون، ١٢/٢٣.
[١٣] ن – يقول السموم.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٩٥ظ/سطر ١٦-٢٢.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[٢٨] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون فإذا**

[٣٩٥ظ] **سويته**، أي أتممته **ونفخت فيه / من روحي**، وقال في آية أخرى: فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا؛[1] لم يشتبه هذا على الناس و لم يفهموا من قوله: **ونفخت فيه من روحي**، ونَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا،[2] ما فهموا من نفخ الخلق. فما بالهم فهموا من قوله: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ،[3] واسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ،[4] ونحوه استواءَ الخلق، بل فَهْم نفخه[5] من فهم نفخ الخلق أقرب[6] من استوائه،[7] لأنه أمكن صرف الاستواء إلى وجوه ولا يمكن صرف النفخ[8] [إلا إلى وجه واحد]. لكنه اشتبه عليهم لأنهم اقتدروا[9] فعل الله بفعل الخلق، ولا يجب أن يقتدروا بالخلق على ما لم يقتدروا في قوله: حدود الله،[10] وحكم الله،[11] وعباد الله،[12] وخلق الله،[13] وأمثاله. وقد أخبر أنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.[14] أو [هو] تلقين من الشيطان.

وقوله: **من روحي**، ورُوحِنَا،[15] أي الروح الذي به حياة الخلق، أي [من] خلقي[16] الذي يكون به حياة الخلق على ما ذكرنا.[17]

---

[1] ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ (سورة التحريم، ١٢/٦٦).

[2] ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (سورة الأنبياء، ٩١/٢١).

[3] ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ (سورة الأعراف، ٥٤/٧).

[4] ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها﴾ (سورة فصلت، ١١/٤١).

[5] ن: نفخته.

[6] جميع النسخ: أكثر، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.

[7] أي فهم نفخ الله تعالى على نحو نفخ المخلوق أقرب وأسهل من فهم استوائه تعالى على نحو استواء المخلوق.

[8] جميع النسخ + فيه. والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.

[9] قدر الشيء بالشيء: قاسه. واقتدر أيضا بمعنى قدر (*لسان العرب*، «قدر»).

[10] ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ (سورة البقرة، ٢٢٩/٢).

[11] ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ (سورة الممتحنة، ١٠/٦٠).

[12] ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ (سورة الإنسان، ٦/٧٦).

[13] ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

[14] سورة الشورى، ١١/٤٢.

[15] سورة الأنبياء، ٩٢/٢١.

[16] ع م: خلق.

[17] «لكن أضافه إلى نفسه لأنه خلقه كسائر الخلائق فأضافه إلى نفسه من باب الكرامة، كقوله: ﴿ناقة الله﴾ [سورة الأعراف، ٧٣/٧] وقوله: ﴿أن طهرا بيتي﴾ [سورة البقرة، ١٢٥/٢] ونحو ذلك» ما (*شرح التأويلات*، ورقة ٤٢٦و).

وقوله عز وجل: **فقعوا له ساجدين**، يحتمل أن يكون [صلة] قوله: [**إني**] **خالق بشرًا**، مما ذكر أخبر [لهم][1] أنه سيفعل وأمرهم[2] بالسجود؛ فيكون الأمر بالسجود بعد[3] خلقه إياه. فهذا يدل أنه قد يجوز تقدم الأمر على[4] وقت الفعل. *والله أعلم*.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٣٠] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[٣١]

وقوله عز وجل: **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**، ظاهر الأمر بالسجود، والاستثناء الذي ذكر يدل أن إبليس من الملائكة، لأن فيهم كان الأمر بالسجود ومنهم وقع الثُّنيا. وقد ذكرنا اختلافهم وأقاويلهم فيما تقدم مقدار ما حفظناه.[5] والأصل بأن كل ما خرج مخرج الاستثناء يجب[6] أن يُسقط[7] اسم ما أجمل، نحو قول الرجل لآخر:[8] "لك عليّ عشرة إلا درهما"[9] يُسقط الاستثناءُ اسم[10] ما أجمل من الاسم حتى صار[11] تسعة. وكذلك إذا قال: "ألفٌ إلا خمسين." وإذا لم يسقط ذلك الاسم فلا بد أن يكون الكل فيه مضمرًا، نحو قول الرجل: "رأيت[12] علماء بلدة كذا إلا فلانًا"، يجب أن يضمر فيه حرف الكل حتى يقع على كل، نحو أن يقول: "رأيت كل علماء بلدة كذا إلا فلانًا"، فعلى ذلك تخصيص العموم.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[٣٢] ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[٣٣]

وقوله عز وجل: **إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون**، وقال في موضع آخر: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ.[13]

---

[1] جميع النسخ: خبر. والتصحيح والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٦و.
[2] جميع النسخ: وأمر لهم.
[3] جميع النسخ: بعد ما.
[4] جميع النسخ: عن.
[5] جميع النسخ: +قال. انظر: سورة البقرة، ٣٤/٢، وسورة الأعراف، ١١/٧.
[6] جميع النسخ: فيجب.
[7] ن ع م: أن تسقط.
[8] ن - لآخر.
[9] جميع النسخ: درهم.
[10] ن ع م - إسم.
[11] ك - صار.
[12] ن: ما رأيت.
[13] ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ (سورة البقرة، ٣٤/٢).

وقال له: يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ،[١] وقال في موضع آخر: مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ،[٢] وقال في موضع آخر: مَا مَنَعَكَ أنْ[٣] تَسْجُدَ،[٤] وقال في موضع آخر: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ،[٥] ذكر مثل هذا على اختلاف الألفاظ. ومعلوم أن هذه المخاطبات معه لم تكن[٦] مرارًا ولكن بمرة واحدة.

وقال أبو بكر الأصم: ذكر الله قصة إبليس وقصة الأنبياء جميعًا في مواضع على اختلاف الألفاظ، لأنها كذلك كانت في كتبهم، فذكرها على ما في كتبهم، ليعلموا أن نبي الله إنما عرف ذلك بالله ليدلهم على صدقه. وفيه دلالة أن اختلاف الألفاظ وتغيرها[٧] لا يوجب اختلاف الحكم بعد أن لا يُغيِّر المعنى. فهذا يدل أن الخبر إذا أدي معناه على اختلاف لفظه فإنه يجوز. وكذلك إذا قَرأه[٨] بغير اللسان الذي أنزل فإنه يجوز إذا أتي بمعناه. ***والله أعلم***.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[٣٤]

وقوله عز وجل: **قال فاخرج منها فإنك رجيم**، قوله: **فاخرج منها**، قال بعضهم: اخرج من السماء إلى الأرض؛ وقال بعضهم: اخرج من الأرض إلى جزائر البحر وقال بعضهم: اخرج من الجنة وأمثاله؛ أو اخرج من صورة الملائكة إلى صورة الأبَالِسة. وجائز أن يقال: اخرج من كذا، أي تحول من مكان كذا إلى مكان كذا، على غير حقيقة الخروج. ولسنا ندري كيف كان ذلك.[٩]

وقوله **رجيم**، قيل: الرجيم: الملعون، وقيل: الرجيم ما يرجم بالكواكب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[٣٥]

وقوله عز وجل: **وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين**، اللعنة هي الطرد في اللغة، والخذلان. طرد عن رحمة الله إلى يوم الدين حتى لا يهتدي إلى دين الله وهداه. ثم يومَ الدين له العذاب الدائم واللعنة القائمة.

---

[١] سورة الحجر، ٣٢/١٥.
[٢] ع م – وقال في موضع آخر ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك. سورة الأعراف، ١٢/٧.
[٣] ن: ألا.
[٤] ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾ (سورة ص، ٧٥/٣٨).
[٥] ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ (سورة الأعراف ١٢/٧؛ وسورة ص، ٧٦/٣٨).
[٦] جميع النسخ + معه.
[٧] جميع النسخ: وتغييرها، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦ظ.
[٨] ك م: إذا قرأ؛ ع: إذا قرء.
[٩] ن ع م: كذلك.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣٦]

وقوله عز وجل: **قال رب فانظرني إلي يوم يبعثون**،[١] لعن اللعين وطرد عن رحمة الله إلى يوم الدين، أي لا تدركه[٢] الهداية، لأن الهداية في الدنيا إنما تدركه[٣] برحمته، والرحمة في الآخرة هي العفو عما لزمه ووجب عليه.

مسألة تكلموا فيها. ما الحكمة في خلق الله تعالى إبليس مع علمه ما يكون من إفساد[٤] خلقه والدعاء إلى المعاصي، وإنظارِه إلى يوم الوقت المعلوم وقد علم أنه إنما ينظره ليفسد عباده، فمع ما علم ما يكون منه فما الحكمة في خلقه؟

قال بعضهم: خلق إبليس وأهل المعاصي مع علمه ذلك ليُعلم أنه لم يخلق لمنافع نفسه ولا لحاجة نفسه وأن معاصيه / لا تضره ولا تدخل نقصانًا في ملكه؛ فخلقه مع علمه بما يكون [٣٩٦و] منه ليعلم أنه لم يخلق الخلق لمنافع[٥] نفسه ولا لحاجته ولكن لمنافع أنفسهم ولحاجاتهم. وقال بعضهم: خلق الأعداء والأولياء نظرا للأولياء، ليعلم أولياؤه الاختصاص الذي اختصهم به، ولو كانوا جميعًا أولياءه لم يعرفوا[٦] فضيلة الله واختصاصه إياهم. وهكذا النعم وإحسان الله لا تعرف[٧] بنفس النعم ونفس الإحسان، وإنما تعرف[٨] بالبلايا والشدائد التي تحل. فعلى ذلك الأولياء، لو لم يكن الأعداء لم يعرفوا اختصاص الله لهم وفضائله التي أكرمهم بها.[٩]

وأصله أن الله عز وجل جائز أن ينشئ أشياء فيها حكمة وسريّة لا يبلغها علم الخلق ولا يدركها حكمة البشر، على ما جعل النعم الظاهرة فيها حكمة ومعنى[١٠] لا يبلغها[١١] علم الخلق ولا حكمة البشر. وكذلك البلايا والشدائد، فيها حكمة لا يبلغها علم الخلق.

[١] جميع النسخ + قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهي الآية التالية.
[٢] ن ع: لا يدركه.
[٣] ن ع م: يدركه.
[٤] ك ن ع: منه من إفساد.
[٥] م – لمنافع.
[٦] ك: لم يعلموا.
[٧] ن ع م: لا يعرف.
[٨] جميع النسخ: وإنما يعرف.
[٩] في نسخة ك وَ ن بياض قدر ربع سطر. جميع النسخ + وقال بعضهم خلق الأعداء نظرا للأولياء على ما ذكرنا، لكن من وجه آخر. لعل هذه العبارة زائدة، ولا توجد في *الشرح*. انظر: ورقة ٤٢٦ظ، ونسخة مدينة ٤١٨ظ.
[١٠] جميع النسخ: معنى.
[١١] جميع النسخ: لا يبلغه.

فعلى ذلك جائز أنه خلق إبليس والعصاة والغواة لحكمة[1] [له] في ذلك[2] لا يبلغها علم الخلق ولا يدركها حكمة البشر على ما ذكرنا من النعمة الظاهرة والشدائد الظاهرة. والأصل[3] أن الله تعالى خلق الخلق على علم منه أنهم يعصون ويعادون، لكن كان لهم من الاختيار والإيثار ما به نجاتهم وهلاكهم إذا اختاروا ذلك. فإذا اختاروا ما به نجاتهم نجوا، وإذا اختاروا ما به هلاكهم هلكوا. فيكون هلاكهم باختيارهم ونجاتُهم باختيارهم.[4] وأصله ما ذكرنا في غير موضع أنه أنشأهم في هذه الدنيا ليمتحنهم فيها، فخلق[5] ما ذكر من إبليس وغيره من الأعداء ليتم لهم المحنة، وفي ترك خلق ذلك ذهاب المحنة، وهي دار الامتحان.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[٣٧] ﴿إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**، قال بعض أهل التأويل: إلى النفخة الأولى، وقيل: إلى النفخة الثانية ونحوه، لكنا لا نعلم ذلك. وكأنه تعالى أنظره إلى الوقت المعلوم ولم يبين له ذلك الوقت ولم يُطلعه عليه، حيث قال: وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ، الآية،[6] أخبر أنه يرى ما لا يرون هم وأنه يخاف الله. ولو كان بين له الوقت المعلوم لكان لا يخاف هلاكه قبل ذلك الوقت. فهذا يدل على[7] ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣٩]

وقوله عز وجل: **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض**، قال الحسن: قوله: **بما أغويتني**، أي لعنتَني. وهذا منه احتيال وفرار عن مذهب الاعتزال. وما يلزمهم في قوله: **أغويتني**، يلزم في قوله: لعنتني، لأن اللعن هو الطرد فإذا طرده عن رحمته فقد خذله في الطرد. والإغواء والاضلال سواء فيلزم في اللعن ما يلزمهم في الإغواء. وقال أبو بكر الأصم: الإغواء واللعن من الله شَتم. لكن هذا بعيد، [إذ] لا يجوز أن يضاف إلى الله الشتم [وأن يقال]: إنه يشتم؛[8]

---

[1] جميع النسخ + جعل.
[2] جميع النسخ + حكمة.
[3] جميع النسخ: وأصله، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦ظ.
[4] ع – ونجاتُهم باختيارهم.
[5] جميع النسخ: وفي خلق، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٦ظ.
[6] ﴿وإذ زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ (سورة الأنفال، ٨/ ٤٨).
[7] ك ن – علي.
[8] م: شتم.

لأن الشاتم والساب لآخر في الشاهد[١] مذموم عند الخلق. فلا يجوز أن يضاف إلى الله ما به يُذم. وأصله أن قوله: **رَبّ بما أغويتني**، يحتمل أنه خلق فعل الغواية منه، أو أغواه لما علم أنه يختار الغواية والضلال.

وقوله: **رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**، كأنه يقول: رب بما أغويتني لأزيدنّ لهم في الغواية بما يغويهم.[٢] وقد ذكرنا هذا وأمثاله فيما تقدم.[٣]

فإن قيل: قوله: **أغويتني**، قول إبليس وهو كاذب بالإضافة إليه.

قيل: لو كان فيما أضاف إليه الإغواء كاذبًا لكذّبه فيه وورد عليه قوله، كما كذبه في قوله وردّ عليه: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن كذا وَخَلَقْتَهُ مِن كذا،[٤] حيث قال:[٥] قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا،[٦] فلما لم يردّ عليه ولم يكذبه فيما أضاف إليه حرف الإغواء، دل أن إضافة الإغواء إليه[٧] والإضلال حقيقة. أو أن يكون قوله: خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ، إنما ذلك منه ذكْرُ فضلِه وإحسانه، حيث أخبر أنه خلقه مما هو أفضل وأعظم مما خلق آدم فيخرج ذلك منه[٨] مخرج الشكر. وأما قوله: **[بما] أغويتني**، ليس على ذلك، فلا يحتمل أن لا يكذبه ولا يرد عليه قوله إذا كان كاذبًا فيه، لأنه فِعلُ شرٍ أضافه إليه إذا لم يكن منه الإغواء، لذلك اختلفا. أو لو كان قول إبليس -لعنه الله- كذبًا فما تصنعون بقول نوح عليه السلام حيث قال:[٩] إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ،[١٠] وقال موسى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ.[١١]

---

[١] جميع النسخ: بما يشتمه.
[٢] جميع النسخ: بما أغويهم.
[٣] انظر: سورة الأعراف، ١٦/٧.
[٤] ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ (سورة، ص ٧٦/٣٨).
[٥] ع م – قال.
[٦] ﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾ (سورة الأعراف، ٧/ ١٣).
[٧] ن ع م: الإضافة إليه الإغواء.
[٨] ع م – منه.
[٩] ن – حيث قال.
[١٠] ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾ (سورة يونس، ٣٤/١٠).
[١١] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (سورة الصف، ٥/٦١).

ثم قوله: **رب بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغوينهم أجمعين**،[1] يحتمل أن يكون منه عزم على ما ذكر دون أن تَفَوَّه بذلك، فأخبر عز وجل عنه ما كان عَزَمَ من الإغواء وغيره بالقول، وذلك جائز [أن] يخبر عن العزم والقصد، كقوله: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا،[2] لا يحتمل أن يكون هذا القول الذي أخبر عنهم قولا منهم، لأنه لا أحد من المتصدقين يقول بمثل ذلك عند التصدق، لكنه إخبار عما قصدوا وعزموا[3] بالتصدق. فعلى ذلك يشبه أن يكون هذا من الله إخبارًا عما عزم إبليس وقصد على غير التفوه به. و"القول"[4] وهو كما[5] ذكر: وَأَعْلَمُ[6] مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ،[7] أخبر أنهم[8] كتموا فيه وأضمروا. ويحتمل أن يكون على التفوّه بما ذكر؛ قال ذلك لما قال عز وجل: وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ،[9] لما شهد الله عليه باللعن إلى يوم الدين أيِس[10] -لعنه الله- عن الهدى، فقال: **رب بما أغويتني**، أي لعنتني وشهدت عليّ بذلك، **لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين**.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٤٠]

[٣٩٦ظ] / **إلا عبادك منهم المخلصين**، المخلِص، بخفض اللام، هو الذي أخلص له الاعتقاد والعمل والوفاء، والمخلَص، بنصب اللام، هو الذي أخلصه الله وحفظه وعصمه واختصه بذلك. والمخلَص لا يقال إلا بعد أن يكون لله فيهم[11] صنع ولهم اختصاص وفضائل اختصهم بذلك برحمة الله وفضله. والمعتزلة يقولون: لا يستوجب أحد الاختصاص والفضيلة إلا بفعل يكون منه، لا يستوجب بالله.

---

[1] جميع النسخ + إلا عبادك منهم المخلصين.
[2] سورة الإنسان، ٧٦/٩.
[3] ك: عزموا و قصدوا.
[4] أي مادة القول في صدر الآية، وهي: ﴿قال رب بما أغويتني﴾.
[5] جميع النسخ: ما.
[6] جميع النسخ: والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.
[7] ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٣).
[8] أي الملائكة.
[9] سورة الحجر، ١٥/٣٥.
[10] ن: آيس.
[11] م: فهم.

ويقولون:[١] [إن] الله لا يغوى أحدًا إلا إبليس ولا أحدًا[٢] من أتباعه. فإبليس أعرف بالله من المعتزلة حيث رأوا أن الله لا يغوى أحدًا ولا يختص أحدًا إلا بصنع يكون منه.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[٤١]

وقوله عز وجل: **هذا صراط على مستقيم**، قال بعضهم: قوله: **عَلَيَّ**، بمعنى إِلَيَّ، أي إِلَيَّ صراط مستقيم، يقول: هو بيدي ليس بيد أحد. وقال بعضهم: [**هذا صراط على مستقيم**، [أي]][٣] الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يُعْوَج عليه شيء.[٤] ويحتمل قوله. **عَلَيَّ مستقيم**، أي **عَلَيَّ** بيانه وهو مستقيم، كقوله: وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ،[٥] أي بيان قصد السبيل. وقال بعضهم: لما قال إبليس: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ،[٦] قال الله تعالى: **هذا صراط على مستقيم**. يقول: عَلَيَّ[٧] مَمَرّ من أغويته و[مَن] تابَعَك، كقولك[٨] لآخر إذا أوعدته: إن طريقك عَلَيَّ.
والله أعلم.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ[٤٢]

وقوله عز وجل: **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**، يحتمل قوله: **ليس لك عليهم سلطان**، أي ليس لك عليهم حجة، **إلا من اتبعك من الغاوين**، فإنهم يتبعونك بلا حجة ولا برهان. ويحتمل قوله: **ليس لك عليهم سلطان**، تقهرهم وتضطرهم على ذلك، **إلا من اتبعك من الغاوين**، فإنهم يتبعونك على غير قهر واضطرار، أي من كان في علم الله أن يتبعك ويختار الغواية، وإن لم يكن إغواؤك[٩] إياه، فإن لك عليه سلطانا.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤٣]

وقوله: **وإن جهنم لموعدهم أجمعين**، أي لموعد إبليس وأتباعه.

---

[١] ن ع م: يقولون.
[٢] ع م: ولا واحدًا.
[٣] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٧و.
[٤] جميع النسخ: على شيء، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٧و.
[٥] ﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ (سورة النحل، ١٦/٩).
[٦] سورة الحجر، ١٥/٣٩.
[٧] م – على.
[٨] ع م: كقوله.
[٩] جميع النسخ. إغواك.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[٤٤]

وقوله عز وجل: **لها سبعة أبواب**، يحتمل الأبواب المعروفة، ويحتمل الأبوابُ المواردَ والجهات التي تكون لها. ألا ترى أنه قال: **لكل باب منهم جزء مقسوم**، فهذا يدل أن المراد بالأبواب الموارد[١] والدركات لا نفس الأبواب، إذ **جزء مقسوم** إنما يكون للدركات، لا يكون للأبواب نفسها.

قال الحسن والأصم: **لها سبعة أبواب**، يعنون بالأبواب الطبقات والدركات. **لكل باب منهم جزء مقسوم**، لليهود باب وللنصارى باب وللمجوس باب وللذين أشركوا باب وللمنافقين[٢] باب ولأهل الكبائر باب. وذكرا[٣] أيضًا بابًا لفريق أدخلا[٤] أهل الكبائر فيه[٥] والصابئين والدهرية.

وعندنا أن ظاهر الآية في الكافرين، لأنه قال: لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ،[٦] والغاوون هم الكافرون، وكذلك قوله: وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ.[٧] فإذا كان كذلك فالأبواب السبعة[١٢] التي ذكر كلها لأهل الكفر لا يدخل أهل الكبائر فيها.[٨] ويحتمل باب للمتجاهلة وهم الذين ينكرون العالم: الشاهد والغائب لا يقرون بشيء، وباب للدهرية وهم الذين[٩] ينكرون الصانع، وباب للثنوية وهم الذين يقولون بالاثنين، وباب للذين أشركوا وهم يقولون بالواحد؛ لكنهم يشركون فيه غيره [و]يعبدون الأصنام والأوثان، وباب لليهود، وباب للنصارى، وباب للمنافقين. فذلك سبعة أبواب وليس لأهل الكبائر باب مسمي معلوم إنما ذلك كله لأهل الكفر.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[٤٥]

وقوله عز وجل: **إن المتقين في جنات وعيون**، إن دخل[١٠] أهل الكبائر في قوله: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ،[١١] فيكون قوله: **إن المتقين**، [هم] الذين اتقوا الكبائر، وإن كان أصحاب الكبائر لم يدخلوا في قوله: لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، فيكون قوله: **إن المتقين**، [هم] الذين اتقوا الشرك.

---

[١] م: الوارد.
[٢] م: وللمنافق.
[٣] ن ع م:وذكر، والتصحيح من *الشرح* ورقة ٤٢٧و.
[٤] جميع النسخ: أدخلوا، والتصحيح من *الشرح*.
[٥] جميع النسخ: فيها، والتصحيح من *الشرح*.
[٦] سورة الحجر، ٤٢/١٥.
[٧] سورة الحجر، ٣٩/١٥.
[٨] جميع النسخ: فيه.
[٩] ن – الذين.
[١٠] جميع النسخ: إن كان؛ والتصحيح من *الشرح* ورقة ٤٢٧و.
[١١] الآية السابقة. [١٢] جميع النسخ: فالسبعة الأبواب.

وقوله عز وجل: **في جنات**، أي في بساتين.[١] والبساتين هي التي التفت بالأشجار والنخيل والعيون، قد تكون جارية في الدنيا وقد تكون غير[٢] جارية. فأخبر في آية أخرى أن عيون الآخرة تكون جارية بقوله: فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ.[٣] **وعيونٍ**، قال بعضهم: ذكر العيون ليعلم أن مياه الجنة ليست تكون من الثلوج والأنهار العظام على ما تكون[٤] في الدنيا ولكن تنبع فيها. وقال بعضهم: ذكر العيون لأنه ينبع في بستان كل أحد عين[٥] على حدة، لا يأتي بستانه من ملك آخر ومن بستان آخر على ما يكون في الدنيا، ولكن تنبع في جنة كل أحد عين على حِدَة، على ما أراد الله. ليس إنها تتصل بالأرض كما ذكر في قصة بني إسرائل: فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا؛[٦] إن شاء الله[٧] في ذلك الحجر ماء يخرج لهم على غير اتصاله بالأرض، ولكن بلطفه ينشئ فيه ماء، فعلى ذلك في الجنان التي وعد.

ويشبه أن يكون ذِكْر هذا لما يختلف رغائب الناس في الدنيا، منهم من يرغب في العين[٨] ويتلذذ بالنظر إليها، ومنهم من يرغب في النهر الجاري. فذكر مرة العيون ومرة الأنهار، كقوله: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.[٩] على ما ذكر مرة الخيام والقِباب [ومرة] الغُرَف وأنواع الفُرُش والبُسُط والكِيزان والأكواب والجواري والغلمان وغيرَ ذلك على ما يرغب الناس في الدنيا؛ منهم من يرغب في نوع [و]لا يرغب في نوع[١٠] آخر فذكر فيها كل ما[١١] يرغبون في الدنيا ليبعثهم ذلك على العمل الذي به[١٢] يوصل إلى ذلك. ***والله أعلم***.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾[٤٦]

وقوله عز وجل: **ادخلوها بسلام آمنين**، قال بعضهم: قوله: **ادخلوها بسلام**، أي اجعلوا دخولكم فيها بسلام، على ما أمرهم في الدنيا أن يجعلوا الدخول في المنازل بالسلام،[١٣]

---

[١] ع م: أي بساتين.
[٢] ع: - غير.
[٣] سورة الرحمن، ٥٥/٥٠.
[٤] ك ن ع: يكون.
[٥] ك ن ع+عين.
[٦] ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ (سورة البقرة، ٢/٦٠).
[٧] ع م: ان الله.
[٨] ن ع م: في الدين.
[٩] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٢٥.
[١٠] ع م - لا يرغب في نوع.
[١١] ن ع م - ما.
[١٢] م - به.
[١٣] ع م - بالسلام.

كقوله: فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً،[1] الآية، وعلى ما أخبر أن الملائكة يسلمون
[٣٩٧و] عليهم كقوله: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ / طِبْتُمْ،[2] وكقوله: وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا.[3] وقال بعضهم قوله: **أدخلوها بسلام آمنين**، أي أدخلوها بسلام لا يصيبكم مكروه، **آمنين**، لا ينغّصكم[4] خوف ولأحزن على ما أخبر: لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.[5]

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[٤٧]

وقوله عز وجل: **ونزعنا ما في صدورهم من غل**، قال بعضهم: هو صلة قوله: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ،[6] أي نزعنا ما في صدورهم من الغل[7] الذي كان في الدنيا بالكفر، فصاروا إخوانًا بالإسلام الذي هداهم الله إليه فكانوا إخوانًا. ثم قيل لهم: أدخلوا الجنة بلا غل، وهو ما قال: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا،[8] قد نزع من قلوبهم الغل في الدنيا فصاروا إخوانا فدخلوا الجنة. وقال بعضهم: قوله: **ونزعنا ما في صدورهم من غل**، في الآخرة إذا دخلوا الجنة وتقابلوا واتّكئوا على سرر، فعند ذلك ينزع الغل من قلوبهم والمظالم التي كانت بينهم. فإن كان هذا فهو بين أهل الإسلام. وعلى ذلك يحتمل أن يكون كل[9] من جفا آخر في الدنيا أن يُنسي الله ذلك منهم في الجنة، لأن ذكر الجفاء ينغّص النعم التي فيها. وكذلك ما يكون بين الرجل وولده من الجفاء والعقوق يجوز أن ينسي [الله] ذلك عليهم. وعلى ذلك ما روي عن علي رضي الله عنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين[10] قال الله [فيهم]: **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين**.[11]

---

[1] ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ (سورة النور، ٦١/٢٤).

[2] ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ (سورة الزمر، ٧٣/٣٩).

[3] سورة الحجر، ٥٢/١٥.

[4] جميع النسخ: ينغصهم.

[5] ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (سورة يونس، ٦٢/١٠)؛ ك ع م + وقال بعضهم.

[6] سورة الحجر، ٤٥/١٥.

[7] جميع النسخ: غل، والتصحيح من *الشرح* ورقة ٤٢٧ظ.

[8] ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ (سورة آل عمران، ١٠٣/٣).

[9] ع م – كل.

[10] ع م – من الذين.

[11] انظر: *تفسير الطبري*، ٣٧/١٤؛ و*تفسير القرطبي*، ٢٠٨/٧.

وقوله: **متقابلين،**[١] قال بعضهم: يجعل الله منازلهم بعضها مقابل بعض فينظر بعضهم إلى بعض[٢] ويزور بعضهم بعضا.وقال بعضهم: يأمر الله السرر التي هم عليها جُلوس ليكون بعضها مقابل بعض إذا اشتهى بعضهم زيارة بعض، ولا يكونون مدبرين ولا معرضين بل مقبلين. يخبر عن اجتماعهم في الآخرة في الشراب وأنواع المطاعم على ما يستحسن في الدنيا الإخوان بينهم الاجتماعَ على الشراب والطعام والتلذذ والنظرَ بعضهم إلى بعض، فعلى ذلك أخبر أن لهم في الآخرة كذلك اجتماع في الشراب والنظر[٣] وأنواع التلذذ. ***والله أعلم.***

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٤٨]

وقوله عز وجل: **لا يمسهم فيها نصب،** أي عناء ومشقة، أخبر أنه لا عَناء يمسهم كما يكون في الدنيا، لأن في الدنيا[٤] من أطال المُقام في موضع يَمَلّ عن ذلك ويسأم. وكذلك إذا[٥] أكثر من نوع[٦] الطعام أو الشراب أو الفاكهة يمل عن ذلك ويسأم ويؤذيه ولا يوافقه. فأخبر أن أهل الجنة لا يملون ولا يؤذيهم طعامها[٧] وإن أكثروا.

وقوله عز وجل: **وما هم منها بمخرجين،** أخبر أنهم لا يُخرَجون منها ولا هم يطلبون الخروج منها، كقوله: لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا،[٨] لأن خوف زوال النعم ينغّص على صاحبها تلك النعمة وطعمها، فأخبر أنهم فيها أبدًا وتلك النعمة لهم دائمة غير زائلة عنهم. ***والله أعلم.***

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤٩] ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[٥٠]

وقوله عز وجل: **نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم،** قال بعضهم: **نبئ عبادي،** أي أخبرهم، **أني أنا الغفور الرحيم،** لمن استغفرني وتاب عما ارتكب من معاصيه. **وأن عذابي هو العذاب الأليم،**

---

[١] ع م - وقوله متقابلين.
[٢] ع - فينظر بعضهم إلى بعض.
[٣] م - وأنواع المطاعم على ما يستحسن في الدنيا الإخوان بينهم الاجتماع على الشراب والطعام والتلذذ والنظر بعضهم إلى بعض فعلى ذلك أخبر أن لهم في الآخرة كذلك اجتماع في الشراب والنظر.
[٤] ع - لأن في الدنيا.
[٥] ع م - إذ.
[٦] ن ع م + من.
[٧] م: طعامهم.
[٨] ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا. خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾ (سورة الكهف، ١٨/١٠٧-١٠٨).

لمن عصاني و لم يستغفر و لم يتب إليّ.[1] ويحتمل غير هذا وهو أن يقول: نبئ **عبادي أني أنا الغفور الرحيم**، لئلا ييأسوا من[2] رحمتي ولا يقنطوا[3] مني؛ ولكن يرجون رحمته وعفوه ويخافون عذابه ونقمته. ونبئهم أيضًا أن عذابي هو العذاب الأليم لئلا يكونوا[4] آمنين أبدًا، فيكون فيه أمرٌ بأن يبشّر وينذر.[5] كأنه قال: بشر أوليائي أني أنا الغفور الرحيم لأوليائي وأن عذابي شديد أليم لأعدائي. وفي قوله: **نبئ عبادي**،[6] بشارة ونذارة. أما البشارة فهو قوله: **أني أنا الغفور الرحيم**، وأما النذارة فهو قوله:[7] **وأن عذابي هو العذاب الأليم**.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾[٥١]

وقوله عز وجل: **ونبئهم عن ضيف إبراهيم**، أي نبئ قومك عن ضيف إبراهيم، أي نبئهم بتمام ما فيه من الزجر والموعظة، لأن في ذلك إخبار ما نزل بالمكذبين بتكذيبهم الرسلَ، وهو الإهلاك، ونجاة من صدّق الرسل، ففيه تمام ما يزجرهم ويعظهم من الترهيب والترغيب. فإن فيه[8] آيةً لرسالتك ونبوتك، لأنه يخبرهم على ما في كتبهم [التي] لم يشهدها هو، فيَدُلّهم أنه إنما عرف ذلك بالله. أو **نبئهم** فإن [في] ذلك ما يزجرهم عن مثل صنيعهم، وفيه ذكر نعم الله، لأنهم جاءوا بالبشارة: بشارة الولد، وجاءوا بإهلاك قوم مجرمين، فذلك بالذي يزجرهم عن مثله. والبشارة ترغّبهم في مثل صنيع إبراهيم، فنبئهم فإن فيه ما ذكرنا. ودل قوله: **عن ضيفِ إبراهيم**، أن الضيف اسم كل نازل[9] على آخر طعم عنده أو لم يطعم، وكان نزوله للطعام أو لا.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [٥٢]

وقوله عز وجل: **إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا**، أي سلّموا على إبراهيم فرد إبراهيم السلام عليهم. وقال أبو بكر الأصم: السلام[10] جعله الله أمانًا بين الخلق وعطفا فيما بنيهم

---

[1] جميع النسخ: إليه، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٧ظ.
[2] ن ع م: عن.
[3] ك: يقنطون.
[4] ع م: يكون.
[5] جميع النسخ: وأن ينذر، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٧ظ.
[6] جميع النسخ + فيه.
[7] ك ن ع: ونذارة قوله.
[8] جميع النسخ:فيهم.
[9] ع م: نازلة.
[10] ك – السلام.

وسببًا لإخراج الضغائن من قلوبهم. وقال بعضهم: جعل الله السلام تحية على كل داخل على آخر وهو ما ذكرناه.[١] وقال[٢] بعضهم: السلام هو اسم كل خير وبرّ وبركة، كقوله: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا.[٣] ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **قال إنا منكم وَجِلون**، أي خائفون. قال بعض أهل التأويل: إنما خاف لأنه ظن أنهم لصوص وأهل ريبة. لكن هذا لا يحتمل أن يخاف منهم ويظن أنهم لصوص وأهل ريبة وقد سلّموا عليه وقت ما دخلوا عليه، واللصوص وأهل الريبة[٤] إذا دخلوا بيتا آخر لا يسلمون عليه. لكنه إنما خافهم إذ[٥] رأى أيديهم لا تصل إليه، كما قال: فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً،[٦] عند ذلك / خافهم. فلما رأى ذلك ظن إبراهيم [٣٩٧ظ] أنهم ملائكة إنما جاءوا لأمر عظيم حيث لم يتناولوا مما قرّب إليهم، وبين إبراهيم[٧] وبين المكان الذي يُرتَحل منه مكان يقع لهم الحاجة إلى الطعام.[٨]

﴿**قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ**﴾[٥٣]

وقوله عز وجل: **لا توجل**، أي لا تخف، **إنا نبشرك بغلام عليم**، وقال في آية أخرى: فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ[٩] -والحلم هو الذي ينفي عن صاحبه كل أخلاق دنيئة، والعلم هو الذي يدعو[١٠] صاحبه إلى كل خلق رفيع- ليعلم أنه اجتمع فيه جميع[١١] الخصال الرفيعة ونفى عنه كل خلق دنيء.

---

[١] ك ن: ذكرنا.
[٢] ع م: قال.
[٣] سورة مريم، ٦٢/١٩.
[٤] ع م: ريبة؛ ن - لكن هذا لا يحتمل أن يخاف منهم ويظن أنهم لصوص وأهل ريبة وقد سلموا عليه وقت ما دخلوا عليه واللصوص وأهل الريبة.
[٥] ن ع م: إذا.
[٦] سورة هود، ٧٠/١١.
[٧] ك: وبين أيديهم.
[٨] يقول الإمام رحمه الله في تأويل الآية من سورة هود (٧٠/١١): «أي أضمر وحشة حيث لم يتناولوا شيئا مما قرّب إليهم، فحينئذ علم أنهم ليسوا من البشر، لأن منزل إبراهيم كان بِتأَيٍ من البلد ولم ينزله أحد من البشر إلا وقد احتاج إلى الطعام. فلما لم يتناولوا علم أنهم ليسوا من البشر، فما جاءوا إلا لأمر عظيم، لتعذيب قوم وهلاكهم فخاف لذلك».
[٩] سورة الصافات، ١٠١/٣٧.
[١٠] م: يدعوا.
[١١] ك - جميع.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [٥٤]

وقوله عز وجل: **قال أبشرتموني على أن مسني الكبر**، أي **أبشرتموني** أن يولَد لي وأنا على الحال التي أنا عليها أو يُرَدّ إليّ شبابي وشبابُ امرأتي، **فبم تبشرون**، على الحال التي أنا عليها وامرأتي، أو يُرَدّ الشباب إلينا، وإلا لا يحتمل أن يخفى عليه قدرة الله [على] هبة الولد في حال الكبر. لكنه لم ير الوالد[1] يولِد في تلك الحال. فاستخبرهم أيولد[2] [له] في تلك الحال أو يُرَدّ إلى حالة أخرى حالة[3] الشباب. ***والله أعلم***.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾[٥٥]

وقوله عز وجل: **قالوا بشرناك بالحق**، أي بما هو كائن لا محالة، أي وعدٌ كائن لا محالة. والواجب على كل من أُنعم عليه بنعمة أن يشتغل بالشكر للمنعِم لا يستكشف عن الوجوه التي أُنعم [بها] والأحوال التي يكون عليها. ثم في البشارة بالولد[4] بشارتان. أحدهما بشارة بالغلام، والثاني بالبقاء والبلوغ إلى وقت العلم، حيث[5] قالوا: إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ،[6] وهو ما قال في آية[7] أخرى: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا،[8] ففي قوله: وَكَهْلًا، دلالة وبشارة إلى أنه[9] يبقى إلى أن يصير كهلا.[10]

وقوله عز وجل: **فلا تكن من القانطين**، قد ذكرنا فيما تقدم أن الأنبياء قد نهوا عن أشياء[11] عُصموا عنها ما لا يحتمل أن يكون منهم ما نُهوا عنه، نحو قوله:[12] فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ،[13]

[1] ك ن: الولد.
[2] جميع النسخ: أنه، والتصحيح من *الشرح* ورقة ٤٢٨و.
[3] ن ع م: حال.
[4] ك ن: في بشارة الولد.
[5] ن – حيث.
[6] سورة الحجر، ٥٣/١٥.
[7] ن – آية.
[8] ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ (سورة آل عمران، ٤٦/٣).
[9] ن ع م: وبشارة أنه.
[10] جميع النسخ + وإلا الكهل يضعف. «فيكون بشارة الولد والبقاء، فعلى ذلك هذا» (شرح *التأويلات* ورقة ٤٢٨و).
[11] ن ع م + قد.
[12] ك: كقوله.
[13] ﴿أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزَّل من ربك بالحق فلا تكونَنَّ من الممترين﴾ (سورة الأنعام، ١١٤/٦).

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[١] وَمِنَ الظَّالِمِينَ،[٢] الكَافِرِينَ[٣] وأمثاله. وذلك[٤] مما لا يتوهم كونه[٥] منهم. وذلك لما ذكرنا أن العصمة لا ترفع المحنة، لأنها لو رفعت لذهبت فائدة العصمة، لأنه[٦] إنما يُحتاج إليها عند المحنة، فأما[٧] إذا لم تكن[٨] محنة فلا[٩] تقع إليها. فعلى ذلك إبراهيم لم يكن قنط من رحمة ربه بأنه لا يهب له الولد في حال[١٠] كبره، ولكن لما[١١] ذكرنا.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[٥٦]

ثم بين أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، أخبر أن القنوط من رحمة الله هو ضلال، والإياسَ من رحمته كُفر، فعندهم[١٢] تضيق[١٣] رحمته حتى لا يسع فيها الكبائر، والمعتزلة يقنطون من رحمة ربهم لقولهم في أصحاب الكبائر ما يقولون.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [٥٧]﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾[٥٨]

وقوله عز وجل: **قال فما خطبكم أيها المرسلون**، قيل: فما خبركم وما قصتكم وما شأنكم؟ والخطب الشان، أيْ على أيّ أمر وشان أُرسلتم؟

قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، ثم يحتمل[١٤] أن يكون أولَ ما أخبروا إبراهيم وقالو له[١٥] هذا [القول]. ولكن كان فيه ما ذكر في آية أخرى: إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ،[١٦]

[١] ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونَنَّ من المشركين﴾ (سورة يونس ١٠/١٠٥).
[٢] ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠٦).
[٣] ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٥٢).
[٤] ن: – وذلك.
[٥] ك – أمثاله.
[٦] ك: لأنها.
[٧] ك: وأما.
[٨] جميع النسخ: يكن.
[٩] ن: فلا حاجة.
[١٠] ن + في حال.
[١١] جميع النسخ: ما.
[١٢] أي عند المعتزلة.
[١٣] ن: تضييق.
[١٤] جميع النسخ: لم يحتمل؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.
[١٥] جميع النسخ: وقالوه.
[١٦] سورة العنكبوت، ٢٩/٣١.

و[قولهم]: إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.[1] فقال إبراهيم: إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا. يذكر [القصة] هاهنا على الاختصار، فذلك يدل أن الخبر إذا أدّى معناه يجوز وإن لم يؤت بلفظه على ما كان.

وقوله عز وجل: **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط**، كأن الثُّنيا ههنا تكون عن الأشخاص وأنفس أهل القرية [لا][2] عن قوله: **مجرمين**، لأن آل لوط لم يكونوا مجرمين، فلا يحتمل الاستثناء من ذلك؛ أو لا يكون على حقيقة الثُّنيا وإن كان في الخبر استثناء.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٥٩] ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾[٦٠]

وقوله عز وجل: **إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته**، أخبر أنهم يُهلِكون قومه، ثم استثنى آله منهم ثم امرأته من آله. ففيه دلالة أن الثُّنيا ليس برجوع، لأنه لو كان رجوعا لكان[3] يوجب الكذب في الخبر، ولكن في الثُّنيا بيان تحصيل المراد مما أجمل في اللفظ.

وفيه دلالة أيضًا أنه يجوز أن يُستثنَى من الاستثناء، لأنه استثنى امرأته من آله بقوله: **إلا آل لوط إلا امرأته**، فحصلت[4] المرأة من قومه حيث استثناها من آله. وفيه أنه قد يجوز أن يستثنى من خلاف نوعه، لأنه استثنى آل لوط من قومه، والمجرم ليس من نوع الصالح. ثم استثنى امرأته من آله[5] وهي ليست منهم.

وفيه أيضًا أن آل الرجل يطلق[6] على أتباعه حيث استثنى آله منهم. ثم يدخل فيه [أي في الآل][7] من تبعه، ألا ترى أنه قال: آلِ فِرْعَوْنَ،[8] وإنما هم أتباعه، وآل موسى وآل هارون وآل عمران كل يرجع إلى أتباعهم فيدخل في قولهم: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كل من تبعه. *والله أعلم*.

---

[1] سورة العنكبوت، ٣٤/٢٩.
[2] والزيادة من *الشرح* ورقة ٤٢٨و.
[3] ن – لكان.
[4] ن م: فجعلت.
[5] ن – من آله.
[6] جميع النسخ: يكون؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.
[7] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.
[8] ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقولَ رَبِّيَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم﴾ (سورة المؤمن، ٢٨/٤٠)

وقوله: **إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين**، قال أبو بكر الأصم: **قدرنا إنها**، أي أخبرنا، لكن هذا منه احتيال على تقوية مذهب الاعتزال، لأنهم ينكرون أن يكون أفعال العبيد مقدَّرة لله مخلوقة، وفي الآية[١] دلالة أن أفعالهم مخلوقة لله، مقدرة له. وأصله أي قدّرنا بقاءها من الأصل.[٢] وقوله عز وجل: **لمن الغابرين**، أي الباقين. قال أبو عَوْسَجة: الغابرون الباقون، والغابرون الماضون أيضًا، يقال: غبَر يغبُر غَبْرا، إذا بقي[٣] وإذا مضى أيضا.[٤]

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾[٦١] ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾[٦٢]

وقوله عز وجل: **فلما جاء آل لوط المرسلون، قال إنكم قوم منكرون**، أي إنكم قوم منكرون لا تُعرَفون بأهل هذه البلدة، وإنما قال لهم هذا لأن قومه إنما يعملون ما يعملون/ بالغرباء، لا يعملون بأهل [٣٩٨و] البلدة، ألا ترى أنهم قالوا له: أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ،[٥] [عن] أن تضيف أحدًا منهم. *والله أعلم*.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾[٦٣]

وقوله عز وجل: **قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون**، هذا ليس بجواب لما سبق[٦] من قوله: **إنكم قوم منكرون**، ولكن قالوا ذلك له[٧] -والله أعلم- بعد ما كان بين لوط وبين قومه[٨] [من] مجادلات ومخاصمات؛ من ذلك قوله:[٩] قَالَ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ،[١٠] وغير ذلك من المخاصمات. وقد كان لوط يَعِدهم العذاب على صنيعهم[١١] الذي كانوا يصنعون، ولذلك قالوا له: قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ،[١٢]

---

١ جميع النسخ: ففي ذلك؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يقصد: قدرنا في الأزل كونها من المهلَكين.

٣ ن: أبقي.

٤ غَبَر الشيءُ يَغْبُر غُبُورًا: مكث وذهب. وغبر الشيءُ يَغْبُر أي بقي. والغابر الباقي، والغابر الماضي، وهو من الأضداد (*لسان العرب*، «غبر»).

٥ سورة الحجر، ١٥/٧٠.

٦ ع م + من قومه.

٧ ك: قالوا له ذلك.

٨ ع: قوله.

٩ ع م: وقوله.

١٠ سورة الحجر، ١٥/٦٨-٦٩.

١١ جميع النسخ: بصنيعهم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.

١٢ ﴿أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٩).

فعند ذلك قالوا: **بل جئناك بما كانوا فيه يمترون**، قال بعضهم: بما كانوا فيه يشكّون بما كان يعدهم من العذاب. وقال بعضهم: **بما كانوا فيه يمترون**،[١] أي بما كانوا يجادلون وينازعون؛ أو يقول: بل جئناك بجزاء ما كانوا يمترون. ثم امتراءهم يحتمل مجادلتهم إياه، ويحتمل[٢] ما كانوا عليه من الرِّيبة.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[٦٤]

وقوله عز وجل: **وأتيناك بالحق وإنا لصادقون**، قال بعضهم: **وأتيناك بالحق**، أي بنجاتك ونجاة أهلك وإهلاك قومك. وقال بعضهم: **وأتيناك بالحق**،[٣] أي بالعذاب الذي كنت تعدهم. **وإنا لصادقون**، بما نقول. يحتمل هذا إن لم يكن هذا منهم قولًا قالوه، لأن لوطا يعلم أنهم صادقون[٤] بما يقولون حيث علم أنهم ملائكة الله، لكن أخبر عنهم على ما كانوا عليه على غير قول كان منهم. ***والله أعلم***.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[٦٥]

وقوله عز وجل: **فاسر بأهلك بقطع من الليل**، أي ببعض من الليل. وقال بعضهم: بسَحَر، على ما قال: نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ،[٥] وهو بعض [الليل][٦] سحرا[٧] كان أو غيرَه. **واتبع أدبارهم**، أي سِر من ورائهم. وهكذا الواجب على كل مولى أمرٍ[٨] حيث أن يتبع أثرهم أو يأمر من يتبع أثرهم ليُلحق بهم مَن تَخلّف منهم -ويحتمل[٩] المنقطع منهم- وليكون ذلك أحفظَ لهم.

وقوله عز وجل: **ولا يلتفت منكم أحد**، قال بعضهم: **لا يلتفت**، أي لا يتخلف منكم أحد، **وامضوا حيث تؤمرون**. وقال في آية أخرى.[١٠] وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ،[١١]

---

[١] ك – قال بعضهم بما كانوا فيه يشكون بما كان يعدهم من العذاب وقال بعضهم بما كانوا فيه يمترون؛ ك ن + أي بما كانوا.

[٢] ع م + إياه و.

[٣] ن – وإنا لصادقون قال بعضهم وأتيناك بالحق أي بنجاتك ونجاة أهلك وإهلاك قومك وقال بعضهم وأتيناك بالحق.

[٤] م: لصادقون.

[٥] ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾ (سورة القمر، ٣٤/٥٤).

[٦] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.

[٧] ن م: سحر.

[٨] ك: أمير.

[٩] ك: ويحمل.

[١٠] ع م – ولا يلتفت منكم أحد قال بعضهم لا يلتفت أي لا يتخلف منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقال في آية أخرى.

[١١] ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ (سورة هود، ٨١/١١).

فإنها تَخلّفُ[١] عنكم[٢] فيصيبها ما أصاب أولئك. هذا يدل أن ليس في تقديم الكلام وتأخيره منع ولا في تغيير اللسان ولفظه بعد أن يؤدي المعنى نظما، لأن قصة لوط وغيرها من القصص ذكرت وكررت على الزيادة والنقصان وعلى اختلاف الألفاظ واللسان، فدل أن اختلاف ذلك لا يوجب تغييرًا في المعنى ولا بأس بذلك.

وقال بعضهم في قوله: **لا يلتفت منكم أحد**، أي لا ينظر أحد وراءه فهو -والله أعلم- لما لعلهم[٣] إذا نظروا وراءهم فرأوا ما حل بهم من تقليب الأرض وإرسالها عليهم لا يحتمل بِنيَتُهم وقلوبهم فيَهلِكون أو يَصعَقون، ألا ترى أن موسى مع قوته لم يحتمل اندكاك الجبل ولكن صَعِق فصار مدهوشًا في ذلك الوقت،[٤] فهؤلاء أضعف وما حلّ بقومهم أشدّ، فبنيتهم أحرى أن لا تحتمل[٥] ذلك. *والله أعلم*.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾[٦٦]

وقوله عز وجل: **وقضينا إليه ذلك الأمر**،[٦] قوله: **قضينا**، قيل: أوحينا إليه، كقوله: وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ،[٧] أي أوحينا إليهم. وقال بعضهم: قوله:[٨] **وقضينا إليه**، أي أنهينا إليه وأعلمناه، وهو قول الكسائي والقُتبي.[٩] وقوله عز وجل: **ذلك الأمرَ**، يحتمل قوله: **ذلك الأمر**، هو ما ذكر [على أثره]:[١٠] **أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين**، هذا الذي أوحى إليه وأعلمه. ويحتمل قوله: **وقضينا إليه ذلك الأمر**، أي أوحينا إلى محمد صلى الله عليه وسلم أن ذلك الأمر الذي بلغك مقطوع مصبحين. ويحتمل الوحي إلى لوط على البِشارة، **أن دابر** قومه **مقطوع مصبحين**، أي مقطوع نسلُهم؛ فيه إخبار عن قطع نسلهم، وفي الخبر عن قطع نسلهم إخبار عن هلاكهم.

---

[١] ن: تخلفت.

[٢] ع م: عنهم.

[٣] ك: لعله.

[٤] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فلما تجلّى ربُّه للجبل جعله دكّا وخر موسى صَعِقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ (سورة الأعراف، ١٤٣/٧).

[٥] ن ع م: يحتمل.

[٦] ع م + من.

[٧] ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدُنَّ في الأرض مرتين ولتعلُنَّ علوا كبيرا﴾ (سورة الإسراء،١٧/٤).

[٨] ك ن – قوله.

[٩] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٨.

[١٠] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٨و.

وقوله عز وجل: **أن دابر هؤلاء**، قال بعضهم: أصل هؤلاء، وقال بعضهم: دابر هؤلاء، **مقطوع**، أي مستأصَلون. **مصبحين**، ليس يريد به حين أصبحوا أي حين بدا طلوع الفجر، ولكن أراد طلوع الشمس. ألا ترى أنه قال: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ،[1] وإشراق الشمس هو ارتفاعها وبسطها في الأرض، دل أنه ما ذكرنا. *والله أعلم*. والصيحة يحتمل وجوها. أحدها ذكر الصيحة لسرعة هلاكهم، أي[2] قدْرَ صيحة. والثاني أُهلكوا بالصيحة أو صاح أولئك لما أهلكوا. والصيحة اسم لكل[3] عذاب.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٦٧]

وقوله عز وجل: **وجاء أهل المدينة يستبشرون**، يحتمل يُسَرُّون بنزول أضيافه، أو يبشر بعضهم بعضا لِما رأوا بهم من حسن الهيئة والمنظر ورفعة اللباس.

﴿قَالَ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[٦٨] ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [٦٩]

وقوله: **إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون**، يحتمل هذا وجهين: فلا تفضحونِ في ضيفي فإنهم إنما نزلوا بنا على أَمْنٍ منّا فلا تفضحون عندهم، وهو ما قال في آية أخرى: وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي.[4] ويحتمل، لا تفضحونِ في الخلق يقولون: إن في أهل بيت لوط يفعل بالأضياف كذا، وإنما عرف أهل بيتي عند الخلق بالصلاح والأمن،[5] فلا تفضحون في الخلق واتقوا الله في صنيعكم بالرجال ولا تخزون عند الخلق. قيل: هو من الهوان. ويشبه أن يكون قوله: **واتقوا الله ولا تخزون**، أن يكون الإخزاء هو الفضيحةَ، دليله ما ذكر: **إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون**، فيكون هذا تفسير ذلك، ويحتمل الهوان. وكذلك قيل في قوله: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ،[6] أي الهوانَ اليومَ.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٧٠]

[٣٩٨ظ] وقوله عز وجل: **قالوا أولم ننهك عن العالمين**، هذا يدل على أنه / قد كان سبق[7] النهي [إياه][8] عن إنزال الأضياف[9] لذلك قالوا: **أولم ننهك عن العالمين**. قال أبو بكر الأصم: يخرج قولهم:

---

[1] سورة الحجر ٧٣/١٥.
[2] ك ع م: أو.
[3] ك ن ع: كل.
[4] ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾ (سورة هود، ٧٨/١١).
[5] ع م: وإلا.
[6] ﴿قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ (سورة النحل، ٢٧/١٦).
[7] م: قد سبق.
[8] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.
[9] ك ن +كأنهم قد نهوه عن إنزال الأضياف.

أولم ننهك عن العالمين[١] مخرج الاعتذار له، لأنهم كانوا يعظمون الرسل أعني أقوام الرسل جميعا إذا لم يكن من الرسل[٢] إليهم سوى الخلاف في الدين والدعاء إلى دين الله، فهم وإن كذبوا الحجج التي أتت بها[٣] الرسل فقد كانوا يعظمونهم. ألا ترى أنه قال لرسولنا صلوات الله عليه: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ،[٤] الآية. والأول أشبه. ***والله أعلم***.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[٧١]

وقوله عز وجل: **قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين**، وفي موضع آخر: هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ،[٥] وقد ذكرنا ذلك في السورة التي فيها ذكر هود. قال بعضهم: إنما عرض عليهم نساء قومه[٦] لأنه كالأب لهم،[٧] على ما ذكر أن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهاتهم.[٨] وقال بعضهم: في [ذكر] البنات إخبار منه لهم بنهاية فحش صنيعهم، لأنه يجوز[٩] ورود [حلّ][١٠] الشرع على بناته لهم ولا يجوز حِلّ ذلك بحال.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٧٢]

وقوله عز وجل: **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**، قال الحسن: يقسم الله بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله، وإنما أقسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال بعضهم: أقسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم[١١] ولم يقسم بحياة غيره وبغيره [لفضيلته].[١٢]

---

[١] ع – هذا يدل على أنه كان قد سبق النهي عن إنزال الأضياف لذلك قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال أبو بكر الأصم يخرج قولهم أو لم ننهك عن العالمين.

[٢] ع م – أعني أقوام الرسل جميعا إذا لم يكن من الرسل.

[٣] ن ع م: بهم

[٤] ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (سورة الأنعام، ٦/٣٣).

[٥] سورة هود، ٧٨/١١.

[٦] جميع النسخ: قومهم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.

[٧] «قال بعضهم: إنما عرض عليهم نساء قومه لا بناته بطريق النكاح إلا أنه أضافها إلى نفسه بالبنتية لأنه كالأب لهم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٤٢٨ظ).

[٨] ع م: أمهاتي. لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦).

[٩] ع – يجوز.

[١٠] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.

[١١] م ع – وقال بعضهم أقسم بحياة محمد صلى الله عليه وسلم.

[١٢] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.

وقال بعضهم: قوله: **لعمرك**، كلمة تستعملها العرب في أقسامهم على غير إرادة القسم بحياة أحد. ومنهم من قال: إنما ذلك على التعريض. وأصله أن الله قد أقسم بأشياء: أقسم بالشمس والقمر والليل والنهار، وأقسم بالجبال والسماء وغيرها من الأشياء التي تَعْظُم عند الخلق، فرسول الله[1] صلى الله عليه وسلم قد أخبر[2] أنه أرسله رحمة للخلق وهدى أولى أن يُعَظَّم بالقسم به. ألا ترى أنه قال: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.[3] فمن كان رحمة للعالم كله أولى أن يَعظم من غيره إذ منافعه أعمّ وأكثر. وقال بعضهم: **لعمرك**، القسم ليس بحياة الرسول ولكن بدينه، وهو قول الضحاك.

وقوله عز وجل: إنهم لفي سكرتهم يعمهون، قال بعضهم: السكرة الشدة التي تحل بهم عند الموت. شبههم بحيرتهم التي فيهم بسكرة الموت. **يعمهون**،[4] يترددون. وقال بعضهم: في ضلالهم[5] وكفرهم **يعمهون**، يتحيرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[٧٣]

وقوله عز وجل: **فأخذتهم الصيحة**، قد ذكرنا في غير موضع اختلافهم في الصيحة.[6] قال بعضهم: الصيحة هي العذاب نفسه؛ أي أخذهم العذاب. وقال بعضهم: سمي [العذاب] صيحة لسرعة نزوله بهم وأخذه إياهم. وقوله عز وجل: **مشرقين**، قال بعضهم: أَشرقَت الشمس إذا ارتفعت وأنارت، وشَرَقت إذا بَزَغت،[7] وهو قول الكسائي. وقال أبو عَوْسَجة: **مشرقين**، أي إذا أشرقوا، أي[8] إذا طلعت الشمس عليهم، وقد ذكرنا هذا.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[٧٤]

وقوله عز وجل: **فجعلنا عاليها سافلها**، قد ذكرنا في السورة التي فيها ذكر هود.[9]

[1] جميع النسخ: كرسول الله، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.
[2] جميع النسخ: قد أخبره، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٨ظ.
[3] سورة الأنبياء، ١٠٧/٢١.
[4] ن + أي.
[5] ن: ضلالتهم.
[6] انظر: سورة هود، ٦٧/١١، ٩٤.
[7] بزغت الشمس: بدا منها طلوع، ابتدأت في الطلوع (*لسان العرب*، «بزغ»).
[8] ن ع م – أي.
[9] انظرمثلا سورة هود، ٨٢/١١.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[٧٥]

وقوله عز وجل: **إن في ذلك لآيات للمتوسمين**، قال بعضهم: **للمتوسمين** للمتفرسين، من الفِراسة. وروى في ذلك خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرويه أبو سعيد الخدري[١] قال: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور الله» قال: ثم[٢] قرأ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين.**[٣] فإن ثبت الخبر وثبت تلاوة هذه الآية على أثر ما ذكر فهو هو. وقال بعضهم: **للمتوسمين**، للمعتبرين، وقيل المتفكرين، وقيل الناظرين. ذكروا أنه آية للمعتبرين ولكن لم يبينوا من أيّ وجه يكون آية لمن ذكر،[٤] فيحتمل وجوها أحدها. **لآيات**[٥] **للمتوسمين**، المعتبرين لرسالته، لأنه ذكر قصة إبراهيمَ ولوطٍ على ما كان وهو لم يشهدها، فذلك يدل على صدقه وآية رسالته.[٦]

والثاني آية[٧] لصدق خبر[٨] إبراهيم وصدق لوط، لأنهم[٩] كانوا يخبرون قومهم أن العذاب ينزل بهم وغير ذلك من الوعيد، فيدل ذلك على صدق خبر[١٠] الأنبياء عليهم السلام في كل ما يخبرون.

والثالث، في هلاك من أهلك منهم ونجاة من أنجي منهم آية لمن ذكر، [أن] من هلك منهم[١١] هلك بالتكذيب ومن نجا منهم نجا بالتصديق، فيكون لهم آية.

والرابع، قد بقي من آثار من هلك منهم آية فيكون هلاكهم آية لمن ذكر.

وأصل هذا أن الله ذكر: **إن في ذلك لآيات للمتوسمين**، أي المؤمنين المتقين. والاعتبار والتفكر للمؤمنين لأنهم هم المنتفعون.[١٢] والمتوسم هو الذي يعلم[١٣] بعلامة،[١٤] وكذلك المتفرس

---

[١] ن – الخدري.
[٢] ن ع + قال.
[٣] *سنن الترمذي*، التفسير ١٦؛ و*تفسير القرطبي*، ٤٣/١٠.
[٤] *تفسير القرطبي*، ١٨٩/١.
[٥] جميع النسخ: آية.
[٦] ن ع م: لرسالته.
[٧] ن: أنه.
[٨] ن ع م: أخبر.
[٩] أي لأن إبراهيم ولوطًا وغيرهما من الأنبياء، كما يدل عليه آخر كلام المؤلف.
[١٠] ن – خبر إبراهيم وصدق لوط لأنهم كانوا يخبرون قومهم أن العذاب ينزل بهم وغير ذلك من الوعيد فيدل ذلك على صدق خبر.
[١١] ع – منهم.
[١٢] جميع النسخ + قال.
[١٣] جميع النسخ: يعمل.
[١٤] م: بعلامته.

هو الذي يعلم[1] بعلامة في غيره، ينظر في غيره بأن هلاكه بم كان، فينزجر عن صنيعه ويتعظ به، وهو كالمتفقه الذي يعلم بالمعنى. *والله أعلم*.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾[٧٦]

وقوله عز وجل: **وإنها لبسبيل مقيم**، أي طريق دائم لا يزال مَعْلَمًا.[2]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٧٧]

إن في ذلك لآية للمؤمنين، وهو ما ذكرنا أن الآية تكون للمؤمن. والله أعلم. ذكر في الآية الأولى: **لآيات**، [لأن فيها][3] أنباء إبراهيم وقصته وقصةَ قوم لوط، ففي ذلك آيات لمن ذكر. وذكر في هذه الآية، **لآية للمؤمنين**، لأنه ذكر شيئًا واحدًا وهو السبيل.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾[٧٨]

وقوله عز وجل: **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين**، أي وقد كان أصحاب الأيكة لظالمين. والأيكة ذكر أنها الغَيْضَة[4] من الشجر وهي ذات آجام وشجر كانوا فيها، فبعث إليهم شعيب وهم في الغَيْضَة. وذكر بعض أهل التأويل أن شعيبا بعث إلى قومين، إلى أهل غيضةَ مرة، وإلى أهل مَدينَ مرة على ما ذكر: وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا،[5] وقال في آية أخرى:[6] كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ.[7]

وقوله: **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين**، سمى الله تعالى الكفرة بأسماء مختلفة؛ سماهم مرة ظالمين، / ومرة فاسقين[8] ومشركين. واسم الظلم قد يقع فيما دون الكفر والشرك، [٣٩٩و] وكذلك اسم الفسق يقع فيما دون الكفر والشرك. ثم الكفر[9] لم يَقبَح لاسم الكفر، وكذلك الإيمان لم يَحسُن لاسم الإيمان؛ إذ ما من مؤمن إلا وهو يكفر بأشياء ويؤمن بأشياء.

---

[1] جميع النسخ: يعمل، والتصحيحان من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و.
[2] جميع النسخ: لا يزول معلم. المَعْلَمُ: ما جُعِلَ عَلامةً للشيء (*لسان العرب*، «علم»).
[3] والزيادة مستفادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و.
[4] الغَيْضَة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف (*لسان العرب*، « غاض»).
[5] سورة الأعراف، ٨٥/٧.
[6] ن – أخرى
[7] سورة الشعراء، ١٧٦/٢٦–١٧٧.
[8] ع + وكافرين.
[9] ن – والشرك ثم الكفر.

قال الله تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ.[١] المؤمن يكفر بالطاغوت وبالأصنام[٢] التي كان[٣] أهل الكفر عبدوها. وكذلك الكافر يؤمن بأشياء ويكفر بأشياء، يؤمن بالأصنام ويكفر بالله. فثبت أن الكفر لاسم الكفر ليس بقبيح، وكذلك الإيمان لاسم الإيمان ليس بحسن، ولكن إنما حسن لأنه إيمان بالله، والكفر إنما قبح لأنه كفر بالله. وأما الظلم فهو لاسم الظلم قبيح. وكذلك الفسق لاسم الفسق قبيح، فسماهم بأسماء هي لاسمها[٤] قبيح، لكن الإيمان المطلق هو الإيمان بالله، والكفر المطلق هو الكفر بالله، وإن كان يسمى[٥] بدون الله كفرًا وإيمانًا، كما قلنا: [إن] الكتاب المطلق كتاب الله والدين المطلق دين الله، وإن كان اسم الكتاب والدين يقع على ما دونه.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٧٩]

وقوله عز وجل: **فانتقمنا منهم**، ذكر الانتقام منهم ولم يذكر ههنا بم[٦] كان[٧] الانتقام. وقال في آية أخرى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ،[٨] وقال في آية أخرى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ،[٩] وقال في آية أخرى: فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ.[١٠] فيحتمل أن تكون[١١] الرجفة لقوم، والصيحة لقوم، وعذاب[١٢] يوم الظلة لقوم منهم، أو كان كله واحدا[١٣] فسماها بأسماء مختلفة. وليس لنا إلى معرفة ذلك[١٤] حاجة سوى ما نعرف[١٥] أنهم إنما أهلكوا أو عذبوا بالتكذيب ليكون ذلك آية لمن بعدهم [و]ليحذروا مثل صنيعهم. *والله أعلم*.

---

١ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٥).
٢ ع م: بالأصنام.
٣ ك: كانوا.
٤ جميع النسخ: باسمها، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و.
٥ ن: مسمى.
٦ م: لم.
٧ م+كان.
٨ ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ (سورة الأعراف، ٧/٩١).
٩ ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ (سورة الحجر، ١٥/٨٣).
١٠ ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/١٨).
١١ ن ع م: يكون.
١٢ ن ع م – عذاب.
١٣ جميع النسخ: واحد.
١٤ ك + الكتاب؛ ن ع م + العذاب.
١٥ جميع النسخ: عرف؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و.

وقوله عز وجل: **فانتقمنا منهم**، للرسل كما انتقمنا من قوم لوط للوط بسوء صنيعهم وسوء[1] معاملتهم إياه، فعلى ذلك ننتقم من أهل مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم بسوء صنيعهم ومعاملتهم إياه، وقد كان ما نزل بأصحاب الأيكة كفاية زجر[2] لهم وعظة لا يحتاج إلى ذكر[3] ما نزل بقوم لوط.

وقوله عز وجل: **وإنهما لَبِإمام مبين**، قال بعضهم: يعني قوم لوط وقوم شعيب،[4] **لبإمام مبين**، أي طريق مستبين، أي بيّن هلاكُهم. وقوله عز وجل: وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ،[5] **وإنهما لبإمام مبين**، واحد، أي بيّن واضح آثارهم، مَن سَلك ذلك الطريق أو دخلَ قراهم ومكانهم لاستبان لهم آثار هلاكهم وما حل بهم. وقوله: **لبإمام مبين**، أي طريق يُؤَمّ[6] ويُقصَد،[7] بيّن واضح.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾[٨٠]

وقوله عز وجل: **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين**، قال أهل التأويل: أصحاب الحجر هم قوم صالح وثمود، وقالوا: الحجر هو اسم وادٍ، وقيل هو اسم القرية على شطّ الوادي نسبوا إليه. وقوله: **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين**، قال أهل التأويل: يعني بالمرسلين صالحًا وحدَه، لكن ذكر المرسلين لأن صالحا كان يدعوهم إلى ما كان دعا سائر الرسل، فإذا كذبوه فكان قد كذبوا الرسل جميعًا؛ إذ كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعًا، فإذا كذب واحد منهم فقد كذب الكل. ***والله أعلم.***

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [٨١]

وقوله: **وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين**، يحتمل الآيات آيات وحدانية الله وحججه، ويحتمل جميع الآيات، آيات الوحدانية وحججه وآياتِ رسالتهم. **معرضين**، أي لم يقبلوها، فإذا لم يقبلوها فقد أعرضوا عنها. أو أعرضوا عنها، أي كذبوها.

---

[1] ع – وسوء.
[2] ع م: مزجر.
[3] جميع النسخ+ إلى ما ذكر.
[4] جميع النسخ + وقوله؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و.
[5] سورة الحجر، ٧٦/١٥.
[6] جميع النسخ: يوم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩و؛ ونسخة مدينة، ورقة ٤٨٤ظ.
[7] م: ويقصدون.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾[٨٢]

وقوله عز وجل: **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين**، يحتمل آمنين[١] عما وعدهم صالحٌ من عذاب الله حيث قالوا: يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ،[٢] كانوا آمنين عن ذلك. وقال بعضهم: كانوا آمنين عن أن يقع عليهم ما نحتوا لحذاقتهم، وهو ما قال: وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ،[٣] على تأويل بعضهم: حاذقين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[٨٣]

وقوله عز وجل: **فأخذتهم الصيحة مصبحين**، يحتمل أخذتهم ظاهرة بالنهار.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٨٤]

وقوله عز وجل: **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون**، يحتمل قوله: **فما أغنى عنهم**، أي ما كانوا ينحتون لأنفسهم [لا يغنيهم][٤] من عذاب الله من شيء. ويحتمل **فما أغنى عنهم**، ما عملوا من عبادة الأصنام والأوثان، حيث[٥] قالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[٦] وقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[٧] أي لم يغنِهم ما عبدوا من عذاب الله. أو يقول: ما أغنى عنهم ما مُتِعوا وأُنعِموا في هذه الدنيا في دفع عذاب الله عن أنفسهم، كقوله: فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ،[٨] الآية، أي وإن أُعطُوا ما ذكر من السمع والبصر والأفئدة، إذا لم ينظروا ولم يتفكروا[٩] في آيات الله وجحدوها.[١٠]

---

[١] ع م – يحتمل آمنين.

[٢] ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ (سورة الأعراف، ٧٧/٧).

[٣] سورة الشعراء، ١٤٩/٢٦.

[٤] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.

[٥] ع م – حيث.

[٦] سورة الزمر، ٣/٣٩.

[٧] سورة يونس، ١٨/١٠.

[٨] ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ (سورة الأحقاف، ٢٦/٤٦).

[٩] ك: ويتفكروا.

[١٠] ك ن: فجحدوها.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٨٥]

وقوله عز وجل: **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق**، يحتمل **بالحق**، الحق الذي جعل لنفسه[1] على أهلها، والحق الذي لبعض على بعض. والحق هو اسم كل محمود مختار من القول والفعل. والباطل اسم كل مذموم من القول والفعل. قال بعضهم: تأويله **وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا** شهودا لله **بالحق** على أهلها. وقوله عز وجل: **إلا بالحق**، أي لم يخلقهما لغير شيء ولكن خلقهما للمحنة يمتحنهم بالعبادة فيها، وإلى هذا ذهب الحسن. وقيل: خلقهما وما بينهما لأمر كائن، أي لعاقبة الثواب[2] والجزاء، لم يخلقهم للفناء خاصة ولكن
[٣٩٩ظ] للعاقبة، لأن خلق الشيء للفناء[3] خاصة عبث، وهو / ما قال: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.[4] أخبر أنّ خلقهم لا للرجوع إليه ولا للعاقبة عبث،[5] وقد ذكرنا هذا[6] فيما تقدم. وجائز أن يكون قوله: **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية**، على الاحتجاج على أولئك لإنكارهم الساعة لوجهين. أحدهما ما ذكرنا أنه لو لم تكن الساعة حصل خلقهما وما بينهما للفناء خاصة. وخلق الشيء للفناء خاصة عبثٌ باطلٌ كبناء الباني[7] للنقض خاصة لا لعاقبة تُقصَد عَبَثٌ. والثاني أنه يكون في ذلك تسوية[8] بين الأعداء والأولياء، وفي الحكمة التفريقُ بينهما، و[هو] ما قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا،[9] الآية. لم يكن ظنهم أنه خلقهما باطلا، ولكن لما أنكروا البعث صار في ظنهم [أنه] خلقهما باطلا.

وقوله عز وجل: **وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل**، قال بعضهم: **فاصفح الصفح الجميل**، أي أعرض عنهم[10] ولا تكافئهم بما آذوك بألسنتهم وفعلهم. **وإن الساعة لآتية**، فأنا أكافئهم عنك على أذاهم إياك وصنيعهم يومئذ. والصفح الجميل، هو مالا نقص فيه ولا مِنّة في العرف،

[1] ع م: تسمية؛ ن: تقية؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.
[2] جميع النسخ: للثواب، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.
[3] م – للفناء.
[4] سورة المؤمنون، ١١٥/٢٣.
[5] ن – ما قال أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون أخبر أن خلقهم لا للرجوع إليه ولا للعاقبة عبث.
[6] ع م: ذكرناها.
[7] ك ن: البناء.
[8] جميع النسخ: التسوية؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.
[9] سورة ص، ٢٧/٣٨.
[10] ك – أي اعرض عنهم.

أي **فاصفح الصفح** [أي] ما يوصف فيه بتمام الأخلاق وما لا نقص[١] فيه ولا منة. يحتمل الصفح الجميل هو أن يصفح ولا يَمُنّ عليهم، كأنه أمره أن يصفح صفحًا لا منة فيه. **وإن الساعة لآتية**، فتجزى أنت على صفحك الجميل وهم على أذاك. ***والله أعلم***.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[٨٦]

وقوله عز وجل: **إن ربك هو الخلاق العليم**، هذا يحتمل وجهين. أحدهما أنه [خلقهم] على علم بما يكون منهم[٢] من المعصية والخلاف، لا خلقهم عن غفلة وجهل بذلك، ليُعلَم أنه لم يخلق الخلق لحاجة نفسه ولا لمنفعة نفسه،[٣] ولكن خلقهم ليمتحنهم بما أمرهم به ونهاهم ولِمَا يرجع إلى منافعهم وحوائجهم. والثاني **إن ربك هو الخلاق**، لخلقه،[٤] **العليم**، بمصالحهم، بان الصفح الجميل لهم[٥] أصلح في دينهم من المكافأة. ***والله أعلم***.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[٨٧]

وقوله عز وجل: **ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم**، اختلف في قوله: **سبعًا من المثاني**، قال بعضهم: **سبعًا من المثاني**،[٦] المثاني هو القرآن كله،[٧] كقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾.[٨] وقيل سمي مثاني لترديد الأمثال فيه والعبر والأنباء. فإن كان على هذا فيكون قوله: **سبعًا من المثاني**، أي سبعًا من القرآن العظيم.[٩] ثم يحتمل السبع الطوالَ على ما ذكر بعض أهل التأويل، كأنه قال: آتيناك سبعًا من القرآن العظيم. ويحتمل **سبعًا**، يعني فاتحة الكتاب من القرآن، أي آتيناك فاتحة الكتاب من القرآن. وقال قوم: يقولون: السبع[١٠] المثاني فاتحة الكتاب. ويروون على ذلك حديثًا عن رسول الله، روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال:

---

[١] ك ع م: لا نقض.
[٢] جميع النسخ + خلقهم.
[٣] م – ولا لمنفعة نفسه.
[٤] ك – لخلقه، صح هـ.
[٥] جميع النسخ + ذلك.
[٦] ن – المثاني.
[٧] ن – كله.
[٨] سورة الزمر، ٢٣/٣٩.
[٩] ك – العظيم.
[١٠] جميع النسخ: سبع، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني.»[١] وعن أبيّ[٢] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[٣] «ما أنزل الله في التوراة والإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل.»[٤] ومنهم من يقول: المثاني القرآن كله، يذهب إلى ما ذكرنا من الآية وبما يروي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور والقرآن مثلها -يعني أم القرآن- وأنها السبع[٥] من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت»[٦] ذكروا أنها سبع من المثاني. فإن كان سبع المثاني فاتحة الكتاب يصير كأنه قال: ولقد آتيناك سبعًا وهي المثاني،[٧] وإن كان **سبعًا من المثاني** هو[٨] السبع الطوال[٩] يكون هكذا: أي آتيناك سبعًا وهو المثاني. وروي أيضًا عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال:[١٠] «آتاني السبع الطوال مكان التوراة، والمثاني مكان الإنجيل، وفضلني[١١] ربي بالمفصل.»[١٢]

ثم إن ثبت ما روي في الخبر أن السبع[١٣] المثاني فاتحة الكتاب[١٤] [فهو كما ثبت]، وإلا الكف والإمساك عن ذلك أولى؛ لأنه لا حاجة بنا إلى معرفة ذلك، وليس يكون تسميتنا إياها سوى الشهادة،[١٥] وما خرج مخرج الشهادة من غير حصول النفع لنا فالكف عنه والإمساك أولى. ومنهم من يقول: هن المفصل.[١٦] ومن قال: المثاني فاتحة الكتاب، قال لأنها تُثَنَّى في كل ركعة،

---

١ *سنن الترمذي*، التفسير ١٦.

٢ ع م + رفيه، وكأنها محرفة من «رضي الله عنه» المكتوبة برمز: رض.

٣ ك – الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وعن أبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤ *مسند أحمد بن حنبل*، ٥/١١٤؛ و*سنن الترمذي*، التفسير ١٦.

٥ جميع النسخ: سبع، والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٢٩ظ.

٦ م – أعطيت. انظر: *صحيح البخاري*، التفسير ١/١، ١٥/٣، فضائل القرآن ٩؛ و*الموطأ* لمالك، الصلاة ٣٧؛ و*مسند أحمد بن حنبل*، ٤/٢١١، ٥/١١٤.

٧ ع: من المثاني.

٨ جميعالنسخ: هي.

٩ ك ن + مكان التوراة.

١٠ م: وقال.

١١ ع م: فضلني.

١٢ ع م: بالمفضل. *مسند أحمد بن حنبل*، ٤/١٠٧.

١٣ ك م: سبع.

١٤ ك ن + الكتاب.

١٥ أي بالظن والتخمين.

١٦ م: المفضل.

أو ما جعل فيها مكررة معادة، لأن كل حرف[١] منها يؤدي معنى حرف آخر فسمي مثاني بذلك. ومن قال: المثاني هو القرآن، قال لما ذكرنا، لأن أمثاله وأنباءه وعِبَره مُعادة مردودة. ومن قال: المثاني السبع الطوال، فقال لأنه يُثَنَّى فيها حدود القرآن وفرائضه وعامة أحكامه. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **والقرآنَ العظيم**، سماه عظيمًا وسماه مجيدًا وحكيمًا، وهذه أسماء[٢] الفاعلين ولا عمل له[٣] ولا فعل في الحقيقة، لكنه يخرج -والله أعلم- على وجوه. يحتمل [أنه] سماه عظيمًا مجيدًا لما عظمه وشرفه ومجده؛ فهو عظيم مجيد حكيم، أي محكم، فعيل بمعنى مفعول،[٤] وذلك جائز في اللغة؛ أو سماه بذلك لأن من تمسك به وعمل به يصر[٥] عظيمًا مجيدًا حكيما؛[٦] أو سماه[٧] عظيما مجيدًا حكيمًا،[٨] أي جاء من عند عظيم مجيد حكيم. وأصل الحكيم[٩] المصيب الواضع[١٠] كل شيء موضعه. *والله أعلم*.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٨٨]

وقوله عز وجل: **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم**، يحتمل المراد بقوله: **عينيك**، نفس العين. ثم هو[١١] يحتمل وجهين. أحدهما نهي رسوله أن ينظر إلى ما متّع أولئك مثلَ نظرهم، لأنهم ظنوا أنهم إنما مُتِّعوا بهذه الأموال في الدنيا لخطرهم وقدرِهم عند الله، وعلى ذلك قالوا: وَلَئِن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا،[١٢] وقال: وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي،[١٣] الآية ونحوه.

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يقصد بكل حرفٍ المعاني الدقيقة والأحكام الحِكَمِيّة التي توجد فيها، فهي مكررة ومعادة في سور أخرى، لأن سورة الفاتحة أم القرآن.

[٢] جميع النسخ: وهو اسم؛ والتصحيح مستفاد من *الشرح* ورقة ٤٣٠و.

[٣] أي للقرآن.

[٤] ع م: المفعول.

[٥] جميع النسخ: يصير.

[٦] ع م: - حكيمًا.

[٧] ع م: وسماه.

[٨] ع م + وسماه.

[٩] ك ن + هو.

[١٠] ك ن ع: واضع.

[١١] ع م - هو.

[١٢] ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ (سورة الكهف، ٣٦/١٨).

[١٣] ﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ (سورة فصلت، ٥٠/٤١).

[٤٠٠و] / ظنوا أنهم[١] إنما مُتِّعُوا في هذه الدنيا لخطرهم وقدرهم عند الله، لذلك قالوا ما قالوا. فنهاه أن ينظر إلى ذلك بعين الذين نظروا هم[٢] إليه ولكن بالاعتبار.

والثاني نهاه أن ينظر إلى ذلك نظرَ الاستكبار والتجبّر على المؤمنين والاستهزاء بهم على ما نظروا هم،[٣] لأنهم بما متعوا من أنواع المال استكبروا على الناس واستهزءوا بهم؛ إذ البصر قد يقع على ما ذكر[٤] من غير تكلف. فيصير كأنه نهاه عن الرغبة والاختيار فيما متعوا فيه، لأن ما متعوا به هو ما ذكر: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،[٥] وقال في آية أخرى: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ.[٦] وقوله: **لا تمدن عينيك**، فيما مُتِّعوا فإنهم إنما متعوا لما ذكر.

ويحتمل النهي عن مد العين لا [بقصد] العين نفسها،[٧] ولكن [عنى] نفسها.[٨] كأنه قال: لا تُمَنِّيَنَّ نفسَك فيما مُتعوا هم[٩] ولا[١٠] تُرَغِّبَنَّها في ذلك، فإنه ليس يُوَسَّع ذلك عليهم لخطرهم وقَدرِهم، ولكن ليُعلم أن ليس لذلك[١١] خطر عند الله وقدر حيث أعطى من افترى على الله وجحد نعمه وفضله.

وفي الآية تفضيل[١٢] الفقر على الغناء، لأنه نهي رسول الله أن يمدّ عينيه إلى ما متعوا. ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مَدَّ إلى ذلك ليس يمد للدنيا ولا لشهواته،[١٣]

---

[١] ع م – أنهم.

[٢] م: نظروهم.

[٣] م: نظروهم.

[٤] ع م – على ما ذكر.

[٥] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتَزْهَقَ أنفسهم وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٩/٥٥).

[٦] ﴿ولا تَمُدَّنَّ عينَيْك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (سورة طه، ٢٠/١٣١).

[٧] جميع النسخ: نفسه.

[٨] أي شخص المخاطب وذاته. قال علاء الدين السمرقندي: «عنى بالعين النفس إذ الصبر قد يقع على ما ذكر من غير تكلف، فيصير كأنه نهاه عن الرغبة والاختيار فيما متّعوا به» (شرح *التأويلات*، ورقة ٤٣٠و).

[٩] م: متعوهم.

[١٠] ن: لا.

[١١] ك: ذلك.

[١٢] م: نفضل.

[١٣] ن: ولشهوته.

ولكن يستعين به في أمر جهاد عدوه، ويُعين به أصحابه في سبيل الخيرات، ثم نهاه مع ذلك عنه. دل أن الأخيَرَ والأفضَلَ[١] ما اختاره من الفقر وقصور ذات يده. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **أزواجًا منهم**، أي أصنافًا من الأموال وألوانا من النعم. وقال بعضهم: **أزواجًا منهم**، أي الأغنياءَ منهم وأشباهَهم. فإن كان قوله: **أزواجًا منهم**، هو أصنافَ الأموال فهو على التقديم والتأخير، كأنه قال: لا تمدن عينيك إلى ما متعنا منهم أزواجًا. وإن كان **أزواجًا منهم**، هو أصنافَ الناس فهو على النظم الذي جرى به التنزيل، أي لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به قومًا منهم.

وفي قوله: **لا تَمُدَّنَّ عينَيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم**، دلالة نقض قول المعتزلة، لأنهم يقولون: إن الله لا يعطي أحدا شيئًا إلا ما هو أصلح له[٢] في الدين. ولو كان ما مَتَّع هؤلاء أصلح لهم في الدين لم يَنهَ رسوله عن مد عينيه إليه، فدل[٣] أنه قد يعطي[٤] ما ليس باصلح في الدين. وكذلك قوله:[٥] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا.[٦] أخبر أنه إنما يملي[٧] لهم ليزدادوا إثمًا وهم يقولون: يملي[٨] لهم ليزدادوا خيرًا. وكذلك قوله: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ،[٩] الآية. هذه الآيات كلها تنقض عليهم قولهم، وقد ذكرنا هذا في غير موضع فيما تقدم.

وقوله عز وجل: **ولا تحزن عليهم**، يحتمل النهي نفسه، نهاه أن يحزن عليهم اشفاقًا عليهم، بل أمره أن يَغلُظ عليهم، كقوله: جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ،[١٠] وعلى هذا يخرج قوله: **واخفض جناحك للمؤمنين**، أي ارفُق بهم ولِيّن عليهم واشدُد على أولئك واغلُظ عليهم، وهو ما وصفهم: أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ،[١١] أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.[١٢]

---

[١] ع: لا خير ولا فضل.
[٢] ن: له أصلح.
[٣] جميع النسخ: دل.
[٤] ع م: أعطى.
[٥] ن – قوله.
[٦] سورة آل عمران، ١٧٨/٣.
[٧] ع م: تملي.
[٨] ك ع م: تملي.
[٩] سورة آل عمران، ١٨٠/٣.
[١٠] ع م + يحتمل النهي نفسه. ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ (سورة التوبة، ٧٣/٩).
[١١] ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (سورة الفتح، ٢٩/٤٨).
[١٢] ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ (سورة المائدة، ٥٤/٥).

أخبر أنهم أهل شدة على الكفار وأهلُ غِلظة، رحماءُ بينهم، وأهلُ ذلة[1] على المؤمنين، وأهل شدة عليهم، أي على الكفار،[2] فعلى ذلك هذا.

ويحتمل أن ليس على النهي ولكن على التخفيف والتسلّي ورفع الحزن عن نفسه، لأنه كان يحزن لكفرهم بالله وتركهم الإيمان حتى كادت نفسُه تَتلَف لذلك، كقوله: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ[3] الآية، وقوله: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ،[4] الآية وأمثاله. ويحتمل أيضًا وجهًا آخر وهو أنه كان يحزن عليهم ويضيق[5] صدره لما مَكَروا به وكايدوه، كقوله: وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ،[6] فإني أكافئهم. **والله أعلم.**

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[٨٩]

وقوله عز وجل: **وقل إني أنا النذير المبين،** يحتمل **أنا النذير،** على معاصيه، **المبين** على طاعته، أو **النذير،**[7] على العصاة من عذاب الله، **المبين،** لأموره ونواهيه. **والله أعلم.**

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾[٩٠] ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[٩١]

وقوله عز وجل: **كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين،** قال الحسن: الكتب كلها قرآن، يعني كتب الله اقتسموها وجعلوها عضين، أي فرقوها بالتحريف والتبديل، فما وافقهم أخذوه وما لم يوافقهم غيّروه وبدلوه، كقوله: يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا،[8] ونحوه. فذلك اقتسامهم وتَعَضِيهم[9] على قوله، وكقوله: تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا،[10] وقوله: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا،[11] ونحوه.

---

[1] ن: أذلة.

[2] ع م: الكافرين.

[3] ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (سورة الكهف، ٦/١٨).

[4] ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ (سورة الروم، ٨/٣٥).

[5] ع: تضيق.

[6] سورة النمل، ٧٠/٢٧.

[7] ع: والنذير.

[8] ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلِمَ من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ (سورة المائدة، ٤١/٥).

[9] عَضَّيت الشيءَ تَعْضِية إذا فَرَّقته. والتَّعْضِية: التَّفرِيق، وهو مأخوذٌ من الأَعْضاءِ. (*لسان العرب*، «عضا»).

[10] ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا﴾ (سورة الأنعام، ٩١/٦).

[11] ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (سورة المؤمنون، ٥٣/٢٣).

وقال[1] بعضهم: اقتسامهم هو[2] أن نفرًا من قريش كانوا اقتسموا عَقار[3] مكة ليصدوا الناس عن رسول الله، فتقول[4] طائفة منهم إذا سئلوا عنه:[5] هو كاهن، وطائفه أخرى: هو شاعر ساحر مجنون ونحوه. **وعضين**، قولهم: هو سحر شعر كهانة،[6] أساطير الأولين، أفترى على الله كذبا، وأمثال ما قالوا. فذلك اقتسامهم وعِضيهم.[7] وقال بعضهم: هو على التقديم، أي آتيناك المثاني والقرآن العظيم، أنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة والإنجيل على اليهود والنصارى، فهم المقتسمون كتاب الله، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقال أبو عَوْسَجة: يقال عضَيتُ الجزور، أي قسَمتها عضوا عضوا.[8] / وقال غيره:[9] هو من العِضَة، وهو السحر بلسان قريش، يقال للساحر: عاضِه.[10] وقال القُتبي: [٤٠٠ظ] المقتسمون قوم تحالفوا[11] على عِضَة النبي صلى الله عليه وسلم وأن يذيعوا ذلك بكل طريق ويخبروا به النُّزّاع[12] إليهم.[13] **وعضين**، أي فرّقوه وعَضَّوه. وقيل: فرّقوا القول فيه وهو ما ذكرنا. ***والله أعلم***.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٩٣]

وقوله عز وجل: **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون**، قوله: **فوربك**، قيل: قسم أقسم به تعالى. **لنسألنهم أجمعين**، قال بعضهم: الخلائق كلّها، كقوله: فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ.[14] أخبر أنه[15] يسألهم جميعًا: الرسلَ عن تبليغ الرسالة، والذين أُرسل إليهم عن الإجابة لهم.

---

[1] ن: قال.

[2] جميع النسخ: وهو.

[3] جميع النسخ: عقاب؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٣٠و. والعقار: المنزل والأرض والضياع (*لسان العرب*، «عقر»).

[4] جميع النسخ: فيقول.

[5] أي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[6] وأما قوله تعالى: الذين جعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ، فقد اختلف أهل العربية في اشتقاق أصله وتفسيره. فمنهم من قال: واحدتُها عِضَةٌ وأصلها عِضْوَةٌ من عَضَّيْتُ الشيءَ إذا فَرَّقْته، جعلوا النُّقْصان الواوَ، المعنى أنهم فَرَّقُوا يعني المشركين أقاوِيلَهم في القرآن فجعلوه كذبا وسحرا وشعرا وكهانة (*لسان العرب*، «عضه»).

[7] ع م: وعضتهم.

[8] ع م – عضوا.

[9] ن – غيره.

[10] جميع النسخ: عاضة؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٣٠و؛ وانظر: *لسان العرب*، «عضه».

[11] ع: تخالفوا.

[12] ونُزّاعُ القبائل: غرباؤهم الذين يجاورون قبائل ليسوا منهم، الواحد: نزيع ونازع (*لسان العرب*، «نزع»).

[13] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ٢٣٩.

[14] سورة الأعراف،٧/٦.

[15] ن: أنهم.

وقال بعضهم قوله: **فوربك لنسألنهم أجمعين**، هؤلاء الذين[1] سبق[2] ذكرهم [من][3] المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين والذين استهزءوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، يسألهم عن حجج ما فعلوا وعن السبب[4] الذي حملهم على سوء معاملة رسوله وكتابه: لأي شيء نسبتم رسولي وكتابي إلى السحر والكذب والكهانة والافتراء على الله؟[5] لا يسألون: ما فعلتم وأيّ شيء عملتم؟ لأن ذلك يكون مكتوبًا في كتبهم يقرءونه،[6] كقوله: اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا.[7] وهو[8] وعيد شديد في نهاية الوعيد والشدة، لأنه وعيد مقرون بالقسم، وكل وعيد قرن[9] بالقسم فهو في[10] غاية الشدة؛ إذ لو جاءنا ذلك الوعيد من ملك من ملوك البشر بحيث أن يخاف، فكيف من ربنا!

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٤]

وقوله عز وجل: **فاصدع بما تؤمر**، قال[11] بعضهم: **فاصدع بما تؤمر**، أي استقم كما تؤمر، كقوله: فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ،[12] فهو في كل ما أمر به. وقال بعضهم: **فاصدع**، أي امض بما تؤمر من تبليغ الرسالة. **وأعرض عن المشركين**، أي أعرض عن مكافأتهم. ومعناه[13] -والله أعلم- امض على ما تؤمر من تبليغ الرسالة إليهم ولا تخفهم ولا تهبهم ولا يمنعنك[14] شيء عن تبليغ الرسالة [من] الخوف ولا القرابة ولا شيء من ذلك، ولكن امض على ما تؤمر، وهو كما قال: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا،[15] وقال: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ،[16]

---

[1] م: الذي.
[2] ع م: سبقوا.
[3] والزيادة من *الشرح* ورقة ٤٣٠ظ.
[4] جميع النسخ: والمعنى؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٣٠ظ.
[5] ع م – في.
[6] جميع النسخ: يقرؤون.
[7] سورة الإسراء، ١٧/ ١٤.
[8] أي قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾.
[9] ع + نفسك.
[10] ك ن + في.
[11] ك – قال.
[12] ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ (سورة هود، ١١/ ١١٢).
[13] ن ع م – ومعناه.
[14] ع م: يمنعك.
[15] سورة المائدة، ٥/ ٨.
[16] ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ (سورة النساء، ٤/ ١٣٥).

أي لا يمنعكم عن القول بالحق والعدل بغضُكم إياهم ولا قرابتكم التي فيما بينكم. فعلى ذلك قوله: **فاصدع بما تؤمر**، أي امض على ما أمرت من تبليغ الرسالة ولا يمنعك[1] عن ذلك الخوف والوعيد والقرابة التي فيما بينك وبينهم.

وقال القُتبي: **فاصدع بما تؤمر**، أي[2] أظهِرْ ذلك. وأصله،[3] الفَرق والفتح، يريد: اصدع الباطلَ بحقك[4] حتى يأتيك الموقن به وهو الموت. وقال أبو عَوْسَجة: **فاصدع**، أي امض على ما تؤمر. وصدعت، أي مضيتَ، وذلك من المضيّ، وأصل هذا كله الشَّق، ويقال: تصدّعوا، أي تفرّقوا. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وأعرض عن المشركين**، أي أعرض عن مكافأتهم، فأنا أكافئهم عنك على ما آذوك. وقال بعض أهل التأويل قوله: **وأعرض عن المشركين**، هو منسوخ بآية السيف، لكن على الوجه الذي ذكرنا ليس بمنسوخ. ويحتمل **وأعرض عن المشركين**، إن كان القتال والدعاء إلى التوحيد فهو في وقت دون وقت، أو في قوم خاص. علم الله أنهم لا يجيبونه ولا يؤمنون به فآيَسَ[5] رسوله عن إيمانهم فقال: أعرض عن هؤلاء ولا تشتغل بهم ولا تدعُهم، فإنهم لا يؤمنون ولكن أُدعُ قومًا آخرين. *والله أعلم*.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٩٥]

وقوله عز وجل: **إنا كفيناك المستهزئين**، قال بعضهم: قوله: **كفيناك المستهزئين**، الكفرةَ جميعًا فمنعناهم عن أن يَصِلوا إليك على ما قصدوك[6] من إهلاك[7] وغيره، كقوله: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ.[8] وقال بعضهم: قوله: **كفيناك المستهزئين**، الذين كانوا على الطرق والمراصد ليصدوا الناس عن رسول الله[9] صلى الله عليه وسلم، على ما ذكر في القصة العدد الذي ذكر سبعة أو خمسة، كفاه الله بأن أهلكهم بما ذكر أهل التأويل أن الذين استهزءوا به أُهلكوا جميعًا بعقوبات مختلفة.[10]

---

[1] ن ع م: يمنعك.
[2] ع م + أظهر صدع.
[3] أي الصدع.
[4] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ٢٤٠.
[5] جميع النسخ: اياس.
[6] ع م: على ما قصدوا إليك.
[7] جميع النسخ: إهلاكك؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٤٣٠ظ.
[8] جميع النسخ: شهرين؛ و لم يرد الحديث عليه، وإنما ورد بلفظ: « نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسِيرَةَ شَهرٍ» صحيح *البخاري*، التيمم ١، والجهاد ١٢٢، والصلاة ٥٦؛ وسنن *النسائي*، الغسل ٢٦.
[9] ك: عن سبيل الله.
[10] تفسير *القرطبي*، ٦٢/١٠.

﴿اَلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٩٦]

وقوله عز وجل: **الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر**، قوله: **يجعلون**، ليس على الجعل، لأنهم لو جعلوا لكان لأن كل مجعول كائن موجود، ولكن قوله: **يجعلون**، أي يزعمون أن مع الله إلهًا آخر، إما في التسمية أو في العبادة. وكذلك قوله: جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ،[١] هم لا يقدرون على أن يجعلوه عضين ولكن زعموا أنه كذا، لأن الله وَكَّلَ حفظه إلى نفسه بقوله: وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ،[٢] وقال: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ.[٣] أخبر أنه يحفظه حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلو قدَروا على جعله عضين لكان قد أتى الباطلُ من بين يديه، دل أنه على القول الذي قالوا وهو على المجاز. وكذلك قوله: فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ،[٤] وقوله: أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا،[٥] فهو كله على المجاز على ما عندهم؛ إما بحق التسمية لها أنها آلهة، وإما بصرف العبادة إليها. ظاهر هذا أن المستهزئين الذين ذكرهم [الله] أنه كفاه عنهم هم الكَفَرَة جميعًا، لكن يحتمل في الذين ذكرهم أهل التأويل، كانوا على مراصد مكة، أضاف ذلك إليهم ونَسَب لأنهم هم الذين أمروا غيرهم أن يجعلوا دونه إلهًا، فكأنهم فعلوا ذلك [بأنفسهم][٦] وهم قالوا. وقوله: كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ،[٧] الذين فعلوا به ما فعلوا
[٤٠١و] ممن تقدم ذكرهم فيكون قوله: **الذين يجعلون**، على إضمار / "كان" أي الذين كانوا يجعلون مع الله إلهًا آخر، وإن كان في الذين يكونون من بعد فهو على ظاهر ما ذكر: **يجعلون**،[٨] على المستقبل.

وقوله عز وجل: **فسوف يعلمون**، وعيد، أي سوف يعلمون ما عملوا من الاقتسام والعِضَة والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذا نزل العذاب بهم. ***والله أعلم***.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[٩٧]

وقوله عز وجل: **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون**، وما قالوا [هو ما تقدم ذكره][٩] من الاقتسام والعضة والاستهزاء به وأنوع الأذى الذي كان منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم،

[١] سورة الحجر، ٩١/١٥.
[٢] ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر، ٩/١٥).
[٣] سورة فصلت، ٤١/ ٤٢.
[٤] ﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون﴾ (سورة الصافات، ٣٧/ ٩١).
[٥] ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب﴾ (سورة ص، ٣٨/ ٥).
[٦] والزيادة من *الشرح* ورقة ٤٣٠ظ.
[٧] الآية السابقة.
[٨] م: تجعلون.
[٩] والزيادة من *الشرح*، ورقة ٤٣٠ظ.

أي نعلم ذلك، وهو محفوظ عندنا نجزيهم على ذلك، فلا يضيقَنّ صدرك لذلك. فهو على التصبير على الأذى والتسلي عن ذلك وترك المكافأة لهم. *والله أعلم*. وكان يضيق صدره مرة لتركهم الإجابة له، ومرة للأذى باللسان. والثاني [أي] على علم منا بما يكون منهم [من الأذى][١] ومن ضيق صدرك بذلك، لكن أنشأناهم ومكّنّاهم على علم منا بذلك امتحانا منا إياك بذلك[٢] وإياهم.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[٩٨]

وقوله عز وجل: **فسبح بحمد ربك**، قال بعض أهل التأويل: أي صلّ بأمر ربك **وكن من الساجدين**، أي من المصلين. وقوله: **فسبح**، هو أمر، فإذا فعل ذلك كان بأمر ربه، فلا معنى لذكر الأمر من بعد[ه] بقوله: **بحمد ربك**، إن كان الحمد هو الأمرَ على ما قال بعض أهل التأويل. ويحتمل وجهًا آخر وهو أن قوله: **فسبح**، أي نزِّه الله عن جميع[٣] ما قالت الملحدة[٤] فيه، إذ التسبيح هو التنزيه في اللغة. **بحمد ربك**، أي بثناء ربك، أي نزّه عن ذلك كله بثناء تُثنِيه عليه. **وكن من الساجدين**، أي من الخاضعين إذ السجود هو الخضوع. أو أن يكون أَمْره إياه بالتسبيح على التسلي وتوسيع صدره بالذي يكون منهم، أي فسبح ربك مكان ذلك.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٩٩]

وقوله عز وجل: **واعبد ربك**، يحتمل التوحيد، أي وحِّد ربك. وكذلك قال ابن عباس رضى الله عنه: كل عبادة ذكرت في القرآن فهي[٥] توحيد. يأمره باعتقاد الإخلاص له في كل أمر. ويحتمل العبادة نفسَها، يأمره بالعبادة له شكرًا له، على ما روي في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلّى حتى تَوَرَّمَتْ ساقاه فقيل له: ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: «بلى، أفلا أكون عبدا شكورا».[٦]

---

[١] والزيادتان من *الشرح*، ورقة ٤٣٠ظ.

[٢] ن بذلك إياك.

[٣] م + عن جميع.

[٤] م: الملاحدة.

[٥] جميع النسخ: فهو.

[٦] ورد الحديث بألفاظ مختلفة في صحيح *البخاري*، الرقاق ٢٠، التفسير ٤٨، التهجد ٦؛ وصحيح *مسلم*، صفات المنافقين ٧٩-٨١.

وقوله عز وجل: **حتى يأتيك اليقين**، أي ما تيقّنتَ به، وهو الموقَن به. وكذلك قوله: وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ،[1] أي من يكفر بالمؤمَن به فقد حبط عمله، لأن الإيمان لا يُكفَر به. فعلى ذلك اليقينُ لا يأتيه ولكن يأتيه الموقَنُ به. وكذلك ما ذُكر: الصلاة أمر الله، أي بأمر الله وهو المأمور به، لأن الصلاة لا تكون أمر الله لكن بأمر الله. وكذلك ما يجيء من هذا النحو. ويحتمل قوله: **حتى يأتيك اليقين**، فيهم، وهو ما وعد من العذاب فيهم، أي يتيقنون بذلك. *والله أعلم*.

[1] ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (سورة المائدة، ٥/٥).

سورة الحجر

تسعون وتسع آيات مكية إلا الآية ٨٧ فمدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾

اعلم أن قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمدًا ﷺ وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتابًا وفي كونه قرآنًا مفيدًا للبيان.

أما قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وعاصم ﴿رُبَمَا﴾ خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبو حاتم: أهل الحجاز يخففون ربما، وقيس وبكر يثقلونها، وأقول في هذه اللفظة لغات، وذلك لأن الراء من رب وردت مضمومة ومفتوحة، أما إذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما، وتارة بدونها وأيضًا تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا:

أَسُمَيَّ مَا يدريك أن رب فتية ... باكرت لذتهم بأذكر مسرع[(١)]

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلي:

أَزُهَيْرَان يَشِبِ الْقَذَالُ فَإِنَّنِي ... رُبْ هَيْضَلٍ مَرِسٍ كَفَفْتُ بِهَيْضَلِ[(٢)]

والهيضل جماعة متسلحة، وأيضًا هذه الكلمة قد تجيء حالتي تشديد الباء وتخفيفها مع حرف (ما) كقولك: ربما وربما وتارة مع التاء، وحرف (ما) كقولك: ربتما وربتما هذا كله إذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة، فيقال: رب وربما وربتما حكاه قطرب قال أبو

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر والبيت هكذا:

فَسُمَيَّ ما يُدريكِ أن رُبَّ فتيَةٍ ... باكَرتُ لَذَّتَهُم بِأَدكَنَ مُترَعِ

والحادرة هو الحادِرَة هو: قطبة بن أوس بن محصن بن جرول المازني الفزاري الغطفاني. ؟- ٥ هـ/ ؟- ٦٢٦ م، شاعر جاهلي مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم أو الحويدرة، جمع محمد بن العباس اليزيدي ما بقي من شعره في ديوان.

(٢) الهذلي تقدمت ترجمته.

علي: من الحروف ما دخل عليه حرف التأنيث، نحو: ثم وثمت، ورب وربت، ولا ولات، فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدي في (البسيط).

المسألة الثانية: رب حرف جر عند سيبويه، ويلحقها (ما) على وجهين: أحدهما: أن تكون نكرة بمعنى شيء، وذلك كقوله:

رُبَّ مَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَمْـــ ـــرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ (١)

فـ(ما) في هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير إليه من الصفة، فإن المعنى رب شيء تكرهه النفوس وإذا عاد الضمير إليه كان اسمًا ولم يكن حرفًا، كما أن قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥] لما عاد الضمير إليه علمنا بذلك أنه اسم، ومما يدل على أن (ماء) قد يكون اسمًا إذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها من قول الشاعر:

يا رب من ينقص أزوادنا رُحْنَ عَلَى نُقْصَانِهِ وَاغْتَدَيْنَ

فكما دخلت رب على كلمة (من) وكانت نكرة، فكذلك تدخل على كلمة (ما) فهذا ضرب والضرب الآخر أن تدخل ما كافة كما في هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون أنها بدخلوها كفت الحرف عن العمل الذي كان، وإذا حصل هذا الكف فحينئذ تتهيأ للدخول على ما لم تكن تدخل عليه، ألا ترى أن رب إنما تدخل على الإسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل، فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اتفقوا على أن رب موضوعة للتقليل، وهي في التقليل نظيرة كم في التكثير، فإذا قال الرجل: ربما زارنا فلان، دل ربما على تقليله الزيارة. قال الزجاج: ومن قال إن رب يعني بها الكثرة، فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة، وعلى هذا التقدير: فههنا سؤال، وهو أن تمني الكافر الإسلام مقطوع به، كلمة رب تفيد الظن، وأيضًا أن ذلك التمني يكثر ويتصل، فلا يليق به لفظة ﴿رُّبَمَا﴾ مع أنها تفيد التقليل.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظًا وضع للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظًا وضع للشك، والمقصود منه: إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، فيقولون: ربما ندمت على ما فعلت، ولعلك تندم على فعلك، وإن كان العلم حاصلاً بكثرة الندم ووجوده بغير شك، ومنه قول القائل:

(١) هذا البيت للشاعر إبراهيم بن العباس الصولي وهو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول أبو إسحاق، ١٧٦-٢٤٣ هـ/ ٧٩٢- ٨٥٧ م، كاتب العراق في عصره أصله من خراسان، وكان جده محمد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، ونشأ إبراهيم في بغداد فتأدب فيها، وقربه الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل.

قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ (١)

والوجه الثاني: في الجواب أن هذا التقليل أبلغ في التهديد، ومعناه: أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرًا لك عن هذا الفعل فكيف كثيره؟

والوجه الثالث: في الجواب أن يشغلهم العذاب عن تمني ذاك إلا في القليل.

المسألة الرابعة: اتفقوا على أن كلمة (رب) مختصة بالدخول على الماضي كما يقال: ربما قصدني عبد الله، ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها. وقال بعضهم: ليس الأمر كذلك والدليل عليه قول الشاعر:

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْرِ

وهذا الاستدلال ضعيف، لأنا بينا أن كلمة (رب) في هذا البيت داخلة على الإسم وكلامنا في أنها إذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضيًا، فأين أحدهما من الآخر؟ إلا أني أقول قول هؤلاء الأدباء إنه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلي، وإنما الرجوع فيه إلى النقل والاستعمال، ولو أنهم وجدوا بيتًا مشتملاً على هذا الاستعمال لقالوا إنه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف، فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته. ثم نقول إن الأدباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين:

الأول: قالوا: إن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه قيل: ربما ودوا.

الثاني: أن كلمة (ما) في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اسم و ﴿يَوَدُّ﴾ صفة له، والتقدير: رب شيء يوده الذين كفروا. قال الزجاج: ومن زعم أن الآية على إضمار كان وتقديره ربما يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه ألا ترى أن كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول.

المسألة الخامسة: في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فإن كل أحد حمل قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على محمل آخر، والأصح ما قاله الزجاج فإنه قال: الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلمًا، وهذا الوجه هو الأصح. وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوهًا. قال الضحاك: المراد منه ما يكون عند الموت، فإن

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط والبيت كاملا هكذا

قَد أَترُكُ القِرنَ مُصفَرّاً أَنامِلُهُ كَأَنَّ أَثوابَهُ مُجَّت بِفِرصادِ

وهو للشاعر عبيد بن الأبرص وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، أبو زياد، من مضر، ؟ - ٢٥ ق.هـ/ ؟ - ٥٩٨ م، شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وهو أحد أصحاب المجمهرات المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر أمرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمّر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه.

الكافر إذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلمًا. وقيل: إن هذه الحالة تحصل إذا اسودت وجوههم، وقيل: بل عند دخولهم النار ونزول العذاب، فإنهم يقولون: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤] وروى أبو موسى أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَاجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ ومعهم من شاء الله مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لَهُمْ: أَلَسْتُمْ مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا بَلَى، قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ، وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ، فَيَتَفَضَّلُ اللَّهُ تَعَالَى بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ كُلِّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِنَ النَّارِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَحِينَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ»(١) وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية. وعلى هذا القول أكثر المفسرين، وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما يزال الله يرحم المؤمنين، ويخرجهم من النار، ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة، حتى أنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة(٢). قال: فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. قال القاضي: هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار، وعلى أن شفاعة الرسول مقبولة في إسقاط العقاب، وهذان الأصلان عنده مردودان، فعند هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو أنه تعالى يؤخر إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهناك يودون لو كانوا مسلمين، قال فبهذه الطريق تصحح هذه الأخبار، والله أعلم.

فإن قيل: إذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الأحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذي يقل ثوابه درجة المؤمن الذي يكثر ثوابه، والمتمني لما لم يجده يكون في الغصة وتألم القلب وهذا يقضي أن يكون أكثر المؤمنين في الغصة وتألم القلب.

قلنا: أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا، فالله سبحانه أرضى كل أحد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المعنى: دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٤/ ٢)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٥) حديث رقم/ ٢٩٥٤، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٨٠/ ٧٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٣٧٣) حديث رقم/ ٧٠٠، جميعا من طريق خالد بن نافع الأشعري عن سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبي موسى... به.

(٢) صحيح: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٦٢)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٨٤) حديث رقم/ ٣٣٤٥، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في (البعث والنشور) (١/ ٧٦/ ٧١) جميعا من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس... به.

لهم في الآخرة وقوله: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ يقال: لهيت عن الشيء ألهي لهيًا، وجاء في الحديث أن ابن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه. قال الكسائي والأصمعي: كل شيء تركته فقد لهيت عنه وأنشد:

صَرَمَتْ حِبَالَكَ فَالْهَ عَنْهَا زَيْنَبُ وَلَقَدْ أَطَلْتَ عِتَابَهَا لَوْ تَعْتِبُ

فقوله فاله عنها أي اتركها وأعرض عنها. قال المفسرون: شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم عن الإيمان والطاعة فسوف يعلمون.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذة الآية على أنه تعالى قد يصد عن الإيمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة في الدين، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم في طول الأمل يلهيهم عن الإيمان والطاعة ثم إنه تعالى أذن لهم فيها، وذلك يدل على المقصود. قالت المعتزلة: ليس هذا إذنًا وتجويزًا بل هذا تهديد ووعيد.

قلنا ظاهر قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ إذن أقصى ما في الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال يضرهم في دينهم، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن في شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء مفسدة لهم في الدين.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين، والأخبار في ذم الأمل كثيرة فمنها ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ فِيهِ اثْنَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَطُولُ الْأَمَلِ» [(١)] وعنه ﷺ أنه نقط ثلاث نُقط وقال: «هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا الْأَمَلُ، وَهَذَا الْأَجَلُ، وَدُونَ الْأَمَلِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً فَإِنْ أَخَذَتْهُ إِحْدَاهُنَّ، وَإِلاَّ فَالْهَرَمُ مِنْ وَرَائِهِ» [(٢)] وعن علي عليه السلام أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق [(٣)]، والله أعلم.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٧)، والترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٠) حديث رقم/ ٢٣٣٩، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤١٥) حديث رقم/ ٤٢٣٤، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١١٩) حديث رقم/ ١٢٢٢٣، جميعا من طريق قتادة عن أنس... به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (في الأمل وطوله) (١١/ ٢٣٩) حديث رقم/ ٦٤١٧، من طريق صدقة بن الفضل... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في الأمل والأجل) (٢/ ١٨٧) حديث رقم/ ٢٧٢٩، من طريق مسدد حدثنا يحي... به، كلاهما (صدقة، مسدد) عن يحي بن سعيد... به.

(٣) إسناد ضعيف: أخرجه هناد في (الزهد) (١/ ٢٩٠) حديث رقم/ ٥٠٩، من طريق إسماعيل بن أبي خالد... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٢٨١) حديث رقم/ ٣٥٦٣٦، من طريق زبيد بن الحارث عن رجل من بني عامر عن علي... به، وابن أبي عاصم في (الزهد) (١/ ١٣٠)، وأحمد في (فضائل الصحابة) (١/ ٥٣٠) حديث رقم/ ٨٨١، كلاهما من طريق وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن زبيد قال قال علي قال وكيع وأخبرنا يزيد بن زياد ابن أبي الجعد عن مهاجر العامري عن علي... فذكره. وفي إسناده انقطاع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول ﷺ بقوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلاً، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤخرًا وذلك نهاية في الزجر والتحذير.

المسألة الثانية: قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان الله ينزله بالمكذبين المعاندين كما بينه في قوم نوح وقوم هود وغيرهم، وقال آخرون: المراد بهذا الهلاك الموت. قال القاضي: والأقرب ما تقدم، لأنه في الزجر أبلغ، فبين تعالى أن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل لأن العذاب مدخر، فإن لكل أمة وقتًا معينًا في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون: المراد بهذا الهلاك مجموع الأمرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت، لأن كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكًا، فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معًا.

المسألة الثالثة: قال الفراء: لو لم تكن الواو مذكورة في قوله: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ كان صوابًا كما في آية أخرى وهي قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وهو كما تقول: ما رأيت أحدًا إلا وعليه ثياب وإن شئت قلت: إلا عليه ثياب.

أما قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: من في قوله: ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾ زائدة مؤكدة كقولك: ما جاءني من أحد، وقال آخرون: إنها ليست بزائدة لأنها تفيد التبعيض أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد.

المسألة الثانية: قال صاحب (النظم) معنى سبق إذا كان واقعًا على شخص كان معناه أنه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمرًا، أي جازه وخلفه وراءه، ومعناه أنه قصر عنه وما بلغه، وإذا كان واقعًا على زمان كان بالعكس في ذلك، كقولك: سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه فقوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ معناه أنه لا يحصل ذلك الأجل قبل ذلك الوقت ولا بعده، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه، والسبب فيه أن اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع، لا عن مرجح ولا عن

مخصص فإن رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح محال، وإنما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لأن إله العالم خصصه به بعينه، وإذا كان كذلك، فقدرة الإله وإرادته اقتضتا ذلك التخصيص، وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه، ولما كان تغير صفات الله تعالى أعني القدرة والإرادة والعلم والحكمة ممتنعًا كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعًا.

إذا عرفت هذا فنقول: هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعني أن الصادر من زيد هو الإيمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما.

فإن قالوا: هذا إنما يلزم لو كان المقتضي لحدوث الكفر والإيمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته. أما إذا قلنا: المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما سقط ذلك.

قلنا: قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما إن كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الإلزام، وإن لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده، كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح، فقد عاد الأمر إلى أنه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل، وإن كان لمخصص فذلك المخصص إن كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل، وإن كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث إلى أن فعل العبد إنما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى، وحينئذ لا يعود الإلزام.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن كل من مات أو قتل فإنما مات بأجله، وأن من قال: يجوز أن يموت قبل أجله فمخطىء.

فإن قالوا: هذا الاستدلال إنما يتم إذا حملنا قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ على الموت أما إذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم.

قلنا: قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ إما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل، فإن دخل الاستدلال ظاهر لازم وإن لم يدخل فنقول: إن ما لأجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت، فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في إنكار نبوته.

فالشبهة الأولى: أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون، وفيه احتمالات: الأول: أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون، والدليل عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢] وأيضًا قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن

جِنَّةٍۚ﴾ [الأعراف: ١٨٤]. والثاني: أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولاً حقًا من عند الله تعالى، فالرجل إذا سمع كلامًا مستبعدًا من غيره فربما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ في هذه الآية يحتمل الوجهين.

أما قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وكما قال قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] وكما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] لأن البشارة بالعذاب ممتنعة. والثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ في زعمه واعتقاده، وعند أصحابه وأتباعه. ثم حكى عنهم أنهم قالوا في تقرير شبههم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: المراد لو كنت صادقًا في ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة، لأن المرسل الحكيم إذا حاول تحصيل أمر، وله طريق يفضي إلى تحصيل ذلك المقصود قطعًا، وطريق آخر قد يفضي وقد لا يفضي، ويكون في محل الشكوك والشبهات، فإن كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود، فإنه يحاول تحصيله بالطريق الأول لا بالطريق الثاني، وإنزال الملائكة الذين يصدقونك، ويقررون قولك طريق يفضي إلى حصول هذا المقصود قطعًا، والطريق الذي تقرر به صحة نبوتك طريق في محل الشكوك والشبهات، فلو كنت صادقًا في ادعاء النبوة لوجب في حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة في شيء، فهذا تقرير هذه الشبهة، ونظيرها قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: ٨] وفيه احتمال آخر: وهو أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا به، فالقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب الموعود، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ [العنكبوت: ٥٣] ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ فنقول: إن كان المراد من قولهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هو الوجه الأول، كان تقرير هذا الجواب أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم، وعلى هذا التقرير فيصير إنزالهم عبثًا باطلاً، ولا يكون حقًا، فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى، وقال المفسرون: المراد بالحق ههنا الموت، والمعنى: أنهم لا ينزلون إلا بالموت، وإلا بعذاب الاستئصال، ولم يبق بعد نزولهم إنظار ولا إمهال، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة، وأما إن كان المراد من قوله تعالى: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾

استعجالهم في نزول العذاب الذي كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به، فتقرير الجواب أن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال، حكمًا في أمة محمد ﷺ أن لا نفعل بهم ذلك، وأن نمهلهم لما علمنا من إيمان بعضهم، ومن إيمان أولاد الباقين.

المسألة الثانية: قال الفراء والزجاج: لولا ولوما لغتان: معناهما: هلا ويستعملان في الخبر والاستفهام، فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٣١] والاستفهام كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] وكهذه الآية. وقال الفراء: لوما الميم فيه بدل عن اللام في لولا، ومثله استولى على الشيء واستومى عليه، وحكى الأصمعي: خاللته وخالمته إذا صادقته، وهو خلي وخلمي أي صديقي.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ بالنون وبكسر الزاي والتشديد، والملائكة بالنصب لوقوع الإنزال عليها. والمنزل هو الله تعالى، وقرأ أبو بكر عن عاصم: (ما تنزل) على فعل ما لم يسمى فاعله، والملائكة بالرفع. والباقون: ما تنزل الملائكة على إسناد فعل النزول إلى الملائكة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ يعني: لو نزلت الملائكة لم ينظروا أي يمهلوا فإن التكليف يزول عند نزول الملائكة. قال صاحب (النظم): لفظ اذن مركبة من كلمتين: من إذ وهو اسم بمنزلة حين ألا ترى أنك تقول: أتيتك إذ جئتني أي حين جئتني. ثم ضم إليها أن، فصار إذ أن. ثم استثقلوا الهمزة، فحذفوها فصار إذن، ومجيء لفظة إذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير: وما كانوا منظرين إذ كان ما طلبوا وهذا تأويل حسن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن القوم إنما قالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] لأجل أنهم سمعوا النبي ﷺ كان يقول: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَّلَ الذِّكْرَ عَلَيَّ**»[1] ثم إنه تعالى حقق قوله في هذه الآية فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

فأما قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام الملوك عند إظهار التعظيم فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال: إنا فعلنا كذا وقلنا كذا فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان:

القول الأول: أنه عائد إلى الذكر يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال:

---

(١) لم أجده.

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

فإن قيل: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه.

والجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فإنه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونًا من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصونًا عن التغيير، ولما كان محفوظًا عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضًا أن يظن بهم النقصان، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة.

والقول الثاني: أن الكناية في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ والمعنى وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء، وقوى ابن الأنباري هذا القول فقال: لما ذكر الله الإنزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه، لكونه أمرًا معلومًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزًا مباينًا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزًا كإحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها، وقال آخرون: إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته، وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف، وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضًا أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا.

المسألة الرابعة: احتج القاضي بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ على فساد قول بعض الإمامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال: لأنه لو كان الأمر كذلك لما بقي القرآن محفوظًا، وهذا الاستدلال ضعيف، لأنه يجري مجرى إثبات الشيء نفسه، فالإمامية الذين يقولون إن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان، لعلهم يقولون إن هذه الآية من جملة الزوائد التي ألحقت بالقرآن، فثبت أن إثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري مجرى إثبات الشيء نفسه وأنه باطل والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أن القوم لما أساؤوا في الأدب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا: إنك لمجنون، فالله تعالى ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء هكذا كانت. ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الأنبياء عليهم السلام، فهذا هو الكلام في نظم الآية

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية محذوف والتقدير: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه. وقوله: ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي في أمم الأولين وأتباعهم. قال الفراء: الشيع الأتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه، والشيعة الأمة سموا بذلك، لأن بعضهم شايع بعضًا وشاكله، وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] قال الفراء: وقوله: ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وقوله: ﴿بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] أما قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي ﷺ.

واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور.

الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات.

والثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة، وذلك شاق شديد على الطباع.

والثالث: أن الرسول متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك أيضًا في غاية المشقة.

والرابع: أن الرسول ﷺ قد يكون فقيرًا ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه

فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة.

والخامس: خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، وهذا هو السبب الأصلي؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة.

أما قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: السلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط والرمح في المطعون، وقيل: في قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] أي أدخلكم في جهنم. وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد: سلكته وأسلكته بمعنى واحد.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار، فقالوا: قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين، قالت المعتزلة: لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ، فلا يمكن أن يكون الضمير عائدًا إليه لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يدل على الاستهزاء، فالضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائد إليه، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال، فثبت صحة قولنا المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هو أنه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله في قلوب المجرمين، لأنا نقول: إن كان الضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الاستهزاء وجب أن يكون الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا أيضًا إلى الاستهزاء لأنهما ضميران تعاقبا وتلاصقا، فوجب عودهما إلى شيء واحد فوجب أن لا يكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء، وذلك يوجب التناقض، لأن الكافر لا بد وأن يكون مؤمنًا بكفره، والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به، وأيضًا فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفار، ولكان على هذا التقدير يمتنع أن يذمهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه، فثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على هذ الوجه فنقول: التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وقال بعده: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين، والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم بمعانيه وبين أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عنادًا وجهلًا، فكان هذا موجبًا للحوق الذم الشديد بهم، ويدل على صحة هذا التأويل وجهان:

الأول: أن الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائد إلى القرآن بالإجماع فوجب أن يكون الضمير في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إليه أيضًا لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء

واحد. والثاني: أن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ معناه: مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيهًا لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه، ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية إلا قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] فوجب أن يكون هذا معطوفًا عليه ومشبهًا به، ومتى كان الأمر كذلك كان الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم.

والجواب: لا يجوز أن يكون الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا على الذكر، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ مذكور بحرف النون، والمراد منه إظهار نهاية التعظيم والجلالة، ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلاً يظهر له أثر قوي كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوبًا مقهورًا. فأما إذا فعل فعلاً ولم يظهر له أثر ألبتة، صار المنازع والمدافع غالبًا قاهرًا، فإن ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحًا في هذا المقام، والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك إسماع القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به، ثم إنه لم يلتفت إليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع، وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع، وإذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ غير لائق بهذا المقام، فثبت بهذا أن التأويل الذي ذكروه فاسد.

والوجه الثاني: أنه لو كان المراد ما ذكروه لوجب أن يقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولا يؤمنون به، أي ومع هذا السعي العظيم في تحصيل إيمانهم لا يؤمنون أما لِمَ لَمْ يذكر الواو فعلمنا أن قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كالتفسير، والبيان لقوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا إنما يصح إذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال في قلوبهم.

والوجه الثالث: أن قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] بعيد، وقوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ قريب، وعود الضمير إلى أقرب المذكورات هو الواجب. أما قوله: لو كان الضمير في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ عائدًا إلى الاستهزاء لكان في قوله؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا إليه، وحينئذ يلزم التناقض.

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن مقضتى الدليل عود الضمير إلى أقرب المذكورات، ولا مانع من اعتبار هذا الدليل في الضمير الأول وحصل المانع من اعتباره في الضمير الثاني فلا جرم قلنا: الضمير الأول عائد إلى الاستهزاء، والضمير الثاني عائد إلى الذكر، وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة ليس بقليل في القرآن، أليس أن الجبائي والكعبي والقاضي قالوا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] فقالوا هذه الضمائر من أول الآية إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ عائدة إلى آدم وحواء، وأما في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عائدة إلى غيرهما، فهذا ما اتفقوا عليه في تفاسيرهم، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها إلى شيء واحد بل الأمر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا، والله أعلم.

والوجه الثاني: في الجواب قال بعض الأدباء من أصحابنا قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ تفسير للكناية في قوله: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ والتقدير: كذلك نسلك في قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به والمعنى نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به.

والوجه الثالث: وهو أنا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الإيمان والكفر يمتنع أن يكون بالعبد، وذلك لأن كل أحد إنما يريد الإيمان والصدق، والعلم والحق، وأن أحدًا لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل أحد لا يقصد إلا الإيمان والحق ثم إنه لايحصل ذلك، وإنما يحصل الكفر والباطل، علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه.

فإن قالوا: إنما حصل ذلك الكفر لأنه ظن أنه هو الإيمان: فنقول: فعلى هذا التقدير إنما رضي بتحصيل ذلك الجهل لأجل جهل آخر سابق عليه فينقل الكلام إلى ذلك الجهل السابق فإن كان ذلك لأجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال، وإلا وجب انتهاء كل الجهالات إلى جهل أول سابق حصل في قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى، وذلك هو الذي قلناه: أن المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ والمعنى: نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به، وهو أنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها، وأيضًا قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها، والتأويل الذي ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين، فكان مردودًا، وروى القاضي عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة في قلوب المجرمين، ثم قال القاضي: إن القسوة لا تحصل إلا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند، فلا يصح إضافته إلى الله تعالى، فيقال للقاضي: إن هذا يجري مجرى المكابرة، وذلك لأن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى أنه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه، وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات إليه والاصغاء لقوله، فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطراري لا يمكنه دفعها عن نفسه، فكيف يقال: إنها حصلت بفعله واختياره؟

فإن قالوا: إنه يمكنه ترك هذه الأحوال، والرجوع إلى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة، لأنك إن أردت أنه مع حصول هذه النفرة الشديدة في القلب، والنبوة العظيمة في النفس يمكنه أن يعود إلى الإنقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة، وإن أردت أن عند زوال هذه الأحوال النفسانية يمكنه العود إلى القبول والتسليم فهذا حق، إلا أنه لا يمكنه إزالة هذه الدواعي

والصوارف عن القلب فإنه إن كان الفاعل لها هو أصل الإنسان لافتقر في تحصيل هذه الدواعي والصوارف إلى دواعي سابقة عليها ولزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال، وإن كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح أنه تعالى هو الذي يسلك هذه الدواعي والصوارف في القلوب وذلك عين ما ذكرناه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ففيه قولان:

الأول: أنه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل في القرون الماضية.

الثاني: وهو قول الزجاج: وقد مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم، وهذا أليق بظاهر اللفظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] والحاصل: أن القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام في كونه رسولاً من عند الله تعالى بين الله تعالى في هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن أنا نراهم فنحن في الحقيقة لا نراهم. والحاصل: أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة في نزول الملائكة فلهذا السبب ما أنزلهم.

فإن قيل: كيف يجوز من الجماعة العظيمة أن يصيروا شاكّين في وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة في النهار الواضح، ولو جاز حصول الشك في ذلك كانت السفسطة لازمة، ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة.

أجاب القاضي عنه: بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون، وإنما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول، وقد يجوز أن يقدم الإنسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة، ثم سأل نفسه وقال: أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك في المشاهدات. وأجاب بأنه يصح ذلك إذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم، وأيضًا فهذه الحكاية إنما وقعت عن قوم مخصوصين، سألوا الرسول ﷺ إنزال الملائكة، وهذا السؤال ما كان إلا من رؤساء القوم، وكانوا قليلي العدد، وإقدام العدد القليل على ما يجري مجرى المكابرة جائز.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يقال: ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل عمل بالنهار، كما لا يقولون بات يبيت إلا

بالليل، والمصدر الظلول، وقوله: ﴿فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ يقال: عرج يعرج عروجًا، ومنه المعارج، وهي المصاعد التي يصعد فيها، وللمفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن قوله: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ من صفة المشركين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي ﷺ من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.

القول الثاني: أن هذه العروج للملائكة، والمعنى: أنه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبوابًا من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه، ولقالوا: إن السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الأباطيل التي لا حقيقة لها وقوله: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتۡ﴾ بالتخفيف، والباقون مشددة الكاف قال الواحدي سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا: وأصله من السكر وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجري، والتشديد يوجب زيادة وتكثيرًا وقال أبو عمرو بن العلاء: هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فإذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى، وقال أبو عبيدة: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال: سكرت الريح سكرًا إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس:

جَـذَلْـتُ عَـلَـى لَـيْـلَـةٍ سَـاهِـرَةٍ ... فَـلَـيْـسَـتْ بِـطَـلْـقٍ وَلاَ سَـاكِـرَةٍ[(١)]

ويقال: سكرت عينه سكرًا إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت أبصارنا، أي سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجاري، فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه في الجرية، والسكر في الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في الصحو، فهذه أقوال أربعة في تفسير ﴿سُكِّرَتۡ﴾ وهي في الحقيقة متقاربة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الجبائي: من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى

---

(١) تقدمت ترجمة أوس.

يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل، وذلك لأنهم إذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذي يرى أنه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان، ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق، بل هي تكون من باب الآراء الباطلة من ذلك الساحر، وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة، وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد. ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية، ومنها أرضية، بدأ منها بذكر الدلائل السماوية، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ قال الليث: البرج واحد من بروج الفلك، والبروج جمع وهي اثنا عشر برجًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار، هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين أرباب الأحكام، وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاض المختلفة في الحقيقة، وكل مركَّب فلا بد له من مركِّب يركِّبُ تلك الأجزاء والأبعاض بحسب الاختيار والحكمة، فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار، وهو المطلوب، وأما قوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي بالشمس والقمر والنجوم ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي للمعتبرين بها والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾. فإن قيل: ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم، والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأي حاجة إلى حفظ السماء منه؟

قلنا: لما منعه من القرب منها، فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول: معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة. ثم قيل للقتل رجم تشبيهًا له بالرجم بالحجارة، والرجم أيضًا السب والشتم لأنه رمي بالقول القبيح ومنه قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] أي لأسبنك، والرجم اسم لكل ما يرمى به، ومنه قوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] أي مرامي لهم، والرجم القول بالظن، ومنه قوله: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضًا اللعن والطرد، وقوله الشيطان الرجيم، قد فسروه بكل هذه الوجوه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الشياطين لا تحجب عن السموات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى

الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاثة سموات، فلما ولد رسول الله ﷺ منعوا من السموات كلها، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمى بشهاب. وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ لا يمكن حمل لفظة ﴿إِلَّا﴾ ههنا على الاستثناء، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها، وإنما يحاولون القرب منها، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق، فوجب أن يكون معناه: لكن من استرق السمع. قال الزجاج: موضع ﴿مَنِ﴾ نصب على هذا التقدير. قال: وجائز أن يكون في موضع خفض، والتقدير: إلا ممن. قال ابن عباس: في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ يريد الخطفة اليسيرة، وذلك لأن المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله، ومنهم من يحيله فيصير غولاً يضل الناس في البراري. وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ ذكرنا معناه في سورة الأعراف في قصة بلعم بن باعورا في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥] معناه لحقه، والشهاب شعلة نار ساطع، ثم يسمى الكوكب شهابًا، والسنان شهابًا لأجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار.

واعلم أن في هذا الموضع أبحاثًا دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن، ونذكر منها ههنا إشكالاً واحدًا، وهو أن لقائل أن يقول: إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان إلى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم، ثم إنها تنزل وتلقي تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الإخبار عن المغيبات عن كونه معجزًا لأن كل غيب يخبر عنه الرسول ﷺ قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزًا دليلاً على الصدق، لا يقال إن الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبي ﷺ لأنا نقول هذا العجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكون محمد رسولاً وكون القرآن حقًا، والقطع بهذا لا يمكن إلا بواسطة المعجز، وكون الإخبار عن الغيب معجزًا لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال، ويمكن أن يجاب عنه بأنا نثبت كون محمد ﷺ رسولاً بسائر المعجزات، ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق، وعند ذلك يصير الإخبار عن الغيوب معجز، وبهذا الطريق يندفع الدور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية، وهي أنواع:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء، وفيه احتمال آخر، وذلك لأن الأرض جسم، والجسم هو الذي يكون ممتدًا في الجهات الثلاثة، وهي الطول والعرض والثخن، وإذا كان كذلك، فتمدد جسم الأرض في هذه الجهات الثلاثة

مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فإنه يجب أن يكون متناهيًا وإذا كان كذلك كان تمدد جسم الأرض مختصًا بمقدار معين مع أن الإزدياد عليه معقول، والانتقاص عنه أيضًا معقول، وإذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الأزيد والأنقص اختصاصًا بأمر جائز وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر، وهو الله سبحانه وتعالى.

فإن قيل: هل يدل قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ على أنها بسيطة؟

قلنا: نعم لأن الأرض بتقدير كونها كرة، فهي كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها، إذا نظر إليها فإنها ترى كالسطح المستوي، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] سماها أوتادًا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذا ههنا.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وهي الجبال الثوابت، واحدها راسي، والجمع راسية، وجمع الجمع رواسي، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وفي تفسيره وجهان:

الوجه الأول: قال ابن عباس: لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها.

فإن قيل: أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون إن الله خلق الأرض والجبال معًا.

قلنا: كلا الوجهين محتمل.

والوجه الثاني: في تفسير قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال.

النوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن الضمير في قوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون راجعًا إلى الأرض وأن يكون راجعًا إلى الجبال الرواسي، إلا أن رجوعه إلى الأرض أولى لأن أنواع النبات المنتفع بها إنما تتولد في الأراضي، فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع، ومنهم من قال: رجوع ذلك الضمير إلى الجبال أولى، لأن المعادن إنما تتولد في الجبال، والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة. قال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأنه

تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الأرض ذلك المقدار، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ لأن ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين: الأول: بحسب الأكل والانتفاع بعينه. والثاني: أن ينتفع بالتجارة فيه، والقائلون بهذا القول قالوا: الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان إطلاق لفظ الوزن لإرادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا: ويتأكد ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

والوجه الثاني: في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع.

والوجه الثالث: في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون: فلان موزون الحركات أي حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة، وهذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسبًا حسنًا بعيدًا عن اللغو والسخف فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل، بالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب، فقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة.

والوجه الرابع: في تفسير هذا اللفظ أن الشيء الذي ينبت من الأرض نوعان: المعادن والنبات: أما المعادن فهي بأسرها موزونة وهي الأجساد السبعة والأحجار والأملاح والزاجات وغيرها. وأما النبات فيرجع عاقبتها إلى الوزن، لأن الحبوب توزن، وكذلك الفواكه في الأكثر والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكرنا الكلام في المعايش في سورة الأعراف وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

فيه قولان:

القول الأول: أنه معطوف على محل لكم، والتقدير: وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين.

والقول الثاني: أنه عطف على قوله: ﴿مَعَٰيِشَ﴾ والتقدير: وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين، وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة:

الاحتمال الأول: أن كلمة (من) مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد، وتقرير الكلام أن الناس يظنون في أكثر الأمر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد، وذلك خطأ فإن الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم، والمملوك والمالك فإنه لولا أنه تعالى خلق الأطعمة والأشربة، وأعطى القوة الغاذية والهاضمة، وإلا لم يحصل لأحد رزق.

والاحتمال الثاني: وهو قول الكلبي قال: المراد بقوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ الوحش والطير.

فإن قيل: كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل؟

قلنا: الجواب عنه من وجهين: الأول: أن صيغة من قد وردت في غير العقلاء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾[النور: ٤٥]. والثاني: أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقًا على الله حيث قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾[هود: ٦] فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة، فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل، ألا ترى أنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾[النمل: ١٨] فذكرها بصيغة جمع العقلاء، وقال في الأصنام: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾[الشعراء: ٧٧] وقال: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[الأنبياء: ٣٣] فكذا ههنا لا يبعد إطلاق اللفظة المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بعض الحكايات أنه قلت المياه في الأودية والجبال واشتد الحر في عام من الأعوام فحكى عن بعضهم أنه رأى بعض الوحش رافعًا رأسه إلى السماء عند اشتداد عطشه قال: فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الأودية منها.

والاحتمال الثالث: أنا نحمل قوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ على الإماء والعبيد، وعلى الوحش والطير، وإنما أطلق عليها صيغة من تغليبًا لجانب العقلاء على غيرهم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ لا يجوز أن يكون مجرورًا عطفًا على الضمير المجرور في لكم، لأنه لا يعطف على الضمير المجرور، لا يقال أخذت منك وزيد إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾[الأحزاب: ٧].

واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾[النساء: ١] بالخفض وقد ذكرنا هذه المسألة هنالك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه أنبت في الأرض كل شيء موزون وجعل فيها معايش أتبعه بذكر ما

هو كالسبب لذلك فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

وهذا هو النوع الرابع من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد، **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الواحدي رحمه الله: الخزائن جمع الخزانة، وهي اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضًا عمل الخازن، ويقال: خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة، وعامة المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ هو المطر، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره، وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس رحمهما الله: يريد قدر الكفاية، وقال الحكم: ما من عام بأكثر مطرًا من عام آخر، ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون، وربما كان في البحر، يعني أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم، غير أنه يصرفه إلى من يشاء حيث شاء كما شاء.

ولقائل أن يقول: لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا يدل على أنه تعالى ينزله في جميع الأعوام على قدر واحد، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكمًا من غير دليل. وأقول أيضًا: تخصيص قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ بالمطر تحكم محض، لأن قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل، وهو الموجود القديم الواجب لذاته، وقوله: ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى. وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجه منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهيًا لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال فقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه، ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهيًا كان لا محالة مختصًا في الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلاً عنه، وكان مختصًا بحيز معين مع جواز حصوله في سائر الأحياز بدلاً عن ذلك الحيز، وكان مختصًا بصفات معينة، مع أنه كان يجوز في العقل حصول سائر الصفات بدلاً عن تلك الصفات، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين، والصفات المعينة بدلاً عن أضدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ والمعنى: أنه لولا القادر المختار الذي خصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة، والمراد من الإنزال الإحداث والإنشاء والإبداع كقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، والله أعلم.

المسألة الثانية: تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في إثبات أن المعدوم شيء قال لأن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يقتضي أن يكون لجميع الأشياء خزائن، وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى، ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من حيث إنها موجودة، لأنا بينا أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الإحداث والإبداع والإنشاء والتكوين، وهذا يقتضي أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدمًا على حدوثها ودخولها في الوجود، وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات، ثم إنه تعالى أنزل بعضها أي أخرج بعضها من العدم إلى الوجود.

ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله: لا شك أن لفظ الخزائن إنما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادرًا على إيجاد تلك الأشياء وتكوينها وإخراجها من العدم إلى الوجود؟ وعلى هذا التقدير يسقط الاستدلال، والمباحث الدقيقة باقية، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد،

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في وصف الرياح بأنها لواقح. أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس: الرياح لواقح للشجر وللسحاب، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وأصل هذا من قولهم: لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها فحملت، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب. قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: يبعث الله الرياح لتلقيح السحاب فتحمل الماء وتمجه في السحاب، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير إلقاحها للسحاب، وأما تفسير إلقاحها للشجر فما ذكروه.

فإن قيل: كيف قال ﴿لَوَٰقِحَ﴾ وهي ملقحة؟

والجواب: ما ذهب إليه أبو عبيدة أن (لواقح) ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثي أخاه:

لِيُبْكَ يَزِيدُ يَائِسٌ ذُو ضَرَاعَةٍ ... وَأَشْعَثُ مِمَّا طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ

أراد المطوحات وقرر ابن الأنباري ذلك فقال: تقول العرب أبقل النبت فهل باقل يريدون هو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح.

والوجه الثاني: في الجواب قال الزجاج: يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألحقت غيرها لأن

معناها النسبة وهو كما يقال: درهم وازن، أي ذو وزن، ورامح وسائف، أي ذو رمح وذو سيف قال الواحدي: هذا الجواب ليس بمغن، لأنه كان يجب أن يصح اللاقح. بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشيء، لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة، ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة فصح هذا الجواب، والله أعلم.

والوجه الثالث: في الجواب أن الريح في نفسها لاقح وتقريره بطريقين:

الطريق الأول: أن الريح حاصلة للسحاب، والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء.

والطريق الثاني: قال الزجاج: يجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير، كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بالخير، وهذا كما تقول العرب: قد لقحت الحرب وقد نتجت ولدًا أنكد يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا، والله أعلم.

المسألة الثانية: الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركًا لا بد له من سبب، وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئًا من لوازم ذاته، وإلا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال، فلم يبق إلا أن يقال: إنه يتحرك بتحريك الفاعل المختار، والأحوال التي تذكرها الفلاسفة في سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها في هذا الكتاب مرارًا فأبطلناها وبينا أنه لا يمكن أن يكون شيء منها سببًا لحدوث الرياح، فبقي أن يكون محركها هو الله سبحانه.

وأما قوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ ففيه مباحث: الأول: أن ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب؟ وبتقدير أن يقال إنه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء؟ وثانيها: أنه ليس السبب في حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب إلى الأرض لغرض الإحسان إلى العباد كما قال ههنا: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ قال الأزهري: تقول العرب لكل ما كان في بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجري أسقيته أي جعلته شربًا له، وجعلت له منها مسقى، فإذا كانت السقيا لسقيه قالوا سقاه، ولم يقولوا أسقاه. والذي يؤكد هذا اختلاف القراء في قوله: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: ٦٦] فقرؤا باللغتين، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩] قال أبو علي: سقيته حتى روي وأسقيته نهرًا، أي جعلته شربًا له وقوله: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ أي جعلناه سقيًا لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحابًا:

أَقُولُ وَصَوْبُهُ مِنِّي بَعِيدٌ ... يَحُطُّ السَّيْبُ مِنْ قُلَلِ الْجِبَالِ (١)

(١) الشاعر لبيد بن ربيعة تقدمت ترجمته.

سَقَى قَوْمِي بَنِي نَجْدٍ وَأَسْقَى ... نُمَيْرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ

فقوله: سقى قومي ليس يريد به ما يروي عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقيًا لبلادهم يخصبون بها، وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش وليغرهم ما يخصبون به. وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه، وأما قول ذي الرمة:

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ[1]

فمعنى أسقيه أدعو له بالسقاء، وأقول سقاه الله وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ يعني به ذلك الماء المنزل من السماء يعني لستم له بحافظين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الإحياء والإماتة لهذه الحيوانات على وجود الإله القادر المختار.

أما قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

ففيه قولان:

منهم من حمله على القدر المشترك بين إحياء النبات والحيوان ومنهم من يقول: وصف النبات بالإحياء مجاز فوجب تخصيصه بإحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية أنه لا قدرة على خلق الحياة إلا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلاً قاطعًا على وجود الإله الفاعل المختار، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ يفيد الحصر أي لا قدرة على الإحياء ولا على الإماتة إلا لنا، وقوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ معناه: أنه إذا مات جميع الخلائق، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيهًا بالإرث فكان وارثًا من هذا الوجه.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله.

الثاني: أراد بالمستقدمين الصف الأول من أهل الصلاة، وبالمستأخرين الصف الآخر، روي أنه ﷺ رغب في الصف الأول في الصلاة، فازدحم الناس عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والمعنى: أنا نجزيهم على قدر نياتهم.

---

(١) الشاعر ذو الرمة تقدمت ترجمته.

الثالث: قال الضحاك ومقاتل: يعني في وصف القتال.

الرابع: قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله ﷺ وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول لئلا يروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية(١).

الخامس: قيل المستقدمون هم الأموات والمستأخرون هم الأحياء. وقيل المستقدمون هم الأمم السالفة، والمستأخرون هم أمة محمد ﷺ، وقال عكرمة: المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق.

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أتبعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ تنبيهًا على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ معناه: أن الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب.

المسألة الثانية: ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها، وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث إلى حادث أول هو أول الحوادث، وإذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس، وإذا كان كذلك فذلك الإنسان الأول غير مخلوق من الأبوين فيكون مخلوقًا لا محالة بقدرة الله تعالى. فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إشارة إلى ذلك الإنسان

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (الإمامة) باب (المنفرد خلف الصف) (١/ ٥٨٢) حديث رقم/ ٨٦٩، حدثنا قتيبة... به، والترمذي في كتاب (التفسير) باب (من سورة الحجر) (٥/ ٢٧٦) حديث رقم/ ٣١٢٢، حدثنا قتيبة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (الصلاة) باب (الخشوع في الصلاة) (١/ ٣٣٢) حديث رقم/ ١٠٤٦، حدثنا حميد بن مسعدة وأبو بكر بن خلاد... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠٥) حديث رقم/ ٢٧٨٤، قال: حدثنا شريح... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (٣/ ٩٧/ ٩٨) حديث رقم/ ١٦٩٦، جميعا (قتيبة، حميد، ابن خلاد، شريح، نصر) عن نوح بن قيس... به.

الأول، والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام، ونقل في (كتب الشيعة) عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر وأقول: هذا لا يقدح في حدوث العالم بل لأمر كيف كان، فلا بد من الانتهاء إلى إنسان أول هو أول الناس وأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم، فلا طريق إلى إثباته إلا من جهة السمع.

واعلم أن الجسم محدث، فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الأجسام يكون مخلوقًا عن عدم محض، وأيضًا دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] على أن آدم مخلوق من تراب، ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين، وهي قوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] وجاء في هذه الآية أن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون، والأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار، ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الأجسام كان، بل هو قادر على خلقه ابتداء، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن، لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه.

المسألة الثالثة: في الصلصال قولان: قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت في صوته مدًا فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة. قال المفسرون: خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به، ولم يروا شيئًا من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح. وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً.

والقول الثاني: الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل إذا نتن وتغير، وهذا القول عندي ضعيف، لأنه تعالى قال: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وكونه حمأ مسنونًا يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالاً مغايرًا لكونه حمأ مسنونًا، ولو كان كونه صلصالاً عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً، وبين كونه حمأ مسنونًا تفاوت، وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن. وقال أبو عبيدة والأكثرون حماة بوزن كمأة وقوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾.

فيه أقوال:

الأول: قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء، فهو مسنون أي تغير. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي لم يتغير.

الثاني: المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر إذا حككته عليه، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمي المسن مسنًا لأن الحديد يسن عليه.

والثالث: قال الزجاج: هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق لأنه متى كان كذلك فقد تغير.

الرابع: قال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، والسنُّ والصبُّ يقال سن الماء على وجهه سنًا.

الخامس: قال سيبويه: المسنون المصور على صورة ومثال، من سنة الوجه وهي صورته.

السادس: روي عن ابن عباس أنه قال: المسنون الطين الرطب، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة، لأنه إذا كان رطبًا يسيل وينبسط على الأرض، فيكون مسنونًا بمعنى أنه مصبوب.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾ فاختلفوا في أن الجان من هو؟ فقال عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة. وقال ابن عباس في رواية أخرى: الجان هو أب الجن وهو قول الأكثرين. وسمي جانًا لتواريه عن الأعين، كما سمي الجنين جنينًا لهذا السبب، والجنين متوارٍ في بطن أمه، ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك: جن الشيء إذا ستره، فالجان المذكور ههنا يحتمل أنه سمي جانًا لأنه يستر نفسه عن أعين بني آدم، أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية. واختلفوا في الجن فقال بعضهم: إنهم جنس غير الشياطين والأصح أن الشياطين قسم من الجن، فكل من كان منهم مؤمنًا فإنه لا يسمى بالشيطان، وكل من كان منهم كافرًا يسمى بهذا الإسم، والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار، فكل من كان كذلك كان من الجن، وقوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ قال ابن عباس: يريد من قبل خلق آدم، وقوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ معنى السموم في اللغة: الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار، على ما ورد في الخبر أنها لفح جهنم. قيل: سميت سمومًا لأنها بلطفها تدخل في مسام البدن، وهي الخروق الخفية التي تكون في جلد الإنسان يبرز منها عرقه وبخار بطنه. قال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق الله بها الجان وتلا هذه الآية.

فإن قيل: كيف يعقل خلق الجان من النار؟

قلنا: هذا على مذهبنا ظاهر، لأن البنية عندنا ليست شرطًا لإمكان حصول الحياة، فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد، فكذلك يكون قادرًا على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار، واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال: لأن الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الإجماع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى وتمرد.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما تفسير كونه بشرًا. فالمراد منه كونه جسمًا كثيفًا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر، والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالاً من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره. وأما قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾.

ففيه قولان: الأول: فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية. والثاني: فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

وأما قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ففيه مباحث: الأول: أن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفًا له وتكريمًا. وقوله: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. فيه مباحث:

أحدها: أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة.

وثانيها: أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض، ومن الناس من لا يجوز أن يقال: إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] فقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] يفيد الحصر، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يفيد العموم، إلا أن الخاص مقدم على العام. وثالثها: أن ظاهر الآية يدل

على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له، لأن قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ قال الخليل وسيبويه قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال: ﴿كُلُّهُمْ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: وقول الخليل وسيبويه أجود، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالاً وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أجمعوا على أن إبليس كان مأمورًا بالسجود لآدم، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف وتقديره أن قائلاً قال: هلا سجد فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه.

أما قوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ أي قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضي أنه تعالى تكلم معه، فعند هذا قال بعض المتكلمين: إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله، إلا أن هذا ضعيف، لأن إبليس قال في الجواب: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ﴾ فقوله: ﴿خَلَقْتَهُۥ﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم، ولعل الجواب عنه أن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصبًا عاليًا إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام، فأما إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا، وقوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ .

فيه بحثان:

البحث الأول: اللام في قوله: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾ لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح مني أن أسجد لبشر.

البحث الثاني: معنى هذا الكلام أن كونه بشرًا يشعر بكونه جسمًا كثيفًا وهو كان روحانيًا لطيفًا، فالتفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه. كأنه يقول: البشر جسماني كثيف له بشرة، وأنا روحاني لطيف، والجسماني الكثيف أدون حالاً من الروحاني اللطيف، والأدون كيف يكون مسجودًا للأعلى، وأيضًا أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون، فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون، فالكلام الأول إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية، وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني

إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل، فهذا مجموع شبهة إبليس وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فهذا ليس جوابًا عن تلك الشبهة على سبيل التصريح، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه. وتقريره أن الذي قاله الله تعالى نص، والذي قاله إبليس قياس، ومن عارض النص بالقياس كان رجيمًا ملعونًا. وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الأعراف، وقوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل المراد من جنة عدن، وقيل من السموات، وقيل من زمرة الملائكة، وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الأعراف وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم مثل قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

فإن قيل: كلمة (إلى) تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة، وعند قيام القيامة يزول اللعن.

أجابوا عنه من وجوه: الأول: المراد منه التأبيد، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] في التأبيد. والثاني: أنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذابًا ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَأَنظِرْنِي﴾ متعلق بما تقدم والتقدير: إذا جعلتني رجيمًا ملعونًا إلى يوم الدين فأنظرني فطلب الإبقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة. لأن قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القيامة، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة، وغرضه منه أن لا يموت لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت ألبتة. ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ واختلفوا في المراد منه على وجوه: **أحدها:** أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق، وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لأن من المعلوم أن يموت كل الخلائق فيه. وقيل: إنما سماه الله تعالى بهذا الاسم، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. **وثانيها:** أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي

ذكره إبليس وهو قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وإنما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم.

فإن قيل: لما أجابه الله تعالى إلى مطلوبه لزم أن لا يموت إلى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضًا، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية.

قلنا: يحمل قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى ما يكون قريبًا منه. والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث، وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام إلى الوجه الأول.

وثالثها: أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى، وليس المراد منه يوم القيامة.

فإن قيل: إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت، لأن فيه إغراء بالمعاصي، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

أجيب عنه بأن هذا الإلزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلومًا للمكلف. فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم القيامة فيه فلم يلزم منه الإغراء بالمعاصي.

وأجيب عن هذا الجواب بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين إلا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: الباء في ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ للقسم وما مصدرية، وجواب القسم لأزينن. والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص: ٨٢] إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله، وهي من صفات الذات، وفي قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أقسم بإغواء الله وهو من صفات الأفعال. والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه. ونقل الواحدي عن قوم آخرين أنهم قالوا: الباء ههنا بمعنى السبب، أي بسبب كوني غاويًا لأزينن كقول القائل، أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار، وبطاعته ليدخلن الجنة.

البحث الثاني: اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه:

الأول: أن إبليس استمهل وطلب البقاء إلى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الإمهال والإبقاء لإغواء بني آدم وإضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه إلى هذا المطلوب، ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل، ولما مكنه من الإغواء والإضلال والوسوسة.

الثاني: أن أكابر الأنبياء والأولياء مجدون ومجتهدون في إرشاد الخلق إلى الدين الحق، وأن إبليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والإغواء، فلو كان مراد الله تعالى هو الإرشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإهلاك المضلين والمغوين، وحيث فعل بالضد منه، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر.

الثالث: أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون إلى يوم الدين كان ذلك إغراء له بالكفر والقبيح، لأنه أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترىء حينئذ على أنواع المعاصي والكفر.

الرابع: أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الإمهال سببًا لمزيد عذابه، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه.

الخامس: أنه صرح بأن الله أغواه فقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال: هذا كلام إبليس وهو ليس بحجة، وأيضًا فهو معارض بقول إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فأضاف الإغواء إلى نفسه، لأنا نقول.

أما الجواب عن الأول: فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فإن الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقًا فيما قال.

وأما الجواب عن الثاني: فهو أنه قال في هذه الآية: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ فالمراد ههنا من قوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ هو المراد من قوله في تلك الآية: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣].

السؤال السادس: أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول: إما أن يقال: إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه، أو ما عرف ذلك، فإن كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاويًا لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل، ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة، وأما إن قلنا: بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فهذا مجموع السؤالات الواردة في هذه الآية.

أما الإشكال الأول: فللمعتزلة فيه طريقان: **الطريق الأول:** وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته، فبتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته فإن ذلك الكافر، والعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية، فلما كان الأمر كذلك، لا جرم أمهله هذه المدة. **الطريق الثاني:** وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد

أن يقال: إنه تعالى علم أن أقوامًا يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية، بل الكافر والعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية، أقصى ما في الباب أن يقال: الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها، إلا أن على هذا التقدير تصير وسوسته سببًا لزيادة المشقة في أداء الطاعات، وذلك لا يمنع الحكيم من فعله، كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سببًا لمزيد الشبهات، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا، وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني.

وأما السؤال الثالث: وهو أن إعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والإكثار منها، فجوابه أن هذا إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي أما إذا علم الله تعالى من حاله أن ذلك لايوجب التفاوت ألبتة، فالسؤال زائل، وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع.

وأما السؤال الخامس: وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى: أحدها: المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعاء إلى معصيتك. وثانيها؛ المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضًا عنه بالدعاء إلى المعصية. وثالثها: أن يكون المراد بالإغواء الأول الخيبة، وبالثاني الإضلال. ورابعها: أن المراد بإغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالسجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه، يعني أنه حصل ذلك الغي عقيبه باختيار إبليس، فأما أن يقال: إن ذلك الأمر صار موجبًا لذاته لحصول ذلك الغي، فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك، هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف، أما قوله إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول: هذا باطل، ويدل عليه القرآن والبرهان، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦] فأضاف تلك الزلة إلى الشيطان، وقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] فأضاف الإخراج إليه، وقال موسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥] وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثرًا، وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبدًا في القبائح. وينفره عن الخيرات، مثل شخص كان حاله بالضد منه، والعلم بهذا التفاوت ضروري. وأما قوله إن وجوده يصير سببًا لزيادة المشقة في الطاعة فنقول: تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين، وفي الإلقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو التقدير الأكثر الأغلب، وكل من يراعي المصالح، فإن رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلاً، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة، وأما قوله: المراد من قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الخيبة عن الرحمة أو الإضلال عن طريق الجنة فنقول: كل هذا بعيد، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه

عن طريق الجنة، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى فثبت أن الإشكالات لازمة وأن أجوبتهم ضعيفة، والله أعلم.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن إبليس استثنى المخلصين، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلون منه، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر هذا الإستثناء أن لا يصير كاذبًا في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الخساسة.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو: ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام في كل القرآن، والباقون بفتح اللام. وجه القراءة الأولى أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الإيمان والتوحيد، ومن فتح اللام فمعناه: الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان، والتوفيق، والعصمة، وهذه القراءة تدل على أن الإخلاص والإيمان ليس إلا من الله تعالى.

المسألة الثالثة: الإخلاص جعل الشيء خالصًا عن شائبة الغير فنقول: كل من أتى بعمل فإما أن يكون قد أتى به لله فقط أو لغير الله فقط، أو لمجموع الأمرين، وعلى هذا التقدير الثالث فإما أن يكون طلب رضوان الله راجحًا أو مرجوحًا أو معادلاً، والتقدير الرابع أن يأتي به لا لغرض أصلاً وهذا محال، لأن الفعل بدون الداعية محال.

أما الأول: فهو الإخلاص في حق الله تعالى، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير، فهذا هو الإخلاص.

وأما الثاني: وهو الإخلاص في حق غير الله، فظاهر أن هذا لا يكون إخلاصًا في حق الله تعالى.

وأما الثالث: وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحًا، فهذا يرجى أن يكون من المخلصين، لأن المثل يقابله المثل. فيبقى القدر الزائد خالصًا عن الشوب.

وأما الرابع والخامس: فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى، والحاصل أن القسم الأول: إخلاص في حق الله تعالى قطعًا. والقسم الثاني: يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الإخلاص وأما سائر الأقسام فهو خارج عن الإخلاص قطعًا، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾.

ففيه وجوه:

الأول: أن إبليس لما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فلفظ المخلص يدل على الإخلاص، فقوله هذا عائد إلى الإخلاص، والمعنى: أن الإخلاص طريق علي وإلي، أي أنه يؤدي إلى

كرامتي وثوابي، وقال الحسن: معناه هذا صراط إلي مستقيم، وقال آخرون: هذا صراط من مر عليه، فكأنه مر علي وعلى رضواني وكرامتي وهو كما يقال: طريقك علي. الثاني: أن الإخلاص طريق العبودية فقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم. الثالث: قال بعضهم: لما ذكر إبليس أنه يغوي بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته فقال تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي تفويض الأمور إلى إرادتي ومشيئتي طريق علي مستقيم. الرابع: معناه: هذا صراط علي تقريره وتأكيده، وهو مستقيم حق وصدق، وقرأ يعقوب: ﴿صِرَٰطٌ عَلِيٌّ﴾ بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله: ﴿صِرَٰطٌ﴾ أي هو علي بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه. قال الواحدي: معناه أن طريق التفويض إلى الله تعالى والإيمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن إبليس لما قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أوهم هذا الكلام أن له سلطانًا على عباد الله الذين يكونون من المخلصين، فبين تعالى في هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين، بل من اتبع منهم إبليس باختياره صار متبعًا له، ولكن حصول تلك المتابعة أيضًا ليس لأجل أن إبليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها والحاصل في هذا القول: أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانًا، فبين تعالى كذبه فيه، وذكر أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] قال الجبائي: هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما يقوله العامة، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه، وفي الآية قول آخر، وهو أن إبليس لما قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] فذكر أنه لا يقدر على إغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فلهذا قال الكلبي: العباد المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس.

واعلم أن على القول الأول يمكن أن يكون قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ استثناء، لأن المعنى: أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فإن لك عليهم سلطانًا بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي.

وأما على القول الثاني فيمتنع أن يكون استثناء، بل تكون لفظة (إلا) بمعنى لكن، وقوله:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد إبليس وأشياعه، ومن اتبعه من الغاوين.

ثم قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: إنها سبع طبقات: بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات، ويدل على كونها كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

والقول الثاني: إن قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام: ولكل قسم باب، وعن ابن جريج: أولها: جهنم. ثم لظى. ثم الحطمة. ثم السعير. ثم سقر. ثم الجحيم. ثم الهاوية. قال الضحاك: الطبقة الأولى: فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون. والثانية: لليهود. والثالثة: للنصارى. والرابعة: للصابئين. والخامسة: للمجوس. والسادسة: للمشركين. والسابعة: للمنافقين. وقوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿جُزُءٌ مَقْسُومٌ﴾ والباقون (جز) بتخفيف الزاي. وقرأ الزهري: (جز) بالتشديد، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي، كقولك: خب في خبء، ثم وقف عليه بالتشديد.

المسألة الثانية: الجزء بعض الشيء، والجمع الأجزاء، وجزأته جعلته أجزاء. والمعنى: أنه تعالى يجزي أتباع إبليس أجزاء، بمعنى أنه يجعلهم أقسامًا وفرقًا، ويدخل في كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف. والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة، فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قولان:

القول الأول: قال الجبائي وجمهور المعتزلة: القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصي. قالوا: لأنه اسم مدح فلا يتناول إلا من يكون كذلك.

والقول الثاني: وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، وهو المنقول عن ابن عباس أن المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به. وأقول: هذا القول هو الحق الصحيح، والذي يدل عليه هو أن المتقى هو الآتي بالتقوى مرة واحدة، كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة واحدة، والقاتل هو الآتي بالقتل مرة واحدة، فكما أنه ليس من شرط الوصف كونه ضاربًا وقاتلًا

كونه آتيًا بجميع أنواع الضرب والقتل، فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيًا كونه آتيًا بجميع أنواع التقوى، والذي يقوي هذا الكلام أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتيًا بالتقوى، لأن كل فرد من أفراد الماهية فإنه يجب كونه مشتملاً على تلك الماهية، فالآتي بالتقوى يجب أن يكون متقيًا، فثبت أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقيًا، ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على أن ظاهر الأمر لا يفيد التكرار.

إذا ثبت هذا فنقول: ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شيء واحد، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم، وأيضًا فإن هذه الآية وردت عقيب قول إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] وعقيب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فلأجل هذه الدلائل اعتبرنا الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزيد فيه قيد آخر، لأن تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الأصل والظاهر، فثبت أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يتناول جميع القائلين بلا إله إلا الله محمد رسول الله قولاً واعتقادًا سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين، وكلام ظاهر.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أما الجنات فأربعة لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] فيكون المجموع أربعة وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] يؤكد ما قلناه، لأن من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ [الرحمن: ٤٦] يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة، وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الأنهار.

فإن قيل: أتقولون إن كل واحد من المتقين يختص بعيون، أو تجري تلك العيون من بعض إلى بعض قيل: لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان، ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم، ويحتمل أن يكون مجرى من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ يحتمل أن القائل لقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ هو الله تعالى وأن يكون ذلك القائل بعض ملائكته، وفيه سؤال لأنه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم في جنات وعيون، وإذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾.

والجواب عنه من وجهين:

الأول: لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

الثاني: لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم

ادخلوها وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة، والأمن من زوالها.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ من قولهم: أغل في جوفه وتغلغل، أي إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم، وعن علي عليه السلام أنه قال: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، وحكى عن الحرث بن الأعور أنه كان جالسًا عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي: مرحبًا بك يا ابن أخي، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فقال الحرث: كلا بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد. فقال عليه السلام: فلمن هذه الآية؟ لا أم لك يا أعور[١]، وروي أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض، ثم يؤمر بهم إلى الجنة. وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش، والحقد والحسد[٢]، وقوله: ﴿إِخْوَٰنًا﴾ نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السرير معروف والجمع أسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال: سُرُر وسُرَر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فإن جمعه فُعُل وفُعَل نحو: سرر وسرر، وجُدُد وجُدَد قال المفضل: بعض تميم وكلب يفتحون، لأنهم يستثقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد، وقال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور. قال الليث: وسرير العيش مستقره الذي اطمأن إليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس: يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية، وقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ التقابل التواجه، وهو نقيض التدابر، ولا شك أن المواجهة أشرف الأحوال وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ النصب الإعياء والتعب أي لا ينالهم فيها تعب: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ والمراد به كونه خلودًا بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمالاً بلا نقصان، وفوزًا بلا حرمان.

واعلم أن للثواب أربع شرائط: وهي أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة.

أما القيد الأول: وهو كونها منفعة فإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وأما القيد الثاني: وهو كونها مقرونة بالتعظيم فإليه الإشارة بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الإجلال.

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (القصاص يوم القيامة) (٥/ ٢٣٩٤) حديث رقم/ ٦١٧٠، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٢) حديث رقم/ ١١١١٠، كلاهما من طريق قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم... فذكره.

وأما القيد الثالث: وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر، فاعلم أن المضار إما أن تكون روحانية، وإما أن تكون جسمانية، أما المضار الروحانية فهي الحقد، والحسد، والغل، والغضب، وأما المضار الجسمانية فكالإعياء والتعب فقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ إشارة إلى نفي المضار الجسمانية.

وأما القيد الرابع: وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتبرة في ماهية الثواب ولحكماء الإسلام في هذه الآية مقال، فإنهم قالوا: المراد من قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال، وقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الإلهية، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية، فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المرايا المتقابلة المتحاذية، فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: أثبتت الهمزة الساكنة في (نبىء) صورة، وما أثبتت في قوله: ﴿دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] (وجزء) لأن ما قبلها ساكن فهي تحذف كثيرًا وتلقى حركتها على الساكن قبلها، ف (نبىء) في الخط على تحقيق الهمزة، وليس قبل همزة (نبىء) ساكن فأجروْها على قياس الأصل:

المسألة الثانية: اعلم أن عباد الله قسمان: منهم من يكون متقيًا، ومنهم من لا يكون كذلك، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾.

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، فهنا وصفهم بكونهم عبادًا له، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفورًا رحيمًا، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفورًا رحيمًا ومن أنكر ذلك كان مستوجبًا للعقاب الأليم. وفي الآية لطائف:

إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ وهذا تشريف عظيم. ألا ترى أنه لما أراد

أن يشرف محمدًا ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

وثانيها: أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله: ﴿أَنِّي﴾. وثانيها: قوله: ﴿أَنَا﴾.

وثالثها: ادخال حرف الألف واللام على قوله: ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وثالثها: أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها: أنه لما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ كان معناه نبيء كل من كان معترفًا بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى. وعن قتادة قال: بلغنا عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ يَعْلَمُ الْعَبْدُ قَدْرَ عَفْوِ اللهِ تَعَالَى مَا تَوَرَّعَ مِنْ حَرَامٍ، وَلَوْ عَلِمَ قَدْرَ عِقَابِهِ لَبَخَعَ نَفْسَهُ»(١) أي قتلها وعن النبي ﷺ أنه مر بنفر من أصحابه، وهم يضحكون فقال: «أَتَضْحَكُونَ وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ»(٢) فنزل قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبًا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذرًا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿عِبَادِي﴾ والتقدير: ونبيء عبادي عن ضيف إبراهيم، يقال: أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة إذا أخبرتهم وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر. وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضًا بأنه تعالى سيعذب

(١) مرسل: رواه ابن أبي الدنيا في (حسن الظن بالله) (١/ ٧٥) حديث رقم/ ٦٥، والطبري في (تفسيره) (١٧/ ١١١) كلاهما من طريق سعيد عن قتادة... به، وهذا الحديث من مراسيل قتادة.

(٢) لم اجده.

الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار.

المسألة الثانية: الضيف في الأصل مصدر ضاف يضيف إذا أتى إنسانًا لطلب القرى، ثم سمى به، ولذلك وحد في اللفظ وهم جماعة.

فإن قيل: كيف سماهم ضيفًا مع امتناعهم عن الأكل؟

قلنا: لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك. وقيل أيضًا: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجىء إليه يسمى ضيفًا وإن لم يأكل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَـٰمًا﴾ أي نسلم عليك سلامًا أو سلمت سلامًا، فقال إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير وقت وقرأ الحسن: ﴿لَا تُوجَلْ﴾ بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرىء لا تأجل ولا تواجل من واجله بمعنى أو جله، وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء في سورة هود. وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ حمزة: (إِنَّا نَبْشُرك) بفتح النون، وتخفيف الباء، والباقون: (نُبَشِّرُكَ) بالتشديد.

البحث الثاني: قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، والمعنى: إنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل.

البحث الثالث: قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ بشروه بأمرين: أحدهما: أن الولد ذكر والآخر أنه يصير عليمًا، واختلفوا في تفسير العليم، فقيل: بشروه بنبوته بعده. وقيل: بشروه بأنه عليم بالدين. ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون، فمعنى: ﴿عَلَىٰ﴾ ههنا للحال أي حالة الكبر، وقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: لفظ ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال: بأي أعجوبة تبشروني؟

فإن قيل: في الآية إشكالان: الأول: أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر. الثاني: كيف قال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ مع أنهم قد بينوا ما بشروه به، وما فائدة هذا الإستفهام. قال القاضي: أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرّف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابًا، ثم يعطيه الولد، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب.

فإن قيل: فإذا كان معنى الكلام ما ذكرتم فلم قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين.

قلنا: إنهم بينوا أن الله تعالى بشره بالولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة وقوله: فلا تكن من القانطين. لا يدل على أنه كان كذلك، بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ وفيه جواب آخر، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة من ذلك الفرح في ذلك الوقت، وقيل أيضًا: إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقيل أيضًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم؟

المسألة الثانية: قرأ نافع: (تُبَشرونِ) بكسر النون خفيفة في كل القرآن، وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها. والباقون بفتح النون خفيفة، أما الكسر والتشديد فتقديره تبشرونني أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالاً لاجتماع المثلين وطلبًا للتخفيف قال أبو حاتم: حذف نافع الياء مع النون. قال: وإسقاط الحرفين لا يجوز، وأجيب عنه: بأنه أسقط حرفًا واحدًا وهي النون التي هي علامة للرفع. وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى في موضع: ﴿وَلَا تَكُ﴾ [النحل: ١٢٧] وفي موضع: ﴿وَلَا تَكُن﴾ [النمل: ٧٠] فأما فتح النون فعلى غير الإضافة والنون علامة الرفع وهي مفتوحة أبدًا، وقوله: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى: أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحق عليه السلام. ويخرج من صلب إسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فإنه تعالى بشر بأنه يخرج من صلب إسحق أكثر الأنبياء فقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى هذا المعنى وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ نهي لإبراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيرًا أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلاً للمنهى عنه كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] ثم حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام حق، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرًا عليه. وثانيها؛ أن يجهل كونه تعالى عالمًا باحتياج ذلك العبد إليه. وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهًا عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

المسألة الثانية: قرأ أبو عمرو والكسائي: (يَقْنِطُ) بكسر النون ولا تقنطوا كذلك، والباقون بفتح النون وهما لغتان: قَنَطَ يَقْنطُ، نحو ضرب يضرب، وقَنِطَ يَقْنَط نحو علم يعلم، وحكى أبو

عبيدة: قنط يقنط بضم النون، قال أبو علي الفارسي: قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات يدل على ذلك اجتماعهم في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨] وحكاية أبي عبيدة تدل أيضًا على أن قنط بفتح النون أكثر، لأن المضارع من فعل يجيء على يَفْعِلُ ويَفْعَلُ مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجيء مضارع فعل على يَفْعُلُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ سؤال عما لأجله أرسلهم الله تعالى، والخطب والشأن والأمر سواء: إلا أن لفظ الخطب أدل على عظم الحال.

فإن قيل: إن الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

قلنا: فيه وجوه: **الأول:** قال الأصم: معناه ما الأمر الذي توجهتم له سوى البشرى. **الثاني:** قال القاضي: إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيًا، فلما رأى جمعًا من الملائكة علم أن لهم غرضًا آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾. **الثالث:** يمكن أن يقال إنهم قالوا: إنا نبشرك بغلام عليم. في معرض إزالة الخوف والوجل، ألا ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له: ﴿لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٣] ولو كان تمام المقصود من المجيء هو ذكر تلك البشارة لكانوا في أول ما دخلوا عليه ذكروا تلك البشارة، فلما لم يكن الأمر كذلك علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق أنه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

ثم حكى تعالى عن الملائكة أنهم قالوا: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم وأيضًا فقولهم: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه.

فإن قيل: قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ هل هو استثناء منقطع أو متصل؟

قلنا: قال صاحب (الكشاف): إن كان هذا الاستثناء استثناء من (قَوْمٍ) كان منقطعًا، لأن القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين، فاختلف الجنسان، فوجب أن يكون

الاستثناء منقطعًا. وإن كان استثناء من الضمير في (مُجْرِمِينَ) كان متصلاً كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] ثم قال صاحب (الكشاف): ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين، وذلك لأن آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، لأن على هذا التقدير الملائكة أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا إلى آل لوط أصلاً، وأما في المتصل فالملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا وينجوا، وأما قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاعلم أنه قرأ حمزة والكسائي (مُنْجُوهُمْ) خفيفة، والباقون مشددة وهما لغتان.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قال صاحب (الكشاف): هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء، لأن الاستثناء من الإستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، كما لو قيل: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، وكما لو قال: المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثًا إلا ثنتين إلا واحدة، وكما إذا قال: المقر لفلان على عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهمًا، فأما في هذه الآية فقد اختلف الحكمان، لأن قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿أُرْسِلْنَا﴾ أو بقوله ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ قد تعلق بقوله: (منجوهم) فكيف يكون هذا استثناء من استثناء.

وأما قوله: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معنى التقدير في اللغة: جعل الشيء على مقدار غيره. يقال: قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره، وقدر الله تعالى الأقوات أي جعلها على مقدار الكفاية، ثم يفسر التقدير بالقضاء، فقال: قضى الله عليه كذا، وقدره عليه أي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر، وقيل في معنى: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ كتبنا. قال الزجاج: دبرنا. وقيل: قضينا، والكل متقارب.

المسألة الثانية: قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿قَدَّرْنَآ﴾ بتخفيف الدال ههنا وفي النمل. وقرى الباقون فيهما بالتشديد. قال الواحدي يقال: قدرت الشيء وقدرته، ومنه قراءة ابن كثير: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] خفيفًا، وقراءة الكسائي: (والذى قدر فهدى) ثم قال: والمشددة في هذا المعنى أكثر استعمالاً لقوله تعالى؛ ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى، ولم لم يقولوا: قدر الله تعالى؟

والجواب: إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يريدون بذكر هذا الكلام

إظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك، فكذا ههنا. والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله؛ ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ في موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون. ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل إلى النجاة والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك إلى لوط وإلى آله، وأن لوطًا وقومه ما عرفوا أنهم ملائكة الله، فلهذا قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وفي تأويله وجوه: **الأول**: أنه إنما وصفهم بأنهم منكرون، لأنه عليه الصلاة والسلام ما عرفهم، فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لأجل شر يوصلونه إليه، فقال هذه الكلمة. **والثاني**: أنهم كانوا شبابًا مردًا حسان الوجوه، فخاف أن يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة. والثالث: أن النكرة ضد المعرفة فقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم، ولا أعرف أنكم من أي الأقوام، ولأي غرض دخلتم علي، فعند هذه الكلمة قالت الملائكة، بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله، ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال الكلبي: بالعذاب، وقيل باليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه وهو عذاب أولئك الأقوام ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم؛ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قرىء ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى. وروى صاحب الكشاف عن صاحب الإقليد فسر ﴿مِن﴾ السير والقطع آخر الليل. قال الشاعر:

افْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومِ ... كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ معناه: اتبع آثار بناتك وأهلك. وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ الفائدة فيه أشياء:

أحدها: لئلا يتخلف منكم أحد فينا له العذاب.

وثانيها: لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء.

وثالثها: معناه الإسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول: امض لشأنك ولا تعرج على شيء.

ورابعها: لو بقي منه متاع في ذلك الموضع، فلا يرجعن بسببه ألبتة. وقوله: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني الشام. قال المفضل: حيث يقول لكم جبريل. وذلك لأن جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة أهلها ما عملوا مثل عمل قوم لوط. وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عدى قضينا بإلى، لأنه ضمن معنى أوحينا، كأنه قيل: وأوحيناه إليه مقضيًا مبتوتًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] وقوله؛ ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ [يونس: ٧١] ثم إنه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ وفي إبهامه أولاً، وتفسيره ثانيًا تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرأ الأعمش (إن) بالكسر على الاستئناف كان قائلاً قال أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء، وفي قراءة ابن مسعود. وقلنا: (أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ) ودابرهم آخرهم، يعني يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي حال ظهور الصبح.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤوا دار لوط. قيل: إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل: امرأة لوط أخبرتهم بذلك، وبالجملة فالقوم قالوا: نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهًا ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبًا منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين:

الكلام الأول: قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ يقال فضحه يفضحه فضحًا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار، والمعنى أن الضيف يجب إكرامه فإذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك إهانة بي، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ فأجابوه بقولهم: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والمعنى: ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة.

والكلام الثاني: مما قاله لوط قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قيل: المراد بناته من صلبه، وقيل: المراد نساء قومه، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] وفي قراءة أبيّ وهو أب لهم، والكلام في هذه المباحث قد مر بالاستقصاء في سورة هود عليه السلام.

أما قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فيه مسائل:

المسألة الأولى: العَمر والعُمر واحد وسمي الرجل عمرًا تفاؤلاً أن يبقى ومنه قول ابن أحمر:

ذَهَبَ الشَّبَابُ وَأَخْلَقَ الْعُمُرُ[1]

وعمر الرجل يعمر عَمرًا وعُمرًا، فإذا أقسموا به قالوا: لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير. قال الزجاج: لأن الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمري ولعمرك فالتزموا الأخف.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قولان:

الأول: أن المراد أن الملائكة قالت للوط عليه السلام: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في غوايتهم يعمهون، أي يتحيرون فكيف يقبلون قولك، ويلتفتون إلى نصيحتك.

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون: ارتفع قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ بالابتداء والخبر محذوف، والمعنى: لعمرك قسمي وحذف الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو: بالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعاني: ليس في الآية دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فإن ثبت ذلك بدليل قوي قيل به، وإلا فليس في الآية دلالة إلا على أنه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ يقال شرق الشارق يشرق شروقًا لكل ما طلع من جانب الشرق، ومنه قولهم ما ذر شارق أي طلع طالع فقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق يقال أشرق الرجل إذا دخل في الشروق، وهو بزوغ الشمس.

واعلم أن الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب: **أحدها:** الصيحة الهائلة المنكرة. **وثانيها:** أنه جعل عاليها سافلها.

وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل، وكل هذه الأحوال قد مر تفسيرها في سورة هود.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يقال توسمت في فلان خيرًا أي رأيت فيه أثرًا منه وتفرسته فيه، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسمين قيل: المتفرسين، وقيل: الناظرين، وقيل: المتفكرين، وقيل: المعتبرين، وقيل: المتبصرين. قال الزجاج: حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته، والمتوسم الناظر في السمة الدالة تقول: توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته فيه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلى مدينة قوم لوط، وقد سبق ذكرها في قوله؛ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ [الحجر: ٦٧] وقوله: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي هذه القرى وما ظهر

---

(١) ابن أحمر تقدمت ترجمته.

فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف، والذين يمرون من الحجاز إلى الشام يشاهدونها.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال، أما الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه، وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة. فأولها: قصة آدم وإبليس. وثانيها: قصة إبراهيم ولوط. وثالثها: هذه القصة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيبًا فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء، والأيكة الشجر الملتف. يقال: أيكة وأيك كشجرة وشجر. قال ابن عباس: الأيك هو شجر المقل، وقال الكلبي: الأيكة الغيضة، وقال الزجاج: هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر. قال الواحدي: ومعنى إن واللام للتوكيد وإن ههنا هي المخففة من الثقيلة، وقوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ قال المفسرون: اشتد الحر فيهم أيامًا، ثم اضطرم عليهم المكان نارًا فهلكوا عن آخرهم وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ فيه قولان:

القول الأول: المراد قرى قوم لوط عليه السلام والأيكة.

والقول الثاني: الضمير للأيكة ومدين لأن شعيبًا عليه السلام كان مبعوثًا إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله: ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي بطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به. قال الفراء والزجاج: إنما جعل الطريق إمامًا لأنه يؤم ويتبع. قال ابن قتيبة: لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يحتمل أنه مبين في نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره، لأن الطريق يهدي إلى المقصد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

هذه هي القصة الرابعة، وهي قصة صالح. قال المفسرون: الحجر اسم وادٍ كان يسكنه ثمود وقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ المراد منه صالح وحده، ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يريد الناقة، وكان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها، وكثرة لبنها وأضاف الإيتاء إليهم وإن كانت الناقة آية لصالح لأنها آيات رسولهم، وقوله: ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدل على أن النظر والاستدلال واجب وأن التقليد مذموم وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الأعراف وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ يريد من عذاب الله، وقال الفراء: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أن يقع سقفهم عليهم وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الأموال، والله أعلم.

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكأنه قيل: الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم. فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فإذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم، وهذا النظم حسن إلا أنه إنما يستقيم على قول المعتزلة، قال الجبائي: دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا حقًا وبكون الحق لا يكون الباطل، لأن كل ما فعل باطلاً وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقًا ولا يكون مخلوقًا بالحق، وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والأرض من الكفر والمعاصي باطل.

واعلم أن أصحابنا قالوا: هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد، لأنها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والأرض ولكل ما بينهما. ولا شك أن أفعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه، وفي الآية وجه آخر في النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله تعالى بمثل هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد ﷺ، ثم إنه تعالى لما بين أنه أنزل العذاب على الأمم السالفة فعند هذا قال لمحمد ﷺ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ وإن الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل والإنصاف فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك، ثم إنه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم فقال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أي فأعرض عنهم، واحتمل ما تلقى منهم إعراضًا جميلاً بحلم وإغضاء، وقيل: هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد، لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح، فكيف يصير منسوخًا.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ومعناه أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هذا التفاوت، ومع العلم بذلك التفاوت. أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والإرادة. وأما على قول المعتزلة فلأجل المصلحة والحكمة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمدًا ﷺ بها، لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ يحتمل أن يكون سبعًا من الآيات وأن يكون سبعًا من السور وأن يكون سبعًا من الفوائد. وليس في اللفظ ما يدل على التعيين. وأما المثاني: فهو صيغة جمع. واحده مثناة، والمثناة كل شيء يثنى، أي يجعل اثنين من قولك: ثنيت الشيء إذا عطفته أو ضممت إليه آخر، ومنه يقال: لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني، لأنها تثنى بالفخذ والعضد، ومثاني الوادي معاطفه.

إذا عرفت هذا فنقول: سبعًا من المثاني مفهومه سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثنى ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال: الأول: وهو قول أكثر المفسرين: إنه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة، وروي أن النبي ﷺ قرأ الفاتحة وقال: هي السبع المثاني رواه أبو هريرة (١)، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات، وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه: الأول: أنها تثنى في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة. والثاني: قال الزجاج: سميت مثاني لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها. الثالث: سميت آيات الفاتحة مثاني، لأنها قسمت قسمين اثنين، والدليل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**» (٢) والحديث مشهور. الرابع: سميت مثاني لأنها

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (تفسير القرآن) باب (من سورة الحجر) (٥/ ٢٧٧) حديث رقم/ ٣١٢٥، من طريق الفضل بن موسى. . . به، وقال أبو عيسى: حديث عبد العزيز بن محمد أطول وأتم وهذا أصح من حديث عبد الحميد بن جعفر، والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (ولقد آتيناك سبعا من المثاني) (٢/ ٤٧٧) حديث رقم/ ٩١٣، من طريق الفضل بن موسى. . . به، والدارمي في كتاب (فضائل القرآن) باب (فضل فاتحة الكتاب) (٢/ ٣١٨) حديث رقم/ ٣٣٧٣، ومالك في (الموطأ) كتاب (الصلاة) باب (في أم القرآن) (١/ ٨٣) حديث رقم/ ٣٧، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٥٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (وجوب قراءة الفاتحة) (١/ ٣٨/ ٢٩٦)، وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من ترك القراءة في صلاته بفاتحة الكتاب) (١/ ٣٦٤/ ٣٦٥) حديث رقم/ ٨٢١، والترمذي في كتاب (التفسير لسورة الفاتحة) (٥/ ١٨٤) حديث رقم/ ٢٩٥٣، والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب) (٢/ ٤٧٣) حديث رقم/ ٩٠٨، وابن ماجه مختصرا كتاب (إقامة الصلاة) باب (القراءة خلف الإمام) (١/ ٢٧٣) حديث رقم/ ٨٣٨، جميعا عن العلاء. . . به.

قسمان ثناء ودعاء، وأيضًا النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء، والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء. الخامس: سميت الفاتحة بالمثاني، لأنها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة. السادس: سميت بالمثاني، لأن كلماتها مثناة مثل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٥-٧] وفي قراءة عمر: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين). السابع: قال الزجاج: سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه.

واعلم أنا إذا حملنا قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ على سورة الفاتحة فههنا أحكام:

الحكم الأول

نقل القاضي عن أبي بكر الأصم أنه قال: كان ابن مسعود يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن. وأقول: لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة. ثم إنه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن، إلا أن هذا يشكل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] وكذلك قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وللخصم أن يجيب: بأنه لا يبعد أن يذكر الكل، ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الأقسام، أما إذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولاً مغايرًا للمذكور ثانيًا، وههنا ذكر السبع المثاني، ثم عطف عليه القرآن العظيم، فوجب حصول المغايرة.

والجواب الصحيح: أن بعض الشيء مغاير لمجموعه، فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف، والله أعلم.

الحكم الثاني

أنه لما كان المراد بقوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ هو الفاتحة، دل على أن هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين: أحدهما: أن إفرادها بالذكر مع كونها جزءًا من أجزاء القرآن، لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة. والثاني: أنه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما رأينا أن رسول الله ﷺ واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره، وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على أنه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الإبدال فإن فيه خطرًا عظيمًا والله أعلم.

القول الثاني: في تفسير قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ إنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر

وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة معًا. قالوا: وسميت هذه السور مثاني، لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول. وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية. وما نزل شيء منها شيء منها في مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها.

وأجاب قوم عن هذا الإشكال: بأن الله تعالى أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا. ثم أنزله على نبيه منها نجومًا، فلما أنزله إلى السماء الدنيا، وحكم بإنزاله عليه، فهو من جملة ما آتاه، وإن لم ينزل عليه بعد.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ وهذا الكلام إنما يصدق إذا وصل ذلك الشيء إلى محمد ﷺ. فأما الذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد إلى محمد عليه السلام، فهذا الكلام لا يصدق فيه. وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بإنزاله على محمد ﷺ كان ذلك جاريًا مجرى ما نزل عليه فهذا أيضًا ضعيف، لأن إقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر.

والقول الثالث: في تفسير السبع المثاني إنها هي السور التي هي دون الطوال والمئين وفوق المفصل، واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي السَّبْعَ الطُّوَالَ مَكَانَ التَّوْرَاةِ، وَأَعْطَانِي الْمِئِينَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَأَعْطَانِي الْمَثَانِي مَكَانَ الزَّبُورِ، وَفَضَّلَنِي رَبِّي بِالْمُفَصَّلِ**» قال الواحدي: والقول في تسمية هذه السور مثاني كالقول في تسمية الطوال مثاني. وأقول إن صح هذا التفسير عن رسول الله ﷺ فلا غبار عليه وإن لم يصح فهذا القول مشكل، لأنا بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور، وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها، فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور.

والقول الرابع: أن السبع المثاني هوالقرآن كله، وهو منقول عن ابن عباس في بعض الروايات، وقول طاوس قالوا: ودليل هذا القول قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر ٢٣] فوصف كل القرآن بكون مثاني ثم اختلف القائلون بهذا القول في أنه ما المراد بالسبع، وما المراد بالمثاني؟ أما السبع فذكر فيه وجوهًا:

أحدها: أن القرآن سبعة أسباع.

وثانيها: أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم. التوحيد، والنبوة والمعاد، والقضاء، والقدر، وأحوال العالم، والقصص، والتكاليف.

وثالثها: أنه مشتمل على الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، والنداء، والقسم، والأمثال.
وأما وصف كل القرآن بالمثاني، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف، وهذا القول ضعيف أيضًا، لأنه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن، لكان قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ عطفًا

للشيئ على نفسه، وذلك غير جائز.

وأجيب عنه بأنه إنما حسن إدخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثَ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُزْدَحَمِ

وأعلم أن هذا وإن كان جائزًا لأجل وروده في هذا البيت، إلا أنهم أجمعوا على أن الأصل خلافه.

والقول الخامس: يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة، لأنها سبع آيات، ويكون المراد بالمثاني كل القرآن ويكون التقدير: ولقد آتيناك سبع آيات هي الفاتحة وهي من جملة المثاني الذى هو القرآن وهذا القول عين الأول والتفاوت ليس إلا بقليل والله أعلم.

المسألة الثانية: لفظة (من) في قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال الزجاج فيها وجهان: أحدهما: أن تكون للتبعيض من القرآن أي ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة، والمعنى: آتيناك سبعًا هي المثاني كما قال: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] المعنى: اجتنبوا الأوثان، لا أن بعضها رجس والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فاعلم أنه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين، وهو أنه آتاه سبعًا من المثاني والقرآن العظيم، نهاه عن الرغبة في الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه إليها رغبة فيها وفي مد العين أقوال:

القول الأول: كأنه قيل له إنك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالإلتفات إلى الدنيا ومنه الحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ» وقال أبو بكر: من أوتي القرآن فرأى أن أحدًا أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيرًا، وقيل: وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير، فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع.

القول الثاني: قال ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تتمن ما فضلنا به أحدًا من متاع الدنيا، وقرر الواحدي هذا المعنى فقال: إنما يكون مادًا عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه، وكان ﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا، وروي أنه نظر إلى نعم بني المصطلق، وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنع في ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست في أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون.

والقول الثالث: قال بعضهم: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تحسدن أحدًا على ما أوتي من الدنيا قال القاضي: هذا بعيد، لأن الحسد من كل أحد قبيح، لأنه إرادة لزوال نعم الغير عنه، وذلك يجري

مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه، وذلك من كل أحد قبيح، فكيف يحسن تخصيص الرسول ﷺ به؟

أما قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ قال ابن قتيبة أي أصنافًا من الكفار، والزوج في اللغة الصنف ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا فيقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون. والحاصل أن قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ نهي له عن الالتفات إلى أموالهم وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ نهي له عن الالتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن.

ثم قال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخفض: معناه في اللغة نقيض الرفع، ومنه قوله تعالى في صفة القيامة: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣] أي أنها تخفض أهل المعاصي، وترفع أهل الطاعات، فالخفض معناه الوضع، وجناح الإنسان يده. قال الليث: يدا الإنسان جناحاه، ومنه قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع، والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال في صفة أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد في الدنيا، وخفض الجناح للمؤمنين، أمره بأن يقول للقوم: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فيدخل تحت كونه نذيرًا، كونه مبلغًا لجميع التكاليف، لأن كل ما كان واجبًا ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حرامًا ترتب على فعله عقاب فكان الأخبار بحصول هذا العقاب داخلًا تحت لفظ النذير، ويدخل تحته أيضًا كونه شارحًا لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار، ثم أردفه بكونه مبينًا، ومعناه كونه آتيًا في كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية، ثم قال بعده: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: اختلفوا في أن المقتسمين من هم؟

وفيه أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس: هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، ويقرب عددهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان: كانوا ستة عشر رجلًا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي للنبوة فإنه مجنون، وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم خزيًا فماتوا شر ميتة، والمعنى: أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين.

والقول الثاني: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات أن المقتسمين هم اليهود والنصارى، واختلفوا في أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين؟ فقيل لأنهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي. وقال عكرمة: لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به، فقال بعضهم: سورة كذا لي. وقال بعضهم: سورة كذا لي. وقال مقاتل بن حبان: اقتسموا القرآن وقال بعضهم سحر. وقال بعضهم شعر، وقال بعضهم كذب، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

والقول الثالث: في تفسير المقتسمين. قال ابن زيد: هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله، فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم، فعلى هذا الاقتسام من القسم لا من القسمة، وهو اختيار ابن قتيبة.

البحث الثالث: أن قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ يقتضي تشبيه شيء بذلك فما ذلك الشيء؟

والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: التقدير: ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين، حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل.

فإن قيل: فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [الحجر: ٨٨] إلى آخره؟

قلنا: لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم.

والوجه الثاني: أن يتعلق هذا الكلام بقوله: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

واعلم أن هذا الوجه لا يتم إلا بأحد أمرين: إما التزام إضمار أو التزام حذف، أما الإضمار فهو أن يكون التقدير إني أنا النذير المبين عذابًا كما أنزلناه على المقتسمين، وعلى هذا الوجه، المفعول محذوف وهو المشبه، ودل عليه المشبه به، وهذا كما تقول: رأيت كالقمر في الحسن، أي رأيت إنسانًا كالقمر في الحسن، وأما الحذف فهو أن يقال: الكاف زائدة محذوفة، والتقدير: إني أنا النذير المبين ما أنزلناه على المقتسمين، وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] والتقدير: ليس مثله شيء، وقال بعضهم: لا حاجة إلى الإضمار والحذف، والتقدير: إني أنا النذير أي أنذر قريشًا مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾. **فيه بحثان:**

البحث الأول: في هذا اللفظ قولان: الأول: أنه صفة للمقتسمين. والثاني: أنه مبتدأ، وخبره هو قوله: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾ [الحجر: ٩٢] وهو قول ابن زيد.

البحث الثاني: ذكر أهل اللغة في واحد عضين قولين: **القول الأول:** أن واحدها عضة مثل عزة وبرة وثبة، وأصلها عضوة من عضيت الشيء إذا فرقته، وكل قطعة عضة، وهي مما نقص منها

واو هي لام الفعل، والتعضية التجزئة والتفريق، يقال: عضيت الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها، وفي الحديث: «لاَ تَعْضِيَةَ فِي مِيرَاثٍ إلاَّ فِيمَا احْتَمَلَ الْقِسْمَةَ» أي لا تجزئه فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف. فقوله: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ يريد جَزَّأوه أجزاء، فقالوا: سحر وشعر وأساطير الأولين ومفترى. **والقول الثاني:** أن واحدها عِضَة وأصلها عضهة، فاستثقلوا الجمع بين هاءين، فقالوا: عضة كما قالوا شفة، والأصل شفهة بدليل قولهم: شافهت مشافهة، وسنة وأصلها سنهة في بعض الأقوال، وهو مأخوذ من العَضْهِ: بمعنى الكذب، ومنه الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْعِضَه» وقال ابن السكيت: العضه بأن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه. وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه، فعلى هذا القول معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي جعلوه مفترى. وجمعت العضة جمع ما يعقل لما لحقها من الحذف، فجعل الجمع بالواو والنون عوضًا مما لحقها من الحذف.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن يكون راجعًا إلى المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى، ويكون التقدير أنه تعالى أقسم بنفسه أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي، ويحتمل أن يكون راجعًا إلى جميع المكلفين لأن ذكرهم قد تقدم في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] أي لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين، فيعود قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على الكل، ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال، لأن اللفظ عام فيتناول الكل.

فإن قيل: كيف الجمع بين قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وبين قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] أجابوا عنه من وجوه:

الوجه الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسئلون سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم، وإنما يسئلون سؤال التقريع يقال لهم لم فعلتم كذا؟

ولقائل أن يقول: هذا الجواب ضعيف، لأنه لو كان المراد من قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] سؤال الاستفهام لما كان في تخصيص هذا النفي بقوله يومئذ فائدة لأن مثل هذا السؤال على الله تعالى محال في كل الأوقات.

والوجه الثاني: في الجواب أن يصرف النفي إلى بعض الأوقات، والإثبات إلى وقت آخر، لأن

يوم القيامة يوم طويل.

ولقائل أن يقول: قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال في ذلك اليوم، فلو حصل السؤال من جزء في أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض.

والوجه الثالث: أن نقول: قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] يفيد عموم النفي وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عائد إلى المقتسمين وهذا خاص ولا شك أن الخاص مقدم على العام. أما قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاعلم أن معنى الصدع في اللغة الشق والفصل، وأنشد ابن السكيت لجرير:

هَذَا الخَلِيفَةُ فَارْضَوْا مَا قَضَى لَكُمُ   بِالْحَقِّ يَصْدَعُ مَا فِي قَوْلِهِ حَيفُ

فقال يصدع يفصل، وتصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] قال الفراء: يتفرقون. والصدع في الزجاجة الإبانة، أقول ولعل ألم الرأس إنما سمي صداعًا لأن قحف الرأس عند ذلك الألم كأنه ينشق. قال الأزهري: وسمي الصبح صديعًا كما يسمى فلقًا. وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح.

إذا عرفت هذا فقول: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فرق بين الحق والباطل، وقال الزجاج: فاصدع أظهر ما تؤمر به يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا كقولك صرح بها، وهذا في الحقيقة يرجع أيضًا إلى الشق والتفريق، أما قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

ففيه قولان: الأول: أن يكون (ما) بمعنى الذي أي بما تؤمر به من الشرائع، فحذف الجار كقوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ(١)

الثاني: أن تكون (ما) مصدرية أي فاصدع بأمرك وشأنك. قالوا: وما زال النبي ﷺ مستخفيًا حتى نزلت هذه الآية(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة. قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف، لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخًا.

ثم قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قيل: كانوا خمسة نفر من المشركين: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله ﷺ أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظمًا لأخذه فأصاب عرقًا في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت

---

(١) هذا البيت من قصيدة للشاعر عمرو الزبيدي تقدمت ترجمته والبيت كاملا هكذا:

أمرتُكَ الخَيرَ فَافعل ما أُمرتَ بِهِ   فَقَد تَركتكَ ذا مالَ وَذا نَشب

(٢) إسناد ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ١٥٢) من طريق أبي أسامة قال حدثنا موسي بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة قال... فذكره، في إسناده موسي بن عبيدة الربذي وهو ضعيف مع إرساله.

فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف عدي بن قيس، فامتخط قيحًا فمات وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (١).

واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم، ولا حاجة إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله ﷺ في علو قدره وعظم منصبه، ودل القرآن على أن الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون وأولئك المستهزؤون قال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك فعند هذا قال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فأمره بأربعة أشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة واختلف الناس في أنه كيف صار الإقبال على هذه الطاعات سببًا لزوال ضيق القلب والحزن؟ فقال العارفون المحققون إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الإنكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم. وقالت المعتزلة: من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق، فإنه يعلم أنه عدل منزه عن إنزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فحينئذ يطيب قلبه، وقال أهل السنة: إذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع إلى الطاعات كأنه يقول: تجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الموت وسمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن.

فإن قيل: فأي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات؟

قلنا: المراد منه: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة، والله أعلم.

تم تفسير هذه السورة، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) حديث المستهزئون تقدم تخرجه في المجلد السابق.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١﴾

تقدَّم معناه[1]. و«الكتاب» قيل فيه: إنَّه اسمٌ لجنسِ الكتب المتقدِّمةِ من التوراة والإنجيل، ثم قرنَهما بالكتابِ المبين. وقيل: الكتابُ هو القرآنُ، جَمَع له بينَ الاسمين[2].

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

«رُبَّ» لا تدخلُ على الفعل، فإذا لَحِقَتْها «ما»؛ هيَّأتها[3] للدخول على الفعل، تقولُ: ربَّما قام زيدٌ، وربما يقومُ زيد. ويجوزُ أن تكونَ «ما» نكرةً بمعنى شيء، و«يودُّ» صفةً له، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّ الكافر[4].

وقرأ نافعٌ وعاصمٌ: «رُبَما» مخفَّف الباء. الباقون مشدَّدة[5]، وهما لغتان. قال أبو حاتم: أهلُ الحجازِ يُخفِّفُون «ربَّما»[6]؛ قال الشاعر[7]:

---

(١) ١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٧ .

(٢) ينظر النكت والعيون للماوردي ٣/ ١٤٧ .

(٣) في (ظ) و(د) و(ز): لحقه... هيأه.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٦ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٠٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٥) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٥ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥ .

(٧) هو عدي بن الرَّعلاء الغسَّاني، وسلف البيت ٥/ ١٢ .

رُبَّـمـا ضـربـةٍ بـسـيـفٍ صـقـيـلٍ بـيـن بُـصْـرَى وطـعـنـةٍ نـجـلاءِ

وتميمٌ وقيس وربيعةُ يثقِّلونها[١]. وحُكيَ فيها: رَبَّمَا ورَبَمَا، ورَبَّتَمَا ورَبَتَمَا، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً[٢]. وأصلُها أن تُستعمَل في القليلِ، وقد تُستعمَل في الكثيرِ، أي: يَودُّ الكفارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمين[٣]؛ قاله الكوفيون. ومنه قولُ الشاعر:

أَلا ربَّـمـا أَهْـدَتْ لـكَ الـعـيـنُ نـظـرةً قُصاراكَ منها أنَّها عنك لا تُجدِي[٤]

وقال بعضهم: هي للتقليلِ في هذا الموضع؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها[٥]؛ لشغلِهم بالعذاب، والله أعلم. وقال: «رُبَمَا يَوَدُّ» وهي إنَّما تكون لما وقع؛ لأنه لِصدقِ الوعد كأنه عِيانٌ قد كان.

وخرَّج الطبرانيُّ أبو القاسم من حديثِ جابر بنِ عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ ناساً من أمَّتي يدخلون النارَ بذنوبهم، فيكونون في النارِ ما شاءَ الله أن يكونوا، ثم يُعيِّرُهم أهلُ الشرك[٦]، فيقولون: ما نرى ما كنتم تُخالفونا فيه من تصديقِكم وإيمانِكم نَفعكم، فلا يبقَى موحِّدٌ إلَّا أخرجَه اللهُ من النار، ثم قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾»[٧].

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥، وفيه: «بكر» بدل «ربيعة».

(٢) وقال ابن هشام في المغني ص١٨٤: وفي ربَّ ستَّ عشرةَ لغةً: ضمُّ الراء وفتحها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنة أو محركة ومع التجرد منها، فهذه اثنتا عشرة، والضمُّ والفتح مع إسكان الباء، وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.

(٤) في (د) و(ز): تجزي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٤٨.

(٦) في (ظ): النار.

(٧) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٢)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢ لابن مردويه، وصحح إسناده. وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٧٩: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، غير بسام الصيرفي وهو ثقة.

قال الحسن: إذا رأى المشركون المؤمنين[١] وقد دخلوا الجنةَ، ومأواهم[٢] في النار، تمنَّوا أنَّهم كانوا مسلمين. وقال الضَّحَّاك: هذا التمنِّي إنَّما هو عند المعاينةِ في الدنيا حين تبيَّن[٣] لهم الهدى من الضلالة. وقيل: في القيامةِ إذا رأوا كرامةَ المؤمنين، وذُلَّ الكافرين[٤].

قولُه تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديدٌ لهم. ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يَشغلُهم عن الطاعة. يُقال: ألهاه عن كذا، أي: شَغله، ولَهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى[٥]. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامة، وذاقوا وَبالَ ما صنعوا. وهذه الآيةُ منسوخةٌ بالسيف[٦].

الثانية: في «مسند» البزار، عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةٌ من الشقاءِ: جُمودُ العينِ، وقساوةُ[٧] القلب، وطُولُ الأمل، والحِرْصُ على الدُّنيا»[٨].

وطولُ الأمل داءٌ عُضالٌ ومرضٌ مُزْمن، ومتى تمكَّن من القلب فسدَ مِزاجُه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داءٌ، ولا نجع[٩] فيه دواء، بل أعيا الأطباءَ، ويئس من

---

(١) في (د) و(ز) و(م): المسلمين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٤٨ .

(٢) في (ظ) و(د) و(ز): وما رأوهم، وفي النكت والعيون ٣/ ١٤٨ : وصاروا هم.

(٣) في (ظ): حتى يتبين.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٧ - ١٤٨ .

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٤٢٨ .

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ٣/ ٣٥٠ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٨٢ ، وآية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

(٧) في (د) و(ز): وقساء

(٨) كشف الأستار (٣٢٣٠)، وسلف ٢/ ٢٠٥ ، ونقلنا ثمة كلام الذهبي فيه: حديث منكر.

(٩) في (ظ): ينجع.

بُرْئِه الحكماءُ والعلماء. وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدنيا، والانكبابُ عليها، والحب[1] لها، والإعراضُ عن الآخرة.

ورُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «نجا أولُ هذه الأمةِ باليقين والزهدِ، ويَهلِك آخرُها بالبخل والأمل»[2].

ويُروى عن أبي الدرداءِ ﷺ، أنَّه قامَ على دَرَجِ مسجد دمشق، فقال: يا أهلَ دمشقَ، ألَا تسمعونَ من أخٍ لكم ناصح، إنَّ مَن كان قبلَكم؛ كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مُشَيَّداً، وَيأمُلون بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وبنيانُهم قبوراً، وأملُهم غروراً، هذه عادٌ قد ملأتِ البلادَ أهلاً ومالاً، وخيلاً ورجالاً، فمَن يشتري مني اليوم تركتَهم بدرهمين[3]؟! وأُنشد[4]:

يا ذا[5] المؤملُ آمالاً وإن بَعُدت ... منه ويزعمُ أنْ يَحْظَى بأقصاها
أنَّى تفوزُ بما ترجوه وَيْكَ وما ... أصبحتَ في ثقةٍ من نَيْلِ أدناها

وقال الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ. وصدقَ ﷺ؛ فالأمل يُكسِلُ عن العمل[6]، ويُورثُ التراخيَ والتوانيَ، ويُعقِبُ التشاغلَ والتقاعُس، ويُخلِدُ إلى

(١) في (ظ): والحث.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا في اليقين (٣) من طريق عبد الله بن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٩٦). وعبد الله بن لهيعة ضعيف.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٦)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ١٨٦، والمزي في تهذيب الكمال ٥/ ١٠٦ - ١٠٧، من طريق إبراهيم بن ميسرة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، مرفوعاً. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٠٢) و(٤٨٩٥): إسناده محتمل للتحسين، ومتنه غريب.

(٣) أخرجه ـ مختصراً مطولاً ـ ابن المبارك في الزهد (٨٤٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٥ - ٣٠٦، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٣، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠)، والخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٩٥ - ٩٦.

(٤) في (ظ): وأنشدوا، ولم نقف على هذين البيتين.

(٥) في (ظ): يأتي.

(٦) في (ظ): فالعمل يكسل عنه الأمل.

الأرض، ويُميلُ إلى الهوى. وهذا أمرٌ قد شُوهد بالعِيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطْلَب صاحبُه ببرهان، كما أنَّ قِصَر الأمل يبعث على العمل، ويَحمِل[1] على المبادرة، ويحثُّ على المسابقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾

أي: أجلٌ مؤقَّت كُتِب لهم في اللوحِ المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

«من» صلةٌ؛ كقولك: ما جاءني من أحدٍ، أي: لا تتجاوزُ أجلَها فتزيدُ عليه، ولا تتقدَّم قبلَه[2]. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

قاله كفارُ قريش لمحمدٍ ﷺ على جهةِ الاستهزاء، ثم طلبوا منه إتيانَ الملائكة دَلالةً على صدقِه. و«لَوْ مَا» تحضيضٌ على الفعل، كـ«لولا» و«هلّا»[3]. وقال الفرَّاء: الميم في «لو ما» بدلٌ من اللامِ في «لولا». ومثلُه: استولى على الشيء. واسْتَوْمَى عليه، ومثلُه: خالَمْتُه وخاللته، فهو خِلِّي وخِلْمي، أي: صديقي[4].

وعلى هذا يجوز «لو ما» بمعنى الخبر، تقول: لوما زيدٌ لضُرِب عمرٌو. قال الكسائي: لولا ولوما سواءٌ في الخبر والاستفهام. قال ابن مُقْبِل:

لَوْمَا الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبتُكما ببعض ما فيكما إذْ عبتُما عَوَرِي[5]

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ويحيل.

(٢) ينظر زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٨٣.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٣.

(٤) تفسير الرازي ١٩/ ١٥٩، وينظر اللسان (ولي).

(٥) في (ظ) و(ز): عَودي، والبيت في ديوان ابن مقبل ـ وهو تميم ـ ص٧٦، وفيه: لولا، بدل: لوما =

يريد: لولا الحياءُ.

وحكى النحاس[١]: لوما، ولولا، وهلَّا؛ واحدٌ. وأنشدَ أهلُ اللغة على ذلك:

تَعُدُّون عَقْرَ النِّيبِ[٢] أفضلَ مَجْدِكم بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[٣]

أي: هلَّا تَعُدُّون الكَمِيَّ المُقَنَّعا.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾

قرأ حفص وحمزةُ والكسائي: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ واختارَه أبو عُبيد. وقرأ أبو بكر والمفضَّل: ﴿ما تُنَزَّلُ الملائكةُ﴾. الباقون: ﴿ما تَنَزَّلُ الملائكةُ﴾[٤]. وتقديرُه: ما تتنزل؛ بتاءين، حذفت إحداهما تخفيفاً، وقد شدَّد التاءَ البَزِّيُّ[٥]، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤].

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا بالقرآن. وقيل: بالرسالة؛ عن مجاهد. وقال الحسن: إلَّا بالعذاب إن لم يؤمنوا[٦]. ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: لو تنزلت الملائكةُ بإهلاكِهم؛ لَما أُمْهِلوا، ولا قُبلت لهم توبةٌ. وقيل: المعنى: لو تنزلت الملائكةُ تشهدُ لك، فكفروا بعد ذلك؛ لم يُنظَرُوا[٧]. وأصلُ «إذاً»: إذْ أنْ[٨]، ومعناه: حينئذٍ، فضُمَّ

= في الموضعين، ورواية المصنف في تفسير الطبري ١٤/ ١٥، ومجاز القرآن ١/ ٣٤٦.

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٠.

(٢) في (د) و(ز): النبت.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٠٧، وسلف ٢/ ٣٤٢ ونسبه المصنف ثمة للأشهب بن رُميلة، و٨/ ٣٦٨.

(٤) السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٥، وأبو بكر: هو شعبة راوي عاصم.

(٥) التيسير ص٨٣.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٤٩، وأثر مجاهد في تفسيره ١/ ٣٣٩، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ١٧ - ١٨.

(٧) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٤٠، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

(٨) نسبه المالقيُّ في رصف المباني في شرح حروف المعاني ص٦٩ - ٧٠ إلى الكوفيين، ثم رده من وجهين، أحدهما: أن الأصل في الحروف البساطة، ولا يدَّعى التركيب إلا بدليل قاطع. والثاني: أنها لو كانت مركبة من «إذ» و«أن» لكانت ناصبة على كل حال، تقدمت أو تأخرت، وعدم العمل أحياناً دليل على عدم التركيب.

إليها أنْ، واستثقلوا الهمزةَ فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن. ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يُزاد فيه أو يُنقَص منه[١]. قال قتادةُ وثابت البُنَانيُّ: حفِظه الله من أن تزيدَ فيه الشياطين باطلاً، أو تَنقُص منه حقًّا[٢]. فتولَّى سبحانه حفظَه، فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فوَكَل حفظَه إليهم، فبدَّلوا وغيروا[٣].

أنبأنا الشيخُ الفقيه الإمام أبو القاسم عبدُ الله[٤]، عن أبيه الشيخِ الفقيه الإمامِ المحدث أبي الحسن عليِّ بن خلف بن مَعزوز الكُومي التِّلِمْساني قال: قُرئ على الشيخةِ العالمة فخرِ النساء شُهْدةَ بنتِ أبي نصر أحمدَ بنِ الفرج الدِّينَوريِّ، وذلك بمنزلها بدارِ السلام في آخر جُمادَى الآخرة من سنةِ أربع وستين وخمس مائة، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجلُّ العامل نقيبُ النقباء أبو الفوارس طِرادُ بن محمد الزينبي قراءةً عليه وأنت تَسمعينَ سنة تسعين وأربع مائة، أخبرنا عليُّ بن عبدِ الله بن إبراهيم، حدَّثنا أبو علي عيسى بنُ محمد بن أحمد بن عمر بن عبدِ الملك بن عبدِ العزيز بن جُريج المعروف بالطُّومَارِي، حدَّثنا الحسينُ بن فهم قال: سمعت يحيى بنَ أكثم[٥] يقول: كان للمأمون ـ وهو أميرٌ إذ ذاك[٦] ـ مجلسُ نظر، فدخل في جملةِ الناس رجلٌ يهودي حسنُ الثوب، حسنُ الوجه، طيبُ الرائحة. قال: فتكلمَ، فأحسن الكلام

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤.

(٢) أخرجه عنهما عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٥، وأخرجه عن قتادة الطبري في التفسير ١٤/ ١٨ - ١٩.

(٣) بداية سقط في (ظ).

(٤) هو: عبد الله بن علي بن خلف بن معزوز الكُومي، ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٧٩-٤٨٢ في ترجمة سنجر الأمير علم الدين الدواداري في عداد شيوخه، وقد روى عنه سنجر بمنية بني خصيب.

(٥) هو: قاضي القضاة أبو محمد، يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن، ولد في خلافة المهدي، وكان من أئمة الاجتهاد، وله تصانيف منها كتاب «التنبيه». (ت ٢٤٢هـ). أخبار القضاة لوكيع ٢/ ١٦١، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٥.

(٦) قوله: وهو أمير إذ ذاك، ليس في (د)، وفي المنتظم لابن الجوزي ١٠/ ٥١: قبل تقلده الخلافة.

والعبارةَ. قال: فلمَّا تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ فقال له: إسرائيليٌّ؟ قال: نعم. قال له: أسلِم حتى أفعلَ لك[1] وأصنع. ووعده. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. قال: فلما كان بعدَ سنةٍ جاءنا مُسْلماً، قال: فتكلَّم على الفقهِ، فأحسنَ الكلامَ، فلما تقوَّض المجلسُ، دعاه المأمونُ وقال: ألستَ صاحبَنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سببُ إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتِك، فأحببتُ أن أمتحنَ هذه الأديانَ، وأنت تراني حسنَ الخط، فعَمَدتُ إلى التوراةِ، فكتبتُ ثلاث نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسةَ، فاشتُرِيت مني، وعَمَدتُ إلى الإنجيل، فكتبتُ ثلاثَ نسخ، فزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها البِيعة، فاشتُرِيت مني، وعَمدتُ إلى القرآن، فعملت ثلاثَ نسخٍ، وزدتُ فيها ونقصت، وأدخلتها الورَّاقين فتصفَّحوها، فلمَّا أن وجدوا فيها الزيادةَ والنقصان رَمَوا بها، فلم يشتروها، فعلمتُ أنَّ هذا كتابٌ محفوظ، فكان هذا سببَ إسلامي.

قال يحيى بنُ أكثم: فَحَجَجْتُ تلك السنةَ، فلقِيت سفيانَ بنَ عُيينة، فذكرت له الخبرَ، فقال لي: مِصداقُ هذا في كتاب الله عزَّ وجلَّ. قال: قلت: في أيِّ موضعٍ؟ قال: في قولِ الله تباركَ وتعالى في التوراةِ والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فجعلَ حِفظَه إليهم فضاعَ، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فحفظَه الله عزَّ وجلَّ علينا فلم يَضِع[2].

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: لمحمد ﷺ من أن يتقوَّل علينا، أو يُتقول[3] عليه. أو ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يُكاد أو يُقتل[4]. نظيرُه ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) في النسخ: بك، والمثبت من المنتظم ١٠/ ٥١ .

(٢) نهاية السقط في (ظ)، والقصة بتمامها في المنتظم ١٠/ ٥١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): نتقول، والمثبت من (ظ).

(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٥ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١ - ٣٥٢ . والكشاف ٢/ ٣٨٨ .

و«نحن» يجوز أن يكونَ موضعُه رفعاً بالابتداء و«نزَّلنا» الخبر. والجملةُ خبرُ «إنَّ». ويجوزُ أن يكونَ «نحن» تأكيداً لاسم «إنَّ» في موضع نصبٍ[١]، ولا تكون فاصلةً[٢]؛ لأنَّ الذي بعدَها ليس بمعرفةٍ، وإنَّما هو جملةٌ، والجملُ تكون نعوتاً[٣] للنكرات، فحكمُها حكمُ النكرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

المعنى: ولقد أرسلنا من قَبلِك رسلاً، فحذف. والشِّيَع جمعُ شِيعة، وهي الأُمَّة، أي: في أُممِهم؛ قاله ابنُ عباسٍ وقتادة. الحسن: في فِرَقِهم. والشِّيعةُ: الفِرقةُ والطائفة من الناس المتآلفةُ المتفقة الكلمة، فكأنَّ الشِّيَع الفِرَقُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، أي: فِرقاً[٤]، وأصلُه مأخوذٌ من الشِّياع، وهو الحطبُ الصغارُ يوقد به الكبارُ، كما تقدَّم في «الأنعام»[٥]. وقال الكلبيُّ: إنَّ الشيَعَ هنا القُرى[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾

تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما فَعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِل بمَن قَبلك من الرسل[٧].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: الضلالَ والكفرَ، والاستهزاءَ والشركَ. ﴿فِي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٢) وجوَّزه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٧٧.

(٣) في (ظ): والجملة تكون نعتاً.

(٤) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٤٩، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٤ - ٣٨٥، وتفسير الطبري ١٤/ ١٩.

(٥) ٨/ ٤١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وفيه «القبائل» بدل «القرى»، وما عندنا نسخة في هامشه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢، والوسيط ٣/ ٤٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٥.

قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك، عن الحسن وقتادة وغيرهما. أي: كما سلكناهُ في قلوبِ مَن تقدم من شِيع الأولين؛ كذلك نَسلكه في قلوبِ مشركي قومِك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم. وروى ابنُ جُريح عن مجاهدٍ قال: نسلكُ التكذيبَ[(١)]. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيءِ في الشيء، كإدخالِ الخيطِ في المِخْيَط. يُقال: سَلَكه يَسْلُكه سَلْكاً وسُلوكاً، وأسلكه إسلاكاً. وسَلَكَ الطريقَ سُلوكاً وسَلْكاً، وأسلكه: دخله، والشيءَ في غيرِه مثله، والشيءَ كذلك، والرُّمْحَ، والخيطَ في الجوهرِ، كلُّه فَعَل وأفعل[(٢)]. وقال عَدِيُّ بن زيد:

وقد سلكوكَ في يومٍ عَصيبِ[(٣)]

والسِّلكُ، بالكسر الخيطُ. وفي الآيةِ ردٌّ على القَدَرية والمعتزلةِ.

وقيل: المعنى: نسلك القرآنَ في قلوبِهم، فيكذبون به. وقال الحسن ومُجاهد وقتادةُ القولَ الذي عليه أكثرُ أهل التفسير، وهو ألزمُ حجةً على المعتزلةِ. وعن الحسن أيضاً: نسلكُ الذكْرَ إلزاماً للحجة[(٤)]؛ ذكره الغزْنَوِيُّ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنةُ الله بإهلاك الكفارِ، فما أقربَ هؤلاءِ من الهلاك! وقيل: «خلت سنة الأولين» بمثلِ ما فعل هؤلاء من التكذيبِ والكفر، فهم يقتدونَ بأولئك[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يُقال: ظلَّ يفعل كذا، أي: يفعلُه بالنهار. والمصدرُ: الظُّلولُ. أي: لو أُجيبوا إلى

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٠ - ٢١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٤٩٥، واللسان (سلك).

(٣) عجز بيت، وصدره: وكنتُ لزازَ خصمِك لم أُعرِّد، وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٩٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢، والأغاني ٢/ ١١١، وأورده إبراهيم الحربي في غريب الحديث ١/ ٣٠٣ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٧.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٥، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٤، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢١٥.

ما اقترحوا من الآيات، لأَصرُّوا على الكفرِ، وتعلَّلوا بالخيالاتِ[١]، كما قالوا للقرآنِ المعجز: إنه سحرٌ.

«يَعْرُجُون» من عَرَج يَعْرُج، أي: صَعِد. والمعارجُ: المصاعد. أي: لو صَعِدُوا إلى السماء، وشاهدوا الملكوتَ والملائكةَ، لأصرُّوا على الكفر؛ عن الحسنِ وغيره. وقيل: الضميرُ في «عليهِم» للمشركين. وفي «فظَلُّوا» للملائكة، تذهبُ وتَجيء. أي: لو كُشِف لهؤلاء حتى يُعاينوا أبواباً في السماء تصعدَ فيها الملائكةُ وتنزلُ، لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقةَ له؛ عن ابنِ عباسٍ وقتادة[٢].

ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾: سُدَّت بالسِّحرِ؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاكُ. وقال الحسن: سُحِرت. الكلبي: أُغشيت أبصارُنا، وعنه أيضاً: عَمِيت. قتادةُ: أُخذت. وقال المُؤَرِّج: دِيرَ بنا، من الدوران، أي: صارت أبصارُنا سكرى. جُوَيْبِر: خُدِعت. وقال أبو عَمرو بنُ العلاء: «سُكِّرت»: غُشِّيت وغُطِّيت. ومنه قولُ الشاعرِ:

وطلعتْ شمسٌ عليها مِغفرُ … وجعلت عينُ الحَرورِ تَسْكُرُ[٣]

وقال مجاهد: «سُكِّرت»: حُبِست. ومنه قولُ أوْس بنِ حِجْر:

فصرت على ليلةٍ ساهره … فليست بطَلْقٍ ولا سَاكِرَه[٤]

قلتُ: وهذه أقوال[٥] متقاربةٌ يجمعها قولُك: مُنِعت.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٨٦، والوسيط ٣/ ٤٠ - ٤١، وينظر الطبري ١٤/ ٢٣.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٢٣ - ٢٥، والوسيط ٣/ ٤١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.

(٣) الرجز لجندل بن المثنى، ونسبه إليه الطبري ١٤/ ٢٩ وأورد الثاني منه، وأورده بتمامه أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥١ دون نسبة. والحَرور: الريح الحارة. الصحاح (حرر). والمعنى: يسكن حرها وتخبو. لسان العرب (قبر)، ووقع في (ظ): الجزور.

(٤) البيت في ديوانه ص٣٤، وأورده في اللسان (سكر) وفيه «جذلت» بدل «فصرت»، وأورده أيضاً بلفظ:

تزاد ليالِيَّ في طولها … فليست بطلق ولا ساكره

وفي النكت والعيون ٣/ ١٥١: «فصرنَ» بدل: «فصرت».

(٥) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٤/ ٢٥ - ٢٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ١٥١، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦.

قال ابنُ عُزَيز[1]: «سُكِّرت أبصارُنا»: سُدَّت أبصارُنا؛ هو من قولك: سَكَّرتُ النهرَ: إذا سَدَدْتَه. ويقال: هو من سُكْرِ الشراب، كأنَّ العينَ يلحقُها ما يلحقُ الشاربَ إذا سَكِر.

وقرأ ابنُ كَثير: «سُكِرت» بالتخفيف. والباقون بالتشديد[2]. قال ابنُ الأعرابي: سُكِرت: مُلِئت[3].

قال المهدَوِيُّ: والتخفيفُ والتشديدُ في «سُكرت» ظاهران، التشديدُ للتكثير، والتخفيف يؤدِّي عن معناه، والمعروف أنَّ «سَكِرَ» لا يتعدَّى.

قال أبو علي[4]: يجوزُ أن يكون سُمِع متعدياً في البصر. ومَن قرأ: «سَكِرت»[5] فإنه شبَّه ما عَرَض لأبصارهم بحالِ السكران، كأنَّها جرت مجرى السكران؛ لعدم تحصيله. وقد قيل: إنَّه بالتخفيفِ، من سُكرِ الشراب، وبالتشديد مأخوذٌ من سكَّرت الماء. وقيل: سُكِرت مخففاً: سُحِرت، وبالتشديد[6]: أُخِذت، ذكرهما الماوردي.

وقال النَّحاسُ[7]: والمعروفُ من قراءة مجاهدٍ والحسن: «سُكِرت» بالتخفيف. قال الحسنُ: أي: سُحِرت. وحكى أبو عبيد، عن أبي عبيدة أنَّه يقال: سُكِّرت أبصارُهم: إذا غَشِيها سَمادِير[8] حتى لا يبصروا. وقال الفراء: مَن قرأ: «سَكِرت»

(١) في نزهة القلوب ص٢٧٦ .

(٢) السبعة ص٣٦٦ ، والتيسير ص١٣٦ .

(٣) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٥٥ ، ولسان العرب (سكر).

(٤) هو الفارسي، وينظر كلامه بنحوه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ٤٣ - ٤٤ ، وينظر الدر المصون ٧/ ١٤٩ .

(٥) هي قراءة الزهري كما في البحر المحيط ٥/ ٤٤٨ .

(٦) قوله: مأخوذ من سكرت، إلى هذا الموضع من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٥١ .

(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٤ .

(٨) السَّمادير: قيل: هو الشيء الذي يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السُّكر من الشراب، وغشي النعاس والدوار. اللسان (سمدر)، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٤٧ ، وقد نقله عنه المصنف بواسطة معاني القرآن للنحاس.

أَخذه من سُكورِ الريحِ[١].

قال النحاسُ: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ، والأصلُ فيها ما قال أبو عَمرو بنُ العلاء رحمه الله تعالى، قال: هو من السُّكرِ في الشرابِ[٢].

وهذا قولٌ حسن، أي: غَشِيهم ما غطَّى أبصارَهم، كما غَشِيَ السكرانَ ما غطَّى عقلَه[٣]. وسكورُ الريحِ: سكونُها وفُتورُها، فهو يرجعُ إلى معنى التحيير[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لمَّا ذكر كفرَ الكافرين، وعَجْزَ أصنامِهم، ذكر كمالَ قدرتِه؛ ليُستَدلَّ بها على وَحدانيتِه. والبروجُ: القصورُ والمنازل. قال ابنُ عباس: أي: جعلنا في السماء بروجَ الشمسِ والقمر، أي: منازلَهما. وأسماءُ هذه البروجِ: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأَسَد، والسُّنبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدَّلو، والحوت[٥]. والعربُ تَعُدُّ المعرفةَ لمواقعِ النجومِ وأنوائها[٦] من أَجلِّ العلومِ، ويستدلُّونَ بها على الطرقاتِ والأوقاتِ، والخِصبِ والجَدْب. وقالوا: الفَلَكُ اثنا عشرَ بُرجاً، كلُّ برجٍ مِيلان ونصفٌ[٧]. وأَصلُ البروجِ الظهورُ؛ ومنه تَبرُّجُ المرأةِ بإظهارِ زينتها، وقد تقدَّم هذا المعنى في النساءِ[٨]. وقال الحسن وقتادةُ: البروجُ: النجومُ،

---

(١) في (د) و(ظ) ومعاني النحاس: سكون الريح، وعبارة الفراء في معاني القرآن ٢/ ٨٦ : قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت، ونقل المصنف كلام الفراء بواسطة معاني القرآن للنحاس.

(٢) معاني القرآن ٤/ ١٤ ، وينظر الطبري ١٤/ ٢٦ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٨ .

(٤) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٥ .

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ ، و ينظر الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٦١ .

(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: وأبوابها.

(٧) كذا في النسخ غير (ظ)، ففيها: ليلتان ونصف، ولعل الصواب: منزلتان وثلث. كما ذكر المصنف في تفسير الآية (٣٩) من سورة ياسين، وينظر مفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٥ ، ولسان العرب (برج).

(٨) ٦/ ٤٦٤ - ٤٦٧ .

وسُميت بذلك؛ لظهورِها وارتفاعِها. وقيل: الكواكبُ العظامُ؛ قاله أبو صالحٍ، يعني: السبعةَ السَّيَّارةَ[١]. وقال قومٌ: «بروجاً»؛ أي: قصوراً وبيوتاً فيها الحرَسُ، خَلقها الله في السماءِ[٢]. فالله أعلم. ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ يعني: السماءَ، كما قال في سورةِ المُلْك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: للمعتبرين والمُتفكّرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾

أي: مرجوم. والرَّجمُ: الرميُ بالحجارةِ. وقيل: الرجمُ: اللَّعنُ والطردُ. وقد تقدَّم[٣]. وقال الكسائي: كلُّ رَجمٍ[٤] في القرآنِ فهو بمعنى الشَّتمِ. وزعم الكلبيُّ أنَّ السماواتِ كلَّها لم تُحفظ من الشياطين إلى زمنِ عيسى، فلما بَعث اللهُ تعالى عيسى، حُفِظ منها ثلاثُ سماوات إلى مَبعَثِ رسولِ الله ﷺ، فحُفِظ جميعُها بعدَ بَعثِه، وحُرِست منهم بالشُّهُب[٥]. وقاله ابنُ عباس ﵄. قال ابنُ عباس: وقد كانتِ الشياطين لا يُحجَبون عن السماء، فكانوا يدخُلونها، ويُلقون أخبارَها إلى[٦] الكهنةِ، فيزيدونَ عليها تسعاً، فيحدِّثون بها أهلَ الأرض، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ؛ فإذا رأَوا شيئاً مما قالوه، صدَّقوهم فيما جاؤوا به، فلمَّا وُلِد عيسى ابنُ مريم عليهما السلام، مُنِعوا من ثلاثِ سماوات، فلمَّا وُلِد محمدٌ ﷺ، مُنِعوا من السماواتِ كلِّها، فما منهم من أحدٍ يريدُ استراقَ السمعِ إلا رُمِيَ بشِهابٍ[٧]، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

أي: لكن مَنِ استرقَ السّمع، أي: الخَطْفةَ اليسيرة. فهو استثناءٌ منقطع. وقيل:

(١) وهي: زُحَل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.
(٢) النكت والعيون ٣/ ١٥٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٧ .
(٣) ١١/ ٢٠١ .
(٤) في (د) و(ز) و(م): رجيم.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٢ .
(٦) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: على.
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢١٦ ، والوسيط ٣/ ٤١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٨٩ .

هو مُتصل، أي: إلا ممَّن استرقَ السمع[١]. أي: حَفِظنا السماءَ من الشياطين أنْ تسمعَ شيئاً من الوحي وغيره[٢]، إلا منِ استرق[٣] السمعَ، فإنَّا لم نحفظْها منه أن تَسمعَ الخبرَ من أخبارِ السماءِ سوى الوحي، فأمَّا الوحيُ، فلا تَسمعُ منه شيئاً[٤]؛ لقولهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. وإذا استمعَ الشياطينُ إلى شيءٍ ليس بوحي، فإنَّهم يَقذِفونه إلى الكَهَنةِ في أسرعَ من طرفةِ عين، ثم تَتبَعُهم الشُّهبُ فتَقْتُلهم أو تَخبِلُهم، ذكره الحسنُ وابنُ عباس[٥].

قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أَتبعه: أدركه ولَحِقَه. شِهابٌ: كوكبٌ مُضيءٌ[٦]. وكذلك: ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. وقولُه: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧] أي: بشعلةِ نارٍ في رأسِ عودٍ، قاله ابنُ عُزَيز[٧]. وقال ذو الرُّمَّةِ:

كـأنَّـه كـوكـبٌ فـي إثْـرِ عِـفْـرِيَـةٍ مُـسَـوَّمٌ في سَـوادِ الـلـيـلِ مُـنْـقَـضِـبُ[٨]

وسُميَ الكوكبُ شِهاباً لأنه[٩] لبريقِه يُشبِهُ النارَ. وقيل: شهابٌ: شعلة من نار تبينُ لأهلِ الأرض[١٠]، فتحرقُهم ولا تعودُ إذا أحرقَت، كما إذا أحرقتِ النارُ لم تَعُدْ، بخلافِ الكوكبِ، فإنَّه إذا أحرقَ، عادَ إلى مكانِه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٦ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣ .

(٢) بعدها في (ظ): من أخبار السماء.

(٣) قوله: من استرق، ليس في (ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٥٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠ .

(٥) ذكر قولهما الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩٠ ، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٤/ ٣٢ - ٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ٤١ - ٤٢ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٠ .

(٧) في (ظ): عرفة، وكلام ابن عُزيز في نزهة القلوب ص٣٦٧ ، دون قوله: في رأس عود.

(٨) البيت في ديوانه ١/ ١١١ ، قال شارحه أبو نصر الباهلي: وعفرية: شيطان، ومسوَّم: مُعْلَمٌ مسوَّم بالبياض في سواد الليل، ويكون مسوم: مخلًّى عنه. ومنقضب: مُنقضٌ.

(٩) ليست في (د) و(ز) و(م).

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لشعلة من نار قبس لأهل الأرض.

قال ابنُ عباسٍ: تصعدُ الشياطينُ أفواجاً تسترقُ السمعَ، فَينفردُ الماردُ منها فَيعلو، فَيُرْمَى بالشهابِ، فيصيبُ جبهتَه أو أنفَه أو ما شاء الله، فَيلتهبُ، فيأتي أصحابَه وهو يلتهبُ، فيقولُ: إنَّه كان من الأمرِ كذا وكذا، فيذهبُ أولئك إلى إخوانِهم من الكَهَنةِ، فَيزيدون عليها تسعاً، فيُحدِّثون بها أهلَ الأرضِ، الكلمةُ حقٌّ والتسعُ باطلٌ، فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان، صَدَّقوهم بكلِّ ما جاؤوا به من كذِبهم[1]. وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة «سبأ» إن شاء الله تعالى[2].

واختُلِف في الشهابِ، هل يَقتُل أم لا؟ فقالَ ابن عباس: الشهابُ يَجرحُ ويُحرِق ويَخبِلُ، ولا يقتلُ. وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يَقتلُ؛ فعلى هذا القولِ؛ في قتلِهم بالشُّهبِ قبلَ إلقاءِ السمعِ إلى الجنِّ قولان:

أحدُهما: أنَّهم يُقتلون قبلَ إلقائِهم ما استرَقُوه من السمعِ إلى غيرهم، فعلى هذا؛ لا تصلُ أخبارُ السماءِ إلى غيرِ الأنبياء، ولذلك انقطعتِ الكِهانةُ.

والثاني: أنَّهم يُقتَلون بعد إلقائِهم ما استرقوه من السمعِ إلى غيرِهم من الجنِّ، ولذلك ما يعودون إلى استراقِه، ولو لم يصلْ، لانقطعَ الاستراقُ، وانقطع الإحراقُ. ذكره المَاورديُّ[3].

قلتُ: والقولُ الأوّل أصحُّ على ما يأتي بيانُه في «الصَّافات»[4].

واختُلِف: هل كانَ رميٌ بالشُّهب قبلَ المبعثِ؟ فقال الأكثرون: نعم. وقيل: لا، وإنَّما ذلك بعدَ المبعث[5]. وسيأتي بيانُ هذه المسألةِ في سورةِ الجن إن شاءَ الله تعالى. وفي «الصَّافات» أيضاً. قال الزَّجاجُ[6]: والرميُ بالشهبِ من آياتِ النبيِّ ﷺ،

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٢، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٦.

(٢) في الآية: ٢٣.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٥٣.

(٤) الآية: ٨.

(٥) زاد المسير ٤/ ٣٨٧ - ٣٨٩.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٧٦، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٨٨.

ممَّا حدثَ بعد مولِده؛ لأنَّ الشعراءَ في القديم لم يذكروهُ في أشعارِهم، ولم يُشَبِّهوا الشيءَ السريعَ به، كما شَبَّهوا بالبرقِ وبالسَّيلِ.

ولا يبعدُ أن يقالَ: انقضاضُ الكواكبِ كان في قديمِ الزمانِ، ولكنَّه لم يكن رجوماً للشياطين، ثم صار رجوماً حين وُلِد النبيُّ ﷺ[١].

وقال العلماءُ: نحنُ نرى انقضاضَ الكواكب، فيجوزُ أن يكونَ ذلك كما نرى، ثم يصير ناراً إذا أدركَ الشيطانَ. ويجوز أن يقال: يُرمَوْن بشعلةٍ من نارٍ من الهواء، فيُخيَّل إلينا أنَّه نجمٌ سَرَى. والشِّهابُ في اللغةِ: النارُ السَّاطعةُ[٢].

وذكر أبو داود[٣]، عن عامر الشعبيِّ قالَ: لمَّا بُعث النبيُّ ﷺ رُجِمت الشياطينُ بنجومٍ لم تكن تُرجَم بها قبلُ، فأتَوا عبدَ ياليِل بنَ عمرو الثقفيَّ، فقالوا: إنَّ الناسَ قد فَزِعوا، وقد أعتقوا رقيقَهم، وسَيَّبوا أنعامَهم؛ لما رأَو في[٤] النجومِ. فقالَ لهم، وكان رجلاً أعمى: لا تَعجَلُوا، وانظروا، فإنْ كانتِ النجومُ التي تُعرفُ فهو[٥] عند فناءِ الناسِ، وإن كانت لا تُعرف فهو من حَدَثٍ، فنَظروا؛ فإذا هي نجومٌ لا تُعرفُ، فقالوا: هذا من حَدَثٍ، فلم يَلبَثوا حتى سَمِعوا بالنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ هذا من نِعَمِه أيضاً، وممَّا يدلُّ على كمالِ قدرته. قال ابنُ عباس: بَسطناها على وجهِ الماء[٦]؛ كما قالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥ .

(٢) اللسان (شهب).

(٣) ليس عند أبي داود، إنما ذكره ابن عبد البر في الدرر ص١٦ - ١٧ ، عن أبي داود، وقد نقله المصنف عنه.

(٤) في (ظ): ما في.

(٥) في (د) و(ز) و(م): فهي (في الموضعين)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الدرر.

(٦) تفسير الرازي ١٩/ ١٧٠ .

[النازعات: ٣٠] أي: بَسَطها. وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]. وهو يَردُّ على مَن زعم أنَّها كالكرة. وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالاً ثابتة؛ لئلا تتحركَ بأهلها. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: مقدَّر معلوم؛ قاله ابنُ عباس وسعيدُ بن جبير. وإنما قال: «موزون»؛ لأنَّ الوزنَ يُعرَف به مقدارُ الشيءِ. قال الشاعرُ:

قد كنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ عندي لكلِّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ[٢]

وقال قتادةُ: موزونٌ يعني: مقسوم. وقال مجاهدٌ: موزونٌ: معدودٌ[٣]. ويقال: هذا كلامٌ موزونٌ، أي: منظومٌ غيرُ منتثر[٤].

فعلى هذا؛ أي: أَنبتنا في الأرضِ ما يُوزَن من الجواهرِ والحيوانات والمعادنِ. وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في الحيوان: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والمقصودُ من الإنباتِ الإنشاءُ والإيجادُ. وقيل: ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضةِ والنحاسِ والرَّصاص والقَزدير[٥]، حتى الزَّرنيخ والكُحل، كلُّ ذلك يُوزن وزناً؛ رُوي معناه عن الحسن، وابن زيد. وقيل: أَنْبَتْنَا في الأرض الثمارَ مما يُكال ويُوزن. وقيل: ما يوزنُ فيه الأثمانُ؛ لأنَّه أجلُّ قدراً، وأعمُّ

---

(١) ص٨ من هذا الجزء، وما ذكر عن الأرض أنها كالكرة لم يعد بحاجة إلى ردّ.

(٢) أورده الطبري في التفسير ٢٤/ ٥٩٤ ، والفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٤ ، وابن منظور في اللسان (وزن) دون نسبة. والمعنى كما قال الفراء: عندي وزن كلامه ونقضه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٥٣ - ١٥٤ . وأخرج عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٤٦ ، والطبري في التفسير ١٤/ ٣٦ ، عن قتادة في قوله تعالى ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ قال: معلوم.

وكذلك قول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٤٠ ، وفيه: مقدر مقدور، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٣٦ بلفظ: مقدور بقدر، وأورده ابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٩١ .

(٤) في النسخ الخطية: منتشر، وهما بمعنى.

(٥) هو القصدير، المعدن المعروف.

نفعاً مما لا ثمنَ له[١].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ يعني: المطاعمَ والمشاربَ التي يعيشون بها؛ واحدُها معيشةٌ؛ بسكون الياء. ومنه قولُ جريرٍ:

تُكلِّفُني مَعِيشةَ آلِ زيدٍ ومَنْ لي بالمرقَّق والصِّنابِ[٢]

والأصلُ: مَعْيِشةٌ؛ على مَفْعِلة؛ بتحريك الياء. وقد تقدَّم في الأعراف[٣]. وقيل: إنَّها الملابسُ؛ قاله الحسن. وقيل: إنها التصرفُ في أسبابِ الرزق مدةَ الحياة. قال المَاورديُّ[٤]: وهو الظاهرُ.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يريد الدَّوابَّ والأنعام؛ قاله مجاهدٌ[٥]. وعنده[٦] أيضاً: همُ العبيدُ والأولادُ الذين قالَ الله فيهم: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. ولفظ «من» يجوز أن يتناولَ العبيدَ والدوابَّ إذا اجتَمعوا؛ لأنه إذا اجتمعَ مَن يَعقِل وما لا يَعقل؛ غُلِّبَ مَن يعقل، أي: جعلنا لكم فيها معايشَ وعبيداً وإماءً ودوابَّ وأولاداً نرزقُهم ولا تَرزقونهم. فـ «من» على هذا التأويل في موضعِ نصبٍ؛ قال معناه مجاهدٌ وغيرُه. وقيل: أرادَ به الوحشَ. قال سعيدٌ: قرأَ علينا منصورٌ: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال: الوحشُ. فـ «مَن» على هذا تكون لِما لا يَعقِلُ؛ مثلُ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٦ - ٣٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٦، والنكت والعيون ٣/ ١٥٤، والوسيط ٣/ ٤٢، وزاد المسير ٤/ ٣٩١.

(٢) البيت في تذييل ديوانه ٢/ ٨١٢، وطبقات فحول الشعراء ٢/ ٣٩١ - ٣٩٢، والكامل للمبرد ١/ ٢٠٢-٢٠٣، ووقع في تذييل الديوان: «بالصلائق» بدل «بالمرقَّق»، والصلائق جمع صَليقة، وهي الخبزة الرقيقة، والقطعة المُشواة من اللحم، كما في اللسان (صلق). والصِّناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. اللسان (صنب). وزيد هو رجلٌ من أهل اليمامة يُعرف بابن النجار. قاله ابنُ سلَّام في الطبقات.

(٣) ٩/ ١٦٠.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ١٥٤.

(٥) في تفسيره ١/ ٣٤٠.

(٦) في (ظ): وعنه. ولم نقف عليه عنده، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٤ إلى ابن بحر.

الآية [النور: ٤٥]، وهي في محلِّ خفضٍ عطفاً على الكافِ والميمِ في قولِه: «الكم». وفيه قبحٌ عند البصريين؛ فإنَّه لا يجوز عندَهم عطفُ الظاهرِ على المضمرِ إلَّا بإعادةِ حرفِ الجرِّ؛ مثل: مررتُ به وبزيدٍ. ولا يجوزُ: مررتُ به وزيدٍ إلَّا في الشعرِ(١). كما قال:

فاليومَ قرَّبتَ(٢) تهجُونا وتَشْتِمُنا فَاذْهَبْ فما بكَ والأيامِ من عَجَبِ(٣)

وقد مضَى هذا المعنى في «البقرةِ» وسورةِ النساءِ(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: وإن من شيءٍ من أرزاقِ الخلق ومنافعِهم إلا عندنا خزائنُه؛ يعني: المطرَ المُنزَّلَ من السماءِ؛ لأنَّ به نباتَ كلِّ شيءٍ. قال الحسنُ: المطرُ خزائنُ كلِّ شيءٍ. وقيل: الخزائنُ: المفاتيحُ، أي: في السماءِ مفاتيحُ الأرزاقِ؛ قاله الكلبيُّ. والمعنى واحدٌ(٥).

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ولكن لا ننزِّله إلا على حَسَبِ مشيئتِنا، وعلى حسب حاجةِ الخلقِ إليه؛ كما قال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]. وروِيَ عن ابنِ مسعود، والحَكَم بن عُتَيْبَة وغيرِهما أنَّه ليس عامٌ أكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ اللهَ يُقسِّمه كيفَ شاء، فيُمْطَر قومٌ ويُحرَم

---

(١) الطبري ١٤/ ٣٧ - ٣٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وزاد المسير ٤/ ٣٩١ - ٣٩٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٧.

(٢) في (ظ): أقبلتَ.

(٣) أورده سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٨٣، والمبرد في الكامل ٢/ ٩٣١، دون نسبة. وقال البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٢٣: على أن حرف الجر قد يترك ضرورة عند البصريين، أي: ما بك وبالأيام عجب. ومعنى قربتَ: جعلتَ وأخذتَ.

وقال أيضاً ٥/ ١٢٩: والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها قائل.

(٤) ٦/ ٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٥.

آخرون. وربَّما كان المطرُ في البحارِ والقِفار[١].

والخزائنُ جمعُ الخزانةِ، وهو الموضعُ الذي يَستُر فيه الإنسانُ ما له. والخِزانةُ أيضاً مصدر خَزَن يَخْزُن[٢]. وما كان في خِزانةِ الإنسانِ كان مُعَدًّا له، فكذلك ما يُقَدِّرُ عليه الربُّ؛ فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيري.

وروى جعفرُ بنُ محمد، عن أبيه، عن جده، أنه قال: في العرشِ مثالُ كلِّ شيءٍ خلقه الله في البرِّ والبحرِ. وهو تأويلُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[٣]. والإنزالُ بمعنى الإنشاءِ والإيجاد، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد:٢٥]. وقيل: الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالاً؛ لأنَّ أحكامَ الله إنما تَنزِل من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ قراءةُ العامةِ: «الرياح» بالجمع. وقرأ حمزةُ بالتوحيد[٤]؛ لأنَّ معنى الريحِ الجمعُ أيضاً وإن كان لفظُها لفظَ الواحد، كما يُقال: جاءتِ الريح من كل جانبٍ[٥]، كما يقال: أرضٌ سَباسِبُ[٦] وثوبٌ أخلاقٌ. وكذلك تفعلُ العربُ في كل شيءٍ اتسعَ. وأما وجهُ قراءةِ العامة، فلأنَّ الله تعالى نعتها

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٩ - ٤٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٢ .

(٢) ينظر اللسان (خزن).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٤٧ .

(٤) التيسير ص٧٨ ، والسبعة ١٧٢ - ١٧٣ .

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٨٢ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٤١ .

(٦) السبسب: المفازة، أو الأرض المستوية البعيدة. القاموس المحيط (سبب). وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٤١ - ٤٢ .

بـ «لواقح» وهي جمع. ومعنى لواقح: حوامل؛ لأنها تحمل الماءَ والتراب والسَّحاب والخير والنفع[١]. قال الأزهري[٢]: وجعلَ الريحَ لاقحاً؛ لأنَّها تحملُ السحابَ؛ أي: تُقِلُّه وتُصَرِّفه ثم تَمْرِيه[٣] فتستَدِرُّه، أي: تُنزله؛ قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف:٥٧] أي: حملت. وناقةٌ لاقح، ونُوقٌ لواقح: إذا حَملتِ الأجِنَّةَ في بطونِها. وقيل: لواقحُ بمعنى مُلْقِحة، وهو الأصلُ، ولكنها لا تُلقِح إلا وهي في نفسها لاقح، كأنَّ الرياحَ لَقِحَت بخير. وقيل: ذوات لَقْح، وكلٌّ ذلك صحيحٌ، أي: منها ما يُلقِح الشجرَ؛ كقولهم: عيشة راضية، أي: فيها رضاً، وليل نائم، أي: فيه نومٌ. ومنها ما تأتي بالسحابِ. يقال: لَقِحَتِ الناقةُ، بالكسر، لَقَحاً ولَقاحاً، بالفتح، فهي لاقح. وألقحها الفحلُ، أي: ألقى إليها الماءَ فَحملته[٤]، فالرياحُ كالفحلِ للسحاب.

قال الجوهري[٥]: ورياحٌ لَواقحُ، ولا يقال: مَلاقح، وهو من النوادر. وحكى المهدويُّ عن أبي عبيدة[٦]: لواقحُ بمعنى ملاقح، ذهبَ إلى أنَّه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حُذِفت زوائدُه[٧]. وقيل: هو جمعُ لاقحةٍ ولاقحٍ، على معنى ذاتِ اللِّقاحِ؛ على النَّسَب[٨]. ويجوزُ أن يكونَ معنى لاقح حاملاً، والعربُ تقولُ للجَنوب: لاقح وحامل، وللشَّمال: حائل وعقيم.

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦.

(٢) تهذيب اللغة ٤/ ٥٥ - ٥٦.

(٣) مَرَتِ الريحُ السحاب إذا أنزلت منه المطر. اللسان (مري).

(٤) في تفسير الرازي ١٩/ ١٧٥. (والكلام فيه بنحوه): ألقى الماء فيها فحملت.

(٥) في الصحاح (لقح).

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢.

(٨) أي: النسب بغير ياء قال رضي الدين الاستراباذي في شرح شافية ابن الحاجب ٢/ ٨٤: يجيء بعض ما هو على فَعَّال وفاعل بمعنى ذي كذا من غير أن يكون اسم فاعل أو مبالغة فيه. وينظر الدر المصون ٧/ ١٥٤.

وقال عُبيد بن عُمير: يرسلُ الله المُبشِّرةَ فتَقُمُّ الأرضَ قَمًّا، ثم يرسل المُثيرةَ فتثيرُ السحاب، ثم يرسلُ المُؤلِّفة فتؤلفُه، ثم يَبعثُ اللواقحَ فتُلقِحُ الشجرَ. وقيل: الريحُ الملاقحُ التي تحملُ الندى فتمجُّه في السحابِ، فإذا اجتمعَ فيه صار مطراً[1].

وعن أبي هريرةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الريحُ الجنوبُ من الجنةِ، وهي الريحُ اللواقحُ التي ذكرها اللهُ في كتابِه، وفيها منافعُ للناس»[2].

ورُوي عنه عليه الصلاة والسلامُ أنه قالَ: «ما هبَّتْ جَنوبٌ إلاأنبعَ الله بها عيناً غَدَقة»[3].

وقال أبو بكر بنُ عيَّاش: لا تقطرُ قطرةٌ من السَّحابِ إلا بعدَ أن تعملَ الرياحُ الأربعُ فيها، فالصَّبا تُهيِّجُه، والدَّبُور تُلقِحُه، والجَنوبُ تُدِرُّه، والشَّمال تُفرِّقه[4].

الثانية: روى ابنُ وهب وابنُ القاسم وأشهبُ وابنُ عبد الحكم عن مالكٍ ـ واللفظُ لأشهبَ ـ قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾، فلَقاحُ القمحِ عندي أن يُحبِّبَ ويُسَنْبِلَ، ولا أدري ما يَيْبَسُ في أكمامِه، ولكن يُحبِّب حتى يكونَ لو يَبِس حينئذٍ لم يكن فساداً لا خيرَ فيه[5]. ولقاحُ الشجرِ كلِّها أن تُثمرَ، ثم يَسقطَ منها ما يسقطُ، ويَثبتَ ما يثبت، وليس ذلك بأن تَورَّد.

قال ابنُ العربي[6]: إنَّما عوَّل مالكٌ في هذا التفسيرِ على تشبيهِ لَقاحِ الشجرِ بلَقاحِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٤٦ ، وضعَّف ابن كثير إسناده.

(٣) ذكره البغوي في التفسير ٣/ ٤٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، وقال الشافعي في الأم ١/ ٢٢٥ ، ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٣/ ٣٦٤ : وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: ما هبت جنوب قط إلا أسالت وادياً.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٤٥ - ٤٦ ، والبغوي ٣/ ٤٧ ، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ - ٣٥٧ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٣ - ٣٩٤ . وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٤ .

(٥) في (م): فساد الأخير فيه.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٤ ، والكلام منه من أول المسألة الثانية.

الحَمْل، وأنَّ الولدَ إذا عَقَدَ وخُلِق ونُفِخ فيه الروحُ، كان بمنزلةِ تَحبُّبِ الثمرِ وتَسنبُلِه؛ لأنه سُمي باسمٍ تشتركُ فيه كلُّ حاملةٍ، وهو اللَّقاحُ، وعليه جاءَ الحديثُ: نهى النبيُّ ﷺ عن بيعِ الحَبِّ حتى يَشتدَّ(١).

قال ابنُ عبدِ البرّ(٢): الإبَارُ عندَ أهلِ العلم في النخل: التلقيحُ، وهو أن يُؤخذَ شيءٌ من طلعِ(٣) النخلِ، فيُدْخَلَ بين ظَهرانَي طلعِ الإناث. ومعنى ذلك في سائرِ الثمارِ ظهورُ(٤) الثمرةِ من التينِ وغيرِه حتى تكونَ الثمرةُ مرئيةً منظوراً إليها. والمعتبرُ عند مالكٍ وأصحابِه فيما يُذكَّر من الثمارِ التذكيرُ، وفيما لا يُذكَّر أن يَثبتَ من نُوَّارِه ما يَثبت، ويَسقطَ ما يَسقط. وحدُّ ذلك في الزرعِ ظُهورُه من الأرض؛ قاله مالكٌ. وقد رُويَ عنه أنَّ إبارَه أن يُحبِّبَ. ولم يختلفِ العلماءُ أن الحائطَ إذا انشقَّ طلعُ إناثِه، فأُخِّر إبارُه؛ وقد أُبِّر غيرُه ممَّن حالُه مثلُ حالِه؛ أنَّ حكمَه حُكْمُ ما أُبِّر؛ لأنه قد جاءَ عليه وقتُ الإبارِ وثمرتُه ظاهرةٌ بعد تغيبها في الجُفِّ(٥). فإن أُبِّر بعضُ الحائط، كان ما لم يُؤبَّر تبعاً له، كما أنَّ الحائطَ إذا بدا صلاحُه، كان سائرُ الحائطِ تبعاً لذلك الصلاحِ في جوازِ بيعِه.

الثالثة: روى الأئمةُ كلُّهم عن ابنِ عمرَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ ابتاعَ نخلاً بعد أن تُؤبَّر؛ فثمرتُها للذي باعَها إلا أن يَشترطَ المبتاعُ. ومنِ ابتاع عبداً؛ فمالُه للذي باعَه إلا أن يَشترطَه المبتاع»(٦).

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧١)، والترمذي (١٢٢٨)، وابن ماجه (٢٢١٧)، وأحمد (١٣٣١٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) في التمهيد ١٣/ ٢٩١.

(٣) بعدها في (م): ذكور.

(٤) في (د) و(ز) و(م): طلوع، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١.

(٥) في (د) و(ز) و(م): الحب، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ١٣/ ٢٩١، والجُفُّ: وعاء الطلع. القاموس (جفف).

(٦) أخرجه البخاري (٢٣٧٩)، ومسلم (١٥٤٣) (٨٠)، وأبو داود (٣٤٣٣)، والترمذي (١٢٤٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٩٧، وفي الكبرى (٤٩٩١)، وابن ماجه (٢٢١١)، وأحمد (٤٥٥٢).

قال علماؤنا: إنَّما لم يَدخلِ الثمرُ المؤبَّرُ مع الأصولِ في البيعِ إلا بالشرطِ؛ لأنَّه عينٌ موجودةٌ يُحاطُ بها، أُمِنَ سقوطُها غالباً، بخلافِ التي لم تُؤبر؛ إذ ليس سُقوطُها مأموناً، فلم يَتحققْ لها وجود، فلم يَجُزْ للبائعِ اشتراطُها، ولا استثناؤها؛ لأنَّها كالجنين، وهذا هو المشهورُ من مذهبِ مالك. وقيل: يجوزُ استثناؤها، وهو قولُ الشافعي.

الرابعة: لو اشتُرِيَ النخلُ وبقي الثمرُ للبائع؛ جازَ لمشتري الأصلِ شراءُ الثمرةِ قبل طِيبها على مشهورِ قولِ مالك، ويرى لها حكمَ التبعية، وإن أُفرِدتْ بالعقد. وعنه في روايةٍ: لا يجوزُ، وبذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفةَ، والثوري وأهلُ الظاهرِ، وفقهاءُ الحديث، وهو الأظهرُ من أحاديثِ النهي عن بيعِ الثمرةِ قبل بُدوِّ صلاحِها[١].

الخامسة: وممَّا يتعلقُ بهذا البابِ النَّهيُ عن بيعِ الملاقح، والمَلاقِحُ: الفحولُ من الإبل، الواحدُ مُلقِح. والمَلاقِحُ أيضاً: الإناثُ التي في بطونِها أولادُها، الواحدةُ مُلقَحة بفتحِ القاف. والملاقيحُ: ما في بطونِ النوقِ من الأجِنَّة، الواحدةُ مَلقوحة، من قولهم: لُقِحَت، كالمحموم من حُمَّ، والمجنون من جُنَّ[٢]. وفي هذا جاء النَّهيُ. وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ: أنه نهى عن المَجْر[٣]، وهو بيعُ ما في بطونِ الإناث، ونَهى عن المَضامينِ والمَلاقيح[٤]. قال أبو عبيد: المضامينُ: ما في البطون، وهي الأجِنَّة. والملاقيحُ: ما في أَصلابِ الفحول. وهو قولُ سعيدِ بنِ المسيب وغيرِه. وقيل بالعكس: إنَّ المضامين ما في ظُهورِ الجمال، والمَلاقيحَ ما في بطونِ الإناث. وهو قولُ ابنِ حبيب وغيرِه. وأيُّ الأمرين كان، فعلماءُ المسلمين مجمعون على أنَّ ذلك لا يجوزُ. وذكر المُزنيُّ عن ابنِ هشامٍ شاهداً بأنَّ الملاقيحَ ما في البطونِ لبعضِ

(١) المفهم ٤/ ٣٩٩.

(٢) الصحاح (لقح).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٤٤٤٠)، والبيهقي ٥/ ٣٤١، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البزار (١٢٦٨ - كشف الأستار)، والطبراني (١١٥٨١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الأعراب:

مَنَّيْتَني[١] مَلاقحاً في الأَبطُنِ ... تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهري[٢] على ذلك شاهداً قولَ الراجز:

إنَّا وَجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ ... خيراً من التَّأنانِ والمسائلِ

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ ... مَلقوحةً في بطنِ نابٍ حاملِ[٣]

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السَّحاب. وكلُّ ما علاك فأظلَّك يُسمَّى سماء. وقيل: من جهةِ السَّماء. ﴿مَآءً﴾ أي: قَطْراً. ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا ذلك المطرَ لسُقياكم ولشُربِ مواشيكم وأرضِكم. وقيل: سَقى وأسقى بمعنًى. وقيل: بالفرقِ، وقد تقدَّم[٤].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: ليست خَزائنُه عندكم، أي: نحنُ الخازنون لهذا الماءِ نُنزله إذا شِئنا، ونُمسِكه إذا شئنا. ومثلُه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقال سفيانُ: لستم بمانعين المطرَ[٥].

---

(١) في (م) واللسان (لقح): منيتي، والمثبت من النسخ الخطية، والتمهيد لابن عبد البر ١٣/ ٣١٥، وعنه نقل المصنف، وتهذيب اللغة ٤/ ٥٣، واللسان (لقح). ووقع في التمهيد «شهاب» بدل «هشام»، وقد جاء مصرَّحاً به في التهذيب واللسان وهو: عبد الملك بن هشام.

(٢) في الصحاح (لقح).

(٣) في تهذيب اللغة ٤/ ٥٢، والصحاح واللسان وأساس البلاغة (لقح): «حائل» بدل: «حامل»، ونَسبَه الزمخشري إلى مالك بن الريب. والمعنى كما قال الحسن اليوسي في المحاضرات ٢/ ٥٥٠-٥٥١: إنَّ سرقة الإبل الهوامل - أي: التي لا راعي معها - خير لنا من الأنين والتشكي وسؤال الناس، فهذا يردنا، وهذا يَعِدنا بالعطاء في العام أو القابل جنيناً في بطن أمه.

(٤) ٢/ ١٣٥.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٤٦ - ٤٧، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥ - ١٥٦، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨، وزاد المسير ٤/ ٣٩٤ - ٣٩٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: مَنْ قَدَر على هذه الأشياء قادرٌ على الإماتةِ ثم الإحياء بعدها ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[١] أي: الأرضَ ومَن عليها، ولا يبقى شيءٌ سوانا. نظيرُه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]. فمُلكُ كلِّ شيءٍ لله تعالى، ولكن مَلَّكَ عبادَه أملاكاً، فإذا ماتوا، انقطعتِ الدَّعاوى، فكانَ الله وارثاً من هذا الوجه[٢]. وقيل: الإحياءُ في هذه الآية إحياءُ النطفة في الأرحامِ، فأمَّا البعثُ، فقد ذَكَره بعدَ هذا في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيه ثمانِ تأويلاتٍ:

الأوَّلُ: «المستقدِمِين»: في الخلقِ إلى اليوم، و«المستأخرين»: الذين لم يُخلَقوا بعد؛ قاله قتادةُ وعكرمةُ وغيرُهما.

الثاني: «المستقدِمِين»: الأموات، و«المستأخرين»: الأحياء؛ قاله ابنُ عباس والضَّحاك.

الثالث: «المستقدمين»: مَن تقدَّم أمةَ محمد ﷺ، و«المستأخرين»: أُمةُ محمدٍ ﷺ؛ قاله مجاهد.

الرابع: «المستقدمين»: في الطاعةِ والخير، و«المستأخرين»: في المعصيةِ والشر؛ قاله الحسنُ وقتادةُ أيضاً.

الخامس: «المستقدمين» في صفوفِ الحرب، و«المستأخرين» فيها؛ قاله سعيدُ ابنُ المسيب.

---

(١) قوله: أي: من قدر إلى هنا ليس في (د) و(ز) و(م).

(٢) ينظر تفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٤٢ - ٤٣، وتفسير البغوي ٣/ ٤٨، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧٧.

السادس: «المستقدمين»: مَنْ قُتِل في الجهاد، و«المستأخرين»: مَن لم يُقتَل؛ قاله القُرَظي.

السابع: «المستقدمين»: أوَّلُ الخَلق، و«المستأخرين»: آخرُ الخلق؛ قاله الشَّعبي.

الثامن: «المستقدمين»: في صفوفِ الصَّلاة، و«المستأخرين» فيها بسبب النساء[1]. وكلُّ هذا معلومٌ لله تعالى، فإنَّه عالمٌ بكلِّ موجودٍ ومعدوم، وعالمٌ بمَن خُلِق وما هو خَالِقُه إلى يومِ القيامة. إلا أنَّ القولَ الثامن هو سببُ نزولِ الآية؛ لما رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ[2] عن أبي الجَوزاءِ، عن ابنِ عباسٍ قال: كانتِ امرأةٌ تصلي خلفَ رسولِ الله ﷺ حسناءُ من أحسنِ الناس، فكانَ بعضُ القومِ يَتقدَّمُ حتى يكونَ في الصفِّ الأوَّل؛ لئلَّا يراها، ويتأخَّرُ بعضُهم حتى يكونَ في الصفِّ المؤخر، فإذا ركعَ، نظرَ من تحتِ إبْطِه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. ورُوي عن أبي الجوزاءِ ولم يُذكر ابنُ عباس، وهو أصحُّ.

الثانية: هذا يدلُّ على فضل أوَّل الوقتِ في الصَّلاة، وعلى فضلِ الصفِّ الأوَّل؛ قال النبيُّ ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأوَّل، ثم لم يجِدوا إلا أن يَستَهِموا عليه؛ لاستَهَموا»[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٤٨ - ٥٤ ، وتفسير مجاهد ١/٣٤١ ، وتفسير السمرقندي ٢/٢١٧ - ٢١٨ ، والنكت والعيون ٣/١٥٦ - ١٥٧ ، والوسيط ٣/٤٣ ، وزاد المسير ٤/٣٩٦ - ٣٩٧ ، وتفسير الرازي ١٩/١٧٧ - ١٧٨ . ونسب ابن الجوزي والرازي القولَ الخامس إلى الضحاك بدلاً من ابن المسيب. وعدَّ ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١١٥ خمسة أقوال فقط.

(٢) النسائي في المجتبى ٢/١١٨ ، وفي الكبرى (١١٢٧٣)، والترمذي (٣١٢٢)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وأحمد (٢٧٨٣). وأبو الجوزاء: هو أوس بن عبد الله الرَّبَعي.

وقال الترمذي: وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: حديث غريب جدًّا، وفيه نكارة شديدة. ثم رجح أن يكون من كلام أبي الجوزاء.

(٣) سلف ٥/ ١٣٣ .

فإذا جاءَ الرجلُ عند الزوال، فنزلَ في الصفِّ الأوَّل مجاورَ الإمام؛ حازَ ثلاثَ مراتبَ في الفضل: أَوَّلَ الوقت، والصفَّ الأوَّل، ومُجاورةَ الإمام. فإن جاء عند الزوالِ، فنزلَ في الصف الآخِر، أو فيما نزلَ عن الصفِّ الأوَّل؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وَفاتَه فضلُ الصفِّ الأوَّلِ والمجاورةِ. فإن جاءَ وقتَ الزوال، ونزلَ في الصف الأوَّل دون ما يلي الإمام؛ فقد حازَ فضلَ أوَّلِ الوقت، وفضلَ الصفِّ الأوّل، وفاتَه مجاورة الإمام. فإن جاءَ بعد الزوال، ونزلَ في الصفِّ الأوّل؛ فقد فاتَه فضيلةُ أوَّلِ الوقت، وحاز فضيلةَ الصفِّ الأوّل، ومجاورةِ الإمام. وهكذا.

ومجاورةُ الإمامِ لا تكونُ لكلِّ أحد، وإنَّما هي كما قالَ ﷺ: «لِيَلِني منكم أُولو الأَحلامِ والنُّهَى»[(١)] الحديث. فما يلي الإمامَ ينبغي أن يكونَ لمن كانت هذه صفتَه، فإن نَزلَها غيرُه أُخِّر، وتقدَّم هو إلى الموضعِ؛ لأنه حقُّه بأمرِ صاحبِ الشرع، كالمحرابِ هو موضعُ الإمامِ تقدَّم أو تأخر؛ قاله ابنُ العربي[(٢)].

قلتُ: وعليه يُحملُ قولُ عمرَ ﷺ: تَأَخَّرْ يا فلان، تَقدَّم يا فلان. ثم يتقدَّمُ فيُكَبِّر[(٣)]. وقد رُويَ عن كعب، أنَّ الرجلَ من هذه الأمةِ لَيَخِرُّ ساجداً، فيغفرُ لِمَن خَلفه. وكان كعبٌ يتوخَّى الصفَّ المؤخَّرَ من المسجدِ رجاءَ ذلك، ويَذكُر أنَّه وَجَده كذلك في التوراة. ذكرهُ الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادرِ الأصول»[(٤)]. وسيأتي في سورةِ الصَّافات زيادةُ بيانٍ لهذا البابِ إن شاءَ الله تعالى.

الثالثة: وكما تدلُّ هذه الآيةُ على فضلِ الصف الأوّل في الصلاة، فكذلك تدلُّ على فضلِ الصفِّ الأوَّل في القتال؛ فإنَّ القيامَ في نحر العدوِّ، وبيعَ العبدِ نفسَه من اللهِ تعالى لا يُوازيه عملٌ، فالتقدُّمُ إليه أفضلُ، ولا خلافَ فيه، ولا خفاءَ به. ولم يكن

---

(١) سلف ٢/ ٤٨ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٥ - ١١١٦ .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٩/ ٦٥٣ .

(٤) نوادر الأصول ص٢٩ ، الأصل العشرون.

أحدٌ يتقدَّم في الحربِ بين يدي رسولِ الله ﷺ؛ لأنَّه كان أشجعَ الناس. قال البَراءُ: كنَّا ـ واللهِ ـ إذا احمرَّ البأسُ نتَّقي به، وإنَّ الشجاعَ منَّا لَلَّذي يُحاذي به. يعني النبيَّ ﷺ[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: للحسابِ والجزاء. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقدم[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني: آدمَ عليه السَّلام. ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: من طينٍ يابسٍ؛ عن ابن عباس وغيرِه[3]. والصَّلْصَالُ: الطينُ الحرُّ خُلِط بالرمل، فصارَ يَتصلصَلُ إذا جَفَّ، فإذا طُبِخ بالنار، فهو الفَخَّار؛ عن أبي عبيدة[4]. وهو قولُ أكثرِ المفسرين[5]. وأنشد أهلُ اللغة:

كَعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ[6]

وقال مجاهد[7]: هو الطِّينُ المُنْتِنِ. واختارَه الكِسائيُّ[8]. قال: وهو من قولِ العربِ[9]: صلَّ اللَّحمُ وأصلَّ: إذا أنتن، مطبوخاً كان أو نِيْئاً، يَصِلُّ صُلولاً. قال الحُطَيئة:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٦، وقول البراء أخرجه مسلم (١٧٧٦) (٧٩).

(٢) ١/ ٤٢٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٥٧ - ٥٨.

(٤) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨، والنكت والعيون ٣/ ١٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٨، وزاد المسير ٤/ ٣٩٧.

(٦) عجزُ بيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس، وصدره: عنتريس تعدو إذا مسَّها السوط. وهو في ديوانه ص٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥٠ - ٣٥١، واللسان (صلل).

(٧) في تفسيره ١/ ٣٤١، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٨ - ٥٩.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٤٩.

(٩) الصحاح (صلل).

ذاكَ فـتـى يـبـذلُ ذا قِـدْرِه لا يُـفـسِـدُ الـلـحـمَ لَـدَيـه الـصُّـلـولُ[(١)]

وطينٌ صَلَّالٌ ومِصْلالٌ، أي: يُصوِّتُ إذا نَقَرْتَه، كما يُصوِّتُ [الفَخَّارُ] الجديدُ[(٢)]. فكان أوَّلَ تراباً، أي: مُتفرِّقَ الأجزاءِ، ثم بُلَّ فصارَ طيناً، ثم تُرِك حتى أنتنَ، فصارَ حَمَأً مسنوناً، أي: متغيراً، ثم يَبِس فصارَ صَلصالاً؛ على قولِ الجمهورِ. وقد مضى في «البقرة» بيانُ هذا[(٣)].

والحَمَأُ: الطينُ الأسودُ، وكذلك الحَمْأَة، بالتسكين، تقولُ منه: حَمَأْتُ[(٤)] البئرَ حَمْأً؛ بالتسكين: إذا نَزعتَ حَمْأَتها. وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأً؛ بالتحريك: كَثُرتْ حَمْأَتُها. وأَحْمَأْتُها إحماءً: أَلقيتُ فيها الحَمْأَةَ؛ عن ابنِ السِّكِّيت[(٥)]. وقال أبو عبيدة: الحَمْأَةُ، بسكونِ الميم، مثلُ الكَمْأة. والجمعُ حَمْءٌ، مثل: تَمْرةٌ وتَمر. والحَمَأُ المصدرُ، مثل: الهَلَعِ والجَزَع، ثم سُمِّي به[(٦)].

و«المسنونُ»: المتغيِّرُ. قال ابنُ عباس: هو الترابُ المبتلُّ المنتنُ، فجُعِل صَلصالاً كالفخَّار. ومثلُه قولُ مجاهدٍ وقتادةَ، قالا: المنتنُ: المُتغيِّر[(٧)]؛ من قولِهم: قد أَسِنَ الماءُ: إذا تغيَّر، ومنه: «يَتَسَنَّه»، و«ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ». ومنه قولُ أبي قيس بن الأسلت[(٨)]:

---

(١) ديوانه ص١٧٦ ، واللسان (صلل)، وصدره عند أبي حاتم السجستاني في فعلت وأفعلت ص١٢٠ : هو الفتى كلُّ الفتى فاعلموا.

(٢) في النسخ: الحديد، والمثبت من الصحاح وما بين حاصرتين منه، ووقع في اللسان (صلل): الخزف، بدل: الفخَّار.

(٣) ١/٤١٨ .

(٤) في (م): حمئت.

(٥) الصحاح (حمأ)، وكلام ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٢٥٥ .

(٦) مجاز القرآن ١/٣٥١ ، والمحرر الوجيز ٣/٣٥٩ ، وزاد المسير ٤/٣٩٧ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٨٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٦١ - ٦٢ .

(٨) النكت والعيون ٣/١٥٨ .

سَقَتْ صداي رُضاباً غيرَ ذي أسنٍ كالمسكِ فُتَّ على ماءِ العناقيدِ

وقال الفَراء: هو المتغيرُ، وأصلُه من قولِهم: سَنَنْتُ الحجرَ على الحجرِ: إذا حَكَكْتَه به، وما يخرجُ من الحجرينِ يقال له: السنانة والسَّنِين، ومنه المِسَنُّ[١]. قال الشاعر:

ثم خاصرتُها إلى القبةِ الحمـ ـراءِ تمشي في مَرْمَرٍ مَسنونِ

أي: محكوك مُمَلَّس. حُكي أنَّ يزيدَ بنَ معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبدَ الرحمن ابنَ حسَّان يُشبِّب بابنتِك؟ فقال معاويةُ: وما قال؟ فقال: قال:

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤةِ الغوَّ اصِ مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاويةُ: صدَق! فقال يزيدُ: إنه يقول:

وإذا ما نَسَبْتَها لم تَجِدْها في سَناءٍ من المكارمِ دونِ[٢]

فقال: صَدقَ! فقال: أينَ قولُه: ثم خَاصرتها...؟ البيتِ. فقال معاويةُ: كذبَ.

وقال أبو عبيدة[٣]: المَسنونُ: المَصبوبُ. وهو من قولِ العربِ: سَننتُ الماءَ وغيرَه على الوجهِ، إذا صَبَبْتَه. والسَّنُّ: الصَّبُّ[٤].

وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس قال: المسنونُ: الرَّطبُ[٥]. وهذا

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٨٨ . للفراء، دون قوله: السنانة، ولم ينقلها أحدٌ ممَّن نقل كلام الفراء هذا، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، واللسان (سنن).

(٢) اختلف في نسبة هذه الأبيات، فمنهم مَن نسبها إلى أبي دَهْبَل الجمحي كما في الأغاني ٧/ ١٢٣-١٢٤ ، والكامل للمبرد ١/ ٣٨٧ ، ومنهم من نسبها إلى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الأغاني ١٥/ ١٠٩ - ١١٠ ، والعقد الفريد ٥/ ٣٢٢ - ٣٢٣ ، والشعر والشعراء ١/ ٤٨٤ - ٤٨٥ ، والصحاح واللسان (سنن)، وقال المبرد في الكامل ١/ ٣٨٧ : والذي كأنه إجماع أنه لعبد الرحمن بن حسان، وهو في بنت معاوية. وفي جميع المصادر: «القبة الخضراء» بدل «القبة الحمراء».

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٥١ .

(٤) ينظر الأفعال للسرقسطي ٣/ ٥٠٢ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٣٠١ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/ ٦٢ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

بمعنى المَصْبوب؛ لأنَّه لا يكونُ مصبوباً إلا وهو رَطبٌ. النَّحاس[١]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه يُقال: سَنَنْتُ الشيء، أي: صَببتُه. قاله[٢] أبو عمرو بنُ العلاء. ومنه الأثرُ المرويُّ عن ابن[٣] عمر أنه كان يَسُنُّ الماءَ على وجهِه ولا يَشُنُّه. والشَّنُّ، بالشين: تفريقُ الماءِ، وبالسينِ المهملةِ: صبُّه من غيرِ تفريق.

وقال سيبويه: المسنونُ: المصوَّرُ. أُخِذ من سُنَّةِ الوجهِ، وهي[٤] صورتُه. وقال ذو الرُّمَّة:

تُـريـك سُـنَّـةَ وجـهٍ غـيـرَ مُـقْـرِفـةٍ ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ[٥]

وقال الأخفش[٦]: المسنونُ: المنصوبُ القائِم، من قولهم: وجهٌ مسنونٌ: إذا كان فيه طولٌ. وقد قيل: إن الصَّلصالَ الترابُ المدقَّق[٧]؛ حكاه المهدويُّ. ومَن قال: إنَّ الصَّلصالَ هو المنتنُ، فأصلُه صلّال، فأُبدل من إحدى اللامين الصاد[٨]. و«مِنْ حَمَإٍ» مُفسِّرٌ لجنسِ الصَّلصال؛ كقولك: أخذتُ هذا من رجلٍ من العرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ خلقِ آدمَ. وقال الحسنُ: يعني:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٢٤ - ٢٦ .

(٢) في النسخ: قال، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٥٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ .

(٣) ليست في النسخ، والمثبت من مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٦٧ ، والغريب للخطابي ١/ ٤٣٩ ، والنهاية في غريب الحديث ٢/ ٤١٣ ، واللسان (سنن).

(٤) في (د) و(ز) و(م): وهو، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٤٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ١٨٠ .

(٥) ديوان ذي الرمة ١/ ٢٩ ، وقوله: غير مقرفة، أي: ليست بهجينة، وهي عتيقة كريمة. والندب: آثار الجراح. وينظر الصحاح (سنن).

(٦) نقله عنه السمرقندي في التفسير ٢/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

(٧) في (ظ): المرقق.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤ .

إبليسَ، خَلقه اللهُ تعالى قبل آدمَ عليه السلام. وسُمِّيَ جانًّا؛ لتواريه عن الأعين. وفي «صحيح مسلمٍ»[١] من حديثِ ثابتٍ، عن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّر الله تعالى آدمَ عليه السلام في الجنةِ، تَركه ما شاءَ الله أن يتركَه، فَجعلَ إبليسُ يُطيفُ به، يَنظرُ ما هو، فلمَّا رآه أجوفَ، عَرفَ أنَّه خُلِق خَلقاً لا يَتمالك».

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال ابنُ مسعود: نارُ السَّمومِ التي خَلقَ اللهُ منها الجانَّ جزءٌ من سبعينَ جزءاً من نارِ جَهنَّم. وقال ابنُ عباس: السَّمومُ الريحُ الحارةُ التي تقتل[٢]. وعنه: أنَّها نارٌ لا دُخانَ لها، والصَّواعقُ تكونُ منها، وهي نارٌ تكونُ بين السماء والحجاب[٣]. فإذا أحدثَ اللهُ أمراً اخترقت الحجابَ، فَهوتِ الصَّاعقةُ إلى ما أُمِرت، فالهَدَّةُ التي تَسمعون خَرقُ ذلك الحجابِ. وقال الحسنُ: نارُ السَّموم نارٌ دونها حجابٌ، والذي تَسمعون من انعطاطِ[٤] السحابِ صوتُها. وعن ابنِ عباس أيضاً قال: كان إبليسُ من حيٍّ من أحياءِ الملائكةِ يقالُ لهم: الجنُّ، خُلقوا من نارِ السَّموم من بين الملائكةِ. قال: وخُلِقت الجنُّ الذين ذُكِروا في القرآنِ من مارجٍ من نار[٥].

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإنه يحتاجُ إلى سندٍ يقطعُ العُذرَ؛ إذ مثلُه لا يقالُ من جهةِ الرأي. وقد خرَّج مسلمٌ[٦] من حديثِ عروةَ، عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ، وخُلِق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلق آدمُ ممَّا وُصِف لكم». فقولُه: «خُلِقت الملائكةُ من نورٍ» يقتضي العمومَ. والله أعلم.

---

(١) برقم (٢٦١١)، وهو عند أحمد (١٢٥٣٩).

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣ - ٦٤، وزاد المسير ٤/ ٤٠٠.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٨.

(٤) في (د) و(ز) و(م): انغطاط، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨، والانعطاط: الانشقاق. اللسان (عطط).

(٥) تفسير الطبري ١/ ٤٨٢ و١٤/ ٦٤، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٥٩، والوسيط ٣/ ٤٤ - ٤٥. وقال ابن كثير في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة: هذا سياق غريب، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها.

(٦) برقم (٢٩٩٦)، وهو عند أحمد (٢٥١٩٤).

وقال الجوهريُّ: مارج من نار: نارٌ لا دخانَ لها خُلق منها الجانُّ[١]. والسَّمومُ: الريحُ الحارةُ تُؤنَّث؛ يقال منه: سُمَّ يومُنا؛ فهو يومٌ مسموم، والجمعُ سَمائمُ. قال أبو عبيدة: السَّمُومُ بالنهار، وقد تكونُ بالليل، والحَرُورُ بالليل، وقد تكونُ بالنهار[٢]. القشيريُّ: وسُمِّيتِ الريحُ الحارةُ سَموماً؛ لدخولِها في مَسامِّ البدن[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقدمَ في «البقرة»[٤]. ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾: من طين. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: سوَّيتُ خَلْقَه وصوَّرتُه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النفخُ: إجراءُ الريحِ في الشيء. والرُّوحُ: جسمٌ لطيفٌ، أجرى اللهُ العادةَ بأن يَخلُق الحياةَ في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقتُه إضافةُ خَلقٍ إلى خالق؛ فالروحُ خلقٌ من خلقِه أضافَه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أرضي، وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله. ومثلُه: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] وقد تقدَّم في «النساء» مبيَّناً[٥]. وذكرنا في كتابِ «التذكرةِ»[٦] الأحاديثَ الواردةَ التي تدل على أنَّ الروحَ جسمٌ لطيف، وأنَّ النفسَ والروحَ اسمان لمسمًّى واحدٍ. وسيأتي ذلك إن شاء الله. ومَن قال: إنَّ الرُّوحَ هو الحياةُ قال: أرادَ: فإذا ركَّبْتُ فيه الحياةَ ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي: خِرُّوا له ساجدين. وهو سجودُ تحيةٍ وتكريمٍ لا سجودُ عبادة[٧]. ولِله أنْ يُفضِّل مَن يريد، ففضَّل الأنبياءَ على الملائكة. وقد تقدَّم في «البقرة» هذا المعنى[٨]. وقال القَفَّال:

---

(١) الصحاح (مرج).

(٢) الصحاح (سمم).

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٥٩ .

(٤) ١/ ٣٩١ .

(٥) ٧/ ٢٣١ ، وينظر الوسيط ٣/ ٤٥ .

(٦) ص١٢٤ .

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٨٨ .

(٨) ١/ ٤٣٥ .

كانوا أفضلَ من آدم، وامتحنَهم بالسجودِ له تعريضاً لهم للثوابِ الجزيل. وهو مذهبُ المعتزلة. وقيل: أُمِروا بالسجود لِله عندَ آدم، وكان آدمُ قِبلةً لهم(١).

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: لا شكَّ أنَّ إبليسَ كان مأموراً بالسُّجود؛ لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإنَّما منَعه من ذلك الاستكبارُ والاستِعظام؛ كما تقدَّم في «البقرة» بيانُه(٢). ثم قيل: كانَ من الملائكةِ، فهو استثناءٌ من الجِنس. وقال قومٌ: لم يكن منَ الملائكة، فهو استثناءٌ منقطِع. وقد مضَى في «البقرة» هذا كلُّه مُستوفًى(٣).

وقال ابنُ عباس: الجانُّ: أبو الجن، وليسُوا شياطينَ. والشَّياطينُ: ولدُ إبليسَ، لا يموتونَ إلا مع إبليس. والجنُّ يموتون، ومنهم المؤمنُ، ومنهم الكافر. فآدمُ أبو الإنس، والجانُّ أبو الجن، وإبليسُ أبو الشياطين. ذكره الماورديُّ(٤). والذي تقدَّم في «البقرةِ» خلافُ هذا، فتأمَّله هناك.

الثانية: الاستثناءُ من الجنس غيرِ الجنسِ صحيحٌ عند الشافعيِّ، حتى لو قال: لفلانٍ عليَّ دينارٌ إلَّا ثوباً، أو عشرةُ أثواب إلا قفيزَ حنطةٍ، وما جانسَ ذلك؛ كان مقبولاً، ويسقط عنه من المبلغِ قيمةُ الثوبِ والحِنطة. ويستوي في ذلك المكيلاتُ والموزوناتُ والمُقدَّرات. وقال مالكٌ وأبو حنيفةَ ﵄: استثناءُ المكيلِ من الموزونِ، والموزونِ من المكيل جائزٌ، حتى لوِ استثنى الدراهمَ من الحِنطةِ، والحنطةَ من الدراهم قُبِل، فأمَّا إذا استثنى المقوَّمات من المكيلاتِ أو الموزونات، والمكيلاتِ

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٤٤١ .

(٣) ١/ ٤٣٨ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ .

من المقوَّمات، مثل أن يقولَ: عليَّ عشرةُ دنانيرَ إلا ثوباً، أو عشرة أثواب إلا ديناراً، لا يصحُّ الاستثناء، ويَلزمُ المُقِرَّ جميعُ المبلغ. وقال محمدُ بنُ الحسن: الاستثناءُ من غيرِ الجنس لا يصحُّ، ويلزمُ المُقرَّ جملةُ ما أقرَّ به[١]. والدليلُ لقولِ الشافعيِّ[٢] أنَّ لفظَ الاستثناء يُستعمل في الجنسِ وغيرِ الجنس، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، فاستثنى السَّلامَ من جملة اللَّغو، ومثلُه ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وإبليسُ ليس من جملةِ الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال الشَّاعر:

وَبَلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ[٣]

فاستثنى اليعافيرَ وهي ذكورُ الظباء، والعِيسَ وهي الجِمالُ البيضُ، من الأَنيس؛ ومثلُه قولُ النابغة[٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: ما المانعُ لك. ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: في ألَّا تكونَ.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ بيَّن تكبُّرَه وحسدَه،

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٤٧١، ومختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١٤ - ٤١٥، والوسيط في المذهب ٣/ ٣٥٤ - ٣٥٥، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٧١٣.

(٢) نهاية المحتاج ٥/ ١٠٦.

(٣) البيت لجِران العَود النميري، وهو في ديوانه ص٩٧، وسلف ٦/٧.

(٤) يشير إلى قوله:

وقفت فيها أُصَيلاناً أسائلها ... عيت جواباً وما بالربع من أحد

إلا الأواري لأياً ما أبينها ... والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

والبيتان في ديوانه ص٣٠، وسلفا في موضعين ١/ ٤٦٠ و ٦/٧، واستشهد بهما على المسألة نفسها.

وأنه خيرٌ منه؛ إذ هو من نارٍ، والنارُ تأكلُ الطين[١]؛ كما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه[٢]. ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السَّماوات، أو من جنةِ عَدْن، أو من جملةِ الملائكةِ[٣]. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالشُّهب. وقيل: ملعونٌ مشتوم[٤]. وقد تقدَّم هذا كلُّه مستوفًى في «البقرةِ» و«الأعراف»[٥]. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: لعنتي، كما في سورة (ص) [آية:٧٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ هذا السؤالُ من إبليسَ لم يكن عن ثقةٍ[٦] منه بمنزلتِه عندَ الله تعالى، وأنَّه أهلٌ أن يُجاب له دعاءٌ، ولكنْ سألَ تأخيرَ عذابِه زيادةً في بلائِه، كفعلِ الآيسِ من السَّلامة. وأرادَ بسؤالِه الإنظارَ إلى يوم يبعثون، ألَّا يموتَ؛ لأنَّ يوم البعثِ لا موتَ فيه، ولا بعده. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يعني: من المؤجَّلين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ قال ابنُ عباس: أرادَ به النفخةَ الأولى، أي: حين تموتُ الخلائقُ. وقيل: الوقتُ المعلومُ الذي استأثرَ اللهُ بعلمه، ويجهلُه إبليسُ، فيموتُ إبليس ثم يُبعَث؛ قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]. وفي كلامِ الله تعالى له قولان: أحدهما: كلَّمه على لسانِ رسول[٧]. الثاني: كلَّمه تغليظاً في الوعيدِ، لا على وجهِ التَّكرمةِ والتقريبِ[٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٦٦ - ٦٧.

(٢) ٩/١٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٦١.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مشؤوم، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير الطبري ١٤/٦٧، والمحرر الوجيز ٣/٣٦١.

(٥) ١/١٤١ و٩/١٧٣ - ١٧٤، وينظر ١/٤٧٤ - ٤٧٥.

(٦) في (م) ثقته، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/١٥٩.

(٧) في (م) و(د): رسوله.

(٨) النكت والعيون ٣/١٥٩ - ١٦٠.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقدَّم معنى الإغواءِ والزينة في «الأعراف»[١]. وتَزيينُه هنا يكون بوجهين: إمَّا بفعلِ المعاصي، وإما بشغلِهم بزينةِ الدنيا عن فعلِ الطَّاعة. ومعنى ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأُضلَّنَّهم عن طريق الهدى[٢]. وروى ابنُ لَهيعة عبدُ الله، عن دَرَّاج أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ قال: يا ربِّ، وعِزَّتِك وجَلالِك لا أزال أُغوي بني آدمَ ما دامت أرواحُهم في أجسامهم[٣]، فقال الربُّ: وعزتي وجَلالي لا أزال أغفرُ لهم ما استغفروني»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قرأ أهلُ المدينة وأهلُ الكوفة بفتح اللام، أي: الذين استخلَصتَهم وأخلصتَهم. وقرأ الباقون بكسرِ اللام[٥]، أي: الذين أخلصوا لك العبادةَ من فسادٍ أو رياءٍ. حكى أبو ثُمامةَ أنَّ الحواريِّين سَألوا عيسى عليه السلام عن المخلِص[٦] لله، فقال: الذي يَعملُ، ولا يُحبُّ أن يَحمَدَه النَّاس.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قال عمرُ بن الخطاب: معناهُ: هذا صراطٌ يستقيمُ بصاحبِه حتى يَهجُمَ به على الجَنَّة. الحسن: «عليَّ» بمعنى: إليَّ. مجاهدٌ والكسائيُّ: هذا على الوعيدِ والتهديدِ؛

---

(١) ٩/ ١٧٠ و ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) في (ظ): أجسادهم.

(٤) أخرجه أحمد (١١٢٣٧) و(١١٢٤٤) وأبو يعلى (١٣٩٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٥)، والبغوي في شرح السنة (١٢٩٣).

(٥) التيسير ص١٢٨ ، والسبعة ص٣٤٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): المخلصين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

كقولك لمن تُهدِّده: طريقُك عليَّ ومَصيرُك إليَّ. وكقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعُه إليَّ، فأُجازي كُلًّا بعملِه، يعني: طريقَ العُبودية. وقيل: المعنى عليَّ أن أدلَّ على الصراطِ المستقيم بالبيانِ والبُرهان. وقيل: بالتوفيقِ والهِدايةِ(١).

وقرأ ابنُ سِيرين وقتادةُ، والحسن وقيسُ بن عُباد، وأبو رجاء وحُميد، ويعقوب: «هذا صِراطٌ عليٌّ مستقِيم» برفع «عليّ» وتنوينِه(٢)، ومعناه: رفيعٌ مستقيم، أي: رفيعٌ في الدين والحقِّ. وقيل: رفيعٌ أن يُنالَ، مستقيمٌ أن يُمال(٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال العلماءُ: يعني: على قلوبِهم. وقال ابن عُيينةَ: أي: في أن يُلقيَهم في ذنبٍ يمنعُهم عفوي، ويُضيِّقُه عليهم. وهؤلاءِ الذين هَداهُم الله، واجتَباهم، واختارَهم، واصطَفاهم(٤).

قلتُ: لعلَّ قائلاً يقول: قد أخبرَ الله عن صفة(٥) آدمَ وحواء عليهما السلام بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: ٣٦]، وعن جملةٍ من أصحابِ نبيِّه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالجوابُ ما ذُكِر، وهو أنَّه ليس له سلطانٌ على قلوبهم، ولا موضعِ إيمانِهم، ولا يُلقيهم في ذنبٍ يؤولُ إلى عدمِ القَبول، بل تُزيلُه التوبةُ، وتَمحُوه الأَوْبَةُ. ولم يكن خروجُ آدمَ عقوبةً لما تناول، على

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٧١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥١ ، والمحتسب ٢/ ٣ . وقراءة يعقوب من العشرة. ينظر النشر ٢/ ٣٠١ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٦١ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢ .

(٥) في (ظ): صفيه.

ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[١]. وأمَّا أصحابُ النبيِّ ﷺ، فقد مضَى القولُ عنهم في «آل عمران»[٢]. ثم إنَّ قولَه سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يحتمل أن يكونَ خاصًّا فيمن حَفِظه الله، ويحتمل أن يكونَ في أكثرِ الأوقاتِ والأحوال، وقد يكون في تسلُّطِه تفريجُ كربةٍ، وإزالةُ غُمةٍ، كما فَعل ببلال، إذ أتاه يُهَدِّيه كما يُهدَّى الصَّبيُّ حتى نام[٣]، ونامَ النبيُّ ﷺ وأصحابُه، فلم يَستيقِظوا حتى طلعتِ الشَّمس، وفَزِعوا وقالوا: ما كفارةُ ما صَنعنا بتفريطِنا في صلاتِنا؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «ليسَ في النومِ تفريطٌ»، ففُرِّجَ عنهم[٤].

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي: الضَّالِّين المشركين[٥]. أي: سلطانه على هؤلاء؛ دليله ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

الثانية: وهذه الآيةُ والتي قبلَها دليلٌ على جوازِ استثناءِ القليلِ من الكثيرِ، والكثيرِ من القليلِ، مثل أن يقولَ: عشرةٌ إلا درهماً. أو يقول: عشرة إلا تسعةً. وقال أحمدُ ابن حنبل: لا يجوزُ أن يُستَثنَى إلا قدرُ النصفِ فما دونَه، وأمَّا استثناءُ الأكثرِ من الجملةِ فلا يصحُّ. ودليلُنا هذه الآيةُ، فإنَّ فيها استثناءَ «الغاوين» من العبادِ، والعبادِ من الغاوين، وذلك يدلُّ على أن استثناءَ الأقلِّ من الجملة، واستثناءَ الأكثرِ من الجملة جائزٌ[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: إبليسَ ومَن اتبعَه. ﴿لَهَا سَبْعَةُ

(١) ١/ ٤٧٦.

(٢) ٥/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٤ - ١٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً.

(٤) ينظر حديث أبي هريرة وحديث أبي قتادة عند مسلم (٦٨٠)، و(٦٨١).

(٥) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، والمغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٢ - ٢٩٤.

﴿أَبْوَابٍ﴾ أي: أطباق، طبقٌ فوقَ طبق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ أي: لكل طبقةٍ ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: حظٌّ معلوم[١]. ذكر ابنُ المباركِ قال: أخبرنا إبراهيمُ أبو هارون الغَنَويُّ قال: سمعت حِطَّان بنَ عبد الله الرَّقَاشي يقول: سمعتُ عليًّا ﷺ يقولُ: هل تدرونَ كيفَ أبوابُ جهنمَ؟ قلنا: هي مثلُ أبوابِنا. قال: لا، هي هكذا بعضُها فوقَ بعض[٢]. زاد الثَّعلبيُّ: ـ ووضعَ إحدى يَديهِ على الأخرى ـ وإنَّ الله وضعَ الجنانَ على الأرض، والنيرانَ بعضَها فوقَ بعض، فأسفلُها جهنمُ، وفوقَها الحُطَمةُ، وفوقها سَقَرُ، وفوقَها الجحيمُ، وفوقها لَظَى، وفوقها السَّعير، وفوقها الهاوية، وكلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي يليه سبعينَ مرةً[٣].

قلت: كذا وقعَ هذا التفسير، والذي عليه الأكثرُ من العلماءِ أن جهنمَ أعلى الدَّرَكات، وهي مختصَّةٌ بالعُصاة من أمةِ محمد ﷺ، وهي التي تُخْلَى من أهلها، فتَصفِقُ الرياحُ أبوابَها، ثم لَظَى، ثم الحُطَمةُ، ثم سعيرُ، ثم سَقَرُ، ثم الجحيمُ، ثم الهاوية؛ قال الضحَّاك: في الدَّرْكِ الأعلى المُحمديُّون، وفي الثاني النَّصارى، وفي الثالث اليهودُ، وفي الرابعِ الصَّابئون، وفي الخامسِ المجوسُ، وفي السادسِ مشركو العرب، وفي السابع المنافقون وآلُ فرعونَ ومَن كفرَ من أهلِ المائدة[٤]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ وقد تقدم في النساء[٥] ـ، وقال: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقَسَّم معاذُ بنُ جبل ﷺ العلماءَ السُّوءَ من هذه الأمةِ تقسيماً على تلك الأبواب،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧٢ - ٧٣.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٨٥ زوائد نعيم بن حماد، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤، والطبري في تفسيره ١٤/ ٧٣ - ٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٥١، والوسيط ٣/ ٤٥ - ٤٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣، وزاد المسير ٤/ ٤٠٢-٤٠٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥١، والوسيط ٣/ ٤٦، وزاد المسير ٣/ ٤٦.

(٥) ٧/ ١٩٥ - ١٩٦.

ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

وروى الترمذيُّ[٢] من حديثِ ابنِ عمر قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها لمَنْ سَلَّ سيفَه على أمتي» قال: حديثٌ غريب.

وقال أُبَيُّ بن كعب: لجهنمَ سبعةُ أبواب: باب منها للحَرُورِية. وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّه: بينَ كلِّ بابين مسيرةُ سبعينَ سنةً، كلُّ بابٍ أشدُّ حَرًّا من الذي فوقَه بسبعين ضعفاً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتابِ «التذكرة»[٣].

وروى سَلَّامُ الطويلُ، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ في قولِ الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾: جزءٌ أشركوا بالله، وجزءٌ شَكُّوا في الله، وجزءٌ غَفِلوا عن الله، وجزءٌ آثروا شهواتِهم على الله، وجزءٌ شَفَوا غيظَهم بغضبِ الله، وجزءٌ صَيَّروا رغبتَهم بحظهم من الله، وجزء عَتَوْا على الله. ذكره الحَلِيمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب «منهاج الدين» له[٤]، وقال: فإن كان ثابتاً، فالمشركون بالله همُ الثَّنَويَّة. والشَّاكون همُ الذين لا يَدرون أنَّ لهم إلهاً أو لا إلهَ لهم، ويَشكُّون في شريعتِه أنها مِن عندِه أم لا. والغافلون عن اللهِ همُ الذينَ يَجحدونه أصلاً ولا يُثبِتونه، وهم الدَّهْرية. والمُؤْثِرونَ شهواتِهم على اللهِ همُ المنهمكون في المعاصي؛ لتكذيبِهم رسلَ الله وأمرَه ونهيه. والشَّافون غيظَهم بغضبِ الله هم القاتلونَ أنبياءَ الله، وسائرَ الداعين إليه، المعذِّبون مَن ينصحُ لهم، أو يذهبُ غيرَ مذهبهم، والمُصيِّرون رغبتَهم بحظِّهم من الله هم المنكرونَ البعث[٥] والحساب؛

(١) ص٣٨٢ - ٣٨٣.

(٢) في سننه (٣١٢٣)، وهو في مسند أحمد (٥٦٨٩).

(٣) ص٣٨٣ - ٣٨٤، وينظر التخويف من النار لابن رجب ص٥٨.

(٤) المنهاج في شعب الإيمان ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣، وسلَّام الطويل: هو التميمي، السعدي، وهو متروك. وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/ ٢٩، بلفظ: جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله.

(٥) المثبت من (ظ)؛ وفي غيرها: بالبعث.

فهم يَعبُدون ما يرغبون فيه، لهم جميعُ حظِّهم من الله تعالى. والعاتونَ على الله الذينَ لا يبالون بأن يكونَ ما هم فيه حقًّا أو باطلاً، فلا يتفكرون، ولا يَعتبِرون، ولا يَستدلون. واللهُ أعلمُ بما أرادَ رسولُه ﷺ إنْ ثبتَ الحديثُ.

ويُروى أنَّ سلمان الفارسيَّ ﷺ لمَّا سَمِع هذه الآيةَ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فرَّ ثلاثةَ أيامٍ من الخوفِ لا يَعقِل، فجيءَ به إلى رسولِ الله ﷺ فسأله، فقال: يا رسولَ الله، أُنزِلت هذه الآيةُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فوالذي بعثَك بالحقِّ لقد قَطَعت قلبي. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[١] [الحجر: ٤٥].

وقال بلالٌ: كان النبيُّ ﷺ يُصلي في مسجدِ المدينة وَحْدَه، فمرَّتْ به امرأةٌ أعرابيةٌ، فصَلَّت خلفه ولم يعلمْ بها، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآيةَ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ فخرَّتِ الأعرابية مغشيًّا عليها، وسمعَ النبيُّ ﷺ وَجْبَتها[٢]، فانصرفَ ودعا بماءٍ فصُبَّ على وجهِها حتى أفاقت وجَلَست، فقالَ النبيُّ ﷺ: «يا هذهِ، مَا لَكِ؟» فقالت: أهذا شيءٌ من كتابِ الله المُنزَّلِ، أو تَقولُه من تِلقاءِ نفسِك؟ فقال: «يا أعرابيةُ، بل هو من كتابِ اللهِ تعالى المنزَّل»، فقالت: كلُّ عضوٍ من أعضائي يُعذَّب على كلِّ باب منها؟ قال: «يا أعرابيةُ، بل لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم يُعذَّبُ أهلُ كلٍّ منها على قدر أعمالِهم»، فقالت: واللهِ إني امرأةٌ مسكينةٌ، مالي مالٌ، وما لي إلا سبعةُ أعْبُد، أُشهِدك يا رسولَ الله، أنَّ كلَّ عبدٍ منهم عن كلِّ بابٍ من أبوابِ جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى. فأتاه جبريلُ فقال: يا رسولَ الله، بشِّرِ الأعرابيةَ أنَّ الله قد حَرَّم عليها أبوابَ جهنمَ كلَّها، وفتح لها أبوابَ الجنةِ كلَّها[٣].

---

(١) نَسبه السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول إلى الثعلبي.

(٢) الوَجْبَةُ: السقطةُ مع الهدة. الصحاح (وجب).

(٣) نَسبه ابن رجب الحنبلي في التخويف من النار ص٥٨ - ٥٩ ، إلى الثعلبي في تفسيره بإسناد مجهول إلى منصور بن عبد الحميد بن أبي رباح...، فذكره، وقال: وهذا حديث لا يصح مرفوعاً، ومنصور =

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين اتقَوا الفواحشَ والشركَ. ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين[1]. ﴿وَعُيُونٍ﴾: هي الأنهارُ الأربعةُ: ماء، وخمر، ولبن، وعسل. وأمَّا العيونُ المذكورةُ في سورةِ الإنسان: الكافورُ والزَّنْجبيل والسَّلسبيل، وفي «المطففين»: التَّسنيم، فيأتي ذكرُها وأهلها إن شاءَ الله.

وضمُّ العينِ من «عُيونٍ» على الأصلِ، والكسرُ مراعاةً للياء، وقُرِئ بهما[2].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ قراءةُ العامةِ: «ادخلوها» بوصلِ الألفِ وضمِّ الخاء، مِن دخل يدخُل، على الأمرِ. تقديرُه: قيل: ادخُلوها. وقرأ الحسنُ وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب: «ادخِلُوها» بضم التنوين ووصلِ الألف وكسرِ الخاء على الفعلِ المجهول[3]، من أُدخِل، أي: أدخلَهم اللهُ إياها. ومذهبُهم كسرُ التنوين في مثل ﴿بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩] وشبهِه، إلا أنَّهم هاهنا ألقَوا حركةَ الهمزةِ على التنوين؛ إذ هي ألفُ قطعٍ، ولكن فيه انتقالٌ من كسرٍ إلى ضمٍّ ثم من ضمٍّ إلى كسرٍ، فيَثقلُ على اللسان.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: بسلامةٍ من كلِّ داءٍ وآفة. وقيل: بتحيةٍ من اللهِ لهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من الموتِ والعذابِ، والعزلِ والزوالِ[4].

= ابن عبد الحميد قال فيه ابن حبان: لا تحل الرواية عنه. والصحيح ما روى مخلد بن الحسن عن هشام بن حسان قال: خرجنا حجاجاً فنزلنا منزلاً في بعض الطريق، فقرأ رجل معنا هذه الآية..، فذكره مختصراً.

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٠، والوسيط ٣/ ٤٦.

(٢) قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وهشام بضم العين، والباقون بكسرها. التيسير ص١٣٦.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٦، والنشر ٢/ ٣٠١.
وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ المتواترة عنه كقراءة حمزة وعاصم وأبي عمرو وابن ذكوان، بكسر التنوين، وضم الخاء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٦١ - ٣٦٢، وزاد المسير ٤/ ٤٠٣.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾

قال ابنُ عباس: أوّلُ ما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ تَعرِضُ لهم عينانِ، فيشربون مِن إحدى العينين، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غِلٍّ، ثم يدخلون العينَ الأخرى، فيغتسلون منها، فتشرقُ ألوانُهم وتصفُو وجوهُهم، وتجري عليهم نَضْرةُ النعيم[(١)]. ونحوُه عن عليٍّ ﷺ[(٢)].

وقال عليُّ بنُ الحسين: نزلت في أبي بكر وعمر وعليٍّ والصحابة[(٣)]، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغِلِّ. والقول الأوَّل أظهرُ؛ يدلُّ عليه سياقُ الآية. وقال عليٌّ ﷺ: أرجو أن أكون أنا وطلحَةُ والزُّبير من هؤلاء[(٤)].

والغِلُّ: الحِقدُ والعداوةُ، يقال منه: غَلَّ يَغِلُّ. ويقال من الغُلولِ، وهو السرقةُ من المَغْنَم: غَلَّ يَغُلُّ. ويقال من الخيانة: أغَلَّ يُغِلُّ[(٥)]. كما قال[(٦)]:

جَزَى اللهُ عنا حَمْزَةَ ابنةَ نَوْفَلٍ جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ

وقد مضى هذا في آل عمران.

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي: لا ينظر بعضُهم إلى قَفَا بعضٍ؛ تواصلاً وتحابُباً، عن مجاهدٍ[(٧)] وغيرِه. وقيل: الأَسِرَّة تدور كيفما شاؤوا، فلا يرى أحدٌ قفا

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٠٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٧٦ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ١١٢ ، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٢٦٧ ، وابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٢٦٢ (١٨٤١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٢٦٧ (١٢٤٠٣)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٨١ ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٣٨ و ٥٤/ ٢٨٩ .

(٤) سلف ٩/ ٢٢٢ .

(٥) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ٢٠٠ ، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٦) هو النَّمِر بن تولب، وسلف ٥/ ٣٨٨ .

(٧) أخرجه نعيم بن حماد في زوائده على زهد ابن المبارك (٤٣٤)، وهنَّاد في الزهد (٨٠)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٠ ، وسيأتي من قول عكرمة أيضاً في سورة الصافات، الآية (٤٤).

أحدٍ[١]. وقيل: «متقابلين»: قد أقبلت عليهم الأزواجُ، وأقبلوا عليهنَّ بالوُدِّ[٢].

وسُرُر: جمع سرير، مثل جديد وجُدُد. وقيل: هو من السرور؛ فكأنه مكانٌ رفيعٌ ممهَّدٌ للسرور[٣]. والأوّل أظهر. قال ابن عباس: على سُرُر مكلَّلة بالياقوت والزَّبَرْجَد والدُّرِّ، السريرُ ما بين صنعاءَ إلى الجابية، وما بين عدنٍ إلى أيْلة[٤].

و«إخواناً»: نصب على الحال من «المتقين»[٥] أو من المضمَر في «ادخلوها»، أو من المضمَر في «آمنين»، أو يكون حالاً مقدَّرة مِن الهاءِ والميمِ في «صدورهم»[٦].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: إعياءٌ وتعب[٧]. ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيمَ الجنةِ دائمٌ لا يزول، وأن أهلَها فيها باقون ﴿أُكُلُها دائم﴾؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[٨].

قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه الصلاة والسلام: «لو يَعلمُ المؤمنُ ما عند اللهِ من العقوبةِ ما طمع بجنَّته أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عند اللهِ من الرحمةِ ما قَنِط مِن رحمتِه

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ١٤/ ٣٠، والكشاف ٢/ ٣٩٢.

(٢) حكاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٢ عن القاسم.

(٣) ينظر الصحاح (سرر) وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥١، وتفسير الطبري ١٤/ ٨٠، والرازي ١٩/ ١٩٣.

(٤) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٤٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤، والرازي في التفسير ١٩/ ١٩٣، والجابية: قرية من أعمال دمشق. معجم البلدان ٢/ ٩١، وأيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام. معجم البلدان ١/ ٢٩٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٢.

(٦) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٤، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٩٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٤٦، وزاد المسير ٤/ ٤٠٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨١.

أحدٌ». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدّم في الفاتحة[١]. وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكُر نفسَه وغيرَه، فيخوِّفَ ويرجِّيَ، ويكون الخوفُ في الصحة أغلبَ عليه منه في المرض[٢]. وجاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم الجنَّةُ والنَّارُ؟!». فشقَّ ذلك عليهم، فنزلت الآية[٣]. ذكره الماورديُّ والمهدويُّ.

ولفظ الثعلبيِّ عن ابنِ عمرَ قال: اطَّلع علينا النبيُّ ﷺ من البابِ الذي يَدخُل منه بنو شَيْبةَ ونحن نضحكُ، فقال: «ما لكم تضحكون؟ لا أراكم تضحكون»، ثم أدبَر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القَهْقَرى، فقال: «إني لمَّا خرجتُ؛ جاءني جبريلُ فقال: يا محمَّد لم تُقنِّطُ عبادي من رحمتي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾»[٤]. فالقُنوطُ إياسٌ، والرجاءُ إهمالٌ، وخيرُ الأمور أوساطُها.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيفُ إبراهيم: هم الملائكةُ الذين

---

(١) ١/ ٢١٥ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٩٥ .

(٣) أخرجه البزار (٢٢١٦) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٦ ونسبه للطبراني وقال: رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف. اهـ، ولم نقف عليه عند الطبراني، وأورده أيضاً البغوي في معالم التنزيل ٣/ ٥٢ ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٥٧) وقال: وليس في إسناده من تُرك ولا اتُّهم. اهـ

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، والطبري في التفسير ١٤/ ٨٢ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي إسناده: مصعب بن ثابت، وعاصم بن عبيد الله، وهما ضعيفان، كما في تقريب التهذيب. وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

بشَّروه بالولد وبهلاكِ قومِ لوط، وقد تقدّم ذكرهم[١]. وكان إبراهيمُ عليه السلام يُكْنَى أبا الضِّيْفان، وكان لقَصْرِه أربعةُ أبواب؛ لكيلا يفوتَه أحدٌ[٢]. وسمِّي الضيفُ ضيفاً؛ لإضافته إليك، ونزولِه عليك[٣]. وقد مضى من حكم الضيف في «هود» ما يكفي، والحمد لله.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ جُمع الخبرُ؛ لأنَّ الضيفَ اسمٌ يصلُح للواحد والجمْع والتثنية، والمذكَّر والمؤنَّث، كالمصدر[٤]. ضافَه: مال إليه[٥] وأضافَه: أماله[٦]؛ ومنه الحديثُ: «حين تَضيَّف الشمسُ للغروبِ»[٧]، وضيفوفة السهم[٨]، والإضافة النحوية. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: سلَّموا سلاماً[٩].

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعونَ خائفونَ، وإنما قال هذا بعد أن قرَّب العجلَ ورآهم لا يأكلون، على ما تقدَّم في هود[١٠]. وقيل: أنكر السلامَ، ولم يكن في بلادهم رَسْمُ السلام.

---

(١) في سورة هود، الآية (٦٩).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٢)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٨)، وأخرجه ـ أيضاً ـ يحيى بن معين (برواية الدوري ١٥٦٣)، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٧، وهناد في الزهد (٦٥٠)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٥، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٦١٧)، والبغوي في التفسير ١/ ٤٨٤ مقتصرين على القسم الأول، وهو من قول عكرمة ﷺ.

(٣) تهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٢١.

(٥) قوله: مال إليه، من (ظ).

(٦) ينظر غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٧ - ١٨، والصحاح (ضيف) وتهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٧) قطعة من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ. أخرجه مسلم (٨٣١)، وأوله: «ثلاث ساعات كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نصليَ فيهن. . .

(٨) ضاف السهم يضيف: إذا عدل عن الهدف. تهذيب اللغة ١٢/ ٧٣.

(٩) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٠.

(١٠) عند تفسير الآية (٧٠) منها.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: قالت الملائكةُ: لا تخف. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: حليم؛ قاله مقاتل. وقال الجمهور: عالم. وهو إسحاق[(١)].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ «أنْ» مصدرية، أي: على مسِّ الكِبَرِ إيَّايَ وزوجتي، وقد تقدَّم في هود وإبراهيم[(٢)]. [و] حيث يقول: «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» استفهامُ تعجُّب. وقيل: استفهامٌ حقيقيٌّ[(٣)]. وقرأ الحسنُ: «تُوجل» بضمِّ التاء[(٤)]. والأعمش: «بشرتموني» بغير ألف[(٥)]، ونافع وشيبة: ﴿تُبَشِّرونِ﴾ بكسر النون والتخفيف؛ مثل «أتحاجُّوني» وقد تقدّم تعليله[(٦)]. وقرأ ابنُ كَثير وابنُ محيصن: «تُبَشِّرونِّ» بكسر النونِ مشدَّدة، تقديره: تبشرونني، فأدغم النونَ في النونِ. الباقون: «تُبشرونَ» بنصبِ النونِ بغير إضافة[(٧)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما لا خُلْفَ فيه، وأنَّ الولدَ لابُدَّ منه. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين مِن الولدِ، وكان قد أَيِسَ من الولد؛ لفَرْط الكِبَر. وقراءةُ العامَّة: «مِن القانِطِين» بالألف. وقرأ الأعمشُ ويحيى بنُ وَثَّاب: «من القَنِطين» بلا ألفٍ. وروي عن أبي عمرٍو. وهو مقصورٌ من «القانطين». ويجوز أن يكون من لغةِ مَن قال: قَنِط يَقْنَط؛ مثل حذِر يحذَر[(٨)]. وفتحُ النون وكسرُها مِن «يقنط» لغتان

(١) النكت والعيون ٣/ ١٦٣، وقوله: وهو إسحاق. أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٧ من قول قتادة.

(٢) عند الآية ٧١ من سورة هود، والآية ٣٩ من سورة إبراهيم.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٤، والوسيط ٣/ ٤٧.

(٤) القراءات الشاذة ص٧١، والمحتسب ٢/ ٤.

(٥) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٤٥٨ للأعرج.

(٦) ٨/ ٤٤٣.

(٧) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦، وقراءة ابن محيصن في إتحاف الفضلاء ص٣٤٧.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

قُرئ بهما[١]. وحكي فيه «يقنُط» بالضمّ[٢]. ولم يأتِ فيه «قنُط يقنُط». ومن فتَح النونَ في الماضي والمستقبل فإنه جمعَ بين اللغتَين، فأخذ في الماضي بلغة مَن قال: قَنَط يقنِط، وفي المستقبل بلغة مَن قال: قَنِط يقنَط[٣]. ذكره المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: المكذِّبون الذاهبون عن طريقِ الصواب. يعني أنه استبعدَ الولدَ؛ لكِبَر سنِّه، لا أنه قنطَ مِن رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: لما علم أنَّهم ملائكةٌ ـ إذ أخبروه بأمرٍ خارقٍ للعادة، وهو بُشراهم بالولد ـ قال: فما خطبكم؟ والخطب: الأمرُ الخطيرُ. أي: فما أمرُكم وشأنُكم، وما الذي جئتم به؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين ضالِّين. وفي الكلام إضمارٌ، أي: أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين؛ لنهلكَهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: أتباعَه وأهلَ دينه. ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿لَمُنْجُوهُم﴾ بالتخفيف، من «أَنجى». الباقون: بالتشديد، من «نَجَّى»[٤]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والتنجية والإنجاءُ: التخليصُ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنى مِن آلِ لوط امرأتَه، وكانت كافرةً، فالتحقَتْ بالمجرمين في

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي من السبعة بكسر النون، والباقون بفتحها. السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

(٢) وهي قراءة زيد بن علي والأشهب. البحر المحيط ٥/ ٤٥٩، والمحتسب ٢/ ٥.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٢٨، والمحتسب ٢/ ٥، والصحاح، وتهذيب اللغة ١٦/ ٢٧٩.

(٤) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

الهلاك. وقد تقدَّمت قصةُ قوم لوطٍ في «الأعراف»[١] وسورة «هود»[٢] بما فيه كفايةٌ.

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: قضينا وكتبنا إنها لمنَ الباقين في العذاب. والغابر: الباقي.

قال[٣]:

لا تَكْسَعِ[٤] الشَّوْلَ[٥] بأَغْبارِها إنَّك لا تدري مَنِ النَّاتِجُ

الأغبار: بقايا اللَّبن.

وقرأ أبو بكرٍ والمفضَّل: «قَدَرنا» بالتخفيف هنا[٦] وفي النمل[٧]، وشدَّد الباقون. الهَرَوِيُّ: يقال: قدَّر وقَدَر، بمعنًى.

الثانية: لا خلافَ بين أهلِ اللسان وغيرِهم أنَّ الاستثناءَ من النفي إثباتٌ، ومن الإثباتِ نفيٌ؛ فإذا قال رجل: له عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا أربعةً إلا درهماً؛ ثبت الإقرارُ بسبعة؛ لأنَّ الدرهمَ مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت؛ لأنه مستثنًى من منفيٍّ، وكانت الأربعة منفيَّةً؛ لأنها مستثناةٌ من موجب، وهو العشرةُ، فعاد الدرهمُ إلى الستَّةِ، فصارت سبعةً.

وكذلك لو قال: عليَّ خمسةُ دراهمَ إلا درهماً إلا ثُلُثَيْه؛ كان عليه أربعةُ دراهمَ

---

(١) ٩/ ٢٧٣.

(٢) ١١/ ١٧٣ وما بعدها.

(٣) الحارث بن حلِّزة، والبيت في ديوانه ص١١١، وكَسْع الناقةَ بغُبرها: تَرْكُ في خِلْفها بقيَّةً من اللبن، يريد بذلك تغزيرها، والشول: الناقة التي لم يبقَ في ضرعها إلا بقية من اللبن، والمعنى: لا تُبْقِ ذلك اللبنَ لتسمنَ الأولاد، فإنك لا تدري من ينتجها فلعلك تموت، فتكون للوارث، أو يُغار عليها. الكامل للمبرد ١/ ٤٨٤، واللسان: (شول) و(كسع).

(٤) في (د): تكشع، وفي (ظ): تلسع.

(٥) في (د): النار.

(٦) قراءة أبي بكر ـ وهو شعبة بن عياش الراوي عن عاصم ـ في السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦.

(٧) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الآية (٥٧).

وثلثٌ. وكذلك إذا قال: لفلانٍ عليَّ عشرةٌ إلا تسعةً إلا ثمانيةً إلا سبعةً؛ كان الاستثناءُ الثاني راجعاً إلى ما قبْلَه، والثالثُ إلى الثاني، فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرةَ إثباتٌ، والثمانيةَ إثباتٌ، فيكون مجموعها ثمانيةَ عشَر، والتسعةُ نفيٌ، والسبعةُ نفيٌ، فيكون ستَّة عشَر، تسقط من ثمانيةَ عشَر، ويبقى درهمان، وهو القَدْر الواجبُ بالإقرار لا غير.

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ . إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثنى آلَ لوطٍ من القومِ المجرمين، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثناها من آلِ لوط، فرجعت في التأويل إلى القومِ المجرمين كما بيَّنَّا.

وهكذا الحُكم في الطلاقِ، لو قال لزوجته: أنتِ طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدةً، طلقت ثنتين؛ لأن الواحدةَ رجعت إلى الباقي من المستثنى منه، وهي الثلاث. وكذا كلُّ ما جاء من هذا، فتفهَّمه[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لا أعرفكم. وقيل: كانوا شباباً ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنةِ قومه؛ فهذا هو الإنكار.

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذابُ.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصدق. وقيل: بالعذاب. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي: في هلاكهم.

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٥، والنكت والعيون ٣/ ١٦٤، وأحكام القرآن ٣/ ١١١٦ - ١١١٧، والمحصول لابن العربي ص٨٢ - ٨٥.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ تقدَّم في هود[١]. ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: كن من ورائِهم؛ لئلَّا يتخلفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نُهوا عن الالتفاتِ ليجِدُّوا في السير، ويتباعدوا عن القريةِ قبل أن يُفاجِئَهم الصُّبح. وقيل: المعنى: لا يتخلَّف.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال ابنُ عباسٍ: يعني الشَّام[٢]. مقاتل: يعني صُغَر[٣]، قريةٌ من قُرى لوطٍ[٤]. وقد تقدَّم[٥]. وقيل: إنه مضى إلى أرضِ الخليلِ بمكان يُقال له: اليقينُ، وإنما سُمِّيَ اليقينَ؛ لأنَّ إبراهيمَ لما خَرجت الرسلُ شيَّعهم، فقال لجبريلَ: من أين يُخسَفُ بهم؟ قال: مِن هاهنا. وحَدَّ له حَدًّا، وذهب جبريلُ؛ فلما جاء لوطٌ، جلس عند إبراهيمَ، وارتقبا ذلك العذابَ، فلما اهتزتِ الأرضُ قال إبراهيم: أيقنتُ باللهِ، فسُمِّيَ اليقينَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أوحينا إلى لوطٍ. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ نظيره: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) ١١/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) الوسيط ٣/ ٤٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٤ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٧ .

(٣) في (ز) و(د): صغو، وفي (م): صفد، وفي (ظ): صَعَر، والمثبت من معجم البلدان ٣/ ٤١١ وفيه أن صُغَر على وزن زُفَر وصُرَد، وهي زُغَر التي تقدم ذكرها عنده ٣/ ١٤٢ ، ـ وكذا ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٥٤ ـ وأنها نَجَتْ لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة.

(٤) زاد المسير ٤/ ٤٠٧ ونسبه إلى ابن السائب.

(٥) ١١/ ١٨٥ - ١٨٦ .

﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: عند طلوع الصُّبح. وقد تقدَّم[١].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: أهلُ مدينةِ لوطٍ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: مستبشرينَ بالأضيافِ؛ طمعاً منهم في ركوبِ الفاحشة. ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أي: أضيافي. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي: تُخجِلُون. ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ يجوز أن يكون من الخِزْي، وهو الذلُّ والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية، وهو الحياءُ والخَجَل. وقد تقدَّم في هودٍ[٢]. ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾أي: عن أن تضيفَ أحداً؛ لأنَّا نريدُ منهم الفاحشةَ. وكانوا يقصدونَ بفعلهم الغرباءَ؛ عن الحسن. وقد تقدَّم في الأعراف[٣]. وقيل: أو لم ننهكَ عن أن تُكلِّمنا في أحدٍ من الناسِ إذا قصدناه بالفاحشة. ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: فتزوَّجوهُنَّ ولا تَركنوا إلى الحَرَام. وقد تقدَّم بيانُ هذا في هود[٤].

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قال القاضي أبو بكر بنُ العربيِّ[٥]: قال المفسرون بأجمعهم: أقْسَم اللهُ تعالى هاهنا بحياةِ محمَّدٍ ﷺ تشريفاً له، أنَّ قومَه من قريشٍ في سَكْرتهم يَعْمَهُون، وفي حَيْرتِهم يتردَّدون.

قلت: وهكذا قال القاضي عِياض: أجمع أهلُ التفسيرِ في هذا أنه قسمٌ من اللهِ جلَّ جلاله بمدَّة حياةِ محمَّد ﷺ. وأصله ضمُّ العينِ؛ من العُمُر، ولكنَّها فُتحت؛ لكثرة الاستعمالِ. ومعناه: وَبَقائِكَ يا محمَّد. وقيل: وحياتِكَ. وهذا نهايةُ التعظيم، وغايةُ

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) عند تفسير الآية (٧٨).

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٩، وتقدم ٩/ ٢٧٧.

(٤) ١١/ ١٨٥.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨.

البرِّ والتشريف. قال أبو الجوزاء[١]: ما أقسم اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ البَرِيَّة عنده[٢].

قال ابنُ العربيِّ[٣]: ما الذي يَمنَعُ أن يُقسِم اللهُ سبحانه وتعالى بحياةِ لوطٍ، ويَبلغ به من التشريفِ ما شاء؟ وكلُّ ما يُعطِيه اللهُ تعالى للوطٍ من فَضْلٍ يُؤتي ضعفَيْه من شرفٍ لمحمَّدٍ ﷺ؛ لأنه أكرمُ على اللهِ منه؛ أوَلا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيمَ الخُلَّة، وموسى التكليمَ، وأعطى ذلك لمحمَّدٍ، فإذا أقسم بحياةِ لوطٍ، فحياةُ محمَّد أرْفعُ. ولا يَخرج من كلامٍ إلى كلامٍ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لغير ضرورةٍ.

قلت: ما قاله حسنٌ؛ فإنه كان يكون قَسَمُه سبحانه بحياةِ محمَّد ﷺ كلاماً معترضاً في قصة لوطٍ. قال القشيريُّ أبو نصر عبدُ الرحيمِ بنُ عبدِ الكريم في تفسيرِه: ويحتمل أن يقال: يَرجِعُ ذلك إلى قومِ لوط، أي: كانوا في سَكْرتهم يَعْمَهون. وقيل: لما وعَظ لوطٌ قومَه، وقال: هؤلاء بناتي. قالت الملائكةُ: يا لوطُ: «لَعَمْرُك إنَّهم لفي سَكْرتهم يَعْمَهون» ولا يدرون ما يَحِلُّ بهم صباحاً.

فإن قيل: فقد أقسَم تعالى بالتينِ والزيتونِ وطورِ سِينين؛ فما في هذا؟ قيل له: ما من شيءٍ أقسَم اللهُ به إلا وذلك دلالةٌ على فَضْله على ما يدخل في عِدادِه، فكذلك نبيُّنا ﷺ يجب أن يكون أفضلَ ممن هو في عِدادِه.

والعَمْر والعُمْر - بضمِّ العينِ وفتحِها - لغتان، ومعناهما واحدٌ؛ إلا أنه لا يُستَعمل في القَسَم إلا بالفتحِ؛ لكثرة الاستعمال[٤]. وتقول: عَمْرَكَ اللهَ، أي: أسألُ اللهَ تعميرَك. و«لَعَمْرُكَ»: رفعٌ بالابتداءِ، وخبرُه محذوفٌ. المعنى: لعَمْرُك مما أُقسِم به[٥].

---

(١) أوس بن عبد الله الرَّبَعي، بصري، يرسل كثيراً، ثقة، (ت ٨٣هـ). تقريب التهذيب.

(٢) الشفا للقاضي عياض ١/ ٨٦.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١١٨.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٣٨٧، ومعاني القرآن ٤/ ٣٤ للنحاس، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٨.

الثانية: كره كثيرٌ من العلماءِ أن يقول الإنسانُ: لَعَمْري؛ لأنَّ معناه: وحياتي. قال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ[١]: يُكره للرجل أن يقول: لَعَمْري؛ لأنه حَلِفٌ بحياةِ نفسِه، وذلك من كلام ضَعَفةِ الرجال. ونحو هذا قال مالكٌ: إنَّ المستضعفينَ من الرجال والمؤنَّثين يُقسِمون بحياتِك وعَيْشِك، وليس من كلامِ أهلِ الذُّكْران، وإن كان اللهُ سبحانه أقسَم به في هذه القصَّة؛ فذلك بيانٌ لشَرَف المنزلةِ والرفعةِ لمكانه، فلا يُحمَل عليه سواه، ولا يُستَعمل في غيرِه. وقال ابنُ حبيبٍ: ينبغي أن يُصرف «لعَمْرك» في الكلام لهذه الآيةِ. وقال قتادةُ: هو من كلامِ العرب. قال ابنُ العربيّ: وبه أقول، لكنَّ الشرعَ قد قَطَعه في الاستعمال، وردَّ القَسَم إليه[٢].

قلت: القَسَم بـ «لعمرك» و«لعمري» ونحوه في أشعارِ العربِ وفصيحِ كلامها كثير[٣].

قال النابغة[٤]:

لَعَمْرِي وما عَمْرِي عليَّ بهيِّنٍ ... لقد نَطقتْ بُطْلاً عَليَّ الأقارعُ

آخر:

لعَمْرُك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[٥]

آخر:

أيُّها المنكحُ الثُّرَيَّا سُهيلاً ... عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلْتقيانِ[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٩٣، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٨ - ١١١٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٤) في ديوانه ص٨٠.

(٥) قائله طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص٣٤، والطِّوَل: الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى فيه. الصحاح (طول).

(٦) قائله عمر بن أبي سلمة، وهو في ديوانه ص٢٢٩.

آخر:

إذا رَضِيتْ عليَّ بنو قُشَيْرٍ لعَمْرُ اللهِ أعْجبني رضَاها[١]

وقال بعض أهل المعاني: لا يجوز هذا؛ لأنه لا يُقال: للهِ عُمْرٌ، وإنما هو تعالى أزليٌّ. ذكره الزهراويُّ.

الثالثة: قد مضى الكلامُ فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحَلِفُ به في «المائدة»[٢]، وذكرنا هناك قولَ أحمدَ بنِ حنبل فيمن أقسَم بالنبيِّ ﷺ لزمته الكفَّارةُ.

قال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد: من جوَّز الحَلِفَ بغير اللهِ تعالى مما يجوز تعظيمُه بحقٍّ من الحقوقِ، فليس يقول إنَّها يمينٌ تتعلَّق بها كفَّارة؛ إلا أنه من قصَد الكذبَ كان ملوماً؛ لأنه في الباطن مستخِفٌّ بما وجبَ عليه تعظيمُه.

قالوا: وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتِك. وإذا أقسَم اللهُ تعالى بحياة نبيِّه فإنَّما أرادَ بيانَ التصريح لنا أنه يجوزُ لنا أن نَحْلِفَ بحياتِه. وعلى مذهب مالكٍ معنى قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَالطُّورِ . وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١-٣] كل هذا معناه: وخالقِ التينِ والزيتونِ، وبربِّ الكتابِ المَسْطُور، وبربِّ البلدِ الذي حَلَلْتَ به، وخالقِ عيشِكَ وحياتِكَ، وحقِّ محمَّدٍ؛ فاليمينُ والقَسَم حاصلٌ به سبحانه لا بالمخلوقِ.

قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ومن جَوَّز اليمين بغير اللهِ تعالى تأوَّل قولَه ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»[٣]. وقال: إنَّما نَهى عن الحَلِفِ بالآباء الكفَّارِ، ألَا ترى أنه قال لما حَلَفوا بآبائهم: «لَلْجَبَلُ عند اللهِ أكرمُ من آبائكم الذين ماتوا في الجاهليةِ»[٤]. ومالك حَمَلَ

---

(١) القائل هو القحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص٥٠٦ ، والخصائص ٢/ ٣١١ .

(٢) ٨/ ١٣١ - ١٣٢ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٨)، ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) لم نقف عليه.

الحديثَ على ظاهرِه.

قال ابن خُوَيْزِمنداد: واستدل أيضاً من جوَّز ذلك؛ بأنَّ أيمانَ المسلمين جَرَتْ منذ عهدِ النبيِّ ﷺ إلى يومِنا هذا أن يَحْلفوا بالنبيِّ ﷺ، حتى إنَّ أهلَ المدينة إلى يومِنا هذا إذا حاكَم أحدهم صاحبَه قال: احْلِفْ لي بحقِّ ما حواه هذا القبرُ، وبحقِّ ساكنِ هذا القبرِ، يعني النبيَّ ﷺ، وكذلك بالحرَمَ، والمشَاعِر العظام، والرُّكنِ، والمَقام، والمِحْراب، وما يُتْلى فيه[١].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ نصبٌ على الحال، أي: وقتَ شُروقِ الشمس. يقال: أشرقتِ الشمسُ، أي: أَضاءت، وشَرقت: إذا طَلَعت. وقيل: هما لغتان بمعنًى. وأشرقَ القومُ، أي: دخلوا في وقتِ شُروقِ الشمسِ. مثل: أَصبحوا وأَمْسَوْا، وهو المرادُ في الآية. وقيل: أرادَ شروقَ الفَجْر. وقيل: أوّلُ العذابِ كان عند الصبحِ، وامتدَّ إلى شُروق الشمسِ، فكان تمامُ الهلاكِ عند ذلك، والله أعلم[٢].

و«الصيحة»: العذابُ[٣]. وتقدّم ذكر «سِجِّيل»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ روى التِّرمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»[٥]

(١) أكثر الفقهاء على عدم جواز الحلف بغير الله. وينظر تفصيل المسألة في فتح الباري ١١/ ٥٣١ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٤ ، والوسيط ٣/ ٤٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠٩ ، والصحاح (شرق).

(٣) الوسيط ٣/ ٤٩ .

(٤) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع منه.

من حديث أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للمتفرِّسِين»، وهو قولُ مجاهدٍ[١].

وروى أبو عيسى التِّرمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمنِ؛ فإنَّه يَنْظُرُ بنورِ اللهِ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. قال: هذا حديثٌ غريبٌ[٢]. وقال مقاتلٌ وابنُ زيدٍ: للمتوسمين: للمتفكِّرين[٣]. الضحاك: للناظرين[٤]. قال الشاعر[٥]:

أَوَ كلَّما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بعثُوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ

وقال قتادة: للمعتبرين[٦]. قال زهير[٧]:

وفيهنَّ مَلْهًى للصديقِ ومنظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْنِ الناظرِ المتوسِّمِ

وقال أبو عبيدة[٨]: للمتبصِّرين. والمعنى متقارب.

وروى الترمِذيُّ الحكيمُ[٩] من حديثِ ثابتٍ عن أنس بنِ مالك قال: قال

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٢، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٤ - ٩٥. وهو عند ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٢) سنن الترمذي (٣١٢٧).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١، والوسيط ٣/ ٤٩، والنكت والعيون ٣/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥، وزاد المسير ٤/ ٤١٠.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٩٥ و ٩٧، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧.

(٥) القائل هو طريف بن تميم العنبري، وهو في الأصمعيات ص١٢٧، والبيان والتبيين ٣/ ١٠١.

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٤٩، والطبري في تفسيره ١٤/ ٩٦، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠)، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٧، والواحدي في الوسيط ٣/ ٤٩.

(٧) ديوانه ص١٠ (بشرح ثعلب).

(٨) في مجاز القرآن ١/ ٣٥٤.

(٩) نوادر الأصول ص٢٧١، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢٩٣٥)، والبزار (٣٦٣٢ كشف الأستار). وفي إسناده: بكر بن الحكم أبو بشر المُزَلِّق، قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٤٤: روى خبراً منكراً، وذكر الحديث.

رسولُ الله ﷺ: «إنَّ لِلهِ عزَّ وجلَّ عباداً يَعرِفونَ الناسَ بالتوسُّم».

قال العلماءُ: التوسُّمُ: تفعُّل؛ من الوَسْم، وهي العَلَامةُ التي يُستدلُّ بها على مطلوبٍ غيرِها. يقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَم ذلك فيه[١]، ومنه قولُ عبدِ الله بنِ رَوَاحةَ للنبيِّ ﷺ:

إني توسَّمتُ فيكَ الخيرَ أعرِفهُ ... واللهُ يَعْلَمُ أنّي ثابتُ البَصَرِ[٢]

آخر:

توسَّمْتُهُ لما رأيتُ مهابةً ... عليه وقُلتُ المرءُ مِن آلِ هاشمِ[٣]

واتَّسم الرجلُ: إذا جعَل لنفسِه عَلَامة يُعرف بها. وتوسَّم الرجلُ: طلَب كلأَ الوَسْمِيِّ[٤]. وأنشد:

وأَصْبَحْنَ كالدَّوْم النّواعِم غُدْوَةً ... على وِجْهةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسِّمِ[٥]

وقال ثعلب: الواسمُ: الناظرُ إليك مِن فَرْقك إلى قَدَمِك. وأصل التوسُّم: التثبُّت والتفكُّر؛ مأخوذ من الوَسْم، وهو التأثيرُ بحديدةٍ في جِلْد البعير وغيرِه، وذلك يكون بجودةِ القَريحة، وحِدَّة الخاطر، وصفاءِ الفِكْر. زاد غيرُه: وتفريغِ القلبِ من حَشْو الدنيا، وتطهيرِه من أدناسِ المعاصي، وكدُورةِ الأخلاقِ، وفُضُولِ الدنيا. روى نَهْشَلُ عن ابنِ عباس: «للمتوسمين» قال: لأهلِ الصلاحِ والخير. وزعمت الصوفيَّةُ أنَّها

(١) ينظر لسان العرب (وسم).

(٢) ديوانه ص٩٤، والبيت فيه:

إنّي تفرَّستُ فيكَ الخيرَ أعرفه ... فراسةً خالَفَتْهم في الذي نظروا

(٣) البيت لأعرابي أضاف عبيدَ اللهَ بنَ العباس، وكان عند الأعرابي شاة لا يملك غيرها فذبحها له، وقدَّمها بين يديه، فكافأه عليها خمسَ مئة دينار، فقال فيه قصيدة هذا مطلعها، وذكر تتمتها المبرد في الفاضل ص٣٢، والبغدادي في خزانة الأدب ٨/ ٢٨٢.

(٤) الصحاح ولسان العرب (وسم)، وأرض موسومة: أصابها الوسميُّ، وهو مطر يكون بعد الخَرَفيِّ في البرد.

(٥) ذكره نشوان الحميري في الحور العين ص٤١.

كرامةٌ. وقيل: بل هي استدلالٌ بالعلاماتِ، ومن العلاماتِ ما يبدو ظاهراً لكلِّ أحدٍ، وبأوَّل نَظْرة، ومنها ما يَخفى فلا يبدو لكلِّ أحدٍ، ولا يُدرَك ببادئِ النظر. قال الحسن: المتوسِّمون: هم الذين يتوسَّمون الأمورَ فيعلمونَ أنَّ الذي أهلَك قومَ لوطٍ قادرٌ على أن يُهلِك الكفَّارَ؛ فهذا من الدلائلِ الظاهرة.

ومثله قولُ ابنِ عباس: ما سألَني أحدٌ عن شيء إلا عَرَفْتُ أفقيهٌ هو أو غيرُ فقيهٍ.

وروي عن الشافعي ومحمد بنِ الحسنِ أنَّهما كانا بفناء الكعبةِ، ورجلٌ على بابِ المسجد، فقال أحدهما: أراه نجاراً، وقال الآخَرُ: بل حدَّاداً، فتبادَرَ من حضَر إلى الرجلِ فسأله، فقال: كنت نجَّاراً، وأنا اليوم حدَّادٌ[(١)].

وروي عن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله البَجَليِّ أنه أتَى على رجلٍ يَقرأُ القرآنَ فوقف، فقال: من سَمَّع سمَّع اللهُ به، ومن رَاءى راءى اللهُ به. فقلنا له: كأنَّكَ عرَّضْتَ بهذا الرجل، فقال: إنَّ هذا يَقرأ عليكَ القرآنَ اليوم، ويخرج غداً حَرُورِيًّا؛ فكان رأسَ الحرُورِيَّة، واسمه مِرْداس[(٢)].

وروي عن الحسن البصري أنه دخَل عليه عمرو بنُ عبيدٍ فقال: هذا سيِّدُ فتيانِ البَصرةِ إن لم يُحدِث، فكان من أمرِه من القَدَر ما كان، حتى هجرَه عامَّةُ إخوانِه. وقال لأيوبَ: هذا سيِّدُ فتيانِ أهل البصرةِ؛ ولم يستثنِ، وروي عن الشَّعْبيِّ أنَّه قال لداودَ الأوديِّ[(٣)] وهو يُماريه: إنَّك لا تموتُ حتى تُكْوَى في رأسِك، وكان كذلك[(٤)].

وروي أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ ﷺ دخل عليه قومٌ من[(٥)] مَذْحِجْ فيهم الأشترُ، فصعَّد

(١) الرسالة القشيرية ٣/١٧٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١١١٩.

(٢) لم نقف عليه، ومرداس: هو ابن أُدَيّة ـ وهي أمه ـ ابن حُدير، أبو بلال التميمي. ينظر الكامل لابن الأثير ٢/٥١٧ و٥٨٢ حوادث سنتي (٥٨) و(٦١) هـ.

(٣) في (ز) و(د) و(م): الأزدي، والمثبت من (ظ) ومصدر التخريج.

(٤) نوادر الأصول ص٢٧١.

(٥) بعدها في (ظ): بني.

فيه النظرَ وصوَّبه وقال: أيُّهم هذا؟ قالوا: مالكُ بنُ الحارثِ. فقال: ما له قاتَلَه اللهُ؟! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً؛ فكان منه في الفتنةِ ما كان[١].

وروي عن عثمانَ بنِ عفان ﷺ: أنَّ أنسَ بنَ مالك دخل عليه، وكان قد مَرَّ بالسُّوق، فنظر إلى امرأةٍ، فلما نظرَ إليه، قال عثمانُ: يَدخُل أحدُكم عليَّ وفي عينيه أَثَرُ الزِّنى؟! فقال له أنسٌ: أَوَحْياً بعدَ رسولِ الله ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهانٌ وفِراسةٌ وصِدْقٌ[٢]. ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين.

الثانية: قال أبو بكر بن العربي: إذا ثبت أنَّ التوسُّم والتفرُّس من مدارِكِ المعاني؛ فإنَّ ذلك لا يترتَّب عليه حُكْم، ولا يُؤخَذ به موسومٌ ولا متفرِّس. وقد كان قاضي القضاةِ الشاميُّ المالكيُّ ببغدادَ أيام كوني بالشام يَحكُم بالفِراسةِ في الأحكام، جَرْياً على طريق إياسِ بنِ معاويةَ أيام كان قاضياً، وكان شيخُنا فخرُ الإسلام أبو بكر الشاشيُّ صنَّف جزءاً في الردِّ عليه، كتبه لي بخطِّه وأعطانِيه. وذلك صحيحٌ؛ فإن مدارِكَ الأحكامِ معلومةٌ شرعاً، مُدرَكة قطعاً، وليست الفِراسةُ منها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى قومِ لوطٍ. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: على طريقِ قومِكَ يا محمَّد إلى الشام[٣]. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لَعبرةً للمصدِّقِيْن[٤]. ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ يريد قومَ شعيب، كانوا أصحابَ غِياضٍ ورياضٍ

---

(١) أخرجه أحمد في العلل ١/ ٣١٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١١٩ - ١٢٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٥٦/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) الرسالة القشيرية ٣/ ١٨٣.

(٣) الوسيط ٣/ ٥٠ وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٨٥.

وشجرٍ مثمرٍ[(١)]. والأيْكةُ: الغَيْضةُ[(٢)]، وهي جماعةُ الشجر، والجَمْعُ: الأيْك[(٣)]. ويُروى أنَّ شجرَهم كان دَوْماً، وهو المُقْل[(٤)]. قال النابغة:

تَجْلُو بقَادِمَتَيْ حمامةِ أيْكَةٍ ... بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ[(٥)]

وقيل: الأيكة: اسمُ القرية. وقيل: اسمُ البَلْدة[(٦)]. وقال أبو عبيدة: الأيْكَة ولَيْكة: مدينتُهم، بمنزلة بَكَّة من مكَّة[(٧)]. وتقدّم خبرُ شعيبٍ وقومِه[(٨)]. ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريقٍ واضحٍ في نفسِه، يعني مدينةَ قومِ لوطٍ وبقعةَ أصحابِ الأيْكة، يَعْتَبِرُ بهما من يَمرُّ عليهما[(٩)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠﴾

الحِجْر ينطلق على معانٍ: منها حِجْرُ الكعبة. ومنها: الحَرَام؛ قال الله تعالى: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣] أي: حراماً محرَّماً. والحِجْرُ: العَقْلُ؛ قال الله تعالى: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:٥] والحِجْر: حِجْرُ القميص؛ والفتح أفصحُ. والحِجْرُ: الفرس

---

(١) ينظر الوسيط ٣/ ٥٠ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ وعزاه إلى الضحاك، وعزاه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٦٨ إلى مجاهد.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٤ ، ولسان العرب (أيك).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٠٠ ، والنكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، وزاد المسير ١٩/ ٢٠٤ ، وعزاه الطبري إلى قتادة، وابن الجوزي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. والمُقْلُ: ثَمَر شجر الدَّوْم، مُقَوٍّ للمعدة. القاموس (مقل)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧١ ، وتهذيب اللغة ١٠/ ٤١٥ .

(٥) ديوان النابغة ص٤٠ ، والقادمة؛ جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبَّه الشاعر الشفتين لرقتهما بقادمتي حمامة، وشبَّه الأسنان بالبَرَد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للعسكري ١/ ٢٣٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٧٥ ، والصحاح (أيك).

(٧) النكت والعيون ٣/ ١٦٨ ، ولسان العرب (أيك).

(٨) ٩/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٩٨ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٣ ، والوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١٠ .

الأُنثى. والحِجْر: ديارُ ثمودَ، وهو المراد هنا، أي: المدينة؛ قاله الأزهريُّ[١]. قتادة: وهي ما بين مكَّة وتَبُوك، وهو الوادي الذي فيه ثمود[٢]. الطبريُّ: هي أرضٌ بين الحجازِ والشام، وهم قومُ صالح[٣]. وقال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالحٌ وحْدَه، ولكن من كذَّب نبيًّا؛ فقد كذَّب الأنبياءَ كلَّهم؛ لأنَّهم على دينٍ واحدٍ في الأصول، فلا يجوز التفريقُ بينهم. وقيل: كذَّبوا صالحاً ومَن تَبِعَه ومَن تقدَّمه من النبيِّين أيضاً[٤]. والله أعلم.

روى البخاريُّ[٥] عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما نزل الحِجْرَ في غزوةِ تَبُوك أَمَرَهم ألَّا يشربوا من بئرِها، ولا يَسْتَقُوا منها. فقالوا: قد عَجَنَّا واستقَينا. فأَمَرَهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَرِيقُوا الماء، وأن يَطْرحوا ذلك العجينَ.

وفي «الصحيح»[٦] عن ابنِ عمرَ أنَّ الناسَ نزلوا مع رسولِ الله ﷺ على الحِجْرِ أرضِ ثمودَ، فاسْتَقَوْا مِن آبارِها وعَجنوا به العجينَ، فأَمَرَهم رسولُ اللهِ ﷺ أن يُهَرِيقوا ما استقَوْا، ويَعلِفوا الإبلَ العجينَ، وأَمَرَهم أن يَسْتَقُوا مِن البئرِ التي تَرِدها الناقةُ.

ورَوى أيضاً عن ابنِ عمرَ قال: مَرَرْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ على الحِجْرِ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «لا تَدخلوا مساكنَ الذين ظَلموا أنفسَهم إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ؛ حَذَراً أن يُصِيبَكم مثلُ ما أصابَهم». ثم زَجَرَ فأَسْرَع[٧].

قلت: ففي هذه الآيةِ التي بيَّن الشارعُ حكمَها وأوضحَ أَمْرَها ثمان مسائلَ، استنبطها العلماءُ واختَلف في بعضِها الفقهاءُ:

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ١٣٠ - ١٣٣ ، وينظر الصحاح (حجر).

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٢ ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٤١ ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٥٥ ، والكشاف ٢/ ٣٩٦ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٥) في صحيحه (٣٣٧٨).

(٦) البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١) واللفظ له.

(٧) البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠): (٣٩) واللفظ له.

فأوَّلها: كراهةُ دخولِ تلك المواضعِ، وعليها حَمل بعضُ العلماء دخولَ مقابرِ الكفَّار؛ فإن دَخل الإنسانُ شيئاً من تلك المواضعِ والمقابرِ فعلى الصفةِ التي أرْشَد إليها النبيُّ ﷺ من الاعتبارِ والخَوْفِ والإسراعِ. وقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَدخُلوا أرضَ بابلَ؛ فإنَّها ملعونةٌ»(١).

مسألة: أَمَرَ النبيُّ ﷺ بهَرْقِ ما استَقَوْا مِن بئرِ ثمودَ، وإلقاءِ ما عُجِنَ وخُبِزَ به؛ لأجلِ أنّه ماءُ سُخْطٍ، فلم يجزِ الانتفاعُ به؛ فراراً من سَخَطِ اللهِ. وقال: «اعلفُوه الإبلَ»(٢).

قلت: وهكذا حكمُ الماءِ النَّجِسِ وما يُعجَن به.

وثانيها: قال مالكٌ: إنَّ ما لا يجوز استعمالُه مِن الطعامِ والشرابِ يجوز أن تَعْلِفَه الإبلَ والبهائمَ؛ إذ لا تكليفَ عليها؛ وكذلك قال في العسلِ النَّجِسِ: إنَّه يَعلِفُه النحلَ(٣).

وثالثها: أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بعَلْفِ ما عُجن بهذا الماءِ الإبلَ، ولم يَأْمُرْ بطَرْحِه كما أَمَرَ في لحومِ الحُمُر الإنسيَّة يومَ خَيبر(٤)؛ فدلَّ على أنَّ لحمَ الحُمُر أشدُّ في التحريمِ وأغلظُ في التنجيسِ. وقد أَمَرَ رسولُ اللهِ ﷺ بكَسْبِ الحجَّام أن يُعلَف الناضحَ والرقيقَ، ولم يكن ذلك لتحريمٍ ولا تنجيسٍ. قال الشافعيُّ: ولو كان حراماً لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه؛ لأنه متعبَّد فيه كما تُعبِّد في نفسه(٥).

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٢ ، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، بل الوارد ما أخرجه أبو داود (٤٩٠) عن علي ﷺ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلِّيَ في المقبرة، ونهاني أن أصلِّيَ في أرض بابل فإنها ملعونة. وضعف إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١/ ٥٣٠ . وسيرد ص٢٤٥ من هذا الجزء وعلقه البخاري في الصلاة، باب ٥٣ ، بلفظ: ويُذكر أن علياً ﷺ كره الصلاة بخسف بابل.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١١٢ ، ولم نقف عليه بهذا اللفظ، ولعله ذكره بالمعنى، وسلف الحديث قريباً.

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١ .

(٤) أخرجه البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٥٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) ينظر اختلاف الحديث للشافعي (بهامش الأم) ٧/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

ورابعها: في أَمْرِه ﷺ بعَلْف الإبلِ العجينَ دليلٌ على جواز حَمْلِ الرجلِ النجاسةَ إلى كلابِه ليأكلوها؛ خلافاً لمن منَع ذلك مِن أصحابنا، وقال: تُطلَق الكلابُ عليها ولا يَحملُها إليهم(١).

وخامسها: أَمْرُه ﷺ أن يَسْتَقُوا من بئرِ الناقةِ دليلٌ على التبرُّك بآثارِ الأنبياءِ والصالحينَ، وإن تقادمتْ أعصارُهم، وخَفِيَتْ آثارُهم؛ كما أنَّ في الأوَّل دليلاً على بُغْضِ أهلِ الفسادِ، وذمّ ديارِهم وآثارِهم. هذا، وإن كان التحقيقُ أنَّ الجماداتِ غيرُ مؤاخذاتٍ، لكنَّ المقرونَ بالمحبوبِ محبوبٌ، والمقرونَ بالمكروهِ المبغوضِ مبغوضٌ؛ كما قال كُثَيِّر(٢):

أُحبُّ لحبِّها السودانَ حتى ... أُحبُّ لحبِّها سودَ الكلابِ

وكما قال آخر:

أَمُرُّ على الدِّيارِ ديارِ لَيْلَى ... أُقبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما تلك الديارُ شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حبُّ مَن سَكَنَ الديارا(٣)

وسادسها: منَع بعضُ العلماءِ الصلاةَ بهذا الموضع، وقال: لا تجوز الصلاةُ فيها؛ لأنَّها دارُ سُخْطٍ، وبقعةُ غَضَب(٤). قال ابنُ العربيِّ: فصارت هذه البقعةُ مستثناةً مِن قوله ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»(٥) فلا يجوز التيمُّم بترابِها، ولا الوضوءُ من مائِها، ولا الصلاةُ فيها.

وقد روى الترمذيُّ عن ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى أن يُصلَّى في سَبْعة مواطنَ: في المَزْبلة، والمَجْزَرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمَّام، وفي معاطِنِ الإبل،

---

(١) المفهم ٧/ ٣٥٥.

(٢) المفهم ٧/ ٣٥٥، وسلف ٣/ ٦.

(٣) الشعر لقيس بن الملوّح، وهو في ديوانه ص١٧٠، وفيه: وما حبُّ الديار، بدل: وما تلك الديار.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢١.

(٥) سلف ٢/ ٢٨٣.

وفوقَ بيتِ الله. [قال:] وفي الباب عن أبي مَرْثد، وجابرٍ، وأنسٍ، [و] حديثُ ابنِ عمرَ إسنادُه ليس بذاك القويِّ، وقد تُكُلِّم في زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظِه[١].

وقد زاد علماؤنا: الدارَ المغصوبةَ، والكنيسةَ، والبِيعةَ، والبيتَ الذي فيه تماثيلُ، والأرضَ المغصوبةَ، أو موضعاً تَستقبِلُ فيه نائماً، أو وَجْهَ رجلٍ، أو جداراً عليه نجاسةٌ. قال ابنُ العربيِّ[٢]: ومن هذه المواضعِ ما مُنِعَ لحقِّ الغير، ومنه ما مُنِعَ لحقِّ اللهِ تعالى، ومنه ما مُنِعَ لأجْلِ النجاسةِ المحقَّقة أو لغلبتِها؛ فما مُنِعَ لأجلِ النجاسةِ إن فُرِشَ فيه ثوبٌ طاهرٌ كالحمَّام والمقبرة فيها أو إليها، فإنَّ ذلك جائزٌ في «المدوَّنة»[٣]. وذكر أبو مصعبٍ عنه الكراهةَ. وفرَّق علماؤنا بين المقبرةِ القديمةِ والجديدةِ لأجلِ النجاسة، وبين مقبرةِ المسلمينَ والمشركينَ؛ لأنها دارُ عذابٍ، وبقعةُ سَخَطٍ؛ كالحِجر. وقال مالكٌ في «المجموعة»: لا يُصلِّي في أعطانِ الإبلِ وإن فَرش ثوباً. كأنَّه رأى لها علَّتين: الاستتارَ بها، ونفارَها، فتُفسِد على المصلِّي صلاتَه، فإن كانت واحدةً فلا بأسَ؛ كما كان النبيُّ ﷺ يفعل؛ في الحديثِ الصحيح[٤].

وقال مالكٌ: لا يصلِّي على بساطٍ فيه تماثيلُ إلا من ضرورةٍ. وكَره ابنُ القاسمِ الصلاةَ إلى القِبْلةِ فيها تماثيلُ، وفي الدارِ المغصوبة، فإن فعل أجزأه. وذكر بعضُهم عن مالكٍ أنَّ الصلاةَ في الدارِ المغصوبةِ لا تُجزئ.

قال ابنُ العربيِّ[٥]: وذلك عندي بخلافِ الأرض، فإنَّ الدارَ لا تُدخَل إلا بإذنٍ، والأرضَ وإن كانت مِلكاً فإنَّ المسجديَّة فيها قائمةٌ لا يُبطِلها المِلكُ.

---

(١) سنن الترمذي (٣٤٦) و(٣٤٧)، وما بين حاصرتين منه. وسيرد الكلام عليه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢، وما قبله منه.

(٣) ١/ ٧٦.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٧)، ومسلم (٥٠٢) عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه كان يُعرِّض راحلته فيُصلِّي إليها، قلت: أفرأيت إذا هبَّت الركاب؟ قال: كان يأخذ هذا الرحل فيعدِّله، فيصلِّي إلى آخرته، أو قال: مؤخَّره. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يفعله.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١١٢٢.

قلت: الصحيحُ - إن شاء اللهُ - الذي يدل عليه النظرُ والخَبَر أنَّ الصلاةَ بكلِّ موضعٍ طاهرٍ جائزةٌ صحيحةٌ. وما رُويَ من قوله ﷺ: «إنَّ هذا وادٍ به شيطانٌ»[(١)] وقد رواه معمر عن الزهريِّ فقال: «واخرجوا عن المَوْضِع الذي أصابتكم فيه الغفلةُ»[(٢)]. وقولِ عليٍّ: نهاني رسولُ الله ﷺ أن أصلِّيَ بأرضِ بابل؛ فإنها ملعونةٌ. وقولِه عليه السلام حين مرَّ بالحِجْر من ثمودَ: «لا تَدخُلوا على هؤلاءِ المعذَّبين إلا أنْ تكونوا باكِيْنَ» ونهيِه عن الصلاةِ في معاطنِ الإبلِ[(٣)]، إلى غير ذلك مما في هذا الباب، فإنَّه مردودٌ إلى الأصول المجتمع عليها، والدلائلِ الصحيح مجيئها.

قال الإمام الحافظ أبو عمر[(٤)]: المختار عندنا في هذا البابِ أنَّ ذلك الواديَ وغيرَه مِن بِقاع الأرضِ جائزٌ أن يُصلَّى فيها كلِّها ما لم تكن فيها نجاسةٌ متيقَّنةٌ تَمنع من ذلك، ولا معنى لاعتلالِ من اعتلَّ بأن موضعَ النومِ عن الصلاة موضعُ شيطانٍ، وموضعٌ ملعونٌ لا يجب أن تقام فيه الصلاةُ.

وكلُّ ما رُوي في هذا الباب من النهي عن الصلاةِ في المقبرة، وبأرضِ بابل، وأعطانِ الإبل، وغيرِ ذلك مما في هذا المعنى، كلُّ ذلك عندنا منسوخٌ ومدفوعٌ بعموم قولِه ﷺ: «جُعلت ليَ الأرضُ كلُّها مسجداً وطَهوراً»[(٥)]، وقولِه ﷺ مخبراً أنَّ ذلك من فضائلِه ومما خُصَّ به.

وفضائلُه عند أهلِ العلم لا يجوز عليها النَّسْخُ ولا التبديلُ ولا النقصُ، قال ﷺ: «أوتيتُ خمساً»[(٦)] وقد روي: ستاً[(٧)]، وقد روي: ثلاثاً[(٨)]، و: أربعاً[(٩)]، وهي تنتهي

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مالك في الموطأ ١/ ١٤ عن زيد بن أسلم مرسلاً وهو عند مسلم ٦٨٠ (٣١٠) بنحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، إلا أنه قال: «وتحولوا» بدل: «واخرجوا».

(٣) سلفت هذه الأحاديث قريباً.

(٤) في التمهيد ٥/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٥) سلف ٤/ ٢٥٨.

(٦) هو الحديث السابق.

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٨) أخرجه مسلم (٥٢٢) من حديث حذيفة ﷺ.

(٩) أخرجه أحمد (١٣٦١) من حديث علي ﷺ.

إلى أزيدَ من تسع[(١)]، قال فيهن: «لم يُؤْتَهُنَّ أحدٌ قبلي: بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ، ونُصرت بالرُّعْبِ، وجُعلت أمتي خيرَ الأُمم، وأُحِلَّت ليَ الغنائم، وجُعلت ليَ الأرضُ مسجداً وَطَهوراً، وأُوتيتُ الشفاعةَ، وبُعثتُ بجوامعِ الكَلِم، وبينا أنا نائمٌ أُتِيْتُ بمفاتيحِ الأرضِ، فوضعتْ في يدي، وأُعطيتُ الكوثر، وخُتم بي النبيون». رواها جماعةٌ من الصحابة[(٢)]. وبَعضُهم يَذكُر بعضَها، ويَذكُر بعضُهم ما لم يَذكُر غيرُه، وهي صحاح كلُّها. وجائزٌ على فضائله الزيادةُ، وغيرُ جائزٍ فيها النقصانُ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أنْ يكون نبيًّا، ثم كان نبيًّا قبل أنْ يكون رسولاً؛ وكذلك روي عنه[(٣)]. وقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم» ثم نزلت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(٤)] [الفتح: ٢]. وسمع رجلاً يقول له: يا خيرَ البريَّة؛ فقال: «ذاك إبراهيم»[(٥)]، وقال: «لا يقولنَّ أحدكم: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى»[(٦)]، وقال: «السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[(٧)] ثم قال بعد ذلك كلِّه: «أنا

---

(١) في (د) و(ظ): سبع، وينظر اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٦٢ وما بعدها، وإكمال المعلم ٢/ ٤٣٨، وفتح الباري ١/ ٤٣٩.

(٢) رُويت هذه الفضائل في أحاديث متفرقة عن عدد من الصحابة في «الصحيحين» كما مرَّ آنفاً، دون قوله: «وأعطيت الكوثر» فقد أخرجه البزار (٣/ ١٤٧ كشف الأستار)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٤٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. وجوّد إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٩. وينظر التمهيد ٥/ ٢٢٣، والاستذكار ١/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٣) أخرج عبد الرزاق ٢/ ٢٠٥ عن عطاء قال: وبينا النبي ﷺ يُعلِّم التشهد فقال رجل: وأشهد أن محمداً رسوله وعبده، فقال النبي ﷺ: قد كنت عبداً قبل أن أكون رسولاً، قل: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وينظر الاستذكار ١/ ٣٣٦.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣ - ٤٠٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد (٤١٩٧)، والبخاري (٣٤١٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٧) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠٠٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٢٨ و ٨/ ٢٠٢: فيه: نافع أبو هرمز، وهو ضعيف، أو: متروك.

سيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْرُ»[١]. ففضائلُه ﷺ لم تَزَلْ تزدادُ إلى أنْ قبضَه اللهُ؛ فمن هاهنا قلنا: إنَّه لا يجوزُ عليها النَّسْخُ ولا الاستثناءُ ولا النقصانُ، وجائزٌ فيها الزيادةُ[٢].

وبقوله ﷺ: «جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[٣] أجزنا الصلاةَ في المقبرةِ، والحمَّام، وفي كلِّ موضعٍ من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاسِ[٤]. وقال ﷺ لأبي ذرٍّ: «حيثما أدْرَكَتْكَ الصلاةُ فصَلِّ؛ فإنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ» ذكره البخاريُّ[٥]، ولم يَخُصَّ موضعاً من موضع.

وأما مَن احتجَّ بحديثِ ابنِ وهبٍ قال: أخبرني يحيى بنُ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة، عن داودَ بنِ حُصَين، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ ـ حديث الترمذيِّ الذي ذكرناه[٦] ـ فهو حديث انفردَ به زيدُ بنُ جَبِيرة، وأنكروه عليه، ولا يُعرَف هذا الحديثُ مسنداً إلا برواية يحيى بنِ أيوبَ، عن زيدِ بنِ جَبيرة. وقد كتب الليثُ بنُ سعدٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ نافعٍ[٧] مولى ابنِ عمرَ يسأله عن هذا الحديث؟ فكتب إليه عبدُ الله بنُ نافعٍ: لا أعلم من حدَّث بهذا عن نافعٍ إلا قد قال عليه الباطل. ذكره الحُلْوانيُّ عن سعيدِ بنِ أبي مريم، عن الليثِ، وليس فيه تخصيصُ مقبرةِ المشركينَ مِن غيرِها[٨].

وقد رُويَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ قال: نهاني حبيبي ﷺ أن أُصلِّيَ في المقبرة،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري، وهو عند مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة دون قوله: «ولا فخر».

(٢) التمهيد ٥/ ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٣) سلف ٤/ ٢٥٨ .

(٤) التمهيد ٥/ ٢٢٠ .

(٥) في صحيحه (٣٤٢٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (٥٢٠).

(٦) وهو أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة،... الحديث، وقد سلف قريباً.

(٧) ليست في النسخ الخطية (في الموضعين)، والمثبت من (م)، والتمهيد ٥/ ٢٢٦ .

(٨) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ونهاني أن أُصلِّيَ في أرضِ بابل؛ فإنَّها ملعونةٌ[١]. وإسناده ضعيفٌ مجتمع على ضعفه، وأبو صالح الذي رواه عن عليٍّ هو سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن الغِفاريُّ، مصريٌّ[٢] ليس بمشهورٍ، ولا يصحُّ له سماعٌ عن عليٍّ، ومَن دونَه مجهولون لا يُعرفون.

قال أبو عمر[٣]: وفي البابِ عن عليٍّ من قولِه غير مرفوع حديثٌ حسنُ الإسنادِ، رواه الفَضْلُ بنُ دُكَيْن قال: حدثنا المغيرةُ بنُ أبي الحُرِّ الكِنْديُّ، قال: حدَّثني أبو العَنْبَس حُجْرُ بنُ عَنْبَس قال: خرجنا مع عليٍّ إلى الحروريَّة، فلما جاوزنا سُورا[٤] وقع بأرضِ بابلَ، قلنا: يا أميرَ المؤمنين أمسيتَ، الصلاةَ الصلاةَ؛ فأبى أن يُكلِّم أحداً. قالوا: يا أميرَ المؤمنين، قد أمسيت. قال: بلى، ولكن لا أُصلِّي في أرضٍ خَسَفَ اللهُ بها[٥]. والمغيرة بنُ أبي الحُرِّ: كوفيٌّ ثقةٌ؛ قاله يحيى بنُ مَعين وغيرُه. وحُجر بن عنبس مِن كبارِ أصحابِ عليٍّ[٦].

وروى الترمذيُّ[٧] عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الأرضُ كلُّها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمَّامَ». قال الترمذيُّ: رواه سفيانُ الثوريُّ، عن عمرِو بنِ يحيى، عن أبيه، عن النبي ﷺ مُرْسلاً، وكأنَّه أثبتُ وأصحُّ.

---

(١) ذكره المصنف ص٢٣٩ من هذا الجزء بلفظ: «لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة».

(٢) في النسخ: بصري، والتصويب من التاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٩١ ، والجرح والتعديل للرازي ٤/٣٩-٤٠ ، والتمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٣) في التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وما قبله منه.

(٤) في النسخ: سوريا، والمثبت من التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، قال الحموي في معجم البلدان ٣/ ٢٧٨ : سُورَا: موضع بالعراق من أرض بابل.

(٥) هكذا أورده ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٢٢٤ ، وأخرجه عبد الرزاق (١٦٢٣)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٧٧ ، ومن طريقه البغدادي في تاريخ بغداد ٨/ ٢٧٤ بنحوه. قال ابن حجر في «تغليق التعليق» ٢/ ٢٣١ : إسناده حسن. اهـ وسلف مرفوعاً قريباً.

(٦) التمهيد ٥/ ٢٢٤ .

(٧) في السنن (٣١٧).

قال أبو عمر[١]: فسقط الاحتجاجُ به عند من لا يَرَى المرسلَ حجَّةً، ولو ثبت كان الوجهُ ما ذكرنا. ولسنا نقولُ كما قال بعضُ المنتحِلين لمذهبِ المدنيين: إنَّ المقبرةَ في هذا الحديثِ وغيرِه أُرِيدَ بها مقبرةُ المشركينَ خاصَّةً؛ فإنَّه قال: «المقبرةَ والحمامَ» بالألِفِ واللَّام؛ فغيرُ جائز أن يُرَدَّ ذلك إلى مقبرةٍ دون مقبرةٍ، أو حمَّامٍ دون حمَّامٍ بغير توقيفٍ عليه، فهو قولٌ لا دليلَ عليه من كتابٍ ولا سُنَّة ولا خبرٍ صحيحٍ، ولا مدخلَ له في القياس، ولا في المعقول، ولا دَلَّ عليه فحوى الخطاب، ولا خُرِّجَ عليه الخبرُ.

ولا يخلو تخصيصُ مَنْ خصَّ مقبرةَ المشركين مِن أحدِ وجهين: إما أن يكونَ مِن أجْلِ اختلافِ الكفَّار إليها بأقدامهم، فلا معنى لخصوصِ المقبرةِ بالذِّكْر؛ لأنَّ كلَّ موضعٍ هم فيه بأجسامِهم وأقدامِهم فهو كذلك، وقد جَلَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يَتكلَّم بما لا معنى له. أو يكون مِن أَجْلِ أنَّها بقعةُ سُخْطٍ، فلو كان كذلك ما كان رسولُ الله ﷺ ليَبْنِيَ مسجِدَه في مقبرةِ المشركين، وينبِشها، ويسوِّيها، ويَبْني عليها[٢].

ولو جاز لقائلٍ أن يَخُصَّ مِن المقابرِ مقبرةً للصلاة فيها، لكانت مقبرةُ المشركين أَولى بالخصوصِ والاستثناءِ مِن أجْلِ هذا الحديث. وكلُّ مَن كَره الصلاةَ في المقبرةِ لم يَخُصَّ مقبرةً مِن مقبرةٍ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّام إشارةٌ إلى الجنسِ لا إلى معهودٍ، ولو كان بين مقبرةِ المسلمين والمشركين فَرْقٌ لبيَّنه ﷺ ولم يُهْمِلْه؛ لأنَّه بُعِثَ مبيِّناً. ولو ساغَ لجاهلٍ أن يقول: مقبرةُ كذا؛ لجاز لآخَرَ أن يقول: حمَّامُ كذا؛ لأنَّ في الحديثِ المقبرةَ والحمَّامَ. وكذلك قوله: المزبلةَ والمجزرةَ؛ غيرُ جائزٍ أن يُقال: مزبلةُ كذا، ولا مَجْزَرةُ كذا، ولا طريقُ كذا؛ لأنَّ التحكُّم في دين الله غيرُ جائزٍ[٣].

وأجمع العلماءُ على أنَّ التيمُّمَ على مقبرةِ المشركينَ إذا كان الموضع طيِّباً طاهراً

---

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

نظيفاً جائزٌ. وكذلك أَجمعوا على أنَّ مَن صلَّى في كنيسةٍ أو بِيعةٍ على موضعٍ طاهرٍ، أنَّ صلاتَه ماضيةٌ جائزةٌ[١]. وقد تقدَّم هذا في سورة براءة[٢].

ومعلومٌ أنَّ الكنيسةَ أقربُ إلى أن تكونَ بقعةَ سُخْطٍ مِن المقبرة؛ لأنَّها بُقعةٌ يُعصى اللهُ ويُكفَر به فيها، وليس كذلك المقبرةُ[٣].

وقد وردت السُّنَّةُ باتخاذِ البِيَعِ والكنائسِ مساجدَ. روى النَّسائيُّ[٤] عن طَلْقِ بنِ عليٍّ قال: خرجنا وَفْداً إلى النبيِّ ﷺ فبايَعْناه وصَلَّينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضنا بِيعةً لنا، وذكر الحديثَ. وفيه: «فإذا أَتيتم أرضَكم، فاكسروا بِيعتَكُم واتَّخِذوها مسجداً». وذكر أبو داود[٥] عن عثمانَ بنِ أبي العاص أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَره أن يَجعل مسجدَ الطائفِ حيث كانت طواغيتُهم. وقد تقدَّم في «براءة». وحَسْبُك بمسجدِ النبيِّ ﷺ الذي أُسِّس على التقوى مبنياً في مقبرةِ المشركين؛ وهو حجَّة على كلِّ من كَرِه الصلاةَ فيها.

وممن كَرِه الصلاةَ في المقبرة، سواء كانت لمسلمينَ أو مشركينَ؛ الثوريُّ، وأبو حنيفةَ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ وأصحابُهم. وعند الثوريِّ: لا يُعيد. وعند الشافعيِّ: أَجزأَه إذا صلَّى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسةٌ؛ للأحاديث المعلومة[٦] في ذلك، ولحديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «صَلُّوا في بيوتِكم ولا تتخذوها قبوراً»[٧]، ولحديث أبي مَرْثَدٍ الغَنَوِيِّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تُصَلُّوا إلى القبورِ، ولا تَجلسوا عليها»[٨]. وهذان حديثانِ ثابتانِ مِن جهةِ الإسناد، ولا حجَّة فيهما؛

(١) التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٢) عند الآية (١٠٧).

(٣) التمهيد ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في المجتبى ٢/ ٣٨ .

(٥) في السنن (٤٥٠)، وسلف ٨/ ٢٥٥ .

(٦) في (د) و(ز): المعلولة، وكذا جاء في التمهيد ٥/ ٢٢٩ .

(٧) أخرجه مسلم (٧٧٧) (٢٠٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٨) أخرجه مسلم (٩٧٢) (٩٨).

لأنَّهما محتملانِ للتأويل، ولا يَجبُ أن يمتنع من الصلاةِ في كلِّ موضعٍ طاهرٍ إلا بدليلٍ لا يحتمل تأويلاً. ولم يُفرِّق أحدٌ مِن فقهاءِ المسلمين بين مقبرةِ المسلمين والمشركين إلَّا ما حكيناه مِن خَطَل[1] القولِ الذي لا يُشتَغل بمثلِه، ولا وجْهَ له في نظر، ولا في صحيحِ أثرٍ[2].

وثامنها[3]: الحائطُ يُلقَى فيه النَّتْنُ والعَذِرَةُ ليُكْرَم[4]، فلا يُصلَّى فيه حتى يُسقَى ثلاثَ مرَّات؛ لما رواه الدارقطنيُّ عن مجاهدٍ، عن ابن عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ في الحائط يُلقَى فيه العِذَرةُ والنَّتْنُ قال: «إذا سُقي ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيه». وخرَّجه أيضاً من حديث نافعٍ عن ابنِ عمرَ أنَّه سُئل عن هذه الحيطانِ التي تُلقَى فيها العَذِراتُ وهذا الزِّبْلُ: أيصلَّى فيها؟ فقال: إذا سُقِيَتْ ثلاثَ مرَّات، فَصَلِّ فيها. رَفَع ذلك إلى النبيِّ ﷺ. اختلفا في الإسناد[5]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بآياتِنا. كقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي: بغدائِنا. والمراد: الناقةُ، وكان فيها آياتٌ جَمَّةٌ: خروجُها مِن الصخرة، ودُنُوُّ نِتاجِها عند خروجِها، وعِظَمُها حتى لم تُشبهها ناقةٌ، وكثرةُ لبنِها حتى تكفيَهم جميعاً[6]. ويحتمل أنه كان لصالحٍ آياتٌ أُخَرُ سوى الناقةِ، كالبئرِ وغيرِه[7]. ﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لم يعتبروا.

(١) الخَطَل: المنطق الفاسد المضطرب. الصحاح (خطل).

(٢) التمهيد ٥/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٣) كذا في النسخ، ولم يذكر السابعة.

(٤) كَرَمَ أرضَه كَرْماً: دَمَلَها (أي: أصلحها) بالسِّرقين، فزكت وطابت. معجم متن اللغة (كرم).

(٥) الدارقطني (٨٨٠) و(٨٨١).

(٦) الوسيط ٣/ ٥٠ ، وزاد المسير ٤/ ٤١١ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

النَّحْتُ في كلام العرب: البَرْيُ والنَّجْر. نَحَتَه يَنْحِتُه ـ بالكسر ـ نحتاً، أي: بَراه. والنُّحاتة: البُراية. والمِنْحَت: ما يُنْحَتُ به[1]. وفي التنزيل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] أي: تَنْجُرون وتَصْنعون. فكانوا يتخذونَ من الجبال بيوتاً لأنفسِهم بشدَّة قوَّتهم. ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: مِن أن تَسْقُطَ عليهم أو تَخْرَب. وقيل: آمنين مِن الموتِ. وقيل: مِن العذابِ[2]. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: في وقت الصبحِ، وهو نصبٌ على الحال. وقد تقدَّم ذِكْرُ الصيحةِ في هود والأعراف[3]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأموالِ والحُصُون في الجبال، ولا ما أُعْطُوه مِن القوَّة[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للزوالِ والفَناء. وقيل: أي: لأجازيَ المحسنَ والمُسِيْءَ[5]؛ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ أي: لكائنةٌ فيُجزى كلٌّ بعملِه. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ مثلُ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] أي: تجاوز عنهم يا محمَّد، واعْفُ عفواً حسناً؛ ثم نُسِخَ بالسيف[6]. قال قتادةُ: نسخه قولُه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

---

(١) الصحاح (نحت).

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٩ .

(٣) ١١/ ١٥٦ و ٩/ ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٤١٢ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٥ .

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٦ .

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[١] [النساء: ٩١]. وأنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «لقد جئتكم بالذَّبْح، وبُعثتُ بالحصادِ، ولم أبعث بالزراعة»؛ قاله عكرمةُ ومجاهدٌ[٢]. وقيل: ليس بمنسوخٍ، وأنَّه أمر بالصَّفْح في حقِّ نفسِه فيما بينه وبينهم. والصَّفحُ: الإعراض؛ عن الحسنِ وغيرِه[٣]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أي: المقدِّر للخَلْق والأخلاق. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأهل الوِفاقِ والنفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

اختلف العلماءُ في السبعِ المثاني؛ فقيل: الفاتحةُ؛ قاله عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو هريرة، والربيعُ بنُ أنس، وأبو العالية، والحسنُ وغيرُهم[٤]، ورُويَ عن النبيِّ ﷺ مِن وجوهٍ ثابتةٍ، مِن حديث أُبَيِّ بنِ كعبٍ، وأبي سعيدِ بنِ المُعَلَّى. وقد تقدَّم في تفسير الفاتحةِ[٥].

وخرَّج الترمذيُّ مِن حديثِ أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ، وأمُّ الكتابِ، والسَّبْعُ المثاني». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهذا نصٌّ، وقد تقدَّم في الفاتحة[٦]. وقال الشاعر:

نَشَدْتُكم بمُنْزِلِ القرآنِ ... أمِّ الكتابِ السبعِ مِن مَثاني[٧]

وقال ابنُ عباسٍ: هي السَّبْعُ الطُّوَل: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدةُ،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/١٠٦، وأورده النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٢.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٠، وأخرجه أيضاً ابن سعد ١/ ١٠٥ عن مجاهد، والطبري في تفسيره ١٤/١٠٧ عن سفيان بن عيينة، وهو ضعيف لإرساله.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٠.

(٤) أخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/١١٦، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠، وزاد المسير ٤/ ٤١٣.

(٥) سلف ١/١٦٦ - ١٦٧.

(٦) الترمذي (٣١٢٤)، وسلف ١/ ١٧٢.

(٧) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ص ١/ ٣٥٤، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٢٦ و ٣/ ١٧٠ ولم ينسباه.

والأنعامُ، والأعرافُ، والأنفالُ والتوبةُ معاً؛ إذ ليس بينهما التسميةُ[١]. روى النَّسائيُّ[٢]: حدَّثنا عليُّ بنُ حُجْر، أخبرنا شَريكٌ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيدِ بنِ جُبير، عن ابنِ عباسٍ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: السَّبْعُ الطُّوَل.

وسمِّيت مثانيَ؛ لأنَّ العِبَرَ والأحكامَ والحدودَ ثُنِّيت فيها. وأنكر قومٌ هذا، وقالوا: أُنزلت هذه الآيةُ بمكَّة، ولم يَنزل مِنَ الطُّوَل شيء إذ ذاك. وأُجيب بأنَّ الله تعالى أَنزل القرآن إلى السماءِ الدُّنيا، ثم أَنزله منها نجوماً، فما أَنزله إلى السماء الدُّنيا فكأنَّما آتاه محمداً ﷺ وإنْ لم يَنزِل عليه بَعْدُ[٣].

وممَّن قال إنَّها السَّبْعُ الطُّوَل: عبدُ اللهِ بنُ مسعود، وعبدُ اللهِ بنُ عُمر، وسعيدُ بنُ جبير، ومجاهدٌ[٤]. وقال جريرٌ[٥]:

جزى اللهُ الفرزدقَ حين يُمْسِي مُضِيعاً للمفَصَّل والمثاني

وقيل: المثاني: القرآنُ كلُّه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. هذا قولُ الضحاكِ وطاوس وأبي[٦] مالكٍ، وقاله ابنُ عباس[٧].

وقيل له: مثاني؛ لأنَّ الأنباءَ والقَصَص ثُنِّيت فيه[٨]. وقالت صفيَّة بنتُ عبدِ المطلب ترثي رسولَ اللهِ ﷺ:

فقد كان نوراً ساطعاً يُهتَدى به يُخَصُّ بتنزيل المثاني المعظَّمِ[٩]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٢) المجتبى ٢/ ١٤٠، وأخرجه أيضاً أبو داود (١٤٥٩)، وسلف ١/ ١٧٥.

(٣) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٤، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.

(٤) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٠٧ - ١٠٩.

(٥) ديوانه ص٤٦٦، وفيه: لحى، بدل: جزى.

(٦) في (د) و(ز) و(م): وأبو: والمثبت من (ظ).

(٧) أخرج قولهم الطبري في التفسير ١٤/ ١٢٠ - ١٢١، وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠ - ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.

(٨) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

(٩) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧١.

أي: القرآن.

وقيل: المراد بالسَّبْعِ المثاني: أقسامُ القرآن؛ من الأمْرِ والنهي، والتبشيرِ والإنذار، وضَرْبِ الأمثال، وتعديد نِعَمٍ، وأنباءِ قرونٍ؛ قاله زيادُ بنُ أبي مريمَ(١).

والصحيحُ الأوَّلُ؛ لأنه نصٌّ. وقد قدَّمنا في الفاتحة(٢) أنَّه ليس في تَسْميتها بالمثاني ما يَمنع من تسميةِ غيرِها بذلك؛ إلا أنَّه إذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ؛ وثَبَتَ عنه نصٌّ في شيء لا يَحتمل التأويلَ؛ كان الوقوفُ عنده(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فيه إضمارٌ، تقديرُه: وهو أنَّ الفاتحةَ القرآنُ العظيمُ؛ لاشتمالِها على ما يتعلَّق بأصولِ الإسلام. وقد تقدَّم في الفاتحة(٤). وقيل: الواو مُقْحَمة، التقدير: ولقد آتيناكَ سبعاً مِن المثاني القرآن العظيم(٥). ومنه قولُ الشاعر:

إلى المَلِكِ الْقَرْمِ وابنِ الهُمامِ وليثِ الكَتِيبةِ في المُزْدَحَمْ(٦)

وقد تقدَّم عند قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾(٧) [البقرة: ٢٣٨].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧١ ، وأخرجه عنه الطبري في التفسير ١٤/ ١١٩ - ١٢٠ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤١٤ .

(٢) ١/ ١٧٥ .

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٢١ .

(٤) ١/ ١٧٣ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٥٦ .

(٦) لم نقف على قائله، وأورده ابن الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٤٦٩ ، والزمخشري في الكشاف ١/ ١٣٣ ، والبغدادي في خزانة الأدب ١/ ٤٥١ و ٥/ ١٠٧ و ٦/ ٩١ ولم ينسبوه.

(٧) ١/ ١٨١ ، عند القول التاسع في تعيين الصلاة الوسطى.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قد أَغْنَيْتُكَ بالقرآنِ عما في أيدي الناسِ، فإنَّه: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن»[١]؛ أي: ليس منَّا مَن رأى أنَّه ليس يَغْنَى بما عندَه مِن القرآن حتى يطمحَ بصرُه إلى زخارفِ الدنيا، وعنده معارفُ المولى[٢].

يقال: إنه وافى سَبْعُ قوافلَ من البُصْرَى[٣] وأَذْرِعاتٍ[٤] ليهودِ قُريظةَ والنَّضِيرِ في يومٍ واحدٍ، فيها البَزُّ[٥] والطِّيْبُ والجوهرُ وأمتعةُ البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا؛ لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ أي: فهي خيرٌ لكم من القوافلِ السَّبْع، فلا تَمُدُّنَّ أعينَكم إليها[٦]. وإلى هذا صار ابنُ عُيينةَ، وأورد قولَه عليه الصلاة والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن» أي: مَن لم يَسْتَغْنِ به[٧]. وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل الكتاب[٨]. ومعنى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمثالاً في النِّعَم، أي: الأغنياءُ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنَى، فهم أزواجٌ[٩].

الثانية: هذه الآيةُ تقتضي الزَّجْرَ عن التشوُّف إلى متاعِ الدنيا على الدَّوام، وإقبالَ العبدِ على عبادةِ مولاه. ومثله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الآية [طه: ١٣١]. وليس كذلك؛ فإنه روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال:

---

(١) سلف ١/ ٢١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٤ - ١١٢٥ .

(٣) من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. معجم البلدان ١/ ٤٤١ .

(٤) بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمَّان. معجم البلدان ١/ ١٣٠ ، وتسمى الآن: دَرعا، وتبعد ١١٠ كم جنوبي دمشق.

(٥) في (د) و(ظ) و(م): البر، والمثبت من (ز) ومصدر التخريج.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٨٢ ونسبه للحسين بن الفضل، وهو عند الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٨ دون نسبة.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، وتفسير الطبري ١٤/ ١٢٧ .

(٨) ١/ ٢١ - ٢٢ .

(٩) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧١ .

«حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُم النساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[١]. وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغلُ بالنساءِ جِبِلَّةَ الآدَمِيَّة، وتشوُّفَ الخِلْقَةِ الإنسانيةِ، ويحافظُ على الطِّيْبِ، ولا تقرُّ له عينٌ إلا في الصلاة لدى مناجاةِ المولى، ويَرَى أنَّ مناجاتَه أحرى مِن ذلك وأولى[٢].

ولم يكن في دين محمد الرهبانيَّةُ والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكليَّة كما كان في دينِ عيسى، وإنما شَرَعَ اللهُ سبحانه حنيفيَّةً سمحةً خالصةً عن الحَرَج، خفيفةً على الآدميِّ، يأخذ من الآدميَّة بشهواتِها، ويَرجع إلى اللهِ بقلبٍ سليم.

ورأى القرَّاء والمخلصون من الفضلاءِ الانكفافَ عن اللَّذات والخلوصَ لربِّ الأرضِ والسماوات اليومَ أولى؛ لِمَا غَلَب على الدنيا مِن الحرام، واضْطُرَّ العبدُ في المعاشِ إلى مخالطةِ مَن لا تجوز مخالطتُه، ومصانعةِ مَن تَحْرُم مصانعتُه، فكانت القراءةُ أفضلَ، والفرارُ عن الدنيا أصوبَ للعبدِ وأعدلَ؛ قال ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ يكون خيرُ مالِ المسلمِ غَنَماً يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ؛ يَفِرُّ بدينِه مِن الفتن»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تَحزن على المشركينَ إن لم يُؤمِنوا. وقيل: المعنى: لا تَحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا؛ فَلَكَ في الآخرةِ أفضلُ منه. وقيل: لا تَحزن عليهم إن صاروا إلى العذابِ؛ فهم أهلُ العذاب[٤].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أَلِنْ جانِبَكَ لمن آمَنَ بكَ وتواضَعْ لهم. وأصله أنَّ الطائرَ إذا ضَمَّ فَرْخَهُ إلى نفسِه بَسَطَ جناحَه ثم قَبَضَه على الفَرْخِ، فجعل ذلك وصفاً لتقريبِ الإنسانِ أتباعَه. ويقال: فلانٌ خافضُ الجناحِ، أي: وقورٌ ساكنٌ. والجناحان

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٦١ - ٦٢ ، من حديث أنس ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٥ ، والكلام الآتي منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١١٢٥ ، والحديث أخرجه البخاري (٣٦٠٠) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) ينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٣/ ١٧١ .

مِن ابنِ آدمَ: جانباه؛ ومنه ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] وجناح الطائرِ: يدُه[١].
وقال الشاعر:

وحَسْبُكَ فتيةً لزعيمِ قومٍ ... يَمُدُّ على أخي سَقَمٍ جَناحا[٢]

أي: تواضعاً وليناً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

في الكلام حذف؛ أي: إني أنا النذيرُ المبينُ عذاباً، فحذف المفعول، إذ كان الإنذارُ يدلُّ عليه، كما قال في موضع آخر: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وقيل: الكاف زائدة، أي: أنذرتُكم ما أنزلنا على المقتسِمين؛ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقيل: أنذرتُكم مثلَ ما أنزلنا بالمقتسِمين[٣]. وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسِمين، أي: مِن العذابِ وكفيناكَ المستهزئين، فاصْدَعْ بما تُؤمر، وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا، فإنَّا كفيناكَ أولئك الرؤساءَ الذين كُنْتَ تَلقى منهم ما تَلقى.

واختلف في «الْمُقْتَسِمِينَ» على أقوالٍ سبعة:

الأوّل: قال مقاتلٌ والفراءُ: هم ستَّةَ عَشَرَ رجلاً بعثَهم الوليدُ بنُ المغيرة أيَّامَ الموسمِ، فاقتسموا أعقابَ مكَّة وأنقابَها وفِجاجَها يقولون لمن سَلَكها: لا تغترُّوا بهذا الخارجِ فينا يدَّعي النبوَّةَ؛ فإنَّه مجنونٌ، وربَّما قالوا: ساحرٌ، وربَّما قالوا: شاعرٌ، وربَّما قالوا: كاهنٌ. وسُمُّوا المقتسِمين؛ لأنَّهم اقتسموا هذه الطرقَ، فأماتهم اللهُ شرَّ مِيتة، وكانوا نصبوا الوليدَ بنَ المغيرة حَكَماً على بابِ المسجد، فإذا سألوه عن

(١) الصحاح ولسان العرب (خفض) و(جنح).

(٢) كذا في النكت والعيون ٣/ ١٧١، وجاء في ديوان إبراهيم بن هرمة ص٨٨ قوله:

وحسبُكَ تهمةً ببريءِ قومٍ ... يضمُّ على أخي سَقَمٍ جناحا

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٥٢، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١٢.

النبيَّ ﷺ قال: صَدَقَ أولئك[(١)].

الثاني: قال قتادةُ: هم قومٌ من كفَّار قريشٍ؛ اقتسموا كتابَ اللهِ، فجعلوا بعضَه شعراً، وبعضَه سحراً، وبعضَه كهانةً، وبعضَه أساطيرَ الأوَّلين[(٢)].

الثالث: قال ابنُ عباسٍ: هم أهلُ الكتابِ؛ آمنوا ببعضِه وكفَروا ببعضه[(٣)].

وكذلك قال عكرمةُ: هم أهلُ الكتاب، وسُمُّوا مقتسِمين؛ لأنَّهم كانوا مستهزئينَ، فيقول بعضهم: هذه السورةُ لي، وهذه السورةُ لَكَ. وهو القول الرابع.

الخامس: قال قتادةُ: قسموا كتابَهم ففرَّقوه وبدَّدوه وحرَّفوه[(٤)].

السادس: قال زيدُ بنُ أسلَمَ: المرادُ: قومُ صالحٍ، تقاسموا على قتلِه فسُمُّوا مقتسِمين؛ كما قال تعالى: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾[(٥)] [النمل: ٤٩].

السابع: قال الأخفشُ: هم قومٌ اقتسموا أيماناً تحالفوا عليها. وقيل: إنَّهم العاصُ بنُ وائلٍ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، وأبو جهلِ بنُ هشام، وأبو البَخْتَرِيِّ بنُ هشامٍ، والنَّضْرُ بنُ الحارثِ، وأميَّةُ بنُ خَلَف، ومنبِّه بنُ الحجَّاج؛ ذكره الماورديُّ[(٦)].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

هذه صفةُ المقتسِمين. وقيل: هو مبتدأٌ، وخبرُه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾[(٧)].

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩١ - ٩٢، والنكت والعيون ٣/ ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٨، وتفسيرالرازي ١٩/ ٢١١ - ٢١٢.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥، وذكره الرازي في تفسيره ١٩/ ٢١٢ ونسبه لمقاتل بن حيان.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٢. وسيأتي تخريج قوله تقريباً.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٧٢ ونسبه إلى ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٢ - ١٣٣، وكذا ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ١٤/ ٤١٨.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ١٧٣.

(٧) تفسير الرازي ١٩/ ٢١٣.

وواحد العِضِين: عِضَة، من عضَّيتُ الشيءَ تعضِيةً، أي: فرَّقتُه؛ وكلُّ فرقةٍ عِضَة[١]. وقال بعضُهم: كانت في الأصل عِضْوَة، فنقصت الواو، ولذلك جُمعت عِضِين؛ كما قالوا: عِزِين في جمع عِزَة، والأصل: عِزْوة. وكذلك ثُبَة وثِبِين[٢]. ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين. قال ابن عباس: آمنوا ببعض وكفروا ببعض[٣]. وقيل: فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كذباً، وسحراً، وكَهانة، وشِعراً. عَضَوْتُه، أي: فَرَّقْتُه[٤]. قال الشاعر ـ هو رؤبة ـ:

وليس دينُ اللهِ بالمُعَضَّى[٥]

أي: بالمفرَّق.

ويقال: نقصانه الهاءُ، وأصله: عِضَهَة؛ لأنَّ العِضَةَ والعِضِينَ في لغة قريشٍ: السِّحرُ. وهم يقولون للساحر: عاضِه، وللساحرة: عاضِهة[٦]. قال الشاعر:

أعوذُ بربِّي مِن النافِثا تِ في عُقَدِ العاضِه المُعْضِهِ[٧]

وفي الحديث: «لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ العاضِهة والمُسْتَعْضِهة»[٨]، وفُسِّر: الساحِرة والمستسحِرة[٩]. والمعنى: أكثروا البُهْتَ على القرآن، ونوَّعوا الكذبَ فيه، فقالوا:

---

(١) الوسيط ٣/ ٥٢، والنكت والعيون ٣/ ١٧٣.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠ - ١٣١، ولسان العرب (عضه).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٠٥)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٥، والحاكم ٢/ ٣٥٥.

(٤) الصحاح (عضه).

(٥) ديوانه ص٨١، وبعده: إنَّ لنا هوَّاسةً عِرَبْضا

(٦) الصحاح (عضه).

(٧) هو في غريب الحديث للهروي ٣/ ١٨١، وتهذيب اللغة ١/ ١٣٠، والصحاح واللسان (عضه) دون نسبة.

(٨) أخرجه ابن عدي في التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص٩٤: في إسناده: زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.

(٩) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٥٥.

سحرٌ، وأساطيرُ الأوَّلين، وأنَّه مفترًى، إلى غيرِ ذلك.

ونظيرُ عِضَة في النقصان: شَفَة، والأصل: شفَهَة، كما قالوا: سَنَة، والأصل: سَنْهة، فنقصوا الهاءَ الأصليَّة، وأُثبتت هاءُ العلامَة وهي للتأنيثِ.

وقيل: هو من العَضْه، وهي: النميمةُ. والعَضِيهةُ: البُهتانُ: وهو أن يعضه الإنسانَ ويقول فيه ما ليس فيه. يقال: عَضَهه عَضْهاً: رماه بالبهتان. وقد أعْضَهْتَ: أي: جِئْتَ بالبُهتان. قال الكسائيُّ: العِضَةُ: الكذبُ والبُهتانُ، وجمعها عِضُون؛ مثل عِزَة وعِزُون؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1]. ويقال: عَضَوه، أي: آمنوا بما أَحبُّوا منه وكفروا بالباقي، فأَحبط كفرُهم إيمانَهم. وكان الفرَّاءُ يذهب إلى أنَّه مأخوذٌ مِن العِضاه، وهي شجرُ الوادي، ويَخرج كالشَّوك[2].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنَسئلنَّ هؤلاء الذين جرَى ذِكْرُهم عمَّا عَملوا في الدنيا. وفي البخاريِّ[3]: وقال عِدَّةٌ مِن أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: عن لا إله إلا الله.

قلت: وهذا قد رُويَ مرفوعاً، روى الترمذيُّ الحكيمُ[4] قال: حدثنا الجَارود بنُ معاذ، قال: حدَّثنا الفَضْلُ بنُ موسى، عن شَريك، عن ليث، عن بشير بن نَهيك، عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن رسولِ الله ﷺ في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال: «عن قول: لا إله إلا الله»[5]. قال أبو عبد الله: معناه عندنا: عن

---

(١) الصحاح (عضه).

(٢) ذكر الفرَّاء في معاني القرآن ٢/ ٩٢ أن العضين في كلام العرب: السحر بعينه. وكذا نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٣ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧٤ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤ .

(٣) في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب ١٨ ، قبل حديث (٢٦).

(٤) في نوادر الأصول ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، وهو أبو عبد الله الآتي ذكره.

(٥) أخرجه الترمذي (٣١٢٦)، والطبري في تفسيره ١٤/ ١٣٩ - ١٤٠ ، وهو عند البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٨٦ و ٨/ ١٣٣ . قال الترمذي: هذا حديث غريب.

صِدْقِ: لا إله إلا الله، ووفائِها؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر في تنزيلِه العملَ فقال: ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: عمَّا كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القولُ أيضاً عملَ اللسانِ، فإنَّما المعنيُّ به ما يعرفه أهلُ اللغة أنَّ القولَ قولٌ، والعملَ عملٌ. وإنما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «عن: لا إله إلا الله» أي: عن الوفاءِ بها والصِّدْق لمقالِها. كما قال الحسنُ البصريُّ: ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا الدِّينُ بالتمنِّي، ولكن ما وقَر في القلوبِ وصدَّقَتْه الأعمالُ.

ولهذا[1] قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله مخلصاً؛ دخلَ الجنةَ» قيل: يا رسولَ اللهِ، وما إخلاصُها؟ قال: «أنْ تَحجُزه عن محارمِ الله». رواه زيدُ بنُ أَرقم[2].

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَهِدَ إليَّ ألَّا يأتيَني أحدٌ مِن أمَّتي بلا إلهَ إلا اللهُ، لا يَخْلِطُ بها شيئاً؛ إلا وَجَبت له الجنَّةُ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وما الذي يخلط بلا إلهَ إلا اللهُ؟ قال: «حرصاً على الدنيا، وجَمْعاً لها، ومَنْعاً لها، يقولون قولَ الأنبياء، ويعملونَ أعمالَ الجبابرة»[3].

وروى أنسُ بنُ مالكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنَع العبادَ مِن سَخَطِ اللهِ، ما لم يؤثِروا صفقةَ دنياهم على دينِهم، فإذا آثَروا صفقةَ دنياهم على دينهم، ثم قالوا: لا إله إلا الله، رُدَّتْ عليهم، وقال اللهُ: كذبتُم». أسانيدها في «نوادر الأصول»[4].

قلت: والآيةُ بعمومِها تدلُّ على سؤالِ الجميعِ ومحاسبتِهم كافرِهم ومؤمِنهم، إلا

---

(١) بعدها في (ز) و(د) و(م): ما، والمثبت من (ظ).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٠٧٤) وفي الأوسط (١٢٥٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨ وقال: في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وهو وضَّاع.

(٣) هو في نوادر الأصول ص٢٤٦ ، ولم نقف عليه عند غيره.

(٤) ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، والحديث أخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الزهد ص١٤٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٩٧). قال الرازي في العلل ٢/ ١٢١ - ١٢٢ : هذا خطأ إنما هو سهيل عن مالك بن أنس عن النبي ﷺ مرسل.

مَن دخل الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ على ما بيَّنّاه في كتاب «التذكرة»[(١)].

فإن قيل: وهل يُسْأَلُ الكافرُ ويُحاسَب؟ قلنا: فيه خلافٌ، وذكرناه في «التذكرة»[(١)]. والذي يظهر سؤالُه؛ للآية وقولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] وقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]. فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؟ قلنا: القيامةُ مواطنُ، فموطنٌ يكون فيه سؤالٌ وكلامٌ، وموطنٌ لا يكونُ ذلك فيه. قال عكرمةُ: القيامةُ مواطنُ، يُسْأَلُ في بعضِها، ولا يُسْأَلُ في بعضِها. وقال ابنُ عباسٍ: لا يَسْأَلُهم سؤالَ استخبارٍ واستعلام؛ هل عملتم كذا وكذا؛ لأنَّ اللهَ عالمٌ بكلِّ شيءٍ، ولكن يَسْأَلُهم سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ، فيقول لهم: لِمَ عصيتُم القرآنَ، وما حجَّتُكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القولَ[(٢)]. وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: المؤمنينَ المكلَّفين؛ بيانُه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. والقول بالعمومِ أولى كما ذُكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: بالذي تُؤمَر به، أي: بلِّغ رسالةَ اللهِ جميعَ الخَلْق؛ لتقومَ الحُجَّةُ عليهم، فقد أمَرَك اللهُ بذلك.

والصَّدْعُ: الشَّقُّ. وتصدَّع القومُ، أي: تفرَّقوا، ومنه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يتفرَّقون. وصَدَعْتُه فانْصَدَع: أي: انْشَقَّ. وأصلُ الصَّدْع: الفَرْق والشَّقُّ[(٣)]. قال أبو ذُؤَيب[(٤)] يصف الحمارَ وأُتُنَه:

---

(١) ص١٤٦ - ١٤٧.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤١/٤ - ١٤٢، والبغوي ٥٨/٣ - ٥٩، وزاد المسير ٤١٩/٤ - ٤٢٠.

(٣) ينظر الصحاح، وتهذيب اللغة ٤/٢ - ٦، ولسان العرب (صدع).

(٤) هو: خويلد بن خالد، الهذلي، جاهلي إسلامي. والبيت في ديوان الهذليين ص٦، قال شارحه: الرِّبابة: خرقة تُغطَّى بها القداح، ويقال: الرِّبابة هنا هي القداح، واليَسَر: الذي يضرب بها. ويَصْدَع: يُفرِّق ويصيح.

وكأنَّهنَّ رِبابةٌ وكأنَّه يَسَرٌ يُفيضُ على القِدَاحِ ويَصْدَعُ

أي: يفرِّق ويشقُّ. فقوله: ﴿اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال الفرَّاءُ[1]: أراد: فاصدع بالأمرِ، أي: أَظْهِر دينَك، فـ «ما» مع الفعلِ على هذا بمنزلةِ المصدر. وقال ابنُ الأعرابي[2]: معنى ﴿اصدع بما تؤمر﴾، أي: اقْصِد. وقيل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فرِّق جَمْعَهم وكلمتَهم، بأن تدعوَهم إلى التوحيدِ، فإنَّهم يتفرَّقون؛ بأن يجيبَ البعضُ. فيَرجعَ الصَّدْعُ على هذا إلى صَدْعِ جماعةِ الكفَّار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عن الاهتمامِ باستهزائِهم، وعن المبالاةِ بقولِهم، فقد برَّأك اللهُ عمَّا يقولون. وقال ابنُ عباسٍ: هو منسوخٌ بقولِه: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[3] [التوبة: ٥]. وقال عبدُ اللهِ بنُ عبيد: ما زال النبيُّ ﷺ مستخفياً حتى نزل قولُه تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابُه[4]. وقال مجاهدٌ: أراد الجَهْرَ بالقرآن في الصلاة[5].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا تُبالِ بهم. وقال ابنُ إسحاق[6]: لما تمادَوْا في الشَّرِّ وأكثروا برسولِ الله ﷺ الاستهزاءَ أنزل اللهُ تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. والمعنى: اِصْدَعْ بما تُؤمَر ولا تَخَفْ غيرَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ كافيك مَن آذاك كما كفاكَ المستهزئين.

وكانوا خمسةً من رؤساءِ أهلِ مكَّة، وهم الوليدُ بنُ المغيرة وهو رأسهم، والعاصُ ابنُ وائل، والأسودُ بنُ المطلب بنِ أسدٍ أبو زَمْعَةَ، والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٩٣.

(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٦.

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٥، والأثر أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٥.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٤٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ١٤٣.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٩، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٥ - ١٤٦.

والحارثُ بنُ الطُّلاطِلَة. أهلكهم اللهُ جميعاً قبلَ يومِ بدرٍ في يومٍ واحدٍ؛ لاستهزائِهم برسولِ اللهِ ﷺ[١].

وسببُ هلاكِهم فيما ذكَر ابنُ إسحاقٍ[٢]: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ وهم يَطوفون بالبيت، فقامَ وقامَ رسولُ الله ﷺ، فمرَّ به الأسودُ بنُ المطلِّبِ، فرمَى في وجهِه بورقةٍ خضراءَ فعَمِيَ، ووَجِعت عينُه، فجعل يَضرِبُ برأسِه الجدارَ. ومرَّ به الأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ، فأشار إلى بطنِه، فاستسقى بطنُه، فمات منه حَبَناً؛ يقال: حَبِنَ ـ بالكسر ـ حَبَناً، وحُبِن للمفعول: عَظُمَ بطنُه بالماءِ الأصفرِ، فهو أحبن، والمرأةُ حَبْناء؛ قاله في «الصحاح»[٣]. ومرَّ به الوليدُ بنُ المغيرة، فأشار إلى أَثَرِ جُرْحٍ بأسفلِ كعبِ رِجْله، وكان أصابَه قبل ذلك بسنين وهو يَجُرُّ سَبَلَه[٤]، وذلك أنه مرَّ برجلٍ من خزاعة يَرِيش نَبْلاً له، فتعلَّق سهمٌ من نَبْله بإزارِه فخَدش في رجله ذلك الخدشَ، وليس بشيء، فانتقضَ به، فقتلَه. ومرَّ به العاصُ بنُ وائلٍ، فأشار إلى أَخْمَصِ رِجْله، فخرجَ على حمارٍ له يريد الطائفَ، فرَبَض به على شِبْرِقة[٥]، فدخلت في أَخْمَصِ رِجْله شوكةٌ، فقتلَتْه. ومرَّ به الحارثُ بنُ الطُّلاطِلة، فأشار إلى رأسِه فامتخط[٦] قيحاً، فقتلَه. وقد ذُكر في سببِ موتهم اختلافٌ قريبٌ مِن هذا[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٧٥، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٦، وورد في (م): قيل: يوم بدر.

(٢) في السير والمغازي ص٢٧٣ - ٢٧٤، وينظر سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠، وتفسير الطبري ١٤/ ١٤٦-١٤٧، وتفسير البغوي ٣/ ٥٩.

(٣) الصحاح (حبن).

(٤) السَّبَل: الإزار. تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧.

(٥) الشِّبْرق: نبت حجازي يؤكل وله شوك. النهاية في غريب الحديث (شبرق).

(٦) في (ظ): فامتخض.

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٧ - ١٥٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥ - ٣٧٦، وزاد المسير ٤/ ٤٢٢-٤٢٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٧، ونسبه للطبراني في الأوسط وقال: فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه.

وقيل: إنَّهم المراد بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. شبَّه ما أصابَهم في موتِهم بالسقفِ الواقعِ عليهم؛ على ما يأتي[١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾

هذه صفةُ المستهزئين. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبرُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي: قلبُك؛ لأنَّ الصدرَ محلُّ القلب[٣]. ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بما تسمعه مِن تكذيبِك وردِّ قولِك، وتنالُه وينالُه أصحابُك مِن أعدائك.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فافزع إلى الصلاةِ، فهي غايةُ التسبيحِ، ونهايةُ التقديسِ[٤]؛ وذلك تفسيرٌ لقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، ولا خفاءَ أنَّ غايةَ القُرب في الصلاة حالُ السجود، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ، فأخلِصوا الدعاءَ»[٥]. ولذلك خصَّ السجود بالذِّكْر.

الثانية: قال ابنُ العربي[٦]: ظنَّ بعضُ الناسِ أنَّ المرادَ بالأمْرِ هنا السجودُ نفسُه، فرأى هذا الموضعَ محلَّ سجودٍ في القرآن، وقد شاهدتُ الإمامَ بمحرابِ زكريا مِن

---

(١) في سورة النحل، عند الآية ٢٦ .

(٢) الإملاء (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٤٣٧ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٩٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٦ .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: فأكثروا الدعاء، بدل: فأخلصوا الدعاء.

(٦) أحكام القرآن ٣/ ١١٢٦ .

البيتِ المقدسِ طهَّره اللهُ، يسجد في هذا الموضعِ وسجدتُ معه فيها، ولم يَرَهُ جماهيرُ العلماء.

قلت: قد ذكر أبو بكرٍ النقَّاش أنَّ هاهنا سجدةٌ عند أبي حذيفةَ ويَمان بنِ رِئاب، ورأى أنَّها واجبةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

فيه مسألةٌ واحدةٌ، وهو أنَّ اليقينَ الموتُ. أَمرَه بعبادتِه إذ قصَّر عبادُه في خدمتِه، وأنَّ ذلكَ يجبُ عليه[1].

فإن قيل: فما فائدةُ قولِه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ وكان قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ كافياً في الأَمْرِ بالعبادة؟ قيل له: الفائدةُ في هذا أنَّه لو قال: «واعبد ربك» مطلقاً، ثم عبَده مرَّةً واحدةً، كان مطيعاً؛ وإذا قال: «حتى يأتيك اليقين» كان معناه: لا تُفارِق هذا حتى تموتَ.

فإن قيل: كيف قال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ولم يقل: أبداً؟ فالجوابُ أنَّ «اليقينَ» أبلغُ مِن قولِه: أبداً؛ لاحتمالِ لفظِ الأبدِ للحظةِ الواحدة، ولجميعِ الأبد. وقد تقدَّم هذا المعنى[2].

والمراد: استمرارُ العبادةِ مدَّة حياتِه، كما قال العبدُ الصالحُ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]. ويتركَّب على هذا أنَّ الرجلَ إذا قال لامرأته: أنتِ طالقٌ أبداً، وقال: نويتُ يوماً أو شهراً، كانت عليه الرجعةُ. ولو قال: طلَّقتُها حياتَها، لم يُراجِعْها[3].

والدليل على أنَّ اليقينَ الموتُ حديثُ أمِّ العلاءِ الأنصارية، وكانت مِن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧.
(٢) ٢/ ٢٥٨.
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٢٧.

المبايِعات، وفيه: فقال رسولُ الله ﷺ: «أما عثمانُ ـ أعني عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ ـ فقد جاءه اليقينُ، وإني لأرجو له الخيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفعَل به» وذكَر الحديثَ. انفرد بإخراجِه البخاريُّ[١] رحمه الله!.

وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيز يقول: ما رأيتُ يقيناً أشبَه بالشَّكِّ مِن يقينِ الناسِ بالموت، ثم لا يَسْتَعِدُّونَ له؛ يعني كأنَّهم فيه شاكُّون[٢].

وقد قيل: إنَّ اليقينَ هنا الحقُّ الذي لا ريبَ فيه مِن نصرك على أعدائِك؛ قاله ابن شجرة؛ والأوَّلُ أصحُّ، وهو قول مجاهدٍ وقتادةَ والحسنِ[٣]. والله أعلم.

وقد روى جُبير بنُ نُفير، عن أبي مسلمٍ الخَوْلانيِّ أنَّه سمعَه يقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما أوحيَ إليَّ أن أجمع المالَ وأكونَ من التاجرين، ولكن أُوحيَ إليَّ أن سبِّح بحمدِ ربِّك وكُنْ من الساجدينَ، واعبُد ربَّك حتى يأتيَك اليقينُ»[٤].

تمَّ تفسير سورة الحجر، والحمد لله.

---

(١) في «صحيحه» (٢٦٨٧)، وهو عند أحمد (٢٧٤٥٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤٣) بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٦ ، وأخرجه عنهم الطبري في تفسيره ١٤/ ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣١ ، وهو ضعيف لإرساله، وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٤ عن جبير بن نفير مرسلاً أيضاً، وينظر الكامل لابن عدي ٣/ ٩٣٩ .

سُورَةُ الحِجْر

مَكِّيَّةٌ، وهي تسعٌ وتسعونَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارةُ إلى آياتِ السُّورَةِ، والكتابُ هو السُّورَةُ، وكذا القرآنُ، وتَنكيرُه للتَّفخيمِ؛ أي: تلك آياتُ الجامعِ لكَونِهِ كِتابًا كامِلًا وقرآنًا يبيِّنُ الرُّشدَ مِن الغيِّ بَيانًا عربيًّا.

(٢) - ﴿رُبَّما يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ حين عايَنُوا حالَ المسلمينَ عندَ نُزولِ النَّصرِ أو حلولِ المَوْتِ أو يومَ القِيامةِ.

وقرأ نافعٌ وعاصِمٌ: ﴿رُبَمَا﴾ بالتَّخفيفِ[1]، وقُرِئَ (رَبَما) بالفتحِ والتَّخفيفِ[2].

وفيه ثمانِ لغاتٍ: ضَمُّ الرَّاءِ وفَتحُه مع التَّشديدِ والتَّخفيفِ، وبتاءِ التَّأنيثِ ودونَها.

و(ما) كافَّةٌ تكفُّهُ عَن الجرِّ، فيَجوزُ دخولُه على الفعلِ، وحقُّهُ أن يدخلَ الماضيَ، لكنْ لمَّا كان المترقَّبُ في أخبارِ اللهِ تَعالى كالماضي في تحقُّقِه أُجري مُجراهُ.

وقيل: (ما) نَكِرَةٌ موصوفةٌ، كقوله:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٢) نسبت لأبي قرة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٤).

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْـ ـرِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ[1]

ومَعنى التَّقليلِ فيه: الإيذانُ بأَنَّهُم لو كانوا يَودُّونَ الإسلامَ مَرَّةً فبالحريِّ أَنْ يُسارِعُوا إليه، فكيفَ وهُمْ يودُّونَه كلَّ ساعةٍ؟

وقيل: تُدهِشُهُم أهوالُ يومِ القيامَةِ، فإن كانَتْ مِنْهُم إفاقةٌ في بعضِ الأوقاتِ تمنَّوْا ذلك، والغَيبةُ في حكايةِ وِدادَتِهم كالغَيبَةِ في قولك: حلفَ باللهِ ليَفْعَلَنَّ.

(٣) ـ ﴿ذَرْهُمْ﴾: دَعْهُم ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدُنياهُم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: ويشغلهُمْ تَوقُّعُهم لطولِ الأعمارِ واستِقامَةِ الأَحوالِ عَن الاستعدادِ للمَعادِ.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوءَ صَنيعِهِم إذا عايَنُوا جزاءَهُ.

والغَرضُ: إِقناطُ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ مِن ارعوائِهِم، وإيذانُهُ بأَنَّهُم مِن أَهلِ الخذلانِ، وأن نصحَهُم يُعدُّ اشتغالاً بما لا طائِلَ تحتَهُ، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ[2]، وتحذيرٌ عَن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يؤدِّي إليه طولُ الأملِ.

(٤) ـ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أجلٌ مُقدَّرٌ كُتِبَ في اللَّوحِ المحفوظِ، والمُستثنَى جملةٌ واقِعَةٌ صِفةً لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، والأصلُ أَنْ لا يدخلَهَا الواوُ، كقولِه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، لكن لَمَّا شابَهَت صورتُها صورةَ الحالِ أُدخِلَت عليها تأكيدًا للُصوقِهَا بالمَوْصوفِ.

(٥) ـ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: وما يَستأخِرونَ عنه، وتذكيرُ ضَميرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ فيه للحَملِ على المَعنى.

---

(١) عزاه البحتري في «الحماسة» (١/ ٤٣٧) إلى أمية بن الصلت، وفي «الحماسة البصرية» (٢/ ٧٨) لحنيف بن عمير اليشكري، ونهار ابن أخت مسيلمة الكذاب.

(٢) أي: في قولِه: ﴿ذَرْهُمْ﴾.

(٦) ـ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ نادَوا بهِ النبيَّ عليهِ السَّلام علـى التَّهكُّمِ، ألا تَرى إلى ما نادَوهُ لـه وهـو قـولُه: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ونظيرُ ذلك قـولُ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، والمعنى: إنَّك لَتقولُ قولَ المَجانينِ حينَ تَدَّعِي أنَّ اللهَ نزَّلَ عليكَ الذِّكرَ؛ أي: القرآنَ.

(٧) ـ ﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا ﴾ ركِّبَ (لو) مع (ما) كما رُكِّبَ مـع (لا) لِمَعنيينِ: امتناعِ الشَّيءِ لوُجودِ غَيرِه، والتَّخصيصِ.

﴿بِالْمَلَائِكَةِ ﴾ ليصدِّقـوكَ ويَعضدوكَ على الدَّعـوةِ، كقولِه: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]، أو للعقـابِ علـى تكذيبِنـا لـك كمـا أَتَـت الأُمَـمَ المُكذِّبَـةَ قبلُ.

﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواكَ.

(٨) ـ ﴿ما يُنزِّلُ الملائكةَ﴾ بالياءِ مُسندٌ إلى ضَميرِ اسمِ اللهِ[1].

وقرَأ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالنُّونِ، وأبو بكرٍ بالتَّاءِ والبناءِ للمَفعولِ ورفعِ ﴿الملائِكَةُ﴾.

وقُرِئَ ﴿تَنَزَّلُ﴾ بمعنى: تَتنزَّلُ[2].

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: إلا تنزيلًا مُلتَبِسًا بالحقِّ؛ أي: بالوجهِ الذي قدَّرَه واقتَضَتْه حِكمَتُه، فلا حكمةَ في أنْ تأتِيَكُم بصوَرٍ[3] تُشاهدونَها فإنَّه لا يَزيدُكُم إلا لبسًا، ولا

---

(١) وأورد عليه أنّ قراءة الياء لم يقرأ بها أحد من العشرة، ولم توجد في الشواذ أيضًا، والمصنف رحمه الله تعالى بنى تفسيره عليها، وحكى قراءة السبعة بصيغة التمريض. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) وهذه الأخيرة هي لباقي السبعة. انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٥).

(٣) في نسخة الخيالي: «بصورة».

في مُعاجَلَتِكُم بالعُقوبَةِ فإنَّ مِنكُم ومِن ذَراريكُم مَن سَبَقَت كَلِمَتُنا له بالإيمانِ، وقيل: الحقُّ: الوَحْيُ أو العَذابُ.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ جوابٌ لهم وجَزاءٌ لشَرطٍ مُقدَّرٍ؛ أي: ولو نَزَّلْنا المَلائِكَةَ ما كانوا مُنظَرينَ.

(٩) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾: القرآنَ، رَدٌّ لإنكارِهِم واستِهزائِهِم، ولذلك أكَّدَهُ مِن وُجوهٍ وقَرَّرهُ بقولِه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ أي: مِن التَّحريفِ والزِّيادَةِ والنَّقصِ بأَنْ جَعلناه مُعجِزًا مُبايِنًا لكلامِ البَشرِ بحيث لا يخفى تَغييرُ نَظمِه على أَهلِ الدِّينِ، أو نَفَى تطرُّقَ الخللِ إليه في الدَّوامِ بضمانِ الحِفظِ له كمَا نَفَى أن يُطعنَ فيه بأنَّه المنزلُ له[1].

وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ.

(١٠) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: في فِرَقِهِم، جمعُ شِيعَةٍ، وهي الفِرقَةُ المُتَّفِقَةُ على طريقٍ ومَذهَبٍ، مِن شاعَهُ: إذا تَبِعَهُ، وأصلهُ: الشِّياعُ، وهو الحَطَبُ الصِّغَارُ يُوقَدُ به الكبارُ، والمعنى: نَبَّأْنا رِجالًا فيهِمْ وجَعلناهُمْ رُسُلًا فيما بَيْنَهُم.

(١١) ـ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كمَا يفعَلُ هؤلاءِ، وهو تَسليَةٌ للنَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، و(ما) للحالِ لا يدخلُ إلا مضارعًا بمعنى الحالِ، أو ماضيًا قريبًا منه[2]، وهذا على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

(١٢) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾: نُدخِلُه ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسَّلْكُ: إدخالُ

---

(١) في نسخة الخيالي: «إليه».

(٢) وهذا بناء على ما ذهب إليه الزمخشري من أنها مع المضارع لنفي الحال، ومع الماضي لنفي الماضي القريب من الحال، وهو أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، فإنها جاءت لنفي المضارع في المستقبل، كقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾. انظر: «حاشية الشهاب».

الشَّـيءِ في الشَّـيءِ كالخَيْطِ في المِخْيَطِ والرُّمحِ في المَطعونِ، والضَّميرُ للاسـتهزاءِ، وفيـه دليلٌ عَلـى أنَّه تَعالـى يُوجِـدُ الباطلَ فـي قُلوبِهِم.

(١٣) ـ وقيل: للذِّكرِ، فإنَّ الضَّميرَ الآخرَ في قولِه تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ له، وهو حالٌ مِن هذا الضَّميرِ[١]، والمعنى: مِثْلَ ذلك السَّلكِ نَسلكُ الذِّكرَ في قلوبِ المُجرمينَ مكذَّبًا غير مؤمَنٍ به، أو بيانٌ للجُملةِ المُتضمِّنَةِ له[٢].

وهذا الاحتجاجُ ضَعيفٌ؛ إذ لا يلزَمُ مِن تَعاقُبِ الضَّمائرِ توافُقُها[٣] في المرجوعِ إليهِ، ولا يَتعيَّنُ أن تكونَ الجُملَةُ حالًا من الضَّميرِ؛ لجوازِ أَنْ تكونَ حالًا من الضميرِ في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، ولا يُنافي كونَها مُفسِّرَةً للمَعنى الأولِ، بل يقوِّيهِ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: سُنَّةُ اللهِ فيهِمْ بأَنْ خذلَهُم وسَلَكَ الكُفرَ في قُلوبِهِم، أو: بإهلاكِ مَن كذَّبَ الرُّسُلَ مِنْهُم؛ فيكونُ وَعيدًا لأهلِ مَكَّةَ.

(١٤) ـ ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾؛ أي: على هؤلاءِ المُقْترِحِينَ ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: يَصعَدونَ إِلَيْها ويَرَوْنَ عَجائِبَها طولَ نَهارِهِم مُستَوْضِحينَ لِمَا يرونَ، أو: تصعدُ الملائِكَةُ وهُم يُشاهِدونَهُم.

(١٥) ـ ﴿ لَقَالُوٓاْ ﴾ مِن غُلُوِّهِم في العِنادِ وتَشكيكِهِم في الحَقِّ ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾: سُدَّتْ عن الإبصارِ بالسِّحرِ، مِن السَّكْرِ، ويدلُّ عليهِ قراءةُ ابنِ كثيرٍ بالتَّخْفيفِ[٤].

---

(١) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ «حال من هذا الضمير»؛ أي: ضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ على القول بأنه للذِّكر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٥)

(٢) قوله: «أو بيان» عطف على (حالٌ) «للجملة المتضمِّنة له»؛ أي: وهي قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٥)

(٣) في نسخة الخيالي: «من تعاقب الضميرين توافقهما».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

أو حُيِّرَتْ مِن السُّكْرِ، ويدلُّ عليه قراءَةُ من قرأ: (سَكِرَت)[١].

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: قَدْ سَحَرَنا مُحمَّدٌ بذلك، كما قالوه عندَ ظُهورِ غيرِه مِن الآياتِ.

وفي كَلِمَتي الحصْرِ والإضرابِ دلالةٌ على البَتِّ بأنَّ ما يَرَوْنَه لا حقيقةَ له، بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهِمْ بنوعٍ مِن السِّحرِ.

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: اثنَيْ عشرَ مُختلفةَ الهيئاتِ والخَواصِّ على ما دلَّ عليه الرَّصدُ والتَّجرِبَةُ مع بَساطةِ السَّماءِ.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بالأشكالِ والهيئاتِ البَهيَّةِ ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ للمُعتَبِرينَ المُستَدِلِّينَ بها على قُدرَةِ مُبدِعِها وتَوحيدِ صانِعِها.

(١٧) ـ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يَقدِرُ أن يَصعدَ إليها ويوسوسَ أهلَها، ويَتصرَّفَ في أمرِها، ويَطَّلِعَ على أحوالِها.

(١٨) ـ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ بدلٌ مِن ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ﴾، واستِراقُ السَّمعِ: اختِلاسُه سِرًّا، شبَّهَ بهِ خَطْفَتَهُم اليسيرةَ مِن قُطَّانِ السَّماواتِ لِمَا[٢] بينَهُم مِن المُناسبةِ في الجوهرِ، أو بالاستدلالِ مِن أوضاعِ الكَواكبِ وحَرَكاتِها.

وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّهُم كانوا لا يُحجبونَ عَن السَّماواتِ، فلمَّا وُلِدَ عيسى مُنعوا مِن ثلاثِ سماواتٍ، فلمَّا وُلِدَ محمَّدٌ عليهِ السَّلامُ مُنِعُوا مِن كلِّها بالشُّهُبِ[٣].

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣) عن الزهري.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «بما».

(٣) ذكر نحوه عن ابن عباس السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٣٦)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٥٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٧٢)، والرازي في «تفسيره» (١٩/ ١٣٠). وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٥٢) عن الكلبي.

ولا يَقدحُ فيه تَكوُّنُها قبلَ المولدِ؛ لجَوازِ أن يكونَ لها أسبابٌ أُخَرُ[١].

وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ؛ أي: ولكنْ مَن استرقَ السَّمعَ.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: فتبِعَهُ ولَحِقَه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهرٌ للمُبصِرينَ.

والشِّهابُ: شُعلَةُ نارٍ ساطعَةٌ، وقد يطلقُ للكوكبِ والسِّنَانِ لِمَا فيهما مِن البَريقِ.

(١٩) ـ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾: بَسَطْناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا ثوابِتَ ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾: في الأرضِ، أو فيها وفي الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾: مُقدَّرٌ بِمقدارٍ مُعيَّنٍ تقتَضيهِ حِكمَتُه، أو: مُستحسَنٍ مُناسِبٍ، مِن قولِهم: كلامٌ مَوزونٌ، أو: ما يُوزَنُ ويُقدَّرُ، أو: له وزنٌ في أبوابِ النِّعمَةِ والمنفعَةِ.

(٢٠) ـ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ تعيشونَ بها مِن المَطاعِمِ والمَلابسِ، وقُرِئَ بالهَمزِ[٢] على التَّشبيهِ بـ(شَمائلَ).

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، أو على محلِّ ﴿لَكُمْ﴾ ويريدُ بـه: العِيالَ والخَدَمَ والمَماليكَ وسائرَ ما يَظنُّونَ أنَّهُم يرزقونَهُم ظنًّا كاذبًا، فإنَّ اللهَ يرزقُهُم وإيَّاهُم.

وفَذْلَكَةُ الآيـةِ[٣]: الاستدلالُ بجعلِ الأرضِ ممدودةً بِمقدارٍ وشكلٍ مُعيَّنَيْنِ،

---

(١) قوله: «ولا يقدح فيه»؛ أي: في مَنعِهم مِن كلِّها بالشُّهب، وفي نسخة: (فيها) (تكوُّنُها)؛ أي: الشهب «لجواز أن يكون لها»؛ أي: للشُّهُبِ؛ أي: لتكوُّنِها، «أسباب أُخر»؛ أي: غيرُ استراقِ السَّمعِ؛ كالزِّينةِ، والاستدلالِ على الوحدانية، والاهتداءِ للطُّرُق. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٧)

(٢) ذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٢/ ٣٢١)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٢/ ٣٧٧)، عن نافع، وهي خلاف المشهور عنه. وذكروها جميعهم عند الآية (١٠) من سورة الأعراف.

(٣) أي: محصلها وإجمالها.

مُختلفةَ الأَجزاءِ في الوَضعِ، محدَثةً فيها أَنواعُ النَّباتِ والحيوانِ المُختَلِفَةِ خلقةً وطَبيعةً، مع جوازِ أَنْ لا تكونَ كذلك= على كَمالِ قُدرَتِه وتَناهِي حِكمَتِه والتَّفرُّدِ في أُلوهِيَّتِه، والامتنانُ على العبادِ بما أنعمَ عَلَيهِم في ذلك ليُوَحِّدُوهُ ويَعبُدُوهُ، ثمَّ بالغَ في ذلكَ وقال:

(٢١) ـ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾؛ أي: وما مِن شَيءٍ إلا ونحنُ قادِرونَ على إيجادِهِ وتَكوينِهِ أضعافَ ما وُجِدَ مِنْه، فضرَبَ الخَزائنَ مَثَلًا لاقتدارِه، أو شَبَّهَ مَقدُوراتِهِ بالأَشياءِ المَخزونَةِ التي لا يُحْوِجُ إخراجُها إلى كُلفةٍ واجتِهادٍ.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ ﴾ مِن يَفَاعِ[١] القدرةِ ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ حَدَّهُ الحكمَةُ[٢] وتَعلَّقَتْ به المَشيئَةُ، فإنَّ تَخصيصَ بَعضِهَا بالإيجادِ في بَعضِ الأَوقاتِ على بعضِ الصِّفاتِ والحالاتِ لا بُدَّ له مِن مُخصِّصٍ حَكيمٍ.

(٢٢) ـ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾: حوامِلَ، شبَّهَ الرِّيحَ التي جاءَتْ بخَيرٍ مِن إنشاءِ سَحابٍ ماطِرٍ بالحاملِ، كما شبَّهَ ما لا يكونُ كذلك بالعَقيمِ.

أو: مُلقِّحاتٍ للشَّجرِ والسَّحابِ، ونظيرُه: الطَّوائِحُ بمَعنى: المُطيحاتِ في قولِه:

ومُختبِطٌ ممَّا تُطيحُ الطَّوائِحُ[٣]

---

(١) كلمة: «يفاع» كتب تحتها في نسخة التفتازاني: «اليفاع: ما ارتفع. صحاح». وانظر: «الصحاح» (مادة: يفع). قال الخفاجي: وهوَ استعارَة لعظمَةِ قُدرته.

(٢) قوله: «حده الحكمة» يحتملُ أن يكون (حدًّا) مصدراً مضافاً إلى الضمير على أنه مبتدأٌ خبرُه: «الحكمةُ»، وأن يكون فعلاً و«الحكمةُ» فاعلُه، وعليه فالأَولى: حدَّتْه الحكمةُ؛ أي: بيَّنَتْه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٩٧). وقال الخفاجي: (حَدَّه الحكمةُ) بلفظِ الماضي؛ أي: جعلت لهُ حدًّا.

(٣) صدره:

لِيُبْكَ يَزيدُ ضارِعٌ لخُصومَةٍ

عزاه سيبويه في «الكتاب» (١/ ٢٨٨)، وأبو علي الفارسي في «الإيضاح العضدي» (ص: ٧٤) =

وقرئ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ ﴾ على تأويلِ الجنسِ(١).

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: فجعلناه لكم سُقْيًا ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: قادرينَ مُتمكِّنينَ من إخراجِه، نفى عَنْهُم ما أثبتَهُ لنفسِه(٢)، أو: حافظينَ في الغُدرانِ والعُيونِ والآبارِ، وذلك أيضًا يدلُّ على المدبِّرِ الحَكيمِ، كما تدلُّ حركةُ الهَواءِ في بعضِ الأوقاتِ مِن بعضِ الجهاتِ على وجهٍ يَنتفعُ به النَّاسُ، فإنَّ طَبيعةَ الماءِ تَقتَضِي الغَوْرَ، فوقوفُه دونَ حدٍّ لا بُدَّ له مِن سببٍ مخصِّصٍ.

(٢٣) ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ ﴾ بإيجادِ الحَياةِ في بعضِ الأجسامِ القابلةِ لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالَتِها، وقد أوَّلَ الحياةَ بما يَعُمُّ الحيوانَ والنَّباتَ، وتكريرُ الضَّميرِ للدَّلالةِ على الحصرِ.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الباقونَ إذا ماتَ الخَلائِقُ كلُّها.

= للحارث بن نهيك النهشلي، وعزاه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٤٨) لنهشل بن حري، وغزاه أبو علي القيسي في «إيضاح» (١/ ١٠٩) لمزرد أخي الشماخ، وعزاه علي بن عدلان في «الانتخاب» (ص: ٣٠) للحارث بن ضرار، وعزاه ابن هشام في «تخليص الشواهد» للبيد (ص: ٤٨٠).

وهو بلا نسبة في «المقتضب» (٣/ ٢٨٢)، و«الخصائص» (٢/ ٣٥٣).

قال الشهاب الخفاجي في «الحاشية»: هو من شعر في رثاء يزيد النهشلي. قال: والمختبط طالب العرف المحتاج، وأصله من خبط ورق الأشجار لتأكلها الدواب، وإنما يُفعل ذلك في الجدب وشدّة الاحتياج، وتطيح بمعنى: ترمي، والطوائح: جمع المطيحة بمعنى السنين أو الجوائح الرامية له، أو جمع طائحة على التجوُّز.

(١) هي قراءة حمزة. انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«التيسير» (ص: ٧٨).

(٢) أي: في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾.

(٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: مَن استَقْدَمَ ولادةً ومَوْتًا ومَن استَأْخرَ، أو: مَن خرجَ مِن أَصلابِ الرِّجالِ ومَن لم يخرُجْ بَعدُ، أو: مَن تَقدَّمَ في الإسلامِ والجهادِ وسبقَ إلى الطَّاعةِ أو تأخَّرَ، لا يَخْفَى عَلَينا شيءٌ مِن أَحوالِكُم. وهو بيانٌ لكمالِ علمِهِ بعدَ الاحتجاجِ على كمالِ قُدرَتِه، فإنَّ ما يدلُّ على قُدرتِهِ دليلٌ[1] على علمِهِ.

وقيل: رَغَّبَ رسولُ اللهِ ﷺ في الصفِّ الأوَّلِ فازدَحَمُوا عليه، فنزلَتْ[2].

وقيل: إنَّ امرأةً حَسناءَ كانَتْ تُصَلِّي خلفَ رَسولِ اللهِ ﷺ، فتَقدَّمَ بعضُ القَوْمِ لئلَّا ينظُرَ إليها وتأخَّرَ بعضٌ ليُبصِرَها، فنَزَلَتْ[3].

(٢٥) ـ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالةَ للجَزاءِ، وتوسيطُ الضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّه القادرُ والمُتولِّي لحشرِهم لا غيرُه، وتصديرُ الجُملَةِ بـ﴿إنَّ﴾ لتَحقيقِ الوَعدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سبقَ مِن الدَّلالةِ على كمالِ قُدرَتِه وعِلمِهِ بتَفاصيلِ الأَشياءِ يدلُّ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «يدل».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٦) والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٦) عن الربيع بن أنس وهو مرسل. وأورده الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ١٧٢) من رواية الكلبي عن ابن عباس، وابنُ الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٥٣٢) من رواية أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جداً؛ لأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) رواه الترمذي (٣١٢٢)، والنسائي في (٨٧٠)، وابن ماجه (١٠٤٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٤٦) وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص». ورواه الترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن أبي الجوزاء دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: وهذا أشبه أن يكون أصح. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: غريب جدًّا وفيه نكارة شديدة.

على صِحَّةِ الحُكمِ، كما صرَّحَ بِهِ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ باهرُ الحِكمَةِ مُتقِنٌ في أفعالِه ﴿عَلِيمٌ﴾ وَسِعَ عِلمُهُ كلَّ شيءٍ.

(٢٦) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾: طينٍ يابسٍ يُصلصِلُ؛ أي: يُصَوِّت إذا نُقِرَ. وقيل: هو مِن صَلْصَلَ: إذا أنتنَ، تَضعيفُ صَلَّ.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾: طينٍ تَغيَّرَ واسوَدَّ مِن طولِ مجاورةِ الماءِ، وهو صِفَةُ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾؛ أي: كائنٍ مِن حمأٍ ﴿مَّسْنُونٍ﴾: مُصَوَّرٍ، مِن سُنَّةِ الوَجْهِ[1]، أو: مَصبوبٍ لِيَيْبَسَ ويَتصَوَّرَ كالجواهرِ المُذابَةِ تُصبُّ في القَوالبِ، مِن السَّنِّ: وهو الصَّبُّ، كأنَّه أفرغَ الحمَأَ فصوَّرَ مِنه تمثالَ إنسانٍ أجوَفَ، فيَبِسَ حَتَّى إذا نُقِرَ صلصَلَ، ثمَّ غيَّرَ ذلك طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ حتَّى سَوَّاهُ ونفخَ فيهِ مِن رُوحِهِ. أو: مُنتنٌ؛ مِن سَنَنْتُ الحجرَ على الحجر: إذا حَكَكْتَه بِهِ، فإنَّ ما يسيلُ بَيْنَهُمَا يكونُ مُنْتِنًا، وسُمِّيَ سَنِينًا.

(٢٧) ـ ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾: أبا الجنِّ، وقيل: إبليسَ، ويجوزُ أَنْ يرادَ به الجنسُ كما هوَ الظَّاهرُ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ لأنَّ تَشعُّبَ الجنسِ لَمَّا كانَ مِن شَخصٍ واحِدٍ خُلقَ مِن مادَّةٍ واحِدَةٍ كانَ الجنسُ[2] بأَسْرِهِ مَخْلُوقًا منها.

وانتصابُهُ بفعلٍ يفسِّرُهُ: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبلِ خلقِ الإنسانِ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾: مِن نارِ الحَرِّ الشَّديدِ النَّافذِ في المَسامِّ، ولا يَمْتَنِعُ خلقُ الحَياةِ في الأَجرامِ البَسيطَةِ كما لا يَمتَنِعُ خَلقُها في الجَواهِرِ المجرَّدَةِ فَضْلًا عَن الأَجسادِ المؤلَّفَةِ التي الغالبُ فيها الجزءُ النَّاريُّ، فإنَّها أقبَلُ لها مِن التي الغالِبُ فيها الجُزءُ الأَرضيُّ[3]،

---

(١) «سنة الوجه»: صورته؛ كما في «الصحاح» (مادة: سنن)، واستشهد بقول ذي الرُّمة:

تريكَ سُنَّةَ وجهٍ غيرَ مُقرَفةٍ ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ

(٢) في نسخة الخيالي: «لأن تشعب الجن... كان الجن».

(٣) قوله: «فإنها»؛ أي: الأجسادَ المؤلَّفَةَ التي الغالبُ فيها الجزءُ الناريُّ كالجانِّ «أقبلُ لها»؛ أي: للحياةِ «من التي الغالبُ فيها الجزءُ الأرضي» كالآدميِّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠١).

وقوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبارِ الغالِبِ، كقولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠][1].

ومَساقُ الآيةِ كمَا هو للدَّلالَةِ على كَمالِ قُدرَةِ اللهِ وبيانِ بَدءِ[2] خَلْقِ الثَّقلينِ، فهو للتَّنبيهِ على المُقدِّمَةِ الثَّانيَةِ التي يَتوقَّفُ عليها إمكانُ الحَشرِ، وهو قبولُ المَوادِّ للجَمعِ والإحياءِ.

(٢٨ ـ ٢٩) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكُرْ وقتَ قولِه ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: عَدَّلتُ خلقتَهُ وهَيَّأتُه لنَفخِ الرُّوحِ فيه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ حتَّى جَرى آثارُهُ في تَجاويفِ أعضائِهِ فحَيِيَ.

وأَصْلُ النَّفخِ: إجراءُ الرِّيحِ في تَجويفِ جِسْمٍ آخرَ، ولَمَّا كانَ الرُّوحُ يَتعلَّقُ أَوَّلًا بالبُخارِ اللَّطيفِ المُنبعِثِ مِن القَلبِ، وتَفيضُ عليه القُوَّةُ الحَيوانيَّةُ فيَسري حامِلًا لها في تَجويفِ[3] الشَّرايينِ إلى أعماقِ البَدنِ، جعلَ تعلُّقَهُ بالبدنِ نَفْخًا، وإضافَةُ الرُّوحِ إلى نَفسِهِ لِمَا مرَّ في (النِّساءِ).

﴿فَقَعُوا﴾: فاسقُطوا ﴿لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ أَمْرٌ مِن وَقَعَ يَقَعُ.

(٣٠) ـ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكَّدَ بتأكيدينِ للمُبالَغَةِ في التَّعميمِ ومَنعِ التَّخصيصِ.

وقيل: أكَّدَ بالـ(كُلِّ) للإحاطَةِ، وبـ(أجمعينَ) للدَّلالةِ على أنَّهم سَجدُوا مُجتمِعينَ دفعةً، وفيه نَظَرٌ؛ إذ لو كانَ الأَمرُ كذلك كانَ الثَّاني حالًا لا تأكيدًا.

---

(١) قوله: «وقوله: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبار الغالب»؛ أي: وإلا فالجانُّ خُلِقَ من العناصر الأربعة «كقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]»؛ أي: في أنَّ ذكرَ الترابِ في آدمَ باعتبار الغالبِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠١).

(٢) في نسخة الخيالي: «مبدأ»، وفي نسخة التفتازاني: «بدو»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «تجاويف»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٣١) ـ ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ﴾ إنْ جُعلَ منقطعًا اتَّصلَ به قولُه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾؛ أي: ولكنَّ إبليسَ أَبى، وإنْ جُعِلَ مُتَّصِلًا كانَ استِئْنافًا على أنَّه جَوابُ سَائلٍ قال: هَلَّا سَجَدَ.

(٣٢) ـ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ ﴾: أيُّ غَرَضٍ لك في أَنْ لا تَكونَ ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ لآدمَ؟

(٣٣) ـ ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ ﴾ اللامُ لتَأكيدِ النَّفيِ؛ أي: لا يَصِحُّ مِنِّي ويُنافِي حالي أَنْ أَسجُدَ ﴿لِبَشَرٍ ﴾ جِسْمانيٍّ كَثيفٍ، وأنا مَلَكٌ روحانِيٌّ.

﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾ وهو أَخسُّ العَناصرِ، وخلقْتَني مِن نارٍ وهيَ أَشرَفُها.

استَنْقَصَ آدمَ عليهِ السَّلامُ باعتبارِ[1] النَّوعِ والأَصلِ، وقَدْ سبقَ الجَوابُ عنه في (سُورَةِ الأَعرافِ).

(٣٤) ـ ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا ﴾: مِن السَّماءِ، أو: الجنَّةِ، أو: زُمْرةِ[2] الملائكَةِ.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾: مَطرودٌ مِن الخَيرِ والكَرامَةِ، فإنَّ مَن يُطرَدُ يُرجَمُ بالحجرِ، أو: شَيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُبِ، وهو وعيدٌ يَتضمَّنُ الجَوابَ عَن شُبهَتِهِ.

(٣٥) ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ ﴾ هذا الطَّردَ والإبعادَ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فإنَّه مُنتَهى أَمَدِ اللعنِ، فإنَّه يُناسِبُ أيامَ التَّكليفِ، ومنه زَمانُ الجَزاءِ، وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فبمَعنًى آخرَ يُنسى عِندَه هذه[3].

---

(١) في نسخة الخيالي: «بحسب».

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «زمر».

(٣) قوله: «فإنه منتهى أمد اللعن»؛ أي: اللعن بمعنى الطَّرْدِ والإبعادِ؛ أي: المجرد عن العقاب «يناسب =

وقيل: إنَّما حدَّ اللعنَ بهِ لأنَّهُ أَبعَدُ غايةٍ يَضرِبُها النَّاسُ[1]، أو: لأنَّهُ يُعذَّبُ فيه بما يُنسَى اللَّعنُ معه فيَصيرُ كالزَّائلِ.

(٣٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾: فأَخِّرْني، والفاءُ مُتعلِّقَةٌ بمَحذوفٍ دَلَّ عليهِ ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أرادَ أن يَجِدَ فُسحةً في الإغواءِ ونَجاةً عَن الموتِ؛ إذ لا موتَ بعدَ وَقتِ البعثِ، فأجابَهُ إلى الأوَّلِ دونَ الثَّاني.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المُسمَّى فيه أجلُكَ عِندَ اللهِ، أو: انقراضِ النَّاسِ كُلِّهِم، وهو النَّفخَةُ الأُولى عندَ الجُمهورِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ المُرادُ بالأَيَّامِ الثَّلاثَةِ يومَ القِيامَةِ، واختلافُ العباراتِ لاختلافِ الاعتِباراتِ، فعبَّرَ عنه أوَّلًا بيومِ الجَزاءِ لِمَا عَرفتَه، وثانيًا بيومِ البَعثِ إذ به يَحصُلُ العِلمُ بانقِطاعِ التَّكليفِ واليَأسُ عَن التَّضليلِ، وثالثًا بالمَعلومِ لوقوعِهِ في الكَلامينِ، ولا يلزَمُ من ذلك أن لا يموتَ، فلعلَّهُ يَموتُ أَوَّلَ اليَومِ ويبعثُ الخَلائقَ في تَضاعيفِهِ، وهذه المُخاطَبَةُ وإن لم تَكُن بواسِطَةٍ لم تَدُلَّ على مَنصِبِ إبليسَ؛ لأنَّ خِطابَ اللهِ له على سَبيلِ الإهانَةِ والإذلالِ.

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباءُ للقَسَمِ، و(ما) مَصدريَّةٌ، وجوابُه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: أقسِمُ بإغوائِكَ إيَّايَ لأُزَيِّنَنَّ لَهُم المَعاصِيَ في

= أيام التكليف» أما اللَّعنُ بمعنى التعذيبِ فإنما يناسب دار الجزاء، (ومنه)؛ أي: من يوم الدِّين؛ أي: زمانِه (زمان الجزاء)؛ أي: الذي يقعُ فيه التعذيبُ «وما في قوله: ﴿فَأَذَّنَ﴾...إلى آخره» جوابُ ما يقال: كيف غَيَّا اللعنةَ بيومِ الدِّين مع أنه أثبتَها فيه بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟ فأجاب: بأنها ثَمَّ «بمعنًى آخرَ» غيرِ الطَّرد والإبعاد، وهو التعذيبُ الذي (تُنسى عنده) اللعنةُ بمعناهما، وهي ما أشار إليه بقوله: «هذه». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٣).

(١) في نسخة التفتازاني: «الإنسان».

الدُّنيا التي هي دارُ الغُرورِ، كقولِه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وفي انعقادِ القَسَمِ بأَفعالِ اللهِ تَعالى خلافٌ.

وقيل: للسَّببيَّةِ.

والمُعتزلةُ أَوَّلُوا الإغواءَ بالنِّسبَةِ إلى الغيِّ، أو التَّسبُّبِ له بأَمرِهِ إيَّاه بالسُّجودِ لآدمَ عليهِ السَّلامُ، أو بالإضلالِ عَن طَريقِ الجنَّةِ[1]، واعتذَرُوا عَن إمهالِ اللهِ له ـ وهو سَببٌ لزيادةِ غيِّهِ وتَسليطٌ له على إغواءِ بَنِي آدمَ ـ بأنَّ اللهَ تَعالى عَلِمَ مِنْه وممَّنْ تَبِعَه أنَّهم يَموتونَ على الكُفْرِ ويَصيرونَ إلى النَّارِ، أُمهِلَ أو لم يُمْهَلْ، فإنَّ في إمْهَالِه تعريضًا لِمَن خالفَهُ لاستِحقاقِ مزيدِ الثَّوابِ، وضَعْفُ ذلك لا يَخْفَى على ذَوِي الأَلبابِ[2].

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: ولأَحمِلَنَّهُم أَجْمَعِينَ علَى الغِوَايَةِ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: أَخْلَصْتَهُم لطاعَتِكَ وطَهَّرْتَهُم مِن الشَّوائبِ فلا يَعمَلُ فيهم كيدِي.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو بالكسرِ في كُلِّ القُرآنِ[3]؛ أي: الذين أَخلصُوا نُفوسَهُم للهِ.

---

(١) قوله: «والمعتزلة» القائلون بأن العبد يُوجِدُ أفعالَه بنفسه «أوَّلوا الإغواء» الذي هو مِن ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ كالصريحِ في أن الموجدَ له هو اللهُ «بالنسبة إلى الغي» المترتِّبِ على الإغواء، لا إلى الإغواء نفسه، «أو التسبب له»؛ أي: للغيِّ (بأمره) متعلق بـ(التسبُّبِ)، «أو بالإضلال» عطف على (بالنسبة). انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٥).

(٢) قوله: «وضعفُ ذلك..»؛ أي: ما ذُكِر من التأويل والاعتذار؛ لما ثبتَ أن الموجدَ للأشياءِ هو اللهُ، وأنَّ له أن يفعلَ ما يشاءُ، فلا يحتاجُ إلى تأويلٍ واعتذار، معَ أن التأويلَ بالإضلال مُحْوِجٌ على مذهبهم إلى تأويلٍ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٥).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٨).

(٤١) - ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ ﴾: حقٌّ عليَّ أَنْ أُراعِيَه[1] ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحرافَ عنه، والإشارةُ إلى ما تَضمَّنَه الاستِثناءُ، وهو تخلُّصُ المخلَصينَ مِن إغوائِه، أو الإخلاصِ على معنى: أنَّه طريقٌ عليَّ يُؤدِّي إلى الوُصولِ إليَّ مِن غيرِ اعوجاجٍ وضَلالٍ.

وقُرِئَ ﴿عَلِيٌّ﴾ مِن عُلوِّ الشَّرفِ[2].

(٤٢) - ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ تصديقٌ لإبليسَ فيما استثناه، وتَغييرُ الوَضْعِ لتعظيمِ المُخلَصِينَ، ولأنَّ المقصودَ بيانُ عِصمَتِهم وانقطاعِ مَخالبِ الشَّيطانِ عنهم، أو: تكذيبٌ له فيما أوهمَ أنَّ له سُلطانًا على مَن ليسَ بمُخلَصٍ مِن عبادِه، فإنَّ مُنتَهى تَزيينِهِ التَّحريضُ والتَّدليسُ، كمَا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى هذا يكونُ الاستِثناءُ مُنقَطِعًا، وعلى الأوَّلِ يُدْفَعُ قولُ مَن شَرطَ أَنْ يكونَ المُستثنى أقلَّ مِن الباقي لإفضائِهِ إلى تَناقُضِ الاستثناءين.

(٤٣) - ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾: لَموعِدُ الغاوينَ أو المُتَّبِعينَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ، أو حالٌ والعامِلُ فيها الموعِدُ إنْ جعلْتَهُ مَصدرًا على تقديرِ مُضافٍ، ومَعنى الإضافَةِ إنْ جعلْتَهُ اسمَ مَكانٍ فإنَّه لا يعمَلُ.

---

(١) كذا فسَّرَهُ في «الكشَّافِ» بناءً على مذهبِهِ في الأصلحِ على اللهِ وكلمَة (علي) تستعمل للوجوب، وما ذكرَهُ المُصنِّفُ - رحمَه اللهُ - ليسَ متابعَة له، بل هوَ على أصلِ أهل السنة والجماعة كقولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] مِن أنه وإن كانَ تفضلًا منه، إلَّا أنَّه شبه بالحقِّ الواجب لتأكُدِ ثبوته، وتحقُّق وقوعه بمُقتضى وعده. قاله الخفاجي في «الحاشية».

(٢) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠١). وذكرها في «المحتسب» (٢/ ٣) عن أبي رجاء وابن سيرين وقيس بن عبادة وقتادة والضحاك ويعقوب وابن شرف ومجاهد وحميد وعمرو بن ميمون وعمارة بن أبي حفصة.

(٤٤) ـ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخلونَ فيها لكَثرَتِهِم، أو طبقاتٍ يَنزِلُونَها بحسبِ مَراتِبِهِم في المُتابعَةِ، وهي: جهنَّمُ، ثمَّ لَظَى، ثمَّ الحُطَمَةُ، ثمَّ سَقَرُ، ثمَّ السَّعِيرُ، ثمَّ الجَحِيمُ، ثمَّ الهَاوِيَةُ.

ولعلَّ تَخصيصَ العَددِ لانحِصارِ مجامعِ المُهلِكاتِ في الركونِ إلى المَحسوساتِ، ومتابعةِ القوَّةِ الشَّهويَّةِ والغَضبيَّةِ، أو لأنَّ أهلَها سبعُ فِرَقٍ.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾: مِن الأَتباعِ ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أُفرِزَ لَه، فأَعلاها للمُوَحِّدينَ العُصاةِ[١]، والثَّاني لليَهودِ، والثَّالثُ للنَّصارَى، والرَّابعُ للصَّابئينَ، والخامِسُ للمَجوسِ، والسَّادسُ للمُشركينَ، والسَّابعُ للمُنافقينَ.

وقَرأَ أبو بكرٍ: ﴿جُزُءٌ﴾ بالتَّثقيلِ[٢].

وقرئ: ﴿جُزٌّ﴾[٣] على حذفِ الهَمزِ وإلقاءِ حركتِهِ على الزَّايِ، ثمَّ الوَقفِ عليه بالتَّشديدِ، ثمَّ إجراءِ الوَصلِ مُجرى الوقفِ.

و﴿مِّنْهُمْ﴾ حالٌ مِنه، أو من المستكنِّ في الظَّرفِ[٤]، لا في ﴿مَّقْسُومٌ﴾؛ لأنَّ الصِّفَةَ لا تعمَلُ فيما تقدَّمَ مَوصوفَها.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لعصاة الموحدين».

(٢) قوله: «بالتثقيل» يعني: بضم الزاي، وقرأ باقي السبعة بالتخفيف؛ أي: بسكون الزاي. انظر: «التيسير» (ص: ٨٢).

(٣) قرأ بها أبو جعفر المدني من العشرة. انظر: «النشر» (١/ ٤٣٢). وذكرها ابنُ جني في «المحتسب» (٢/ ٤)، وابن الجزري في «النشر» (١/ ٤٣٢)، عن الزهريِّ.

(٤) قوله: «و﴿مِّنْهُمْ﴾ حال منه»؛ أي: من ﴿جُزْءٌ﴾ «أو من المستكنِّ في الظرف»؛ أي: وهو ﴿لِكُلِّ بَابٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٤٠٧).

(٤٥) ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ مِن اتِّباعِهِ في الكُفرِ والفَواحشِ، فإنَّ غيرَها مُكفَّرةٌ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ وعينٌ، أو لكلِّ عِدَّةٌ مِنهُما، كقولِه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثمَّ قولِه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقولِه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد: ١٥] الآيةَ.

وقرأَ نافِعٌ وأبو عمرٍو وحفصٌ وهِشامٌ: ﴿وَعُيُونٍ ﴾ و﴿ٱلْعُيُونِ ﴾ [يس: ٣٤] بضمِّ العينِ حيثُ وقعَ، والباقونَ بكسرِ العَينِ[١].

(٤٦) ـ ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ على إرادةِ القَولِ، وقُرِئَ بقَطعِ الهَمزَةِ وكسرِ الخَاءِ على أنَّه ماضٍ[٢]، فلا يُكسرُ التَّنوينُ.

﴿بِسَلَٰمٍ ﴾: سالمينَ، أو: مُسلَّمًا عليكُم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ مِن الآفَةِ والزَّوالِ.

(٤٧) ـ ﴿وَنَزَعْنَا ﴾ في الدُّنيا بمَا أُلِّفَ بين قُلوبِهم، أو في الجنَّةِ بتَطييبِ نُفوسِهم.

﴿مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾: مِن حقدٍ كانَ في الدُّنيَا، وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: أرجو أن أكونَ أنا وعُثمانُ وطَلحَةُ والزُّبيرُ مِنْهُم[٣].

أو: مِن التَّحاسُدِ على درجاتِ الجنَّةِ ومَراتبِ القربِ.

﴿إِخْوَٰنًا ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿فِى جَنَّٰتٍ ﴾، أو فاعلِ ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾، أو الضَّميرِ في ﴿ ءَامِنِينَ ﴾، أو الضَّميرِ المضافِ إليه والعامِلُ فيها مَعنى الإضافةِ، وكذا قولُه:

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) أي: (أُدْخِلوها) على الماضي المبني للمجهول، نسبت للحسن. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٥/ ٤٧٥)، و«الكشاف» (٤/ ٤٩٢)، ونسبت ليعقوب في رواية رويس. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠١). والمشهور عن يعقوب: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ كقراءة الجمهور.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٠٩)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٢٩٩)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٤٧٨).

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ويجوزُ أنْ يكونا صِفتينِ لـ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أو حالَينِ مِن ضَميرِه؛ لأنَّه بمَعنى مُتصافِينَ، وأنْ يكونَ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالًا مِن المستقِرِّ في ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾.

(٤٨) ـ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بعدَ حالٍ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإنَّ تمامَ النِّعمةِ بالخُلودِ.

(٤٩ ـ ٥٠) ـ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فَذْلكةُ ما سبقَ مِن الوَعدِ والوَعيدِ وتَقريرٌ لَهُ، وفي ذكرِ المَغفِرَةِ دليلٌ على أنَّه لم يُرِدْ بالمُتَّقينَ مَن يَتَّقِي الذُّنوبَ بأسرِها كبيرِها وصغيرِها، وفي تَوصيفِ ذاتِه بالغُفرانِ والرَّحمةِ دونَ التَّعذيبِ ترجيحُ الوَعدِ وتأكيدُه.

(٥١) ـ وفي عطفِ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ تحقيقٌ لهما بما يَعتبِرونَ به.

(٥٢) ـ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾؛ أي: نُسلِّمُ عليك سَلامًا، أو: سَلَّمْنا سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: خائفونَ، وذلك لأنَّهُم دَخلوا بغيرِ إذنٍ وبغيرِ وَقتٍ، أو لأنَّهم امتنَعُوا من الأكلِ، والوَجَلُ: اضطِرابُ النَّفسِ لتوقُّعِ ما تكرَهُ.

(٥٣) ـ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ وقُرِئَ: (لا تَأْجَل)[1]، و: (لا تُوجَلْ) مِن أوجلَهُ[2]، و: (لا تُواجَلْ)[3] من واجَلَه بمعنى: أَوْجَلَهُ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٩٤) دون نسبة، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن أبي معاذ لكن وقع فيه: (تاجل) بالألف لا بالهمزة. وذكر (تأجل) بالهمز أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٣٥١) على أنها لغة في توجل.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٤)، عن الحسن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن أصحاب ابن مسعود، «الكشاف» (٤/ ٤٩٤) دون نسبة.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئنافٌ في مَعنى التَّعليلِ للنَّهيِ عَن الوجلِ، فإنَّ المبشَّرَ لا يُخافُ منه.

وقرأ حمزَةُ: ﴿نَبْشُرُك﴾ مِن البَشْرِ[١].

﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاقُ؛ لقولِه: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١] ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغَ.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ تعجَّبَ مِن أَنْ يولدَ له مع مسِّ الكبرِ إيَّاه، أو إنكارٌ لأَنْ يُبشرَ به في مثلِ هذه الحالِ، وكذلك قولُه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؛ أي: فبأيِّ أُعجوبَةٍ تبشّروني؟ أو فبأيِّ شيءٍ تُبشّروني؟ فإنَّ البِشارةَ بما لا يتصوَّرُ وقوعُه عادةً بشارةٌ بغيرِ شَيءٍ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ بكسرِ النُّونِ مُشدَّدَةً في كلِّ القُرآنِ[٢] على إدغامِ نونِ الجَمعِ في نونِ الوِقايَةِ، ونافعٌ بكسرِها مُخفَّفَةً على حذفِ نونِ الجَمعِ استِثْقالًا لاجتماعِ المِثْلَيْنِ، ودلالةً بإبقاءِ نونِ الوقايةِ على الياءِ[٣].

(٥٥) ـ ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِٱلْحَقِّ﴾: بما يكونُ لا مَحالةَ، أو: باليقينِ الذي لا لَبْسَ فيه، أو: بطريقةٍ هي حَقٌّ، وهو قولُ اللهِ تَعالى وأمرُه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: مِن الآيسينَ مِن ذلك، فإنَّه تَعالى قادرٌ على أن يخلقَ بشرًا من غيرِ أبوينِ، فكيفَ مِن شيخٍ فانٍ وعَجوزٍ عاقرٍ.

(٥٦) ـ وكان استعجابُ إبراهيمَ باعتبارِ العادَةِ دونَ القُدرةِ، ولذلك ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾: المخطئونَ طريقَ المعرفَةِ فلا يعرفونَ سَعةَ

---

(١) وقرأ الباقون بضم النون والتشديد. انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٥)، و«التيسير» (ص: ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) قيلَ: إنَّه سهو، فإنَّه لم يقعْ (تبشرون) في غيرِ هذهِ الآيةِ. نقله الخفاجي في «الحاشية».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

رَحمةِ الله وكمالَ علمِه وقُدرتِه، كما قال: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقرأ أبو عمرٍو والكِسائيُّ: ﴿يَقنِطْ﴾ بالكسر(١)، وقرئ بالضمِّ(٢)، وماضيهما: قَنَط بالفتح.

(٥٧) - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: فما شأنُكم الذي أُرسِلْتُم لأجلِهِ سوى البشارةِ، ولعلَّه علمَ أنَّ كمالَ المَقصودِ ليسَ البشارةَ؛ لأنَّهم كانوا عددًا، والبِشارةُ لا تَحتاجُ إلى العَددِ، ولذلك اكتُفي بالواحدِ في بشارةِ زكريَّا ومَريمَ، أو لأنَّهم بشَّروهُ في تَضاعيفِ الحالِ لإزالةِ الوَجَلِ، ولو كانَت تمامَ المَقصودِ لابتدَؤُوا بها.

(٥٨ - ٦٠) - ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني: قومَ لُوطٍ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ إن كانَ استثناءً مِن ﴿قَوْمٍ﴾ كانَ مُنقَطِعًا؛ إذ القومُ مُقيَّدٌ بالإجرامِ، وإن كانَ استثناءً مِن الضَّميرِ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ كانَ مُتَّصِلًا، والقومُ والإرسالُ شاملَيْنِ للمُجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنين به، وكأنَّ المَعنى: إنَّا أُرْسِلْنا إلى قومٍ أجرمَ كلُّهُم إلا آلَ لوطٍ مِنْهُم لنُهلكَ المجرمينَ ونُنجي آلَ لوطٍ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: مما يعذَّبُ به القومُ، وهو استئنافٌ إذا اتَّصلَ الاستثناءُ، ومُتَّصلٌ بـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ جارٍ مَجْرَى خبرِ (لكنَّ) إذا انقطعَ، وعلى هذا جازَ أَنْ يكونَ قولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناءً مِن ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أو مِن ضَميرِهم، وعلى الأوَّلِ لا يكونُ إلَّا مِن ضَميرِهم، لاختلافِ الحكمينِ، اللهمَّ إلا أن يُجعَلَ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضًا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ٥)، عن زيد بن علي والأشهب العقيلي ويحيى بن يعمر وعيسى.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿لَمُنجُوهُم﴾ مخفَّفًا[١].

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: الباقين مع الكفرةِ لتَهْلِكَ مَعَهُم.

وقرأ أبو بكرٍ عَن عاصمٍ: ﴿قَدَرْنَآ﴾ هنا وفي (النَّملِ) بالتَّخفيفِ[٢].

وإنَّما عُلِّقَ ـ والتَّعليقُ مِن خواصِّ أفعالِ القُلوبِ ـ لتَضمُّنِه مَعنى العلمِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿قَدَّرْنَآ﴾ أُجري مُجرى: قُلْنا؛ لأنَّ التَّقديرَ بمعنى القضاءِ قولٌ، وأصلُه: جعلُ الشَّيءِ على مِقدارِ غَيرِه، وإسنادُهُم إيَّاهُ إلى أَنفُسِهِم ـ وهـو فعلُ اللهِ تَعالى ـ لِمَا لَهُم مِن القُربِ والاختِصاصِ.

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ تُنكِرُكُم نَفسي وتَنفِرُ عَنكُم مَخافةَ أَنْ تَطْرُقوني بشَرٍّ.

(٦٣) ـ ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: مـا جِئـنـاكَ بـما تُنكِرُنا لأَجلِه، بل جِئناكَ بما يَسرُّكَ ويَشفي لكَ مِن عَدوِّكَ، وهو العَذابُ الذي تَوعَّدْتَهم بهِ فيَمتَرونَ فيه.

(٦٤) ـ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾: باليَقيـنِ مِـن عَـذابِـهِـم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيمـا أخبرنـاكَ به.

(٦٥) ـ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: فاذهَبْ بهم في اللَّيلِ، وقرأ الحجازيَّانِ بوصلِ الأَلفِ مِن السُّرَى[٣]، وهما بمعنًى. وقُرِئَ: (فسِرْ) من السَّيرِ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٥). والحجازيان: نافع المدني وابن كثير المكي.

(٤) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٦٨) عن اليماني. والمشهور بهذا اللقب هو محمد بن السميفع.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: في طائفةٍ مِن الليلِ، وقيل: في آخرِه، قال:

افتَحِي البابَ وانظُرِي في النُّجُومِ   كَمْ عَلَيْنَا مِن قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ[(١)]

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ وكُنْ على إثرِهِمْ تَذودُهُم[(٢)] وتُسرِعُ بهم وتَطَّلِعُ على حالِهِم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظُرَ ما وراءَه فيرى مِن الهَولِ ما لا يُطيقُهُ، أو: فيُصيبُهُ ما أصابَهم، أو: ولا ينصرفْ أحدُكُم ولا يتخلَّفْ لغَرَضٍ فيُصيبَهُ العذابُ، وقيل: نُهُوا عن الالتفاتِ ليوطِّنُوا نُفوسَهُم على المُهاجرةِ.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾: إلى حيثُ أَمَرَكُم اللهُ بالمُضِيِّ إليه وهو الشَّامُ أو مِصرُ، فعُدِّيَ ﴿وَٱمْضُواْ﴾ إلى ﴿حَيْثُ﴾ و﴿تُؤْمَرُونَ﴾ إلى ضَميرِهِ المحذوفِ على الاتِّساعِ.

(٦٦) ـ ﴿وَقَضَيْنَآ﴾؛ أي: أوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ مَقضيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـ(إلى) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مُبهَمٌ تَفسيرُه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ ومحلُّهُ النَّصبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تَفخيمٌ للأمرِ وتَعظيمٌ له.

وقُرِئَ بالكَسرِ على الاستئنافِ[(٣)]، والمعنى: أنهم يُستأصَلُونَ عن آخرِهِم حتى لا يبقَى مِنْهُم أحدٌ.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: داخلينَ في الصُّبحِ، وهو حالٌ مِن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أو مِن الضَّميرِ في ﴿مَقْطُوعٌ﴾، وجمعُهُ للحَملِ على المَعنى، فـ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في مَعنى: مُدْبِري هؤلاءِ.

---

(١) البيت دون نسبة في «العين» (١/ ١٣٩)، و«معجم ديوان العرب» (١/ ١٨٨)، و«الصحاح» (مادة: قطع)، و«الحور العين» لنشوان الحميري (ص: ٢٤٨)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٥٠٠).

(٢) أي: تسوقهم.

(٣) أي: (إنَّ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عن الأعمش. وفيه عن ابن مسعود: (وقُلنا له إنَّ دابرَ هؤلاء).

(٦٧ ـ ٦٨) ـ ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ سَذُومَ[1] ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بأضيافِ لوطٍ طمعًا فيهم ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ بفَضِيحةِ ضَيْفِي، فإنَّ مَن أُسِيءَ إلى ضيفِهِ فقَدْ أُسيءَ إليهِ.

(٦٩) ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ركوبِ الفاحِشَةِ ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تُذِلُّوني بسببِهِم، من الخِزْيِ، وهو الهوانُ، أو: لا تُخْجِلُوني فيهِم، من الخَزَايَةِ، وهي الحياءُ.

(٧٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عَن أَنْ تُجيرَ مِنْهُم أحدًا، أو: تمنعَ بيننا وبينَهُم، فإنَّهُم كانوا يتعرَّضُونَ لكلِّ أَحدٍ، وكان لوطٌ يمنَعُهُم عنه بقَدْرِ وُسعِهِ، أو عن ضيافَةِ النَّاسِ وإنزالِهِم.

(٧١) ـ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني: نساءَ القَوْمِ، فإنَّ نبيَّ كُلِّ أُمَّةٍ بمنزلةِ أبيهِم، وفيه وجوهٌ ذُكِرَت في (سورةِ هُودٍ).

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قضاءَ الوطَرِ، أو: ما أقولُ لَكُم.

(٧٢) ـ ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قَسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ، وهو النبيُّ عليهِ السَّلامُ. وقيل: لوطٌ عليهِ السَّلامُ، قالتِ المَلائِكَةُ له ذلك، والتقديرُ: لعَمْرُكَ قَسَمِي، وهو لُغَةٌ في العُمرِ، يختصُّ به القَسَمُ لإيثارِ الأَخفِّ فيه؛ لأنَّه كَثيرُ الدَّورِ على ألسِنَتِهِم.

﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾: لفِي غوايَتِهِم، أو: شدَّةِ غُلْمَتِهِم التي أَزالَتْ عُقولَهُم وتمييزَهُم بين خَطئِهِم والصَّوابِ الذي يُشارُ بِهِ إليهِم.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: يَتحيَّرونَ، فكيفَ يَسمعونَ نصحكَ؟

وقيل: الضَّميرُ لقُرَيشٍ، والجملَةُ اعتِراضٌ.

---

(١) (سذوم) بالذال المعجمة عند أكثر أهل اللغة، وروي إهمالها.

(٧٣) ـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحةً هائِلَةً مُهلِكَةً، وقيل: صيحةُ جِبريلَ.

﴿مُشْرِقِينَ﴾: داخلينَ في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ.

(٧٤) ـ ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾: عاليَ المَدينةِ، أو: عاليَ قُراهُم ﴿سَافِلَهَا﴾ وصارَتْ مُنقلِبَةً بهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: مِن طِينٍ مُتحجِّرٍ، أو: طينٍ عليه كتابٌ، مِن السِّجِلِّ، وقد تقدم مزيدُ بيانٍ لهذه القصَّةِ في (سورةِ هُودٍ).

(٧٥) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: المُتفكِّرينَ المُتفرِّسينَ الذين يَتثبَّتونَ في نَظرِهِم حتى يعرفوا حقيقةَ الشَّيءِ بسِمَتِه.

(٧٦ ـ ٧٧) ـ ﴿وَإِنَّهَا﴾: وإنَّ المَدينةَ أو القرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: ثابتٍ يَسلُكُه النَّاسُ ويرونَ آثارَها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللهِ ورُسُلِه.

(٧٨) ـ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ هُم قومُ شُعَيبٍ، كانوا يَسكنونَ الغَيْضَةَ فبعثَهُ اللهُ إليهِم فكذَّبوهُ فأُهلِكوا بالظُّلَّةِ. والأيكةُ: الشَّجرَةُ المُتكاثِفَةُ.

(٧٩) ـ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاكِ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: سَذُومَ والأَيكةَ، وقيل: الأيكَةَ ومَدْينَ، فإنَّه كانَ مَبعُوثًا إليهِما، فكانَ ذكرُ أحدِهما مُنبِّهًا على الآخرِ.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: لبطريقٍ واضِحٍ، والإمامُ: اسمُ ما يُؤتَمُّ به، فسُمِّيَ به الطريق، واللَّوحُ، ومِطْمَرُ البَنَّاءِ[1]؛ لأنها مما يؤتَمُّ بهِ.

(٨٠) ـ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: ثمودَ كذَّبوا صالحًا، ومَن كَذَّبَ واحدًا مِن الرُّسلِ فكأنَّما كذَّبَ الجَميعَ، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صالحًا ومَن معَهُ مِن المؤمنينَ، والحِجْرُ: وادٍ بينَ المدينَةِ والشَّامِ يَسكنونَها.

---

(١) المطمر: خيط البنَّاء الذي يقوِّم عليه البِناء. انظر: «النهاية» و«معجم متن اللغة» (مادة: طمر).

(٨١) - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني: آياتِ الكتابِ المنزلِ على نبيِّهِم، أو مُعجزاتِه كالنَّاقةِ وسَقْبِهَا وشُربِها ودَرِّهَا، أو ما نصبَ لهم مِن الأدلَّةِ.

(٨٢) - ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ مِن الانهدامِ ونَقْبِ اللُّصوصِ وتَخريبِ الأَعداءِ لوَثاقَتِها، أو: مِن العَذابِ لفَرطِ غَفْلَتِهِم، أو حُسبانِهِم أنَّ الجبالَ تَحميهِمْ منه.

(٨٣ - ٨٤) - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن بناءِ البُيوتِ الوَثيقَةِ واستكثارِ الأَموالِ والعُدَدِ.

(٨٥) - ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلا خلقًا مُلتَبِسًا بالحقِّ لا يُلائِمُ استمرارَ الفَسادِ ودوامَ الشُّرورِ، فلذلك اقتَضَتِ الحِكمَةُ إهلاكَ أَمثالِ هَؤلاءِ وإزاحةَ فَسادِهِم مِن الأرضِ.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ فينتَقِمُ اللهُ لك فيها ممَّنْ كذَّبَك ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ ولا تَعجَلْ بالانتِقامِ مِنْهُم، وعامِلْهُم مُعاملَةَ الصَّفوحِ الحَليمِ.

وقيل: هو مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

(٨٦) - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقَكَ وخلَقَهُم، وبيدِهِ أَمْرُكَ وأمرُهُم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالِكَ وحالِهِم، فهو حَقيقٌ بأن تَكِلَ إليه ليحكمَ بينكُم، أو هو الذي خَلَقَكُم وعلمَ الأصلحَ لَكُم، وقد عَلِمَ أنَّ الصَّفحَ اليومَ أَصلَحُ.

وفي مُصحَفِ عُثمانَ وأُبَيٍّ: (هو الخالِقُ)[1]، وهو يصلُحُ للقَليلِ والكَثيرِ، و(الخَلَّاقُ) يَختَصُّ بالكَثيرِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥) عنهما وعن مالك بن دينار وسليم التيمي والجحدري، و«المحتسب» (٢/ ٦) عن مالك بن دينار والأعمش والجحدري.

(٨٧) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾: سبعَ آياتٍ، وهي الفاتِحَةُ.

وقيل: سبعَ سُوَرٍ، وهـي الطِّـوالُ، وسـابِعَتُها الأنفالُ والتَّوبَةُ فإنَّهُما في حُكمِ سُورَةٍ ولذلك لم يُفصَل بينَهُما بالتَّسمِيَةِ، وقيل: التوبةُ، وقيل: يونُس.

أو: الحَوامِيمَ السَّبعَ[1].

وقيل: سبعَ صحائِفَ، وهي الأسباعُ[2].

﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسَّـبعِ، و﴿ٱلْمَثَانِى﴾ مِـن التَّثنِيَةِ أو الثَّناءِ، فـإنَّ كلَّ ذلك مَثْنًى تُكـرَّرُ قراءَتُـه أو ألفاظُـهُ أو قصصُهُ ومواعظُـهُ، أو مَثنِيٌّ عليه بالبَلاغَـةِ والإعجازِ، أو مُثـنٍ علـى اللهِ بما هو أهلُـهُ مِن صِفاتِه العُظمَى وأسـمائِه الحُسْـنى، ويجـوزُ أَنْ يُرادَ بـ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ القرآنُ، أو كتبُ اللهِ كلُّها، فيكونُ ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيضِ.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ إنْ أُريدَ بالسَّبعِ الآياتُ أو السُّوَرُ فمِن عَطْفِ الكُلِّ على البَعضِ، أو العامِّ على الخاصِّ، وإنْ أُريدَ به الأسباعُ فمِن عَطفِ أحدِ الوَصفَيْنِ على الآخرِ.

(٨٨) ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تَطمَـحْ ببَصَرِكَ طُـموحَ راغـبٍ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافًا مِن الكُفَّارِ، فإنه مُستحقَرٌ بالإضافَةِ إلى ما أوتيتَه، فإنَّه كمالٌ مَطلوبٌ بالذَّاتِ مُفْضٍ إلى دَوامِ اللذَّاتِ.

وفي حَديثِ أبي بكرٍ رضـيَ اللهُ عنه: مَن أُوتيَ القُرآنَ فرأى أنَّ أحدًا أُوتيَ مِن الدُّنيا أَفضلَ ممَّا أُوتي فقد صغَّرَ عَظِيمًا وعَظَّمَ صَغِيرًا[3].

---

(١) قوله: «أو الحواميم...» عطف على قوله: «وهي الطوال». انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٥٩).

(٢) قولـه: «وقيـل: سبع صحائـف وهي الأسـباع» قـال الشـهاب فـي «الحاشـية»: الظاهـر أن المراد بالصحائـف: الصحـف النازلـة علـى الأنبياء عليهـم الصلاة والسـلام، وأنـه أنزل عليه سـبع منها، والمـراد: مـا يتضمنهـا وان لم يكـن بلفظهـا، فتأمّل.

(٣) نقل السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ١٦٤) عن الشيخ ولي الدين العراقي قوله: لَمْ =

ورُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ وافى بأَذْرعاتٍ سبعَ قوافِلَ ليَهودِ بَنِي قُرَيظَةَ والنَّضيرِ فيها أَنواعُ البَزِّ والطِّيبِ والجَواهرِ وسائرِ الأَمتِعَةِ، فقال المسلمون: لو كانَتْ هذه الأموالُ لنا لتَقوَّيْنَا بها وأنفقنَاهَا في سبيلِ اللهِ، فقال لهم: «قد أُعطِيتُمْ سبعَ آياتٍ هيَ خَيرٌ مِن هذهِ القَوافلِ السَّبعِ»(١).

= أَقِفْ عَلَيهِ مِن حَديثِ أَبي بكرٍ. انتهى. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٣): لم أجده عن أبي بكر، وأخرجه ابن عدي [في «الكامل» (٢/ ٣٧٧)] في ترجمة حمزة النصيبي عن زيد بن رفيع عن أبي عبيدة عن ابن مسعود رفعه: «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقَّر عظيماً وعظَّم صغيراً»، وحمزة اتهموه بالوضع. وأخرجه إسحاق والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «مَن أُعطي القرآن فرأى أن أحداً أُعطي أفضلَ مما أُعطي فقد عظَّم ما صغَّر الله وصغَّر ما عظم الله». والحديث رواه المروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٧٥)، والطبراني في «الكبير» (١٤٥٧٥) (١٣/ ٦٤٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا، وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك، كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٩).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦ـ٥٠٧)، وتلميذه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٧)، ونسباه للحسين بن الفضل. وتابعهما في إيراد هذا الخبر في تفاسيرهم الزمخشري وابن الجوزي والفخر الرازي والقرطبي، وعندهم جميعًا: (أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد...)، فقول المصنف: «أنَّه عليهِ السَّلامُ وافى بأذرعاتٍ سبعَ قوافِلَ...» فيه نظر، فإنه يوهم أن القصة وقعت بأذرعات، بينما الوارد عند غيره يفيد أنها بالمدينة، وعليه كان رد الخازن في «تفسيره» (٣/ ٦١) لهذا الخبر بقوله: وهذا القول ضعيف، أو لا يصح؛ لأن هذه السورة مكية بإجماع أهل التفسير، وليس فيها من المدني شيء، ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة، وكيف يصح أن يقال: إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل؟!

قلت: وقد ورد نحو هذه القصة بغير الإشكال المذكور، فقد ذكرها أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» (٩/ ٢٢٠) عند هذه الآية فقال: (قيل: قَدِمَتْ لأبي جهلٍ ـ لعنه الله ـ في يومٍ واحدٍ سبعُ قوافل للتِّجارة، معها مالٌ كثيرٌ وطعام ومطاعم وثياب، وكان بأصحاب رسول الله ﷺ يومَئذٍ عُرْيٌ وجوعٌ...) الحديث، لكن يبقى أنه ليس لهذا الحديث سند يعرف، والله أعلم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لم يُؤمِنُوا، وقيل: أنَّهُم الممتَّعون[1] به.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: وتواضَعْ لَهُم وارفُقْ بهم.

(٨٩ ـ ٩١) ـ ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أُنذِرُكُم ببيانٍ وبُرهانٍ أنَّ عذابَ اللهِ نـازِلٌ بكُـمْ إنْ لـم تُؤمِنُـوا ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾: مثـلَ العَـذابِ الـذي أنزَلْنـا عليهـم، فهو وصـفٌ لِمَفعولِ ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أُقيمَ مُقامَهُ، والمقتسِـمون: هُمْ الاثنا عشـرَ الذيـن اقتَسَـمُوا مداخـلَ مكَّةَ أيـامَ الموسـمِ لينفِّـرُوا النَّاسَ عَـن الإيمانِ بالرَّسـولِ فأهلَكَهُـم اللهُ يـومَ بَـدرٍ، أو الرَّهـطُ الذيـن اقتسَـمُوا؛ أي: تَقاسَـمُوا علـى أن يُبيِّتُـوا صالحًـا عليه السَّـلامُ.

وقيل: هو صِفَةُ مَصدرٍ مَحذوفٍ يدلُّ عليه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ فإنَّه بمَعنى: أنزَلْنَا إليك، والمُقتسِمُونَ هُم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ حيثُ قالُوا عنادًا: (بعضُه حقٌّ موافِقٌ للتَّوراةِ والإنجيلِ وبعضُهُ باطِلٌ مخالِفٌ لهما)[2]، أو قسَّموهُ إلى شعرٍ وسحرٍ وكهانةٍ وأساطيرِ الأوَّلينَ، أو أهلُ الكتابِ آمَنُوا ببعضٍ كتبِهِم وكفروا ببعضٍ على أنَّ المراد بـ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ما يقرؤونَه من كتبِهِم، فيكونُ ذلك تَسليَةً لرَسولِ اللهِ ﷺ، وقولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ...﴾ إلخ اعتراضًا ممدًّا لها.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾: أجزاءً، جمعُ عِضَةٍ، وأَصلُها عِضَوَةٌ، مِن عَضَّى الشَّاةَ: إذا جعلَها أَعْضاءً.

---

(١) في نسخة الخيالي: «المنعمون».

(٢) وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما، رواه البخاري (٣٩٤٥) عنه قال: هم أهلُ الكتابِ، جَزَّؤوه أجزاءً فآمَنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه، يعني قولَ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾. ورواه (٤٧٠٥) بلفظ: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قال: آمَنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، اليهودُ والنصارى.

وقيل: فِعْلَةٌ من عَضَهْتُهُ: إذا بهتَّهُ[١]، وفي الحديث: «لعنَ اللهُ العاضِهَةَ والمُستَعْضِهَةَ»[٢].

وقيل: أسحارًا.

وعَن عِكرِمَةَ: العَضْهُ: السِّحرُ[٣]، وإنَّما جُمِعَ جمعَ السَّلامةِ جبرًا لِمَا حُذِفَ مِنْه.

(٩٢ ـ ٩٣) ـ والمَوصولُ بصِلَتِه صِفةٌ لـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أو مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن التَّقسيمِ، أو النِّسبَةِ إلى السِّحرِ، فنُجازيهِمْ عليه.

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ ما فعلوا مِن الكُفرِ والمَعاصِي.

(٩٤) ـ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾: فاجهَرْ به، مِن صَدَعَ بالحُجَّةِ: إذا تكلَّمَ بها جهارًا، أو: افرُقْ به بينَ الحقِّ والباطلِ، وأصلُه: الإبانَةُ والتَّمييزُ، و(ما) مَصدريَّةٌ أو مَوصولَةٌ، والرَّاجعُ مَحذوفٌ؛ أي: بما تؤمَرُ به مِن الشَّرائعِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تلتفِتْ إلى ما يقولونَ.

---

(١) أي: افتريت عليه.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٣٩)، والحربي في «غريب الحديث» (٣/ ٩٢٣)، من حديث ابن عباس مرفوعاً. قال ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٢/ ٨٦٩): رواه سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس. وسلمة قال عنه أحمد بن حنبل: أخشى أن يكون حديثه ضعيفاً. والبخاري قال: فيه نظر. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٩٤): في إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان.

ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٥٠٩٠) عن عطاء.

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٣٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٧٣).

(٩٥) ـ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ بقَمْعِهم وإهلاكِهم.

قيل: كانوا خمسَةً مِن أشرافِ قُرَيشٍ: الوَليدُ بن المغيرةِ، والعاصُ بن وائلٍ[1]، والحارثُ بنُ قيس[2]، والأَسودُ بن عبدِ يَغوثَ، والأَسودُ بن المطلبِ، يبالغونَ في إيذاءِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ والاستهزاءِ به، فقال جبريلُ لرَسولِ اللهِ ﷺ: أُمِرْتُ أَنْ أكفيَكَهُم، فأومأَ إلى ساقِ الوَليدِ فمرَّ بنَبَّالٍ فتَعلَّقَ بثوبِهِ سَهمٌ فلَمْ يَنعَطِفْ تعظُّمًا لأخذِهِ، فأصابَ عرقًا في عقبِه فقطعه فماتَ، وأومأَ إلى أخمصِ العاصِ فدخلَتْ فيها شوكَةٌ فانتفخَتْ رِجلُهُ حتَّى صارَتْ كالرَّحَى وماتَ، وأشارَ إلى أنفِ حارثٍ فامتَخطَ قيحًا فماتَ، وإلى الأسوَدِ بن عبدِ يغوثَ وهو قاعدٌ في أصلِ شَجرَةٍ فجعلَ يَنطَحُ رأسَهُ الشَّجرةَ ويضرِبُ وجهَهُ بالشَّوكِ حتَّى ماتَ، وإلى عيني الأسودِ بن المطلبِ فعَمِيَ[3].

---

(١) في نسخة التفتازاني هنا زيادة: «وحارث بن الطُّلاطِلة»، وليس في باقي النسخ، وبه يصبحون ستة، وكلهم مذكورون في الأخبار الواردة بهذه القصة، وقد وقع في تلك الأخبار بعض الاختلاف في عددهم وتعيينهم.

(٢) وقع في جميع النسخ هنا: «عدي بن قيس»، وصوابه: «الحارث بن قيس» كما في المصادر. وانظر: «حاشية الشهاب».

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤٩٨٦)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٠٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣١٦)، وفي «السنن الكبرى» (٩/ ٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٩٦)، من طريق جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٢٢٥).
وعزاه المصنف في «الدر المنثور» (٥/ ١٠٢) إلى ابن مردويه عن ابن عباس.
ورواه ابن حبيب النيسابوري في «عقلاء المجانين» (ص: ٩ ـ ١٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥) عن مقسم مولى ابن عباس. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٧ ـ ١٤٨) عن سعيد بن جبير. ورواه بنحوه ابن إسحاق في «السيرة» (٤١٨)، والطبري في «تفسيره» (١٤/ ١٤٦) عن عروة بن الزبير.
وذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٥)، دون نسبة.

(٩٦) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرِهم في الدَّارين.

(٩٧ ـ ٩٨) ـ ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ مِن الشِّركِ والطَّعنِ في القُرآنِ والاستهزاءِ بك ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾: فافزَعْ إلى اللهِ فيما نابكَ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ يكفِكَ ويكشِفِ الغمَّ عنك، أو: فنزِّهْهُ عمَّا يقولونَ حامِدًا له على أن هداكَ للحقِّ.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: مِن المُصلِّينَ، وعنه عليه السَّلامُ: أنَّه كانَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ[1].

(٩٩) ـ ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾؛ أي: الموتُ، فإنَّهُ مُتيقَّنٌ لحاقُهُ كلَّ حيٍّ مَخلوقٍ، والمعنى: واعبُدْهُ ما دمتَ حَيًّا ولا تُخِلَّ بالعبادةِ لحظةً.

عن رسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الحِجْرِ كانَ له مِن الأجرِ عشرَ حَسناتٍ بعدَدِ المُهاجرينَ والأنصارِ والمُستهزئينَ بمُحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ»[2].

* * *

(١) رواه أبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة رضي الله عنه، ولفظه: (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٢٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، من حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه. وقال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٥): وهو موضوع. وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة الحجر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ هذه السورة مكية بلا خلاف. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر في آخر السورة قبلها أشياء من أحوال القيامة، من تبديل السماوات والأرض وأحوال الكفار في ذلك اليوم، وأنّ ما أتى به على حسب التبليغ والإنذار - ابتدأ في هذه السورة بذكر القرآن الذي [هو] بلاغ للناس وأحوال الكفرة وودادتهم.

و«تلك» إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات.

والكتاب والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

والظاهر أن «ما» في «ربما» مهيّئة، وذلك أنها من حيث هي حرف جر

---

(١) مكية وهي تسع وتسعون آية.

على خلاف فيه، لا يليها إلا الأسماء، فجيء «بما» مهيّئة لمجيء الفعل بعدها. وفي ربّ لغات وأحكام ذكرت في النحو، وعلى كثرة مجيء ربّ في كلام العرب، لم تجىء في القرآن إلا في هذا الموضع. وقد اختلفوا أتفيد التقليل أم التكثير، والذي يظهر أن ذلك يفهم من سياق الكلام لا من وضعها. ومثال هذا التركيب القرآني قوله[1]: [من الخفيف]

ربّما تكره النفوس من الأمـ ـــر له فرجة كحلّ العقال

و«ما» مهيئة لمجيء الفعل بعدها ودعوى أنها نكرة موصوفة بَعيدٌ كتأويل من قال: ربّ شيء تودّه، وحذف الضمير العائد على شيء. وأكثر ما يأتي الفعل بعدها ماضياً كقول الشاعر[2]: [من المديد]

ربّما أوفيتُ في عَلَمٍ تَرْفَعَنْ ثوبي شَمالاتُ

وقد جاء مستقبلاً فقال سليم القشيري[3]: [من الطويل]

ومعتصمٍ بالحيّ من خشية الرّدى سيردى وغازٍ مشفقٍ سيؤوبُ

«فيودّ» مستقبل لا يحتاج إلى تأويله بمعنى ودّ. وكثر مجيء «لو» بعد ودّ ينسبك منها مصدر تقديره: [أن] لو كانوا مسلمين [أي: كونَهم مسلمين. ومن لم يثبت أنّ لو حرف مصدري يتأوّل مفعولاً محذوفاً لودّ وجواباً للو، فيقدّر: يودّ الذين كفروا الإسلام لو كانوا مسلمين] لينجوا بذلك.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟﴾ أَمْرُ تهديد لهم ووعيد، أي: ليسوا ممّن يرعوي عما

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص٣٦٠.

(٢) البيت لجَذيمة الأبرص، وهو من شواهد الكتاب ٣: ٥١٨.

(٣) البيت في شرح أبيات المغني ٣: ٢٠٤.

هو فيه من الكفر والتكذيب، ولا ممّن تنفعه النّصيحة والتذكير، فهم إنّما حظّهم حظّ البهائم من الأكل والتّمتع بالحياة الدنيا، والأمل في تحصيلها هو الذي يلهيهم[(١)] ويشغلهم عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله.

وفي قوله «يأكلوا ويتمتّعوا» إشارة إلى أن التلذّذ والتنعم وعدم الاستعداد للموت والتأهب له ليس من أخلاق من يطلب النجاة من عذاب الله تعالى.

«فسوف يعلمون» تهديد ووعيد أي: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وما يؤولون إليه في الدنيا من الذلّ والقتل والسّبي، وفي الآخرة من العذاب السّرمدي.

ولمّا توعّدهم بما يحلّ بهم أردف ذلك بما يُشعر بهلاكهم، وأنه لا يُستبطأ، فإنّ له أجلاً لا يتعدّاه. والمعنى: من أهل قرية كافرين. والظاهر أن المراد بالهلاك هلاك الاستئصال مكذّبي الرسل وهو أبلغ في الزّجر.

و«من قرية» مفعول «أهلكنا» و«مِن» لاستغراق الجنس. «ولها كتاب معلوم» جملة حاليّة.

و«من» زائدة تفيد استغراق الجنس أي: ما تسبق أمّة. وأنّث «أجلها» على لفظ «أمة»، وجمع وذكّر في «وما [٣٠٨/أ] يستأخرون» حملاً على المعنى، وحذف: عنه، لدلالة الكلام عليه.

قال الزمخشري[(٢)]: الجملة واقعة صفة «القرية» والقياس أن لا تتوسّط الواو بينهما كما في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا

---

(١) ق: يليهم.

(٢) الكشاف ٢: ٣٨٧.

﴿مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشعراء] وإنما توسّطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني زيد وعليه ثوب انتهى.

ووافقه على ذلك أبو البقاء فقال[١]: الجملة نعت «لقرية» كقولك: ما لقيت رجلاً إلاّ عالماً، وقد ذكرنا حال الواو في مثل هذا في البقرة في قوله ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ۝٢١٦﴾ [انتهى].

وهذا الذي قاله الزمخشري وتبعه فيه أبو البقاء لا نعلم أحداً قاله من النحويين، وهو مبني على أنّ ما بعد «إلاّ» يجوز أن يكون صفة، وقد منعوا ذلك.

قال الأخفش: لا يُفصل بين الصفة والموصوف بإلاّ[٢]. ثم قال: ونحو: ما جاءني رجل إلاّ راكب، تقديره: إلاّ رجل راكب، وفيه قبح لجعل الصفة كالاسم.

وقال أبو علي الفارسي: تقول: ما مررت بأحدٍ إلاّ قائماً، قائماً: حال من أحد، ولا يجوز، إلاّ قائمٍ، لأنّ إلاّ لا تعترض بين الصفة والموصوف.

وقال ابن مالك - وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري من قوله في نحو: ما مررت بأحدٍ إلاّ زيد خير منه: إن الجملة بعد إلاّ صفة لأحد - إنه مذهب لم يُعرف لبصري ولا كوفي فلا يُلتفت إليه. وأبطل ابن مالك قول الزمخشري: إنّ الواو توسّطت لتأكيد لصوق الصفة [بالموصوف].

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

(١) إملاء ٢: ٧٢.

(٢) ق: بالاسم.

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ الآية، قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد والوليد بن المغيرة. وهذا الوصف بأنه الذي نُزّل عليه الذّكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف، لأنهم لا يقرّون بتنزيل الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، وهذا كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء] إذ لو كان مؤمناً برسالة موسى عليه السلام ما أخبر عنه بالجنون.

ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بالملائكة شاهدين بصدقك وبصحة دعواك وإنذارك كما قال ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان]، أو معاقبين على تكذيبك كما كانت باقي الأمم المكذّبة. و«لوما» حرف تحضيض بمعنى هلاّ.

وقرىء: ما تَنَزَّلُ، بشدّ التاء، أصله تتنزّل فأدغم التاء في التاء.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الظاهر أن معناها كما يجب وبحقٍّ[1] من الوحي والمنافع التي أراها الله تعالى لعباده، لا على اقتراح كافر ولا باختيار معترض. ثم ذكر

---

(١) ق: كما تحبّ ويحقّ.

عادة الله تعالى في الأمم من أنه لم يأتهم[١] بآية اقتراح إلاّ ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، فكأنّ الكلام: ما تنزّل الملائكة إلا بحقّ لا باقتراحكم، وأيضاً فلو نزّلت لم تُنْظَروا بعد ذلك [بالعذاب] أي: تُؤخَّروا، المعنى. وهذا لا يكون إذ كان في علم الله تعالى أنّ منهم من يؤمن ويلد من يؤمن.

﴿وَإِنَّا[لَهُۥ]لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: حافظون له من الشياطين وفي كل وقت تكفّل تعالى بحفظه فلا تعتريه زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة فإنه تعالى لم يتكفّل بحفظها[٢]، بل قال تعالى إن الرّبانيين والأحبار استحفظوها ولذلك وقع فيها الاختلاف. وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى؛ إذ لو كان من قول البشر لتطرّق إليه ما تطرّق لكلام البشر.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى استهزاء الكفار [به] ونسبته إلى الجنون واقتراح نزول الملائكة، سلاّه تعالى بأن من أُرسل من قبلك كان ديدن المُرسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك. وتقدم تفسير [٣٠٨/ب] الشّيع في أواخر الأنعام[٣]. ومفعول «أرسلنا» محذوف أي: أرسلنا من قبلك رسلاً.

قال الزمخشري[٤]: «وما يأتيهم» حكاية حال ماضية لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال انتهى.

---

(١) ق: يأتيهم.

(٢) ق: حفظها.

(٣) انظر تفسير الآية ١٥٩ من الأنعام.

(٤) الكشاف ٢: ٣٨٨.

هذا الذي ذكره هو قول الأكثرين أنّ[1] «ما» تخلص المضارع للحال وتعيّنه. وذهب غيره إلى أنّ «ما» يكثر دخولها على المضارع مراداً به الحال، وتدخل عليه مراداً به الاستقبال، وأنشد شاهداً على ذلك قول أبي ذؤيب[2]: [من الكامل]

أودى بَنِيَّ وأودعوني حسرةً عند الرّقاد وعَبْرةً ما تُقْلِعُ

وقال الأعشى يمدح رسول الله ﷺ[3]: [من الطويل]

له نافلات ما يغبّ نوالها وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وقال تعالى ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴿١٥﴾﴾ [يونس].

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الظاهر عود الضمير على الاستهزاء المفهوم من قوله «يستهزئون». والباء في «به» للسبب. والمجرمون هنا كفار قريش ومن دعاهم الرسول إلى الإيمان.

و﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن كان إخباراً مستأنفاً فهو من العامّ المراد به الخصوص فيمن حتم عليه، إذ قد آمن من عالم ممّن كذّب الرسول عليه السلام، فقد خلت سنة الأولين في تكذيبهم رسلهم أو في إهلاكهم حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم، وهو تهديد لمشركي قريش.

والضمير في «عليهم» عائد على المشركين وذلك لفرط تكذيبهم وبُعدهم

---

(١) ق: أي.

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢.

(٣) ديوانه ص١٧٣.

عن الإيمان حتى ينكروا ما هو مشاهد بالأعين محسوس مماسّ بالأجساد بالحركة والانتقال. وهذا بحسب المبالغة التامة في إنكار الحق.

والظاهر أن الضمير في «فظلّوا» عائد على من عاد عليه في قوله «عليهم»، أي: لو فُتح عليهم باب من السماء وجُعل لهم معراج يصعدون فيه لقالوا هو شيء نتخيّله لا حقيقة له وقد سُحرنا بذلك. وقد جاء لفظ «فظلّوا» مشعراً بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضحين لما عاينوا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ
شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ
وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ
لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ لمّا ذكر تعالى حال منكري النبوّة، وكانت مفرّعة على التوحيد، ذكر دلائله السماوية وبدأ بها ثم أتبعها بالدلائل الأرضية.

والبروج: جمع برج. وقال ابن عيسى الرّماني: البروج اثنا عشر برجاً: الحمَل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وهي منازل الشمس والقمر. والظاهر أن الضمير في «وزيّناها» عائد على البروج لأنها المحدَّث عنها والأقرب في اللفظ، وقيل على «السماء» وهو قول الجمهور. وخص بالناظرين لأنها من المحسوس التي لا تُدرَك إلا بنظر العين، ويجوز أن يكون من نظر القلب لما

فيها من الزّينة المعنوية وهو ما فيها من حسن[١] الحكم وبدائع الصنع وغرائب القدرة.

والضمير في «وحفظناها» عائد على [السماء] ولذلك قال الجمهور إنّ الضمير في «وزيّنّاها» عائد على «السماء» حتى لا تختلف الضمائر. وحِفْظ السماء هو بالرّجم بالشهب على ما تضمّنَتْه الأحاديث الصحاح.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ الآية، ومعنى «مددناها» بسطناها ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها. ولمّا كانت هذه الجملة تقدّمها جملة فعلية كان النصب على الاشتغال أرجح من الرفع على الابتداء، فلذلك نصب «الأرض». والرواسي: الجبال، والظاهر أن الضمير في «فيها» عائد على الأرض الممدودة. وقال [٣٠٩/أ] ابن عباس: «موزون» مقدور بقدر.

وتقدّم تفسير المعايش في الأعراف[٢]. والظاهر أنّ «مَن» لمن يعقل[٣] ويراد به العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرازق يرزقهم وإياكم. «ومن» مجرور معطوف على الضمير في «لكم»، وحسّن العطف الفصل بينهما بقوله «فيها معايش». أو يدخل معهم ما لا يعقل بحكم التغليب كالأنعام والدّواب وما بتلك المثابة ممّا الله تعالى رازقه وقد سبق إلى ظنّهم أنهم هم الرازقون لهم.

وتقدم شرح الخزائن[٤]، و«وإن» نافية و«مِن» زائدة. والظاهر أن

(١) ق: جنس.

(٢) انظر تفسير الآية ١٠ من الأعراف.

(٣) ق: لمن لا يعقل.

(٤) انظر تفسير الآية ٥٠ من الأنعام.

المعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، فيكون الخزائن وهي ما تحفظ فيه الأشياء مستعارة من المحسوس الذي هو الجسم إلى المعقول.

و«لواقح» جمع لاقح، يقال: ريح لاقح جائيات بخير من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير بل بشرّ: ريح عقيم.

و«المستقدمين» قال ابن عباس: الأموات. و«المستأخرين» الأحياء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه التفات وخروج من ضمير العظمة للواحد إلى الاسم الظاهر تنبيهاً على أن المتّصف بتلك الأفعال السابقة هو ربك المالك لك والناظر في مصلحتك، وهو توكيد للفظ الربّ.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ
أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥)
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا
سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ

أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الآية، لمّا نبّه تعالى على منتهى الخلق وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه - نبّههم على مبدأ أصلهم وهو آدم عليه السلام وما جرى لعدوّه إبليس من المحاورة مع الله تعالى. وتقدّم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة[1] عقب ذكر الإماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى، وفي الأعراف[2] بعد ذكر يوم القيامة وذكر الموازين فيه، وفي الكهف[3] بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة ص[4] بعد ذكر ما أعدّ من الجنّة والنار لخلقه. فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته[5] مع إبليس ليحذّرهم من كيده ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجه من الجنّة التي هي مقرّ السعادة والراحة إلى الأرض التي هي مقرّ التكليف والتعب[6] فيحترزوا من كيده.

والصلصال: قال أبو عبيدة: الطين إذا خُلط بالرمل وجفّ. والحمأ: طين أسود منتن واحده حَمَأة بتحريك الميم.

وقال ابن عباس: المسنون: الرطب ومعناه المصبوب، لأنه لا يكون

---

(١) انظر تفسير الآية ٣٤ وما بعدها من البقرة.
(٢) انظر تفسير الآية ١١ وما بعدها من الأعراف.
(٣) انظر تفسير الآية ٥٠ من الكهف.
(٤) انظر تفسير الآية ٧١ وما بعدها من ص.
(٥) ق: وقضيته.
(٦) ق: والبعث.

مصبوباً إلا وهو رطب فكنّى عن المصبوب بوصفه لأنه[١] موضوع [له].

و«السموم» قال ابن عباس: الريح الحارّة التي تقتل. وعنه: نار لا دخان لها ومنها تكون الصواعق.

ومعنى ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أكملت خَلْقَهُ. والتسوية عبارة عن الإتقان وجعل أجزائه مستوية فيما خلقت له.

«ونفخت فيه من روحي» أي: خلقت الحياة فيه. ولا نفخ هناك ولا منفوخ حقيقة وإنّما تمثيل لتحصيل ما يجيء به فيه. وإضافة الروح إليه تعالى على سبيل التشريف نحو: بيت الله وناقة الله، أو المُلْك إذ هو المتصرّف في الإنشاء للرّوح والمُوْدِعُها حيث يشاء.

«فقعوا له ساجدين» أي: اسقطوا على الأرض.

وحرف الجر محذوف من «أن» أي: مالك في أن لا تكون وأي داعٍ دعا بك إلى إبائك السجود؟.

و«لأسجد» اللام[٢] لام الجحود. والمعنى: لا يناسب حالي السجود له. وفي البقرة[٣] نبّه على العلّة المانعة له وهي الاستكبار أي: رأى نفسه أكبر من أن يسجد. وفي الأعراف[٤] صرّح بجهة الاستكبار وهي ادّعاء الخيريّة والأفضلية، بادّعاء المادة المخلوق منها كلّ منهما . . وهنا نبّه على مادّة آدم

(١) ق: لا أنه.

(٢) ق: واللام.

(٣) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

(٤) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف]. وانظر تفسير الآيتين.

[٣٠٩/ب] وحده. وهنا «فاخرج منها» وفي الأعراف «فاهبط منها». وتقدّم ذكر الخلاف فيما يعود [عليه] ضمير «منها».

و﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ «ما» مصدرية. وهنا أقسم بالإغواء وفي مكان آخر قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص] فيكون ذلك في محاورتين. و«لأزيّنّ» جواب القسم. و«لهم» ضمير يعود على ما يُفهم من الكلام وهم ذرية آدم عليه السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ الإشارة بهذا إلى ما تضمّنه «المخلَصين» من المصدر أي: الإخلاص الذي يكون في عبادي هو صراط مستقيم لا يسلكه أحد فيضلّ أو يزلّ، لأنّ من اصطفيته أو أخلص لي بالعمل لا سبيل لك عليه. ولمّا قسم إبليس ذرّية آدم إلى غاوٍ ومخلص قال تعالى: هذا أمر مصيره إلي. ووصفه بالاستقامة إذ هو حقّ، وصيرورتهم إلى هذين القسمين ليس لك. والعرب تقول: طريقك في هذا الأمر على فلان، أي: إليه يصير النظر في أمرك. وقرأ الجمهور: عليَّ، جارّاً ومجروراً ويتعلق بقوله «مستقيم» أي: [مستقيم] على إرادتي وحكمي. وقرأ يعقوب على وزن فَعِيل[1]، وهو صفة لقوله «صراط».

والإضافة في قوله «إن عبادي» إضافة تشريف أي: إن المختصّين بعبادتي. وعلى هذا لا يكون قوله «إلاّ من اتّبعك» استثناءً متصلاً، بل يكون منقطعاً بمعنى: لكن من اتّبعه لم يندرج في قوله «إنّ عبادي». وإن كان أريد «بعبادي» عموم الخلق فيكون «إلا من اتّبعك[2]» استثناءً متّصلاً لاندراجه في عموم العباد. و«مِن» في قوله «من الغاوين» لبيان الجنس أي: الذين هم الغاوون.

---

(١) أي: صراط عَلِيٌّ، بمعنى عالٍ.

(٢) ق: تبعك.

و﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ مكان وعد اجتماعهم، والضمير للغاوين.

قال ابن عطية: و«أجمعين» تأكيد وفيه معنى الحال.انتهى.

هذا جنوح لمذهب من يزعم أن «أجمعين» يدل على اتّحاد الوقت، والصحيح أن مدلوله مدلول: كلّهم.

والظاهر أن جهنم هي واحدة و«لها سبعة أبواب» قيل: أعلاها للموحّدين والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما أعدّ لأهل النار، ذكر ما أعدّ لأهل الجنة، ليظهر تباين ما بين الفريقين.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾ تقدم شرحه في الأعراف[١]. وانتصب «إخواناً» على الحال، وهي حال من الضمير المجرور في «صدورهم» والحال من المضاف نادرة.

وقد تأوّل [أبو البقاء] نصبه على غير الحال من الضمير المجرور[٢].

«على سرر» جمع سرير. و«على سرر» و«متقابلين» حالان. والقعود على السرير دليل على الرفعة والكرامة التامة. وعن ابن عباس: على سرر مكلّلة بالياقوت والزّبرجد والدّر. «متقابلين» متساوين في التواصل والتوادد.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب مما يقاسونه في الدنيا، وإذا انتفى

(١) انظر تفسير الآية ٤٣ من الأعراف.

(٢) انظر الإملاء ٢: ٧٥، والبحر ٥: ٤٥٧.

المسّ انتفت الديمومة. واكّد انتفاء الإخراج بدخول الباء في «بمخرجين». و«منها» متعلق «بمخرجين».

ولمّا تقدم ذكر ما في النار وذكر ما في الجنة أكّد تعالى تَنْبِئَة الناس وتقرير ذلك وتمكينه في النفوس بقوله ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾. وناسب ذكر الغفران والرحمة اتصال ذلك بقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر]، وتقديماً لهذين الوصفين العظيمين اللذين وصف بهما نفسه تعالى.

وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ في غاية اللطف إذ[1] لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذب المؤلم، كل ذلك ترجيح لجهة[2] العفو والرحمة. وسدّت «أنّ» مسدّ مفعولي «نبّىء» إن قلنا إنها تعدّت إلى ثلاثة، ومسدّ واحد إن قلنا إنها تعدّت إلى [٣١٠/أ] اثنين.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ

---

(١) ق: إن.

(٢) ق: لجملة.

مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا
تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ
مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الآية، لما ذكر تعالى ما أعدّ للعاصين من النار وللطائعين من الجنّة، ذكّر العرب بأحوال من يعرفونه ممّن عصى وكذّب الرسل، فحلّ به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ليزدجروا عن كفرهم، وليعتبروا بما حلّ بغيرهم، فبدأ بذكر جدّهم الأعلى إبراهيم عليه السلام وما جرى لقوم ابن أخيه لوط، ثم بذكر أصحاب الحجر وهم قوم صالح ثم بأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب[١].

و«ضيف إبراهيم» هم الملائكة الذين بشّروه بالولد وبهلاك قوم لوط. وتقدّم الكلام عليه في سورة هود[٢]. «ونبّئهم» عدّى «نبّئهم» بحرف الجر وهو عن، ولم يذكر لها مفعولاً ولا مفعولين.

و«سلاماً» مقتطع من جملة محكيّة «بقالوا» فليس منصوباً به والتقدير: سَلِمْتَ سلاماً من السلامة، أو سلّمنا سلاماً من التّحية.

وقيل «سلاماً» نعت لمصدر محذوف تقديره: فقالوا قولاً سلاماً.

وتصريحه هنا بأنه وَجِلٌ منهم كان بعد تقريبه إليهم ما أضافهم به وهو

(١) جرى ذكر أصحاب الأيكة في الآيات قبل أصحاب الحجر.
(٢) انظر تفسير الآية ٦٩ من هود.

العجل الحنيذ[١]، وامتناعهم من الأكل. وفي هود ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۝٧٠﴾ [هود][٢] فيمكن أن هذا التصريح كان بعد إيجاس الخيفة. ويحتمل أن يكون القول هنا مجازاً بأنه ظهرت عليه مخايل الخوف حتى صار كالمصرِّح به القائل.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنّهي عن الوجل، فبشّروه بأمرين أحدهما أنه ذَكَر والثاني وَصْفُه بالعلم على سبيل المبالغة.

واستنكر إبراهيم عليه السلام أن يولد [له] مع الكبر.

و﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تأكيد استبعاد وتعجّب، وكأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ رسلُ الله تعالى إليه، فلذلك استفهم واستنكر أن يولد له. ولو علم أنهم رسل الله ما تعجّب ولا استنكر ولا سيما وقد رأى من آيات الله عياناً كيف أحيا الموتى.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا لبس فيه.

وقولهم له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ نهي، والنهي عن شيء لا يدلّ على تلبّس المنهيّ عنه به ولا بمقاربته.

وقوله ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ ردٌّ عليهم وأن المحاورة في البشارة لا تدلّ على القنوط بل ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة. وفي ذلك إشارة إلى أن هبة الولد على الكبر من رحمة الله تعالى إذ يشدّ عضد والده به، ويؤازره حالة كونه لا يستقلّ ويرث منه علمه ودينه.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ الآية، لمّا بشّروه بالولد وراجعوه في ذلك علم أنهم ملائكة الله ورسله، فاستفهم بقوله «فما خطبكم». والخطب لا يكاد يقال إلا

(١) ق: الحنيبذ.

(٢) وفي ق: «فأوجس في نفسه خيفةً» طه ٢٠: ٦٧.

في الأمر الشديد، فأضافه إليهم من حيث أنهم هم حاملوه إلى أولئك القوم المعذَّبين.

وذكر «إلى قوم مجرمين» فأبرزه في صورة النكرة وإن كان أريد به[1] معيّنون، يدلّ على ذلك قولهم في سورة هود ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝٧٠﴾ [هود] فعيّنهم. وإنّما نكّر ها هنا على سبيل الاستهانة بهم وإن كانوا معيّنين من جهة المعنى.

فقوله ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء نكرة في الظاهر ولكنهم معيّنون في المعنى. وكثيراً ما تأتي النكرة يُراد بها التعيين كقول من صحب رجلاً عالماً معيّناً فيقول: لقد صحبت رجلاً عالماً.

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من الضمير المنصوب في «منجوهم».

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: فقوله «إلا امرأته» ممّ استثني، وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثني[3] من الضمير المجرور في قوله «لمنجوّهم» وليس من الاستثناء في شيء، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتّحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتّحد الحكم في قول المطلّق [٣١٠/ ب] ثلاثاً: إلا اثنتين إلا واحدة، وفي قول المقرّ لفلان على عشرة دراهم: إلا ثلاثة إلا درهماً. فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان لأن «آل لوط» متعلق بـ«أرسلنا» أو بـ«مجرمين»، و«إلّا امرأته» قد تعلّق «بمنجّوهم» فأنى [يكون] استثناء من استثناء؟ انتهى.

(١) ق: بهم.
(٢) الكشاف ٢: ٣٩٣.
(٣) ق: استثنا، في الموضعين.

لمّا استسلف الزمخشري أن «إلا امرأته» مستثنى من الضمير المجرور، لم[1] يجوّز أن يكون استثناء من استثناء. ومن قال إنه استثناء من استثناء[2] فيمكن تصحيح كلامه بأحد وجهين: أحدهما أنه [لمّا] كان الضمير في «لمنجّوهم» عائداً[3] على «آل لوط» وقد استثنى منه المرأة فصار كأنه مستثنى من «آل لوط» لأن المضمر هو الظاهر في المعنى.

والوجه الآخر أن قوله «إلاّ آل لوط» لما حكم عليهم بغير الحكم على «قوم مجرمين» اقتضى ذلك نجاتهم في قوله «إنّا لمنجّوهم أجمعين» تأكيداً لمعنى الاستثناء إذ المعنى: إلا آل لوط، فلم يرسل عليهم بالعذاب، ونجاتهم مترتّبة على عدم الإرسال إليهم بالعذاب، فصار نظير قولك: قام القوم إلا زيداً فإنه لم يقم [أو: إلا زيداً لم يقم]. فهذه الجملة تأكيد لما تضمّنه الاستثناء من الحكم على ما بعد إلاّ بضدّ الحكم السابق على المستثنى منه. «فإلا امرأته» على هذا التقرير الذي قرّرناه استثناء من «آل لوط» لأن الاستثناء ممّا جيء به للتأسيس أولى من الاستثناء ممّا جيء به للتأكيد.

وجاء الضمير في «أرسلنا» وفي «إنا» وفي «قدّرنا» مسنداً إلى الملائكة لأنهم هم المأمورون بإهلاكهم.

ووصف «قوم» «بمنكرون» لأنه نَكِرَتْهم نفسه، ونفرت منهم وخاف أن يطرقوه بشرّ.

و﴿بَلْ﴾ إضرابٌ عن قولٍ محذوف، أي: ما جئناك لشيء تخافه، بل

---

(١) ق: ولم.

(٢) ومن قال إنه استثناء من استثناء: مكررة في ق.

(٣) ق: عائد.

جئناك بالعذاب لقومك، إذ كانوا يمترون فيه، أي: يشكّون في وقوعه، أو يجادلون فيه تكذيباً لك بما وعدتهم به عن الله تعالى.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ نهاهم أولاً عن الالتفات وأمره باتّباع أدبارهم، ويكون ذلك أحفظ لهم من أن يترك[١] ساقةً خلفه.

و«حيث تؤمرون» قال ابن عباس: هي الشام.

ولمّا ضمّن «قَضَيْنَا» معنى أوحينا تعدّت تعدّيها بإلى، أي: وأوحينا إلى لوط منقضياً مبتوتاً[٢].

والإشارة «بذلك» إلى ما وعده تعالى من إهلاك قومه. و«أنّ دابر» تفخيم للأمر وتعظيم له، وهو في موضع نصب على البدل من «ذلك».

و«مصبحين» داخلين في الصباح.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الآية، استبشارهم فرحهم بالأضياف الذين وردوا على لوط عليه السلام. والظاهر أن هذا المجيء ومحاورةَ لوط مع قومه في حق أضيافه وعَرْضَه بناتِه عليهم، كان ذلك كله قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله تعالى، ولذلك سمّاهم ضيفاً، وخاف الفضيحة منهم لأجل تعاطيهم ما لا يجوز من الفعل القبيح. وقد جاء ذلك مرتّباً هكذا في سورة هود[٣] والواو لا ترتّب.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ من الخزي وهو الإذلال، أو من الخزاية وهي الاستحياء.

---

(١) ق: ينزل. والسّاقة المؤخّرة وهي نقيض المقدمة.

(٢) ق: مبثوثاً.

(٣) في قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۝٧٨﴾ [هود].

وفي قوله ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ دليل على تقدّم نهيهم إياه عن أن يضيف أو يجير أحداً أو يدفع عنه أو يمنع بينهم وبينه، فإنهم كانوا يتعرّضون لكلّ أحد وكان هو عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينه وبين من تعرّض له. فأوعدوه بأنه إن لم ينته أخرجوه[١].

وتقدّم الكلام في قوله «بناتي» ومعنى الإضافة في هود[٢].

و«إن كنتم فاعلين» شكّ في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله تعالى دون ما حرّم.

واللام في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لام الابتداء، و«عمرك» مبتدأ خبره محذوف تقديره: لعمرك قسمي. وإذا كان في القسم كانت العين مفتوحة ومعناها البقاء [٣١١/أ] وجواب القَسَم فقيل: القَسَم من الملائكة خطاباً للوط عليه السلام، وقيل: خطاباً لرسول الله ﷺ. وكنّى عن الضّلالة والغفلة بالسّكر، أي: تحيُّرهم في غفلتهم وضلالتهم منعهم عن إدراك الصواب الذي تشير به.

و﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة الهلاك. و﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس. وقيل: أول العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس فكان تمام الهلاك.

والضمير في «عَالِيَها سَافِلَها» عائد على «المدينة» المتقدمة الذكر[٣].

---

(١) انظر مثلاً الآية ١٦٧ من الشعراء، والآية ٥٦ من النمل.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٨ في هود.

(٣) في الآية ٦٧.

﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرسين. وعن ابن عباس: هم أهل الصلاح والخير.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ أي: ممرّ ثابت وهي بحيث يراها الناس ويعتبرون بها، لم تندرس، وهو تنبيه لقريش.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في صنعنا بقوم لوط لعلامةً ودليلاً لمن آمن بالله تعالى.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ الآية، هم قوم شعيب. والأيكة التي أضيفوا إليها كانت شجر الدّوم وقيل غير ذلك. كفروا فسلّط الله عليهم الحرّ، وأُهلكوا بعذاب الظُّلة، ويأتي [ذلك] مستوفى في سورة الشعراء[1].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾[2] الضمير يعود على أصحاب الأيكة [ومدين] لأنه مرسل إليهما، فدلّ ذكر أحدهما على الآخر، فعاد الضمير إليهما.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق من الحق واضح. والإمام: الطريق.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآية، «أصحاب الحجر» ثمود قوم صالح عليه السلام.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٧٦ وما بعدها من الشعراء.

(٢) ق: وإنها.

و«الحجر» أرض[(١)] بين الحجاز والشام، وتقدمت قصته في الأعراف مستوفاة[(٢)].

و«المرسلين» يعني بتكذيبهم صالحاً، لأنّ من كذّب واحداً منهم فكأنما كذّبهم جميعاً. وتقدم ذكر قصتهم في الأعراف ويأتي أيضاً بعض خبرهم[(٣)].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: خلقاً[(٤)] ملتبساً بالحق، لم يُخلق شيء من ذلك عبثاً ولا هملاً بل ليطيع من أطاع بالتفكر في ذلك الخلق، وليتذكر النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى. ولذلك نبّه من تنبّه بقوله «وإن الساعة لآتية» فيجازي من أطاع وعصى.

---

(١) ق: أيضاً. وانظر الروض المعطار ص١٨٩.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٣ وما بعدها من الأعراف.

(٣) انظر تفسير الآية ٧٣ من الأعراف، وانظر مثلاً تفسير الآية ١٤١ وما بعدها من الشعراء، والآية ٤٥ من النمل.

(٤) ق: خلقنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ جمع مثناة، والمثناة كل شيء يُثْنى أي: يُجعل اثنين، من قولك: ثَنَيْت الشيء ثَنْياً أي: عطفته وضممت إليه آخر. وهذا مجمل لا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل؛ جوّز الزّجاج أن تكون أم القرآن سمّيت السبع المثاني، لأنها يُثنى بها على الله تعالى.

قال ابن عطية: وفي هذا القول من جهة التصريف نظر.انتهى.

لا نظر في ذلك، لأنها جمع مُثنى بضم الميم، مُفعل، من: أثنى، رباعيًا، أي: مقرّ ثناء على الله تعالى، أي: فيها ثناء على الله تعالى. وقال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم: السبع هنا آيات الحمد. قال ابن عباس: هي سبع ببسم الله الرحمن الرحيم. وقال غيره: هي سبع بدون البسملة. وقال أبو العالية: لقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطوال شيء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ ظاهره أنه خطاب لرسول الله ﷺ، والمعنى نهي أمّته عن ذلك لأن من أوتي القرآن شغله النظر فيه وامتثال تكاليفه وفهم معانيه عن الاشتغال بزهرة الدنيا، ومدّ العين للشيء، إنما هو لاستحسانه وإيثاره.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً.

ونهاه تعالى عن الحزن عليهم إن لم يؤمنوا - وكان كثير الشفقة على من بُعث إليه - وأَمَره بخفض الجناح لمن آمن، وهي كناية عن التلطّف والرفق. وأصله أن الطائر إذا ضمّ الفرخ إليه بسط جناحه له ثم قبضه على [٣١١/ب] [فرخه]. والجناحان من ابن آدم جانباه.

ثم أمره بأن يبلّغ أنه هو النذير الكاشف لكم ما جئت به إليكم من تعذيبكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون متعلقاً بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر] أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على المقتسمين القرآن فنسبوه إلى سحر وكذب وافتراء.

ومعنى ﴿عِضِينَ﴾ أي: فرقاً.

والثاني أن يكون متعلّقاً بقوله ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: إنذاراً مثل إنذار المقتسمين.

قال الزمخشري(١): فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بقوله «ولقد آتيناك» أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب، وهم المقتسمون(٢) الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا بعنادهم وعداوتهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حقّ وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول آخر: سورة آل عمران لي. ويجوز أن يُراد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذّبت ببعض. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الأولين، بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

والثاني أن يتعلق بقوله «وقل إني أنا النذير المبين» [أي]: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير. جعل المتوقّع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز لأنه إخبار بما

(١) الكشاف ٢: ٣٩٨.

(٢) ق: المقتسمين.

سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون «الذين جعلوا القرآن عضين» منصوباً «بالنذير» أي: أنذر العضين الذين يجزّئون القرآن إلى شعر وسحر وأساطير، مثلما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكّة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، ويقول الآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقتلهم بآفات كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطّلب وغيرهم. أو مثلما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا[١] صالحاً عليه السلام، والاقتسام بمعنى التقاسم. فإن قلت: إذا علّقت قوله «كما أنزلنا» بقوله «ولقد آتيناك» فما معنى توسّط «لا تمدّن» إلى آخره [بينهما]؟ قلت: لمّا كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله [عليه وسلم] عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم[٢] ومن الأمر بأن يُقْبل بمجامعه على المؤمنين انتهى.

أما الوجه الأول وهو تعلّق «كما» «بآتينا» فذكره أبو البقاء[٣] على تقدير، وهو أن يكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف تقديره: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا، أو إنزالاً كما أنزلنا، لأن «آتيناك» بمعنى: أنزلنا عليك.

وأمّا قوله: إن المقتسمين هم أهل الكتاب فهو قول الحسن ومجاهد [ورواه الحوفي عن ابن عباس.

(١) أي أن يوقعوا به ليلاً.

(٢) ق: كونهم.

(٣) انظر الإملاء ٢: ٧٧.

وأما قوله: اقتسموا القرآن، فهو قول ابن عباس] فيما رواه عنه سعيد بن جبير.

وأمّا قوله: اقتسموه فقال بعضهم: سورة البقرة إلى آخره فقاله عكرمة. وقال السّدي: هم الأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث والوليد والعاص والحارث بن قيس، ذكروا القرآن فمن قائل: البعوض لي، ومن قائل: النّمل لي، وقائل [٣١٢/أ] الذباب لي[١]، وآخر: العنكبوت لي، استهزاءً، فأهلكهم الله جميعهم.

وأما قوله: إن القرآن عبارة عما يقرؤونه من كتبهم إلى آخره، فقاله[٢] مجاهد.

وأما قوله: ويجوز أن يكون قوله «الذين جعلوا القرآن عضين» منصوباً «بالنذير» أي: أنذر العضين، فلا يجوز أن يكون منصوباً «بالنذير» كما ذكر، لأنه موصوف «بالمبين» ولا يجوز أن يعمل إذا وصف قبل ذكر المعمول على مذهب البصريين، لا يجوز: هذا عليمٌ شجاعٌ عِلْمَ النحو، فتفصل بين عليم وعلم بقولك شجاع. وأجاز ذلك الكوفيون وهي مسألة خلافية، ذكرت دلائلها في علم النحو.

وأما قوله: الذين يجزّئون[٣] القرآن إلى شعر وسحر وأساطير فمرويّ عن قتادة، إلا أنه قال بدل سحر: كهانة.

وأما قوله: الذين اقتسموا مداخل مكة، فهو قول السائب، وفيه أن

---

(١) وقائل الذباب لي: مكررة في ق.

(٢) ق: فقال.

(٣) ق: وأما قولك: الذين يجرّون.

الوليدبن المغيرة قال: ليقل بعضكم: كاهن، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاوٍ. وهم حنظلة بن أبي سفيان وعتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن هشام وأبو قيس بن الوليد وقيس بن الفاكه[١] وزهيربن أمية وهلال بن عبد الأسود والسائب[٢] بن صيفي والنضر بن الحارث وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الحجاج وأمية بن خلف وأوس بن المغيرة، تقاسموا على تكذيب رسول الله ﷺ فأهلكوا جميعاً[٣].

وأما قوله[٤]: الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً، فقول عبدالله بن زيد. قال ابن عطية: والكاف من قوله «كما» متعلّقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا النذير عذاباً كالذي أنزلنا على المقتسمين، فالكاف اسم في موضع نصب، هذا قول المفسّرين. وهذا عندي غير صحيح لأن «كما» ليس مما يقوله محمد ﷺ بل هو من قول الله تعالى فينفصل الكلام. وإنما يترتّب هذا القول بأن يقدّر بأن الله تعالى قال له: أنذر عذاباً كما. والذي أقول في هذا المعنى: وقل إني أنا النذير المبين كما قال قبلك رسلنا وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك.

ويحتمل أن يكون المعنى: وقل إني أنا النذير المبين، كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى.

أما قوله: وهو عندي غير صحيح إلى آخره فقد اعتذر بعضهم عن ذلك وقال: الكاف متعلقة بمحذوف دلّ عليه المعنى تقديره: أنا النذير بعذاب مثل

---

(١) ق: الفاكهه.

(٢) ق: وهلال.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٤: ٤٨.

(٤) وأما قوله: مكررة في ق.

ما أنزلنا، وإن كان المنزل الله، كما يقول بعض خواصّ الملك: أمَرْنا بكذا، وإن كان الملك هو الآمر.

وأما قوله: والذي أقول في هذا المعنى إلى آخره فهو كلام مُثَبَّج[١] ولعلّه أن يكون من الناسخ ولعله أن يكون: وأنزلنا عليك كما أنزلنا عليهم.

«عضين» جمع عضة، وهو لا ينقاس، جُمع بالواو رفعاً وبالياء نصباً وجرًّا، ولامه أصلها واو أو هاء يقال: عضيت تعضية أي: فرقت، وكل فرقة عِضَة؛ يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة.

والضمير في «لنسألنّهم» يظهر عوده على «المقتسمين» وهو وعيد وسؤال تقريع.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ الصدع: الشّق. وتصدّع القوم: تفرقوا. وصدعته فانصدع أي: شققته فانشق. وقال مؤرج: اصدع: افصل. وقال ابن الأعرابي: اقصد.

و«ما» في «بما تؤمر» موصولة بمعنى الذي، والعائد عليها محذوف تقديره: أُمِرْتَه أي: به. وأمر يتعدى إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف جر، ويجوز [حذفه] وقد جمع الشاعر بينهما قال[٢]: **[من البسيط]**

أَمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمرتَ به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

[٣١٢/ب] والمفعول الأول في الآية هو ضمير المخاطب المستكن في «تؤمر» والثاني الهاء المحذوفة العائدة على «ما» الموصولة.

---

(١) ثبّج الكلام: إذا لم يبيّنه.

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب، وهو من شواهد الكتاب ١: ٣٧.

قال الزمخشري[1]: يجوز أن تكون «ما» مصدرية اي: بأمرك، مصدر من المبني للمفعول.انتهى.

هذا ينبني على مذهب من يجوّز أن يكون المصدر يراد به أن والفعل المبني للمفعول، والصحيح أن ذلك لا يجوز.

ثم أخبره تعالى أنه كفاه المستهزئين بمصائب أصابتهم لم يَسْعَ فيها رسول الله ﷺ ولا تكلّف لها مشقّة.

قال عروة وابن جبير: هم خمسة: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب أبو زمعة والأسود بن عبد يغوث، ومن بني خزاعة الحارث بن الطلاطلة[2].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بالمجازاة على استهزائهم وجعلهم إلهاً مع الله تعالى في الآخرة كما جوزوا في الدنيا.

وكنّى بالصدر عن القلب لأنه محلّه، وجعل سبب الضيق ما ينطقون به من الاستهزاء والطعن فيما جاء به.

ثم أمره تعالى بتنزيهه عما نسبوا إليه من اتّخاذ الشريك معه، مصحوباً بحمده والثناء [عليه] على ما أهدى إليه من نعمة النبوة والرسالة والتوحيد وغيرها من النّعم، فهذا في المعتقد والفعل القلبي.

وأمره بكونه من الساجدين والمراد أنه من المصلّين، فكنّى بالسجود عن الصلاة، وهي أشرف أفعال الجسد «وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو

---

(١) الكشاف ٢: ٣٩٩.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٤: ٤٨، ودلائل النبوّة ص٢٦٨.

ساجد»[١].

ثم أمره تعالى بالعبادة التي هي شاملة لجميع أنواع ما يتقرّب إليه تعالى. وهذه الأوامر معناها: دُمْ على كذا؛ لأنه عليه السلام ما زال متلبّساً بها، أي: دم على التسبيح والسجود والعبادة.

والجمهور على أن المراد باليقين الموت، أي: ما دمت حيًّا فلا تُخِلَّ بالعبادة.

وقيل: ليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمّي يقيناً تجوّزاً أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١: ٣٥٠، من حديث أبي هريرة.

سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا
مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾
وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا
يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ
يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى
ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ
ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن
شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

المفردات «رُبَّ» حرف جرّ لا اسم، خلافاً للكوفيِّين والأخفش في أحد قولَيْه وابن الطَّراوة، ومعناها في المشهور التقليلُ لا التكثير[١]، خلافاً لزاعمه وناسبِه إلى سيبويه ولمن قال: لا تُفيد تقليلاً ولا تكثيراً، بل هي حرف إثبات، ودعوى أبي عبد الله الرازي[٢] الاتفاق على أنَّها موضوعة للتقليل باطلة، وقولُ الزجاج إنَّ «رُبَّ» للكثرة ضدُّ ما يعرفُه أهل اللغة[٣]، ليس بصحيح.

وفيها لغات[٤]، وأحكامُها كثيرة ذُكرت في النحو[٥]، ولم تقع في القرآن إلا في هذه السورة على كثرة وقوعها في لسان العرب. «ذَرْ» أمرٌ استُغْنِيَ غالباً عن ماضيه بـ «تَرَكَ»، وفي الحديث: «ذَرُوا الحبشةَ ما وَذَرَتْكُم»[٦].

«لَوْمَا» حرفُ تحضيض فيليها الفعلُ ظاهراً أو مضمراً، وحرفُ امتناع لوجود فيليها الاسم مبتدأً على مذهب البصريِّين، ومنه قولُ الشاعر:

لَوْمَا الحيَاءُ ولَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُما ببعضِ ما فيكما إذْ عِبْتُما عَوَرِي[٧]

وقال بعضهم: الميم في «لَوْمَا» بَدلٌ من اللام في «لولا» ومثلُه: استَوْلَى على

(١) وكذا قال المصنف في تذكرة النحاة ص٥، واختارَ في الارتشاف ٤/ ١٧٣٨ أنها لم توضع لتقليل ولا لتكثير، بل ذلك مستفادٌ من سياق الكلام. وكذا قال في النهر المادّ (بهامش البحر ٥/ ٤٤٣).

(٢) تفسيره ١٥/ ١٥٢.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٣.

(٤) في «رُبَّ» ستَّ عشرة لغة كما ذكر ابن هشام في المغني ص١٨٤: ضمُّ الراء وفتحُها، وكلاهما مع التشديد والتخفيف، والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ساكنةً أو محركة ومع التجرُّد منها، فهذه اثنتا عشرة، والضمُّ والفتح مع إسكان الباء، وضمّ الحرفين مع التشديد ومع التخفيف.

(٥) ينظر شرح التسهيل ٣/ ٦، وتذكرة النحاة ص٥، والارتشاف ٤/ ١٧٣٧، وهمع الهوامع ٢/ ٤٢٩.

(٦) أخرج ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٧٥٤) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً: «اتركُوا التُّركَ ما تركوكم، وذَرُوا الحبشةَ ما وذَرُوكم».

(٧) البيت لتميم بن أُبيّ بن مقبل، وهو بهذه الرواية في مجاز القرآن ١/ ٣٤٦، وتفسير الطبري ١٤/ ١٥، والكشاف ٢/ ٣٨٧. والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١. وهو في ديوانه ص٧٦ برواية: لولا الحياء ولولا الدين...

الشيء واسْتَوْما، وخاللتُه وخالمتُه فهو خَلّي وخِلْمِي، أي: صديقي.

وقال الزمخشري[١]: «لَوْ» رُكِّبَتْ مع «لا» و«ما» لمعنيين، وأمَّا «هَلْ» فلم تُركَّب إلا مع «لا» وحدَها للتحضيض. انتهى. والذي أختارُه البساطة فيهما لا التركيبَ، وأنَّ «ما» ليست بدلاً من «لا».

سلكَ الخيطَ في الإبرة وأسلَكَها: أدخلَه فيها ونَظَمَه. قال الشاعر:

حتى إذا أسْلَكُوهُمْ في قُتائدةٍ شَلًّا كما تَطْرُدُ الجَمَّالَةُ الشُّرُدَا[٢]

وقال الآخر:

وكنتُ لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ وقد سَلَكُوكَ في يومٍ عَصِيبِ[٣]

الشِّهاب شُعْلَةُ النار، ويُطلق على الكوكب لبريقِه شبّه بالنار، وقال أبو تمَّام:

والعِلْمُ في شُهُب الأرماحِ لامعةً بين الخَمْيسَيْنِ لا في السَّبعةِ الشُّهُبِ[٤]

اللَّواقح: الظاهرُ أنها جمع لاقح، أي ذوات لِقاح، كَلَابِن وتَامر، وذلك أنَّ الرِّيح تمرُّ على الماء، ثم تمرُّ على السَّحاب والشجر فيكون فيها اللِّقاح. قاله الفرَّاء[٥].

وقال الأزهريّ: حواملُ تحملُ السحابَ وتُصرِّفُه[٦]. وناقة لاقح ونُوقٌ لَواقح إذا حملتِ الأَجِنَّة في بطونها. وقال زهير:

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٢) البيت لعبد مناف بن رِبْع، وهو في ديوان الهُذليين ٢/ ٤٢، وجاء في شرحه: قُتائدة، أي: ثَنِيَّة، وشلًّا، على تقدير: شَلُّوهم شَلًّا، والجَمَّالة: أصحاب الجِمال.

(٣) البيت لعديّ بن زيد، وهو في مجاز القرآن ١/ ٢٩٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٢٢، والأغاني ٢/ ١١١، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.
قوله: لِزَازَ خَصمِك، أي: لا أَدَعُ خَصْمَك يُخالف ويُعاند.
وقوله: لم أُعَرِّدْ، أي: لم أُحجِم، وتحرف في مطبوع البحر وبعض النسخ إلى: لم أعوّد.

(٤) هو البيت الثالث من بائيَّته التي مدحَ بها المعتصم، والتي مطلعُها: السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ. ديوانه ١/ ٤١ (بشرح التبريزي).

(٥) بنحوه في معانيه ٢/ ٨٧.

(٦) تهذيب اللغة ٤/ ٥٦.

إذا لَـقِـحَـتْ حَـرْبٌ عَـوَانٌ مُـضِـرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ[١]

وقال أبو عبيدة: أي: مَلَاقِح جمع مُلْقِحَة[٢]، لأنها تُلقِحُ السحابَ بإلقاء الماء. وقال:

ومُـخْـتَـبِـطٌ مـمَّـا تُـطِـيـحُ الـطَّـوائـحُ[٣]

أي: المَطَاوِح، جمع مُطِيحة.

الصَّلْصَال؛ قال أبو عبيدة: الطِّين إذا خُلط بالرَّمل وجَفّ. وقال أبو الهيثم: الصَّلْصَال: صَوتُ اللِّجام وما أشبهَه، وهو مثل القعقعة في الثوب. وقيل: التراب المُدَقَّق، وصَلْصَلَ الرَّمل: صَوَّتَ، وصَلْصَال بمعنى مُصَلْصِل، كالقَضْقَاض، أي: المُقَضْقِض، وهو فيه كثير، ويكون هذا النوع من المضعَّف مصدراً، فتقول: زَلْزَلَ زَلْزالاً، بالفتح، وزِلْزالاً بالكسر، ووزنُه عند البصريين فَعْلَال، وهكذا جميع المضاعف، حروفُه كلُّها أصولٌ، لا «فَعْفَعَ» خلافاً للفرَّاء وكثيرٍ من النحويِّين[٤]، ولا «فَعْفَلَ» خلافاً لبعض البصريِّين وبعضِ الكوفيين، ولا أنَّ أصلَه «فَعَّلَ»[٥] بتشديد العين أُبدل من الثاني حرفٌ من جنس الحرف الأول خلافاً لبعض الكوفيِّين. وينبني على هذه الأقوال وزنُ[٦] صَلْصَال.

الحَمأ: طِينٌ أسودُ مُنتِن، واحِدُه حَمَأة، بتحريك الميم. قاله الليث ووُهِّمَ في

(١) ديوان زهير (بشرح ثعلب) ص١٠٣. قال ثعلب: لَقِحَتْ: اشتدَّت، وعَوَانٌ: ليست بأولى؛ قد قُوتِلَ فيها مرَّةً بعد مَرَّة، وضَرُوس: عَضُوض سيِّئة الخُلُق. تُهِرُّ الناسَ: أي: تُصَيِّرُهُم يَهِرُّونَها، أي: يكرهونها، وعُصْلٌ: كالحةٌ معوجَّة.

(٢) بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٣٤٨. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٧، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٩٥. قال أبو عبيدة: العرب قد تفعلُ هذا فتُلقي الميم لأنها تُعيدُه إلى أصل الكلام.

(٣) هو عجز بيت نُسبَ في الكتاب ١/ ٢٨٨ للحارث بن نَهِيك، وفي الخزانة ١/ ٣٠٩ لِنَهْشَل بنِ حَرِّيّ، وهو دون نسبة في المقتضب ٣/ ٢٨٢، والخصائص ٢/ ٣٥٣ و٤٢٤. وصدرُه: لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخُصُومَةٍ، وفي رواية: لِيَبْكِ يزيدَ ضارعٌ لخُصُومَةٍ، وهي رواية أخرى في مجاز القرآن ١/ ٣٤٩، وتفسير الطبري ١٤/ ٤٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٧.

(٤) قال السمين في الدّرّ المصون ٧/ ١٥٦: هذا غلط؛ لأن أقل الأصول ثلاثة.

(٥) يعني: صَلَّلَ.

(٦) تحرفت اللفظة في (أ) و(د١) و(د٢) و(ع) ومطبوع البحر إلى: ورب.

ذلك، وقالوا: لا يُعرَفُ في كلام العرب الحَمْأة إلا ساكنة الميم. قاله أبو عبيدة والأكثرون[١]، كما قال أبو الأسود:

تَجِئْكَ[٢] بِمِلْئِها طَوْراً وطَوْراً تجيءُ بِحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ[٣]

وعلى هذا لا يكون «حَمَأ» بينه وبين مفرده تاء التأنيث لاختلاف الوزن.

السَّمُوم: إفراطُ الحَرِّ يدخلُ في المَسَامِّ حتى يَقتُلَ من نارٍ أو شمسٍ أو ريح.

وقيل: السَّمُوم بالليل، والحَرُورُ[٤] بالنهار[٥].

* * *

التفسير ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾.

هذه السورة مكيَّة بلا خلاف[٦]، ومناسبتُها لِما قبلَها أنه تعالى لمَّا ذكرَ في آخر السورة قبلَها أشياءَ من أحوالِ القيامة؛ من تبديل السَّماوات والأرضِ، وأحوالِ

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٨٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٤.
(٢) المثبت من (ز١)، وفي النسخ الأخرى (غير يه فمهملة من النقط) والمطبوع: يجئك.
(٣) البيت بهذه الرواية في المستقصى في أمثال العرب ١/ ١٣٨، وبنحوه في ديوانه ص١٦٠، ومجاز القرآن ١/ ٤١٣، والمحاسن والأضداد ص٨٣، وجمهرة الأمثال ١/ ٧٤، ومجمع الأمثال ٢/ ١٩٠، والتذكرة الحمدونية ٧/ ١٣٣، ويوضِّحه البيتُ قبلَه (كما في الجمهرة):

وما طَلَبُ المعيشةِ بالتَّمَنِّي ولكنْ أَلْقِ دَلْوَكَ في الدِّلاءِ

(٤) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: الحر. وهو خطأ.
(٥) جاء بعده في (يه) ما صورتُه: «وقال الشاعر: ترى السَّموم كلما هبت بي، تُحرِّكُ أعضائي وتذيقني السوءا. وقال آخر: هبت عليّ نسمة فألفيت منها، ريحاً كالسَّموم يقصفُ طولي». ولم يتبيَّن لي هذا الكلام ولا وزنُه، وقد أوردته كما جاء في هذه النسخة.
(٦) نقل المصنف الإجماع على أنها مكية في تفسير سورة الفاتحة، وكذا نقل ابن عطية ١/ ٦٥، والقرطبي ١/ ١٧٧. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٧٩: مكية كلُّها من غير خلاف نعلُمه، وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٤٧: مكيَّة باتِّفاق إلا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ فمدنيَّة. وذكر الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٣٧٧ أنَّ الظاهر في عدم ذكر هذا الاستثناء من بعض المفسِّرين ظاهر في قلَّة التَّتبُّع.

الكفار في ذلك اليوم، وأنَّ ما أتى به هو على حَسَب التبليغ والإنذار؛ ابتدأ في هذه السورة بذكرِ القرآن الذي هو بلاغٌ للناس وأحوالِ الكفَرَة ووَدَادَتِهم لو كانوا مسلمين.

قال مجاهد وقتادة: الكتابُ هنا ما نزلَ من الكتب قبل القرآن(١). فعلى قولهما تكون «تلك» إشارة إلى آيات الكتب(٢).

قال ابن عطيّة(٣): ويحتمل أن يُراد بالكتاب القرآن، وعُطفت الصفة عليه.

ولم يذكر الزمخشريّ إلا أنَّ «تلك» إشارة إلى ما تضمَّنَتْ(٤) السورة من الآيات؛ قال: والكتابُ والقرآنُ المبين: السورةُ، وتنكيرُ القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك آياتُ الكتاب الكامل(٥) في كونهِ كتاباً وآيَ قرآنٍ مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان(٦).

والظاهر أنَّ «ما» في «رُبَّما» مُهَيِّئة، وذلك أنَّها من حيث هي حرفُ جرّ لا يليها إلا الأسماء، فجيء بـ «ما» مهيِّئة لمجيء الفعل بعدَها.

وجَوَّزُوا في «ما» أن تكون نكرة موصوفة، و«رُبَّ» جارَّة لها، والعائدُ من جملة الصفة محذوف، تقديرُه: رُبَّ شيءٍ يودُّه الذين كفروا، و«لو كانوا مسلمين» بدلٌ من «ما» على أنَّ «لَوْ» مصدريَّة، وعلى القول الأوَّل تكون في موضع نصب على المفعول لـ «يَوَدُّ»، ومن لا يرى أنَّ «لَوْ» تأتي مصدريَّة جعلَ مفعول «يَوَدُّ» محذوفاً و«لو» في «لو كانوا مسلمين» حرفٌ لما كان سيقع لوقوع غيره، وجواب «لَوْ» محذوف، أي: رُبَّما يودُّ الذين كفروا الإسلامَ؛ لو كانوا مسلمين لَسُرُّوا بذلك وخَلَصُوا من العذاب.

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ١٤/ ٥-٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩، واللفظ له.

(٢) في (ح) و(د١) و(ع) ومطبوع البحر: الكتاب. وهو خطأ.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.

(٤) في المطبوع: إلا أن تلك الإشارة لما تضمنته، وفي (د٢): إلا أن قال تلك إشارة إلى ما.... والكلام في الكشاف ٢/ ٣٨٥.

(٥) كلمة «الكامل» ليست في الكشاف.

(٦) المثبت من (ز١) و(يه). وهو كذلك في المصدر السالف. وفي النسخ الأخرى ومطبوع البحر: الشأن.

ولمَّا كانت «رُبَّ» عند الأكثرين لا تدخلُ على مستقبل تأوَّلُوا «يَوَدُّ» في معنى «وَدَّ» لمَّا كان المستقبلُ في إخبار الله لتحقُّقِ وقوعِه كالماضي، فكأنَّه قيل: وَدَّ. وليس ذلك بلازم، بل قد تدخلُ على المستقبل، لكنَّه قليل بالنسبة إلى دخولها على الماضي، وممَّا وردت فيه للمستقبل قولُ سُليم القُشيريّ:

ومُعتصمٍ بالحيِّ[1] من خَشْيَةِ الرَّدَى سَيَرْدَى وغازٍ مُشْفِقٍ سيؤوبُ

وقولُ هند أُمّ معاوية:

يا رُبَّ قائلةٍ غداً يا لَهْفَ أُمّ مُعاوِيَهْ[2]

وقولُ جَحْدَر:

فإنْ أَهْلِكْ فَرُبَّ فَتًى سيبكي عليَّ مُهَذَّبٍ رَخْصِ البَنَانِ[3]

في عدة أبيات.

وقولُ أبي عبد الله الرَّازيّ: إنّهم اتفقوا على أن كلمة «رُبَّ» مختصَّة بالدخول على الماضي، لا يصحُّ، فعلى هذا لا يكون «يَوَدُّ» محتاجاً إلى تأويل، وأمَّا من تأوَّلَ ذلك على إضمار «كان» أي: ربَّما كان يودُّ فقولُه ضعيف، وليس هذا من مواضع إضمار «كان»[4]، ولمَّا كان عند الزمخشريّ وغيرِه أنَّ «رُبَّ» للتقليل، احتاجوا إلى تأويل مجيء «رُبَّ» هنا، وطوَّلَ الزمخشريُّ[5] في تأويل ذلك.

ومن قال: إنها للتكثير فالتكثير فيها هنا ظاهرٌ لأنَّ وَدَادَتَهم ذلك كثيرة، ومن قال: إنَّ التقليل والتكثير إنَّما يُفهم من سياق الكلام لا من موضع «رُبَّ» قال: دَلَّ سياقُ الكلام هنا على الكثرة.

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: بالجُبن. وينظر التعليق التالي.
(٢) هذا البيت والذي قبله في شرح التسهيل ٣/ ٥٠-٥١.
(٣) جَحْدَر: هو ابنُ مالك الحنفي، كان لصًّا، فأخذه الحجَّاج وحبَسَه، فأنشد قصيدة في الحبس، وهذا البيت منها. ينظر أمالي القالي ١/ ٢٨٢، وخزانة الأدب ١١/ ٢٠٩، وشرح التسهيل ٣/ ٥٠. وقوله: رَخْص البنان، أي: ناعمها.
(٤) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٥٣.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٦.

وقيل: تُدهِشُهم أهوالُ ذلك اليوم، فيَبْقَوْنَ مبهوتين، فإن كانت[١] منهم إفاقةٌ في بعض الأوقات من سكرتهم تَمَنَّوا، فلذلك قلّل.

وقرأ عاصم ونافع: «رُبَما» بتخفيف الباء، وباقي السبعة بتشديدها، وعن أبي عَمرو الوجهان[٢].

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف وزيد بنُ علي: «رُبَّتَما» بزيادة تاء[٣].

ومتى يَوَدُّون ذلك؟ قيل: في الدنيا، فقال الضَّحَّاك: عند معاينة الموت[٤]. وقال ابن مسعود: هم كفار قريش وَدُّوا ذلك يومَ بدر حين رأوا الغلَبة للمسلمين[٥]. وقيل: حين حلَّ بهم ما حلَّ من تملّك المسلمين أرضَهم وأموالَهم ونساءَهم، ودُّوا ذلك قبلَ أن يَحُلَّ بهم ما حَلَّ.

وقيل: ودُّوا ذلك في الآخرة، إذا أُخرجَ عصاةُ المسلمين من النار. قاله ابنُ عباس وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم، ورواه أبو موسى عن رسول الله ﷺ، وقرأ الرسول هذه الآية[٦].

وقيل: حين يَشْفعُ الرسول ويُشَفَّع حتى[٧] يقول: مَنْ كان من المسلمين فليدخلِ الجنة. رواه مجاهد عن ابن عباس[٨]. وقيل: إذا عاينُوا القيامة. ذكره الزجاج[٩]. وقيل: عند كلِّ حالة يعذَّبُ فيها الكافر ويَسْلَم المؤمن. ذكره ابن الأنباريّ[١٠].

---

(١) في المصدر السالف (والقول فيه): حانت.
(٢) السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩.
(٤) النكت والعيون ٣/ ١٤٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠، وبنحوه في زاد المسير ٤/ ٣٨١.
(٥) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٥٥.
(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٠-٣٨١. وحديث أبي موسى أخرجه الطبري ١٤/ ٨، والثعلبي ٣/ ٤٧٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤٢، وبمعناه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٧٢.
(٧) في (ح) و(د١) و(يه): حين.
(٨) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٧٩، وزاد المسير ٤/ ٣٨١.
(٩) بنحوه في معانيه ٣/ ١٧٢، وبلفظه عنه في زاد المسير ٤/ ٣٨٠.
(١٠) نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٨١.

ثم أمرَ تعالى نبيَّه بأن يَذَرَهُم[١]، وهو أمرُ وعيدٍ لهم وتهديد، أي: ليسُوا ممَّن يَرْعَوِي عمَّا هو فيه من الكفر والتكذيب، ولا ممَّن تنفعُه النصيحة والتذكير، فهم إنما حظُّهم حظُّ البهائم من الأكل والتمتُّع بالحياة الدنيا، والأملُ في تحصيلها هو الذي يُلهيهم ويَشْغَلُهم عن الإيمان بالله ورسولِه.

وفي قوله: «يأكلوا ويتمتَّعوا» إشارة إلى أنَّ التلذُّذ والتنعُّم وعدمَ الاستعداد للموت والتأهُّب له ليس من أخلاق من يطلبُ النجاةَ من عذاب الله في الآخرة.

وعن بعض العلماء: التمرُّغ[٢] في الدنيا من أخلاق الهالكين.

وقال الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساء العملَ[٣].

وانجزمَ «يأكلوا» وما عُطف عليه جواباً للأمر، ويظهرُ أنه أمرٌ بترك قتالهم وتخليةِ سبيلِهم[٤] وبمهادنتِهم ومُوَادَعتِهم، ولذلك ترتَّبَ أن يكون[٥] جواباً، لأنه لو شغلَهم بالقتال ومُصالتةِ السيوف وإيقاعِ الحرب ما هَناهُم أكلٌ ولا تمتُّع، ويدلُّ على ذلك أنَّ السُّورة مكيَّة، وإذا جعلتَ «ذَرْهُم» أمراً بترك نصيحتهم وشغلِ بالِه بهم، فلا يترتَّبُ عليه الجواب، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواءٌ أَتَرَكَ نصيحتَهم أم لم يتركها.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، أي: فسوف يعلمون عاقبةَ أمرِهم وما يؤولون إليه في الدُّنيا من الذُّلِّ والقتل والسَّبْي، وفي الآخرة من العذاب السَّرْمَديّ.

ولمَّا توعَّدَهم بما يَحُلُّ بهم أردفَ ذلك بما يُشعِرُ بهلاكهم وأنه لا يُستبطَأ، فإنَّ له أجلاً لا يتعدَّاه، والمعنى: من أهل قرية كافرين، والظاهر أنَّ المراد بالهلاك هلاكُ الاستئصال لمكذِّبي الرُّسل، وهو أبلغُ في الزَّجر. وقيل: المرادُ الإهلاكُ بالموت.

---

(١) المثبت من (يه)، وفي النسخ الأخرى (غير ز١) ومطبوع البحر: ينذرهم، وتحتمل الوجهين في (ز١).

(٢) في (د١) ومطبوع البحر: التمتع. والقول في الكشاف ٢/ ٣٨٧، والكلام قبله فيه بنحوه.

(٣) القول في تفسير القرطبي ١٢/ ١٧٧-١٧٨ بأطول منه.

(٤) المثبت من (ح) و(د١). وفي النسخ الأخرى: وتخليته.

(٥) المثبت من (د١) والمطبوع، وعبارة النسخ الأخرى: ولذلك ترتب ذلك أن يكون. . .

والواو في قوله: «وَلَها» واو الحال. وقال بعضهم: مقحمة، أي: زائدة. وليس بشيء. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَة بإسقاطها[١].

وقال الزمخشريّ[٢]: الجملة واقعة صفةً لـ «قرية» والقياسُ أن لا تتوسَّطَ الواو بينَهما كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وإنما توسَّطَتْ لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب. انتهى. ووافقَه على ذلك أبو البقاء، فقال[٣]: الجملة نعت لـ «قرية» كقولك: ما لَقِيتُ رجلاً إلا عالماً. قال: وقد ذكرنا حالَ الواو في مثل هذا في البقرة في قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [٢١٦] انتهى.

وهذا الذي قاله الزمخشريُّ وتَبِعَه فيه أبو البقاء لا نعلمُ أحداً قاله من النحويِّين[٤]، وهو مبنيّ على أنَّ ما بعدَ «إلَّا» يجوزُ أن يكون صفة، وقد منعوا ذلك. قال الأخفش: لا يُفصل بين الصفة والموصوف بـ «إلا»، ثم قال: ونحوُ: ما جاءني رجلٌ إلا راكبٌ، تقديرُه: إلا رجلٌ راكبٌ، وفيه قُبح لِجَعْلك الصفةَ كالاسم.

وقال أبو عليّ الفارسيّ: تقول: ما مررتُ بأحدٍ إلا قائماً ـ «قائماً» حال من «أحد» ـ ولا يجوز: إلا قائمٍ، لأنَّ «إلا» لا تعترضُ بين الصفة والموصوف.

وقال ابن مالك وقد ذكرَ ما ذهب إليه الزمخشريّ من قوله في نحو: ما مررتُ بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه: إنَّ الجملة بعد «إلا» صفة لـ «أحد»: إنَّه مذهب لم يُعرف لبصريّ ولا كوفيّ، فلا يُلتفتُ إليه. وأبطلَ ابنُ مالك قولَ الزمخشريّ: إنَّ الواو توسَّطت لتأكيد لُصوق الصفة بالموصوف[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠.
(٢) الكشاف ٢/ ١٨٧.
(٣) الإملاء ٢/ ٧٢.
(٤) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٧/ ١٤٢: في محفوظي أنَّ ابنَ جني سبقهما إلى ذلك.
(٥) للسمين تعقُّب على هذا الكلام بأن الصفة كالحال في المعنى وإن كان بينهما فرق من بعض الوجوه. وينظر تتمة كلامه.

وقال القاضي منذر بنُ سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أنَّ الحالة التي بعدَها في اللفظ هي في الزمن قبلَ الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] انتهى.

والظاهر أنَّ الكتاب المعلوم هو الأجلُ الذي كُتب في اللوح وبُيِّن؛ يَدُلُّ على ذلك ما بعدَه. وقيل: مكتوبٌ فيه أعمالُهم وأعمارُهم وآجالُ هلاكِهم.

وذكرَ الماورديّ «كتاب معلوم» أي: فرضٌ محتوم، و«مِن» زائدة تفيدُ استغراقَ الجنس، أي: ما تسبقُ أمةٌ، وأنَّث «أَجَلَها» على لفظ «أُمَّة»، وجمعَ وذَكَّرَ في «وما يستأخرون» حملاً على المعنى[1]، وحذف «عنه» لدلالةِ الكلام عليه.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية[2] والنَّضْرِ بنِ الحارث ونوفل بنِ خُويلد والوليد بنِ المغيرة.

وقرأ زيد بنُ عليّ: «نَزَلَ عليه الذِّكْر» ماضياً مخفَّفاً مبنيّاً للفاعل. وقرأ الأعمش[3]: «يا أيها الذي أُلْقِيَ إليه[4] الذِّكْرُ» وينبغي أن تُجعل هذه القراءة تفسيراً لأنها مخالفة لسَوَاد المصحف.

وهذا الوصفُ بأنه الذي نُزِّلَ عليه الذِّكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف، لأنهم لا يُقِرُّون بتنزيل الذِّكر عليه ويَنْسُبونَه إلى الجُنون، وهذا كقولِ

(١) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٨٧.
(٢) كذا في النسخ، والصواب: بن أبي أمية، كما في زاد المسير ٤/ ٣٨٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١. واسم أبي أمية حذيفة، وقيل: سهل، وهو ابن المغيرة المخزومي. وقد أسلم عبد الله عام الفتح وحسن إسلامه. ينظر الإصابة ٦/ ١١.
(٣) قوله: الأعمش، من (ز١) و(يه). وسقط من النسخ الأخرى.
(٤) في (يه): عليه، وهو كذلك في القراءات الشاذة ص٧٠، والكشاف ٢/ ٣٨٧، وبرواية «إليه» في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[(١)] [الشعراء: ٢٧]، إذْ لو كان مؤمناً برسالة موسى[(٢)] ما أخبر عنه بالجنون.

ثم اقترحوا عليه أن يأتيَهم بالملائكة شاهدين لصدقك ولصحةِ دعواك وإنذارِك كما قال: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، أو مُعاقِبين على تكذيبك كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ[(٣)].

وقرأ الحِرْمِيَّان والعربيَّان: «ما تَنَزَّلُ» مضارع تَنَزَّلَ، أي: ما تَتَنَزَّلُ، «الملائكةُ» بالرفع. وقرأ أبو بكر ويحيى بن وثَّاب: «ما تُنَزَّلُ» بضمّ التاء وفتح النون والزاي «الملائكةُ» بالرفع. وقرأ الأخَوان وحفص وابنُ مُصَرِّف: «ما نُنَزِّلُ» بضمّ النون الأولى وفتح الثانية وكسر الزاي «الملائكةَ» بالنصب[(٤)].

وقرأ زيد بنُ علي: «ما نَزَلَ» ماضياً مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل «الملائكةُ» بالرفع.

و«الحقّ» هنا: العذاب؛ قاله الحسن، أو الرسالة؛ قاله مجاهد، أو قبض الأرواح عند الموت؛ قاله ابنُ السائب، أو القرآن؛ ذكره الماورديّ[(٥)].

وقال الزمخشريّ[(٦)]: [«إلَّا بالحقِّ»]: إلَّا تَنَزُّلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمةَ في أنْ تأتيَكم عِياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبيِّ ﷺ، لأنكم حينئذٍ مصدِّقون عن اضطرار.

وقال ابن عطية[(٧)]: والظاهرُ أنَّ معناها كما يجبُ ويَحِقُّ من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض. ثم ذكرَ

---

(١) قوله: وهذا كقول فرعون... الخ، من (ز١) و(يه)، وسقط من النسخ الأخرى والمطبوع. والكلام بنحوه في الكشاف ١/ ٣٨٧.

(٢) في (ح) و(د١) و(يه): برسالته، بدل: برسالة موسى.

(٣) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٤) ينظر السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١، قوله: الحِرْمِيّان، أي نافع المدني وابن كثير المكي، والعربيَّان: أبو عمرو البصري وابن عامر الشامي.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٧-١٨، والنكت والعيون ٣/ ١٤٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١. والكلام في زاد المسير ٤/ ٣٨٤.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٨٧. وزدتُ منه ما بين حاصرتين (وهو لفظ الآية) للإيضاح.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

عادةَ الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآيةِ اقتراح إلا ومعها العذاب في إثرها إنْ لم يؤمنوا، فكأنَّ الكلام: ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بحقٍّ واجبٍ لا باقتراحِكم، وأيضاً فلو نزلَتْ لم تُنظَرُوا بعد ذلك بالعذاب، أي: تُؤَخَّرُوا، المعنى: وهذا لا يكون، إذْ كان في علم الله أنَّ منهم من يؤمنُ أو يَلِدُ مَنْ يُؤمن.

وقال الزمخشريّ. و«إذن» جوابٌ وجزاء، لأنَّه جوابٌ لهم، وجزاءٌ لِشرطٍ مقدَّر، تقديرُه: ولو نزَّلْنا الملائكةَ ما كانوا مُنظَرين وما أُخِّرَ عذابُهم.

ولمَّا قالوا على سبيل الاستهزاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ رَدَّ عليهم بأنَّه هو المنزِّلُ عليه، فليس من قِبَلِه ولا قِبَلَ أحدٍ، بل هو تعالى الذي بعثَ به جبريلَ عليه السلام إلى رسوله، وأكَّدَ ذلك بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ بدخول «إنَّ»، وبلفظ «نحن» و«نحنُ» مبتدأ، أو تأكيد لاسم «إنَّ».

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي: حافظون له من الشياطين، وفي كلِّ وقت تكفَّل تعالى بحفظه، فلا تعتريه زيادة ولا نقصان، ولا تحريفٌ ولا تبديل، بخلاف غيرِه من الكتب المتقدِّمة، فإنه تعالى لم يتكفَّل حِفْظَها، بل قال تعالى: إنَّ الرَّبَّانيِّين والأحْبارَ استُحفظوها[1]، ولذلك وقع فيها الاختلافُ، وحفظُه إيَّاه دليلٌ على أنه من عنده تعالى، إذ لو كان من قول البشر لتطرَّقَ إليه ما تطرَّق لكلام البشر.

وقال الحسن: حِفْظُه بإبقاء شريعتِه إلى يوم القيامة[2].

وقيل: يحفظُه في قلوب من أرادَ بهم خيراً[3]؛ حتى لو غيَّر أحدٌ نقطةً لقالَ له الصِّبيان: كذبتَ، وصوابُه كذا، ولم يتفق هذا لشيءٍ من الكتب سِواه، وعلى هذا فالظاهرُ أنَّ الضمير في «له» عائدٌ على «الذِّكْر» لأنه المُصَرَّحُ به في الآية، وهو قولُ الأكثر؛ مجاهدٍ وقتادةَ وغيرِهما[4].

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]. والكلام أعلاه هو بمعنى قول لسفيان بن عُيينة جاء ضمن قصة أوردها القرطبي ١٢/ ١٨١. وينظر الكشاف ٢/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٢) لفظه في النكت والعيون ٣/ ١٤٩: حفظُه حتى يجزى به يوم القيامة.

(٣) بنحوه في النكت والعيون ٣/ ١٤٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٨-١٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢، وزاد المسير ٤/ ٣٨٤.

وقالت فرقة: الضمير في «له» عائد على رسول الله ﷺ، أي: يحفظُه من أذاكم ويَحُوطُه من مكرِكم[١]، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي ضمن هذه الآية التبشيرُ بحياة رسول الله ﷺ حتى يُظهِرَ اللهُ به الدِّين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

لمَّا ذكرَ تعالى استهزاءَ الكفار به عليه الصلاة والسلام ونِسبتَه إلى الجنون واقتراحَ نزولِ الملائكة؛ سَلَّاه تعالى بأنَّ مَنْ أُرسِلَ من قبلك كان دَيْدَنُ المُرْسَل إليهم مثلَ دَيْدَنِ هؤلاء معك.

وتقدَّم تفسير الشِّيَع في أواخر الأنعام.

ومفعول «أرْسَلْنا» محذوف، أي: رسلاً من قبلك. وقال الفرَّاء: «في شِيَع الأوَّلين» هو من إضافة الشيء إلى صفته[٢]، كقوله: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] أي: الشِّيَع الأوَّلين، وهذا لا يقولُ به سيبويه بل البصريُّون يتأوَّلون ذلك على حذف الموصوف، أي: في شِيَع الأمم الأوَّلين، والأوَّلُون هم الأقدمون.

وقال الزمخشري[٣]: «وما يأتيهم» حكايةُ حالٍ ماضية لأنَّ «ما» لا تدخلُ على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريبٌ من الحال. انتهى. وهذا الذي ذكرَه هو قولُ الأكثر من أنَّ «ما» تخلِّص المضارعَ للحال وتعيِّنه له، وذهب غيرُه إلى أنّ «ما» يكثُرُ دخُولُها على المضارع مراداً به الحالُ، وتدخلُ

(١) أورده الطبري ١٤/١٩، والثعلبي ٣/٤٧٩ بصيغة «قيل» دون نسبة، ونُسب في زاد المسير ٤/٣٨٤ لابن السائب ومقاتل، والكلام في المحرر الوجيز ٣/٣٥١-٣٥٢.

(٢) في الدر المصون ٧/١٤٦: من إضافة الموصوف إلى صفته، ووقع في تفسير الرازي ١٩/١٦٢ (وفيه كلام الفراء): من إضافة الصفة إلى الموصوف. ولم أقف عليه في معاني الفراء.

(٣) الكشاف ٢/٣٨٨.

عليه مُراداً به الاستقبال، وأُنشِدَ شاهداً على ذلك قولُ أبي ذؤيب:

أَوْدَى بَنِيَّ وأَوْدَعُونِي حَسْرَةً عِندَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً ما تُقْلِعُ[1]

وقولُ الأعشى يمدحُ الرَّسولَ عليه الصلاة والسلام:

لـه نافلاتٌ ما يُغِبُّ نَوَالُها وليس عَطَاءُ اليومِ مانِعَهُ غَدَا[2]

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

والضمير في «نسلُكُهُ» عائدٌ على الذِّكر. قاله الزَّمخشريّ؛ قال[3]: والضمير للذِّكر، أي: مِثْلَ ذلك السَّلْكِ ونحوِهِ نَسْلُكُ الذِّكْرَ في قلوب المجرمين، على معنى أنه يُلقيه في قلوبهم مكذَّباً مستهزَأً به غيرَ مقبول؛ كما لو أنزلتَ بلئيم حاجةً فلم يُجِبْك إليها، فقلت: كذلك أُنزلُها باللئام، يعني مثلَ هذا الإنزال أُنزلُها بهم مردودةً غيرَ مقضيَّة، ومحلُّ قوله: «لا يؤمنون» النصبُ على الحال، أي: غيرَ مُؤمَنٍ به، أو هو بيانٌ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ انتهى.

وما ذهب إليه من أنَّ الضمير عائدٌ على الذِّكر ذكره الغزنويّ عن الحسن؛ قال الحسن: معناه نسلُكُ الذِّكْرَ إلزاماً للحُجَّة[4].

وقال ابنُ عطيَّة: الضمير في «نَسْلُكُه» عائدٌ على الاستهزاءِ والشِّرْكِ ونحوِه، وهو قولُ الحسن وقتادة وابنِ جُرَيْج وابنِ زيد[5]، ويكون الضمير في «به» يعودُ أيضاً على ذلك بعينه[6]، وتكون باءَ السبب، أي: لا يؤمنون بسبب شركهم

(١) شرح التسهيل ١/ ٣١، وفيه: وأعقبوني، بدل: وأودعوني، وروايتُه في ديوان الهذليين ص٢:

أَوْدَى بَنِيَّ وأعقبوني غُصَّةً بعدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ

(٢) هو في شرح التسهيل ١/ ٣١ برواية: له نائلات... ورواية صدره في ديوان الأعشى ص١٨٧: له صدقات ما تُغِبُّ ونائلٌ.

وقوله: ما تُغِبُّ، أي: ما تنقطع.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٨٨.

(٤) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٣، وهو بنحوه في النكت والعيون ٣/ ١٥٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٢. وأخرج الطبري أقوالهم ١٤/ ٢٠-٢١.

(٦) المثبت من (ز١) و(يه)، وهو كذلك في المحرر الوجيز، وفي النسخ الأخرى: نفسه.

واستهزائهم، ويكون قوله: «لا يؤمنون به» في موضع الحال، ويحتمل أن يكون الضمير في «نَسْلُكُه» عائداً على الذِّكر المحفوظ المتقدِّم الذِّكْر، وهو القرآن، أي مُكَذَّباً به مردوداً مستهزأً به يُدخِلُه في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في «به» عائداً عليه. ويحتمل أن يكون الضمير في «نَسْلُكُهُ» عائداً على الاستهزاء والشِّرك، والضمير في «به» يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْدُ الضميرَيْن. انتهى.

وروى ابنُ جُريج عن مجاهد: نَسلكُ التكذيب[1]. فعلى هذا تكون الباء في «به» للسبب.

والذي يظهر عَوْدُه على الاستهزاء المفهوم من قوله: «يستهزئون». والباء في «به» للسبب.

والمجرمون هنا كفار قريش ومَنْ دعاهم الرسول إلى الإيمان.

و«لا يؤمنون» إن كان إخباراً مستأنفاً فهو من العامّ المراد به الخصوص فيمن حُتِمَ عليه، إذ قد آمنَ عالَم ممَّن كذَّب الرسول ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في تكذيبهم رسلَهم، أو في إهلاكهم حين كذبوا رسلَهم واستهزؤوا بهم. وهو تهديدٌ لمشركي قريش.

والضمير في «عليهم» عائدٌ على المشركين، وذلك لِفَرْط تكذيبهم وبُعدِهم عن الإيمان حتى يُنكروا ما هو محسوسٌ مشاهَد بالأعين، مُماسٌّ بالأجساد بالحركة والانتقال، وهذا بحسب المبالغة التامَّة في إنكار الحقّ.

والظاهرُ أنَّ الضمير في «فظلُّوا» عائد على مَنْ عادَ عليه في قوله: «عليهم» أي: لو فُتح لهم بابٌ من السماء وجُعل لهم معراجٌ يصعدون فيه لقالوا: هو شيءٌ نتخيَّلُه لا حقيقةَ له وقد سُحِرْنا بذلك[2].

وجاء لفظ «فظلُّوا» مشعراً بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضِحين لِما عايَنُوا؛ على أنَّ «ظَلَّ» يأتي بمعنى «صارَ» أيضاً.

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٣. وهو عن ابن جُريج قوله في تفسير الطبري ١٤/ ٢٠-٢١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٠، وزاد المسير ٤/ ٣٨٥.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٢٥، والنكت والعيون ٣/ ١٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦.

وعن ابن عباس أنَّ الضميرَ في «فظلُّوا» يعودُ على الملائكة[١] لقولهم: «لو ما تأتينا بالملائكة» أي: ولو رأوا الملائكةَ تصعدُ وتتصرَّف في بابٍ مفتوحٍ في السماء لَمَا آمنوا.

وقرأ الأعمش وأبو حَيوة: «يَعْرِجُون» بكسر الراء[٢]، وهي لغةُ هُذَيْل في العُروج بمعنى الصعود. وجاء لفظ «إنَّما» مشعراً بالحَصْر، كأنه قال: ليس ذلك إلا تسكيراً للأبصار.

وقرأ الحسن ومجاهد وابنُ كثير: «سُكِرَتْ» بتخفيف الكاف مبنيًّا للمفعول، وقرأ باقي السبعة بشدِّها مبنيًّا للمفعول[٣].

وقرأ الزُّهريّ بفتح السين وكسر الكاف مخفَّفةً مبنيًّا للفاعل[٤]؛ شبَّهوا رؤيةَ أبصارِهم برؤية السَّكران لقلَّةِ تصوُّرِهِ ما يراه.

فأمَّا قراءةُ التشديد: فعن ابن عبَّاس وقتادة مُنِعَتْ عن رؤية الحقيقة، من السُّكْر، بكسر السين، وهو السَّدُّ والحَبْس، وعن الضحَّاك: سُدَّتْ[٥]، وعن جُوَيْبر[٦]: خُدِعَتْ، وعن مجاهد: حُبِسَتْ، وعن الكلبيّ: عَمِيَتْ، وعن أبي عَمرو غُطِّيَتْ، وعن قتادة أيضاً: أُخِذَتْ، وعن أبي عُبيد: غُشِّيَتْ[٧].

وأما قراءة التخفيف؛ فقيل: كالتشديد[٨] إلا أنَّه للتكثير، والتخفيف يؤدِّي عن معناه.

---

(١) يعني في قول ابن عباس أن الملائكة هي المشار إليها بالعروج، وقولُه في المصادر السالفة.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.
(٣) السبعة ص٣٦٦، والتيسير ص١٣٦، ومعاني النحاس ٤/ ١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، وفيه: ابن الزُّهري. وجاء في القراءات الشاذة ص٧٠-٧١: سكرت أبصارهم.
(٥) بالسين المهملة، وتحرَّفت في النسخ الخطية والمطبوع إلى: شدت، بالشين، وكذا كلمة «السَّدّ» قبلها.
(٦) تحرَّفت اللفظة في (أ) و(ع) والمطبوع إلى: جوهر. ولم ترد في (ح) و(د١).
(٧) تنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٤/ ٢٦-٢٩، والنكت والعيون ٣/ ١٥١، وزاد المسير ٤/ ٣٨٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٨٤.
(٨) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: بالتشديد، وهو تحريف.

وقيل: معنى التشديد: أُخِذَتْ، ومعنى التخفيف: سُحِرَتْ[(١)]، والمشهور أنَّ «سَكَرَ» لا يتعدَّى. قال أبو علي: ويجوز أن يكون سُمع متعدِّياً في البصر.

وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال: سُكِّرَتْ أبصارُهم إذا غَشِيَها سُهاد[(٢)] حتى لا يُبصروا.

وقيل: التشديد من سَكْرِ الماء، والتخفيف من سُكْرِ الشراب[(٣)]، وتقول العرب: سَكَرتِ الرِّيح تَسْكُر سكراً[(٤)]: إذا رَكَدَتْ، ولم تَنفُذ لِما كانت بسبيله أوَّلاً، وسَكِرَ الرجلُ من الشراب سُكْراً: إذا تغيَّرت حالُه ورَكَدَ ولم يَنْفُذْ فيما كان للإنسان أن يَنفُذَ فيه، ومن هذا المعنى: سَكْرَانُ لا يَبُتُّ، أي: لا يقطعُ أمراً[(٥)]. وتقول العرب: سَكَرْتُ [البَثْقَ][(٦)] في مجاري الماء إذا طَمَسْتَهُ وصَرَفتَ الماء عنه[(٧)]، فلم يَنْفُذ لوجهه، فإن كان من سُكْرِ الشراب، أو من سكر الريح[(٨)] فالتضعيف للتعدية، أو من سَكْرِ مجاري الماء فللتكثير لأنَّ مخفَّفَهُ متعدٍّ، وأما «سُكِرَت» بالتخفيف، فإنْ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٥١.

(٢) كذا في النسخ. والسُّهاد: الأَرَق. والذي في مجاز القرآن ١/ ٣٤٧: «سَمادِير» وهو ضعف البصر عند السُّكر من الشراب، وكذا هو فيمن نقلَه عن أبي عبيدة كالنحاس في معانيه ٤/ ١٤، والقرطبي ١٢/ ١٨٥. وينظر الطبري ١٤/ ٢٨.

(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٥.

(٤) في اللسان وغيره: سَكَرَتِ الرِّيحُ تَسْكرُ سُكُوراً وسَكَراناً... الخ. وبنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣ والكلام منه. ولم يرد في هذا المعنى مصدر «سكراً».

(٥) أي: لا يقطع أمراً من سُكره. ويقال: يَبُتُّ، ويَبِتُّ، ويُبِتُّ، وأنكر الأصمعي الأخيرة. ينظر أدب الكاتب ص٥٦، والزاهر ١/ ٤٦٩، واللسان (بتت).

(٦) كلمة البَثْق بين حاصرتين من كتب اللغة، ومكانها بياض في (ز١)، وسقطت من النسخ الأخرى، ووقع بدلاً منها في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣ (والكلام فيه): الفَتْق. والبَثْق (بفتح الباء وكسرها): منبعث الماء. وينظر أدب الكاتب ص٣٣٤. وتهذيب اللغة ١٠/ ٥٦ (سكر).

(٧) لفظة «عنه» من (ز١) و(يه) وسقطت من النسخ الأخرى، ولفظة «طمستَه» من (ز١) وهي كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، ووقع في النسخ الأخرى والمطبوع: طمست.

(٨) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤: سكور الريح، ولم أقف على المصدر «سكر» لسكور الريح في كتب اللغة، وذكره الرازي ١٩/ ١٦٧.

كان من سَكْر الماء ففعلُه متعدٍّ، أو من سُكْر الشراب أو الرِّيح فيكون من باب وَجِعَ زيد ووَجِعَهُ غيرُه، فتقول: سَكِرَ الرجلُ وسَكِرَه غيرُه، وسَكَرَتِ الرِّيح وسَكَرَها غيرُها، كما جاء: سَعدَ زيدٌ وسَعِدَه غيرُه.

ولخَّص الزمخشريُّ في هذا فقال: و«سُكِّرَتْ»: حُيِّرَتْ أو حُبِسَتْ[١]، مِن السُّكْر أو السَّكْر، وقُرئ: «سُكِرَتْ»[٢] بالتخفيف، أي: حُبِسَتْ كما يُحبس النهرُ عن الجَرْي. انتهى.

وقرأ أبان بن تغلب: «سُحِرَتْ أبصارُنا» ويجيءُ قولُه: «بل نحن قومٌ مسحورون» انتقالاً إلى درجة عظمى من سحر العقل[٣]، وينبغي أن تُجعل هذه القراءةُ تفسيرَ معنًى لا تلاوةً؛ لمخالفتها سَوَادَ المصحف. وجاء جوابَ «ولو» قولُه: «لقالوا» أي: إنهم يشاهدون ما يشاهدون ولا يشكُّون في رؤية المحسوس، ولكنهم يقولون ما لا يعتقدون مواطأةً على العِناد ودفع الحُجَّة، ومكابرةً وإيثاراً للغَلَبة، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

لمَّا ذكرَ تعالى حالَ منكري النُّبوَّة وكانت مفرَّعةً على التوحيد؛ ذكرَ دلائلَه السماويةَ وبدأ بها، ثم أتْبَعَها بالدلائل الأرضيَّة.

وقال ابنُ عطية: لمَّا ذكرَ تعالى أنهم لو رأوا الآيةَ المذكورةَ في السماء لعاندوا فيها عَقَّبَ ذلك بهذه الآية كأنه قال: وإنَّ في السماء لَعِبَراً منصوبةً غيرَ هذه[٤] المذكورة، وكفرُهم بها وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعُتُوّ. انتهى.

والظاهر أنَّ «جَعَلْنا» بمعنى: خَلقْنا، و«في السماء» متعلِّق بـ «جَعَلْنا»، ويحتمل أن يكون بمعنى: صَيَّرنا، و«في السماء» المفعول الثاني، فيتعلق بمحذوف.

---

(١) في الكشاف ٢/٣٨٩: حُبست من الإبصار.

(٢) لفظة «سُكِرَتْ» من (ز١) و(يه)، وهي أيضاً في المصدر السالف، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٣٥٣، وفيه قراءة أبان السالفة.

(٤) المثبت من (ز١) و(يه) وهو كذلك في المصدر السالف، والكلام منه. وفي النسخ الأخرى والمطبوع: عبر عن هذه.

والبروج جمع بُرْج، وتقدَّم شرحُه لغةً؛ قال الحسن وقتادة: هي النُّجوم[١]، وقال أبو صالح: الكواكبُ السيَّارة[٢].

وقال عليُّ بنُ عيسى: اثنا عشرَ بُرْجاً: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزَاء، والسَّرَطان، والأسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعَقْرَب، والقَوْس، والجَدْي، والدَّلْو، والحُوت، وهي منازلُ الشَّمس والقمر[٣].

وقال عطيَّة[٤]: قصورٌ في السماء فيها الحَرَس، وهي المذكورة في قوله: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨].

وقيل: الفَلَك اثنا عَشَرَ بُرْجاً؛ كلُّ بُرْجٍ منزلتان وثُلث[٥].

والظاهرُ أنَّ الضمير في «وزيَّنَّاها» عائد على البُرُوج لأنها المُحدَّثُ عنها والأقرب في اللفظ، وقيل: على السماء، وهو قولُ الجمهور، وخُصَّ بالناظرين؛ لأنها من المحسوسات التي لا تُدْرَك إلا بنظر العين، ويجوزُ أن يكون من نَظَر القلب لِما فيها من الزِّينة المعنوية، وهو ما فيها من حُسن الحِكَم وبدائعِ الصُّنع وغرائبِ القدرة.

والضمير في «وحَفِظْناها» عائدٌ على «السَّماء»، ولذلك قال الجمهور: إنَّ الضمير في «وزَيَّنَّاها» عائد على «السماء» حتى لا تختلف الضمائر.

وحِفْظُ السماء هو بالرَّجْم بالشُّهُب على ما تضمَّنته الأحاديث الصِّحاح، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشياطينَ تَقْرُبُ من السماء أفواجاً، فينفردُ الماردُ منها فيستمع،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٨٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٥٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٨٧، ولفظه فيهما: الكواكب العظام، يعني السبعة السيارة.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٨١، والنكت والعيون ٣/ ١٥٢.

(٤) في (د١) و(د٢) و(يه) والمطبوع: ابن عطية، وهو خطأ. وعطيَّة: هو العَوْفي، وقولُه في النكت والعيون ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٤/ ٣٨٧، وهو دون نسبة في تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٧.

(٥) المثبت من (ز١) و(يه). وجاء كذلك في لسان العرب (برج) ومفتاح دار السعادة ٢/ ١٩٥، ولفظ القرطبي ١٧/ ٤٤٦: لكل برج منزلان وثلث. ووقع في النسخ الأخرى ومطبوع البحر وأصول تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٦ (عند تفسير هذه الآية): ميلان ونصف. وهو خطأ.

فيُرْمَى بالشِّهاب، فيقول لأصحابه وهو يلتهب: إنه الأمرُ كذا وكذا، فتزيدُ الشياطينُ في ذلك، ويُلقون إلى الكَهَنة، فيزيدون مع[١] الكلمة مئة ونحو هذا». الحديث[٢].

وقال ابن عباس: إنَّ الشُّهُبَ تجرحُ[٣] وتؤذي ولا تَقْتُل. وقال الحسن: تَقْتُل[٤].

وفي الأحاديث ما يدلُّ على أنَّ الرَّجم كان في الجاهلية ولكنه اشتدَّ في وقت الإسلام، وحُفظت السماءُ حِفظاً تاماً[٥].

وعن ابن عباس: كانوا لا يُحجبون عن السماوات، فلما وُلد عيسى مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما وُلد محمد ﷺ مُنعوا من السماوات كلِّها[٦].

والظاهر أنَّ قولَه: «إلا مَنِ استرقَ» استثناء متصل، والمعنى: فإنها لم تُحفظ منه، ذكره الزّهراوي وغيرُه، والمعنى أنه سمع من خبرها شيئاً وألقاه إلى الشياطين. وقيل: هو استثناء منقطع، والمعنى أنها حُفظت منه، وعلى كلا التقديرَيْن ف «مَنْ» في موضع نصب.

وقال الحَوْفي: «مَنْ» بدل من «كلّ شيطان»، وكذا قال أبو البقاء[٧]: جَرّ على البَدَل، أي: إلا ممَّن استرقَ السمع. وهذا الإعرابُ غيرُ سائغ لأنَّ ما قبلَه مُوجَب، فلا يمكن التفريغ، فلا يكون بدلاً، لكنه يجوز أن يكون «إلا مَنِ استرقَ» نعتاً على خلافٍ في ذلك.

---

(١) المثبت من (ز١) و(به). وهو كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤ والخبر فيه. وفي النسخ الأخرى والمطبوع: فيزيدون على.

(٢) الخبر في تفسير الثعلبي ٣/ ٤٨١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٣٢ عن ابن عباس، وينظر حديثُه في هذا الباب في مسند أحمد (١٨٨٢) وصحيح مسلم (٢٢٢٩).

(٣) المثبت من (ز١)، ووقع في النسخ الأخرى والمطبوع: تخرج، وهو خطأ.

(٤) القولان في النكت والعيون ٣/ ١٥٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤، وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٣ قولَ ابن عباس.

(٥) هذا كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤-٣٥٥.

(٦) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٨١، والكشاف ٢/ ٣٨٩، وزاد المسير ٤/ ٣٨٩، ونُسب القول في النكت والعيون ٣/ ١٥٢ للكلبي.

(٧) الإملاء ٢/ ٧٢-٧٣.

وقال أبو البقاء: ويجوزُ أن يكون «مَنْ» في موضع رفع على الابتداء، و«فَأَتْبَعَهُ» الخبر، وجازَ دخولُ الفاء من أجل أنَّ «مَنْ» بمعنى «الذي» أو شرط. انتهى.

والاسْتِرَاق افتعال من السرقة، وهي أخْذُ الشيء بخُفْيَة، وهو أنْ يَخْطَفَ الكلامَ خَطْفةً يسيرة، و«السَّمْعُ»: المسموع، ومعنى «مُبِين» ظاهرٌ للمُبْصِرين[١].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

«مَدَدْناها»: بَسَطْناها لِيحصُلَ بها الانتفاعُ لمن حَلَّها، قال الحسن: أخذَ الله طينةً فقال لها: انبسطي، فانبسطَتْ[٢]. وقيل: بُسطت من تحت الكعبة[٣].

ولمَّا كانت هذه الجملةُ بعدَها جملةٌ فعليةٌ كان النصبُ على الاشتغال أرجحَ من الرفع على الابتداء، فلذلك نُصب «والأرضَ».

والرواسي: الجبال، وفي الحديث: «إنَّ الأرض كانت تتكفَّأ بأهلها كما تتكفَّأ السفينة، فثبَّتها الله بالجبال»[٤].

و«مِنْ» في «مِنْ كلِّ» للتبعيض، وعند الأخفش هي زائدة، أي: كلَّ شيء، والظاهر أنَّ الضمير في «فيها» يعودُ على الأرض الممدودة. وقيل: يعودُ على الجبال، وقيل: عليها وعلى الأرض معاً.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٩.

(٢) قطعة من خبر عن قتادة نسبه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٥ للطبري، ولم أقف عليه في تفسيره.

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ١٨٢، وبنحوه في تفسير الطبري ١٤/ ٣٤ والنكت والعيون ٣/ ١٥٣ عن قتادة.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وذكر في النكت والعيون ٤/ ٣٣٠ بلفظة «قيل»، وهو بنحوه قطعة من حديث لأنس بن مالك ﷺ أخرجه الترمذي (٣٣٦٩) وقال: حديث غريب.

قال ابن عباس وابنُ جُبير: «مَوْزُون» مقدَّر بقَدْر[١].

وقال الزمخشري قريباً منه؛ قال[٢]: وُزِنَ بميزان الحكمة، وقُدِّرَ بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان.

وقال ابن عطية: قال الجمهور: معناه مقدَّر محرَّر بقصدٍ وإرادة، فالوزنُ على هذا مستعار، وقال ابنُ زيد: المراد ما يُوزنُ حقيقةً كالذهب والفضة وغير ذلك مما يُوزن[٣].

وقال قتادة: «موزون»: مقسوم، وقال مجاهد: معدود[٤].

وقال الزمخشري: أوْ لهُ وزنٌ وقَدْرٌ في أبواب النعمة والمنفعة[٥]. وبسَطَه غيرُه فقال: ما له منزلةٌ، كما تقول: ليس له وزن، أي: قَدْر ومنزلة، ويقال: هذا كلامٌ موزون، أي: منظومٌ غيرُ منتثر، فعلى هذا أي: أنبتنا فيها ما يُوزَنُ من الجواهر والمعادن والحيوان، وقال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] والمقصود بالإنبات الإنشاء والإيجاد.

وقرأ الأعرج وخارجة عن نافع: «معائش» بالهمز، قال ابنُ عطية[٦]: والوجهُ تركُ الهمز، وعلَّلَ ذلك بما هو معروف في النحو[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٥٣، وزاد المسير ٤/ ٣٩١. وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٤ بنحوه عن ابن عباس.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥.

(٤) كذا في النكت والعيون ٣/ ١٥٤ وتفسير القرطبي ١٢/ ١٩١، وقول مجاهد في تفسير الطبري ١٤/ ٣٥-٣٦ وزاد المسير ٤/ ٣٩١: مقدور. ولعل «معدود» محرَّفة عنها.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٨٩.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وقراءة الأعرج فيه، ووقع في مطبوعه: الأعمش، بدل: الأعرج، وهو خطأ، وجاء فيه على الصواب في آية الأعراف (١٠) ٢/ ٣٧٧، وذكرها أيضاً في آية الأعراف النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١١٥، وابن خالويه في الشاذة ص٤٢، والقرطبي ١٢/ ١٦٠.

(٧) قال ابن عطية: لأن أصل ياء «معيشة» الحركة، فيردُّها إلى الأصل الجمعُ، بخلاف: مدينة ومدائن.

وقال الزمخشري: «معايش» بياء صريحة، بخلاف: الشمائل والخبائث. فإنَّ تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بَيْن بَيْن، وتقدَّم تفسير «المعايش» أوَّل الأعراف.

والظاهر أنَّ «مَنْ» لمن يعقل، ويُراد به العِيال والمماليك والخَدَم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنَّ اللهَ هو الرَّزَّاق، يرزقُكم وإياهم، وقال معناه الفرَّاء، أو يدخلُ معهم ما لا يعقل بحكم التغليب كالأنعام والدَّوابِّ وما بتلك المثابة ممَّا اللهُ رازقُه، وقد سبقَ إلى ظنِّهم أنهم الرَّازقون. وقال معناه الزَّجَّاج[1].

وقال مجاهد: الدَّوابُّ والأنعامُ والبهائم[2]. وقيل: الوحوش والسِّباع والطير[3]، فعلى هذين القولين يكون «مَنْ» لما لا يعقل.

والظاهر أنَّ «مَنْ» في موضع جرّ عطفاً على الضمير المجرور في «لكم»؛ وهو مذهب الكوفيِّين ويونس والأخفش، وقد استَدْلَلْنا على[4] صحَّة هذا المذهب في «البقرة» [٢١٧] في قوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

وقال الزَّجَّاج: «مَنْ» منصوب بفعل محذوف تقديره: وأَعَشْنَا مَنْ لستُم، أي: أُمماً غيرَكم، لأنَّ المعنى: أعَشْناكم[5]. وقيل: عطفاً على «معايش»، أي: وجعلنا لكم من لستم له برازقين من العبيد والصناع؛ قيل: والحيوان. وقيل: عطفاً على محلّ «لكم». وقيل: «مَنْ» مبتدأ خبرُهُ محذوف لدلالة المعنى عليه، أي: ومَنْ لستُم له برازقين جَعَلْنا له فيها معايشَ. وهذا لا بأس به، فقد أجازُوا

---

(١) في معانيه ٣/ ١٧٧. والكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٨٩، وينظر معاني الفراء ٢/ ٨٦.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٣٧-٣٨، والنكت والعيون ٣/ ١٥٤، وزاد المسير ٤/ ٣٩١، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٩٢.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٥٤، وزاد المسير ٤/ ٣٩١.

(٤) المثبت من (ز١) و(يه)، وتحتمل في (ح) و(د٢)، وتحرفت في النسخ الأخرى إلى: أسند للفاعل. ووقع في المطبوع: استدل القائل.

(٥) يعني: أعَشْناكم وأعَشْنا مَنْ لستُم، كما هو في الإملاء ٢/ ٧٣، وفيه قول الزجَّاج. والذي جاء في معانيه ٣/ ١٧٧ أنه معطوف على محلّ «لكم» (وسيرد)، وتقديرُه: أعشناكم ومَنْ لستُم له برازقين.

ضربتُ زيداً وعمرٌو، بالرفع على الابتداء، أي: وعَمرٌو ضربتُه، فحُذِف الخبر لدلالة ما قبلَه عليه.

وتقدَّم شرح الخزائن.

و«إنْ» نافية، و«مِنْ» زائدة، والظاهر أنَّ المعنى: وما مِنْ شيءٍ يَنتفِعُ به العبادُ إلَّا ونحن قادرون على إيجادِهِ وتكوينِه والإنعامِ به[١]، فتكون الخزائنُ - وهي ما يُحفظ فيه الأشياء - مستعارةً من المحسوس - الذي هو الجسم - إلى المعقول.

وقال قوم: المرادُ الخزائنُ حقيقةً، وهي التي تُحفظ فيها الأشياء، وأنَّ للرِّيح مكاناً وللمطر مكاناً، ولكلٍّ مكان مَلَكٌ وحَفَظة، فإذا أمرَ اللهُ بإخراج شيء منه أخرَجَتْه الحَفَظَة.

وقيل: المرادُ بالشيء هنا المطر. قالَه ابنُ جُرَيْج[٢].

وقرأ الأعمش: «وما نُرْسِلُه»[٣] مكان: «وما نُنَزِّلُه»، والإرسال أعمُّ، وهي قراءةُ تفسير معنًى، لا أنَّها لفظُ قرآن لمخالفتها سوادَ المصحف.

وعن ابن مسعود[٤] والحَكَم بن عُتَيْبَة أنه ليس عامٌ أكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ الله تعالى يُنزله في مواضعَ دون مواضع[٥].

و«الواقِحَ» - جمع لاقِح، يقال: رِيحٌ لاقِحٌ -: جائياتٍ بخير[٦]؛ من إنشاء

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٩.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦.
(٤) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: ابن عباس، وهو خطأ.
(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٣٩-٤٠، والنكت والعيون ٣/ ١٥٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٦ (واللفظ له) وزاد المسير ٤/ ٣٩٢.
(٦) الضبط من (ز١)، وجاء قوله: «جمع لاقح، يقال: ريح لاقِح» مستدركاً في هامشها (وهي نسخة مقروءة على المصنف، وأقدم نسخة بين أيدينا) وجاء هذا القول في النسخ الأخرى - وهي بعد (ز١) - داخلَ المتن، ووضعتُ هذا القول بين معترضتين ليستقيم السياق. وينظر الكشاف ٢/ ٣٨٩.

سحابٍ ماطرٍ؛ كما قيل للتي لا تأتي بخير بل بِشَرٍّ: ريحٌ عقيم، أو مَلَاقح[1]، أي: حاملاتٍ للمطر. وفي «صحيح» البخاري: «لَوَاقح: مَلَاقِح مُلْقِحَة»[2].

وقال عُبيد بن عُمير: يُرسِلُ اللهُ المُبَشِّرَةَ تَقُمُّ الأرضَ قَمّاً، ثم المُثِيرَةَ فتُثِيرُ السحابَ، ثم المؤلِّفةَ فتؤلِّفُه، ثم يبعث اللَّقُوح[3] فتُلقِحُ الشجر.

ومن قرأ بإفراد «الرِّيح» فعلى تأويل الجنس[4]، كما قالوا: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفْر والدِّرْهَمُ البِيض[5].

وسَقَى وأسْقَى قد يكونان بمعنًى واحد.

وقال أبو عُبيد[6]: مِنْ سَقْيِ الشَّفَةِ: سَقَى فقط، أو الأرضِ والثمارِ: أسْقَى، وللدَّاعي لِأرْضٍ وغيرِها بالسُّقْيَا: أَسْقَى فقط.

وقال الأزهري[7]: العرب تقول لكلِّ ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهرٍ بجري: أسقيتُه، أي: جعلتُه شِرْباً له، وجعلتُ له منه مَسْقًى، فإذا كان للشَّفَةِ قالوا: سَقَى، ولم يقولوا: أَسْقَى.

وقال أبو عليّ: سَقَيْتُه حتى رَوِيَ، وأسْقَيْتُهُ نهراً: جعلتُه شِرْباً له.

وجاء الضمير هنا متصلاً بعد ضمير متصل كما تقدَّم في قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: ٨] وتقدَّم أنَّ مذهب سيبويه فيه وجوب الاتصال.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي: بقادرين على إيجادِه، تنبيهاً على عظيم قدرتِه

---

(١) هذا القول الثاني في «لواقح» والكلام في الكشاف، وسلف في المفردات.
(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجر (فتح الباري ٨/ ٢٧٩)، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٧.
(٣) كذا في الهداية لمكّيّ ١٤/ ٤٥. ووقع في مطبوع البحر: اللواقح، وهي في تفسير الطبري ١٤/ ٤٥.
(٤) هي قراءة حمزة من السبعة. ينظر السبعة ص١٧٣، والتيسير ص٧٨.
(٥) ينظر شرح الرضي على الكافية ٣/ ٣١٦.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٧ (والكلام منه باختصار يسير): أبو عبيدة. وهو بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.
(٧) بنحوه في تهذيب اللغة ٩/ ٢٢٨.

وإظهاراً لعجزِهم، أي: لستُم بقادرين عليه حين احتياجكم إليه.

وقال سفيان: «بخازنين» أي: بمانعين المطر[(١)].

«نُحْيي»: نُخرِجُهُ من العَدَم الصِّرْف إلى الحياة «ونُميتُ» نُزِيلُ حياتَه «ونحن الوارثون»: الباقون بعد فَنَاء الخلق.

و«المستقدِمين» قال ابن عبَّاس والضَّحاك: الأموات، و«المستأخرين»: الأحياء.

وقال قتادة وعكرمة وغيرُهما: «المستقدِمين» في الخَلْق، و«المستأخِرين» الذين لم يُخْلَقُوا بعدُ.

وقال مجاهد: «المستقدِمين» من الأمم، و«المستأخِرين» أمَّةُ محمد ﷺ.

وقال الحسن وقتادة أيضاً: في الطاعة والخير، و«المستأخرين» بالمعصية والشرّ.

وقال ابن جُبير: في صفوف الحرب، و«المستأخِرين» فيها[(٢)].

وقيل: مَنْ قُتل في الجهاد، و«المستأخِرين» مَنْ لم يُقتل. وقيل: في صفوف الصلاة، و«المستأخِرين» بسبب النساء لينظروا إليهنَّ[(٣)].

وقال قتادة أيضاً: السابقين إلى الإسلام والمتقاعسين عنه[(٤)].

والأَولى حملُ هذه الأقوال على التمثيل لا على الحَصْر، والمعنى أنه تعالى محيطٌ علمُهُ بمَنْ تقدَّم وبمَنْ تأخَّر وبأحوالهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧، وزاد المسير ٤/ ٣٩٥، وتفسير القرطبي ١٢/ ١٩٩.

(٢) نُسب هذا القول في النكت والعيون ٣/ ١٥٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٠ لسعيد بن المسيِّب. وتنظر فيهما الأقوال السالفة، وتنظر أيضاً في تفسير الطبري ١٤/ ٤٨-٥٤، وزاد المسير ٤/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٥٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٠١، والقول الأول أيضاً في زاد المسير ٤/ ٣٩٧.

(٤) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٩٠ دون نسبة.

ثم أعلَم تعالى أنَّه يَحشُرُهم. وقرأ الأعرج[1]: «يَحْشِرُهم» بكسر الشين.

وقال ابن عبَّاس ومروان بنُ الحَكَم وأبو الجوزاء: كانت تصلي وراءَ الرسول امرأةٌ جميلة، فبعضٌ يتقدَّم لئلا تفتنَه، وبعض يتأخَّر لِيَسْرِقَ النَّظر إليها في الصلاة. فنزلت الآيةُ فيهم[2].

وفَصْلُ هذه الآية بِهاتين الصفتين من الحكمة والعلم في غاية المناسبة.

❀ ❀ ❀

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

لما نَبَّهَ تعالى على منتهى الخلق ـ وهو الحَشْرُ يوم القيامة إلى ما يستقرُّون فيه ـ نبَّههم على مبدأ أصلِهم آدم وما جرى لعدوِّه إبليس من المحاورة مع الله تعالى، وتقدَّم شيءٌ من هذه القصة في أوائل «البقرة» [٢٩] عقب ذِكْرِ الإماتة والإحياء

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وهو كذلك في القراءات الشاذة ص٧١، والمحرر الوجيز ٣/٣٥٨. وجاء في النسخ الأخرى والمطبوع: الأعمش.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٣٥٨، والحديث رواه النسائي في السنن الصغرى ٢/١١٨، والترمذي (٣١٢٢) بنحوه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس، وذكر الترمذي أنه رُوي عن أبي الجوزاء دون ذكر ابن عباس، وقال: وهو أشبه. واستنكرَ ابنُ كثير (عند تفسير الآية) هذا الحديث واستغربَه، ورَجَّح أن يكون من كلام أبي الجوزاء.

والرُّجوع إليه تعالى، وفي «الأعراف» [١٠] بعد ذِكْرِ يوم القيامة وذِكْرِ الموازين فيه، وفي «الكهف» [٥٠] بعد ذِكْرِ الحشر، وكذا في سورة «ص» [٧١] بعد ذِكْرِ ما أعدَّ من الجنة والنار لخلقِه، فحيث ذَكَرَ منتهى هذا الخلق؛ ذَكَرَ مبدأَهُم وقصَّته[١] مع عدوِّه إبليس ليحذِّرَهُم من كيدِه، ولينظروا ما جَرَى له معه حتى أخرجَه من الجنة مقرِّ السَّعادة والراحة إلى الأرض مقرِّ التكليفِ والتعب، فيتحرَّزُوا من كيده.

و«مِنْ حَمَأٍ» قال الحَوْفيّ: بدل من «صَلْصَال» بإعادة الجارّ. وقال أبو البقاء: «مِنْ حَمَأٍ» في موضع جرّ صفة لـ «صلصال»[٢].

وقال ابنُ عبَّاس: المَسْنُون الرَّطْب[٣]، ومعناه المَصْبُوب؛ لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رَطْب، فكَنَى عن المصبوب بوَصْفِهِ لا أنه موضوعٌ له.

وقال مجاهد وقتادة ومعمر: المُنْتِن[٤].

قال الزمخشريّ: من سَنَنْتُ الحَجَرَ على الحجر إذا حكَكْتَهُ به، فالذي يسيلُ بينهما سَنِينٌ، ولا يكون إلَّا مُنتِناً[٥].

وقال غيره: مِنْ أَسَنَ الماءُ: إذا تغيَّر[٦]. ولا يصحُّ لاختلاف المادَّتين.

وقيل: مَصْبُوب، من: سَنَنْتُ الترابَ والماءَ: إذا صَبَبْتَهُ شيئاً بعد شيء[٧]،

---

(١) في (أ) و(ح) و(ز١): وقضيته.
(٢) الإملاء ٢/ ٧٣. وذكر بعدَه القول السالف قبله.
(٣) المثبت من (ز١) و(به)، وهو كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٥-٢٠٦ (والكلام بعده فيه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: المَسْنُون: الطِّين، وهو خطأ. فالمَسْنُون صفة للحَمَأ الذي هو الطين. وفي تفسير الطبري ١٤/ ٦٢ عن ابن عباس: «مِنْ حَمَأٍ مسنون»: من طين رَطْب.
(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٦١ عن مجاهد، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٩ عن معمر، وزاد المسير ٤/ ٣٩٨ عن مجاهد وقتادة. ونسب الطبري القول أيضاً لابن عباس.
(٥) الكشاف ٢/ ٣٩٠. وذكره الطبري ١٤/ ٦٠ عن بعض أهل الكوفة. وهو قول الفراء في معانيه ٢/ ٨٨.
(٦) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٥٨ لابن عباس ﷺ.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٩، واستشهد ابنُ عطية عليه بقول عَمرو بن العاص لمن يحضر دفنه: إذا أدخلتموني في قبري فسُنُّوا عليَّ الترابَ سَنًّا.

فكأنَّ المعنى: أفرغَ صُورةَ إنسانٍ كما تُفرَغُ الصُّوَر من الجواهر المذوَّبة في أمثلتها.

قال الزمخشريّ[١]: وحقُّ «مسنونٍ» بمعنى مُصَوَّر أن يكونَ صفةً لـ «صَلْصَال» كأنَّه أفرغَ الحَمَأَ[٢]، فصوَّر منها تمثالَ إنسانٍ أجْوَفَ، فيَبِسَ حتى إذا نُقِرَ صَلْصَلَ، ثم غيَّره بعد ذلك إلى جوهر آخر. انتهى.

وقيل: المَسْنُون: المُصَوَّر، من سُنَّةِ الوَجْهِ[٣]، وهي صورتُه؛ قال الشاعر:

تُريكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غيرَ مُقْرِفَةٍ[٤]

وقيل: المَسْنُون: المنسوب[٥]، أي: يُنسب إليه ذرِّيَّتُه.

والجانُّ: هو أبو الجنّ. قاله ابنُ عباس[٦]؛ قال الزمخشريّ[٧]: والجانُّ للجنّ كآدمَ للناس.

وقال الحسن وقتادة: هو إبليسُ، خُلِقَ قبلَ آدمَ[٨]. وقال ابن بحر: هو اسمٌ لجنس الجنّ، والإنسانُ المرادُ به آدمُ. و«من قَبْلُ» أي: من قبلِ خلقِ الإنسان.

وقرأ الحسن وعَمرو بنُ عُبيد: «والجأن» بالهمز[٩].

و«السَّمُوم» قال ابنُ عبَّاس: الرِّيح الحارَّة التي تقتلُ. وعنه: نارٌ لا دخانَ لها، منها تكونُ الصَّواعق[١٠].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٠، والكلام السالفُ قبلَه فيه.
(٢) في (ح) و(ز١): الحمأة، والمثبت من النسخ الأخرى، وهو موافق لما في الكشاف.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٩٠، ونسبه القرطبي في تفسيره ١٢/ ٢٠٦ لسيبويه. ولم أقف عليه في الكتاب.
(٤) هو صدر بيت لذي الرُّمَّة، وعجزه: ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ. وهو في ديوانه ١/ ٢٩ (بشرح ثعلب) قوله: غير مُقْرِفَةٍ، أي: ليست بهجينةٍ، هي عتيقة كريمة، والنَّدَب: آثارُ الجِراح، فيقول: ليس فيها خال ولا آثار. قاله ثعلب.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١٥٨.
(٦) المصدر السالف، وزاد المسير ٤/ ٣٩٩.
(٧) الكشاف ٢/ ٣٩٠.
(٨) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣، والثعلبي ٣/ ٤٨٧، والقرطبي ١٢/ ٢٠٦-٢٠٧.
(٩) القراءات الشاذة ص٧١، والكشاف ٢/ ٣٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٩.
(١٠) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٨٧، والقرطبي ١٢/ ٢٠٧، والقول الأول أيضاً في تفسير الطبري ١٤/ ٦٣.

وقال الحسن: نارٌ دونَها حجاب[١]. وعن ابن عباس: نفس النار، وعنه: لَهَبُ النار. وقيل: نارُ اللهب السَّمُومُ[٢]. وقيل: أضافَ الموصوف إلى صفته، أي: النارِ السَّموم.

و«سَوَّيتُهُ»: أكملتُ خَلْقَه، والتَّسويةُ عبارةٌ عن الإتقان وجَعْلِ أجزائه مستويةً فيما خُلقت.

و«نفختُ فيه من رُوحي» أي: خلقتُ الحياةَ فيه، ولا نفخَ هناك ولا منفوخَ حقيقةً، وإنما هو تمثيلٌ لتحصيلِ ما يُحيي به فيه.

وإضافةُ الرُّوح إليه تعالى على سبيل التشريف، نحو: بيتُ الله وناقةُ الله، أو المِلْك، إذْ هو المتصرِّفُ في الإنشاء للرُّوح، والمُودِعُها حيث يشاء.

و«قَعُوا له» أي: اسقُطوا على الأرض.

وحرفُ الجرّ محذوف من «أنْ» أي: مالَكَ في أنْ لا تكونَ، وأيُّ داعٍ دعا بك إلى إبائِكَ السجودَ؟

و«لأسجُدَ» اللام لام الجحود، والمعنى: لا يناسبُ حالي السجودَ له. وفي «البقرة» [٣٤] نبَّه على العلَّة المانعة له، وهي الاستكبار، أي: رأى نفسَه أكبرَ من أن يسجدَ، وفي «الأعراف» [١٢] صرَّح بجهة الاستكبار، وهي ادِّعاءُ الخيريَّة والأفضليَّة بادِّعاء المادَّةِ المخلوقِ منها كلٌّ منهما، وهنا نَبَّهَ على مادَّة آدمَ وحدَه، وهنا: «فاخْرُجْ منها»، وفي «الأعراف» [١٣]: «فاهْبِطْ منها». وتقدَّم ذِكْرُ الخلاف فيما يعودُ عليه ضمير «منها».

وقد تقدَّمت منها مباحثُ وشرحٌ في سورة البقرة والأعراف أعادها المفسِّرون هنا، ونحن نُحيل على ما تقدَّم إلَّا ما لَهُ خُصوصيَّة بهذه السورة، فنحن نذكرُهُ، فنقول:

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٠٧.
(٢) يلاحظ أنه قولٌ واحد بألفاظ متشابهة، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٦٤، والنكت والعيون ٣/ ١٥٩.

وضَرْبُ يومِ الدينِ غايةً للَّعنة إمَّا لأنه أبعدُ غاية يَضْرِبُها الناسُ في كلامِهِم، وإمَّا أنْ يُرادَ: إنك مذمومٌ مدعوٌّ عليك باللعنة في السماوات والأرضِ إلى يوم الدِّين من غير أن تُعذَّب، فإذا جاء ذلك اليومُ عُذِّبْتَ بما يُنسى اللَّعنُ معه. ويوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم واحد، وهو وقتُ النَّفخة الأولى حين تموتُ الخلائق، ووصفُه بالمعلوم إمَّا لانفرادِ الله بعلمه كما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، أو لأنه معلومٌ فَناءُ العالَم فيه، فيكون قد عبَّر بيوم الدين وبيوم يبعثون[١] بما كان قريباً من ذلك اليوم.

قال الزمخشريّ: ومعنى إغوائه إيَّاه تَسْبِيبُهُ[٢] لِغَيِّهِ بأنْ أَمَرَهُ بالسجود لآدمَ عليه السلام، فأفْضَى ذلك إلى غَيِّه، وما الأمرُ بالسجود إلَّا حَسَنٌ وتعريضٌ للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكنَّ إبليسَ اختارَ الإباءَ والاستكبارَ فهلك، والله تعالى بريءٌ من غَيِّهِ ومن إرادته والرضا به. انتهى. وهو على طريقة المعتزلة.

والضمير في «لهم»[٣] عائدٌ على غير مذكور، بل على ما يُفهم من الكلام، وهو ذُرِّيَّةُ آدم، ولذلك قال في الآية الأخرى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

والتزيين: تحسينُ المعاصي لهم ووسوستُه حتى يقعوا فيها.

«في الأرض» أي: في الدنيا التي هي دارُ الغرور، كقوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، أو أرادَ إني أقدرُ على الاحتيال لآدم والتزيينِ له الأكْلَ من الشجرة وهو في السماء، فأنا على التزيين لأولاده في الأرض[٤] أَقْدَرُ، أو أرادَ: لَأجعلنَّ مكانَ التزيينِ عندَهم الأرضَ، ولَأُوقِعنَّ تزييني فيها[٥]، أي: لأُزَيِّنَنَّها في أعينهم ولأحدِّثنَّهم بأنَّ الزينة في الدنيا وحدَها حتى يستحبُّوها على

(١) زيد في المطبوع بعدها: ويوم الوقت المعلوم.
(٢) في (د٢): تسبُّبه، وفي (د١) و(ع) والمطبوع: نسبته، والكلام في الكشاف ٢/ ٣٩١.
(٣) يعني في قوله: «لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض».
(٤) قوله: في الأرض، من (ز١) و(يه).
(٥) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: ولأرفعنَّ رتبتي فيها. وهو تحريف.

الآخرة، ويطمئنوا إليها دونَها، ونحوُهُ: يَجْرَحْ في عَرَاقِيبِها نَصْلِي. قاله الزمخشريّ[(١)].

و«إلا عبادك» استثناء القليل من الكثير؛ إذِ المخلصون بالنسبة إلى الغاوين قليل، واستثناهم إبليس لأنه علمَ أنَّ تزيينَهُ لا يؤثِّر فيهم، وفيه دليلٌ على جلالة هذا الوصف، وأنه أفضلُ ما اتَّصف به الطائع.

وقرأ الكوفيون ونافع والحسن والأعرج بفتح اللام، ومعناه: إلا مَنْ أخْلَصْتَه للطاعة أنتَ، فلا يؤثِّر فيه تزييني، وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسرها[(٢)]، أي: إلا مَنْ أخلصَ العملَ لله ولم يُشرِك فيه غيرَه، ولا راءى به.

والفاعلُ بـ «قال» اللهُ، أي: قال الله، والإشارة بـ «هذا» إلى ما تضمَّنه «المخلِصين» من المصدر، أي الإخلاصُ الذي يكون في عبادي هو صراطٌ مستقِيم لا يسلُكُه أحدٌ فيَضِلَّ أو يَزِلَّ، لأنَّ من اصطفيتُه أو أخلصَ لي العملَ لا سبيلَ لك عليه.

وقيل: لمَّا قَسمَ إبليسُ ذُرِّيَّةَ آدمَ إلى غاوٍ ومُخلِصٍ قال تعالى: هذا أمرٌ مصيرُه إليَّ[(٣)]. ووصَفَه بالاستقامة، أي: هو حَقٌّ، وصيرورتُهم إلى هذين القسمين ليست لك، والعربُ تقول: طريقُك في هذا الأمر على فلان، أي: إليه يصيرُ النظرُ في أمرك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩١. وقوله: يَجْرَحْ في عَرَاقيبها نَصْلي، قطعة من بيت لذي الرُّمَّة، وروايتهُ في ديوانه (بشرح ثعلب) ١/ ١٥٦:

وإنْ تَعْتَذِرْ بالمَحْلِ من ذي ضُرُوعِها على الضَّيْفِ يَجْرَحْ في عَرَاقيبها نَصْلِي

استُشهد به على تنزيل الفعل منزلةَ اللازم، ثم تعديته بـ «في». وينظر تفسير الآلوسي ١٣/ ٤٧٨. ومعنى البيت كما في شرح الديوان لثعلب: إنْ تعتذرْ إبلي بالمَحْلِ فلم يكن في ضُرُوعها لبنٌ عَرْقَبْتُها (وفي نسخة: نحرتُها) للضيف. والنَّصل: السَّيْف.

(٢) السبعة ص١٢٨، والتيسير ص٣٤٨، وقراءة الحسن والأعرج في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، وجاءت فيه قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر بفتح اللام، وهو خطأ.

(٣) الكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، وهو معنى قول مجاهد كما في تفسير الطبري ١٤/ ٧٠، والنكت والعيون ٣/ ١٦١، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢١٢-٢١٣، قالوا: وهو كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾.

وقال الزمخشريّ[١]: هذا طريقٌ حَقٌّ عَلَيَّ أنْ أُراعِيَه، وهو أن لا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي إلا من اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوَايتِه. انتهى.

فجعلَ «هذا» إشارةً إلى انتفاءِ تزيينه وإغوائه وكونِهِ ليس له عليهم سلطان، فكأنَّه أخذَ الإشارة إلى ما استثناه إبليس وإلى ما قرَّره تعالى بقوله: «إن عبادي»، وتضمَّنَ كلامُه مذهبَ المعتزلة.

وقال صاحب «اللوامح»: أي: هذا صراطٌ عُهدةُ استقامتِه عليَّ وفي حفظه، أي: حفظُه عَلَيَّ، وهو مستقيمٌ غيرُ معوجّ.

وقال الحسن: معنى «عَلَيَّ» إليَّ[٢]. وقيل: «عَلَيَّ» كأنَّه مَنْ مَرَّ عليه مَرَّ عَلَيَّ، أي: على رضواني وكرامتي[٣].

وقرأ الضحَّاك وإبراهيم وأبو رجاء وابنُ سِيرِين ومجاهد وقتادة وقيس بنُ عُباد وحُميد وعَمرُو بنُ ميمون وعُمارة بن أبي حفصة وأبو شَرَف مولى كِنْدة ويعقوب: «عَلِيٌّ مستقيم»[٤] أي: عالٍ لارتفاع شأنِه. وهذه القراءة تُؤَكِّدُ أنَّ الإشارةَ إلى الإخلاص، وهو أقربُ إليه.

والإضافة في قوله: «إنَّ عبادي» إضافةُ تشريف، أي: إنَّ المختصِّين بعبادتي. وعلى هذا لا يكون قولُه: «إلا مَنِ اتَّبعك» استثناءً متصلاً، لأنَّ مَنِ اتَّبعَه لم يندرج في قوله: «إنَّ عبادي»[٥]. وإن كان أُريدَ بـ «عبادي» عمومُ الخلق فيكون «إلا مَنِ اتَّبعك» استثناءً من عموم، ويكون فيه دلالة على استثناء الأكثر وبقاءِ المستثنى منه أقلَّ، وهي مسألة اختلف فيها النُّحاة، فأجازَ ذلك الكوفيُّون، وتبعَهم من أصحابنا

(١) الكشاف ٢/ ٣٩١. والكلام السالف في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٧٠، والنكت والعيون ٣/ ١٦١، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢١٢، وهو في زاد المسير ٤/ ٤٠١ دون نسبة.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٨٩.
(٤) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٧٠-٧١، والمحتسب ٢/ ٣، والنكت والعيون ٣/ ١٥٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢. وقراءة يعقوب من العشرة، ينظر النشر ٢/ ٣٠١.
(٥) واستُدلَّ عليه بسقوط الاستثناء في آية الإسراء: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾. ينظر تفسير الآلوسي ١٣/ ٤٨١.

الأستاذ أبو الحسن بن خروف، ودلائل ذلك مسطَّرة في كتب النحو[١].

والذي يظهر أنَّ إبليسَ لمَّا استثنى العبادَ المُخلِصين كانت الصفةُ ملحوظةً في قوله: «إنَّ عبادي» أي: عبادي المخلِصين الذين ذكرتُهم ليس لك عليهم سلطان. و«مِنْ» في «مِنَ الغاوين» لبيان الجنس، أي: الذين هم الغاوون.

وقال الجُبَّائي: هذه الآية تدلُّ على بطلان قول من زعمَ أنَّ الشيطانَ والجنَّ يمكنهم صَرْعُ الناس وإزالةُ عقولهم كما تقول العامَّة، وربَّما نسبوا ذلك إلى السَّحَرة؛ قال: وذلك خلافُ ما نصَّ الله تعالى عليه[٢].

و«لَمَوْعِدُهُم» مكانُ وَعْدِ اجتماعِهم. والضمير لـ «الغاوِين». وقال ابن عطية[٣]: و«أجمعين» تأكيد، وفيه معنى الحال. انتهى. وهذا جنوحٌ لمذهب من يزعمُ أنَّ «أجمعين» يدلُّ على اتّحاد الوقت، والصحيحُ أنَّ مدلولَه مدلول «كلّهم».

والظاهر أن «جهنَّم» هي واحدة، ولها سبعة أبواب، وقيل: أبوابُ النار أطباقُها وأدراكُها، فأعلاها للموحِّدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين[٤].

وقرأ ابنُ القعقاع: «جُزّ» بتشديد الزاي من غير همز[٥]، ووجهُه أنه حذفَ الهمزة وألقَى حركتَها على الزاي، ثم وقف بالتشديد نحو: هذا فَرَجّ[٦]. ثم أجرَى الوصل مجرى الوقف.

واختُلف عن الزُّهري، ففي كتاب ابنِ عطية: وقرأ ابنُ شِهاب بضمِّ الزاي

---

(١) ينظر الارتشاف ٣/ ١٥٠٠، وهمع الهوامع ٢/ ٢٦٦-٢٦٧.
(٢) تفسير الرازي ١٩/ ١٩٠.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣.
(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٤٨٩-٤٩٠، والكشاف ٢/ ٣٩١، واللفظ له، وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ٢١٥.
(٥) النشر ١/ ٤٣٢. وابنُ القعقاع هو أبو جعفر المدنيّ، من العشرة.
(٦) يعني أن الوقف عند العرب موضع تغيير، فالأصل: فَرَجٌ، وعند الوقف يُحذف التنوين ويُضعَّف الحرف، وكما يبدل فيه من التنوين الألف، وكما يُبدلُ من التاء هاءٌ في نحو: طلحة وحمزة. ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ (تفسير الآية ٤١ من سورة ق).

ـ ولعلَّه تصحيف من الناسخ، لأنِّي وجدتُ في «التحرير»: وقرأ ابنُ وثَّاب بضمِّها مهموزاً فيهما[١]، وقرأ الزُّهريّ بتشديد الزاي دون همز، وهي قراءةُ ابنِ القعقاع ـ وأنَّ فِرْقةً قرأتْ بالتشديد، منهم ابنُ القعقاع[٢]. وفي كتاب الزمخشري[٣] وكتاب «اللوامح» أنه قرأ بالتشديد، وفي «اللوامح» هو وأبو جعفر.

* * *

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم
مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨)
۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ
عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا
خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٖ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا
لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٞ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)
وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ
أَحَدٞ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٞ مُّصْبِحِينَ
(٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ
إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ (٧٨) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ (٧٩)

---

(١) كذا. والجادَّة: فيها. وقد قرأ بضم الزاي مهموزاً فيها أيضاً شعبة عن عاصم من السبعة. ينظر التيسير ص٨٢.

(٢) الكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٣ دون ما وقع بين معترضتين، فهو من استدراك المصنف عليه.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٩١.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ
مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ
﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ
عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾.

المفردات السُّرُر جمع سَرِير، وكلبٌ[١] وبعضُ تميم تفتحُ الرَّاء، وكذا كلُّ مضاعَف فَعِيل.

النَّصَب: التَّعَب.

القُنوط: أتمُّ اليأس، يقال: قَنِطَ بكسر النون، يَقْنُطُ بفتحها، وقَنَطَ بفتح النون، يَقْنِطُ بكسرها وبضمِّها[٢].

الفَضْحُ والفَضِيحة مصدران لـ «فَضَحَ يَفْضَحُ»: إذا أتى من أمر الإنسان ما يُلزِمُهُ به العارَ، ويقال: فَضَحَكَ الصُّبحُ: إذا تبيَّنَ للناس، قال الشاعر:

ولاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كادَ يَفْضَحُنا مِثْلَ القُلامَةِ قد قُدَّتْ[٣] من الظُّفُرِ[٤]

التوسُّم تفعُّل، من الوَسْم، وهي العلامة التي يُستدلُّ بها على مطلوبٍ غيرِها، يقال: تَوَسَّمَ فيه الخيرَ: إذا رأى مِيسَمَ ذلك.

---

(١) أُقحم قبلَها في مطبوع البحر لفظ: ككليب، ونقلَتْه عنه مطبوعاتُه الأخرى، بعضُها ادَّعيَ تحقيقَها!

(٢) قرئ في المتواتر بفتح النون وكسرها من «يقنط»، وقُرئ في الشواذّ بضمّها، كما سيرد.

(٣) المثبت من (ح). وهي كذلك في المصادر الآتية. وفي النسخ الأخرى: قُصَّتْ.

(٤) البيت لعبد الله بن المعتزّ، وهو في الصناعتين ص٢٢٨ (وفيه: إذْ قُدَّتْ) وثمار القلوب ص٢٦٤، والمثل السائر ١/ ٤٢٢. وهو ضمن قصيدة في ترجمته في وفيات الأعيان ٣/ ٧٨.

وقال عبد الله بنُ رَوَاحة في رسول الله ﷺ:

إنِّي تَوَسَّمْتُ فيكَ الخيرَ أعرِفُهُ[١] واللهُ يعلمُ أني ثابتُ البَصَرِ[٢]

وقال الشاعر:

تَوَسَّمْتُ لمَّا أنْ رَأَيْتُ مَهَابَةً عليه وقلتُ المرءُ من آلِ هاشِمِ[٣]

واتَّسَمَ الرجلُ: جعلَ لنفسِهِ علامةً يُعرفُ بها. وتَوَسَّمَ الرجلُ: طلبَ كَلأَ الوَسْمِيّ[٤].

وقال ثعلب: الواسِمُ الناظرُ إليك من قَرْنِكَ[٥] إلى قَدَمِك. وأصلُ التَّوَسُّم التثبُّت والتفكُّر، مأخوذٌ من الوَسْم، وهو التأثيرُ بحديدة في جِلد البعيرِ أو غيره.

الأَيْكَةُ: الشجرة الملتفَّة، واحدة أَيْكٍ. قال الشاعر:

تَجْلُو بقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُهُ بالإثْمِدِ[٦]

الخَفْضُ مقابل الرَّفْع، وهو كناية عن الإلانة والرِّفْق.

«عِضِين» جمع عِضَة، وأصلها الواو والهاء، يقال: عَضَيْتُ الشيءَ تعضيةً: فرقتُه، وكلُّ فِرْقةٍ عضةٌ، فأصله عِضْوَة[٧].

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى: أجمعَهُ.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٦٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٤. ورواية صدره في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧٤: إني تفرَّسْتُ فيك الخير نافلةً.

(٣) البيت ضمن قصيدة لأعرابي قالها في عُبيد الله بن العباس، وهي في الفاضل ص٣٢، وخزانة الأدب ٨/ ٢٨٢، وفيهما: توسَّمْتُه لما رأيتُ مهابةً، وهو كذلك في النسخة (يه) لكن سقطت منها لفظة «أنْ».

(٤) الوَسْمِيّ: مطرُ الرَّبيع الأوَّل لأنه يَسِمُ الأرض بالنبات. ينظر الصحاح (وسم).

(٥) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى: فَرْقِك، وهي كذلك في تفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٤، والقول فيه.

(٦) البيت للنابغة الذُّبياني، وهو في ديوانه ص٤٠. والقادمة: مقدَّم جناح الطائر، شبَّه الشاعر الشفتين بهما، وشبَّه الأسنان بالبَرَد، ولِثات، جمع لِثَة، وأُسِفَّ... أي: ذُرَّت بالإثمد لتبييض الأسنان.

(٧) بعدها في تفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٧ (والكلام فيه): فنقصت الواو، فلذلك جُمعت على عِضِين، كما قالوا. عِزِين في جمع عِزَة، والأصل: عِزْوة، وكذلك ثُبة وثُبِين.

وقيل: العِضَة في لغة قريش السِّحْر، يقولون للساحر: عاضِهٌ، وللساحرة: عاضِهَة. قال الشاعر:

أعـوذُ بـربِّـي مِـنَ الـنَّـافِـثـا ... تِ في عُقَدِ العَاضِهِ المُعْضِهِ[1]

وفي الحديث لَعْنُ العَاضِهَةِ والمُسْتَعْضِهَة[2]. وفُسِّرَ بالسَّاحرة[3] والمُسْتَسْحِرَة[4]، فأصله الهاء.

وقيل: من العَضْهِ، يقال: عَضَهَهُ عَضْهاً وعَضِيهَةً: رماه بالبُهتان؛ قال الكسائي: العِضَةُ: الكَذِبُ والبُهتان، وجمعُها عِضُون[5]، وذهب الفرَّاء إلى أنَّ عِضِين من العِضاهِ، وهي شجرٌ تؤذي تَخرجُ كالشوك، ومن العرب ما يَلزم الياءَ ويجعل الإعرابَ في النون، فيقول: عِضِينُك، كما قالوا: سِنِينُك، وهي كثيرةٌ في تميم وأَسَد[6].

والصَّدْعُ: الشَّقُّ، وتصدَّعَ القومُ: تفرَّقوا، وصدعتُه فانصدعَ، أي: شَقَقْتُهُ فانْشَقَّ. وقال مُؤرِّج: اِصْدَعْ: اِفْصِلْ. وقال ابنُ الأعرابيّ: اِقْصِدْ.

* * *

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ١٣٠، واللسان (عضه)، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٧. ورواية اللسان: في عِضَهِ العاضِهِ...

(٢) الضبط من (ز١). وفي المطبوع: لعنَ اللهُ العاضهةَ والمستعضهة، وهو كذلك في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥. وأخرجه ابن عدي (كما في جزء التراحم الساقطة من الكامل ص١٠٧) من حديث ابن عباس ﵄؛ قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٤: «في إسناده ضعيفان». وجاء في تأويل مختلف الحديث ص١٧٩، والنكت والعيون ٣/ ١٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤١٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٧ أن رسول الله ﷺ لعنَ العاضِهةَ والمُسْتَعْضِهَة. وأخرجه ابن عدي (كما في جزء التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧) من حديث ابن عباس ﵄؛ وفي إسناده ضعيفان كما ذكر ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٤.

(٣) في النسخ الخطية: بالساحر. والتصويب من المصادر.

(٤) أي المستعملة لسحر غيرها. قاله الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٥٥٢.

(٥) مثل عِزَة وعِزُون، كما في تفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٨. والعِزَة: الفِرْقة.

(٦) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٢.

التفسير ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

لمَّا ذكرَ تعالى ما أعدَّ لأهلِ النَّار؛ ذكَرَ ما أعدَّ لأهل الجنَّة ليظهرَ تباينُ ما بين الفريقين، ولمَّا كان حالُ المؤمنين معتَنًى به أخبرَ أنهم في جناتٍ وعيون، جعلَ ما يستقرُّون فيه في الآخرة كأنَّهم مستقرُّون فيه في الدنيا، ولذلك جاء «ٱدْخُلُوها» على قراءة الأمر، لأنَّ من استقرَّ في الشيء لا يقال له: ٱدْخُلْ فيه، وجاء حال الغاوين موعوداً به في قوله: «لَمَوْعِدُهُم» لأنهم لم يدخلوها.

والعُيون جمع عَيْن، وقرأ نافع وأبو عَمرو وحفصٌ وهشام «وعُيون» بضم العين، وباقي السبعة بكسرها[(١)].

وقرأ الحسن: «أُدْخِلُوها» ماضياً مبنيًّا للمفعول من الإدخال، وقرأ يعقوب في رواية رويس كذلك وبضمِّ التنوين[(٢)]، وعنه فتحُه وما بعدَه أمرٌ على تقدير: أَدْخِلُوها إيَّاهم، من الإدخال، أمرَ الملائكةَ بإدخال المتقين الجنةَ، وتسقطُ الهمزة في القراءتين.

وقرأ الجمهور: «ادْخُلُوها» أمرٌ من الدخول، فعلى قراءتي الأمر ثَمَّ محذوفٌ، أي: يقالُ لهم، أو يقال للملائكة[(٣)].

و«بسلام» في موضع نصب على الحال، واحتمل أن يكون المعنى: مصحوبين بالسَّلامة، وأن يكون المعنى: مُسَلَّماً عليكم، أي: مُحَيَّوْن، كما حَكَى عن الملائكة أنهم يدخلون على أهل الجنة يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٤].

---

(١) التيسير ص١٣٦. وينظر السبعة ص١٧٨-١٧٩.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٣٦٣، والنشر ٢/ ٣٠١. وقراءة الحسن ذكرَها الثعلبي في تفسيره ٣/ ٤٩٠ على أنها ببناء الفعل للمجهول لكن لم يذكر معها عنه كسر تنوين «عيون» (يعني وصلاً) وقرنَ القرطبيُّ ١٢/ ٢١٨ قراءة الحسن بقراءة يعقوب كما هو أعلاه. ولم أقف على من ذكرَ عن الحسن بناءَ الفعل للمجهول مع كسر تنوين «عيون» قبل أبي حيَّان، والله أعلم. وقراءة يعقوب المشهورةُ عنه: «ٱدْخُلُوها» على الأمر كقراءة الجمهور، وكسر تنوين «عيون» وصلاً. ينظر النشر ٢/ ٢٢٥.

(٣) أي يقال للملائكة: أَدْخِلوها إياهم كما سلف.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ تقدَّم شرحُه في الأعراف. قيل: وانتصبَ «إخواناً» على الحال، وهي حال من الضمير، والحالُ من المضاف إليه إذا لم يكن معمولاً لما أُضيف إليه[1] على سبيل الرفع أو النصب تندُرُ، فلذلك قال بعضهم: إنه إذا كان المضافُ جزءاً من المضاف إليه كهذا؛ لأن الصدور بعضُ ما أُضيفت إليه، أو كالجزء[2]، كقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ﴾ [النساء: ١٢٥] جاءت الحالُ من المضاف، وقد قرَّرنا أنَّ ذلك لا يجوز، وما استدلُّوا به له تأويلٌ غيرُ ما ذكروا، فتأويلُه هنا أنه منصوبٌ على المدح، والتقديرُ: أمدحُ إخواناً؛ لمَّا لم يمكن أن يكون نعتاً للضمير قُطع من إعرابه نصباً على المدح.

وقد ذكر أبو البقاء[3] أنه حالٌ من الضمير في الظرف في قوله: «في جنَّات»، وأن يكون حالاً من الفاعل في «ادخُلُوها»، أو من الضمير في «آمنين».

ومعنى «إخواناً» ذَوُو تواصلٍ ووِدَادة[4]. و«على سُرُرٍ متقابلين» حالان، والقعود على السرير دليلٌ على الرِّفعة والكرامة التامَّة كما قال: «يَرْكَبُون ثَبَجَ هذا البحرِ مُلُوكاً على الأسرَّة، أو مِثْلَ الملوكِ على الأسِرَّة»[5].

وعن ابن عباس: على سُرُرٍ مُكَلَّلةٍ بالياقوت والزَّبَرْجَد والدُّرّ.

وقال قتادة: «متقابلين»: متساوين في التواصل والتَّزاور.

وعن مجاهد: لا ينظرُ بعضُهم إلى قَفَا بعضٍ تدور بهم الأسِرَّة حيثما دارُوا، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين. انتهى[6].

ولمَّا كانت الدُّنيا محلَّ تعبٍ بما يُقاسَى فيها من طلب المعيشة ومعاناةِ التكاليف

(١) لفظة «إليه» من (ز١) و(يه).

(٢) المثبت من (ز١) و(يه). وفي النسخ الأخرى والمطبوع: وكالجزء.

(٣) الإملاء ٢/ ٧٥.

(٤) في (د١) والمطبوع: وتوادد.

(٥) قطعة من حديث أنس بن مالك في فضل الغزو في البحر، وفيه قصة أم حرام بنت مِلْحان، أخرجه البخاري (٢٧٨٨) ومسلم (١٩١٢). وثَبَجُ البحر: وَسَطُه.

(٦) تنظر الأقوال مفرَّقةً في تفسير الطبري ١٤/ ٨٠، والنكت والعيون ٣/ ١٦٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤، وزاد المسير ٤/ ٤٠٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢١٩-٢٢٠.

الضرورية لحياةِ الدنيا وحياةِ الآخرة ومعاشرةِ الأضداد وعُروض الآفات والأسقام ومحلَّ انتقال منها إلى دارٍ أخرى مَخُوفٍ أمرُها عند المؤمنِ لا محلَّ إقامة، أخبرَ تعالى بانتفاء ذلك في الجنة بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ وإذا انتفى المسُّ انتفت الديمومة، وأكَّدَ انتفاءَ الإخراجِ بدخول الباء في «بِمُخْرَجِين».

وقيل: للثواب أربعُ شرائط:

أن يكون منافعَ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ مقرونةً بالتعظيم، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ خالصةً عن مَضارِّ[1] الشوائبِ الرُّوحانيَّة؛ كالحِقْد والحَسَد والغِلِّ، والجسمانيَّةِ؛ كالإعْياءِ والنَّصَب، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ إلى ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

دائمةً، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

وعن علي بن الحسين[2] أن قوله: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ الآية نزلت في أبي بكر وعُمر[3]، والغِلُّ غِلُّ الجاهلية.

وقيل: كانت بين بني تميم وعديّ وهاشم أضغان، فلما أسلموا تحابُّوا.

ولمَّا تقدَّمَ ذِكْرُ ما في النار وذِكْرُ ما في الجنَّة أكَّدَ تعالى تنبيهَ الناسِ وتقريرَ ذلك وتمكينَه في النفس بقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ وناسبَ ذِكْرَ الغُفرانِ والرحمة اتصالُ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وتقديماً لهذين الوصفين العظيمين اللذين وصفَ بهما نفسَه، وجاء قولُه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ في غاية اللطف؛ إذْ لم يَقُلْ على وجه المقابلة: وأني المعذِّبُ المُؤلِم، كلُّ ذلك ترجيحٌ لجهةِ العفو والرحمة.

وسَدَّتْ «أنَّ» مسدَّ مفعولي «نَبِّئ» إنْ قلنا: إنَّها تعدَّتْ إلى ثلاثة، ومسدَّ واحدٍ إنْ قلنا: تَعَدَّتْ إلى اثنين.

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه)، وفي (د٢): نقصان، وفي النسخ الأخرى: مضان، ووقعت في المطبوع بالظاء: مظانّ. وفي تفسير الرازي ١٩/ ١٩٣-١٩٤ (والكلام مقتبسٌ منه): خالصة عن شوائب الضرر.

(٢) هو زين العابدين ﷺ، ووقع في النسخ الخطية: علي بن الحسن، وهو خطأ.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٦٧، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢١٩ وفيه بعدها: وعلي والصحابة.

وعن ابن عباس: غفورٌ لمن تاب، وعذابُهُ لمن لم يتب.

وفي قوله: «نَبِّئْ» الآية ترجيحُ جهةِ الخير من جهة أمرِه تعالى رسولَه بهذا التبليغ، فكأنَّه إشهادٌ على نفسه بالتزام المغفرة والرحمة، وكونِه أضافَ العباد إليه فهو تشريفٌ لهم، وتأكيدِ اسم إنَّ بقوله: «أنا»، وإدخالِ «أل» على هاتين الصفتين، وكونِهما جاءتا بصيغة المبالغة، والبُداءةِ بالصفة السارَّة أوَّلاً وهي الغفران، وإتباعِها بالصفة التي نشأ عنها الغفران، وهي الرحمة[١].

ورُوي في الحديث: «لو يعلمُ العبدُ قَدْرَ عَفْوِ الله ما تَورَّعَ عن حَرام، ولو يعلم قَدْرَ عذابِه لَبَخَعَ نفسَه»[٢].

وفي الحديث عن ابن المبارك بإسناده أنَّ الرسول ﷺ طَلعَ من الباب الذي يدخلُ منه بنو شيبة ونحن نضحك، فقال: «ألا أَرَاكُم تضحكون؟» ثم أدبرَ حتى إذا كان عند الحِجْر رَجَعَ إلينا القَهْقَرَى، فقال: «جاء جبريل فقال: يقول الله: لمَ تُقَنِّطُ عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾»[٣].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ولمَّا ذكرَ تعالى ما أعدَّ للعاصين من النار وللطائعين من الجنة ذَكَّرَ العربَ بأحوال مَنْ يعرفونه ممَّن عصى وكذَّبَ الرسلَ، فحلَّ به عذابُ الدنيا قبل عذابِ

(١) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ١٩٤-١٩٥.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٨١-٨٢ عن قتادة مرسلاً، وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤. وقوله: لبخعَ نفسَه، أي: قتلَها غمًّا. وفي صحيح مسلم (٢٧٥٥) عن أبي هريرة مرفوعاً: «لو يعلمُ المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنَّته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنَّته أحد». وبنحوه أطول منه أخرجه عنه البخاري (٦٤٦٩).

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٨٢، والثعلبي ٣/ ٤٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢١.

الآخرة ليزدجروا عن كفرهم وليعتبروا بما حلَّ بغيرهم، فبدأ بذِكْرِ جدِّهم الأعلى إبراهيم عليه السلام وما جرى لقومِ ابنِ أخيه لوط، ثم بذِكْرِ أصحابِ الحِجْرِ، وهم قومُ صالح، ثم بأصحاب الأيْكة، وهم قوم شُعيب[١].

وقرأ أبو حَيْوَة: «ونَبِّيهُمْ» بإبدال الهمزة ياءً[٢].

و«ضَيف إبراهيم»: هم الملائكةُ الذين بشَّروه بالولد، وبهلاكِ قوم لوط، وأُضِيفُوا إلى إبراهيم ـ وإنْ لم يكونوا أضيافاً ـ لأنَّهم في صورة مَنْ كان يَنزِلُ به من الأضياف، إذْ كانَ لا ينزلُ به أحدٌ إلَّا ضَافَهُ، وكان يُكْنَى أبا الضِّيفان، وكان لقصره أربعةُ أبواب، من كلِّ جهة بابٌ لئلا يفوتَه أحد[٣]. والضيف أصلُه المصدر، والأفصحُ أن لا يُثَنَّى ولا يُجمع، للمثنَّى والمجموع[٤]، ولا حاجة إلى تكلُّف إضمار كما قاله النحاس وغيرُه من تقدير: أصحابِ ضَيْف[٥].

و«سلاماً» مقتطع من جملة محكيَّة بـ «قالوا»، فليس منصوباً به، والتقدير: سَلِمْتُ سلاماً، من السَّلامة، أو سلَّمنا سلاماً، من التَّحية.

وقيل: «سلاماً» نعت لمصدر محذوف تقديرُه: فقالوا قولاً سلاماً.

وتصريحُه هنا بأنه وَجِلٌ منهم كان بعد تقريبِه إليهم ما أضافَهم به ـ وهو العِجلُ الحَنِيذُ ـ وامتناعِهم من الأكل. وفي «هود» [٧٠] أنَّه أوْجَسَ في نفسه خِيفَةً، فيمكن أنَّ هذا التصريح كان بعد إيجاسِ الخِيفة، ويحتمل أن يكون القولُ هنا مجازاً بأنَّه ظهرت عليه مخايلُ الخوف حتى صار كالمصرِّح به القائل.

وقرأ الجمهور: «لا تَوْجَلْ» مبنيًّا للفاعل، وقرأ الحسن بضمِّ التاء مبنيًّا للمفعول

---

(١) جاء في الآيات ذِكْر أصحاب الأيكة، ثم أصحاب الحِجْر.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ٣٣٦، وشُعب الإيمان (٩٦١٧)، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٢.

(٤) قال ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥: «ضَيْف» مصدرٌ وُصف به، فهو للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد كعدل وغيره.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٢، ونقلَه عنه ابنُ عطية في المحرر.

من الإيجال[١]، وقُرئ: «لا تَاجَلْ» بإبدال الواو ألفاً[٢]، كما قالوا: تابةٌ، في: توبة، وقُرئ: «لا تُواجَلْ» مِن وَاجَلَهُ بمعنى: أوْجَلَه[٣].

«إنَّا نُبَشِّرُك» استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوَجَل، أي: إنك بمثابة الآمِنِ المبشَّر فلا تَوْجَل، والمبشَّر به هو إسحاقُ، وذلك بعد أن وُلدَ له إسماعيل وشَبَّ بَشَّرُوه بأمرَيْن: أحدُهما: أنه ذَكَرٌ. والثاني: وَصْفُه بالعلم على سبيل المبالغة؛ فقيل: النبوَّة؛ كقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢]. وقيل: عليمٌ بالدِّين.

وقرأ الأعرج: «بَشَّرتُموني» بغير همزة الاستفهام[٤]. و«على أنْ مَسَّنيَ الكِبَرُ» في موضع الحال، وقرأ ابنُ مُحيصن: «الكُبْرُ» بضمّ الكاف وسكون الباء[٥].

واستنكرَ إبراهيم عليه السلام أن يُولَدَ له مع الكِبَر، و«فَبِمَ تُبَشِّرُون» تأكيدُ استبعادٍ وتعجُّبٌ، وكأنَّه لم يعلم أنهم ملائكةٌ رسلُ الله إليه، فلذلك استفهمَ واستنكر أن يولد له، ولو علمَ أنهم رُسُلُ الله ما تعجَّب ولا استنكرَ، ولاسيما وقد رأى من آيات الله عِياناً كيف إحياءُ الموتى.

قال الزمخشري[٦]: كأنَّه قال: فبأيِّ أُعجوبةٍ تُبشرونني، أو أراد: إنكم تُبشِّرُونني بما هو غيرُ متصوَّر في العادة، فبأي شيء تُبشِّرونِ؟ يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء، لأن البِشارةَ بمِثل هذا بِشارةٌ بغير شيء، ويجوز أن لا يكون صلةً لـ «بشَّر»، ويكون سؤالاً عن الوجه والطريقة، يعني بأيِّ طريقةٍ تُبَشِّرُونني بالولد؟ والبِشارةُ به لا طريقة لها في العادة. انتهى. وكأنَّه قال: أعَلَى وَصْفي بالكِبَرِ، أم على أنّي أُرَدُّ إلى الشباب؟

---

(١) القراءات الشاذة ص٧١، والمحتسب ٢/ ٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٧١ عن أبي معاذ. قال ابن خالويه: ذكر النحويون فيه أربع لغات: تَوْجَل، وتَيْجَل، وتِيجَل، وتاجل.

(٣) المصدر السالف عن أصحاب عبد الله.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥. ونُسبت في تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٣ للأعمش.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٩٢.

وقيل: لما استطابَ البِشارة أعادَ السؤالَ. ويُضعِفُ هذا قولُهم له: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ وقرأ الحسن: «تُبَشِّرُونِّي» بنون مشدَّدة وياء المتكلم، أدغمَ نونَ الرفع في نون الوقاية[1]، وابنُ كثير بشدِّها مكسورةً دون ياء، ونافع بكسرها مخفَّفةً، وغَلَّطَهُ أبو حاتم وقال: هذا يكون في الشِّعر اضطراراً، وخُرِّجت على أنه حَذفَ نونَ الوقاية وكسرَ نون الرَّفع للياء، ثم حُذفت الياء لدلالة الكسرة عليها، وقالوا: هو مثلُ قولِهِ:

يَسُوءُ الفَالِياتِ إذا فَلَيْنِي[2]

وقول الآخر:

.... لا أباكِ تُخَوِّفِينِي[3]

وقرأ باقي السبعة بفتح النون[4]، وهي علامة الرفع.

قال الحسن: «فَبِمَ تُبَشِّرُون» على وَجْه الاحتقار، وقلَّة المبالاة بالمبشِّرات لِمُضِيِّ العُمر واستيلاء الكبر[5].

وقال مجاهد: عَجِبَ من كِبَرِه وكِبَرِ امرأتِه. وتقدَّمَ ذِكْرُ سِنِّه وقتَ البِشارة[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥.

(٢) أي: فَلَيْنَني، وهو عجز بيت لعمرو بن معد يكرب، وصدرُه: تَرَاهُ كالثَّغام يُعَلُّ مِسْكاً. وهو في الكتاب ٣/ ٥٢٠، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٤٤٣، وللفراء ٢/ ٩٠، ومجاز القرآن ١/ ٣٥٢، واللسان (فلا). قوله: الثَّغام: نبتٌ له نَوْرٌ أبيض يُشَبَّهُ به الشَّيب، يُعَلُّ: يُطيَّبُ شيئاً بعد شيء. والفالية هي التي تَفْلِي الشَّعْر، أي: تُخرج القمل منه. ينظر خزانة الأدب ٥/ ٣٧١. وتحرَّف قوله: «الفاليات، فَلَيْنِي» في (ح) و(د١) و(د٢) ومطبوع البحر إلى: القاليات، قليني.

(٣) هو قطعة من بيت لأبي حَيَّة النُّميري كما في معاني القرآن للأخفش ١/ ٤٤٣-٤٤٤، ومجاز القرآن ١/ ٣٥٢، واللسان (فلا). ولفظه بتمامه:

أبالموت الذي لا بدَّ أني مُلاقٍ - لا أباكِ - تُخَوِّفيني

وقوله: لا أباك، أي: لا أبا لكِ. والبيت شاهدٌ أيضاً على حذف اللام، ينظر اللامات ص١٠٣، والأصول في النحو ١/ ٣٩٠، والخصائص ١/ ٣٤٥.

(٤) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦. وينظر نحو ما سلف في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥.

(٥) هذا كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، وليس كلام الحسن.

(٦) ينظر تفسير الآية (٣٩) من سورة هود، و(٧١) من سورة إبراهيم. وقول مجاهد في تفسير =

و«بالحقِّ» أي: باليقين الذي لا لَبْسَ فيه، أو بالطريقة التي هي حقّ، وهي قولُ الله ووعدُه، وأنه قادرٌ على أنْ يُوجِدَ ولداً من غير أبوَيْن، فكيف من شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ؟!

وقرأ ابن وثّاب وطلحة والأعمش ـ ورُويت عن أبي عَمرو ـ: «من القَنِطِين» من قَنِطَ يَقْنَطُ[1]. وقرأ النَّحويان والأعمش: «ومَنْ يَقْنِطُ» وفي الرُّوم والزُّمَر[2] بكسر النون، وباقي السبعة بفتحها[3]. وزيدُ بنُ علي والأشهب بضمِّها[4]. وهو استفهام في ضمنه النفي، ولذلك دخلت «إلا» في قوله ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وقولُهم له: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾نهيٌ، والنهيُ عن الشيء لا يدلُّ على تلبُّس المنهيّ عنه به ولا بمقاربته[5]. وقولُه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ ردٌّ عليهم، وأنَّ المحاورة في البِشارة لا تدلُّ على القُنوط، بل ذلك على سبيل الاستبعاد لِما جرتْ به العادة.

وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ هبة الولد على الكِبَر من رحمة الله، إذ يشدُّ عَضُدَ والدِه به ويُؤازِرُه حالةَ كونهِ لا يستقلُّ، ويرثُ منه علمَه ودينه.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

لمَّا بشَّرُوه بالولد وراجعوه في ذلك علم أنهم ملائكةُ اللهِ ورُسُلُه، فاستفهمَ

= الطبري ١٤/ ٨٣-٨٤، والنكت والعيون ٣/ ١٦٤. والكلام أعلاه بتمامه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦.

(١) مثل حَذِرَ يَحْذَرُ. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٣.
(٢) آية الروم (٣٦): إذا هم يقنطون، وآية الزُّمَر (٥٣): لا تقنطوا.
(٣) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦. والنحويَّان: أبو عمرو البصري، والكسائي.
(٤) المحتسب ٢/ ٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦.
(٥) في المطبوع: بمقارنته.

بقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾والخَطْبُ لا يكاد يُقال إلا في الأمر الشديد، فأضافه إليهم من حيث إنهم هم حاملُوه إلى أولئك القوم المعذَّبين[١].

ونكَّرَ قوماً وصِفتَهم تقليلاً لهم واستهانةً بهم، وهم قوم لوط أهلُ مدينة سَدُومَ، والمعنى: أُرْسِلْنا بالهلاك.

و«إلّا آل لوط» يحتمل أن يكون استثناءً من الضمير المستكنّ في «مجرمين»، التقدير: أجرمُوا كلُّهم إلا آلَ لوط، فيكون استثناءً متصلاً، والمعنى: إلا آلَ لوط فإنهم لم يُجرِمُوا، ويكون قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾استئنافَ إخبارٍ عن نَجاتهم، وذلك لكونهم لم يُجرِمُوا، ويكون حكم الإرسال منسحباً على قوم مجرمين وعلى آل لوط لإهلاكِ هؤلاء وإنجاءِ هؤلاء.

والظاهر أنه استثناءٌ منقطع لأنَّ آلَ لوط لم يندرج في قوله: «قومٍ مجرمين» لا على عموم البدل لأنَّ وَصْف الإجرام منتفٍ عن آل لوط، ولا على عموم الشمول لتنكير «قومٍ مجرمين» ولانتفاء وصف الإجرام عن آل لوط، وإذا كان استثناءً منقطعاً فهو ممَّا يجبُ فيه النصبُ لأنه من الاستثناء الذي لا يمكنُ تَوجُّهُ[٢] العاملِ على المستثنى فيه، لأنهم لم يُرسَلُوا إليهم أصلاً، وإنما أُرسلوا إلى القوم المجرمين خاصَّة، ويكون قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾جرى مَجرى خبر «لكنَّ» في اتصاله بآل لوط؛ لأن المعنى: لكنَّ آلَ لوط مُنَجَّوْن[٣].

وقد زعمَ بعضُ النَّحويِّين في الاستثناء المنقطع المقدَّر بـ «لكنَّ» إذا لم يكن بعدَه ما يصحُّ أن يكون خبراً أنَّ الخبرَ محذوف، وأنه في موضع رفع لجريان «إلَّا» وتقديرِها بـ «لكنَّ»[٤].

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦.
(٢) في (أ) والمطبوع: بوجه.
(٣) في (أ): منجُّوهم.
(٤) ذكر الاستراباذي في شرح الكافية ٢/ ١١٧ أن «إلا» في الاستثناء المنقطع هي عند المتأخرين من البصريين مثل «لكنَّ» الناصبة، وخبرها محذوف غالباً، وأنها عند سيبويه مثل «لكنْ» العاطفة للمفرد على المفرد، ولهذا وجب فتح «أنَّ» الواقعة بعدها في نحو قولك: زيد غنيّ إلا أنه شقي. وأمَّا عند الكوفيِّين، فهي بمعنى «سوى» وانتصاب المستثنى بعدها كانتصابه في المتصل.

قال الزمخشري[١]: فإن قلتَ: فقولُه: «إلا امْرَأَتَهُ» مِمَّ اسْتُثني؟ وهل هو استثناءٌ من استثناء؟ قلت: استُثْنِيَ من الضمير المجرور في قوله «لَمَنجُّوهم»، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء، لأنَّ الاستثناء من الاستثناء إنَّما يكون فيما اتَّحَدَ الحُكْمُ فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آلَ لوط إلا امرأتَه، كما اتَّحَدَ الحُكْمُ في قول المطلِّق: أنتِ طالِقٌ ثلاثاً إلا اثنتينِ إلا واحدةً، وفي قول المُقِرِّ: لِفلانٍ عَلَيَّ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ إلا ثلاثةً إلا درهماً، فأمَّا في الآية فقد اختلفَ الحُكْمانِ؛ لأنَّ «إلا آلَ لوط» متعلِّق بـ «أُرْسِلْنا» أو بـ «مجرمين» و«إلا امْرَأَتَهُ» قد تعلَّق بـ «مُنَجُّوهُم» فأنَّى يكونُ استثناءً من استثناء. انتهى.

ولما استسلف الزمخشريّ أنَّ «إلا امرأته» مستثنًى من الضمير المجرور في «لمنجُّوهم» لم يجوِّز أن يكون استثناءً من استثناء، ومَن قال: إنَّه استثناءٌ من استثناء، فيمكن تصحيحُ كلامِه بأحدِ وجهين:

أحدُهما: أنه لمَّا كان الضميرُ في «لَمُنجُّوهم» عائداً على آل لوط وقد استثنَى منه المرأة، صارَ كأنَّه مستثنًى من «آلِ لوط» لأنَّ المُضمَر هو الظاهر في المعنى.

والوجه الآخَر: أنَّ قوله: «إلَّا آلَ لوط» لمَّا حكمَ عليهم بغير الحُكم على قوم مجرمين، اقتضى ذلك نجاتَهم، فجاء قوله: «إنَّا لَمُنَجُّوهُم أجمعين» تأكيداً لمعنى الاستثناء، إذِ المعنى: إلَّا آلَ لوط فلم يُرسَل إليهم بالعذاب، ونجاتُهم مترتِّبةٌ على عدم الإرسال إليهم بالعذاب، فصار نظيرَ قولك: قام القوم إلَّا زيداً فإنه لم يقُم، أو إلا زيداً لم يقُم، فهذه الجملةُ تأكيدٌ لِما تضمَّنَه الاستثناء من الحُكم على ما بعد «إلّا» بضدِّ الحُكم السابق على المستثنى منه، فـ «إلا امْرَأَتَه» على هذا التقرير[٢] الذي قرَّرناه استثناءٌ من «آلِ لوط» لأنَّ الاستثناء ممَّا جيء به للتأسيس أَوْلَى من الاستثناء ممَّا جيء به للتأكيد.

وقرأ الأخَوَان: «لَمُنْجُوهُمْ» بالتخفيف، وباقي السبعة بالتشديد[٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) في (به): التقدير.

(٣) السبعة ص٣٦٧، والتيسير ص١٣٦. والأخوان: حمزة والكسائي.

وقرأ أبو بكر: «قَدَرْنَا» بالتخفيف، وباقي السبعة بالتشديد[١]، وكُسرت «إنَّها» إجراءً لفعل التقدير مُجْرَى العلم، إمَّا لكونِه بمعناه، وإمَّا لترتُّبه عليه[٢].

وأسنَدُوا التقديرَ إليهم ولم يقولوا: قَدَّرَ الله؛ لأنَّهم هم المأمورون بإهلاكهم، كما يقول مَنْ يلُوذُ بالمَلِك ومَنْ هو متصرِّفٌ بأوامره: أَمَرْنا بكذا. والآمِرُ هو المَلِك.

وقال الزمخشري[٣]: لِمَا لَهم من القُرْبِ والاختصاص بالله الذي ليس لأحدٍ غيرِهم. انتهى. فأدرجَ مذهبَ الاعتزال في تفضيل الملائكة في غُضونِ كلامِه.

ووَصْفُ «قوم» بـ «مُنْكَرُون» لأنه نَكِرَتْهُم نفسُه ونَفَرَتْ منهم، وخافَ أن يَطْرُقُوهُ بِشَرٍّ.

و«بَلْ» إضرابٌ عن قولٍ محذوف، أي: ما جئناك بشيء تخافُه، بل جئناك بالعذاب لقومِك؛ إذْ كانُوا يَمْتَرُون فيه، أي: يَشُكُّون في وقوعه، أو يجادلونك فيه تكذيباً لك بما وعَدْتَهم عن الله.

ويحتمل أن يكون نَكِرَهُم لكونهم ليسوا بمعروفين في هذا القُطْر، فخافَ الهجومَ منهم عليه، أو أنْ يتعرَّضَ إليهم أحدٌ من قومه، إذْ كانوا في صورة شباب حِسانٍ مُردٍ.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾أي: باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾في الإخبار بحلوله بهم. وتقدَّم الخلاف في القراءة في «فأسْرِ»[٤].

وروى صاحب «الإقليد»: «فَسِرْ» من السَّيْر، وحكاها ابنُ عطية[٥] وصاحبُ «اللوامح» عن اليمانيّ.

(١) المصدران السالفان.

(٢) تعقَّب السمين الحلبي المصنفَ بأنَّ كسر الهمزة في «إنها» إنما هو من أجل اللام في خبرها، وأما إجراءُ فعلِ التقدير مُجرى العلم فإنما يصلحُ علَّةً لتعليقِهِ قبلَها. ينظر كلامه بتمامه في الدر المصون ٧/ ١٧٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٩٤.

(٤) قرأ نافع وابنُ كثير بوصل الهمزة، من: سَرَى، وقرأ باقي السبعة بقطعها، من: أسرى. وسلف في «هود» الآية (٨١).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨. وحكاها الزمخشري ٢/ ٣٩٤ عن صاحب الإقليد. وذكر حاجّي خليفة في كشف الظنون ١/ ١٣٧ كتاب الإقليد في التفسير عن صاحب الكشف.

وحكى القاضي منذر بنُ سعيد أنَّ فِرْقةً قرأت «بقِطَع» بفتح الطاء[١]، وتقدَّم الكلام في القِطع وفي الالتفات في سورة هود[٢].

وخطب الزمخشري هنا فقال: فإنْ قلتَ: ما معنى أمرِه باتِّباع أدبارِهم ونهيِهم عن الالتفات؟ قلت: قد بعثَ اللهُ الهلاكَ على قومه ونجَّاه وأهلَه إجابةً لدعوته عليهم وخرجَ مُهاجراً، فلم يكن بدٌّ من الاجتهاد في شكرِ الله وإدامةِ ذِكْرِهِ وتفريغ بالِه لذلك، فأُمِرَ بأنْ يُقَدِّمَهم لئلا يشتغلَ بمَنْ خَلْفَهُ قلبُه، وليكون مطَّلعاً عليهم وعلى أهوالهم[٣]، فلا تَفْرُطَ منهم التفاتة احتشاماً منه، ولا غيرُها من الهَفَوات في تلك الحالِ المَهُولَةِ المحذورة، ولئلا يتخلَّفَ منهم أَحَدٌ لغرضٍ له فيصيبَه [العذاب] وليكون مَسِيرُهُ مَسِيرَ الهارب الذي يُقَدِّمُ سِرْبَهُ[٤] ويفُوتُ به.

و ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾قال ابن عبَّاس: الشام. وقيل: زُغَر[٥]. وقيل: موضعُ نجاةٍ غيرُ معروف. وقيل: مصر. وقيل: إلى أرضِ الخليل بمكانٍ يقال له: اليقين[٦]. و«حَيْثُ» على بابها من أنها ظرفُ مكان، وادِّعاءُ أنها قد تكون هنا ظرفَ زمان من حيث إنه ليس في الآية أمرٌ إلا قوله: «فأَسْرِ بأهلك بقِطْع من الليل»، ثم قيل له: حيث تُؤْمَر=ضعيفٌ. ولفظ «تُؤْمَر» يدلُّ على خلاف ذلك، إذ كان يكون التركيب: من حيثُ أُمِرْتُم.

و«حيثُ» من الظروف المكانيَّة المبهمة، فلذلك يتعدَّى إليها الفعل ـ وهو «اِمْضُوا» ـ بنفسِه، تقول: قعدتُ حيث قعدَ زيدٌ، وجاء في الشِّعر دخول «في» عليها؛ قال الشاعر:

---

(١) حكاها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨.
(٢) تقدَّم في آية يونس (٢٧): «قِطعاً من الليل مظلماً» أن ابن كثير والكسائي قرأا بسكون الطاء، وقرأ باقي السبعة بفتحها، وسلف الكلام على التفات امرأة لوط في «هود» (٨١).
(٣) في (ح) والكشاف ٢/ ٣٩٥ (والكلام منه): أحوالهم.
(٤) في (يه) والمطبوع: تقدم سربه. وكلمة «العذاب» السالفة بين حاصرتين من الكشاف.
(٥) وزن زُفَر كما في معجم البلدان ٣/ ٤١١، وهي قرية بمشارف الشام، وسقط هذا القول من المطبوع.
(٦) تنظر الأقوال مفرَّقة في تفسير البغوي ٣/ ٥٤، والكشاف ٢/ ٣٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٧.

فأصبحَ في حيثُ الْتَقَيْنَا شرِيدُهُمْ طليقٌ ومَكْتُوفُ اليَدَيْنِ ومُزْعَفُ[(١)]

ولما ضمَّن «قَضَيْنا» معنى «أوحَيْنا» تعدَّت تعدِّيَها بـ «إلى»، أي: وأوحينا إلى لوط مَقْضِيًّا مبتوتاً. والإشارةُ بـ «ذلك» إلى ما وعدَه تعالى من إهلاك قومه، و«أنَّ دابِرَ» تفخيم لـ «الأمر» وتعظيمٌ له[(٢)]، وهو في موضع نصب على البدَل من «ذلك». قاله الأخفش، أو على إسقاط الباء، أي: بأنَّ دابِرَ. قاله الفرَّاء[(٣)]. وجَوَّزَهما الحَوْفيّ.

و«أنَّ دابِرَ هؤلاء مقطوعٌ» كنايةٌ عن الاستئصال. وتقدَّم تفسيرُ مثلِه في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: ٤٥].

و«مُصْبِحينَ»: داخلينَ في الصَّباح، وهو حالٌ من الضمير المستكنّ في «مقطوع» على المعنى، ولذلك جمعَه، وقدَّره الفرَّاء وأبو عبيد: إذا كانوا مصبحين، كما تقول: أنتَ راكباً أحسنُ منك ماشياً. فإنْ كان تفسيرَ معنًى فصحيح، وإنْ أرادَ الإعرابَ فلا ضرورةَ تدعو إلى هذا التقدير.

وقرأ الأعمش وزيد بنُ علي: «إنَّ دابِرَ» بكسر الهمزة[(٤)]، لمَّا ضمَّن «قَضَيْنا» معنى «أَوْحَينا» فكان المعنى: أعْلَمْنا، علَّقَ الفعل، فكسرَ «إنَّ»، أو لمَّا كان القضاءُ بمعنى الإيحاء معناهُ القولَ كسَرَ «إنَّ» ويؤيِّده قراءةُ عبدِ الله: «وقلنا إنَّ دابِرَ»[(٥)] وهي قراءة تفسيرٍ لا قرآنٍ لمخالفتها السَّوَاد. والمدينة سَدُوم، وهي التي ضُرِبَ بقاضيها المَثَلُ في الجَوْر[(٦)].

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٢٩، وهو من شواهد الكتاب ٢/ ١٠ على رفع «طليق» وما بعده على القطع لأنه تبعيض للشريد وبيان لأنواعه. قوله: مزعف، أي: المقتول مكانه.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٣٩٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٠. وذكر القولين ابن عطية ٣/ ٣٦٨، وصوَّب الأول. وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٨٩، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤١٥. والإملاء ٢/ ٧٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٧١، والكشاف ٢/ ٣٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٠، وتفسير الطبري ١٤/ ٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٩٣، والكشاف ٢/ ٣٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٩٥. وفي مجمع الأمثال ١/ ١٩٠: أجْوَرُ من قاضي سَدُوم.

=

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

استبشارُهم: فَرَحُهُم بالأضياف الذين وردُوا على لوطٍ عليه السلام، والظاهرُ أنَّ هذا المجيءَ ومحاورةَ لوطٍ[1] مع قومه في حقِّ أضيافِه وعَرْضَه بناتِه عليهم كان ذلك كلُّه قبلَ إعلامِه بهلاك قومِه وعلمِه بأنهم رُسُلُ الله، ولذلك سمَّاهم ضَيْفاً، وخافَ الفضيحةَ منهم لأجل[2] تعاطيهم ما لا يجوزُ من الفعل القبيح. وقد جاء ذلك مرتَّباً هكذا في «هود»، والواو لا تُرتِّب.

قال ابنُ عطية[3]: ويَحتمل أن يكون المجيءُ والمحاورةُ بعدَ علمِه بهلاكِهم، وحاورَ تلك المحاورةَ على جهة التَّكَتُّم عنهم والإملاءِ لهم والتربُّصِ بهم. انتهى.

ونهاهم عن فضحهم إيَّاه لأنَّ من أساءَ إلى ضيفِه أو جارِه فقد أساءَ إليه[4].

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ من الخِزْي، وهو الإذلال، أو من الخَزَاية، وهو الاستحياء. وفي قولهم: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ دليلٌ على تقدُّم نهيهم إيَّاه عن أن يُضِيفَ أو يُجِيرَ أحداً أو يدفعَ عنه، أو يمنع بينهم وبينه، فإنَّهم كانوا يتعرَّضون لكلِّ أحد، وكان هو صلى الله على نبينا وعليه يقوم بالنهي عن المنكر والحَجْزِ بينَه وبين من تعرَّضَ له[5]، فأوْعَدُوه

= وقيل: سَدُوم، اسم قاضي القرية، وجاء في شعر ابن دارة: وأجْوَرُ في الحكومة من سَدُومِ. ينظر ثمار القلوب ص١٠٧، وفصل المقال ص٥٠٣.

(١) في (ح) والمطبوع: ومحاورته.

(٢) المثبت من (ز١) و(يه). وفي (د١) والمطبوع: سمَّاهم ضيفان خوف الفضيحة لأجل... وفي النسخ الأخرى: خاف، بدل: خوف.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨.

(٤) الكلام في الكشاف ٢/ ٣٩٥، وعبارته: «لأن من أُسيء إلى ضيفِهِ أو جاره فقد أسيء إليه». وهي أحسن.

(٥) في المطبوع: والحجر بينهم وبين من تعرضوا له.

بأنه إن لم ينتهِ أخرجوه(١).

وتقدَّم الكلام في قوله: «بناتي» ومعنى الإضافة في «هود» [٧٨].

و«إنْ كنتُم فاعلين» شَكٌّ في قبولهم لقوله، كأنَّه قال: إنْ فعلتُم ما أقولُ لكم وما أظنُّكم تفعلون، وقيل: إن كنتُم تريدون قضاءَ الشهوة فيما أَحَلَّ الله دونَ ما حرَّم(٢).

واللام في «لَعَمْرُكَ» لامُ الابتداء، والكاف خطابٌ للوط عليه السلام، والتقدير: قالت الملائكة للوط: «لَعَمْرُكَ». وكَنَى عن الضلالة والغفلة بالسَّكْرَة، أي: تحيُّرُهم في غفلتهم وضلالتهم منعَهم عن إدراك الصَّواب الذي تُشيرُ به من ترك البنين إلى البنات.

وقيل: الخطابُ للرسول ﷺ، وهو قولُ الجمهور؛ ابنُ عبَّاس وأبو الجَوْزاء وغيرُهما(٣)، أقسمَ تعالى بحياته تكريماً له.

والعَمْرُ بفتح العين وضمِّها: البقاءُ، وألزمُوا الفتحَ القَسَم، ويجوز حذف اللام، وبذلك قرأ ابنُ عباس؛ قرأ: «وعَمْرَكَ»(٤).

وقال أبو الهيثم: «لَعَمْرُكَ» لَدِينُك الذي تعمُر. وأنشَدَ:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يلتقيانِ(٥)

أي: عبادتَك اللهَ. وقال ابنُ الأعرابيّ: عَمَرْتُ ربِّي، أي: عَبَدْتُه، وفلانٌ عامِرٌ

(١) بنحوه في الكشاف ٢/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) المصدر السالف.

(٣) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٤٩٣-٤٩٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨، والكشاف ٢/ ٣٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٥) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٢٩. والمُراد بالثُّريَّا: بنتُ علي بن عبد الله بن الحارث، والمرادُ بسُهيل: ابنُ عبد الرحمن بن عوف، ورَّى عنهما بالنَّجمين المعروفَيْن.

لربِّه، أي: عابد. قال: ويقال: تركتُ فلاناً يعمُر ربَّه، أي: يعبُدُه[١]. فعلى هذا «لَعَمْرُكَ»: لَعِبَادَتُكَ.

وقال الزجَّاج[٢]: ألزمُوا الفتحَ القَسَمَ لأنه أخفُّ عليهم، وهم يُكثرون القَسَم بـ «لَعَمْرِي» و«لَعَمْرُكَ»، فلزمُوا الأخَفَّ.

وارتفاعُه بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: ما أُقسِمُ به.

وقال بعضُ أصحاب المعاني: لا يجوزُ أن يضافَ إلى الله لأنه لا يقال لله تعالى عَمْر، وإنما يقال: هو أزليّ[٣]، وكأنَّه تَوهَّم أنَّ العَمْر لا يقال إلا فيما له انقطاع، وليس كذلك، العَمْر والعُمْر البقاء. وقال الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أعْجَبَني رِضاها[٤]

وقال الأعشى:

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهورَ علامةً فيَبِينُ منها نَقْصُها وكَمالُها[٥]

وكَرِهَ النخعيُّ أن يقال: لَعَمْرِي، لأنه حَلِفٌ بحياة المُقسِم[٦]. وقال النابغة:

لَعَمْرِي وما عَمْرِي عليَّ بهيِّنٍ[٧]

والضمير في «سَكْرَتِهم» عائدٌ على قوم لوط، وقال الطبريّ: لقريش. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس؛ قال: ما خلقَ اللهُ نفساً أكرمَ على الله من محمد؛ قال له: وحياتِك «إنهم»، أي: قومَك من قريش[٨] «لفي سَكْرَتِهم» أي: في ضلالهم وجهلهم

---

(١) تهذيب اللغة ٢/ ٣٨٣.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٨٣. وينظر زاد المسير ٤/ ٤٠٨.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠ (والكلام فيه عن الزهراوي): وإنما يقال: بقاء أزلي.
(٤) البيت لقحيف العقيلي، ينظر أدب الكاتب ص٥٠٧، والخصائص ٢/ ٣١١، وخزانة الأدب ١٠/ ١٣٣.
(٥) ديوان الأعشى ص٨١، ورواية عجزه فيه: قَدْراً فبيَّنَ نصفَها وهلالَها، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، ورواية عجزه فيه: فيها فبيَّن نصفها وكمالها.
(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٩٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٠.
(٧) هو صدرُ بيت له، وعَجُزُه: لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عليَّ الأقارعُ، وهو في ديوانه ص٨٠.
(٨) قوله: أي قومك من قريش... الخ، من كلام الطبري وليس من قول ابن عباس، ينظر

«يَعْمَهُون» يتردَّدُون. قال ابنُ عطية[١]: وهذا بعيد لانقطاعه ممَّا قبلَه وما بعدَه.

وقرأ الأشهب: «سُكْرَتِهم» بضمّ السين، وابنُ أبي عَبْلة: «سَكَرَاتهم» بالجمع، والأعمشُ: «سَكْرِهم» بغير تاء، وأبو عَمرو في رواية الجَهْضَمِيّ «أَنَّهم» بفتح همزة «أَنَّهم»[٢].

و«الصيحةُ» صيحةُ الهلاك، وقيل: صوتُ جبريلَ عليه السلام، وقال ابنُ عطية: هي صيحةُ الوَجْبة[٣]، وليست كصيحة ثمود.

«مُشرقين»: داخلين في الشروق، وهو بزوغُ الشمس[٤]، وقيل: أولُ العذابِ كان عند الصُّبح وامتدَّ إلى شروق الشَّمس، فكانَ تمامُ الهلاك عند ذلك[٥].

والضمير في «عَالِيَها سَافِلَها» عائدٌ على «المدينة» المتقدِّمةِ الذِّكْر. وقال الزمخشريّ: لِقُرى قومِ لوط[٦]. ولم يتقدَّم لفظ القُرى.

وقال مقاتل وابنُ زيد: «للمُتَوَسِّمِين»: للمتفكِّرين. وقال الضحَّاك: للناظرين. قال الشاعر:

أَوَكُلَّما وردت عُكَاظَ قَبِيلةٌ   بَعَثُوا إليَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ[٧]

وقال أبو عُبيدة: للمتبصِّرين، وقال قتادة: للمعتبرين. وروى نَهْشَل عن ابنِ

= تفسير الطبري ١٤/ ٩١. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠٩ بنحوه عن عطاء. وينظر أيضاً الهداية ٦/ ٣٩١٤.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٢) القراءات المذكورة هي في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وبعضها في القراءات الشاذة ص٧١، والكشاف ٢/ ٣٩٦.

(٣) المثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وهو الصواب، وتحرفت في النسخ الخطية إلى الوحشة. وينظر تفسير ابن أبي حاتم (١١٠٨٩) (١١٠٩٠) (الآية ٨١ من هود)، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥١-٥٢ (الآية ٧٨ من الأعراف).

(٤) الكشاف ٢/ ٣٩٦.

(٥) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٢.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٩٦.

(٧) البيت لطريف بن تميم العنبري، وهو في الكتاب ٤/ ٧، والأصمعيات ص١٢٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٩٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٣.

عباس «للمتوسّمين» قال: لأهل الصَّلاح والخير[١].

والضمير في «وإنَّها» عائد على المدينة المُهْلَكة، أي: إنها لَبِطَرِيقٍ ظاهرٍ بَيِّنٍ للمعتبر. قاله مجاهد وقتادة وابن زيد[٢].

قيل: ويحتمل أن يعودَ على الآيات، ويحتمل أن يعودَ على الحجارة[٣].

وقولُه: «لَبِسبيل» أي: مَمَرٌّ ثابت، وهي بحيث يراها الناسُ ويعتبرون بها لم تندرس، وهو تنبيهٌ لقريش كقوله[٤]: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقيل: عائدٌ على الصَّيحة، أي: وإنَّ الصيحة لَبِمَرْصَدٍ لِمَنْ يعملُ عملَهم، كقوله ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقيل: «مقيم»: معلوم، وقيل: مُعَبَّدٌ[٥] دائم السلوك. وقال ابنُ عباس: هلاكٌ دائم[٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في صُنعنا بقوم لوط لَعلَامةً ودليلاً لمن آمنَ بالله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾ هم قومُ شُعيب ـ والأيكة التي أُضِيفُوا إليها كانت شَجَرَ الدَّوْم، وقيل: المُقْل، وقيل: السِّدْر. وقيل: الأيكة اسمُ النَّاحية، فيكون عَلَماً، ويقوِّيه قراءةُ مَن قرأ في «الشعراء» و«ص»: «لَيْكَة» ممنوعةَ الصَّرْف[٧] ـ كفروا فسلَّط الله عليهم الحرَّ

(١) ينظر ما سلف من أقوال في معنى «المتوسّمين» في معاني الفراء ٢/ ٩١، وتفسير الطبري ١٤/ ٩٥-٩٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٩٤، والنكت والعيون ٣/ ١٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠، وزاد المسير ٤/ ٤١٠، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٣.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٩٨، والثعلبي ٣/ ٤٩٤، وزاد المسير ٤/ ٤١٠، والكلام أعلاه في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.

(٤) لفظ «كقوله» من (ز١) و(يه). والكلام في الكشاف ٢/ ٣٩٦.

(٥) المثبت من (ز١) والضبط منها. وفي (د٢) والمطبوع: معتدّ، وفي النسخ الأخرى: معبر.

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٦٨، وزاد المسير ٤/ ٣١٠، ووقع بعدها في (د١) والمطبوع كلمة «السلوك»، ولم ترد هذه الكلمة في القول الذي قبله في المطبوع.

(٧) قرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وابنُ عامر، وهي في «الشعراء» (١٧٦) و«ص» (١٣). وتنظر الأقوال السالفة في الأيكة في تفسير الطبري ١٤/ ١٠٠، والنكت والعيون ٣/ ١٦٨، =

وأُهلكوا بعذاب الظُّلَّة، ويأتي ذلك مستوفًى إن شاء الله تعالى في سورة الشعراء.

و«إنْ» عند البصريِّين هي المخفَّفة من الثقيلة، وعند الفرَّاء نافية، واللام بمعنى «إلّا» وتقدَّم نظيرُ ذلك في ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ في «البقرة» [١٤٣].

والظاهر قولُ الجمهور من أنَّ الضمير في «وإنَّهما» عائدٌ على قريَتي قوم لوط وقوم شعيب، أي: إنَّهما على مَمَرٍّ السَّابِلَة[١].

وقيل: يعودُ على لوط وشعيب، أي: وإنهما لبإمامٍ مبين، أي: بطريقٍ من الحقِّ واضح، والإمام: الطريق[٢].

وقيل: «وإنهما» أي: إن الخبر بهلاك قوم لوط وأصحابِ الأيكة لفي مكتوب مبين، أي: اللوح المحفوظ. قال مؤرِّج: والإمام: الكتاب بلغة حِمْير[٣].

وقيل: يعودُ على أصحاب الأيكة ومدين، لأنَّه مرسَلٌ إليهما، فدلَّ ذِكْرُ أحدِهما على الآخر، فعاد الضمير إليهما[٤].

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾.

أصحاب الحِجْر ثمودُ قومُ صالحٍ عليه السلام، والحِجْرُ أرضٌ بين الحِجاز والشام، وتقدَّمت قصتُه في «الأعراف» مستوفاة.

و«المرسلين» يعني بتكذيبهم صالحاً، لأنَّ مَنْ كذَّبَ واحداً منهم فكأنما كذَّبهم جميعاً، قال الزمخشريّ[٥]: أو أرادَ صالحاً ومَنْ معَه من المؤمنين، كما قيل:

= والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧١، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٧. وفي النكت والعيون أن شجر الدَّوْم هو المُقْل.

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٠١-١٠٢، والثعلبي ٣/ ٤٩٤، والنكت والعيون ٣/ ١٦٩، والكشاف ٢/ ٣٩٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢، وزاد المسير ٤/ ٤١٠، والقرطبي ١٢/ ٢٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.

(٣) بنحوه في النكت والعيون ٣/ ١٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٣٩٦.

(٥) في الكشاف ٢/ ٣٩٦، والكلام السالف قبله فيه.

الخُبَيْبُون في ابنِ الزُّبير وأصحابِه[١].

وعن جابر قال: مَرَرْنا مع رسولِ الله ﷺ على الحِجْر، فقال لنا: «لا تَدْخُلُوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسَهم إلا أن تكونوا باكِينَ حَذَراً أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابَ هؤلاء» ثمَّ زجَرَ رسول الله ﷺ راحلتَه، فأسرعَ حتى خلَّفها[٢].

وفي بعض طُرقِه[٣]: ثم قال: «هؤلاء قومُ صالح أهلكَهم الله إلا رجلاً كان في حَرَمِ الله، منعَه حَرَمُ اللهِ من عذابِ الله». قيل: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رِغَال» وإليه تُنسب ثَقِيف.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ قيل: أُنزلَ إليهم آياتٌ من كتاب الله، وقيل: يُرادُ نَصب الأدلَّة، فأعرضُوا عنها.

وقيل: كان في النَّاقة آياتٌ خمسٌ: خروجُها من الصخرة، ودُنوُّ نَتاجِها عند خُروجِها، وعِظَمُها حتى لم تُشبهها ناقةٌ، وكثرةُ لَبَنِها حتى يكفيَهم جميعاً[٤]. وقيل: كانت له آياتٌ غير الناقة[٥].

وقرأ الجمهور: «يَنْحِتُون» بكسر الحاء، وقرأ الحسن وأبو حيوة بفتحها[٦]،

---

(١) لفظ «الخُبَيْبُون» جاء عند الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٦ ومَنْ بعدَه. وجاء في رَجَز حُميد الأرقط: قَدْنِيَ من نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي. رُوي بالتثنية والمرادُ بهما عبدُ الله بن الزُّبير وابنُه خُبيب، أو عبد الله وأخوه مصعب، ورُوي بالجمع، والمرادُ بهم ثلاثتهم، أو عبدُ الله ومن كان على رأيه، أقوال. ينظر اللسان (خبب)، وينظر تفسير قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] في تفسير القرطبي ١٨/ ٨٩ وغيره.

(٢) الحديث بهذا اللفظ في الكشاف ٢/ ٣٩٦، وأورده الثعلبي في تفسيره ٣/ ٤٩٤ عن عبد الله بن عمر وجابر ﷺ بزيادة اللفظ الذي سيذكره المصنف بعده. والحديث عند البخاري (٣٣٨٠) ومسلم (٢٩٨٠) عن عبد الله بن عمر ﷺ.

(٣) هو من رواية الثعلبي التي ذكرتُها في التعليق السالف.

(٤) هذه أربعة لا خمسة، وجاء ذكرُها كذلك في تفسير البغوي ٣/ ٥٦، وزاد المسير ٤/ ٤١١. وقال القرطبي ١٢/ ٢٤٨: كانت فيها آيات جمَّة. . . . وذكرها.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٥٦، والقرطبي ١٢/ ٢٤٨.

(٦) القراءات الشاذة ص٧١، والمحتسب ٢/ ٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢. قال ابن جني: نحَت ينحِتُ، بكسر الحاء، وفتحها لأجل حرف الحلق الذي فيها، كسَحَرَ يَسْحَرُ.

وصفَهم بشدَّة النَّظَر للدنيا والتكسُّب منها، فذَكَرَ من ذلك مثالاً وهو نَقْرُهُم بالمعاوِلِ ونحوِها في الحجارة[١].

و«آمنين» قيل: من الانهدام، وقيل: من حوادث الدُّنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمار[٢]، وقيل: من نَقْب اللُّصوص ومن الأعداء، وقيل: من عذاب الله، يَحسَبُون أنَّ الجبال تحميهم منه[٣].

قال ابنُ عطية: وأصحُّ ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقبَ الآخرة، فكانوا لا يعملون بِحَسَبِها، بل كانوا يعملون بِحَسَبِ الأمْنِ منها.

و«مُصْبِحين»: داخلين في الصَّباح.

والظاهر أنَّ «ما» في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ نافية، وتَحتمِلُ الاستفهامَ، المرادُ منه التعجُّب.

و«ما» في «ما كانوا» تَحتمِلُ أن تكون مصدرية، والظاهر أنها بمعنى «الذي» والضميرُ محذوف، أي: يكسبونَه من البيوت الوثيقة، والأموال والعُدَد، بل خرُّوا جاثِمينَ هَلْكَى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ
﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ
﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ
عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ
﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾
وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

---

(١) الكلام مختصر من المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.
(٢) المصدر السالف.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٩٧. وينظر ما سلف من أقوال في النكت والعيون ٣/ ١٦٩، وزاد المسير ٤/ ٤١٢.

«إلا بالحقّ» أي: خَلْقاً مُلْتَبِساً بالحق لم يُخلَقْ شيءٌ من ذلك عَبَثاً ولا هَمَلاً، بل ليُطيع من أطاعَ بالتفكُّرِ في ذلك الخلقِ العظيم، وليتذكَّرِ النشأةَ الآخرةَ بهذه النشأةِ الأولى، ولذلك نبَّه مَنْ يتنبَّهُ بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فيُجازِي مَنْ أطاعَ ومَنْ عَصَى.

ثم أمرَ نبيَّه ﷺ بالصفح، وذلك يقتضي المهادَنةَ، وهي منسوخةٌ بآية السيف. قاله قتادة[١]، أو إظهارِ الحِلْمِ[٢] عنهم والإغضاء له[٣].

ولما ذكرَ خَلْقَ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾أتى بصفة المبالغة لكثرة ما خلقَ، أو الخلَّاقُ مَنْ شاء لِما شاءَ مِن سعادة أو شقاوة.

وقال الزمخشري[٤]: الخلَّاق الذي خلقَكَ وخلقَهم، وهو العليم بحالِكَ وحالِهم، فلا يخفَى عليه ما يجري بينَكم، أو إنَّ ربك هو الذي خلقَكم وعَلِمَ ما هو الأصلحُ لكم، وقد علمَ أنَّ الصَّفْحَ اليومَ أصلحُ إلى أنْ يكون السيفُ أصلحَ.

وقرأ زيد بن عليّ والجَحْدَرِيّ والأعمش ومالك بنُ دينار: «هو الخالق» وكذا في مصحف أُبيّ وعثمان[٥].

﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال الحسن بنُ علي[٦]: إنَّ سبعَ قَوافِلَ [وافَتْ مِن بُصْرَى] وأَذْرِعات ليهودِ قُرَيْظةَ والنَّضِير بيوم واحد، فيها أنواعُ البَزِّ والطِّيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموالُ لنا لَتَقَوَّيْنا بها وأَنْفَقْناها في

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٠٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢، وآية السيف هي الآية الخامسة من سورة التوبة.
(٢) في (أ) و(د٢) و(يه) والمطبوع: الحكم. وهو تحريف.
(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٠، والكشاف ٢/ ٣٩٧.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٩٧.
(٥) ينظر القراءات الشاذة ص٧١، والمحتسب ٢/ ٦، والكشاف ٢/ ٣٩٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.
(٦) هذا الخبر من (يه) ولم يرد في النسخ الأخرى، وهو في أسباب النزول للواحدي ص٢٨٢، والكشاف ٢/ ٣٩٨، وزاد المسير ٤/ ٤١٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٣، ونسب الخبر في زاد المسير وأسباب النزول للحسين بن الفضل. وما سلف بين حاصرتين مستفاد منها. ونقل الآلوسي في روح المعاني ١٣/ ٥٤٤ أنه ضعيف أو لا يصحّ.

سبيل الله، فأنزل الله هذه الآية وقال: قد أعطيتُكم سبعَ آياتٍ هي خيرٌ لكم من هذه السَّبعِ القوافل.

و«المثاني» جمع مَثْنَاة، والمَثْنَاة[١] كلُّ شيء يُثْنَى، أي: يُجعلُ اثنين، من قولك: ثَنَيْتُ الشيء ثَنياً، أي: عطفتُه وضممتُ إليه آخر، ومنه يقال لركبتي الدابَّة ومِرْفَقَيْه: مَثَاني، لأنه يُثْنَى[٢] بالفَخِذ والعَضُد، ومَثَاني الوَادِي: مَعَاطِفُهُ، فنقول: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ مفهومُ[٣] سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تُثْنَى، وهذا مُجْمَلٌ، ولا سبيلَ إلى تعيينه إلا بدليل منفصل.

قال ابنُ مسعود وابنُ عبَّاس وابنُ عُمر ومجاهد وابنُ جُبير: السَّبْعُ هنا هي السَّبْعُ الطُّوَل[٤]: البقرة، وآلُ عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة[٥]، لأنهما في حكم سورة، ولذلك لم يُفْصَل بينهما بالتسمية، وسُميت الطُّوَلُ مَثَانيَ لأنَّ الحُدُودَ والفرائضَ والأمثالَ ثُنِيَتْ فيها، قاله ابنُ عباس[٦]. وعلى قوله «مِنْ» لبيان الجنس.

وقيل: السابعةُ سورةُ يونس. قاله ابنُ جُبير، وقيل: براءةُ وحدَها. قاله أبو مالك[٧]. والمثاني على قول هؤلاء وابن عباس في قوله المتقدِّم القرآنُ، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وسُمِّيَ بذلك لأنَّ القَصَصَ والأخبارَ تُثْنَى فيه وتُرَدَّد[٨].

وقيل: السَّبْعُ آلُ «حم»، أو سَبْعُ صحائفَ وهي الأسْبَاع[٩].

---

(١) المثبت من (ز١) و(يه)، وفي النسخ الأخرى: والمثنى. والكلام في تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٧.
(٢) في تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٧: ... ومرفقيها مثاني لأنها تثنى... إلخ.
(٣) في تفسير الرازي: مفهومه.
(٤) في (ح) و(يه) والمطبوع: الطّوال. وهما بمعنى.
(٥) يعني مع براءة. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨، وأخرج الطبري أقوالهم ١٤/ ١٠٧-١١٢.
(٦) النكت والعيون ٣/ ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٢٠٨.
(٧) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٠٩-١١٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.
(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣. وينظر تفسير الرازي ١٩/ ٢٠٩.
(٩) الكشاف ٢/ ٣٩٧.

وقيل: السَّبْع هي المعاني التي أُنزلت في القرآن: أمرٌ ونهيٌ وبِشارةٌ وإنذارٌ وضربُ أمثال وتَعدادُ النِّعم وأخبارُ الأمم. قاله زيادُ بنُ أبي مريم(١).

وقال عُمر وعليّ وابنُ مسعود وابنُ عبَّاس أيضاً والحسن وأبو العالية وابنُ أبي مُلَيْكة وعُبيد بنُ عُمير وجماعةٌ: السَّبْع هنا هي آيات «الحمدُ». قال ابن عباس: وهي سبعٌ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وقال غيرُه: سبعٌ دونَ البسملة(٢).

وقال أبو العالية: لقد نزلت هذه السورة وما نزل من السَّبع الطُّوَلِ شيء(٣). ولا ينبغي أن يُعْدَلَ عن هذا القول، بل لا يجوزُ العدولُ عنه لِما في حديث أُبيّ، ففي آخره: «هي السَّبْعُ المثاني» وحديثِ أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إنَّها السَّبعُ المَثاني، وأمُّ القرآن، وفاتحةُ الكتاب»(٤).

وسُمّيت بذلك لأنها تُثْنَى في كل ركعة، وقيل: لأنها يُثْنَى بها على الله تعالى، جوَّزَه الزجَّاج(٥)؛ قال ابنُ عطيَّة: وفي هذا القولِ من جهة التصريف نظر. انتهى. ولا نظرَ في ذلك، لأنها جمعُ مُثْنَى بضم الميم مُفْعل، من «أَثْنَى» رباعياً، أي: مقرّ ثناء على الله تعالى، أي: فيها ثناءٌ على الله تعالى.

وقال ابنُ عبّاس: لأنَّ الله استثناها لهذه الأمَّة ولم يُعطها لغيرها. وقال نحوَه ابنُ أبي مُلَيْكَة(٦).

وعلى هذا التفسير الوارد في الحديث تكونُ «مِنْ» لبيان الجنس كأنه قيل: التي هي المَثاني، وكذا في قولِ مَنْ جعلَها أسباعَ القرآن، أو سَبْعَ المعاني، وأمَّا مَنْ جعلَها السَّبعَ الطُّوَل، أو آل «حم» فـ «مِنْ» للتبعيض، وكذا في قولِ مَنْ جعلَ سَبْعاً الفاتحةَ، والمثانيَ القرآنَ.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٩-١٢٠، والنكت والعيون ٣/ ١٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، وزاد المسير ٤/ ٤١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣. وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٠، وزاد المسير ٤/ ٤١٣. وأخرج الطبري الأقوال ٢٤/ ١١٣-١١٩.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ١١٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣ (واللفظ منه).

(٤) الحديثان في سنن الترمذي (٣١٢٤) (٣١٢٥). وينظر حديث البخاري (٤٧٠٤).

(٥) معاني القرآن له ٣/ ١٨٥. والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣.

قال الزمخشري[١]: يجوزُ أن تكون كتُبُ الله كلُّها مَثانيَ لأنها تُثْنَى عليه، ولِما فيها من المواعظ المكرَّرة، ويكون القرآنُ بعضَها.

وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ بالنصب، فإن عَنَى بالسَّبْع الفاتحةَ أو السَّبْعَ الطُّولَ؛ كان ذلك من عطف العامّ على الخاصّ، وصار الخاصُّ مذكوراً مرَّتين: إحداهما بجهة الخُصوص، والأخرى بجهة العُموم، أو لأنَّ ما دونَ الفاتحةِ أو السَّبعِ الطُّوَل ينطلقُ عليه لفظ القرآن، إذ هو اسمٌ يقعُ على بعض الشيء كما يقعُ على كلِّه، وإنْ عَنَى الأَسْباعَ فهو من باب عطف الشيء على نفسِه من حيث إنَّ المعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم[٢]، أي: الجامع لهذين النَّعتَيْن، وهو الثناء، أو التثنية[٣] والعِظَم.

وقرأت فِرْقة: «والقرآنِ العظيمِ» بالخفض عطفاً على «المثاني»[٤] وأبعدَ مَنْ ذهبَ إلى أنَّ الواوَ مقحمة، والتقدير: سبعاً من المثاني القرآنَ العظيمَ.

ولـمَّا ذكرَ تعالى ما أنعمَ على رسولِه ﷺ من إيتائِهِ ما آتاه نَهاه، وقد قلنا: إنَّ النهيَ لا يقتضي الملابسةَ ولا المقاربةَ عن طموح عينيهِ إلى شيء من متاع الدنيا. وهذا وإن كان خطاباً للرسول ﷺ؛ فالمعنى نَهْيُ أمَّتِه عن ذلك، لأنَّ مَنْ أُوتيَ القرآنَ شَغَلَهُ النظرُ فيه وامتثالُ تكاليفِه وفَهْمُ معانيه عن الاشتغالِ بزَهْرة الدُّنيا.

ومَدُّ العينِ للشيء إنَّما هو لاستحسانه وإيثارِه.

وقال ابنُ عباس: أي: لا تَتَمنَّ ما فضَّلْنَا به أحداً من متاع الدنيا[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٧.

(٢) جاء بعده في (يه) ما صورتُه: «كما قال كعب بن زهير: بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ، متيَّم إثرها لم يفد مكبولُ، وما سعادُ غداة البين إذ رحلُوا، إلا أغنَّ غضيض الطرف مكحولُ. وقال آخر: أعطاك الله سبعاً من المثاني، وأعطاك ربِّي علم القرآن العظيم». ولم يتبين لي مناسبة بيتَي كعب، ولعل ذلك مقحم، فالكلام مستقيم من دونه، وهو في الكشاف ٢/ ٣٩٧.

(٣) في المطبوع: لهذين المعنيين وهو الثناء والتنبيه. وفيه تحريف، والكلام في الكشاف ٢/ ٣٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣. وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ١٢٨، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١٠ (واللفظ منه).

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: رجالاً مع نسائهم، أو أمثالاً في النِّعم، أو أصنافاً من اليهود والنصارى والمشركين. أقوال[١].

ونهاه تعالى عن الحُزن عليهم إن لم يؤمنوا، وكان كثيرَ الشَّفَقةِ على مَن بُعث إليه وَادّاً أن يؤمنَ بالله كلُّهم، فكان يلحقُه الحُزنُ عليهم، فنهاه تعالى عن الحُزن على مَنْ لم يؤمن، وأمرَه بخفضِ جناحِه لمن آمن، وهي كنايةٌ عن التلطُّف والرِّفق، وأصلُه أنَّ الطائر إذا ضمَّ الفرخَ إليه بسطَ جناحَه له، ثم قبضَه على فَرْخِه، والجناحانِ من ابن آدم جانباه[٢].

ثم أمرَه أن يُبلِّغ أنه هو النذير الكاشفُ لكم ما جئتُ به إليكم من تعذيبكم إن لم تؤمنوا وإنزالِ نِقَمِ الله المخوفة بكم.

والكافُ؛ قال الزمخشري: فيه وجهان:

أحدهما: أن يتعلَّق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي: أنزلنا عليك مثلَ ما أنزلنا على أهل الكتاب، وهم المُقتسمون «الذين جعلوا القرآنَ عِضِين» حيث قالوا بِعِنادهم وعُدْوَانهم[٣]: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسَمُوه إلى حقٍّ وباطل، وعَضَوْهُ[٤]. وقيل: كانوا يستهزئون به، فيقول بعضُهم: سورة البقرة لي، ويقول الآخر: سورة آلِ عمران لي. ويجوزُ أن يُراد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسَمُوه بتحريفهم، وبأنَّ اليهودَ أقرَّت ببعضِ التوراة وكذَّبت ببعض، والنصارى أقرَّتْ ببعض الإنجيل وكذَّبت ببعض. وهذه تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن صنيعِ قومِه بالقرآن وتكذيبِهم وقولِهم: سِحْر وشِعْر وأساطير بأنَّ غيرَهم من الكفَرة فعلُوا بغيرِهِ من الكتب نحوَ فِعْلِهم.

والثاني أن يتعلَّق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي: وأنذِرْ قريشاً مثلَ ما أنزَلْنا من العذاب على المقتسمين، يعني اليهود وهو ما جرى على قُرَيظةَ والنَّضِير،

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ١٧١، وزاد المسير ٤/ ٤١٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٤-٢٥٥.
(٣) في (أ) و(ح): وعداوتهم. والكلام في الكشاف ٢/ ٣٩٨.
(٤) أي: فرَّقوا أقاويلهم فيه، فجعلوه كذباً وسحراً وشعراً، كما سلف من أقاويلهم وكما سيرد.

جعلَ المُتَوقَّعَ بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز، لأنه إخبارٌ بما سيكونُ وقد كان.

ويجوزُ أن يكون «الذين جعلُوا القرآنَ عِضِين» منصوباً بـ «النذير» أي: أنْذِرِ المُعْضِينَ الذين يُجَزِّئون القرآن إلى سِحْر وشِعْر وأساطيرَ مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين، وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخلَ مكة أيامَ الموسم، فقعدُوا في كلِّ مدخلٍ متفرِّقين لِيُنَفِّروا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضُهم: لا تغترُّوا بالخارج منَّا فإنَّه ساحر، ويقول الآخر: كذَّابٌ، والآخَر: شاعرٌ. فأهلكَهم الله تعالى يومَ بدر وقَبْلَه بآفاتٍ كالوليد بنِ المغيرة، والعاصي بنِ وائل، والأسود بنِ المطَّلب وغيرِهم.

أو مثل ما أنزلنا على الرَّهْط الذين تقاسَمُوا على أنْ يُبَيِّتُوا صالحاً عليه السلام، والاقتسام بمعنى التقاسم.

فإن قلتَ: إذا علَّقتَ قولَه: «كما أنزَلْنا» بقوله: «ولقد آتيناك»، فما معنى توسُّط «لا تَمُدَّنَّ» إلى آخره بينهما؟

قلت: لمَّا كان ذلك تسليةً للرسول ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعتَرَضَ بما هو مَدَدٌ لمعنى التَّسلية من النهي عن الالتفاتِ إلى دنياهم والتأسُّفِ على كفرِهم، ومن الأمر بأن يُقْبِلَ بمجامِعِهِ على المؤمنين. انتهى.

أمَّا الوَجْهُ الأول ـ وهو تعلُّقُ «كما» بـ «آتيناك» ـ فذكرَه أبو البقاء[1] على تقدير، وهو أن يكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف، تقديره: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا، أو إنزالاً كما أنزلنا؛ لأنَّ «آتيناك» بمعنى: أنزَلْنا عليك.

وأمَّا قولُه: إنَّ المُقتسمين هم أهلُ الكتاب، فهو قولُ الحسنِ ومجاهد، ورواه العَوْفي عن ابن عبَّاس.

وأمَّا قولُه: اقتسَمُوا القرآنَ؛ فهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ فيما رواه عنه سعيد بنُ جُبير.

وأمَّا قولُه: اقتسَمُوه فقال بعضُهم: سورة البقرة لي، إلى آخرِهِ؛ فقاله عكرمة[2].

(١) الإملاء ٢/ ٧٧.

(٢) الأقوال الثلاثة في زاد المسير ٤/ ٤١٧. وينظر صحيح البخاري (٤٧٠٥) وتفسير الطبري ١٤/ ١٣١.

=

وقال السُّدِّيّ: هم الأسود بن المطلب[١]، والأسود بن عبد يغوث، والوليد، والعاصي، والحارث بن قيس، ذكروا القرآنَ، فمن قائل: البعوضُ لي، ومن قائل: النملُ لي، وقائل: الذُّبابُ لي، وقائل: العنكبوت لي، استهزاءً، فأهلك الله جميعهم[٢].

وأمَّا قوله: إنَّ القرآن عبارةٌ عما يقرؤونه من كتبهم، إلى آخره، فقاله مجاهد[٣].

وأمَّا قولُه: ويجوزُ أن يكونَ «الذين جعلوا القرآن عِضِين» منصوباً بـ «النذير» أي: أنذرِ المُعْضِين، فلا يجوز أن يكون منصوباً بـ «النذير» كما ذَكرَ، لأنَّه موصوف بـ «المبين» ولا يجوزُ أن يعملَ إذا وُصف قبلَ ذِكرِ المعمولِ على مذهب البصريين، لا يجوزُ: هذا عليمٌ شجاعٌ عِلمَ النحو، فتفصل بين «عليم» و«علم» بقوله: شجاع، وأجازَ ذلك الكوفيُّون، وهي مسألة خلافية تُذكر دلائلُها في علم النَّحو.

وأمَّا قولُه: الذين يُجَزِّئون القرآن إلى سِحْر وشِعْر وأساطيرَ؛ فمرويٌّ عن قتادة، إلا أنّه قال: بدلَ شِعْر: كَهانة[٤].

وأمَّا قوله: الذين اقتسموا مَدَاخِلَ مكةَ، فهو قول ابن السائب، وفيه أنَّ الوليد بن المغيرة قال: ليقل بعضُكم: كاهن، وبعضُكم: ساحر، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاوٍ، وهم حنظلة بنُ أبي سفيان، وعُتبة وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بن المغيرة، وأبو جهل، والعاصي بن هشام، وأبو قيس بنُ الوليد، وقيس بنُ الفاكِه،

= ملاحظة: وقع بعده في (يه) كلام مقحم وفي بعضه تحريف: ونصُّه: «وقال كعب الأحبار (كذا): وعندي اصطباري وشَكْوَى غير قاتلتي، فهل بأعجبَ من هذا امرؤ سمعا، وأما التفصيل فقول الشاعر حيث قال: فزحفاً أتيتُ على الركبتين، فثوبٌ لبست وثوب أجرّ، وقوله: إذا ما بكى من خلفها انصرفت له، بشقٍّ وشق عندنا لم يحوَّل، وقال: بكى الخزُّ من رَوح وأنكر جلده، وعجَّت عجيجاً من جذام المطارف».

(١) في النسخ الخطية: عبد المطلب، وهو خطأ، وسلف قبله على الصواب وسيأتي كذلك.

(٢) ذكره ابن حجر بنحوه عن السدي في فتح الباري ٨/ ٣٨٣. وينظر النكت والعيون ٣/ ١٧٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وزاد المسير ٤/ ٤١٧.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٣٥، والنكت والعيون ٣/ ١٧٢، وزاد المسير ٤/ ٤١٩.

وزُهير بن أمية[1]، وهلال بنُ عبد الأسود، والسائب بنُ صَيْفي، والنَّضر بن الحارث، وأبو البحتري بنُ هشام، وزَمْعة بنُ الحجَّاج، وأميَّة بنُ خَلَف، وأوسُ بنُ المغيرة، تقاسَمُوا على تكذيبِ رسولِ الله ﷺ، فأُهلِكُوا جميعاً[2].

وأمَّا قوله: إنهم الذين تقاسَمُوا أن يُبيِّتُوا صالحاً، فقولُ عبدِ الله بن زيد[3].

وقال ابنُ عطيَّة[4]: والكاف من قوله: «كما» متعلِّقة بفعل محذوف، تقديره: وقل إني أنا النذيرُ عذاباً كالذي أنزَلْنا على المُقْتسِمين. فالكافُ اسمٌ في موضع نصب. هذا قولُ المفسِّرين، وهو عندي غيرُ صحيح، لأنَّ «كما» ليس ممَّا يقوله محمدٌ ﷺ، بل هو من قول الله تعالى، فينفصلُ الكلامُ، وإنما يترتَّبُ هذا القولُ بأنْ يُقدَّر أنَّ الله تعالى قال له: أنذِرْ عذاباً كما. والذي أقولُ في هذا المعنى: وقُلْ أنا النذيرُ المبين كما قال قبلَك رسلُنا، وأنزلنا عليهم كما أنزَلْنا عليك.

ويحتمل أن يكون المعنى: وقل إني أنا النذيرُ المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً. وهذا على أنَّ المُقتسِمين أهلُ الكتاب. انتهى.

أمَّا قولُه: وهو عندي غيرُ صحيح، إلى آخره، فقد استعذرَ بعضُهم عن ذلك، فقال: الكاف متعلّقة بمحذوف دلَّ عليه المعنى، تقديرُه: أنا النذيرُ بعذابٍ مثلِ ما أنزَلْنا، وإن كان المُنزِلَ الله، كما يقولُ بعضُ خَوَاصِّ الملك: أمَرْنا بكذا، وإنْ كان الملكُ هو الآمر.

وأمَّا قولُه: والذي أقولُ في هذا المعنى، إلى آخره، فكلامٌ مُثَبَّج[5]، ولعله من الناسخ، ولعلَّه أن يكون وأنزلنا عليك كما أنزلنا عليهم[6].

---

(١) في زاد المسير ٤/ ٤١٨ (والخبر فيه): بن أبي أمية.

(٢) ينظر إضافة إلى زاد المسير: النكت والعيون ٣/ ١٧٢، وتفسير البغوي ٣/ ٥٨، وتفسير الرازي ١٩/ ٢١١-٢١٢.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٣٢-١٣٣، والنكت والعيون ٣/ ١٧٢. ونُسب فيهما لابن رزين، دون ذكر اسمه، ونُسب في زاد المسير ٤/ ٤١٨ لعبد الرحمن بن زيد.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤.

(٥) أي: مضطرب غير منتظم.

(٦) نظر فيه السمين في الدر المصون ٧/ ١٨١ وقال: كيف يقدَّر ذلك والقرآن ناطق بخلافه، وهو قوله: «على المقتسمين».

وقال أبو البقاء[١]: وقيل: التقدير: متَّعْنَاهم تمتيعاً كما أنزَلْنا، والمعنى: نعَّمنا بعضَهم كما عذَّبْنا بعضَهم. وقيل: التقدير: إنذاراً مثلَ ما أنزَلْنا، فيكون وصفاً لمصدر، وقيل: هو وصفٌ لمفعول، تقديرُه: إني أُنذرُكم عذاباً مثلَ العذاب المُنزَلِ على المُقْتَسِمين، وقيل: تقديرُه: لَنَسْأَلَنَّهم أجمعين مثلَ ما أَنزَلْنا[٢]. انتهى.

وقيل: الكاف زائدة، التقدير: أنا النذيرُ المُبينُ ما أَنزَلْنَاه على المقتسمين.

هذه أقوالٌ وتوجيهاتٌ متكلَّفة، والذي يظهرُ لي أنه تعالى لمَّا أمرَه بأن لا يحزنَ على مَنْ لم يُؤمن، وأَمَرَهُ بخَفْضِ جناحِه للمؤمنين؛ أمرَه أن يُعْلِمَ المؤمنين وغيرَهم أنه هو النذيرُ المبينُ لئلا يَظُنَّ المؤمنون أنهم لمَّا أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بخفضِ جناحِه لهم خَرجُوا من عُهدة النِّذارَة، فأمرَه تعالى بأنْ يقولَ لهم: إني أنا النذيرُ المبينُ لكم ولغيرِكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وتكون الكاف نعتاً لمصدر محذوف تقديرُه: وقُلْ قولاً مثلَ ما أنزَلْنا على المُقتسِمين أنك نذيرٌ لهم، فالقولُ للمؤمنين في النِّذارة كالقول للكفار المُقتسمين لئلَّا يُظَنَّ أنَّ إنذارَكَ للكفار مخالفٌ لإنذارِ المؤمنين، بل أنتَ في وصفِ النِّذارةِ لهم بمنزلةٍ واحدة، تُنذِرُ المؤمنَ كما تُنذِرُ الكافرَ، كما قال تعالى: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والظاهر أنَّ «الذين» صفة للمقتسمين، وجوَّزُوا أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوف، ويجوزُ أن ينتصبَ على الذَّمِّ، وتقدَّم تجويز الزمخشريّ له أن يكونَ مفعولاً بـ «النَّذير».

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسمَ تعالى بذاتِه ورُبُوبيَّتِه مضافاً إلى رسولِه على جهة التشريف، والضميرُ في «لنسألنَّهم» يظهرُ عَوْدُه على «المقتسمين»، وهو وعيدٌ وسؤالُ تقريع، ويقال: إنه يعودُ على الجميع من كافر ومؤمنٍ، إذْ قد تقدَّم ذِكْرُهما. والسؤالُ عامٌّ للخلق، ويجوزُ أن يكون السؤالُ كنايةً عن الجزاء.

و ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ عامٌّ في جميع الأعمال. وقال أبو العالية: يُسألُ

---

(١) الإملاء ٢/ ٧٧.

(٢) من قوله: فيكون وصفاً. . . . إلى هذا الموضع من (ز١) و(يه). وهو في المصدر السالف.

العبادُ عن خَلَّتَيْنِ: عمَّا كانوا يعبدون، وماذا أجابُوا المرسَلين[(١)].

وقال ابنُ عبَّاس: يقال لهم: لِمَ عَمِلْتُم كذا وكذا؟ وقال أنس وابنُ عُمر ومجاهد: السؤالُ عن «لا إله إلا الله»[(٢)]. وذكرَه الزَّهْرَاويّ عن النبيّ ﷺ[(٣)].

وإذا ثبتَ ذلك فيكون المعنى عن الوفاء بـ «لا إله إلا الله» والصِّدقِ لِمقالها كما قال الحسن: ليس الإيمانُ بالتحلِّي ولا الدِّينُ بالتَّمنِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلوب، وصَدَّقَتْهُ الأعمال[(٤)].

وقال ابن عباس: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ امْضِ به. وقال الكلبيّ: اجْهَرْ به وأظْهِرْهُ[(٥)]، من الصَّدِيع، وهو الفَجْر، قال الشاعر:

كأنَّ بياضَ غُرَّتِهِ صَدِيعُ[(٦)]

وقال السُّدِّيُّ: تَكَلَّمْ بما تُؤْمَرُ. وقال ابنُ زيد: أعْلِمْ[(٧)] بالتبليغ، وقال ابنُ بحر: جَرِّدْ حَرْدْ لهم القولَ في الدعاء إلى الإيمان. وقال أبو عبيدة عن رُؤْبَة: ما في القرآن أعربَ[(٨)] من قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[(٩)].

و«ما» في «بما» بمعنى «الذي»، والمفعول الثاني محذوف، تقديرُه: بما تُؤمَرُهُ،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٤١، والكشاف ٢/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥، وزاد المسير ٤/ ٤١٩. ونُسب القول في النكت والعيون ٣/ ١٧٤ للربيع بن أنس. قولُه: خَلَّتَيْن؛ الخَلَّة: الخَصْلَة، ووقع في المطبوع: حالتين.

(٢) تنظر الأقوال في تفسير الطبري ١٤/ ١٣٩-١٤٠. والكلام أعلاه من المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥. وقد جاء مرفوعاً أيضاً عن أنس عند الطبري ١٤/ ١٤٠.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٣٤٢)، وشعب الإيمان (٦٦)، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٥٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٧٤. وينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٠، وزاد المسير ٤/ ٤٢٠.

(٦) هو عجز بيت لعمرو بن معد يكرب، وصدرُه: ترى السِّرْحان مفترشاً يديه. وهو في اللسان (صدع) برواية: بياضَ لَبَّتِهِ. وجاء ضمن قصيدة له في الأصمعيات ص١٧٢-١٧٣ برواية: به السِّرحانُ... وردَّد ابنُ عبد البر في التمهيد ٤/ ٣٣٥ نسبةَ البيت بين ابن معد يكرب وبشر بن أبي خازم. قوله: السِّرْحان، أي: الذئب.

(٧) في (ح): أعلن.

(٨) بالعين المهملة. وتحرفت اللفظة في (أ) و(ح) والمطبوع إلى: أغرب.

(٩) النكت والعيون ٣/ ١٧٤، والإتقان ٤/ ١٣٥ (في النوع ٧٤).

وكان أصلُه: تُؤمَرُ به من الشرائع، فحذف الحرف، فتعدَّى الفعلُ إليه.

وقال الأخفش: «ما» موصولة، والتقدير: فاصْدَعْ بما تؤمَرُ بصَدْعِهِ. فحذف المضاف، ثم الجارّ، ثم الضمير.

وقال الزمخشريّ[١]: ويجوز أن تكون «ما» مصدريَّة، أي: بأمْرِك، مصدر من المبني للمفعول. انتهى. وهذا ينبني[٢] على مذهب من يُجَوِّزُ أن يكون المصدرُ يُرادُ به «أنْ» والفعل المبنيّ للمفعول، والصحيحُ أنَّ ذلك لا يجوز[٣].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من آيات المهادَنات التي نَسَخَتْها آيةُ السَّيف. قاله ابنُ عباس[٤].

ثم أخبرَه تعالى أنه كفاه المستهزئين بمصائبَ أصابَتْهُم لم يَسْعَ فيها الرسولُ ولا تَكَلَّفَ لها مشقَّة؛ قال عُروةُ وابنُ جُبير: هم خمسة: الوليد بنُ المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بنُ المطَّلب أبو زَمْعَة[٥]، والأسود بن عبد يغوث، ومن بني خُزاعة الحارث بن الطُّلاطِلَة[٦].

قال أبو بكر الهُذَليّ: قلت للزُّهْرِيّ: إنَّ ابنَ جُبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابنُ جبير: هو الحارث بن عَيْطَلة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزُّهْريُّ: صدقا، أمُّه عَيْطَلَة، وأبوه قيس[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٩.
(٢) في (ز١): يبتني.
(٣) قال السمين الحلبي: الخلاف إنما هو في المصدر المُصَرَّح به؛ هل يجوزُ أن ينحلَّ لحرف مصدري وفعل مبني للمفعول أم لا يجوز ذلك؟ خلاف مشهور، أمَّا أنَّ الحرف المصدريّ هل يجوز فيه أن يُوصل بفعل مبني للمفعول أم لا يجوز؟ فليس محلَّ نزاع. ينظر الدر المصون ٧/ ١٨٥.
(٤) تفسير الطبري ١٤/ ١٤٥، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٨٣، والنكت والعيون ٣/ ١٧٥. والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥. وآية السيف هي الآية الخامسة من سورة التوبة.
(٥) في (يه) والمطبوع: وأبو زمعة، وهو خطأ، فأبو زمعة هو الأسود بن المطلب. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥ (والكلام منه) وزاد المسير ٤/ ٤٢١.
(٦) بعدها في المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥ (والكلام منه): وهو ابن عَيْطلة، وهو ابنُ قيس.
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ١٤٩. والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥.

وذكرَ الشعبيُّ في المستهزئين هَبَّارَ بنَ الأسود، وذلك وهمٌ، لأنَّ هبَّاراً أسلم يَومَ الفتح ورحل إلى المدينة(١).

وعن ابن عبَّاس أنَّ المستهزئين كانوا ثمانية(٢).

وفي رواية مكانَ الحارث بن قيس: عديُّ بنُ قيس(٣).

وقال الشعبيُّ وابنُ أبي بَزَّة: كانوا سبعة، فذكر(٤) [العاص و] الوليدَ والحارثَ بنَ عديّ والأسْوَدَيْنِ، والأثرم(٥) وبَعْكَك ابْنَي الحارث بن السَّبَّاق، وكذا قال مقاتل إلا أنه قال مكان الحارث بن عديّ الحارث بن قيس السَّهميّ.

وذكر المفسِّرُون والمؤرِّخون أنَّ جبريلَ عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أنْ أكْفِيَكَهُمْ. فأومَأ إلى ساقِ الوليد، فمرَّ بنبَّالٍ فتعلَّقَ بثوبِهِ سَهْمٌ، فمَنعَهُ الكِبْرُ أنْ يُطَامِنَ(٦) لِنَزْعِهِ، فأصابَ عِرْقاً في عَقِبِه ـ قال قتادة ومِقْسم(٧): وهو الأكْحَل ـ فقطَعَه فمات، وأومأ إلى أخمص العاصي، فدخلت فيه شوكة ـ وقيل: ضرَبَتْه حيَّة(٨) ـ فانتفخت رِجْلُه حتى صارت كالرَّحَى ومات، وأومأ إلى عينَي الأسود بن المطَّلب(٩)، فعَمِيَ وهلك، وأشارَ إلى أنفِ الحارث بن قيس فامتخَطَ قَيْحاً فمات. وأشار إلى بطن الأسود بن عبد يغوث فسُقي بطنه فمات(١٠). وقيل: أصابته سَمُومٌ فاسْوَدَّ حتى صارَ كأنَّه حَبَشيٌّ، فأتَى أهلَه فلم يعرفوه، وأغلقُوا البابَ في وجهه،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ١٥٣. وذكره عنه ابن عطية ٣/ ٣٧٥.
(٣) ذكرها ابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٢١ روايةً عن ابن عباس ﷺ.
(٤) يعنى ابنَ أبي بَزَّة، كما في زاد المسير ٤/ ٤٢١، واستدركتُ منه اسم العاص بين حاصرتين، ويكتمل به العدد إلى سبعة، وأخرج الطبري قول ابنِ أبي بزَّة وجاء فيه ذكرُ الخمسة الأُوَل.
(٥) في زاد المسير ٤/ ٤٢١ (والكلام منه إلى نهاية الفقرة): أصرم. وهو الأشبه.
(٦) بالهمز والتخفيف، أي: ينخفض.
(٧) تفسير الطبري ١٤/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٦.
(٨) ذكر السيوطي هذه الرواية في الدر المنثور ٤/ ٤٠٨ عن ابن أبي حاتم.
(٩) في (ز١) و(يه): عبد المطلب.
(١٠) قوله: وأشار إلى بطن الأسود... الخ، من (ز١) و(يه).

فصار يطوفُ في شِعابِ مكّة حتى مات[١]. وفي بعض ما أصاب هؤلاء اختلافٌ، والله أعلم[٢].

وقال مقاتل: أصاب أثرمَ[٣] أو بَعْككاً الدُّبَيْلَةُ[٤] والآخرَ ذاتُ الجَنْب، فماتا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ لهم بالمجازاة على استهزائهم وجعلِهم إلهاً مع الله في الآخرة كما جوَّزُوا في الدنيا.

وكنى بالصَّدر عن القلب[٥] لأنه محلُّه، وجعلَ سببَ الضِّيق ما يقولون، وهو ما ينطقون به من الاستهزاء، والطَّعْنِ فيما جاءَ به.

ثم أمرَه تعالى بتنزيهِه عن ما نسبوا إليه من اتخاذِ الشريك معه مصحوباً بحمده، والثناءِ على ما أسْدَى إليه من نعمة النُّبوَّة والرِّسالة والتوحيد وغيرِها من النِّعَم، فهذا في المعتقد والفعل القلبيّ، وأمرَه بكونه من الساجدين، والمرادُ - واللهُ أعلم - من المُصَلِّين، فكَنَى بالسُّجود عن الصلاة، وهي أشرفُ أفعال الجسد، وأقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد[٦].

ولما كان الصادرُ من المستهزئين اعتقاداً، وهو فعلُ القلب، وقولاً، وهو ما يقولون في الرسول وما جاء به، وهو فعلُ جارحة، أمرَ تعالى بما يُقابل ذلك من التنزيه لله ومن السجود، وهما جامعان فعلَ القلب وفعلَ الجسد.

ثم أمَرَه تعالى بالعبادة التي هي شاملةٌ لجميع أنواع ما يُتَقَرَّبُ بها إليه تعالى، وهذه الأوامرُ معناها: دُمْ على كذا. لأنه ﷺ مازالَ متلبِّساً بها، أي: دُمْ على التسبيح والسُّجود والعبادة.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٤٢٢.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٤٦-١٥٣، والكشاف ٢/ ٣٩٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٥-٣٧٦، وزاد المسير ٤/ ٤٢٢-٤٢٣، (ورواية المصنف مقتبسة من هذه الثلاثة الأخيرة). وينظر أيضاً تفسير القرطبي ١٢/ ٢٦١-٢٦٢.

(٣) في زاد المسير ٤/ ٤٢٣: أصرم، وهو الأشبه، وسلف مثله قريباً.

(٤) وزنُ جُهَيْنَة: هو داءٌ في الجوف. (القاموس - دبل). والكلام في زاد المسير ٤/ ٤٢٣.

(٥) يعني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝﴾.

(٦) أخرج مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة مرفوعاً: «أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثِرُوا الدعاء».

والجمهورُ على أنَّ المرادَ باليقين الموت، أي: ما دُمْتَ حيّاً، فلا تُخِلَّ بالعبادة، وهو تفسيرُ ابنِ عمر ومجاهد والحَسَن وقَتَادة وابنِ زيد[1]، ومنه قوله ﷺ في عثمان بن مظعون عند موته: «أمَّا هو فقد رأى اليقينَ»، ويُرْوَى: «فقد جاءه اليقينُ»[2].

وليس اليقينُ من أسماء الموت، وإنَّما العلمُ به يقينٌ لا يَمترِي فيه عاقل، فسُمِّيَ يقيناً تجوُّزاً، أي: يأتيك الأمرُ اليقيْن علمُه ووقوعُه.

وقال ابن عطية[3]: ويَحتمِلُ أن يكون المعنى: حتى يأتيَك اليقينُ في النصرِ الذي وُعِدْتَه. انتهى. وقاله ابنُ بحر؛ قال: اليقينُ النصرُ على الكافرين. انتهى.

وحكمةُ التَّغْيِيَة باليقين ـ وهو الموت ـ أنه يقتضي دَيْمُومةَ العِبادةِ ما دامَ حَيّاً، بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة غيرَ مُغَيًّى؛ لأنه يكون مطلقاً فيكون مطيعاً بالمرَّة الواحدة، والمقصودُ أن لا يُفارق العبادةَ حتى يموت.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ١٥٥-١٥٦، والنكت والعيون ٣/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٧٦، وزاد المسير ٤/ ٤٢٣. وقوله: «ابن عمر» نقله المصنف عن ابن عطية، ولم يرد في المصادر الأخرى.

(٢) رواية: «جاءه اليقين» قطعة من حديث أمّ العلاء في وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه أخرجه البخاري (١٢٤٣). أما لفظ «رأى اليقينَ» فقد نقله المصنف عن المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٥٧ بلفظ: «عاينَ اليقين»، فلعل ابن عطية نقله بالمعنى.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٦، والكلام السالف قبله منه.

(١٥) سورة الحجر مكية وآياتها تسع وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٣)﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر. ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، ونقل السدي عن ابن عباس، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقال بعضهم: يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾[1]. وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعند ذلك قوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ الطبراني، عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: ﴿لا إله إلا الله﴾ وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم، كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين».

(الحديث الثاني): عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل

---

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنَس بن مالك وقال: كانا يتأولان الآية: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ بذلك التأويل.

النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾»(١). وقوله: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾، وقوله: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾، ولهذا قال: ﴿ويلههم الأمل﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم، إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي الذي تدعي ذلك، ﴿إنك لمجنون﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لو ما﴾ أي هلا، ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾، وكذا قال في هذه الآية ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش، إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم.

واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس والحسن البصري: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾: يعني الشرك، وقوله: ﴿قد خلت سنة الأولين﴾: أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

* وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال مجاهد والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبّه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء موزون﴾: أي معلوم[1]، ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ المعايش وهي جمع معيشة، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾، قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسّر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ

(١) وكذلك قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة.

مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ كما يشاء وكما يريد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يمطر قوم، ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت[1]، وقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال أعمش، عن عبد الله ابن مسعود في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة[2]، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأسقيناكموه﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ كما نبّه على ذلك في قوله تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾، وقوله: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾، قال سفيان الثوري: بمانعين؛ ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم. وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيى الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر تعالى بأنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال ابن جرير، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾[3].

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب:

---

(١) رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود. (٢) وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي والضحّاك.

(٣) قال ابن كثير: ورد فيه حديث غريب جداً رواه أصحاب السنن وفيه نكارة شديدة وهو أنه كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، وكان بعض المسلمين إذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فنزلت الآية. وقد نبه رحمه الله إلى نكارة هذه الرواية وضعفها.

ليس هكذا ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾: الميت والمقتول، ﴿والمستأخرين﴾ من يخلق بعد، ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾، فقال عون بن عبدالله: وفقك الله وجزاك خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عباس: المراد بالصلصال التراب اليابس، كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾. وعن مجاهد: (الصلصال) المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى، وقوله: ﴿من حمأ مسنون﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين، والمسنون الأملس، وروي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الحمأ المسنون هو المنتن، وقيل: المراد بالمسنون ههنا المصبوب. وقوله: ﴿والجان خلقناه من قبل﴾ أي من قبل الإنسان، ﴿من نار السموم﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وقد ورد في الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(1)، والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام، وطيب عنصره وطهارة محتده.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته، قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾، كقوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صور الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها(2). وأنه لما تحقق الغضب الذي

(1) رواه مسلم وأحمد عن عائشة.

(2) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله قال ما قصّه الله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، ﴿ في الأرض ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدّرت علي ذلك، ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾، كقوله: ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾، ﴿ قال ﴾ الله تعالى له متهدداً ومتوعداً، ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي[1]، كقوله: ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾، وقوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع، ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن، ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب[2] ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إن أبواب جهنم هكذا أطباقٌ بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن أبي مريم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث، حتى تمتلىء كلها. وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[3]، وقال قتادة ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾: هي والله منازل بأعمالهم، وقال الترمذي، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي - أو قال على أمة محمد - »[4]. وقال ابن أبي حاتم، عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال: « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ ».

---

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة.

(٢) في اللباب: أخرج الثعلبي: أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به إلى النبي ﷺ؟ فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية؟ فو الذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾. (٣) روى الضحّاك عن ابن عباس نحوه، وكذلك روي عن الأعمش

(٤) رواه الترمذي وقال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم، ﴿آمنين﴾ أي من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري، وهذا موافق لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة». وقال ابن جرير: دخل عمران بن طلحة على عليّ رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحّب بـه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرير متقابلين﴾. وعن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على عليّ رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل فرحب بـه وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وإياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي رضي الله عنه: قُوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟ وفي رواية: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟ وقال سفيان الثوري: جاء (ابن جرموز)، قاتل الزبير، يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له: فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، فقال عليّ: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الحسن البصري، قال عليّ: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الثوري في قوله: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال، هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وقوله: ﴿متقابلين﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع.

قال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض[1]. وقوله: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين: أن هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم ...﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كانوا أعداء، فلما أسلموا تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقوله: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، كقوله تعالى: ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾، وقوله: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه ابن جرير عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «لا أراكم تضحكون» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقرى فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾». وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه».

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا الضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ، ﴿قالوا لا توجل﴾ أي لا تخف، ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود، ثم ﴿قال﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾، فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، إنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا: ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين، ولهذا قالوا: ﴿إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أي الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال: ﴿إنكم قوم منكرون • قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم، ﴿وأتيناك بالحق﴾ كقوله تعالى: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾، وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم؛ وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو يزجي الضعيف ويحمل المنقطع، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ .

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون • واتقوا الله ولا تخزون﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أو لم ننهك عن العالمين﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، أقسم تعالى بحياة نبيّه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾[1] ، وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾ أي ضلالتهم، ﴿يعمهون﴾ أي يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لعمرك﴾ لعيشك، ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال: يترددون .

(١) رواه ابن جرير .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿للمتوسمين﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس والضحّاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿للمتوسمين﴾ للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾[1]. وفي رواية عن ابن عمر: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله»[2]. وروى الحافظ البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم». وقوله: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة، بطريق مهيع مسالكه مستعمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾، وقال مجاهد والضحّاك: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ قال: معلم، وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، قال الضحاك: الأيكة: الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلمة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي طريق مبين. قال ابن عباس: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيّهم عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع

---

(١) رواه الترمذي وابن جرير، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (٢) رواه ابن جرير

المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾، وذكر تعالى أنهم: ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر بـه رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[1]. وقوله: ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى: ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾ أي بالعدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾، ثم أخبر نبيّه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾، وقال مجاهد وقتادة: كان هذا قبل القتال[2]، وقوله: ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿ العليم ﴾ بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا بـه أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي ألن لهم جانبك، كقوله: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم

(١) الحديث في الصحاح والسنن.

(٢) قال ابن كثير: وهو كما قالا، فإن الآية مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عباس: هي السبع الطوال، يعنون «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس»[1]، وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بيَّن الأمثال والخبر والعبر، ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطي موسى منهن ثنتين، (والقول الثاني): انها الفاتحة وهي سبع آيات. قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع؛ واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين: (أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آته حتى صليت فأتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد»؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: «﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». (الثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، فهذا نص في الفاتحة هي (السبع المثاني) والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم. وقوله: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إلى أنه يستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير، وقال ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: ضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب»، قال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء، وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه»، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزيه عن الدنيا. قال ابن عباس ﴿لا تمدن عينيك﴾ قال: نهي الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. وقال مجاهد: ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ هم الأغنياء.

وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) وهو قول ابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير والضحّاك وغيرهم.

يأمر تعالى نبيّه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، وقوله: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتّنه وأهله﴾ الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾، ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ فكأنهم لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبدالرحمن بن زيد: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت بـه، ومثل من عصاني وكذب ما جئت بـه من الحق»، وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزأوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزأوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[1]. وقال عكرمة: العضه، السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة، وقال مجاهد: عضوه اعضاء قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا تقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أصنافاً: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله. وقال ابن عمر في قوله: ﴿لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾[2]، وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله بـه يوم القيامة، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ وقال أبو جعفر، عن أبي العالية في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك، وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله

(١) وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير نحو ذلك.

(٢) ورد فيه حديث مرفوع رواه الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾.

ﷺ: « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك ». وقال ابن عباس في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، ثم قال: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾: أي أمضه، وفي رواية (افعل ما تؤمر). وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وعن عبدالله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فخرج هو وأصحابه، وقوله: ﴿وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾. وعن أنس مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم، فجاء جبريل- أحسبه قال: فغمزهم -فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا[1]. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى (أبو زمعة) كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: « اللهم أعم بصره وأثكله ولده »، ومن بني زهرة (الأسود ابن عبد يغوث)، ومن بني مخزوم (الوليد بن المغيرة)، ومن بني سهم (العاص بن وائل)، ومن خزاعة (الحارث ابن الطلاطلة). فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين – إلى قوله – فسوف يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يضيقنك ذلك، ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة. ولهذا قال: ﴿فسبّح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾، قال البخاري عن سالم بن عبد الله ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ قال:

(١) أخرجه الحافظ البزار في قوله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾.

الموت(١). والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وكنا نكذب بيوم الدين • حتى أتانا اليقين﴾. وفي الصحيح: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»(٢). ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا – هم وأصحابهم – أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة؛ وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة.

[آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين] .

* * *

(١) وهكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة وعبدالرحمن بن زيد وغيرهم أنهم فسروا اليقين بالموت.

(٢) قاله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدرك أن الله أكرمه» الحديث.

تفسير سورة الحِجر

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقوله: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا(١).

ونقل(٢) السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة: أن الكفار(٣) لما عُرِضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين.

وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا.

وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنعام: ٢٧].

وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن أبى الزعراء، عن عبد الله فى قوله: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾** قال: هذا فى الجُهَنَميين إذ رأوهم يخرجون من النار.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبى فَرْوة العَبْدى؛ أن ابن عباس وأنس بن مالك كان يَتأولان هذه الآية: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**، يتأولانها: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار. قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا. قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: **﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن حماد، عن إبراهيم، عن خصيف، عن مجاهد قالا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا(٤) قالوا ذلك. قال: أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة. قال: فعند ذلك قوله: **﴿[رُّبَمَا](٥) يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾**(٦).

وهكذا روى عن الضحاك، وقتادة، وأبى العالية، وغيرهم. وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى:

---

(١) فى ت: «فى الدار الدنيا مع المسلمين». (٢) فى أ: «وقال». (٣) فى ت، أ: «أن كفار بدر».
(٤) فى ت، أ: «قال: فإذا». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٩).

حدثنا محمد بن العباس، هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسى، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذ[(١)] دلنى عليه يحيى بن معين[(٢)]، حدثنا مُعَرّف[(٣)] بن واصل، عن يعقوب بن أبى نباتة[(٤)]، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إله إلا الله وأنتم معنا فى النار؟. فيغضب الله لهم، فيخرجهم، فيلقيهم فى نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، فيدخلون الجنة، ويسمّون فيها الجهنميين»[(٥)]. فقال رجل: يا أنس، أنت سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من كذب على متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». نعم، أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

ثم قال الطبرانى: تفرد به الجهبذ[(٦)(٧)].

الحديث الثانى: وقال الطبرانى أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء[(٨)] على بن الحسن الواسطى، حدثنا خالد بن نافع الأشعرى، عن سعيد بن أبى بردة، عن أبيه، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم[(٩)] معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع[(١٠)] الله ما قالوا، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ . رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾[(١١)].

ورواه ابن أبى حاتم، من حديث خالد بن نافع، به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم)، عوض الاستعاذة.

الحديث الثالث: وقال الطبرانى[(١٢)] أيضا: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه قال: قلت لأبى أسامة: أحدثكم أبو روق[(١٣)] ـ واسمه عطية بن الحارث ـ: حدثنى صالح بن أبى طريف قال: سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يُخرج الله ناسا من المؤمنين من

(١) فى ت: «الجهذ». (٢) فى هـ: «رأى علية بن موسى» والمثبت من المعجم.
(٣) فى ت، أ: «معروف». (٤) فى ت، أ، هـ: «يعقوب بن نباتة» والصواب ما أثبتناه من المعجم والتهذيب.
(٥) فى ت، أ: «الجهنميون». (٦) فى ت: «الجهذ».
(٧) المعجم الأوسط برقم (٤٨٢١) «مجمع البحرين» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٠): «فيه من لم أعرفهم».
(٨) فى ت: «أبو السقا». (٩) فى ت، أ: «حشرتم». (١٠) فى أ: «فيسمع».
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٥): «رواه الطبرانى، وفيه خالد بن نافع الأشعرى، قال أبو داود: متروك. وقال الذهبى: هذا تجاوز فى الحد فلا يستحق الترك، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره، وبقية رجاله ثقات» ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٨٤٣) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٤٢) عن أبى الشعثاء به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
(١٢) فى ت: «وقال الطبرانى الحديث الثالث». (١٣) فى ت: «أبو أروق».

النار بعد ما يأخذ نقمته منهم»، وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله فى الدنيا، فما بالكم معنا فى النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذن فى الشفاعة لهم فتشفع[١] الملائكة والنبيون، ويشفع[٢] المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج معهم». قال: «فذلك قول الله: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾، فيسمون فى الجنة الجُهَنَّمِيّين[٣]، من أجل سَواد فى وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»، فأقر به أبو أسامة، وقال: نعم[٤].

الحديث الرابع[٥]: وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النَّرسى[٧]، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثنى اليمان بن يزيد، عن محمد بن حِمْير[٨]، عن محمد ابن على، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنُقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مُكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجوا منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل[٩] الأديان والأوثان، لمن فى النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله، فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشىء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين فى الجنة، وهو قوله: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾»[١٠].

وقوله: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أى: عن التوبة والإنابة، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾.

يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها[١١] عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما

---

(١) فى ت، أ: «فيشفع». (٢) فى ت: «وشفع». (٣) فى ت، أ: «الجهنمية».
(٤) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد» من طريق عمر بن محمد بن أبان، عن أبى أسامة به نحوه.
(٥) فى ت: «وقال الحديث الرابع». (٦) فى ت: «وحدثنا». (٧) فى ت: «الزينى»، وفى أ: «الزينبى».
(٨) فى ت، أ: «جبير»، وفى هـ: «جبر». (٩) فى ت، أ: «وأهل».
(١٠) ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٧) من طريق البغوى عن عباس بن الوليد النرسى به، ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٦/ ١٥٦) وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٤٥٦) من طريق إبراهيم بن محمد السامرى، عن عباد بن الوليد الغبرى، عن أبى فاطمة، عن اليمان بن يزيد به نحوه، وقال ابن الجوزى: «هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل».
(١١) فى ت: «هلاكهم».

هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذى يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم فى قولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أى: الذى يدعى ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا. ﴿لَوْمَا ﴾ أى: هلاَّ ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢].

وكذا[1] قال فى هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب.

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى: ﴿ لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ على النبى ﷺ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق، [والله أعلم][2].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله فى تكذيب من كذّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس، والحسن البصرى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

---

(١) فى ت، أ: «وهكذا». (٢) زيادة من أ.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير، والضحاك: سدت أبصارنا.

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا.

وقال العوفي عن ابن عباس: شُبه علينا، وإنما سحرنا.

وقال الكلبي: عَميت أبصارنا.

وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، السكران[١] الذي لا يعقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)﴾.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زيَّنها به من الكواكب الثواقب، لمن تأملها، وكرر النظر[٢] فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العَوفي: البروج هاهنا: هي قصور الحرس[٣].

وجعل الشُهب حرساً لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسمعوا[٤] إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد منهم [وتقدم][٥] لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان[٦]، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلُغُ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صَفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان ينفُذهم ذلك، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع،

---

(١) في أ: «السُكر». (٢) في ت: «نظره». (٣) في ت: «الحرس فيها».
(٤) في أ: «لئلا يسَّمَّعوا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) في ت: «حدثنا ابن سفيان».

هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيان بيده فَفَرّج بين أصابع يده اليمنى، نَصَبها بعضها[(١)] فوق بعض ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمى بها إلى صاحبه فيحرقَه، وربما لم يدركه [حتى][(٢)] يَرْمى بها إلى الذى يليه، [إلى الذى][(٣)] هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض ـ وربما قال سفيان: حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى[(٤)] على فم الساحر ـ أو: الكاهن ـ فيكذب معها مائة كذبة[(٥)]، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التى سمعت من السماء»[(٦)].

ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسى، والأودية والأراضى والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أى: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وأبو مالك، ومجاهد، والحكم بن عُتَيبة[(٧)]، والحسن بن محمد، وأبو صالح، وقتادة.

ومنهم من يقول: مقدر بقدر.

وقال ابن زيد: من كل شىء يُوزَن[(٨)] ويقدر بقدر. وقال ابن زيد: ما تزنه [أهل][(٩)] الأسواق.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: يذكر، تعالى، أنه صرفهم فى الأرض فى صنوف [من][(١٠)] الأسباب والمعايش، وهى جمع معيشة.

وقوله: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهى الدواب والأنعام.

وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

والقصد أنه، تعالى، يمتن[(١١)] عليهم بما يَسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها، والعبيد والإماء التى يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

[وقوله][(١٢)]:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

يخبر، تعالى، أنه مالك كل شىء، وأن كل شىء سهل عليه، يسير لديه، وأن[(١٣)] عنده خزائن

(١) فى أ: «بعضاً».
(٢، ٣) زيادة من ت، أ، والبخارى.
(٤) فى ت، أ: «فيلقى».
(٥) فى ت، أ: «كذبة فيصدق».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٠١).
(٧) فى أ: «عيينة».
(٨) فى أ: «موزون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) زيادة من أ.
(١١) فى ت: «يمتن تعالى».
(١٢) زيادة من أ.
(١٣) فى ت، أ: «وأنه».

الأشياء من جميع الصنوف، ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما لَهُ فى ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على [وجه][(١)] الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبى زياد، عن أبى جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء[(٢)]، عاماً هاهنا، وعاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾. رواه ابن جرير[(٣)].

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا الحسن[(٤)]، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عُتَيْبَة[(٥)] فى قوله: ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال: ما[(٦)] عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يُمطر قوم ويحرم آخرون وربما[(٧)] كان فى البحر. قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يُحصُون كلّ قطرة حيث تقع وما تنبت[(٨)(٩)].

وقال البزار: حدثنا داود ـ وهو ابن بكر[(١٠)] التُسْتَرى ـ حدثنا حبَّان[(١١)] بن أغلب بن تميم، حدثنى أبى، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان»[(١٢)].

ثم قال: لا يرويه إلا أغلب، ولم يكن بالقوى، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه.

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى: تلقح السحاب فتَدُر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه «الرياح» ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من[(١٣)] شيئين فصاعدا.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرى السحاب، حتى تدر كما تَدِر اللَّقحَة.

وكذا قال ابن عباس، وإبراهيم النَّخَعى، وقتادة.

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتُلقحه، فيمتلئ[(١٤)] ماء.

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «يشاء».
(٣) تفسير الطبرى (١٤/ ١٤).
(٤) فى ت: «الحسين». (٥) فى أ: «عيينة». (٦) فى أ: «من».
(٧) فى هـ، ت، أ: «بما» والمثبت من الطبرى. (٨) فى ت: «ينبت».
(٩) تفسير الطبرى (١٤/ ١٤).
(١٠) وفى مخطوطة مسند البزار: «داود، وهو ابن بكير».
(١١) فى هـ، وفى مخطوطة مسند البزار: «حيان»، والمثبت من ت، أ.
(١٢) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١٥٥) من طريق محمد بن عبد العزيز، عن حبان عن أبيه به.
(١٣) فى ت، أ: «بين». (١٤) فى ت: «فتمتلئ».

وقال عُبَيْد بن عُمَير الليثى: يبعث الله المُبشرّة فتَقمُّ الأرض قَمًّا ثم يبعث الله المثيرة[١] فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿ وأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

وقد روى ابن جرير، من حديث عبيس[٢] بن ميمون، عن أبى المُهَزِّم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهى [الريح اللواقح، وهى التى][٣] ذكر الله فى كتابه، وفيها منافع للناس»[٤]. وهذا إسناد ضعيف.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحُمَيدى فى مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى يزيد بن جُعْدُبة الليثى: أنه سمع عبد الله بن مِخْرَاق، يحدث عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق فى الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها بابا مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شىء، وهى عند الله الأزيَبُ، وهى فيكم الجَنُوب»[٥].

وقوله: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أى: أنزلناه لكم عَذْبا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجاً. كما ينبه الله[٦] على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة «الواقعة»، وهو[٧] قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٧٠]، وفى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾: قال سفيان الثورى: بمانعين.

ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع[٨] فى الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم فى طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم[٩] كلهم ليوم الجمع.

وأخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا

---

(١) فى ت: «الميثرة». (٢) فى ت: «عنبس».

(٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ١٥).

(٥) مسند الحميدى (١/ ٧١) وفى إسناده يزيد بن جعدبة كذبه مالك وغيره.

(٦) فى ت، أ: «تعالى». (٧) فى ت: «وهى».

(٨) فى ت: «وينابع». (٩) فى ت: «يبعث».

الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: قال ابن عباس، رضى الله عنهما[١]: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة.

وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، ومحمد بن كعب، والشعبى، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل[٣]، عن مَرْوان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾[٤].

وقد ورد فى هذا حديث غريب جدا، فقال ابن جرير:

حدثنى[٥] محمد بن موسى الحَرَشِىَ، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: كانت تصلى خلف رسول الله ﷺ امرأة ـ قال ابن عباس: لا والله ما إنْ رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى: لئلا يراها ـ وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم!! فأنزل الله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾.

وكذا رواه أحمد وابن أبى حاتم فى تفسيره، والترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما[٦]، وابن ماجة من طرق عن نوح بن قيس الحُدانى[٧]. وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكى عن ابن معين تضعيفه، وأخرج له مسلم وأهل السنن.

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكرى[٨] أنه سمع أبا الجوزاء يقول فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾، فى الصفوف فى الصلاة ﴿وَالْمُسْتَأْخِرِينَ﴾. فالظاهر أنه من كلام أبى الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر[٩]. وقد قال الترمذى: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس[١٠]، والله أعلم.

وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبى معشر، عن أبيه: أنه سمع عون بن عبد الله يُذاكر محمد بن كعب فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾، وأنها فى صفوف

---

(١) فى ت: «عنه».

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٤/ ١٦، ١٧).

(٣) فى هـ، ت، أ: «عن أبيه أخبرنا» والمثبت من الطبرى.

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ١٨).

(٥) فى أ: «حدثنا». (٦) فى أ: «سننهما».

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ١٨) والمسند (١/ ٣٠٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٤٦).

(٨) فى ت، أ: «البكرى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٠١).

(١٠) سنن الترمذى برقم (٣١٢٢) وعبارته: «وروى جعفر بن سليمان هذا الحديث، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء نحوه، ولم يذكر فيه عن ابن عباس، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح».

الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾: الميت والمقتول و﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾: من يُخلقُ بَعْدُ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً[١].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس.

والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن.

وتفسير الآية بالآية أولى[٢].

وقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر[٣]:

ثُمَّ خاصرتها إلى القُبَّة الخضـ ـراء تَمْشى فى مَرْمَر مَسْنُون

أى: أملس صقيل.

ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن عباس: هى السموم التى تقتل.

وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: دخلت على عَمْرو الأصم أعوده، فقال: ألا أحدّثك حديثا سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق[٤] منها الجان، ثم قرأ: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾[٥].

وعن ابن عباس: أن الجان خُلق من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار.

وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس، وقد ورد فى الصحيح: «خُلقت الملائكة من نور،

---

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ١٦).

(٢) فى أ: «الأولى».

(٣) هو عبد الرحمن بن حسان، والبيت فى اللسان، مادة (سنن).

(٤) فى ت، أ: «خلق الله منها».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٢١) من طريق شعبة به نحوه.

وخُلقت الجان من مارج من نار، وخُلق بنو آدم مما وصف لكم»[١] ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتده[٢].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حَسَداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقوله[٣]: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد روى ابن جرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً، من حديث شبيب بن بشر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: إنى خالق بشراً من طين، فإذا سويته[٤] فاسجدوا له. قالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة أخرى فقال: إنى خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم. ثم خلق ملائكة فقال: إنى خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له][٥]. قالوا[٦]: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين[٧].

وفى ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلى، والله أعلم.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أى: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنةً،

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦) من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(٢) فى ت: «محقده». (٣) فى ت، أ: «وقال فى الآية الأخرى». (٤) فى ت، أ: «خلقته».

(٥) زيادة من ت، أ، الطبرى. (٦) فى ت: «فقالوا».

(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٢).

فكل رنة فى الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبى حاتم.

وإنه لما تحقق الغضب الذى لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدارجاً له وإمهالا، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿ **بِمَا أَغْوَيْتَنِي**﴾: قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتنى وأضللتنى ﴿ **لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ**﴾ أى: لذرية آدم، عليه السلام ﴿ **فِي الأَرْضِ**﴾ أى: أحبب إليهم المعاصى وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً، ﴿ **وَلأُغْوِيَنَّهُمْ**﴾ أى: كما أغويتنى ونَدَّرت على ذلك، ﴿ **أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾، كما قال: ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً [(١)]: ﴿**هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ** ﴾ أى: مرجعكم كلكم إلىّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ [الفجر: ١٤].

وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهى. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة كما قال: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ**﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عُبَاد، ومحمد بن سيرين، وقتادة: «هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيم»، كقوله: ﴿ **وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الزخرف: ٤] أى: رفيع. والمشهور القراءة الأولى.

وقوله: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ أى: الذين قدرت لهم[(٢)] الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿**إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جَرِير هاهنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب[(٣)]، حدثنا يزيد ابن قُسَيْط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجةً من قراهم، فإذا أراد النبى أن يستنبئ ربه عن شىء، خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأل ما بدا له، فبينا نبى فى مسجده إذ جاء عدو الله ـ يعنى: إبليس ـ حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. [فقال

---

(١) فى ت، أ: «متوعداً ومهدداً». (٢) فى أ: «عليهم».

(٣) فى أ: «وهب».

عدو الله: أرأيت الذى تَعَوّذ منه؟ فهو هو. فقال النبى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم][١] قال: فَرَدّد[٢] ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرنى بأى شىء تنجو منى؟ فقال النبى: بل أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم؟ مرتين، فأخذ كل [واحد][٣] منهما على صاحبه، فقال النبى: إن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبى: ويقول: ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم**﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنى[٤] والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت، بهذا تنجو منى. فقال النبى: «أخبرنى بأى شىء تغلبُ ابن آدم»؟ قال: آخذه عند الغضب والهوى[٥].

وقوله: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ أى: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿**لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مقسوم**﴾ أى: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه ـ أجارنا الله منها ـ وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر فى دَرَك بقدر فعله.

قال إسماعيل بن عُلَيّة وشعبة كلاهما، عن أبى هارون الغَنَوىّ، عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت على بن أبى طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا ـ قال أبو هارون: أطباقا بعضها فوق بعض[٦].

وقال إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن هُبَيرة بن يريم[٧]، عن على، رضى الله عنه، قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثانى، ثم الثالث، حتى تُملأ كلها[٨].

وقال عِكْرِمة: ﴿**سَبْعَةُ أَبْوَابٍ**﴾: سبعة أطباق.

وقال ابن جُرَيْج: ﴿**سَبْعَةُ أَبْوَابٍ**﴾: أولها جهنم، ثم لظَى، ثم الحُطَمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وروى[٩] الضحاك عن ابن عباس، نحوه. وكذا [روى][١٠] عن الأعمش بنحوه أيضا.

وقال قتادة: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾: وهى والله منازل بأعمالهم. رواهن ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضحاك: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ قال: باب لليهود،

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) فى أ: «فرد».
(٣) زيادة من ت، والطبرى.
(٤) فى أ: «وأنا».
(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٤).
(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٤).
(٧) فى ت: «مريم».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٤)
(٩) فى أ: «ورواه».

وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا ـ وهم كفار العرب ـ وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجَى لهم ولا يُرجى لأولئك أبداً.

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مغْوَل، عن جُنَيد(١)، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب: باب منها لمن سلَّ السيف على أمتى ـ أو قال: على أمة محمد».

ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغْوَل(٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا، عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد ـ يعنى: ابن يحيى ـ حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبى نضرة، عن سَمُرة بن جُنْدَب، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازل بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾»(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم فى جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ﴾ أى: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم، ﴿آمِنِينَ﴾ من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: روى القاسم، عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نَزَع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل، ثم قرأ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾(٤).

هكذا فى هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن ـ فى روايته(٥) عن أبى أمامة ـ ضعيف.

وقد روى سُنَيْد فى تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبى أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى(٦).

وهذا موافق لما فى الصحيح، من رواية قتادة، حدثنا أبو المتوكل الناجى: أن أبا سعيد الخدرى

---

(١) فى هـ، ت، أ: «حميد» والمثبت من الترمذى.

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٣) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول».

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٨٢) مطولاً، وأصل الحديث فى صحيح مسلم برقم (٢٨٤٥) دون ذكر الآية إلى قوله: «تأخذه النار إلى حجزته».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥) من طريق إسرائيل، عن بشر البصرى، عن القاسم به.

(٥) فى ت: «رواية».

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥).

حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعضهم، مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا، أذن لهم فى دخول الجنة»[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد ـ هو ابن سيرين ـ قال: استأذن الأشتر على علىٍّ، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إنى لأراك إنما احتبستنى لهذا؟ قال: أجل. قال: إنى لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستنى؟ قال: أجل إنى[(٢)]، لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ [إِخْوَانًا]**[(٣)] **عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾[(٤)].

وحدثنا الحسن: حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا أبو مالك الأشجعى، عن أبى حبيبة ـ مولى لطلحة ـ قال: دخل عمران بن طلحة على علىٍّ، رضى الله عنه، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال الله: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ ـ قال: ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخوانا! فقال على، رضى الله عنه: قُوما أبعد أرض وأسحقها! فمن هو إذاً إن لم أكن أنا وطلحة، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله[(٥)].

وروى وكِيع، عن أبان بن عبد الله البجلى، عن نُعَيْم بن أبى هند، عن رِبْعِى بن خِرَاش، عن على، نحوه، وقال فيه: فقام رجل من هَمْدان فقال: الله أعدل من ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فصاح به على صيحة، فظننت أن القصر تَدهدَه لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هو؟[(٦)].

وقال سعيد بن مسروق، عن أبى طلحة ـ وذكره ـ فيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه على، رضى الله عنه، فضربه بشىء كان فى يده فى رأسه، وقال: فمن هم[(٧)] يا أعور إذا لم نكن نحن؟

وقال سفيان الثورى: عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علىٍّ، رضى الله عنه فحجبه طويلا، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم. فقال على: بفيك التراب، إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٥).

(٢) فى أ: «أجل، قال: إنى». (٣) زيادة من ت،

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٦).

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٥).

(٦) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٥) من طريق وكيع.

(٧) فى أ: «فمن هو».

وكذا روى الثورى، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على، بنحوه.

وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبى موسى، سمع الحسن البصرى يقول: قال على: فينا والله ـ أهل بدر ـ نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

وقال كثير النَّوَّاء: دخلت على أبى جعفر محمد بن على فقلت: وليى وليكم، وسلمى سلمكم،، وعدوى عدوكم، وحربى حربكم. إنى أسألك بالله: أتبرأ من أبى بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، تولهما[١] يا كثير، فما أدركك فهو فى رقبتى هذه، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر، وعمر، وعلى، رضى الله عنهم أجمعين.

وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح فى قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وفيه حديث مرفوع، قال ابن أبى حاتم:

حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير[٢]، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، فى الله، ينظر بعضهم إلى بعض[٣].

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعنى: المشقة والأذى، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصَب، لا صخب فيه ولا نصب»[٤].

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما جاء فى الحديث: «يقال[٥]: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا»، وقال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أى: أخبر يا محمد عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف، وذكر فى سبب

---

(١) فى ت: «برهما» وفى أ: «برها».

(٢) فى هـ، ت، أ: «بشر» والمثبت عن الجرح والتعديل ١/١/ ٦٠ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٣) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى ومن طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٤٣٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٥) فى أ: «فقال».

نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون، فقال: «اذكروا الجنة، واذكروا النار». فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾، رواه ابن أبى حاتم. وهو مرسل[١].

وقال ابن جرير، حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكى، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبى رباح، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة، فقال: «ألا أراكم تضحكون؟» ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: «إنى لما خرجت جاء جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقول[٢]: لم تقنط[٣] عبادى؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾»[٤].

وقال سعيد، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه»[٥].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾.

يقول[٦] تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسَّفْر ـ وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أى: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم[٧] ضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ﴾ أى: لا تخف، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم فى سورة هود.

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٨٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم، وموسى بن عبيدة الربذى ضعيف.

(٢) فى أ: «يقول الله». (٣) فى ت: «يقنط».

(٤) تفسير الطبرى (١٤/ ٢٧).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٢٧) وابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٤) من طريق سعيد به مرسلاً، وروى موصولاً نحوه عن ابن عمر وأبى سعيد الخدرى، أما حديث ابن عمر، فرواه ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله برقم (٦٣) من طريق موسى عن عطية، عن ابن عمر مرفوعاً: «لو تعلمون قدر رحمة الله عز وجل لا تكلتم وما عملتم من عمل، ولو علمتم قدر غضبه ما نفعكم شىء»، وحديث أبى سعيد، رواه البزار فى مسنده ولفظه: «لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلتم ـ أحسبه قال: عليها». وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٤): «إسناده حسن».

(٦) فى أ: «يخبر». (٧) فى ت، أ: «إليهم».

ثم قال[(١)] متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ وقرأ بعضهم: «القنطين»[(٢)] ـ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

يقول تعالى إخبارا عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾، يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم، ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾، كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨].

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾: تأكيد لخبرهم[(٣)] إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه، [والله أعلم][(٤)].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يَسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغَزاة بما كان يكون[(٥)] ساقة، يُزجى الضعيف، ويحمل المنقطع[(٦)].

وقوله: ﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما

---

(١) فى ت، أ: «فقال». (٢) فى ت، أ: «المقنطين».
(٣) فى ت: «بخبرهم». (٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت: «فى الغزو إنما كان»، وفى أ: «فى الغزو وإنما يكون».
(٦) رواه أبو داود فى السنن برقم (٢٦٣٩) من حديث جابر ولفظه: «كان رسول الله ﷺ يتخلف فى المسير، فيزجى الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».

حل بهم من العذاب والنكال، ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾، كأنه كان معهم من يهديهم السبيل.

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ أى: تقدمنا إليه في هذا ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ أى: وقت الصباح، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه[١] وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾.

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما فى سياق[٢] سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكرُ أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضى الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل[٣] على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول فى ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفى هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك النُّكْرى[٤]، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى[٥]: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [يقول: وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهون][٦]، رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أى: فى ضلالتهم، ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: يلعبون.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾: لعيشك، ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال: يتحيَّرون[٧].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً

---

(١) فى ت: «بضيفانه». (٢) فى ت: «سياقة». (٣) فى ت: «دليله».
(٤) فى ت: «البكرى». (٥) فى أ: «عز وجل». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «يتمادون».

لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾.

يقول: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع[(١)] بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلبْها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل فى [سورة][(٢)] هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أى: إن آثار هذه النقم ظاهرة[(٣)] على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال: المتفرسين.

وعن ابن عباس، والضحاك: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾: للمتأملين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العَبْدى، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». ثم قرأ النبى ﷺ: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

رواه الترمذى، وابن جرير، من حديث عمرو بن قيس الملائى[(٤)]، وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنى أحمد بن محمد الطوسى، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات ابن السائب، حدثنا ميمون بن مِهْران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإن المؤمن ينظر[(٥)] بنور الله»[(٦)].

وقال ابن جرير: حدثنى أبو شرحبيل الحِمْصى، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المُؤَمَّل بن سعيد ابن يوسف الرَّحبى، حدثنا أبو المعلى أسد بن وَداعة الطائى، حدثنا وهب بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كَيْسَان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله»[(٧)].

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبى[(٨)] ﷺ: «إن لله عباداً

---

(١) فى ت: «رفيع».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى أ: «الظاهرة».

(٤) سنن الترمذى برقم (٣١٢٧) وتفسير الطبرى (١٤/ ٣١).

(٥) فى ت، أ: «يبصر».

(٦) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٩٤) من طريق فرات بن السائب به، وقال: «غريب من حديث ميمون لم نكتبه إلا من هذا الوجه». والفرات متروك.

(٧) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٨١) من طريق سليمان بن سلمة به، وقال: «غريب من حديث وهيب، تفرد به مؤمل عن أسد». وسليمان بن سلمة وشيخه المؤمل ضعيفان.

(٨) فى أ: «رسول الله».

يعرفون الناس بالتوسم»(١).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمى، حدثنا أبو بشر ـ يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة ـ عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»(٢).

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والمعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة(٣) منتنة خبيثة لبطريق مَهْيَع مسالكه(٤)، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ قال: مُعلَّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقال السدى: بكتاب مبين، يعنى كقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، ولكن ليس المعنى على ما قال هاهنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية(٥) للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف.

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بَعْدَهم فى الزمان، ومسامتين لهم فى المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: طريق مبين.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا

---

(١) تفسير الطبرى (١٤/ ٣٢) ورواه القضاعى فى مسند الشهاب برقم (١٠٠٥) والطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٥٠٠٤) «مجمع البحرين» من طريق أبى بشر المزلق به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٦٨): «إسناده حسن». وقال الذهبى فى ترجمة أبى بشر المزلق: «روى خبراً منكراً فذكره» وهذا أقرب.

(٢) مسند البزار برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار» وقال: «لا نعلم رواه عن ثابت، عن أنس إلا أبو بشر».

(٣) فى ت: «بخرة»، وفى أ: «بخرة».

(٤) فى ت، أ: «سالكة».

(٥) فى أ: «جليلة».

كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾.

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت[1] تسرح فى بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتَوا وعقروها قال لهم: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾ أى: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر، الذى مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فَقَنَّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[2].

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى: وقت الصباح من[3] اليوم الرابع، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِ ﴾ أى: بالعدل؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم[4] به، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[5] ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما

(١) فى ت: «وكانت».

(٢) جاء من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما، رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٨٠) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٩٨) ولفظه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم..» الحديث. ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٠٢) بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

(٣) فى أ: «فى». (٤) فى ت، أ: «ما جاء». (٥) فى ت: «تعلمون».

شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق[١] من الأجساد، وتفرق[٢] فى سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ [يس: ٨١ ـ٨٣].

﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك. ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: ألن لهم جانبك[٣]، كما قال تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقد اختلف فى السبع المثانى: ما هى؟

فقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك وغير واحد: هى السبع الطُّوَل. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، نص عليه ابن عباس، وسعيد بن جبير.

وقال سعيد: بيَّن[٤] فيهن الفرائض، والحدود، والقصص، والأحكام.

وقال ابن عباس: بين[٥] الأمثال والخَبَر والعبَر[٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر قال: قال سفيان: ﴿ المثاني ﴾: المُثَنَّى[٧]: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة[٨] سورة واحدة.

قال ابن عباس: ولم يُعطهن أحد إلا النبى ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هُشَيْم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيزار[٩]، عن سعيد بن جُبير عنه.

[و][١٠] قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوتى النبى ﷺ سبعاً من المثانى الطُّوَل، وأوتى موسى، عليه السلام، ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع[١١] اثنتان وبقيت أربع.

---

(١) فى ت، أ: «يمزق». (٢) فى ت، أ: «ويفرق». (٣) فى ت: «جنابك».
(٤، ٥) فى ت، أ: «ثنى». (٦) فى ت: «الخير والشر». (٧) فى ت: «المبين».
(٨) فى ت: «وبراءة والأنفال». (٩) فى ت: «العيزان». (١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى ت، أ: «رفعت».

وقال مجاهد: هى السبع الطُول. ويقال: هى القرآن العظيم.

وقال خَصيف، عن زياد بن أبى مريم فى قوله تعالى: ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء: آمر، وأنهى، وأبشر[١]، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدِّد النعم، وأنبئك بنبأ[٢] القرآن. رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم.

والقول الثانى: أنها الفاتحة، وهى سبع آيات. رُوى ذلك عن عمر وعلى، وابن مسعود، وابن عباس. قال ابن عباس: والبسملة هى[٣] الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وبه قال إبراهيم النَّخعى، وعبد الله بن عبيد بن عُمَير، وابن أبى مليكة، وشَهْر بن حَوْشَب، والحسن البصرى، ومجاهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين[٤] فى كل قراءة. وفى رواية: فى كل ركعة مكتوبة أو تطوع.

واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة فى ذلك، وقد قدمناها فى فضائل سورة «الفاتحة» فى أول التفسير، ولله الحمد.

وقد أورد البخارى، رحمه الله، هاهنا حديثين:

أحدهما: قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبى سعيد بن المعلى قال: مر بى النبى ﷺ وأنا أصلى، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتينه فقال: «ما[٥] منعك أن تأتينى[٦]؟». فقلت: كنت أصلى. فقال: «ألم يقل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبى ﷺ ليخرج، فذكرته[٧] فقال: «﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته»[٨].

[و][٩]**الثانى**: قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبى ذئب، حدثنا المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هى: السبع المثانى والقرآن العظيم»[١٠].

فهذا نص فى أن الفاتحة السبع المثانى والقرآن العظيم، ولكن لا ينافى[١١] وصف غيرها من السبع الطُوَل بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثانى من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام[١٢]، لما سُئل عن المسجد الذى أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت فى مسجد قُباء، فلا تنافى، فإن[١٣] ذكر الشىء لا ينفى[١٤]

(١) فى أ: «وبشر».
(٢) فى أ: «نبأ».
(٣) فى أ: «على».
(٤) فى ت: «يتبين» وفى أ: «تثنى».
(٥) فى أ: «ماذا».
(٦) فى ت، أ: «تأتى».
(٧) فى ت، أ: «فذكرت».
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٣).
(٩) زيادة من أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٤).
(١١) فى ت: «لا تنافى».
(١٢) فى أ: «ﷺ».
(١٣) فى ت: «لأن».
(١٤) فى ت: «ينافى».

ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أى: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية.

ومن هاهنا ذهب ابن عُيَيْنَة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغَنَّ بالقرآن»(١)، إلى أنه يُستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم فى أول التفسير.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن وَكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قُسيط، عن أبى رافع صاحب النبى ﷺ قال: أضاف النبىُ ﷺ ضيف(٢)، ولم يكن عند النبى ﷺ شىء(٣) يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: يقول لك محمد رسول الله: أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب. قال: لا، إلا برَهْن. فأتيت النبى ﷺ [فأخبرته](٤) فقال: «أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه». فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]. كأنه(٥) يعزيه عن الدنيا(٦).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه.

وقال مجاهد: ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾: هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

يأمر تعالى نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، أن(٧) يقول للناس: إنه ﴿ النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾، البين النِّذَارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أى: المتحالفين، أى: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: نقتلهم ليلا، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشىء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

---

(١) وانظر فيما تقدم فى فضائل القرآن، باب: من لم يتغن بالقرآن. (٢) فى ت: «ضيفا» وهو الصواب.

(٣) فى ت، أ: «أمرا». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «كما».

(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١/ ٣٣١) من طريق عبد الله بن نمير، عن موسى بن عبيدة به نحوه، وقال العراقى: «إسناده ضعيف» وذلك لأجل موسى بن عبيدة الربذى.

(٧) فى ت، أ: «بأن».

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح، الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله.

وفى الصحيحين، عن أبى موسى [الأشعرى][(١)]، عن النبى ﷺ قال: «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكَذَب ما جئت به من الحق»[(٢)].

وقوله: ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾ أى: جَزَّؤوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿ **جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه[(٣)] [(٤)].

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبى[(٥)] ظَبْيان، عن ابن عباس: ﴿ **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ** ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهُود والنصارى[(٦)].

قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبير، والحسن، والضحاك، مثل ذلك.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ **جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾ قال: السحر[(٧)].

وقال عكرمة: العَضْة: السحر بلسان قريش، تقول[(٨)] للساحرة: إنها العاضهة[(٩)].

وقال مجاهد: عَضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين.

وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. وقال بعضهم كاهن. فذلك العضين[(١٠)]. وكذا روى عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف[(١١)] فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٢، ٧٢٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٥).

(٤) فى هـ بعد قوله «وكفروا ببعضه» ما يلى:

«حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبى ظبيان، عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه» وليس فى صحيح البخارى ولا فى باقى النسخ، وهو خطأ.

(٥) فى ت: «ابن».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٦).

(٧) فى ت، أ: «سحر». (٨) فى ت: «يقول». (٩) فى ت: «الكاهنة».

(١٠) فى ت: «الحضين». (١١) فى ت، أ: «ذا سن».

صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل[١] وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم قولوا[٢] لأسمع. قالوا: نقول[٣]: «كاهن». قال: ما هو بكاهن. قالوا: فنقول: «مجنون». قال: ما هو بمجنون! قالوا[٤]: فنقول: «شاعر». قال: ما هو بشاعر! قالوا: فنقول: «ساحر». قال: ما هو بساحر! قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر. فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ** ﴾: أصنافا[٥]، ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، دُوينك[٦] النفر الذين قالوا: ذلك لرسول الله.

وقال عطية العَوفى، عن ابن عمر[٧] فى قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

وقال عبد الرزاق. أنبأنا الثورى، عن ليث ـ هو ابن أبى سليم ـ عن مجاهد، فى قوله: ﴿ **لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ قال: عن [٨] لا إله إلا الله[٩].

وقد روى الترمذى، وأبو يعلى الموصلى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن ليث بن أبى سليم، عن بَشير[١٠] بن نَهيك، عن أنس، عن النبى ﷺ: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين** ﴾ [قال][١١]: عن لا إله إلا الله[١٢].

ورواه ابن إدريس، عن ليث، عن بشير[١٣]، عن أنس موقوفا[١٤].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عُكَيم قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: والذى لا إله غيره، ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم، ماذا[١٥] غرك منى بى؟ ابن آدم، ماذا عملتَ فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين[١٦]؟

وقال أبو جعفر: عن الربيع، عن أبى العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خُلَّتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

---

(١) فى ت: «فقيل». (٢) فى ت، أ: «تقولوا». (٣) فى ت: «فنقول».
(٤) فى أ: «قال». (٥) فى ت: «أضيافاً». (٦) فى ت، أ: «أولئك».
(٧) فى أ: «عن ابن عباس». (٨) فى أ: «عن قول».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٣٠٣).
(١٠) فى ت، أ: «بشر». (١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٣١٢٦) ومسند أبى يعلى (٧/١١١) وهو عندهما من طريق ليث بن أبى سليم، عن بشر، عن أنس، وفى تفسير الطبرى (١٤/٤٦) رواه من طريق شريك عن بشر عن أنس، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث ليث ابن أبى سليم، وقد روى عبد الله بن أدريس، عن ليث بن أبى سليم، عن بشر، عن أنس نحوه ولم يرفعه».
(١٣) فى أ: «بشر».
(١٤) أشار إليه الترمذى كما تقدم، ورواه الطبرى فى تفسيره (١٤/٤٦) من طريق أبى كريب وأبى السائب، عن ابن إدريس به موقوفًا.
(١٥) فى ت: «ما».
(١٦) تفسير الطبرى (١٤/٤٦).

وقال ابن عيينة: عن عملك، وعن مالك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَّارى، حدثنا يونس الحذاء، عن أبى حمزة الشيبانى، عن معاذ بن جبل قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المؤمن ليسأل(1) يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كحل عينيه، وعن(2) فتات الطينة بأصبعيه، فلا ألفينك يوم القيامة(3)، وأحد أسعد بما آتى(4) الله منك»(5).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه(6) والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر.

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة.

وقال أبو عبيدة، عن(7) عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفيا، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه(8).

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله. ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كَهْمَس، عن يزيد بن درهم، قال: سمعت أنساً(9) يقول فى هذه الآية: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

---

(١) فى أ: «يسال». (٢) فى أ: «وحتى».

(٣) فى أ: «فلا ألفينك تأتى يوم القيامة». (٤) فى ت، أ: «أتاك».

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان، عن أحمد بن أبى الحوارى به نحوه، وسيأتى مطولاً عند تفسير الآية: ١٤ من سورة الفجر، وقد علق الحافظ ابن كثير: «حديث غريب جداً فى إسناده نظر وفى صحته».

(٦) فى أ: «وإنفاذه». (٧) فى ت، أ: «ابن».

(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٤/ ٤٧).

(٩) فى ت، أ، هـ: «عن أنس قال: «سمعت أنساً» وهو تحريف وقد وقع مثله فى كشف الأستار للهيثمى.

الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال: مر رسول الله ﷺ، فغمزه بعضهم، فجاء جبريل ـ أحسبه قال: فغمزهم فوقع فى أجسادهم ـ كهيئة الطعنة حتى ماتوا[١].

وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير ـ خمسة نفر، كانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم، من بنى أسد بن عبد العزى بن قُصى: الأسود بن المطلب أبو[٢] زمعة، كان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه [به][٣]، فقال: اللهم، أعم بصره، وأثكله ولده. ومن بنى زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زُهرة. ومن بنى مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم. ومن بنى سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤى: العاص بن وائل بن هشام بن سُعَيد ابن سعد. ومن خزاعة: الحارث بن الطّلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن ملْكان ـ فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾** إلى قوله: **﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾**.

وقال ابن إسحاق: فحدثنى يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، أو غيره[٤] من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود [ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء، فعمى، ومر به الأسود][٥] بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى[٦] بطنه، فمات منه حَبَنًا، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله ـ كان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجر إزاره، وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشىء، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف، فربَض[٧] على شِبْرِقَة فدخلت فى أخمص رجله منها شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فامتخط قيحا، فقتله[٨].

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسُهم الوليد بن المغيرة، وهو الذى جمعهم.

وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة، نحو سياق محمد بن إسحاق، عن يزيد، عن عروة، بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطلة. وعكرمة يقول: الحارث بن قيس.

قال الزهرى: وصدقا، هو الحارث بن قيس، وأمه غيطلة.

وكذا روى عن مجاهد، ومِقْسَم، وقتادة، وغير واحد، أنهم كانوا خمسة.

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٢٢) «كشف الأستار» ونقل عنه الهيثمى قوله: «تفرد به يزيد بن درهم، عن أنس ولا أعلم له عن أنس غيره»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٤٦): «فيه يزيد بن درهم، ضعفه ابن معين، ووثقه الفلاس».

(٢) فى ت: «ابن».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) فى ت: «وغيره».

(٥) زيادة من ت، أ، وابن هشام والطبرى.

(٦) فى أ: «فاستقى».

(٧) فى ت، أ: «فربض به».

(٨) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٠٩، ٤١٠) وتفسير الطبرى (١٤/٤٨).

وقال الشعبى: كانوا سبعة.

والمشهور الأول.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر. فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبى الزاهرية، عن كثير بن مُرَّة، عن نعيم بن هَمَّار[(١)]، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره».

رواه أبو داود[(٢)]، من حديث مكحول، عن كثير بن مرة، بنحوه[(٣)].

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلَّى.

وقوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: قال البخارى: قال سالم: الموت[(٤)].

وسالم هذا هو: سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثنى طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ قال: الموت[(٥)].

وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره[(٦)].

والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ .حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٣ـ ٤٧].

وفى الصحيح[(٧)] من حديث الزهرى، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ـ وقد مات ـ قلت: رحمة الله عليك[(٨)] أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»

(١) فى ت، أ: «عمار».

(٢) فى ت، أ: «أبو داود والنسائى».

(٣) المسند (٥/ ٢٨٦) وسنن أبى داود برقم (١٢٨٩).

(٤) صحيح البخارى (٨/ ٣٨٣) «فتح».

(٥) تفسير الطبرى (١٤/ ٥١).

(٦) فى ت: «وغيرهم».

(٧) فى أ: «الصحيحين».

(٨) فى ت، أ: «رحم الله قلبك».

فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير»[١].

ويستدل من هذه الآية الكريمة وهى قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ ـ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن عمران بن حصين، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جَنْب»[٢].

ويستدل بها[٣] على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها [فإنه جواد كريم][٤].

[وحسبنا الله ونعم الوكيل][٥]

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٢٤٣).

(٢) صحيح البخارى برقم (١١١٧).

(٣) فى أ: «بهذا».

(٤) زيادة من ت، أ.

(٥) زيادة من أ.

سورة الحجر

﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور .

وقوله تعالىٰ: **﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾** ، إخبار عنهم أنهم سيندمون علىٰ ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدار الدنيا مع المسلمين .

ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن [الكفار][١] لما عرضوا علىٰ النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين .

وقيل : إن[٢] المراد أن كل كافر يود عند احتضاره[٣] أن لو كان مؤمنًا .

وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة ، كقوله[٤] تعالىٰ : **﴿ ولوترىٰ إذ وقفوا علىٰ النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾** .

وقال سفيان الثوري(١) : عن سلمة بن[٥] كهيل ، عن[٦] أبي الزعراء ، عن عبد الله في قوله : **﴿ رُبَمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾** قال : هذا في الجهنميين إذا[٧] رأوهم يخرجون من النار.

وقال[٨] ابن جرير(٢) : حدثني المثنىٰ ، أخبرنا مسلم بن إبراهيم [، حدثنا القاسم][٩]

(١) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/١٤) ورجاله ثقات ، رجال الشيخين غير أبي الزعراء وهو الكبير واسمه عبد الله بن هانئ الكندي الكوفي ، وثقه ابن سعد والعجلي وابن حبان ، وقال البخاري : « لا يتابع في حديثه » ، وقال علي بن المديني : « عامة رواية أبي الزَّعْراء عن عبد الله بن مسعود ، ولا أعلم أحدًا روىٰ عنه إلا سلمة بن كهيل » .

(٢) - ابن جرير في تفسيره (٣/١٤) ، وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٠٢) (ص ٥٥٨) من =

[١] - في ت : « كفار قريش » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز ، خ : « احضاره » .
[٤] - في خ : « كما في قوله » .
[٥] - في ز ، خ : عن .
[٦] - في ز : « ابن » .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - مكانها بياض في ز .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

حدثنا ابن أبي فروة العبدي : أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿ **رُبَمَا يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ يتأولانها : يوم يحبس اللَّه أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار . قال : فيقول لهم المشركون : ما أغنىٰ عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا . قال : فيغضب اللَّه لهم بفضل رحمته فيخرجهم ، فذلك حين يقول : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

وقال عبدالرزاق (٣) : أخبرنا[١] الثوري عن حماد ، عن إبراهيم ، وعن خصيف ، عن[٢] مجاهد ؛ قالا : يقول أهل النار للموحدين : ما أغنىٰ [عنكم إيمانكم][٣]؟ فإذا قالوا ذلك ، قال اللَّه : أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة [من إيمان][٤] قال : فعند ذلك قوله : ﴿ **ربما[٥] يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم . وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة ؛ فقال الحافظ أبوالقاسم الطبراني(٤) :

حدثنا محمد بن العباس - هو الأخرم[٦]- حدثنا محمد بن منصور الطوسي ، حدثنا صالح بن إسحاق الجِهْبِذ[٧] - [دلني عليه يحيى بن معين][٨] - حدثنا مُعرّف[٩] بن واصل ، عن يعقوب [بن نباتة](*) ، عن عبدالرحمن الأغر ، عن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « إن ناسًا من أهل لا إله إلا اللَّه

= طريق القاسم بن الفضل عن عبيد الله بن أبي جروة العبدي ، كذا وقع في الزهد ، ولعله هو الصواب ، فإني لم أقف على من اسمه ابن أبي فروة العبدي في كتب الرجال ، ثم إن ابن أبي جروة ذكره البخاري في « التاريخ الكبير » (٣٧٦/٥) ، ووثقه ابن حبان -« الثقات »- (٦٧/٥) ، والأثر أخرجه أيضًا البيهقي في « البعث » (٧٦) من طريق القاسم بن الفضل ثنا عبد الله بن أبي جرول - كذا وقع - ولعله محرف من السابق ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٢/٤) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر .

(٣) - « التفسير » لعبد الرزاق (٣٤٥/٢) وحماد هو ابن أبي سليمان ، وإبراهيم هو ابن يزيد النخعي ، وخصيف هو بن عبد الرحمن .

(٤) - الحديث في « المعجم الأوسط » (٧٢٩٣/٧) وقال : « لم يرو هذا الحديث عن معروف - كذا - ابن واصل إلا صالح بن إسحاق الجِهْبذ » ورواه عن الطبراني أبو نعيم في « الحلية » (٢١٧/١٠ - ٢١٨) ، =

---

[١] - في خ : « أنبأنا » . [٢] - في خ : « وعن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في خ : « عنكم جمعكم إيمانكم » .

[٤] - سقط من : ز ، خ . [٥] - سقط من : ز ، خ .

[٦] - في خ : « الأحزم » . [٧] - في خ : « الجهدراي » .

[٨] - في ز : « رأى علية بن موسى » ، وفي خ : وعلية بن موسى . والمثبت من الأوسط .

[٩] - في ز ، خ : « معروف » .

يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزىٰ : ما أغنىٰ عنكم قولكم : لا إله إلا اللّه ، وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب اللّه لهم [فيخرجُهم ، فيلقيهم][١] في نهر الحياة ، فيبرءون[٢] من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه[٣]، فيدخلون[٤] الجنة ويسمون فيها الجهنميين[٥]» . فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم ؟ فقال أنس : سمعت رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم يقول : « **من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » . نعم ، أنا سمعت رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وآله وسلم يقول هذا .

ثم قال الطبراني : تفرد به الجهبذ .

(الحديث الثاني) وقال الطبراني أيضا(٥) : حدثنا عبداللّه بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبوالشعثاء علي بن حسن الواسطي ، حدثنا خالد بن نافع الأشعري ، عن سعيد بن أبي بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسىٰ رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **إذا اجتمع أهل النار في النار ، ومعهم من شاء اللّه من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلىٰ . قالوا : فما أغنىٰ عنكم الإسلامُ ، فقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها . فسمع اللّه ما قالوا ، فأمر بمن**

= ومن طريق أبي نعيم الخطيب البغدادي في تاريخه (٣١١/٩ - ٣١٢) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٩٠/ ٣٨٣) : « وفيه من لم أعرفهم » . قلت : لم أقف على ترجمة ليعقوب بن أبي نباتة وكذا صالح بن إسحاق .

وقد رواه أحمد مطولًا بنحوه (١٤٤/٣) وإسناد صحيح والجزء الأخير منه عند البخاري (رقم ١٠٨) ومسلم (٢) . كلهم من حديث أنس .

(*) ما بين المعكوفتين في المطبوع من الأوسط : « بن أبي نباتة » .

(٥) - أخرجه في « المعجم الكبير » كما في « المجمع » (٤٨/٧) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (٢/ ٨٤٣) ، والحاكم (٢٤٢/٢) ، وعنه البيهقي في « البعث » (٧٩) من طريق أبي الشعثاء به ، وأخرجه ابن جرير (٢/١٤) حدثنا علي بن سعيد بن مسروق ثنا خالد بن نافع به .

وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وقال في « المجمع » : « فيه خالد بن نافع الأشعري قال أبو داود : متروك . قال الذهبي هذا تجاوز في الحد فلا يستحق الترك ؛ فقد حدث عنه أحمد ابن حنبل وغيره . وبقية رجاله ثقات » قلت : وقد ضعف خالدًا هذا أيضًا أبو زرعة والنسائي وقال أبو حاتم : ليس بالقوي ، يكتب حديثه [انظر « لسان الميزان »] . ويشهد له ما قبله وما يأتي .

[١] - في خ : « فيخرجهم في الناس فيلقهم » . [٢] - في ت : « فيبرؤن » .
[٣] - في ز ، خ : « كسوفة » . [٤] - في ت : « ويدخلون » .
[٥] - في خ : « الجهنميّون » .

كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأىٰ ذلك من بقي من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرجَ كما خرجوا!! » . قال : ثم قرأ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

ورواه ابن أبي حاتم : من حديث خالد بن نافع به ، وزاد فيه : بسم اللَّه الرحمن الرحيم ، عوض الاستعاذة .

(الحديث الثالث) قال[١] الطبراني أيضًا(٦) : حدثنا موسىٰ بن هارون ، حدثنا إسحاق ابن راهويه ؛ قال : قلت لأبي أسامة : أحدّثكم أبو روق[٢] واسمه[٣] عطية بن الحارث : حدثني صالح بن أبي طريف ؛ قال : سألت أبا سعيد الخدري فقلت له : هل سمعت رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول في هذه الآية : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : « **يخرج اللَّه ناسًا من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم** » . وقال : « **لما أدخلهم اللَّه النار مع المشركين ، قال لهم المشركون : تزعمون أنكم أولياء اللَّه في الدنيا فما بالكم معنا في النار ؟ فإذا سمع اللَّه ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم ، فتشفع لهم[٤] الملائكة والنبيون ، ويشفع المؤمنون حتىٰ يخرجوا بإذن اللَّه ، فإذا رأىٰ المشركون ذلك ، قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم !!** » قال : « **فذلك قول اللَّه** : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ **فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : يارب ، أذهب عنا هذا الاسم ، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم** » ؟ فأقر به أبو أسامة ، وقال : نعم .

(الحديث الرابع) وقال ابن أبي حاتم(٧) : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا العباس ابن[٥] الوليد النرسي[٦] ، حدثنا مسكين أبو فاطمة ، حدثني اليمان بن يزيد ، عن محمد ابن

---

(٦) - وعزاه إلى الطبراني السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٢/٤) وكذا إلى إسحاق بن راهوية وابن مردويه وصححه ابن حبان (٧٤٣٢/١٦/إحسان) و (٢٥٩٩/٨/ موارد) من طريق عبدالله بن عمر بن أبان بن صالح : قال : ثنا أبو أسامة ، عن أبي روق به .

(٧) - وأخرجه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٥٦٨/٢) مطولًا ، وأخرجه مختصرًا أيضًا (١٥٦٧) ، والدارقطني في « المؤتلف والمختلف » (٦٦٧/٢) ، والخطيب البغدادي في تاريخه (١٥٦/٦) من طريق العباس بن الوليد النرسي به ، وقال الدارقطني : «اليمان بن يزيد مجهول ومسكين أبو فاطمة ضعيف =

---

[١] - في ز ، خ : « وقال » .
[٢] - في خ : « رق » .
[٣] - في خ : « وحدَّثه » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز ، خ : « عن » .
[٦] - في ز : « البرسني » ، خ : « البرسي » .

حِمْيَر(*) ، عن محمد بن[١] علي ، عن أبيه ، عن جده ؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « منهم من تأخذه النار إلىٰ ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلىٰ حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلىٰ عنقه ، علىٰ قدر ذنوبهم وأعمالهم ، [ومنهم من يمكث فيها شهرًا ثم يخرج منها][٢]، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثًا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلىٰ أن تفنىٰ ، فإذا أراد الله أن يخرجوا[٣] منها ، قالت اليهود والنصارىٰ ومن في النار من أهل الأديان والأوثان ، لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء ؟ فيغضب الله لهم غضبًا لم يغضبه لشيء فيما مضىٰ ، فيخرجهم إلىٰ عين في الجنة وهو قوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا** ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد ، كقوله تعالىٰ: ﴿ **قل تمتعوا فإن مصيركم الي النار** ﴾ ، وقوله : ﴿ **كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون** ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ **ويلههم الأمل** ﴾ أي : عن التوبة والإنابة ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ أي : عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول[٤] تعالىٰ : إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم[٥] عن ميقاتها ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه[٦] من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

= الحديث ومحمد بن حمير هذا لا أعرفه إلا في هذا الحديث وهو حديث منكر » ، وقال ابن الجوزي : هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل » . وقال الذهبي في « الميزان » (٦/ترجمة اليمان بن يزيد) : « عن محمد بن حمير الحمصي بخبر طويل في عذاب الفساق أظنه موضوعًا » والحديث زاد نسبته السيوطي في «الدر المنثور» (١٧٣/٤) إلى ابن شاهين في « السنة » .

(*) في (ز ، خ) : « جبر » ، والمثبت من كتب الرجال .

[١] - في ز ، خ : « أبو » ، وهو خطأ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٣] - في ت : « يخرجهم » .
[٤] - في ت : « يخبر » .
[٥] - في خ : « هلاكها » .
[٦] - في ت : « عليه » .

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

يخبر تعالىٰ عن كفرهم وعتوهم[١] وعنادهم في قولهم ﴿ **يا أيها الذي نزل عليه الذكر** ﴾ أي : الذي يدعي[٢] ذلك ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ أي : في دعائك إيانا إلىٰ اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ **لو ما** ﴾ أي : هلَّا ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾ أي : يشهدون لك بصحة ما جئت به [إن كنت من الصادقين][٣]، كما قال فرعون : ﴿ **فلولا**[٤] **ألقي عليه أسورة**[٥] **من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ ، ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرىٰ ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوًّا كبيرا * يوم يرون الملائكة لابشرىٰ يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورًا** ﴾ ، وكذا قال في هذه الآية : ﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا منظرين** ﴾ .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا منظرين** ﴾ بالرسالة والعذاب .

ثم قرر تعالىٰ أنه هو الذي أنزل عليه[٦] الذكر وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل .

ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالىٰ : ﴿ **له لحافظون** ﴾ علىٰ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ، كقوله : ﴿ **واللَّه يعصمك من الناس** ﴾ والمعنىٰ الأول أولىٰ وهو ظاهر السياق .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقول تعالىٰ مسلِّيًا لرسوله صلىٰ اللَّه عليه وسلم في تكذيب من كذبه من كفار قريش : إنه أرسل من قبله في[٧] الأمم الماضية ، وإنه ما أتىٰ أمة من[٨] رسول[٩] إلا كذبوه واستهزءوا

---

[١] - سقط من : ت .
[٢] - في ت : « تدعي » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٤] - في خ : « لولا » .
[٥] - في ز ، خ : « أساورة » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ز ، خ : « من » .
[٨] - سقط من : ز ، خ .
[٩] - في خ : « رسولا » .

به .

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين ، الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدىٰ .

قال أنس والحسن البصري : ﴿ **كذلك نسلكه في قلوب المجرمين** ﴾ يعني : الشرك .

وقوله : ﴿ **وقد خلت سنة الأولين** ﴾ أي : قد علم ما فعل تعالىٰ بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجىٰ اللّه الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

يخبر تعالىٰ عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق : أنه لو فُتح لهم بابٌ من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا : ﴿ **سكرت أبصارنا** ﴾ . قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا . وقال قتادة ، عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

و[١] قال العوفي ، عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

وقال الكلبي : عميت أبصارنا .

وقال ابن زيد : ﴿ **سكرت أبصارنا** ﴾ السكران الذي لايعقل .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالىٰ خلقه السماء في ارتفاعها ، وما زينها به من الكواكب الثواقب ، لمن تأملها وكرر [نظره فيما يرىٰ فيها][٢] من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ، ولهذا

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ت : « النظر فيما يرى » .

قال مجاهد وقتادة : البروج هٰهنا هي الكواكب (قلت) : وهذا كقوله تبارك وتعالىٰ : ﴿ **تبارك الذىٰ جعل في السماء بروجًا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا** ﴾ . ومنهم من قال : البروج هي منازل الشمس والقمر .

وقال عطية العوفي : البروج هاهنا هي قصور الحرس .

وجعل الشهب حرسًا لها من مردة الشياطين ؛ لئلا يَسَّمَّعوا[١] إلىٰ الملأ الأعلىٰ . فمن تمرد وتقدم[٢] منهم لاستراق[٣] السمع جاءه [شهاب مبين][٤] فأتلفه ، فربما يكون قد ألقىٰ الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلىٰ الذي هو دونه ، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلىٰ وليه ، كما جاء مصرحًا به في الصحيح كما قال البخاري في تفسير هذه الآية(٨) :

حدثنا علي بن عبد اللّٰه ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عكرمة ، عن أبي هريرة ، يبلغ به النبيٰ صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : « إذا قضىٰ اللّٰه الأمر في السماء ، [ ][٥] ضَرَبَت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كالسلسة علىٰ صفوان » . قال عليٌّ . وقال غيره[٦]: «صفوانٍ ينفذُهُم ذلك . فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربُّكم ؟ قالوا للذي قال : الحقَّ وهو العلي الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحدٌ فوق الآخر[٧]- ووصف سفيان[٨] بيده وفرّج بين أصابع يده اليمنى ، نَصَبَها بعضَها فوق بعض - فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرمِيَ[٩] بها إلىٰ صاحبه فيُحْرِقَه ، وربما لم يدركه حتىٰ يرمي بها إلىٰ الذي يليه ، [إلىٰ الذي][١٠] هو أسفل منه ، حتىٰ يلقوها إلىٰ الأرض - وربما قال سفيان : حتىٰ تنتهي إلىٰ الأرض - فتلقىٰ[١١] علىٰ فم الساحر أو الكاهن ، فيكذب معها مائة كذبة ، فَيَصْدُقُ ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقًا ؟ للكلمة التي سمعت من السماء » .

ثم ذكر تعالىٰ خلقه الأرض ومده إياها ، وتوسيعها[١٢] وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة .

---

[١] - في خ : « يسمّعون » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في خ : « واسترق » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « إلا » .
[٦] - في ز : « غير » .
[٧] - في ز : « آخر » .
[٨] - في ز : « صفوان » .
[٩] - في ز : « يأتي » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١١] - في ز : « فيلقى » .
[١٢] - في ز : « سعتها » .

و[١] قال ابن عباس : ﴿ من كل شيء موزون ﴾ أي : معلوم . وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبومالك ومجاهد والحكم بن عُتيبة[٢] والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة .

ومنهم من يقول : مقدر بقدر .

وقال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر . وقال ابن زيد : ما [يزنه أهل][٣] الأسواق .

وقوله : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ يذكر تعالىٰ أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب[٤] والمعايش ؛ وهي جمع معيشة .

وقوله : ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال مجاهد : و[٥]هي الدواب والأنعام ، وقال ابن جرير : هم العبيد والإماء والدواب والأنعام .

والقصد : أنه تعالىٰ يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ، ووجوه الأسباب ، وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم علىٰ خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق علىٰ الله تعالىٰ .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالىٰ أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ كما يشاء وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده[٦]، لا علىٰ جهة[٧] الوجوب ، بل هو كتب على

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « قتيبة » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « تزنه » .
[٤] - في ز : « الأصناف » .
[٥] - سقط من خ .
[٦] - في خ : « لعباده » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

نفسه الرحمة .

قال يزيد بن أبي زياد ، عن أبي جحيفة ، عن عبد اللّه : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن اللّه يقسمه [ ][١] حيث شاء ، عامًا هاهنا وعامًا هاهنا . ثم قرأ : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ . رواه ابن جرير(٩) .

وقال أيضا(١٠) : حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين[٢]، حدثنا هشيم ، أخبرنا[٣] إسماعيل بن سالم ، عن الحكم بن عُتيبة[٤]. في قوله : ﴿ **وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ قال : ما عام بأكثر مطرًا من عام ولا أقل ، ولكنه يُمْطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان في البحر . قال[٥]: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من[٦] الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تُنبت .

وقال البزار(١١) : حدثنا داود - هو ابن[٧] بكر التستري - حدثنا حبان[٨] بن أغلب ابن تميم ، حدثني أبي ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « [خزائن الله الكلام ، فإذا أراد شيئًا قال له : كن . فكان »][٩] . ثم قال : لا يرويه إلا أغلب [ولم يكن][١٠] بالقوي ، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ، ولم يروه عنه إلا ابنه .

---

(٨) - صحيح البخاري كتاب : التفسير ، باب : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » (٤٧٠١) ، وأخرجه أبو داود ، كتاب : الحروف والقراءات (٣٩٨٩) ، والترمذي ، كتاب : التفسير ، باب : ومن سورة سبأ (٣٢٢١) ، وابن ماجة في المقدمة (١٩٤) مختصرًا ومطولًا .

(٩) - **إسناده ضعيف لضعف يزيد بن أبي زياد** ، ابن جرير في تفسيره (١٩/١٤) .

(١٠) - ابن جرير في تفسيره (١٩/١٤) ، وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤٩٣/٣) من طريق هشيم به وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٨/٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم .

(١١) - الحديث في « المسند » (١/٢٧٩ ، النسخة الأزهرية) .

وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١٥٥/٢) من طريق حبان به ، وحبان هذا ضعفه أبو حاتم وغيره ، وأبوه أغلب بن تميم ، قال فيه البخاري : منكر الحديث .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « بينهم » .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « أنبأنا » .

[٤] - في ز ، خ : « عيينة » .

[٥] - سقط من : خ .

[٦] - سقط من : خ .

[٧] - في ز « بن موا بن » .

[٨] - في ت : « حيان » .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .

[١٠] - في ت : « ليس » .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي : تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر [فتفتح عن][١] أوراقها وأكمامها ؛ و[٢]هذه الرياح ذكرها[٣] بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ، ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج ؛ لأنه لايكون إلا من[٤] شيئين فصاعدًا .

و[٥]قال الأعمش(١٢) : عن المنهال بن عمرو ، عن قيس بن السكن[٦]، عن عبدالله بن مسعود في قوله : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : لواقح[٧] ترسل[٨] الريح فتحمل[٩] الماء من السماء ، [ثم تمري][١٠] السحاب حتىٰ تذر كما تدر اللقحة .

وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة .

وقال الضحاك : يبعثها الله علىٰ السحاب فتلقحه[١١] فيمتلئ ماء .

وقال عبيد بن عمير الليثي(١٣) : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمًّا[١٢]، ثم يبعث الله المثيرة فتثير [ ][١٣] السحاب ، ثم يبعث الله المؤلِّفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقِّح الشجر . ثم تلا : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ .

وقد روىٰ ابن جرير(١٤) : من حديث عبيس بن ميمون ، عن أبي المهزم ، عن أبي

(١٢) - **إسناده صحيح** ، أخرجه الطبراني في « الكبير » (٩٠٨٠/٩) ، وابن جرير في تفسيره (٢٠/١٤) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٧٩/٤) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في « مكارم الأخلاق » .

(١٣) - أخرجه ابن جرير (٢١/١٤) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٧١٥/٤ ، ٨٢٦) ، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » (١٧٩/٤) .

(١٤) - ابن جرير في تفسيره (٢٢/١٤) ، وأخرجه أيضًا أبو الشيخ في « العظمة » (٨٠٠/٤ ، ٨٠١) ، وابن أبي الدنيا في « كتاب السحاب » ، وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (١٧٩/٤) - وذكره الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٦٢) ، وأبو المهزم هذا متروك كما في « التقريب » .

[١] - ما بين المعكوفتين في خ : « فتنفتح » .
[٢] - سقط من « ت » .
[٣] - في ت : «و ذكرها » .
[٤] - في ت : « بين » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ز ، خ : « المسكين » .
[٧] - سقط من : ت .
[٨] - في ز ، خ : « يرسل » .
[٩] - في خ : « فيحمل » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين في خ : « تمرُّ مرَّ » .
[١١] - في خ : « قد لقحه » .
[١٢] - سقط من : خ .
[١٣] - في ز ، خ : الأرض .

هريرة ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : « الريح الجنوب من الجنة ، [وهي الريح اللواقح][١] وهي التي[٢] ذكر اللّٰه في كتابه ، وفيها منافع للناس » وهذا[٣] إسناد ضعيف .

وقال الإمام أبو بكر عبد اللّٰه بن الزبير الحميدي في مسنده(١٥) : حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرني يزيد بن جُعدبة[٤] الليثي ، أنه سمع عبد الرحمن بن مخراق يحدث عن أبي ذر قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « إن اللّٰه خلق في الجنة ريحًا بعد الريح بسبع[٥] سنين ، وإن من دونها بابًا مغلقًا ، وإنما يأتيكم الريح من خلل ذلك الباب ، ولو فتح لأذرت[٦] ما بين السماء والأرض من شيء ، وهي عند اللّٰه الأذيب[٧]، وهي فيكم الجنوب » .

وقوله : ﴿ **فأسقيناكموه** ﴾ أي : أنزلناه لكم عذبًا يمكنكم أن تشربوا منه ، و[٨] لو نشاء لجعلناه[٩] أجاجًا ، كما ينبه اللّٰه علىٰ ذلك في الآية الأخرىٰ في سورة الواقعة ؛ وهو[١٠] قوله تعالىٰ : ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ * لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون** ﴾ وفي قوله : ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ قال سفيان الثوري : بمانعين .

ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معينًا وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالىٰ لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبًا ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ؛ ليبقىٰ لهم في طول السنة يشربون ويسقون

---

(١٥) - مسند الحميدي رقم (١٢٩) ، وأخرجه أيضًا البخاري في « التاريخ الكبير » (٣٤٧/٥) مختصرًا ، وابن عدي في « الكامل » (٢٧١٨/٧) ، والبزار (١٨٣٦/٢ - مختصر الزوائد) ، وأبو الشيخ في «العظمة» (٨٤٥/٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣٦٤/٣) من طرق عن سفيان به ، ورواه أيضًا ابن أبي شيبة وإسحاق بن راهويه في مسنديهما - كما في « الدر المنثور » (٣٠١/١) وعزاه أيضًا في « الجامع الصغير » إلى الروياني والضياء في « المختارة » ، ويزيد بن جعدبة هذا كذبه البزار والهيثمي في « المجمع » (١٣٨/٨) . والحديث أورده الألباني في « ضعيف الجامع الصغير » (١٦٠٧/٢) وحكم عليه بالوضع .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - سقط من : خ .

[٣] - في خ : « وفي هذا » .

[٤] - في خ : « جعدية » .

[٥] - في ت : « سبع » .

[٦] - في ز ، خ : « لا درب » وهو تحريف .

[٧] - في ز « الأديب » .

[٨] - سقط من : ت .

[٩] - في خ : « جعلناه » .

[١٠] - في ز ، خ : « وهي » .

أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إخبار عن قدرته تعالىٰ علىٰ بدء الخلق وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ، ثم يميتهم ، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع .

وأخبر أنه تعالىٰ يرث الأرض ومن عليها ، وإليه يرجعون[١].

ثم قال تعالىٰ مخبرًا عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم [ ] : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ ، قال[٢] ابن عباس -رضي اللَّه عنهما- : المستقدمون : كل من هلك من لدن آدم عليه السلام . والمستأخرون : من هو حي ومن سيأتي إلىٰ يوم القيامة .

وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم ، وهو اختيار ابن جرير رحمه اللَّه .

وقال ابن جرير(١٦) : حدثنا محمد بن عبد الأعلىٰ ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، [عن رجل][٣]، عن مروان بن الحكم أنه قال : كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء ، فأنزل اللَّه : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ .

وقد ورد [في هذا][٤] حديث غريب جدًّا ؛ فقال[٥] ابن جرير(١٧) :

حدثني[٦] محمد بن موسىٰ الحرشي(*) ، حدثنا نوح بن قيس [ ][٧]، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال : كانت تصلي خلف النبي

---

(١٦) - **مرسل ، وفي إسناده جهالة** ، ابن جرير في تفسيره (٢٦/١٤) .

(١٧) - ابن جرير في تفسيره (٢٦/١٤) ، والحديث أخرجه أحمد (٣٠٥/١) ، والترمذي (٣١٢١) - وأعله بقوله : « وروى جعفر بن سليمان - انظر ما بعده - هذا الحديث عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء نحوه ، ولم يذكر فيه عن ابن عباس ، وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح » - والنسائي (١١٨/٢) ، وفي « التفسير » من الكبرى (١١٢٣٧/٦) ، وابن ماجة (١٠٤٦) ، وصححه ابن خزيمة (١٦٩٦ ، ١٦٩٧) ، وابن حبان (٤٠١/٢) ، والحاكم (٣٥٣/٢) ، ووافقه الذهبي ، وصححه أيضًا الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٤٧٢/٥) فانظره ثمة مع جوابه عن إعلال كل من الترمذي وابن كثير للحديث .

(*) وقع في « المطبوع من تفسير ابن جرير « الحرسى » وهو تصحيف وصوبه العلامة أحمد شاكر في نسخته عند الحديث رقم (٤٣٨٨) .

---

[١] - في خ : « ترجعون » .
[٢] - في ت : فقال .
[٣] - مكانها بياض في ز ، خ : « وقال » .
[٤] - في ز : « أنا » ، خ : « أنبأنا » .
[٥] - في ت : « فيه » .
[٦] - في خ : « وقال » .
[٧] - في ز ، خ : « حدثنا عمرو بن قيس » .

صلىٰ اللَّه عليه وسلم امرأة [ ][١]. قال ابن عباس : لا واللَّه إن[٢] رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا ، يعني : لئلا يروها[٣]، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم ، فأنزل اللَّه : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ .

وكذا[٤] رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره ، ورواه[٥] الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما وابن ماجه : من طرق ، عن نوح بن قيس الحدَّاني ، وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وحكي عن ابن معين تضعيفه ، وأخرج[٦] له مسلم وأهل السنن .

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة ، وقد رواه عبد الرزاق(١٨) ، عن جعفر بن سليمان ، عن عمرو بن مالك - وهو النكري[٧] - أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم** ﴾ : في الصفوف في الصلاة ﴿ **والمستأخرين** ﴾ . فالظاهر[٨] أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ، ليس فيه لابن عباس ذكر . وقد قال الترمذي : هذا أشبه من رواية نوح ابن قيس . واللَّه أعلم .

وهكذا روىٰ ابن جرير(١٩) عن محمد بن أبي معشر ، عن أبيه ، أنه سمع [عون ابن][٩] عبد اللَّه يذاكر [ ][١٠] محمد بن كعب في قوله : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾ أنها[١١] في صفوف الصلاة . فقال محمد بن كعب : ليس هكذا ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم** ﴾ الميت والمقتول ﴿ **والمستأخرين** ﴾ من يخلق بعد ﴿ **وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾ فقال عون بن عبد اللَّه : وفقك اللَّه وجزاك خيرًا .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن

(١٨) - في تفسيره (٣٤٨/٢) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٨٠/٤) إلى ابن المنذر .

(١٩) - **إسناده ضعيف** ؛ لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن ابن جرير في تفسيره (٢٣/١٤) ، وابن أبي حاتم - كما في « الدر المنثور » (١٨١/٤) .

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « حسناء » .
[٢] - في ت : « ما » .
[٣] - في ز ، خ : « يراها » .
[٤] - في ز : « وهكذا » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في ت : « أخرجه » .
[٧] - في ز ، خ : « السكرى » .
[٨] - في ز : « والظاهر » .
[٩] - في خ : « ابن » .
[١٠] - في ز ، خ : عن .
[١١] - في ز ، خ : « وأنها » .

نَارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال هاهنا التراب اليابس .

والظاهر أنه كقوله تعالىٰ : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار** ﴾ .

وعن مجاهد أيضًا : ﴿ **الصلصال** ﴾ المنتن .

وتفسير الآية بالآية أولىٰ .

وقوله : ﴿ **من حمأ مسنون** ﴾ أي : الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون : الأملس ، كما قال الشاعر :

ثم خاصرتها[1] إلىٰ القبة الخضـ ـراء تمشي في مرمر مسنون

أي : أملس صقيل .

ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال : هو التراب الرطب . وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أيضًا : أن الحمأ المسنون هو المنتن . وقيل : المراد بالمسنون هاهنا المصبوب .

وقوله : ﴿ **والجان خلقناه من قبل** ﴾ أي : من قبل الإنسان ﴿ **من نار السموم** ﴾ قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل.

وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار . ومنهم من يقول : السموم بالليل ، والحرور بالنهار .

وقال أبو داود الطيالسي(٢٠) : حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق قال : دخلت علىٰ عمرو[2] الأصم أعوده ، فقال : ألا أحدثك حديثًا سمعته من عبد الله بن مسعود ، يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءًا من السموم التي خلق منها الجان ثم قرأ : ﴿ **والجان خلقناه من**

---

(٢٠) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٠/١٤) حدثنا محمد بن المثنى ، قال : ثنا أبو داود به . وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٩٠٥٧/٩) من طريق أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود به ، وفي إسناده عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف ، وأخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٠٣٥٧) عن معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن عاصم عن ابن مسعود به .

---

[١] - في ز ، خ : « حاصرتها » .

[٢] - في ت : « عمر » .

قبل من نار السموم ﴾ .

وعن ابن عباس : إن الجان خلق من لهب النار . وفي رواية : من أحسن النار .

وعن عمرو بن دينار : من نار الشمس . وقد ورد في الصحيح(٢١) : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم » . [ومقصود][١] الآية : التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة محتده[٢].

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له[٣]، وتشريفه إياه بأمره[٤] الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف[٥] إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة ، حسدًا وكفرًا وعنادًا واستكبارًا وافتخارًا بالباطل ؛ ولهذا قال : **﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾** ، [كقوله : **﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾** ، وقوله][٦]: **﴿ أرأيتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلًا ﴾** الآية .

وقد روى ابن جرير هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا(٢٢) : من حديث شبيب بن بشر ، عن

---

(٢١) - أخرجه مسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : في أحاديث متفرقة (٦٠) (٢٩٩٦) ، وأخرجه أحمد (٢٥٣٠٣) (١٥٣/٦) .

(٢٢) - تفسير ابن جرير (٣١/١٤) .

---

[١] - في ت : « المقصود من » .

[٢] - « والمحتِدُ : الأصلُ ، والطَّبْعُ » . القاموس .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في ت : « بأمر » .

[٥] - في خ : « لخلفا » .

[٦] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « كما قال في الآية الأخرى » .

عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما خلق الله الملائكة ، قال : إني خالق بشرًا من طين ، فإذا أنا خلقته [فاسجدوا له . قالوا : لا نفعل ! فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكةً أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا :][١] [لا نفعل ! فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم][٢] ، [ثم خلق][٣] ملائكة[٤] أخرى[٥] فقال [ ][٦] : [إني خالق بشرًا من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له ؛ قالوا : لا نفعل ! فأرسل عليهم نارًا فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة أخرىٰ ، فقال لهم][٧] [مثل ذلك][٨]، فقالوا[٩]: سمعنا وأطعنا ! إلا إبليس كان من الكافرين الأوّلين .

وفي ثبوت هذا عنه بعد ، والظاهر أنه إسرائيلي ، والله أعلم .

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

[يقول آمرًا][١٠] لإبليس[١١] أمرًا كونيًا لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلىٰ وأنه رجيم ، أي : مرجوم ، وأنه قد أتبعه[١٢] لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلىٰ يوم القيامة .

وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ، ورن رنة فكل رنة في الدنيا إلىٰ يوم القيامة منها . رواه ابن أبي حاتم(٢٣) .

وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له ، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النَّظِرة إلىٰ يوم القيامة ؛ وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلىٰ ذلك استدراجًا له وإمهالًا ، فلما تحقق النظرة قبحه

---

(٢٣) - وأخرجه أيضًا أبو الشيخ في « العظمة » (١١٢٢/٥) ، وابن أبي الدنيا في « مكايد الشيطان » كما في « الدر المنثور » (١٨٥/٤) .

---

[١] - في خ : « ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين قالوا » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز ، كُررت في : خ .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في خ : لهم .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٩] - في ز : « قالوا » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين في ت : « يذكر تعالى أنه أمر » .
[١١] - في خ : « إبليس » .
[١٢] - في ح : « اتبعته » .

اللّٰه .

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن إبليس وتمرده وعتوّه : إنه قال للرب : ﴿ **بما أغويتني** ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء اللّٰه له .

(قلت) : ويحتمل أنه : بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ **لأزينن لهم** ﴾ أي : لذرية آدم عليه السلام ﴿ **في الأرض** ﴾ أي : أحبب إليهم[١] المعاصي ، وأرغبهم فيها ، وأؤزهم إليها ، وأزعجهم إزعاجًا ﴿ **ولأغوينهم أجمعين** ﴾ أي[٢] : كما أغويتني وقدرت عليَّ ذلك ﴿ **أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ كقوله[٣]: ﴿ **أرأيتك هذا الذي كرّمت عليَّ لئن أخرتني إلىٰ يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ .

قال اللّٰه تعالىٰ له متهددًا ومتوعدًا ﴿ **هذا صراط علي مستقيم** ﴾ أي : مرجعكم كلكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم ؛ إن خيرًا فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌّ ، كقوله[٤] تعالىٰ : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ .

وقيل : طريق الحق مرجعها إلىٰ اللّٰه تعالىٰ وإليه تنتهي . قاله مجاهد والحسن وقتادة ، كقوله[٥]: ﴿ **وعلىٰ اللّٰه قصد السبيل** ﴾ .

وقرأ قيس بن عُبَاد[٦] ومحمد بن سيرين وقتادة (هذا[٧] صراط عليٌّ مستقيم) كقوله : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ أي : رفيع ، والمشهور القراءة الأولىٰ .

وقوله : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾ أي : الذين[٨] قدرت لهم الهداية ،

---

[١] - سقط من : ز . [٢] - في خ : « لهم » .
[٣] - [٤] - [٥] - في خ : « كما قال » .
[٦] - في ز ، خ : « عبادة » . [٧] - في ز ، خ : « وهذا » .
[٨] - في خ : « الذي » .

فلا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع .

وقد أورد ابن جرير هٰهنا(٢٤) : من حديث عبد اللّٰه بن المبارك ، عن عبد اللّٰه بن مَوْهَب ، حدثنا يزيد بن قسيط ؛ قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم ، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء خرج إلىٰ مسجده[١] ، فصلىٰ ما كتب اللّٰه له[٢] ، ثم سأل[٣] ما بدا له ، فبينا نبي في مسجده ، إذ جاء عدوّ اللّٰه - يعني : إبليس - حتىٰ جلس بينه وبين القبلة ، فقال النبي : أعوذ باللّٰه من الشيطان الرجيم ! [فقال عدوّ الله : أرأيت الذي تعوذ منه فهو هو . فقال النبي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . قال : فرده][٤] [قال فردد][٥] ذلك ثلاث مرات ، فقال عدوّ اللّٰه : أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟ فقال النبي : بل أخبرني [بأي شيء][٦] تَغْلِبُ ابنَ آدم مرتين ؟ فأخذ كل واحد[٧] منهما[٨] علىٰ صاحبه ، فقال النبي : إن اللّٰه تعالىٰ يقول : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ . قال عدوّ اللّٰه : قد سمعت هذا قبل أن تولد . قال النبي : ويقول اللّٰه[٩] : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ باللّٰه إنه سميع عليم ﴾ وإني واللّٰه ما أحسست بك قط إلا استعذت باللّٰه منك . قال عدوّ اللّٰه : صدقت ! بهذا تنجو مني . فقال النبي : فأخبرني[١٠] بأي شيء تغلب ابن آدم ؟ قال : آخذه عند الغضب و عندالهوى .

وقوله : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي : جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا محيد لهم عنه ، أجارنا اللّٰه منها ! وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بقدر فعله[١١] .

قال إسماعيل بن علية وشعبة ، كلاهما(٢٥) عن أبي هارون الغنوي ، عن حطان بن عبد اللّٰه

(٢٤) - **مرسل** ، ابن جرير في تفسيره (٣٤/١٤) .
(٢٥) - **إسناده صحيح** ، أخرجه ابن جرير (٣٥/١٤) ، وأخرجه أحمد في « الزهد » (ص ١٦٣) ، =

[١] - في ز : « مسجد » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ت : « سأله » .
[٤] - سقط من ز ، خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ت : « » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٧] - سقط من : ز .
[٨] - سقط من : خ .
[٩] - سقط من : ز .
[١٠] - في خ : « أخبرني » .
[١١] - في خ : « عمله » .

أنه قال : سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقًا بعضها فوق بعض .

وقال إسرائيل(٢٦) ، عن أبي إسحاق عن هبيرة بن أبي يَرِيم[١]، عن علي -رضي اللَّه عنه- قال : أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض ، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث ، حتىٰ تملأ كلها .

وقال عكرمة : ﴿ **سبعة أبواب** ﴾ : سبعة أطباق .

وقال ابن جريج[٢]: ﴿ **سبعة أبواب** ﴾ أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

ورواية[٣] الضحاك ، عن ابن عباس نحوه ، وكذا روي[٤] عن الأعمش بنحوه أيضًا .

وقال قتادة : ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ : هي واللَّه منازل بأعمالهم . رواهنّ ابن جرير .

وقال جويبر عن الضحاك : ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ قال : باب [لليهود ، وباب للنصارىٰ][٥]، وباب للصابئين ، وباب للمجوس ، وباب للذين أشركوا : وهم كفار العرب ، وباب للمنافقين ، وباب لأهل التوحيد ، [فأهل التوحيد][٦] يرجى لهم ، ولا يرجى لأولئك أبدًا .

وقال الترمذي(٢٧) : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا عثمان بن عمر ، عن مالك بن مغول ، عن جنيد[٧]، عن ابن عمر ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ؛ قال : « لجهنم سبعة أبواب ؛

= وعلقه البيهقي في « البعث » (٤٦٠) من طريق بشر بن المفضل عن أبي هارون الغنوي به . وأخرجه ابن المبارك (٢٩٤ - زوائد نعيم بن حماد) عن أبي هارون الغنوي بنحوه .

(٢٦) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن جرير (٣٥/١٤) ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٩٢/٨) ، والبيهقي في « البعث » (٤٦٠) من طريقين عن أبي إسحاق بنحوه ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٨٥/٤) إلى هناد وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في « صفة النار » وابن أبي حاتم . وانظر ما قبله .

(٢٧) - « الجامع » للترمذي كتاب : التفسير ، باب : « ومن سورة الحجر » (٣١٢٢) ، وأخرجه =

---

[١] - في ز ، خ : « مريم » .
[٢] - في ز ، خ : « جرير » .
[٣] - في ت : « روى » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٦] - ما بين المعكوفتين في خ : « لليهود والنصارى ، وباب للنصارى » ،وظاهره التكرير .
[٧] - في ز ، خ : « حميد » .

باب منها لمن سل السيف على أمتي ، أو قال[١] : على أمة محمد » .

ثم قال : لا نعرفه إلا من حديث [مالك بن مغول][٢].

وقال ابن أبي حاتم(٢٨) : حدثنا أبي ، حدثنا عباس بن الوليد الخلال ، حدثنا زيد - يعني ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن أبي نضرة ، عن سمرة بن جندب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ **لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ قال : « إن من[٣] أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه ، منازل بأعمالهم ؛ فذلك قوله : ﴿ **لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ » .

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠)

لما ذكر تعالى حال أهل النار ، عطف على[٤] ذكر أهل الجنة ، وأنهم في جنات وعيون .

وقوله: ﴿ **ادخلوها بسلام** ﴾ أي : سالمين من الآفات مسلم عليكم ﴿ **آمنين** ﴾ [من كل][٥] خوف وفزع ، ولا تخشوا[٦] من إخراج ولا انقطاع ولا[٧] فناء .

= البخاري في تاريخه (٢/ ٢٣٥) مختصرًا ، وأحمد (٢/ ٩٤) ، ورجاله ثقات غير جنيد هذا فلم يوثقه غير ابن حبان (٤/ ١١٥) ، ثم إنه لم يسمع من ابن عمر كما قال ابن أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٢/ ٥٢٧) ، وكذا قال ابن حجر في « التقريب » ، والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ١٨٥) إلى ابن مردويه .

(٢٨) - **إسناده ضعيف لضعف سعيد بن بشير ، وهو حديث صحيح** ، فأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : في شدة حر نار جهنم ، وبعد قعرها ، وما تأخذ من المعذبين (٣٢ ، ٣٣) (٢٨٤٥) ، وأحمد (٢٠١٥١) (٥/ ١٠) من طريقين عن قتادة بنحوه .

---

[١] - سقط من : خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين في خ : « مغول بن مالك » . [٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ت : « عليه » .

[٥] - في ت : أي من . [٦] - في ز : « يخشوا » .

[٧] - سقط من : ز ، خ .

وقوله : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانًا علىٰ سرر متقابلين** ﴾ روىٰ القاسم ، عن أبي أمامة قال(٢٩) : يدخل أهل الجنة الجنة علىٰ ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتىٰ إذا توافوا[١] وتقابلوا نزع اللَّه ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ .

هكذا في هذه الرواية ، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف .

وقد روىٰ سُنيد في تفسيره(٣٠) : حدثنا ابن فضالة ، عن لقمان ، عن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتىٰ ينزع اللَّه ما في صدورهم من غل ، حتىٰ ينزع منه مثل السبع الضاري .

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة(٣١) : حدثنا أبو المتوكل الناجي ، أن أبا سعيد الخدري حدثهم ، أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقْتَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا ، حتىٰ إذا هُذّبوا ونُقّوا أُذن لهم في دخول الجنة » .

وقال ابن جرير(٣٢) : حدثنا الحسن ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا هشام ، عن محمد - هو ابن سيرين - قال : استأذن الأشتر علىٰ عليّ رضي اللَّه عنه وعنده ابن لطلحة ، فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال : إني لأراك إنما احتبستني لهذا ؟ قال : أجل . قال : إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني . قال : أجل ، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل [إخوانًا][٢] علىٰ سرر متقابلين** ﴾ .

[وقال ابن جرير أيضًا(٣٣)][٣]: حدثنا[٤] [الحسن ، حدثنا أبو معاوية الضرير ، حدثنا

(٢٩) - أخرجه ابن جرير (٣٦/١٤) ، وابن أبي حاتم وابن مردويه : كما في « الدر المنثور » (١٨٨/٤) .

(٣٠) - **إسناده ضعيف لضعف فرج بن فضالة** ، أخرجه ابن جرير (٣٦/١٤) : وسعيد بن منصور وابن المنذر - كما في « الدر المنثور » (١٨٨/٤) .

(٣١) - تقدم تخريجه [سورة الأعراف/ آية ٤٢] .

(٣٢) - **إسناده منقطع بين محمد بن سيرين وعليّ وهو صحيح** ومن طريق سنيد أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٧/١٤) ، وانظر ما بعده .

(٣٣) - ابن جرير في تفسيره (٣٧/١٤) ، وأخرجه أيضًا ابن سعد في « الطبقات » (١٦٨/٣) وعلقه الذهبي في « السير » (٣٨/١) من طريق أبي معاوية به ، ورجاله ثقات معروفون غير أبي حبيبة هذا فلم أقف على =

[١] - في خ : تكافوا .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « ويجعلنا » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - سقط من : ز .

أبو مالك الأشجعي ، عن أبي حبيبة - مولىٰ لطلحة - قال : دخل عمران بن طلحة علىٰ علي رضي اللَّه عنه ، بعد ما فرغ من أصحاب الجمل ، فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني اللَّه][١] وأباك[٢] [من الذين قال اللَّه : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا علىٰ سرر متقابلين** ﴾][٣] . قال ورجلان جالسان علىٰ[٤] ناحية البساط ، فقالا : اللَّه أعدل من ذلك ، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانًا ! فقال علي - رضي اللَّه عنه - : قوما أبعدَ أرض وأسحقها فمن هم[٥] إذن إن لم أكن أنا وطلحة ؟ وذكر أبو معاوية الحديث بطوله .

ورویٰ وكيع(٣٤) ، عن أبان بن عبد اللَّه البجلي ، عن نعيم بن أبي هند ، عن ربعي بن حِرَاش ، عن علي نحوه ، وقال فيه : فقام رجل من همدان فقال : اللَّه أعدل من ذلك[٦] يا أمير المؤمنين . قال : فصاح به عليٌّ صيحة ، فظننت أن القصر قد[٧] تدهده لها ، ثم قال : إذا لم نكن[٨] نحن فمن هم[٩]؟ .

وقال سعيد بن مسروق ، عن أبي[١٠] طلحة فذكره[١١]، وفيه : فقال الحارث الأعور ذلك ، فقام إليه علي رضي اللَّه عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه ، وقال : فمن هم يا أعور إذا لم نكن نحن ؟ .

وقال سفيان الثوري(٣٥) : عن منصور ، عن إبراهيم قال : جاء[١٢] ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن علىٰ علي رضي اللَّه عنه ، فحجبه طويلًا ثم أذن له[١٣]، فقال له : أما أهل البلاء فتجفوهم ! فقال علي : بفيك التراب ! إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال اللَّه :

= من وثقه ، إلا أن البخاري ذكره في « الكنى » من تاريخه (ص٢٤) وقال : « سمع عليًّا روى عنه سعد بن طارق وطلحة بن يحيى » ، ويشهد له ما قبله وما يأتي .

(٣٤) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٧/١٤) حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي به ، وابن وكيع ، وهو سفيان ضعيف ، ولكنه متابع عند الحاكم (٣٥٣/٢ - ٣٥٤)، وابن سعد في « الطبقات » (١٦٩/٣) .

(٣٥) - **إسناده ضعيف لضعف سفيان بن وكيع** ؛ أخرجه ابن جرير (٣٧/١٤) حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي ، عن سفيان به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٢] - سقط من : ز ، في خ : « وإياك » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٤] - في ز : « إلى » .

[٥] - في ز ، خ : « هو » .

[٦] - في ز : « ذاك » .

[٧] - سقط من : ز ، خ .

[٨] - في خ : « تكن » .

[٩] - في ز ، خ : « وهو » .

[١٠] - في ز : « ابن » .

[١١] - في خ : « وذكره » .

[١٢] - سقط من : ز ، خ .

[١٣] - سقط من : خ .

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا علىٰ سرر متقابلين ﴾ .

وكذا روىٰ الثوري(٣٦) ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه عن علي بنحوه .

وقال سفيان بن عيينة(٣٧) عن إسرائيل ، أبي موسىٰ ، سمع الحسن البصري يقول : قال علي : فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية : **﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا علىٰ سرر متقابلين ﴾** .

وقال كثير النوَّاء(٣٨)[١]: دخلت علىٰ أبي جعفر محمد بن علي فقلت : وليي وليكم ، وسلمي سلمكم ، وعدوي عدوكم ، وحربي حربكم ، إني[٢] أسألك بالله ، أتبرأ من أبي بكر وعمر ؟ فقال : **﴿ قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين ﴾** تولّهما يا كثير ، فما أدركك فهو في رقبتي هذه . ثم تلا هذه الآية **﴿ إخوانًا علىٰ سرر متقابلين ﴾** قال : أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم - أجمعين .

وقال الثوري(٣٩) ، عن رجل[٣]، عن أبي صالح في قوله : **﴿ إخوانا علىٰ سرر متقابلين ﴾** قال : هم عشرة ؛ أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - أجمعين .

وقوله : **﴿ متقابلين ﴾** قال مجاهد : لا ينظر بعضهم في قفا بعض .

وفيه[٤] حديث مرفوع ؛ قال ابن أبي حاتم(٤٠) :

حدثنا يحيىٰ بن عبدك القزويني ، حدثنا حسان بن حسان ، حدثنا إبراهيم بن بشر ،

---

(٣٦) - **كسابقه** ، أخرجه ابن جرير من طريق ابن وكيع أيضًا .

(٣٧) - **إسناده منقطع بين الحسن البصري وعلي** ، تقدم تخريجه [سورة الأعراف/ آية ٤٣] .

(٣٨) - **إسناده ضعيف لضعف كثير النواء** ، وأخرجه ابن جرير (١٤/٣٨) ، وابن أبي حاتم وابن عساكر - كما في « الدر المنثور » (٤/١٨٨) .

(٣٩) - **إسناده فيه جهالة** ، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم - كما في « الدر المنثور » (٤/١٨٩) .

(٤٠) - أخرجه البخاري في « التاريخ الصغير » (١/٢٥٠) ، وفي « الكبير » (٣/٣٨٦) بهذا الإسناد ، وقال البخاري في « الصغير » : هذا إسناد مجهول ، لا يتابع عليه ، ولا يُعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم ، عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبي أوفى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا اصل =

---

[١] - في ز ، خ : « الفراء » .
[٢] - في ت : « أنا » .
[٣] - في خ : « زحر » .
[٤] - في ز : « في » .

حدثنا يحيىٰ بن معين[١]، عن إبراهيم القرشي[٢]، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم فتلا هذه الآية: ﴿ **إخوانا علىٰ سرر متقابلين** ﴾ «في اللّٰه ينظر بعضهم إلىٰ بعض».

وقوله: ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ يعني: المشقة والأذىٰ، كما جاء في الصحيحين(٤١): «إن اللّٰه أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

وقوله: ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ كما جاء في الحديث(٤٢): «يقال: يا أهل الجنة؛ إن لكم أن تصحُّوا فلا تمرضوا أبدًا، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا[٣] أبدًا». وقال اللّٰه تعالىٰ: ﴿ **خالدين فيها لا يبغون عنها حولًا** ﴾.

وقوله: ﴿ **نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عقاب[٤] أليم.

وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة علىٰ مقامي الرجاء والخوف، وذكر في

= له، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥/٥١٤٦)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/٢٧٨) من طريق عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبي أوفى مطولًا، وقال ابن السكن - كما في الإصابة (٤/ ٤٠) -: «روي حديثه من ثلاث طرق، ليس فيها ما يصح»، ورواه أيضًا أبو القاسم البغوي وابن مردويه وابن عساكر - كما في «الدر المنثور» (٤/١٨٩).

(٤١) - **صحيح بمعناه**، وليس بهذا اللفظ، أخرجه البخاري، كتاب: العمرة، باب: متى يحل المعتمر؟ .. (١٧٩٢)، كتاب المناقب، باب: تزويج النبي - صلى الله عليه وسلم - خديجة وفضلها - رضي الله عنها - (٣٨١٩)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها - (٧٢) (٢٤٣٣) من حديث عبد الله بن أبي أوفى، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة عندهما أيضًا، وعن عبد الله بن جعفر - بنحو اللفظ الذي أورده ابن كثير - عند أحمد (١/٢٠٥) وصححه ابن حبان (١٥/٧٠٠٥)، والحاكم (٣/١٨٥) ووافقه الذهبي، وإسناده جيد.

(٤٢) - أخرجه أحمد (٣/٣٨) (١١٣٤٨)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: في دوام نعيم أهل الجنة (٢٢) (٢٨٣٧)، والترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر (٣٢٤١)، والنسائي في «التفسير» من الكبرى، باب: سورة الأعراف (٦/١١١٨٤) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بنحوه، دون قوله «وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدًا».

[١] - في ز: معن.
[٢] - في ز، خ: «القومسى».
[٣] - في ز: «تضعنوا».
[٤] - في ت: «عذاب».

سبب نزولها : ما رواه موسىٰ بن عبيدة ، عن [مصعب بن ثابت][١] قال : مر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ ناس من أصحابه . يضحكون ، فقال : « اذكروا الجنة واذكروا النار » . فنزلت : ﴿ **نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ . رواه ابن أبي حاتم(٤٣) وهو مرسل .

وقال ابن جرير(٤٤) : حدثني المثنى ، حدثنا إسحاق ، أخبرنا ابن المكي ، أخبرنا ابن المبارك ، أخبرنا[٢] مصعب بن ثابت ، حدثنا عاصم بن عبيد الله ، عن ابن أبي رباح ، عن رجل من أصحاب النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : طلع علينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من[٣] الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ، فقال : « ألا أراكم تضحكون ». ثم أدبر حتىٰ إذا كان عند الحجر ، رجع إلينا القهقرى فقال : « إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إن الله يقول لِمَ[٤] تقنط عبادي ﴿ **نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم** ﴾ » .

وقال سعيد(٤٥)[٥]، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ **نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم** ﴾ قال : بلغنا أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لَمَا تورع من حرام ، ولو يعلم [ ][٦] قدر [عقابه][٧] لبخع نفسه » .

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ

(٤٣) - **مرسل ، وإسناده ضعيف** ، وموسى بن عبيدة ضعيف ، ومصعب بن ثابت وهو ابن عبد الله بن الزبير لين الحديث ، وأخرجه أيضًا ابن المنذر كما في « الدر المنثور » (١٨٩/٤) .

(٤٤) - **إسناده ضعيف مضطرب** ، ابن جرير في تفسيره (٣٩/١٤) وهو في « الزهد » لابن المبارك (٨٩٢) ، ومصعب بن ثابت لين كما تقدم ، ثم إنه اضطرب فيه فرواه مرسلًا - كما في السابق - وأسنده مرة أخرى إلى جده عبد الله بن الزبير ، أخرجه البزار في مسنده (٢٢١٦/٦) ، والطبراني - كما في « المجمع » (٤٨/٧ - ٤٩) ، وقال : « فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف » ، وقال البزار ، وهذا الحديث لا نعلم أحدًا يرويه بهذا اللفظ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا ابن الزبير ، ولا نعلم له طريقًا إلا هذا الطريق ولا نعلم أن مصعب بن ثابت سمع من ابن الزبير .

(٤٥) - **مرسل** ، أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣٩/١٤) ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » (١٩٠/٤) .

[١] - في ز ، خ : « ثابت بن مصعب » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز ، خ : « في » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ت : « شعبة » .
[٦] - في ت : العبد .
[٧] - في خ : « عذاب الله » .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾

يقول تعالىٰ : وخبرهم[١] يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم - والضيف يطلق علىٰ الواحد والجمع كالزور والسفر ، وكيف دخلوا عليه ﴿ **فقالوا سلامًا قال إنا منكم وجلون** ﴾ أي : خائفون .

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأىٰ أيديهم لا تصل إلىٰ ما قربه لهم من ضيافة[٢] : وهو العجل السمين الحنيذ .

﴿ **قالوا لا توجل** ﴾ أي : لا تخف ﴿ **وبشروه بغلام عليم** ﴾ وهو[٣] إسحاق عليه السلام ،كما تقدم في سورة هود .

[فـ﴿ قال ﴾][٤] متعجبًا من كبره وكبر زوجته ، ومتحققًا للوعد ﴿ **أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون** ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا ، وبشارة بعد بشارة ﴿ **قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين** ﴾ وقرأ بعضهم (القَنِطين) ، فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾

يقول تعالىٰ إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرىٰ : إنه شرع يسألهم عما جاءوا له ، فقالوا : ﴿ **إنا أرسلنا إلىٰ قوم مجرمين** ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المُهلكين ، ولهذا قالوا : ﴿ **إلا امرأته**

[١] - في خ : « وأخبرهم » .
[٢] - في خ : « الضيافة » .
[٣] - في خ : «أي » .
[٤] - في ت : «ثم قال ﴾ » ، خ : « قال » .

قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي : الباقين المهلكين .

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالىٰ عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه ، فدخلوا عليه داره ، قال : **﴿ إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾** يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم ، الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم **﴿ وأتيناك بالحق ﴾** كقوله[١] تعالىٰ : **﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾** .

وقوله[٢]: **﴿ وإنا لصادقون ﴾** تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالىٰ عن الملائكة : أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم .

وهكذا كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يمشي في الغزاة ، بما [ ][٣] يكون ساقة يزجي[٤] الضعيف ، ويحمل المنقطع .

وقوله : **﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾** أي : إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال **﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾** كأنه كان معهم من يهديهم[٥] السبيل .

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أي : تقدمنا إليه في هذا **﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾** أي : وقت الصباح ، كقوله[٦] في الآية الأخرىٰ : **﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾** .

---

[١] - في خ : « كما قال » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز : كان .
[٤] - في ز : « يرجي » .
[٥] - في ز : « تهديهم » .
[٦] - في خ : « كما قال » .

وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالىٰ عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ **قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون** ﴾ .

وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله ، كما [ ][١] في سياق[٢] سورة هود ، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله ، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم ، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولا سيما إذا دلَّ دليل علىٰ خلافه ، فقالوا له مجيبين : ﴿ **أو لم ننهك عن العالمين** ﴾ أي : أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا ؟ فأرشدهم إلىٰ نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح[٣] القول في ذلك بما أغنىٰ عن إعادته .

هذا كله ، وهم غافلون عما يراد بهم ، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالىٰ لنبيه[٤] صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ أقسم تعالىٰ بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع ، وجاه عريض .

قال عمرو بن مالك النكري[٥] ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلىٰ الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالىٰ : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ [ ][٦]. رواه ابن جرير(٤٦) .

(٤٦) - **إسناده حسن** ، ابن جرير في تفسيره (٤٤/١٤) حدثني المثنى ، قال : ثنا مسلم بن إبراهيم : ثنا سعيد بن زيد ، قال : ثنا عمرو بن مالك به . ومن طريق سعيد بن زيد أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٥/ ٤٨٧ - ٤٨٨) ، والحارث بن أبي أسامة (٩٣٨ - الزوائد) ، ومن طريقه أبي نعيم في « الدلائل » (ص ٢٦ - ٢٧) ، وأخرجه ابن جرير وأبو يعلى (٢٧٥٤/٥) ، وأبو نعيم من طرق ثلاثة عن عمرو بن مالك به ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٩٢/٤) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

[١] - في خ : قال .
[٢] - سقط من خ .
[٣] - في ز ، خ : « أيضًا » .
[٤] - في ت : « لمحمد » .
[٥] - في ز : « البكري » .
[٦] - في ت : [يقول : وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾] .

وقال قتادة : ﴿ **في سكرتهم** ﴾ أي : في ضلالتهم ﴿ **يعمهون** ﴾ أي : يلعبون .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **لعمرك** ﴾[١] لعيشك ﴿ **إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾ قال : يتمادون[٢].

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ وهي ما جاءهم [ ][٣] من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلىٰ عنان السماء ، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم ، وقد تقدم الكلام علىٰ السجيل في هود بما فيه كفاية .

وقوله[٤]: ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ أي أن آثار هذه النقم الظاهرة علىٰ تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ **للمتوسمين** ﴾ قال : المتفرسين .

وعن ابن عباس والضحاك : للناظرين . وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : ﴿ **للمتوسمين** ﴾ للمتأملين .

وقال ابن أبي حاتم(٤٧) : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير العبدي ، عن عمرو بن قيس ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور اللَّه » . ثم قرأ النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ .

رواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس الملائي ، وقال الترمذي : لا نعرفه إلا

---

(٤٧) - **إسناده ضعيف ، لضعف عطية العوفي** ، وأخرجه الترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الحجر (٣١٢٥) وابن جرير (٤٦/١٤) وغيرهم - انظر « الضعيفة » للألباني (١٨٢١/٤) - من طريق عمرو بن قيس به .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز : « يتميرون » وفي خ : يتجبرون .

[٣] - في خ : به .

[٤] - مكانها بياض في ز ، سقط من : خ .

من هذا الوجه .

وقال ابن جرير أيضًا(٤٨) : حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا الفرات بن السائب ، حدثنا ميمون بن مهران ، عن ابن[١] عمر قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإن المؤمن ينظر بنور اللَّه** » .

وقال ابن جرير(٤٩) : حدثني أبو شرحبيل الحمصي ، حدثنا سليمان بن سلمة ، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي ، حدثنا أبو المعلىٰ أسد بن وداعة الطائي ، حدثنا وهب ابن منبه ، عن طاوس بن كيسان ، عن ثوبان قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **احذروا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور اللَّه وينطق[٢] بتوفيق اللَّه** » .

وقال أيضًا(٥٠) : حدثنا عبد الأعلىٰ بن واصل ، حدثنا سعيد بن محمد الجَرْمي ، حدثنا عبد الواحد بن واصل ، حدثنا أبو بشر المزَلِق ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : قال النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم** » .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار(٥١) : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي ، حدثنا أبو بشر - يقال له : ابن المزلقي[٣] ، قال : وكان ثقة - عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم** » .

وقوله : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ أي : وإن قرية سدوم التي[٤] أصابها [ما أصابها][٥] من القلب الصوري والمعنوي ، والقذف بالحجارة حتىٰ صارت بحيرة[٦] منتنة خبيثة - لطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلىٰ اليوم ، كقوله : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا**

(٤٨) - **إسناده ضعيف جدًّا من أجل الفرات بن السائب** ، ابن جرير في تفسيره (١٤/٤٦) ، وأخرجه أيضًا أبو نعيم في « الحلية » (٤/٩٤) من طريق فرات بن السائب به ، وقال : « غريب من حديث ميمون لم نكتبه إلا من هذا الوجه » . والفرات بن السائب ، قال فيه البخاري « التاريخ الكبير » (٧/١٣٠) : « تركوه ، منكر الحديث » .

(٤٩) - **إسناده واهٍ جدًّا** ، ابن جرير في تفسيره (١٤/٤٦ - ٤٧) ، وفيه ثلاث علل - انظرها في «الضعيفة» للألباني (٤/٣٠١/١٨٢١) .

(٥٠) - **إسناده حسن** ، في تفسيره (١٤/٤٦) ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » (٤/١٦٩٣) .

(٥١) - **كسابقه** ، (٢/٢٣٠٢ - مختصر الزوائد) .

[١] - سقط من : خ .

[٢] - سقط من : ز ، خ .

[٣] - في خ : « المزلق » .

[٤] - في ز ، خ : « الذي » .

[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .

[٦] - في ز ، خ : « بحره » .

تعقلون وإن يونس لمن المرسلين ﴾ .

وقال مجاهد والضحاك : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ قال : معلم . وقال قتادة : بطريق واضح . وقال قتادة أيضًا : بصقع من الأرض واحد .

وقال السدي : بكتاب مبين . يعني كقوله : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ ، ولكن ليس المعنىٰ علىٰ ما قال ههنا ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أي : إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطًا وأهله ، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب . قال الضحاك وقتادة وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف .

وكان ظلمهم : بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط ، بعدهم في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وإنهما لبإمام مبين** ﴾ أي : طريق مبين .

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره[١]: طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم : ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أصحاب الحجر : هم ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيهم عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين[٢]، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين .

وذكر تعالىٰ أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم علىٰ صدق ما جاءهم به صالح ؛ كالناقة التي

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في خ : « الرسل » .

أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، فكانت[١] تسرح في بلادهم ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ **تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ** ﴾ ، وذكر تعالىٰ أنهم : ﴿ **كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين** ﴾ أي : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وهو ذاهب إلىٰ تبوك ، فقنع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم »(٥٢) .

وقوله : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين** ﴾ أي : وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ **فما أغنىٰ عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أي : ما كانوا يستغلونه[٢] من زروعهم وثمارهم ، التي ضنوا بمائها عن الناقة حتىٰ عقروها ؛ لئلا تضيق[٣] عليهم في المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ، ولا نفعتهم[٤] لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية** ﴾ أي : بالعدل ﴿ **ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزئ الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالىٰ الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ ثم أخبر نبيه بقيام الساعة ، وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره[٥] بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له ، وتكذيبهم ما جاءهم به ، كقوله[٦]: ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون** ﴾ قال[٧] مجاهد وقتادة وغيرهما : كان هذا قبل القتال . وهو كما قالا ، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة .

---

(٥٢) - تقدم تخريجه [سورة الأعراف/ آية ٧٣] .

[١] - في خ : « وكانت » .
[٢] - في ز : « يشتغلونه » .
[٣] - في ز : « يضيق » .
[٤] - في ز : « تنفعهم » .
[٥] - في ز ، خ : « أمر » .
[٦] - في خ : « كما قال تعالى » .
[٧] - في خ : وقال .

وقوله : ﴿ **إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾ تقرير للمعاد ، وأنه تعالىٰ قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق [ما يشاء][١]، وهو العليم بما تمزق من الأجساد ، وتفرق في سائر أقطار الأرض ، كقوله[٢]: ﴿ **أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر علىٰ أن يخلق مثلهم بلىٰ وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

يقول تعالىٰ لنبيه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرنَّ إلىٰ الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، [فلا تغبطهم بما هم فيه][٣]، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، حزنًا عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ﴿ **واخفض جناحك [لمن اتبعك] من المؤمنين** ﴾ أي : ألن لهم جانبك ، كقوله[٤]: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ .

وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؛ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك و[غير واحد][٥]: هي السبع الطول[٦] . يعنون : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير .

وقال سعيد[٧]: بين فيهنّ الفرائض والحدود والقصص والأحكام .

وقال ابن عباس : بين الأمثال والخبر والعبر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر قال : قال سفيان : المثاني المثنى[٨]، البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال وبراءة سورة واحدة .

قال ابن عباس(٥٣) : ولم يعطهن أحد إلا النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ، وأعطي موسىٰ

---

(٥٣) - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٢/١٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٢٣٥٧/٢) من =

---

[١] - في ت : «شيء » .

[٢] - في خ : « كما قال تعالى » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - في خ : « كما قال تعالى » .

[٥] - في ت : « وغيرهم » .

[٦] - في ت : « الطوال » .

[٧] - في ز ، خ : « شعبة » .

[٨] - في خ : « المبين » .

منهن ثنتين . رواه هشيم[١]، عن الحجاج ، عن الوليد بن العيزار[٢]، عن سعيد بن جبير عنه .

[وقال الأعمش(٥٤) ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس][٣] قال : أوتي النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم سبعًا من المثاني : الطُّول[٤]، وأوتي موسىٰ عليه السلام ستًّا ، فلما ألقىٰ الألواح ارتفع اثنتان وبقيت[٥] أربع .

وقال مجاهد(٥٥) هي السبع الطُّول[٦]. ويقال : هي القرآن العظيم .

وقال خصيف(٥٦) ، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالىٰ : ﴿ **سبعًا من المثاني** ﴾ قال : **أعطيتك** سبعة[٧] أجزاء ؛ آمر وأنهى وأبشر وأنذر وأضرب الأمثال وأعدد النعم وأنبئك بنبأ القرآن . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

(والقول الثاني) : أنها الفاتحة وهي سبع آيات ، روي ذلك عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس ، وقال[٨] [ابن عباس][٩]: والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم اللّٰه بها(٥٧) . وبه قال إبراهيم النخعي وعبد اللّٰه بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد .

= طريق عمرو ابن عون عن هشيم به . والحجاج هو ابن أرطأة وهو ضعيف ، لكن له إسنادٌ آخر بلفظ آخر هو الآتي .

(٥٤) - **صحيح** ، أخرجه أبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : من قال هي من الطول (فاتحة الكتاب) (١٤٥٩) ، والنسائي ، كتاب : الافتتاح ، باب : تأويل قول الله عز وجل : ﴿ **ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ (١٣٩/٢ - ١٤٠) ، وفي « الكبرى » (٩٧٨) مختصرًا وابن جرير (٥٢/١٤) والحاكم (٣٥٤/٢ ، ٣٥٥) والبيهقي في « الشعب » (٢٤١٦/٢) من طرق عن جرير عن الأعمش به ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

(٥٥) - أخرجه ابن جرير (٥٣/١٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٤١٩/٢) ، وابن أبي شيبة وابن المنذر - كما في « الدر المنثور » (١٩٧/٤) .

(٥٦) - أخرجه ابن جرير (٥٧/١٤) ، وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (١٩٧/٤) إلى سعيد بن منصور - ومن طريقه أخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٤٢١/٢) - وابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٥٧) - أخرجه ابن جرير (٥٥/١٤) ، والبيهقي في « الكبرى » (٤٧/٢ - ٤٨) ، وصححه الحاكم (٢/ ٢٥٧) ، ووافقه الذهبي ، وفي إسناده عبد العزيز بن جريج وهو « ليِّن » كما في « التقريب » .

[١] - في خ : « ابن هشيم » .

[٢] - في خ : « القيثرار » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[٤] - في ت : « الطوال » .

[٥] - في ت : «بقي » .

[٦] - في ت : « الطوال » .

[٧] - في ز : « سبع » .

[٨] - مكانها بياض في ز ، سقط من : خ .

[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

وقال[١] قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين[٢] في كل [٣] قراءة [وفي رواية : في كل][٤] ركعة مكتوبة أو تطوّع .

واختاره ابن جرير ، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك ، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير وَ الحمد .

وقد أورد البخاري رحمه الله تعالىٰ هٰهنا حديثين : (أحدهما) قال(٥٨) :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن خُبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المعلىٰ قال : مر بي النبي صلىٰ الله عليه وسلم وأنا أصلي فدعاني ، فلم آته حتىٰ صليت [ثم أتيت][٥]، فقال : « ما منعك أن تأتي ؟ » فقلت : كنت أصلي . فقال : « ألم يقل الله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ ؟ » ثم قال : « ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد » . فذهب النبي صلىٰ الله عليه وسلم ليخرج فذكرته[٦] فقال : « ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

(الثاني) قال(٥٩) : حدثنا آدم ، حدثنا ابن أبي ذئب ، حدثنا المقبري ، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » .

فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافي وصف[٧] غيرها من السبع الطول[٨] بذلك ؛ لما فيها من هذه[٩] الصفة ، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله

(٥٨) - صحيح البخاري كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ (٤٧٠٣) ، وانظره بأطرافه عند رقم (٤٤٧٤) ، وأخرجه أيضًا أبو داود (١٤٥٨) ، والنسائي (١٣٩/٢) ، وابن ماجة (٣٧٨٥) ، وأحمد (٤٥٠/٣) ، (٢١١/٤) من طرق عن شعبة به نحوه .

(٥٩) - كتاب : التفسير ، ب : ﴿ **ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم** ﴾ (٤٧٠٤) ، وأخرجه أبو داود (١٤٥٧) ، والترمذي (٣١٢٣) ، وأحمد (٤٤٨/٢) من طرق ابن أبي ذئب به .

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز : « ثنتين » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، « ثم أتيته » ، خ : « فأتيته » .
[٦] - في ز : « فذكرت » .
[٧] - في خ : « نص » .
[٨] - في ت : « الطوال » .
[٩] - سقط من : ز ، خ .

بذلك أيضًا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **اللَّه نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني** ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضًا كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ فأشار إلىٰ مسجده(٦٠) ، والآية نزلت في مسجد قباء فلا تنافي ، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة ، واللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ **لا تمدنّ عينيك إلىٰ ما متعنا به أزواجًا منهم** ﴾ أي : استغن بما آتاك اللَّه من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية .

ومن هاهنا ذهب ابن عيينة إلىٰ تفسير الحديث الصحيح(٦١) : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » إلىٰ أنه يستغنىٰ به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير .

وقال ابن أبي حاتم(٦٢) : ذكر عن وكيع بن الجراح ، حدثنا موسىٰ بن عبيدة ، عن يزيد بن [عبد اللَّه][١] بن قسيط ، عن أبي رافع صاحب النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : ضاف[٢] النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم ضيف ، ولم يكن عند النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم شيء[٣] يصلحه ، فأرسل إلىٰ رجل من اليهود : « يقول لك محمد رسول اللَّه : أسلفني دقيقًا إلىٰ هلال رجب » . قال : لا ، إلا برهن . فأتيت النبي صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم فأخبرته[٤] فقال : « أما واللَّه إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني

(٦٠) - صحيح البخاري أخرجه مسلم ، كتاب : الحج ، باب : بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة (٥١٤) (١٣٩٨) ، والترمذي ، كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في المسجد الذي أسس على التقوى (٣٢٣) ، وكتاب : تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة التوبة » (٣٠٩٩) ، والنسائي ، كتاب : المساجد ، ب : ذكر المسجد الذي أسس على التقوى (٣٦/٢) ، وأحمد (١١٠٦٠) (٨/٣) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٦١) - أخرجه البخاري ، كتاب : التوحيد ، باب : قول الله تعالى : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به ...** ﴾ (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أبو داود (١٤٦٩ ، ١٤٧٠) ، وأحمد (١٧٥/١ ، ١٧٩) ، وصححه ابن حبان (١٢٠/١) ، والحاكم (٥٦٩/١) ، ووافقه الذهبي ، من حديث سعد بن أبي وقاص . وقول سفيان هذا علقه البخاري في صحيحه عقب الحديث رقم (٥٠٢٤) .

(٦٢) - **ضعيف** ، وأخرجه ابن جرير (٢٣٥/١٦) ثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبي به ، والطبراني في « الكبير » (٩٨٩/١) من طريق موسى بن عبيدة به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٢٩/٤) وقال : « رواه =

[١] - في ز : « عبيد الله » ، خ : « أبي عبد الله » .

[٢] - في ز ، خ : « أضاف » .

[٣] - في ز ، خ : « أمرا » .

[٤] - سقط من : ز ، خ .

أو باعني لأؤدين[١] إليه » . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية : ﴿ **لا تمدنّ عينيك إلىٰ ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾ إلىٰ آخر الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا .

و[٢] قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **لا تمدنّ عينيك** ﴾ قال : نهىٰ الرجل أن يتمنىٰ مال صاحبه .

وقال مجاهد : ﴿ **إلىٰ ما متعنا به أزواجًا منهم** ﴾ هم الأغنياء .

وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٣)

يأمر تعالىٰ نبيه صلىٰ اللَّه عليه وسلم بأن[٣] يقول للناس : [أنه][٤] النذير المبين البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم علىٰ تكذيبه ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل اللَّه عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : ﴿ **المقتسمين** ﴾ أي : المتحالفين ، أي : تحالفوا علىٰ مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، كقوله تعالىٰ إخبارًا عن قوم صالح أنهم : ﴿ **قالوا تقاسموا باللَّه لنبيتنه وأهله** ﴾ الآية ، أي : نقتلهم ليلًا ، قال مجاهد : تقاسموا : تحالفوا . ﴿ **وأقسموا باللَّه جهد أيمانهم لا يبعث اللَّه من يموت** ﴾ ، ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ . ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم اللَّه برحمة** ﴾ فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء [من الدنيا][٥] إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون[٦] أصحاب صالح الذين تقاسموا باللَّه لنبيتنه وأهله .

= الطبراني في « الكبير » والبزار وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف » ، وتابعه محمد بن كثير - وهو المصيصي - عن عبد اللَّه بن واقد عن يعقوب بن يزيد عن أبي رافع به . ويعقوب بن يزيد هذا لم أقف له علىٰ ترجمة ولعله محرف من « يعقوب بن زيد » فإن كان هذا الأخير فإن الإسناد منقطع . واللَّه تعالىٰ أعلم .

---

[١] - في ز : « لأدّين » .
[٢] - سقط من خ .
[٣] - في خ : « أن » .
[٤] - في ت : « إني أنا » .
[٥] - سقط من ز .
[٦] - في ت : « المقتسمين » .

وفي الصحيحين(٦٣) : عن أبي موسىٰ ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني اللَّه به ؛ كمثل رجل أتىٰ قومًا ، فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا[١] النذير العريان ، فالنجاء النجاء[٢]، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجَوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق » .

وقوله : ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ أي : جزءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

قال البخاري(٦٤) : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أنبأنا أبو بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **جعلوا القرآن عضين** ﴾ قال : هم أهل الكتاب جَزَّءوه أجزاء ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

حدثنا عبيد اللَّه بن موسىٰ ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس ﴿ **جعلوا القرآن عضين** ﴾ قال : هم أهل[٣] الكتاب جزَّءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه(٦٥) .

حدثنا عبيد اللَّه بن موسىٰ ، عن الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس [ ][٤]: ﴿ **كما أنزلنا علىٰ المقتسمين** ﴾ قال[٥]: آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارىٰ(٦٦) .

قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم مثل[٦] ذلك .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ **جعلوا القرآن عضين** ﴾ قال : السحر .

---

(٦٣) - أخرجه البخاري ، كتاب : الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب : الاقتداء بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٧٢٨٣) ، وكتاب : الرقاق ، باب : الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢) ، ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : شفقته - صلى الله عليه وسلم - على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (١٦) (٢٢٨٣) .

(٦٤) - صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ (٤٧٠٥) .

(٦٥) - لم أقف عليه في « الصحيح » هكذا كما أورده ، وانظر ما بعده .

(٦٦) - أخرجه البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : قوله : ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ (٤٧٠٦) .

---

[١] - مكرر في ز .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ت : « قالوا » .
[٦] - في ت : « نحو » .

وقال عكرمة : العضة السحر بلسان قريش ، يقول للساحرة : إنها العاضهة[١].

وقال مجاهد : عضوه أعضاء ، قالوا : سحر[٢] ! و[٣]قالوا : كهانة ! وقالوا : أساطير الأولين !

وقال عطاء : قال بعضهم : ساحر ! وقالوا : مجنون ! وقالوا : كاهن ! فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وغيره .

وقال محمد بن إسحاق(٦٧) ، عن محمد بن أبي محمد ، عن [عكرمة أو سعيد بن جبير][٤]، عن ابن عباس : أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا شرف فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا . فقالوا : وأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيًا نقول به . قال : بل أنتم قولوا لأسمع . قالوا : نقول كاهن ؟ قال[٥]: ما هو بكاهن . قالوا : فنقول مجنون ؟ قال : ما هو بمجنون . قالوا : فنقول شاعر ؟ قال : ما هو بشاعر . قالوا : فنقول ساحر ؟ قال : ما هو بساحر . [قالوا : فماذا نقول][٦]؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة[٧]، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل ، وإن[٨] أقرب القول أن تقولوا : هو ساحر . فتفرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم : ﴿ **الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ أصنافًا ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ أولئك[٩] النفر الذين قالوا ذلك لرسول الله .

وقال عطية العوفي ، عن ابن عمر في قوله : ﴿ **لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ قال : عن لا إله إلا الله .

---

(٦٧) - **إسناده فيه جهالة وهو صحيح** ، أورده ابن هشام في « السيرة » (١/١٧٤ - ١٧٥) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/١٩٩ : ٢٠١) ، ومحمد بن أبي محمد هذا مجهول ، لكن تابعه أيوب السختياني بنحوه ، أخرجه البيهقي (٢/١٩٨) ، وصححه الحاكم على شرط البخاري (٢/٥٠٦ - ٥٠٧) ووافقه الذهبي وهو كما قالا ، ، وانظر « الدر المنثور » (٦/٤٥٤) .

---

[١] - في ز ، خ : « الكاهنة » .
[٢] - في ز ، خ : « اسحروه » .
[٣] - في ت : قال .
[٤] - في خ : « سعيد أو عكرمة » .
[٥] - في خ : « قالوا » .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - في ز : « حلاوة » .
[٨] - في ز : « إنه » .
[٩] - في ز ، خ : « دوينك » .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا الثوري ، عن ليث - هو ابن أبي سليم - عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿ **لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ قال : عن لا إله إلا اللَّه .

وقد روىٰ الترمذي وأبو يعلىٰ الموصلي وابن جرير وابن أبي حاتم(٦٨) : من حديث شريك القاضي ، عن ليث بن أبي سليم ، عن بشير بن أبي نهيك(*) ، عن أنس ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين** ﴾ قال[١]: « عن لا إله إلا اللَّه » .

ورواه ابن إدريس(٦٩) : عن ليث ، عن بشير ، عن أنس موقوفًا .

وقال ابن جرير(٧٠) : حدثنا أحمد ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا شريك ، عن هلال ، عن عبد اللَّه بن عكيم[٢]. قال : قال[٣] عبد اللَّه - هو ابن مسعود - : والذي لا إله غيره ، ما منكم من أحد إلا سيخلو اللَّه به يوم القيامة ، كما يخلو أحدكم[٤] بالقمر ليلة البدر ، فيقول : ابن آدم ماذا غرك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت [فيما علمت][٥]؟ ابن آدم ماذا

---

(٦٨) - **إسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وشريك القاضي** ، أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٦٧) ثنا أحمد بن إسحاق ، قال : ثنا أبو أحمد قال : ثنا شريك به ، ثم إني لم أره عند الترمذي وأبي يعلى من هذا الطريق ، إنما أخرجه الترمذي ، كتاب : التفسير ، باب : « ومن سورة الحجر » (٣١٢٦) ، وأبو يعلى (٤٠٥٨/٧) من طريق المعتمر بن سليمان وجرير عن ليث بن أبي سليم عن بشر عن أنس بن مالك به ، وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨٦/٢) من طريق حفص عن ليث به ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٩٥/٣) من طريق ليث بن أبي سليم عن داود بن أبي هند عن أنس به . وقال : « غريب من حديث داود وليث » .

(*) هكذا وقع هنا وهو أيضًا في تفسير ابن جرير « بشير بن أبي نهيك » وهو تابعي معروف غير أنه لا يعرف له رواية عن أنس ، ولا يعرف لليث بن أبي سليم رواية عنه ، ووقع عند الترمذي وغيره « بشر » غير منسوب ، وكذا ذكره المزي في « تهذيب الكمال » (٤/ت٧١٤) ونسبه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨٦/٢) وابن حبان في « الثقات » (٦٩/٤) فقالا « بشر بن دينار » ووقع عند البخاري في « التاريخ » (١٣٣/٨-١٣٤) : « نسر - بالسين المهملة - عن أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ قال « عن لا إله إلا الله » . وانظر التاريخ الكبير (٢/ ٨٦، ١٣٣/٨) .

(٦٩) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير (٦٧/١٤) حدثنا أبو كريب وأبو السائب ، قالا : ثنا ابن إدريس به . وعلقه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨٦/٢) ، والترمذي في « السنن » (عقب حديث رقم ٣١٢٦) غير أنه وقع عند الأخير « بشر » وقد نبهنا على هذا الاختلاف .

(٧٠) - ابن جرير في تفسيره (٦٧/١٤) ، وأخرجه أسد بن موسى في « الزهد » (٩٦) - وتحرف فيه =

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز ، خ : « حكيم » .

[٣] - في ت : « وقال » .

[٤] - في ز : « أحدهم » .

[٥] - في ز : « فبما عملت » .

أجبت المرسلين ؟ .

وقال أبو جعفر : عن الربيع ، عن أبي العالية [في قوله][١]: ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ قال : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة ؛ عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين ؟.

وقال ابن عيينة : عن عملك ، وعن مالك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا يونس الحذاء ، عن أبي حمزة الشيباني[٢] ، عن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « يا معاذ ، إن المرء[٣] يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتىٰ كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد أسعد بما آتى الله منك » .

وقال علي بن أبي طلحة(٧١) ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ ثم قال : ﴿ **فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ قال : لا يسألهم : هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا ؟ .

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ

= ابن مسعود إلى أبا مسعود ، ولم ينتبه له محققه - وابن المبارك في « الزهد » (٣٨) ومن طريقه النسائي في الكبرى - كما في « التحفة » (٩٣٤٥/٧) - وابن خزيمة في « التوحيد » ص١٥٠ - ١٥١ ، ١٧١ ، وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٧٥) كلهم من طريق شريك بن عبد الله بهذا الإسناد ، وشريك فيه مقال ، لكن تابعه أبو عوانة وهو ثقة حافظ وعند أحمد في الزهد (ص٢٠٤) ، والطبراني في الكبير (٨٨٩٩/٩) وأبي نعيم في « الحلية » (١٣١/١) ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٩/١) من طريق إسحاق بن عبد الله أبي يعقوب التميمي قال : نا شريك بهذا الإسناد ، لكنه رفعه ، وقال الطبراني : لم يرو هذا الحديث عن هلال الوَزَّان إلا شريك ، تفرَّدَ به إسحاق بن عبد الله ، أي مرفوعًا . وقال الهيثمي في « المجمع » : ورجال الأوسط فيهم شريك أيضًا ، وإسحاق بن عبد الله التميمي وثقه ابن حبان (١٢٠/٨) ، وبقية رجاله رجال الصحيح . والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٢٥٧/٥) إلى عبد بن حميد وابن مردويه .

(٧١) - أخرجه ابن جرير (٦٧/١٤) ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في البعث - كما في « الدر المنثور » (٤/ ١٩٩) .

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز : « البيساني » .

[٣] - في خ : « المؤمن » .

يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالىٰ آمرًا رسوله صلىٰ اللَّه عليه وسلم بإبلاغ ما بعثه به ، وبإنفاذه[١] والصدع به ، وهو مواجهة المشركين به ، كما قال ابن عباس : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ أي : أمضه . وفي رواية : افعل ما تؤمر .

وقال مجاهد : هو الجهر بالقرآن في الصلاة .

وقال أبو عبيدة ، عن عبد اللَّه بن مسعود . ما زال النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم مستخفيًا حتىٰ نزلت : ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ فخرج هو وأصحابه .

وقوله : ﴿ **وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ أي : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلىٰ المشركين الذين[٢] يريدون أن يصدوك[٣] عن آيات اللَّه ﴿ **ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ ولا تخفهم ؛ فإن اللَّه كافيك إياهم وحافظك منهم ، كقوله[٤] تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته واللَّه يعصمك من الناس** ﴾ .

وقال الحافظ أبو بكر البزار(٧٢) : حدثنا يحيىٰ بن محمد بن السَّكن ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا عون بن كهمس ، عن يزيد بن درهم ، عن أنس قال : سمعت أنسًا يقول في هذه الآية : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع اللَّه إلهًا آخر** ﴾ قال : مر رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فغمزه بعضهم فجاء جبريل . قال[٥]: أحسبه قال : فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة حتى ماتوا.

وقال محمد بن إسحاق(٧٣) : كان عظماء المستهزئين - كما حدثنى يزيد بن رومان ،

(٧٢) - (٢/١٤٧٥ - مختصر الزوائد) ، وقال البزار : « تفرد به يزيد بن درهم عن أنس وماله عن أنس غيره ، وقد ضعفه ابن معين » وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧/٧١٢٧) من طريق محمد ابن عثمان القرشي ثنا يزيد بن درهم به نحوه وقال : لم يرو هذا الحديث عن أنس إلا يزيد بن درهم تفرد به محمد بن عثمان القرشي - وهو متابع كما ترى - وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧/٤٩) عن ابن عباس وليس عن أنس وقال : « رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه وفيه يزيد بن درهم ضعفه ابن معين ووثقه الفلاس » قلت : وذكره ابن حبان في « الثقات » (٥/٥٣٨) وقال : « يخطئ كثيرًا » .

(٧٣) - **مرسل حسن** ، أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/٦٩ - ٧٠) ، وأبو نعيم في « الدلائل » =

[١] - في ز : « إنفاده » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « يصدون » .
[٤] - في خ: « كما قال » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .

عن عروة بن الزبير - خمسة نفر من قومه ، و[١]كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم ؛ من بني أسد بن عبد العزىٰ بن قصي : الأسود بن المطلب أبو زمعة ، كان رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فيما بلغني قد دعا عليه ؛ لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه ، فقال : « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » . ومن بني زهرة : الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بني مخزوم : الوليد بن المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم ، ومن بني سهم بن عمرو(*) ابن [ ][٢] هُصَيص بن كعب بن لؤي : العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد [بن سهم](**) ، ومن خزاعة : الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن [ ][٣] عمرو بن مَلكان . فلما تمادوا في الشر ، وأكثروا برسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم الاستهزاء ، أنزل اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ . قال ابن إسحاق : فحدّثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء : أن جبريل أتىٰ رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت فقام ، وقام رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم إلىٰ جنبه ، فمرّ به [الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعمى ، ومر به][٤] الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلىٰ بطنه فاستسقىٰ[٥] بطنه فمات منه حَبَنًا[٦]، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلىٰ أثر جرح[٧] بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجرّ إزاره ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يريش نبلًا له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش رجله ذلك الخدش ، وليس بشيء فانتقض به فقتله ، ومرّ به العاص بن وائل

= (ص ٢٢٢ - ٢٢٣) من طريقين عن ابن إسحاق به ، وهذا مرسل حسن ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٩٨٦/٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣١٦/٢ ، ٣١٨) ، والضياء في « المختارة » (١٠/رقم ٩٤) من حديث ابن عباس قال : المستهزئون : الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث ... فذكر الحديث بنحو حديث عروة ، وحسن إسناده السيوطي في « الدر المنثور » (٢٠٠/٤) وزاد نسبته إلى ابن مردويه وأبي نعيم في « الدلائل » والذي في « دلائل أبي نعيم » من طريق الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس ، والكلبي متهم بالكذب والله أعلم .

(*) في ز : « عمر » ، خ : « عبد عمر » ، والمثبت من ابن جرير .

(**) ما بين المعكوفتين زيادة من ابن جرير (٧٠/١٤) .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « مخزوم ، ومن بني سهم عمر بن » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « عبد » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٥] - في ت : « فاستقى » .

[٦] - في ز ، خ : « جنبًا » . والحبن : هو ما يعرف اليوم بالاستسقاء . المعجم الوسيط .

[٧] - في ت : « جراح » .

فأشار إلىٰ أخمص رجله ، فخرج علىٰ حمار له يريد الطائف ، فوُقص علىٰ شِبرْقة(*) فدخلت في أخمص رجله[١] منها[٢] شوكة[٣] فقتلته ، ومرّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلىٰ رأسه فامتخط قيحًا فقتله .

قال محمد بن إسحاق(٧٤) : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن رجل ، عن ابن عباس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم .

وهكذا روي عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق [ ][٤] عن يزيد عن عروة بطوله ، إلا أن سعيدًا يقول : الحارث بن عيطلة ، وعكرمة يقول : الحارث بن قيس .

قال الزهري : وصدقا ، هو الحارث بن قيس وأمه عيطلة[٥] .

وكذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة .

وقال الشعبي : كانوا سبعة .

والمشهور الأول .

وقوله : ﴿ **الذين يجعلون مع اللَّه إلهًا آخر فسوف يعلمون** ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع اللَّه معبودًا[٦] آخر .

وقوله : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾ أي : وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض صدر وضيق ، فلا يهيدنك[٧] ذلك ، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة اللَّه ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر اللَّه وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين** ﴾ ، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد(٧٥) :

(*) - الشبرقة : واحدة الشبرق ، وهو نبات له شوك . النهاية .

(٧٤) - **إسناده فيه جهالة** ، وهو عند ابن جرير في تفسيره (١٤/٧٠) .

(٧٥) - **صحيح** ، « المسند » (٢٢٥٧١) (٥/٢٨٦) ، وأخرجه أيضًا (٢٢٥٧٦) (٥/٢٨٧) ، والنسائي في « الكبرى » كتاب : الصلاة ، باب : الحث على الصلاة أول النهار (١/٤٦٨) من طريقين عن معاوية بن =

---

[١] - في خ : « قدمه » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز : « شبرقة » .
[٤] - في ت : به .
[٥] - في خ : « غيطلة » .
[٦] - في خ : « إلهًا » .
[٧] - في خ : « يهذنك » .

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن كثير بن مرة ، عن نعيم بن همار[١]، أنه سمع رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم يقول : « قال اللَّه تعالىٰ : يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

و[٢]رواه أبو داود والنسائي(٧٦)[٣]: من حديث مكحول ، عن كثير بن مرة بنحوه[٤].

ولهذا كان رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى(٧٧) .

وقوله : ﴿ **واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين** ﴾ قال البخاري(٧٨) : قال سالم : الموت .

وسالم هذا هو سالم بن عبد اللَّه بن عمر ، كما قال ابن جرير(٧٩) :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيىٰ بن سعيد ، عن سفيان ، حدثنا طارق بن عبدالرحمن ، عن سالم بن عبد اللَّه ﴿ **واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين** ﴾ قال : الموت .

= صالح به ، وله طرق أخرى عند أحمد فانظرها ثمة ، وانظر ما بعده .

(٧٦) - **كسابقه** ، سنن أبي داود كتاب : الصلاة ، باب : صلاة الضحى (١٢٨٩) ، والنسائي في « الكبرى » ، كتاب : الصلاة ، باب : الحثُّ على الصلاة أوَّلَ النَّهَار (٤٦٧/١) ووقع عنده بين كثير بن مرة ونعيم بن هَمَّار ، قيس الجُذَامي . ومن طريق قيس الجذامي ، أخرجه أحمد (٢٢٥٧٣) (٢٨٦/٥) والدارمي (١٤٥٩) ، وصححه ابن حبان (٢٥٣٣/٦) ، وصححه أيضًا (٢٥٣٤) من طريق آخر عن نعيم بن همار ، وأخرجه أحمد (١٧٤٣٩، ١٧٨٤٦) (١٥٣/٤ ، ٢٠١) ، وأبو يعلى (١٧٥٧/٣) من طريق نعيم عن عقبة بن عامر فجعلاه من مسند عقبة ، لا من مسند نعيم ، وكلاهما له صحبة ، فلا يضر ذلك . والله تعالى أعلم .

(٧٧) - أخرجه أبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : وقت قيام النبي - صلى الله عليه وسلم - من الليل (١٣١٩) وأحمد (٢٣٤٠٦) (٣٨٨/٥) ، وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (٢١٢/١) من حديث حذيفة ابن اليمان ، وحسنه الألباني في « صحيح أبي داود » (١١٧١/١) .

(٧٨) - صحيح البخاري كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ (٣٨٣/٨ - فتح) .

(٧٩) - **إسناده صحيح** ، تفسير ابن جرير (٧٤/١٤) ووكيع بن الجراح في « كتاب الزهد » (٤٢/١) وعنه ابن أبي شيبة في « المصنف » كتاب الزهد ، باب : كلام الحسن البصري (٢٦٥/٨) ومن طريق وكيع أخرجه ابن جرير أيضًا و ابن أبي الدنيا في « كتاب اليقين » (١٩) منسوبًا إلى سالم بن عبد الله ، بينما أخرجه ابن حجر في « تغليق التغليق » (٢٣٤/٤) من طريق وكيع ونسبه إلى سالم بن أبي الجعد ، وقال الحافظ في « الفتح » (٣٨٣/٨) : وصله الفريابي وعبد بن حميد وغيرهما من طريق طارق بن =

---

[١] - في ز : « عمار » .

[٢] - سقط من : ز .

[٣] - سقط من : ز .

[٤] - في ز ، خ : « أي سحره » .

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره .

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ **لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتىٰ أتانا اليقين** ﴾ .

وفي الصحيح(٨٠) : من حديث الزهري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أمّ العلاء امرأة من الأنصار : أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم لما دخل علىٰ عثمان بن مظعون وقد مات ، [قلت][١]: رحمة اللَّه عليك أبا السائب ! فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه . فقال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « وما يدريك أن اللَّه أكرمه ؟ » فقلت : بأبي وأمي يا رسول اللَّه فمن ؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين ، و[٢]إني لأرجو له الخير » .

ويستدل من هذه[٣] الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ **واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين** ﴾ علىٰ أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة علىٰ الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري(٨١) عن عمران بن حصين رضي اللَّه عنهما : أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم قال : « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب » .

ويستدل بها علىٰ تخطئة من ذهب من الملاحدة إلىٰ أن المراد باليقين : المعرفة ، فمتىٰ وصل أحدهم إلىٰ المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس باللَّه ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس[٤] وأكثر الناس عبادة ، ومواظبة علىٰ فعل الخيرات إلىٰ حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت كما قدمناه ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله علىٰ الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسئول أن يتوفانا علىٰ أكمل الأحوال وأحسنها ، فإنه جواد كريم .

= عبد الرحمن عن سالم بن أبي الجعد ، والله أعلم بالصواب .

(٨٠) - أخرجه البخاري ، كتاب : الجنائز ، باب : الدُّخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤٣) ، والنسائي في « التعبير » من « الكبرى » (٧٦٣٤/٤) ، وأحمد (٤٣٦/٦) .

(٨١) - صحيح البخاري كتاب : تقصير الصلاة ، باب : إذا لم يُطق قاعدًا صلى على جنب (١١١٧) ، وانظره أطرافه عند رقم (١١١٥) ، وأخرجه أبو داود (٩٥١ ، ٩٥٢) ، والترمذي (٣٧١ ، ٣٧٢) ، وابن ماجة (١٢٢٣) ، وأحمد (٤٢٦/٤) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « قالت أم العلاء » . [٢] - سقط من : ز .

[٣] - في خ : « بهذه » . [٤] - سقط من ز .

/ سورة الحجر [٢٨٣و]

مكيّة، وهي تسع وتسعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾

﴿الٓر﴾ قد مرّ الكلام فيه وفي محلّه في مطلع سورة الرعد وأخواتها.

﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إليه، أي: تلك السورة العظيمة الشأنِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الكامل المعهود الغنيّ عن الوصف به المشهور بذلك مِن بين الكتب الحقيقُ باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق، أي: بعضٌ منه مترجَم مستقلّ باسم خاصّ، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزَل إذ ذاك؛ إذ هو المتسارع إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق، وعليه يترتّب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال لا على جَعْله عبارةً عن السورة؛ إذ هي في الاتّصاف بذلك ليست بتلك المرتبة مِن الشهرة حتّى يُستغنى عن التصريح بالوصف على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ مِن جَعْل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى كلّ واحدة منها، وفيه مِن التكلّف ما لا يخفى، كما ذُكر في سورة الرعد.[١]

﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ أي: قرآن عظيم الشأنِ ﴿مُّبِينٖ﴾ مظهِر لِما في تضاعيفه مِن الحِكَم والأحكام أو لسبيل الرشد والغيّ، أو فارقٍ بين الحقّ والباطل والحلالِ والحرام. ولقد فُخِّم شأنه العظيم مع ما جُمع فيه مِن وصفَي الكتابيّة والقرآنيّة على طريقتين: **إحداهما**: اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهيّة فكأنّه كلّها، **والثانية**: طريقة كونه ممتازًا عن غيره نسيجَ وحدِه بديعًا في بابه خارجًا عن دائرة البيان.

---

١ في الآية الأولى منها.

وأُخِرت الطريقة الثانية لِما أنّ الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره مِن الكتب أدخَلُ في المدح، كيلا يُتوَهّم مِن أوّل الأمر أنّ امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصّة به مِن غير اشتمال على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة. وهكذا الكلام / في فاتحة سورةِ النمل، [٢٨٣ظ] خلا أنّه قُدّم فيها القرآنُ على الكتاب لِما سيُذكر هناك.[١]

ولمّا بيّن كونُ السورة الكريمة بعضًا مِن الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطَبين إلى حُسن تلقّي ما فيها مِن الأحكام والقِصص والمواعظ شُرع في بيان ما تضمّنه فقيل: ﴿رُبَمَا﴾ بضمّ الراء وتخفيف الباء المفتوحة، وقُرئ بالتشديد[٢] وبفتح الراء مخفّفًا[٣] وبزيادة التاء مشدّدًا.[٤] وفيه ثماني لغات: فتح الراء وضمُّها مشدّدًا ومخفّفًا وبزيادة التاء أيضًا مشدّدًا ومخفّفًا.

و"رُبّ" حرفُ جرّ لا يدخُل إلّا على الاسم، و"ما" كافّة مصحِّحة لدخوله على الفعل، وحقُّه الدخول على الماضي، ودخولُه على قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لِما أنّ المترقَّب في أخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقّق الوقوع، فكأنّه قيل: ربّما وَدّ الذين كفروا، والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه مِن عند الله تعالى.

﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لحكمه ومذعِنين لأمره، وفيه إيذان بأنّ كفرهم إنّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه مِن عند الله تعالى، وتلك الوَدادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالِهم وحال المسلمين، أو عند رؤيتهم خروجَ عُصاة المسلمين مِن النار.

روى أبو موسى الأشعريُّ أنّه قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا كان يومُ القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم مَن شاء الله تعالي مِن أهل القِبلة

---

[١] وفي هامش م: مِن تقدّم حال القرآنيّة على الكتابيّة. «منه».

[٢] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي قُرّة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال والضحّاك وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٣.

قال لهم الكفّارُ: "ألستُم مسلمين؟" قالوا: "بلى"، قالوا: "فما أغنى عنكم إسلامُكم وقد صِرتُم معنا إلى النار؟" قالوا: "كانت لنا ذنوب فأُخِذنا بها"، فيغضب الله سبحانه لهم[١] بفضل رحمته، فيأمُر بكلّ مَن كان مِن أهل القِبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين».[٢] وروى مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «لا يزال الربُّ يرحم ويُشفَع إليه حتّى يقول: "مَن كان مِن المسلمين فليدخُل الجنّة"، / فعند ذلك يتمنَّون الإسلام».[٣] [٢٨٤و] والحقُّ أنّ ذلك محمول على شدّة وَدادتهم وأمّا نفس الودادةِ فليست بمختصّة بوقت دون وقت؛ بل هي مقرَّرة مستمِرّة في كلّ آنٍ يمرّ عليهم، وأنّ المراد بيانُ ذلك على ما هو عليه مِن الكثرة.

وإنّما جيء بصيغة التقليلِ جريًا على سَنن العرب فيما يقصِدون به الإفراط فيما يعكسون عنه، تقول لبعض قوّاد العساكر: "كم عندك مِن الفرسان؟" فيقول: "رُبَّ فارسٍ عندي" أو "لا تَعدَم عندي فارسًا"، وعنده مقانبُ[٤] جمّةٌ مِن الكتائب، وقصدُه في ذلك التمادي في تكثير فرسانه، ولكنّه يريد إظهار براءته مِن التزيّد وإبرازَ أنّه ممّن يقلِّل لعُلوّ الهمّة كثيرَ ما عنده فضلًا عن تكثير القليل.

وهذه طريقةٌ إنّما تُسلَك إذا كان الأمر مِن الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب فيُصار إليه هضمًا للحقّ،[٥] فدلّ النظم الكريم على وَدادةِ الكافرين للإسلام في كلّ آنٍ مِن آنات اليوم الآخر، وأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا يشتبِه على أحد ولو جيء بكلام يدلّ على ضدّه، وعلى أنّ تلك الوَدادة مع كثرتها في نفسها ممّا يُستقلّ بالنسبة إلى جَناب الكبرياء، وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأنِ الكفّار وعدمِ الاعتداد بما هم فيه مِن الكفر والتكذيب، كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ﴾ الآية.[٦]

---

١ وفي هامش م: أي: لأجلهم.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٨/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٤.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٩/١٤؛ والمستدرك للحاكم، ٣٨٤/٢ (٣٣٤٥)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٣٨/١٢.

٤ المقانب جمع مِقنَب: جماعة الخيل والفرسان. لسان العرب لابن منظور، «قنب».

٥ وفي هامش م: أي: حقّ المتكلِّم.

٦ في الآية الآتية.

أو ذهابًا[١] إلى الإشعار بأنّ مِن شأن العاقل إذا عنّ له أمر يكون مظنون الحمد، أو قليلًا ما يكون كذلك ألّا يفارقَه ولا يقارِفَ ضدّه، فكيف إذا كان متيقِّن الحمد؟ كما في قولهم: لعلّك ستندم على ما فعلتَ، وربّما ندِم الإنسان على ما فعل، فإنّ المقصود ليس بيانَ كونِ الندم مرجوَّ الوجود بلا تيقّن به أو قليلَ الوقوع؛ بل التنبيهُ على أنّ العاقل لا يُباشر ما يُرجى فيه الندم أو يقِلّ وقوعه فيه، فكيف بقطعيّ الوقوع؟ وأنّه يكفي قليل الندم في كونه حاجزًا عن ذلك الفعل، فكيف كثيرُه؟ والمقصود مِن سلوك هذه الطريقة إظهارُ الترفّع والاستغناءِ عن التصريح بالغرض بناءً على ادِّعاء ظهوره، فالمعنى لو كانوا يودُّون الإسلام مرّة واحدة لَوجب عليهم أن يُفارقوه، فكيف وهم يودُّونه كلّ آنٍ؟ وهذا أوفَقُ بمقام استنزالهم عمّا هم عليه مِن الكفر، وهذان طريقان متمايزان / ذاتًا ومقامًا [٢٨٤ظ] فمَن ظنّهما واحدًا فقد نأى عن توفية المقام حقَّه.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾

﴿ذَرۡهُمۡ﴾ دعْهم عن النهي عمّا هم عليه بالتذكرة والنصيحة، إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك، وبالِغ في تخليتهم وشأنَهم؛ بل مُرْهم بتعاطي ما يتعاطَونه ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم. وفي تقديم "الأكل" إيذانٌ بأنّ تمتّعهم إنّما هو مِن قبيل تمتّع البهائم بالمآكل والمشارب. والمراد دوامهم على ذلك لا إحداثه، فإنّهم كانوا كذلك، أو تمتُّعُهم بلا استمتاعٍ ما يُنغِّص عيشهم مِن القوارع والزواجر، فإنّ التمتّع على ذلك الوجه أمر حادث يصلُح أن يكون مترتِّبًا على تخليتهم وشأنهم.

﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ ويَشْغَلْهم عن اتّباعك، أو عن التفكّر فيما هم يصيرون إليه، أو عن الإيمان والطاعة، فإنّ الأكل والتمتّع يُفضِيَان إلى ذلك. ﴿ٱلۡأَمَلُ﴾ والتوقّع لطول الأعمار وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألّا يَلقَوا في العاقبة[٢] والمآل إلّا خيرًا.

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على "جريًا". «منه».

[٢] س: الآخرة.

فالأفعال الثلاثة مجزومة على الجوابيّة للأمر حسبما عرفتَ مِن تضمّن الأمر بالترك للأمر بها على طريقة المجاز، أو على أن يكون المراد بالأفعال المرقومة مباشرتَهم لها غافلين عن وَخامة عاقبتها غيرَ سامعين لسوء مَغبَّتها أصلًا، ولا ريبَ في ترتّب ذلك على الأمر بالترك، فإنّ النهي عمّا هم عليه مِن ارتكاب القبائح ممّا يُشوِّش عليهم تمتُّعَهم ويُنغِّص عليهم عيشَهم فأُمِر عليه السلام بتركه ليتمرَّغوا فيما هم فيه مِن حظوظهم فيَدهَمَهم ما يَدهَمُهم وهم عنه غافلون.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ سوءَ صنيعهم أو وخامةَ عاقبته أو حقيقةَ الحال التي ألجأتهم إلى التمنّي[١] المذكور، حيث لم يعلموا ذلك مِن جهتك، وهو -مع كونه وعيدًا أيّما وعيد وتهديدًا غِبَّ تهديد- تعليلٌ للأمر بالتَّرْك، فإنّ علمَهم ذلك علّة لتَرْك النهي والنصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحجة ومبالغة في الإنذار إذ لا يتحقّق الأمر بالضدّ إلّا بعد تكرُّر الإنذار وتقرُّرِ الجحود والإنكار، وكذلك ما ترتَّب[٢] عليه مِن الأكل / والتمتّع والإلهاء. [٢٨٥و]

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾ شروع في بيان سرِّ تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدمِ نظمهم في سِلك الأُمم الدارجة في تعجيل العذاب، أي: ما أهلكنا ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ مِن القُرى بالخَسف بها وبأهلها كما فُعل ببعضها، أو بإخلائها عن أهلها غِبَّ إهلاكِهم كما فُعل بآخرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٞ﴾ أي: أجل مقدَّر مكتوب في اللوح، واجبُ المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له. ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ لا يُنسى ولا يُغفل عنه حتّى يُتصور التخلّف عنه بالتقدّم والتأخّر.

فـ﴿كِتَابٞ﴾ مبتدأ خبرُه الظرف، والجملةُ حال مِن ﴿قَرۡيَةٍ﴾، فإنّها لعمومها لاسيّما بعد تأكّدِه بكلمة ﴿مِن﴾ في حكم الموصوفة، كما أُشيرَ إليه، والمعنى:

---

[١] وفي هامش م: هو تمنِّيهم الإسلام. «منه».
[٢] م: رُتِّب.

ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا حالَ أن يكون لها كتاب، أي: أجَل مؤقَّت لمهلِكها قد كتبناه لا نُهلكها قبل بلوغه، معلومٌ لا يُغفَل عنه حتّى يمكن مخالفته بالتقدّم والتأخّر.

أو مرتفعٌ بالظرف،[١] والجملةُ كما هي حالٌ، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى في حال مِن الأحوال إلّا وقد كان لها في حقّ هلاكها كتابٌ، أي: أجلٌ مقدَّر مكتوب في اللوح معلومٌ لا يُغفَل عنه، أو صفةٌ[٢] لكن لا للقرية المذكورة؛ بل للمُقدَّرة التي هي بدل مِن المذكورة على المختار، فيكون بمنزلة كونه صفةً للمذكورة، أي: ما أهلكنا قرية مِن القرى إلّا قريةً لها كتابٌ معلوم، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ﴾ [الغاشية، ٨٨/٦-٧]، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ صفة، لكن لا للطعام المذكور، لأنّه إنّما يدلّ على انحصار طعامِهم الذي لا يُسمن في الضريع، وليس المراد ذلك؛ بل للطعام المُقدَّر بعد ﴿إلّا﴾، أي: ليس لهم طعام مِن شيء مِن الأشياء إلّا طعامٌ لا يُسمِن، فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة "إلّا" كما تُوُهِّم.[٣]

وأمّا توسيط الواو بينهما -وإن كان القياس عدمَه- فللإيذان بكمال الالتصاق بينهما مِن حيث إنّ الواو / شأنها الجمع والربط، فإنّ ما نحن فيه مِن الصفة أقوى لُصوقًا بالموصوف منها به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٢٠٨]، فإنّ امتناع انفكاك الإهلاك عن الأجل المقدَّر عقليٌّ، وعن الإنذار عاديٌّ جرى عليه السنّة الإلهيّة. [٢٨٥ظ]

ولمّا بيّن أنّ الأمم المُهلَكة كان لكلّ منهم وقت معيَّن لهلاكهم وأنّ هلاكهم لم يكن إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللوح، بيّن أنّ كلّ أمّة مِن الأمم منهم ومِن غيرهم لها كتابٌ لا يمكن التقدّم عليه ولا التأخّر عنه فقيل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم المُهلَكة وغيرهم ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوبَ في كتابها، أي: لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها، أو لا تمضي أمّة قبل مُضيّ أجلها، فإنّ السَّبق إذا كان واقعًا

---

[١] السياق: فـ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ... أو مرتفعٌ بالظرف...

[٢] السياق: والجملة كما هي حال... أو صفة...

[٣] في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤١٩.

على زماني فمعناه المجاوزة والتخليف، فإذا قلت: "سبق زيد عَمرًا" فمعناه أنّه جازه وخلّفه وراءه، وإذا كان واقعًا على زمان كان الأمر بالعكس.

والسرُّ في ذلك أنّ الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى المُتكلِّم فما سبقه يتحقّق قبل تحقُّقه، وأمّا الزمانيُّ فإنّما يعتبر فيه الحركة والتوجّه إلى ما سيأتي مِن الزمان، فالسابقُ ما تقدَّم إلى المَقصِد. وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه مِن السَّبق، كما أنّ إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يُوجِبه مِن الإهلاك.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: وما يتأخَّرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عن ذلك مع طلَبهم له.

وإيثار صيغةِ المضارع في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي، لأنّ المقصود بيان دوامهما واستمرارِهما فيما بين الأمم الماضية والباقية. وإسنادهما إلى "الأمّة" بعد إسناد الإهلاك إلى "القرية" لِما أنّ السبق والاستئخار حالُ الأمّة دون القرية مع ما في الأمّة مِن العموم لأهل تلك القُرى وغيرهم ممِن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة.

/ وتأخير ذِكر عدمِ تأخّرهم عن ذِكر عدم سبقهم مع كون المقام مقامَ المبالغة [٢٨٦و]
في بيان تحقّق عذابهم: إمّا باعتبار تقدّم السبقِ في الوجود، وإمّا باعتبار أنّ المراد بيان سرِّ تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك. وإيراد الفعل على صيغة جمع المُذكَّر للحَمْل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل، ولذلك حُذف الجارّ والمجرور.

والجملة مبيّنة لِما سبَق. والمعنى أنّ تأخير عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أشيرَ إليه ببيان وَدادتهم للإسلام إذ ذاك، وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقة الحال إنّما هو لتأخّر أجلهم المقدَّر لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة، ومِن جملتها ما عَلِم الله تعالى مِن إيمان بعضِ مَن يخرُج منهم إلى يوم القيامة.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ شروع في بيان كفرهم بمَن أُنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يئول إليه حالهم، والقائلون مشركو مكّةَ لغاية تماديهم في العتوّ والغيّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ خاطبوا به رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له؛ بل استهزاءً به عليه السلام وإشعارًا بعِلّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، كدأب فرعونَ إذ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء، ٢٧/٢٦]، يعنُون: يا مَن يدّعي مثل هذا الأمر البديع الخارق للعادات، إنّك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدّعي أنّه ينزل عليك لَمجنون.

وتقديم الجارّ والمجرور على القائم مقامَ الفاعل لأنّ إنكارهم متوجِّه إلى كون النازل ذِكرًا مِن الله، لا إلى كون المنزَّل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد تسليم كون النازل منه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، فإنّ الإنكار هناك متوجِّه إلى كون المنزَّل عليه رسولَ الله تعالى. وإيراد الفعل على صيغة المجهول / لإيهام أنّ ذلك ليس بفعل له [٢٨٦ظ] فاعل، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى استناده إلى الفاعل.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا﴾ كلمة "لو" عند تركّبها مع "ما" تفيد ما تفيده عند تركّبها مع "لا" مِن معنى امتناعِ الشيء لوجود غيرِه ومعنى التحضيض، خلا أنّه عند إرادتِه لا يليها إلّا فعلٌ ظاهرًا أو مضمرًا، وعند إرادةِ المعنى الأوّل لا يليها إلّا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدّر عند البصريّين، والمراد ههنا هو الثاني، أي: هلّا تأتينا ﴿بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون بصحّة نبوّتِك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ[١] مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ٧/٢٥]، أو يعاقبوننا على التكذيب كما تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في دعواك، فإنّ قدرة الله تعالى على ذلك ممّا لا ريبَ فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرِك فإنّا لا نُصدِّقك بدون ذلك، أو إن كنتَ مِن جملة تلك الرسل الصادقين الذين عُذِّبت أممهم المكذِّبة لهم.

---

[١] م س: عليه.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة مِن التنزيل، وقُرئ مِن الإنزال،[١] وقُرئ: "تُنَزَّلُ"[٢] مضارعًا مِن التنزيل على صيغة البناء للمفعول، ومِن التنزُّل بحذف إحدى التاءين،[٣] وماضيًا منه[٤] ومِن التنزيل[٥] ومِن الثلاثي.[٦]

وهو كلامٌ مَسوق إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جوابًا لهم عن مقالتهم المَحْكيّة وردًّا لاقتراحهم الباطل، ولشدّة استدعاء ذلك للجواب قُدِّم ردّه على ما هو جواب عن أوّلها، أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ الآية،[٧] كما فُعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هود، ٣٣/١١]، فإنّه مع كونه جوابًا عن قولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود، ٣٢/١١] قُدِّم على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ الآية، [هود، ٣٤/١١]، مع كونه جوابًا عن أوّل كلامهم الذي هو قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾ [هود، ٣٢/١١] لِما ذُكر مِن شدّة اقتضائه للجواب، وليكونَ أحدُ الجوابين متّصلًا بالسؤال، وفي العكس يلزَم / انفصال كلّ مَن الجوابين عن سؤاله. [٢٨٧و]

والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح، وهو أن يقال: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنّهم قد أخطأوا في التعبير حسبما أخطأوا في الاقتراح، وأنّ الملائكة لعُلوّ رتبتهم أعلى مِن أن يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشامل للانتقال مِن أحد الأمكنة المتساوية إلى الأخر،[٨] بل مِن الأسفل إلى الأعلى، وأن يكون مقصِد حركاتهم أولئك الكفرة، وأن يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ مِن البشر، وإنّما الذي يليق بشأنهم النزولُ مِن مقامهم العالي، وكونُ ذلك بطريق التنزيل مِن جناب الربّ الجليل.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وسهل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٥.
٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.
٣ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤.
٥ ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ من المظانّ.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وزيد بن عليّ وعُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٥.
٧ في الآية الآتية.
٨ س + منها.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ملتبِسًا بالوجه الذي يحِقّ ملابسةُ التنزيل به ممّا تقتضيه الحكمة وتجري به ألسنة الإلهيّة، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر، ٨٥/١٥]، والذي اقترحوه مِن التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهُم هُم ومنزلتُهم في الحقارة والهوان منزلتُهم، ممّا لا يكاد يدخل تحت الصِحّة والحِكمة أصلًا، فإنّ ذلك مِن باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يُفتَح على غير الأنبياء الكرام مِن أفراد كُمَّل المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفَرة اللئامِ؟ وإنّما الذي يدخُل في حقّهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال، كما فُعِل بأضرابهم مِن الأُمم السالفة، ولو فُعِل ذلك لاستؤصلوا بالمرّة.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ جزاءُ الشرط مقدَّر، وفيه إيذان بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء، ٧٦/١٧]. «قال صاحب النظم:[1] لفظةُ "إذن" مركّبة مِن "إذ" وهو اسم بمعنى الحين، تقول: أتيتُك إذ جئتَني، أي: حين جئتَني، ثمّ ضُمّ إليه "أنْ" فصار "إذْ أنْ" ثمّ استثقلوا الهمزة فحذفوها».[2] فمجيء لفظة "أنْ" دليلٌ على إضمار فعل بعدها، والتقدير: وما كانوا إذن كانَ ما طلبوه منظَرين.

والمعنى: لو نزّلناهم ما كانوا مؤخَّرين كدأب سائر الأمم المكذِّبة المستهزِئة، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾... إلخ [الحجر، ٣/١٥]، وحالَ حائلُ الحكمة بينهم وبين استئصالِهم لتعلُّق العِلم والإرادة بازديادهم عذابًا وبإيمان بعض ذراريّهم، وأمّا نَظْم إيمان بعضهم في سِمْط الحكمة فيأباه مقامُ بيان تماديهم في الكفر والفساد ولَجاجهم في المكابرة والعِناد. هذا هو الذي يستدعيه إعجازُ التنزيل الجليل.

---

١ الظاهر أنّه ابن مالك ناظم الألفيّة المشهورة. والقول المذكور عنه ههنا في "إذن" نقله عن الخليل ورجّحه. انظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٢٠/٤.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٣٢/١١.

وأمّا ما قيل في تعليل عدمِ موافقةِ التنزيل للحكمة مِن أنّهم حينئذ يكونون مصدِّقين عن اضطرار، أو أنّه لا حكمةَ في أن تأتيَكم بصور يُشاهدونها فإنّه لا يزيدكم إلّا لَبسًا،[١] أو أنّ إنزال الملائكة لا يكون إلّا بالحقّ وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد عَلِم الله تعالى مِن حال هؤلاء الكفّار أنّه لو أنزل إليهم الملائكة لبقُوا مُصرِّين على كفرهم، فيصير إنزالهم عبثًا باطلًا ولا يكون حقًّا، فمع إخلال[٢] كلٍّ مِن ذلك بقطعيّة الباقي / لا يلزَم مِن فَرْض وقوع شيء مِن ذلك [٢٨٧ظ] تعجيلُ العذاب الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾. هذا على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة.

أمّا على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى: إنّا ما نُنزِّل الملائكة للتعذيب إلّا تنزيلًا ملتبِسًا بالحقّ الذي يقتضيه الحِكمة ويستدعيه المصلحة حتمًا، بحيث لا محيدَ عنه، ولو نزَّلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيلُ ملتبِسًا بمقتضى الحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم إلى يوم القيامة، لا رفقًا بهم؛ بل تشديدًا عليهم كما مرّ مِن قبل، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته الحكمةَ نوعُ إيهام عدم[٣] استحقاقهم التعذيب عُدِل عمّا يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظم الكريم، فكأنّه قيل: لو نزَّلناهم ما كانوا منظَرين، وذلك غيرُ موافق للحِكمة الموجِبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم. وقيل: المراد بالحقّ الوحيُ. وقيل: العذابُ.[٤] فتأمّل.[٥]

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ ردٌّ لإنكارهم التنزيلَ واستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذلك وتسليةٌ له، أي: نحن بعِظَم شأننا وعلوّ جنابنا نزَّلنا ذلك الذِّكرَ الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعَمَّوا مُنزِّله، حيث بنوَا الفعل للمفعول إيماء إلى أنّه أمر لا مصدرَ له وفعلٌ لا فاعلَ له.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤١٩/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٥/٢..

٢ السياق: وأمّا ما قيل... فمع إخلال...

٣ س: لعدم.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٠/٢.

٥ س: فتدّبر.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ مِن كلّ ما لا يليق به، فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولًا أوّليًا، فيكون وعيدًا للمستهزئين به، وأمّا الحفظ مِن مجرّد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام. فالوجهُ الحَمْل على الحفظ مِن جميع ما يقدَح فيه مِن الطعن فيه والمجادلة في حقّيّته، ويجوز أن يُراد حفظه بالإعجاز دليلًا على التنزيل مِن عنده تعالى، إذ لو كان مِن عند غير الله سبحانه[1] لتطرّق عليه الزيادة والنقص والاختلاف. وفي سَبْك الجملتين مِن الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل ما لا يخفى، وفي إيراد الثانية بالجملة الاسميّة دلالةٌ على دوام الحفظ، والله سبحانه أعلمُ. وقيل: الضمير المجرورُ للرسول صلّى الله عليه وسلّم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٥/٦٧].[2]

وتأخير هذا الكلام وإن كان جوابًا عن أوّل كلامهم الباطل ردًّا له لِما ذُكِر آنفًا ولارتباطه بما يعقُبه مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: رسلًا، وإنّما لم يُذكَر لدلالة ما بعده عليه. / ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ متعلّق بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بمحذوف هو [٢٨٨و]
نعت للمفعول المحذوف، أي: رسلًا كائنةً مِن قبلك.

﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فِرَقِهم وأحزابهم جمع "شِيعة": وهي الفِرقةُ المتّفقة على طريقة ومذهب، مِن "شاعه إذا تبِعه". وإضافتُه إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن إضافة الموصوف إلى صفته[3] عند الفرّاء،[4] ومِن حذف الموصوف عند البصريّين، أي: شِيَع الأُمم الأوّلين، ومعنى إرسالهم فيهم: جَعْلُ كلّ منهم رسولًا فيما بين طائفة منهم ليُتابعوه في كلّ ما يأتي ويذَر مِن أمور الدِّين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ المراد نفيُ إتيانِ كلّ رسول لشِيعته الخاصّة به لا نفيُ إتيان كلّ رسول لكلّ واحدة مِن تلك الشِّيَع جميعًا، أو على سبيل البدل.

---

١ س ط – سبحانه.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.
٣ س: الصفة؛ ط: موصوفه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.
٤ لم يرد القول في معاني القرآن للفرّاء، وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/١٤٦؛ واللباب لابن عادل، ١١/٤٣٣.

وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية، فإنّ "ما" لا تدخل في الأغلب على مضارع إلّا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلّا وهو قريب مِن الحال، أي: ما أتى شيعةً مِن تلك الشِّيَع رسولٌ خاصٌّ بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، كما يفعله هؤلاء الكفَرة.

والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مقدَّرة مِن ضمير المفعول في ﴿يَأۡتِيهِم﴾ إذا كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محلّ الرفع على أنّها صفةُ ﴿رَسُولٍ﴾ فإنّ محلَّه الرفع على الفاعليّة، أي: إلّا رسولٌ كانوا به يستهزءون. وأمّا الجرّ على أنّها صفة باعتبار لفظِه فيُفضي إلى زيادة ﴿مِن﴾ الاستغراقيّةِ في الإثبات.[1] ويجوز أن يكون منصوبًا على الوصفيّة بأن يُقدَّر الموصوفُ منصوبًا على الاستثناء.[2] وإن كان المختار الرفعَ على البدليّة.

وهٰذا كما ترى تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّ هذه عادة الجهّال مع الأنبياء عليهم الصلاة السلام. وحيث كان الرسول مصحوبًا بكتاب مِن عند الله تعالى تُضمِّن ذِكرُ استهزائِهم بالرسول استهزاءَهم بالكتاب، ولذلك قيل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق مِن إلقاء الوحي مقرونًا بالاستهزاء، أي: مثلَ ذلك السَّلْكِ الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به مِن الكتب ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ / أي: الذِكرَ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [٢٨٨ظ] أي: أهل مكّةَ أو جنس المجرمين، فيدخلون فيه دخولًا أوّليًّا.

ومحلُّه النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف أو حال منه، أي: نسلُكه سَلْكًا مثلَ ذلك السَّلْك أو نسلُك السَّلكَ حالَ كونِه مثلَه، أي: مقرونًا بالاستهزاء، غيرَ مقبول لِما تقتضيه الحكمة، فإنّهم مِن أهل الخِذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحقّ. وصيغة المضارع لكون المشار إليه[3] مُقدَّمًا في الوجود، وهو السَّلْك الواقع في الأمم السالفة، أو للدلالة على استحضار الصورة. والسَّلْكُ: إدخالُ الشيء في آخرَ، يقال: سَلكتُ الخيطَ في الإبرة والرُّمحَ في المطعون.[4]

---

١ وفي هامش م: إذ التقدير حينئذ: إلّا من رسول كانوا به يستهزءون. «منه».
٢ وفي هامش م: أي: إلّا رسولًا كانوا به يستهزءون. «منه».
٣ م ط س: المشبّه به [صحح في هامش م ط].
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٠.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالذِكر، حال مِن ضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾، أي: غيرَ مؤمَن به، أو بيانٌ للجملة السابقة فلا محلّ لها، وقد جُعل الضمير[1] للاستهزاء فيتعيَّن البيانيّة إلّا أن يُجعَل الضمير المجرور أيضًا له، على أنّ الباء للمُلابَسة، أي: نسلُك الاستهزاء في قلوبهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين بملابسته، والحالُ إمّا مقدَّرةٌ أو مقارِنة للإيذان بأنّ كفرهم مقارن للإلقاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة، ٨٩/٢]. ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد مضت طريقتهم التي سنّها الله تعالى في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا مِن التكذيب والاستهزاء، وهو استئناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحًا بالوعيد والتهديد.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بابًا ما -لا بابًا مِن أبوابها المعهودة كما قيل-[2] ويسَّرنا لهم الرُّقيَّ والصعودَ إليه ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ بآلة أو بغيرها ويرَون ما فيها مِن العجائب عِيانًا كما يفيده الظُّلول، أو فظلّ الملائكة الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون / في ذلك الباب، وهم يرَونه عِيانًا مستوضِحين طولَ نهارهم. [٢٨٩و]

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ لفرْط عِنادهم وغُلوّهم في المكابرة وتفاديهم عن قَبول الحقّ: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت مِن الإحساس مِن "السِّكر"، كما يدلّ عليه القراءةُ بالتخفيف،[3] أو حُيِّرت كما يعضُده قراءة مَن قرأ "سَكِرَتْ"[4] أي: حارت.

---

[1] وفي هامش م: في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[3] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠١/٢.

[4] م س: سُكِرتْ. | والمثبتُ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزُّهري وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٤.

﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ أي:[١] قد سحَرنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة. وفي كلمتَي الحصر والإضراب دلالة على أنّهم يبتّون القول بذلك، وأنّ ما يرَونه لا حقيقةَ له وإنّما هو أمر خُيِّل إليهم بالسِّحر. وفي اسميّة الجملة الثانية دلالةٌ على دوام مضمونها، وإيرادُها بعد تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه، فإنّ عُروج كلّ منهم إلى السماء وإن كان مرئيًا لغيره فهو معلوم له بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الأبصار، فهم يدَّعون أنّ ذلك نوع آخرُ مِن السِّحر غيرُ تسكير الأبصار.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ قصورًا ينزلها السيّارات، وهي البروج الاثنا عشرَ المشهورة المختلفةُ الهيئاتِ والخواصِّ حسبما يدلّ عليه الرصد والتجرِبة مع ما اتّفق عليه الجمهور مِن بساطة السماء. والجعل إن جُعِل بمعنى الخَلْق والإبداع -وهو الظاهر- فالجارُّ متعلِّق به، وإن جُعل بمعنى التصييرِ فهو مفعول ثانٍ له متعلِّق بمحذوف، أي: جعلنا بروجًا كائنة في السماء.[٢]

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء بتلك البروج المختلفةِ الأشكال والكواكب سيّاراتٍ كانت أو ثوابتَ. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ إليها، فمعنى التزيين ظاهرٌ، أو للمُتفكّرين المُعتبِرين المُستدلّين بذلك على قدرة مُقدِّرها وحكمةِ مُدبِّرها، فتزيينُها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة.

﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ مَرميّ بالنجوم، فلا يقدِر أن يصعَد إليها، ويوسوسَ في أهلها، / ويتصرّفَ فيها ويقفَ على أحوالها. [٢٨٩ظ]

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ محلُّه النصب على الاستثناء المتّصلِ إن فُسِّر الحِفظ بمَنْع الشياطين عن التعرّض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة،

---

١ م - أي.

٢ وفي هامش م: تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة، ٢/٣٠].

أو المنقطِعِ إن فُسِّر ذلك بالمَنْع عن دخولها والتصرّف فيها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّهم كانوا لا يُحجَبون عن السماوات، فلمّا وُلد عيسى عليه السلام مُنعوا مِن ثلاث سماوات، ولمّا وُلد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُنِعوا مِن السماوات كلِّها».[١] واستراق السمع اختلاسُه سِرًّا، شُبِّه به خَطفتُهم اليسيرة مِن قُطّان السماوات بما بينهم مِن المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال مِن الأوضاع.[٢]

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ أي: تبِعه ولحِقه ﴿شِهَابٌ﴾ لهب مُحرِق، وهي شعلة نار ساطعةٌ، وقد يطلَق على الكوكب والسِّنان لِما فيهما مِن البريق. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ أمرُه للمبصِرين.

قال مَعمَر:[٣] قلتُ لابن شِهاب الزُّهري: «أكان يُرمى بالنجوم في الجاهليّة؟» قال: «نعم، وإنّ النجم ينقضّ ويرمي الشيطان فيقتله أو يُخبِّله لئلّا يعود إلى استراق السمع، ثمّ يعود إلى مكانه»، قال: «أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ الآية، [الجن، ٩/٧٢]»، قال: «غُلِّظت وشُدِّد أمرها حين بُعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[٤] قال ابن قتيبة:[٥] إنّ الرجم كان قبل مبعثِه صلّى الله عليه وسلّم، ولكن لم يكن في شدّة الحراسة كما بَعْد مبعثِه عليه السلام.[٦] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الشياطين يركَب بعضهم بعضًا إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ مِن الملائكة، فيُرمَون بالكواكب فلا يخطئ أبدًا،

---

[١] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[٢] وفي هامش م: على أنّ المراد بالقطّان: ما يعمّ الكواكب. «منه».

[٣] هو معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي البصري، أبو عروة (ت. ١٥٣هـ/٧٧٠م). الإمام الفقيه الحافظ المتقِن الثقة شيخ الإسلام، نزيل اليمن. عُرف بالتحرّي والورع والجلالة وحُسن التصنيف. وهو مِن مؤرّخي رجال الحديث. طلب العلم وهو حَدَث. حدّث عن قتادة والزهري وعروة بن دينار وعاصم بن أبي النَّجود ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، وحدّث عنه أيّوب وأبو إسحاق وعمرو بن دينار وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥/٧-١١٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٢/٧.

[٤] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١-٤٤١.

[٥] هو عبد الله بن مسلم بن قُتيبة، وقيل: المروزي، أبو محمد (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩م). النحوي اللغوي الفاضل الثقة، ومِن أئمّة الأدب ومِن المصنِّفين المكثرين، وُلد ببغداد وتوفّي فيها وسكن الكوفة، أشهر مؤلّفاته: أدب الكاتب، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، والمعارف، وتأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن، وتأويل مختلف الحديث، وهي مطبوعة. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٤٢/٣؛ والأعلام للزركلي، ٣٧/٤.

[٦] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٤/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٤١/١١.

فمنهم مَن يقتله ومنهم مَن يُحرِق وجهَه وجنبَه ويدَه حيث يشاء الله تعالى، ومنهم مَن يُخبِّله فيصير غُولًا فيُضلّ الناس في البوادي».[١] قال القرطبيّ: «اختلفوا في أنّ الشهاب هل يقتُل أم لا؟ قال ابن عبّاس: "يجرَح ويُحرِق ويُخبِّل ولا يقتُل"،[٢] وقال الحسن وطائفة: "يقتل"». قال: «والأوّل أصحّ».[٣]

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها، وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير، ولم يُقرأ بالرفع لرجحان النصب / للعطف على الجملة الفعليّة، أعني [٢٩٠و] قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾... إلخ،[٤] وليُوافقَ ما بعده، أعني قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، وقد مرّ بيانه في أوّل "الرعد".

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض أو فيها وفي رواسيها ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ بميزان الحِكمة ذاتًا وصفةً ومِقدارًا. وقيل: ما يُوزَن مِن نحو الذهب والفضّة وغيرهما، أو مِن كلّ شيء مستحسَن مناسِب، أو ما يُوزَن ويُقدَّر مِن أبواب النعمة.[٥]

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ ما تعيشون به مِن المطاعم والملابس وغيرهما ممّا يتعلّق به البقاء، وهي بياء صريحة، وقُرئ بالهمزة[٦] تشبيهًا له بـ"الشمائل". ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾ أو على محلّ ﴿لَكُمْ﴾، كأنّه قيل: جعلنا لكم معايشَ وجعلنا لكم مَن لستم برازقيه مِن العِيال والمماليك والخدَم والدوابِّ وما أشبهها على طريقة التغليب، وذِكرُهم بهذا العنوان لردّ حسبانهم أنّهم يَكفُون مئوناتِهم، ولتحقيق أنّ الله تعالى هو الذي يرزقهم وإيّاهم، أو وجعلنا[٧] لكم فيها معايشَ ولمَن لستُم له برازقين.

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٢/٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٠/١١.

[٢] جامع البيان للطبري، ٣٣/١٤.

[٣] من قوله: "قال القرطبي" بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٤٤١/١١. وانظر: تفسير القرطبي، ١١/١٠.

[٤] الحجر، ١٦/١٥.

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٢.

[٧] السياق: جعلنا لكم معايش... أو جعلنا...

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿إِن﴾ للنفي و﴿مِن﴾ مَزيدة للتأكيد، و﴿شَيْءٍ﴾ في محلّ الرفع على الابتداء، أي: ما مِن شيء مِن الأشياء المُمكنة، فيدخُل فيها ما ذُكر دخولًا أوّليًا.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الظرف خبر للمبتدأ. و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ مُرتفِع به على أنّه فاعله لاعتماده، أو خبر له، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. والخزائن: جمع "الخِزانة" وهي ما يحفظ فيه نفائسُ الأموال لا غيرُ، غلَب في العُرف على ما للملوك والسلاطين مِن خزائن أرزاقِ الناس، شُبّهت مقدوراته تعالى الفائقة للحصر المندرجة تحت قدرتِه الشاملة في كونها مستورةً عن علوم العالَمين ومَصونةً عن وصول أيديهم مع كمال افتقارِهم إليها ورغبتِهم فيها، وكونِها مهيّأة متأتّية لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلّقت الإرادة بوجودها وُجدت / بلا تأخُّر بنفائس الأموال المخزونة [٢٩٠ظ] في الخزائن السلطانيّة، فذِكرُ الخزائن على طريقة الاستعارةِ التخييليّة.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: ما نُوجِد وما نكوّن شيئًا مِن تلك الأشياء ملتبسًا بشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: إلّا ملتبِسًا بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئةُ التابعة لها، لا بما تقتضيه القدرة، فإنّ ذلك غيرُ متناهٍ، فإنّ تخصيص كلّ شيء بصفة معيّنة وقدر معيّن ووقت محدود دون ما عدا ذلك، مع استواء الكلّ في الإمكان واستحقاق تعلُّق القدرة به، لا بدّ له مِن حكمة تقتضي اختصاصَ كلّ مِن ذلك بما اختصّ به، وهذا البيان سرُّ عدم تكوين الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة.

وهو إمّا عطفٌ على مقدَّر، أي: نُنزِّله وما نُنزّله... إلخ، أو حال ممّا سبق، أي: عندنا خزائنُ كلّ شيء، والحال أنّا ما نُنزّله إلّا بقدر معلوم، فالأوّل لبيان سَعة القدرة والثاني لبيان بالغ الحِكمة، وحيث كان إنشاء ذلك بطريق التفضّل مِن العالم العُلوي إلى العالم السفلي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]، وكان ذلك بطريق التدريج عُبّر عنه بالتنزيل، وصيغةُ المضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ عطفٌ على ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾،[١] وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيحِ ما لحِق، أي: أرسلنا الرياح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ أي: حواملَ، شُبِّهت الريح التي تجيء بالخير مِن إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شُبِّه بالعقيم ما لا يكون كذلك، أو ملقِّحات بالشجر والسحاب، ونظيره "الطوائح" بمعنى المُطيحات، في قوله:

ومُختبِطٍ مِمّا تُطيحُ الطوائحُ[٢]

أي: المُهلِكات. وقُرئ: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ"[٣] على إرادة الجنس.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابًا ماطرًا. ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سُقيًا وهو أبلغ مِن "سقيناكموه"، / لِما فيه مِن الدلالة على جَعْل الماء مُعدًّا لهم ينتفعون به متى شاءوا. [٢٩١و]

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾،[٤] كأنّه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخَزْنه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين. وقيل: ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغُدران والآبار والعيون؛ بل نحن نخزُنه فيها لنجعلَها سقيًا لكم مع أنّ طبيعةَ الماء تقتضي الغَوْر.[٥]

---

١ الحجر، ٢٠/١٥.

٢ عجز بيت صدره:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ

واختُلف في نسبتِه: فهو للبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه، ص ٣٦٢؛ وللحارث بن نَهيك في كتاب سيبويه ٢٨٨/١؛ وشرح الرضي على الكافية ١٩٨/١؛ ولنَهشل بن حَرّيّ في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٨/١٢، وللحارث بن ضِرار النهشلي في الحماسة البصرية للبصري، ٧٥٦/٢؛ ولضِرار بن نَهشل في المطوَّل للتفتازاني، ص ١٤٤؛ ومعاهد التنصيص للعبّاسي، ٢٠٣/١. والعجز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٢. وأورد البغدادي في خزانة الأدب، ٣٠٣/١-٣١٣، نسبته إلى هؤلاء وإلى غيرهم، ورجّح نسبته إلى نَهشل بن حَرّي. | والمختبط: طالب العطاء مِن غير سابق معرفة ولا وسيلة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خبط».

٣ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٤/٢، ٣٠١.

٤ الآية السالفة.

٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٧/٢.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، وقد يُعمَّم الإحياء والإماتة لِما يشمل الحيوان والنبات. وتقديم الضمير للحصر، وهو إمّا تأكيد للأوّل أو مبتدأ خبرُه الفعل، والجملةُ خبرٌ لـ"إنّ". ولا يجوز كونه ضميرَ الفصل، لا لأنّ اللام مانعة عن ذلك كما قيل،[1] فإنّ النحاة جوّزوا دخولَ لام التأكيد على ضمير الفصل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران، ٦٢/٣]؛[2] بل «لأنّه لم يقع بين اسمين».[3]

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الباقون بعد فناء الخلق قاطبة، المالكون للمُلك عند انقضاء زمان المُلك المجازي، الحاكمون في الكلّ أوّلًا وآخرًا، وليس لهم إلّا التصرّف الصُّوري والمُلك المجازي، وفيه تنبية على أنّ المتأخِّر ليس بوارث للمتقدِّم كما يتراءى مِن ظاهر الحال.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ مَن تقدّم منكم ولادةً وموتًا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ مَن تأخّر ولادةً وموتًا، أو مَن خرج مِن أصلاب الآباء ومَن لم يخرُج بعدُ، أو مَن تقدَّم في الإسلام والجهاد / وسبق إلى الطاعة ومَن تأخّر [٢٩١ظ]
في ذلك، لا يخفى علينا شيء مِن أحوالكم، وهو بيان لكمال علمِه تعالى بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإنّ ما يدلّ عليها دليل عليه، وفي تكرير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال التأكيد.

وقيل: رغّب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الصفّ الأوّل فازدحموا

---

[1] قاله أبو البقاء في التبيان، ٧٨٠/٢؛ ونقله السمين الحلبي في الدرّ المصون، ١٥٥/٧؛ ابن عادل في اللباب، ٤٤٨/١١.

[2] هذا الردُّ في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٥٥/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

[3] اللباب لابن عادل، ٤٤٨/١١.

عليه، فنزلت.[١] وقيل: إنّ امرأة حسناءَ كانت تصلّي خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتقدّم بعض الناس لئلّا يراها وتأخّر آخرون ليرَوها، فنزلت.[٢]

والأوّل هو المناسب لِما سبق وما لحق مِن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي:[٣] للجزاء. وتوسيط ضمير العظَمة للدلالة على أنّه هو القادر على حَشْرهم والمتولّي له لا غير، لأنّهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون: مَن يحيي العظام وهي رميم؟ أي: هو يحشُرهم لا غيرُ. وفي الالتفات والتعرّض لعنوان الربوبيّةِ إشعارٌ بعلّة الحُكم، وفي الإضافة إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم دلالة على اللطف به عليه السلام.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ بالغ الحكمة متقِن في أفعاله، فإنّها عبارة عن العِلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه، والإتيانِ بالأفعال على ما ينبغي. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسِع عِلمُه كلّ شيء. ولعلّ تقديمَ صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: هذا النوع بأن خلقنا أصله وأوّل فرد مِن أفراده خلقًا بديعًا منطويًا على خلق سائر أفراده انطواء إجماليًا كما مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ مِن طين يابس غير مطبوخ، يُصلصل، أي: يصوِّت عند نقره. قيل: إذا توهّمت في صوته مدًّا فهو صليل، وإن توهّمت فيه ترجيعًا فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف "صلّ" إذا أنتن.[٤]

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ مِن طين تغيّر واسودّ بطول مجاورة الماء، وهو صفة لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ أي: مِن صلصال[٥] كائن مِن حمإ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصوَّر، / مِن "سُنّة الوجه" وهي صورته، [٢٩٢و]

---

[١] لم أجده في مظانّه. وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣٧-٢٣٨.

[٢] مرويّ عن ابن عبّاس بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٣-٥٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣؛ اللباب لابن عادل، ١١/٤٤٨.

[٣] ط س - أي.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٣.

[٥] وفي هامش م: أو مكوّنٍ كما يدلّ عليه ﴿خَلَقْنَا﴾. «منه».

أو مصبوب، مِن "سَنّ الماء": صبّه، أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان كما تُفرَغ الصور مِن الجواهر المُذابة في القوالب. وقيل: مُنتن فهو صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾.[١] وعلى الأوّلَين حقُّه أن يكون صفة لـ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾،[٢] وإنّما أُخِّر عن ﴿حَمَإٍ﴾ تنبيهًا على أنّ ابتداء مسنونيّته ليس في حال كونه صلصالًا؛ بل في حال كونه حمأ، كأنّه سبحانه أفرغ الحمأ فصوَّر مِن ذلك تمثال إنسان أجوفَ فيَبِس حتّى إذا نُقر صوَّت ثمّ غيَّره إلى جوهر آخرَ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾

﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ أبا الجنّ. وقيل: إبليس.[٣] ويجوز أن يُراد به الجنس كما هو الظاهر مِن الإنسان لأنّ تشعُّب الجنس لمّا كان مِن فرد واحد مخلوق مِن مادّة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقًا منها. وقُرئ بالهمز.[٤] وانتصابه بفعل يفسّره.

﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ وهو أقوى مِن الرفع للعطف على الجملة الفعلية. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مِن قبل خلق الإنسان. ومِن هذا يظهر جواز كون المراد بـ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ أحدَ الثقلين وبـ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ الآخرَ، والخطاب بقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾[٥] للكلّ.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ مِن نار الحرّ الشديد النافذ في المسامّ. ولا امتناعَ في خَلْق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا امتناعَ في خَلْقها في الجواهر المجرَّدة، فضلًا عن الأجسام المؤلَّفة التي غالب أجزائها الجزء الناري، فإنّها أقبل لها مِن التي غالب أجزائها الجزء الأرضي. وقوله تعالى: ﴿مِن نَّارٍ﴾ باعتبار الغالب كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم، ٢٠/٣٠]. ومَساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين، فهو للتنبيه على المقدِّمة الثانية التي يتوقّف عليها إمكان الحشر، وهو قبول الموادّ للجمع والإحياء.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

٢ وفي هامش م: وإن أمكن كونه صفة لـ﴿حَمَإٍ﴾ أيضا؛ لأنّه المُصوَّر والمُفرَغ. «منه».

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي السَّمّال وأيوب السَّختياني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٤-٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٨٨.

٥ الحجر، ٢٤/١٥.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ نَصْب بإضمار "اذكُر"، وتذكير الوقت لِما مرّ مرارًا مِن أنّه أدخَل في تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث، وفي التعرّض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن تبليغ الشيء / إلى كماله اللائق به شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشعار بعلّة الحُكم وتشريف له صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكُر وقت قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ فيما سيأتي. وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّةَ مِن غير صارف يثنيه ولا عاطف يَلويه. [٢٩٢ظ]

﴿بَشَرًا﴾ أي إنسانًا. قيل: ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب؛ بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم: إنّي خالق خلقًا مِن صفته كيت وكيت، ولكن اقتُصر عند الحكاية على الاسم. وقيل:[1] جسمًا كثيفًا يُلاقى ويُباشَر. وقيل: خلقًا بادي البشرة بلا صوف ولا شعر.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلِّق بـ﴿خَٰلِقٌۢ﴾، أو بمحذوف وقَع صفة لمفعوله، أي: بشرًا كائنًا مِن صلصال كائن. ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تقدَّم تفسيره، ولا يُنافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص مِن قوله: ﴿بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص، ٧١/٣٨]، فإنّ عدم التعرّض عند الحكاية لوصف الطين مِن التغيّر والاسوداد -ولِما ورد عليه مِن آثار التكوين-[2] لا يستلزم عدم التعرّض لذلك عند وقوع المحكي، غايته أنّه لم يتعرَّض له هناك اكتفاء بما شُرح ههنا.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوَّيتُ أجزاء بدنه بتعديل طبائعه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ النَّفْخ: إجراء الرِّيح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها. وليس ثمّة نَفْخ ولا منفوخ وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمّلتُ استعداده

[1] وفي هامش م: إمام رازي. | انظر: تفسير الرازي، ١٣٩/١٩.

[2] وفي هامش م: هي المسنونيّة. «منه».

وأفضتُ عليه ما يحيا به مِن الرُّوح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ﴾ أمر مِن "وقَع يقَع"، وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرّد الانحناء كما قيل، أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّة له وتعظيمًا، أو اسجدوا الله تعالى على أنّه عليه السلام بمنزلة القِبلة، حيث ظهر فيه تعاجيبُ آثار قدرته تعالى وحكمته، كقول حسّان رضي الله عنه:

أليسَ أوّلَ مَن صلّى لقبلتكم وأعلمَ الناس بالقرآن والسُّننِ[1]

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمۡ﴾ بحيث لم يشذّ منهم أحد ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخّر في ذلك أحد منهم عن أحد، ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا، فإنّ الاشتقاق الواضح يُرشِد إلى أنّ فيه معنى الجَمْع والمعيّة بحسب الوضع، والأصل في الخطابي التنزيل على أكمَل أحوال الشيء، ولا ريبَ في أنّ السجود معًا أكملُ أصناف السجود، لكن شاع استعماله تأكيدًا وأُقيم مُقامَ "كلّ" في إفادة معنى الإحاطة مِن غير نظر إلى الكمال، فإذا فُهِمت الإحاطة مِن لفظ آخر لم يكن بدّ مِن مراعاة الأصل صونًا للكلام عن الإلغاء.[2]

وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغة في التعميم.[3] هذا وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكيَ مِن الأمر التعليقي كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص، أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه ما في غيرهما، فقد خرجنا بفضل الله عزّ وجلّ عن عُهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة.[4]

---

[1] هو لحسّان بن ثابت في تفسير الرازي، ٤٢٧/٢ (البقرة، ٣٤/٢)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٧/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢١٤/١١ (يوسف، ١٠٠/١٢)، وليس في ديوان حسّان بن ثابت ولا في ملحقاته.

[2] ما ذكره المُصنّف ههنا هو قول المبرّد، وهو خلافُ مذهب سيبويه فيه. قال الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١٧٩/٣: «قال سيبويه والخليل ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد، وقال محمّد بن يزيد: ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ يدلُّ على اجتماعهم في السجود، والمعنى: فسجدوا كلُّهم في حالة واحدة. وقولُ سيبويهِ والخليل أجودُ؛ لأنّ أجمعين معرفة فلا يكون حالًا». انظر: كتاب سيبويه ٢٨٧/٢؛ ومعاني القرآن للأخفش ١٧٥/١ (البقرة، ١٩٦/٢).

[3] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣٩/٢.

[4] في الآية الرابعة والثلاثين منها.

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء متّصل إمّا لأنّه كان جنّيًا مفرَدًا مغمورًا بألوف مِن الملائكة فعُدّ منهم تغليبًا، وإمّا لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون وهو منهم. وقوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ استئناف مبيِّن لكيفيّة عدم السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ مطلق عدم السجود قد يكون مع التردّد وبه عُلِم أنّه مع الإباء والاستكبار، أو مُنقطِع[1] فيتّصل به ما بعده، أي: / لكنّ إبليسَ أبى أن يكون معهم. [٢٩٣و]

وفيه دلالة على كمال رَكاكة رأيه حيث أدمَج في معصية واحدة ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، والاستكبارَ مع تحقير آدم عليه السلام، ومفارقةَ الجماعة والإباءَ عن الانتظام في سِلك أولئك المقرَّبين الكرام.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال مَن قال: فماذا قال تعالى عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ سبب لك؟ لا أيُّ غرض لك؟ كما قيل؛[2] لقوله تعالى: ما منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ في ألّا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم مع أنّهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرّد تخلُّفه عنهم؛ بل على كلّ[3] مِن المعاصي الثلاث المذكورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف، ١٢/٧]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، ولكن اقتُصر عند الحكاية في كلّ موطن على ما ذُكر فيه اجتزاء بما ذُكر في موطن آخرَ، وإشعارًا بأنّ كلّ واحدة مِن تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه. وقد تُرِكت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة وسورة بني إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه.

---

١ السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٤/٢.

٣ م س: لكلّ. [صُحّح في هامش م].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليس، وهو أيضًا استئناف مبنيّ على السؤال الذي ينساق إليه الكلام. ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ "اللام" لتأكيد النفي، أي: يُنافي حالي ولا يستقيم منّي لأنّي مخلوق مِن أشرف العناصر وأعلاها أن أسجُد ﴿لِبَشَرٍ﴾ أي: جسم كثيف ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ اقتُصر ههنا على الإشارة الإجماليّة إلى ادّعاء الخيريّة وشرفِ المادّة اكتفاء بما صرّح به حين قال: أنا خير منه خلقتني مِن نار وخلقته مِن طين، ولم يكتفِ اللعين بمجرّد ذِكر كونه عليه السلام مِن التراب الذي هو أخسّ العناصر وأسفلُها؛ بل تعرّض لكونه مخلوقًا منه في أخسّ أحواله مِن كونه طينًا متغيّرًا، / وقد اكتفى في سورة الأعراف [٢٩٣ظ] وسورة ص بما حُكيَ عنه ههنا فاقتُصر على حكاية تعرُّضه لخَلْقه عليه السلام مِن طين، وكذا في سورة بني إسرائيل حيث قيل: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء، ١٧/٦١].

وفي جوابه دليل على أنّ قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ﴾[١] ليس استفسارًا عن الغرض؛ بل هو استفسار عن السبب. وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رَوْمٌ للتفصّي[٢] عن المناقشة، وأنّى له ذلك؟ كأنّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام في سِلك الملائكة؛ بل عمّا لا يليق بشأني مِن الخضوع للمفضول، ولقد جرى -خذَله الله تعالى- على سَنن قياس عقيم، وزلّ عنه أنّ ما يدور عليه فلَك الفضل والكمال هو التحلّي بالمعارف الربانيّة والتخلّي عن المَلَكات الرَّدِيّة، التي أقبحُها التكبّر والاستعصاء على أمر ربّ العالمين جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: مِن زُمرة الملائكةِ المعزَّزين لا مِن السماء، فإنّ وسوسته لآدمَ عليه السلام في الجنّة إنّما كانت بعد هذا الطرد، وقوله تعالى:

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] التفصّي: التخلّص، وأصله أن يكون الشيء في مضيق ثمّ يخرج إلى غيره. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فصي».

﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧] ليس نصًا في ذلك، فإنّ الخروج مِن بين الملإ الأعلى هبوطٌ وأيُّ هبوط؟ أو مِن الجَنّة.[1] على أنّ وسوسته كانت بطريق النداء مِن بابها كما رُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه،[2] أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسّل إليه بالحيّة كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[3] ولا ينافي هذا طردَه على رءوس الأشهاد لِما يقتضيه مِن الحِكَم البالغة.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود مِن كلّ خير وكرامةٍ، فإنّ مَن يُطرَدْ يُرجَمْ بالحجارة، أو شيطان يُرجَمُ بالشهب وهو وعيد يتضمّن الجوابَ عن شبهته، فإنّ مَن عارض النصَّ بالقياس فهو رجيم ملعون.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ الإبعادَ عن الرحمة، وحيث كان ذلك مِن جهة الله سبحانه وإن كان جاريًا على ألسنة العبادِ، قيل: في سورة ص ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص، ٧٨/٣٨].

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ / إلى يوم الجزاء والعقوبة. وفيه إشعار بتأخير عقابه وجزائِه إليه، وأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لفعله، وإنّما يتحقّق ذلك يومئذ، وفيه مِن التهويل ما لا يُوصَف، وجَعْلُ ذلك أقصى أمَد اللعنة ليس لأنّها تنقطِع هنالك؛ بل لأنّه عند ذلك يُعذّب بما يَنسى به اللعنة مِن أفانين العذابِ، فتصير هي كالزائل. [٢٩٤و]

وقيل: إنّما حُدّت به لأنّه أبعد غاية يُضَرّ بها الناس،[4] كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، وحيث أمكَن كون تأخير العقوبة مع الموت كسائر مَن أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة مِن الكفَرة، طلَب اللعين تأخيرَ موته كما حُكيَ عنه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ أي: أمهلني وأخِّرني ولا تُمِتْني، و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا

---

[1] السياق: مِن زمرة الملائكة... أو مِن الجنّة...

[2] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.

[3] ما وجدتُه فيما بين يديّ من المظانّ.

[4] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٠.

فأمهِلني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّته للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأره وينجوَ مِن الموت لاستحالته بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ورودُ الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يُؤذِن بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به وقَع إجابةً لدعائه، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمة التكوين، فـ"الفاء" ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كما في قوله:

فـــإن تـــرحَـــم فـــأنـــت لـــذاك أهـــل[١]

فإنّه لا إمكانَ لجَعْل "الفاء" فيه لربط ما فيه تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لرَبْط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها، وأنّ استنظاره كان طلبًا لتأخير الموت إذ به / يتحقَّق كونه مِن جملتهم، [٢٩٤ظ] لا لتأخير العقوبة كما قيل.

ونظمُه في ذلك في سِلك مَن أُخِّرت عقوبتُهم إلى الآخرة في عِلم الله تعالى ممّن سبَق مِن الجنّ ولحِق مِن الثقلين لا يُلائم مَقام الاستنظار مع الحياة، ولأنّ ذلك التأخير معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين" مع إضافته في السؤال إلى البعث كما عرفته، وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٤-١٥]، بترك التوقيت والنداء والفاء في الاستنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكِر ههنا وفي سورة ص، فإنّ إيراد كلام واحد على أساليبَ متعدِّدة غيرُ عزيز في الكتاب العزيز.

---

١ وفي هامش م: تمامه:
وإن تـطـرُد فـمَـن يـرحَـم سواكا
وما عرفتُ قائله، وهو بلا نسبة في معاهد التنصيص للعبّاسي، ١/١٧٠.

وأمّا أنّ كلّ أسلوب مِن أساليب النظم الكريم لا بدّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمقام غيره، وأنّ ما حُكي مِن اللعين إنّما صدر عنه مرّة، وكذا جوابُه لم يقع إلّا دَفعة، فمقامُ المحاورة إن اقتضى أحدَ الأساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغُ إلى طبقة الإعجاز وما عداه قاصر عن رُتبة البلاغة فضلًا عن الارتقاء إلى معالم الإعجاز، فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الأعراف.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت النفخة الأولى التي عُلم أنّه يُصعَق عندها مَن في السماوات ومَن في الأرض إلّا مَن شاء الله تعالى، ويجوز أن يكون المراد بالأيّام واحدًا، والاختلافُ في العبارات لاختلاف الاعتبارات: فالتعبيرُ بـ"يوم البعث" لأنّ غرض اللعين به يتحقّق، وبـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1] لِما ذُكر مِن الجزاء، وبـ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ لِما ذُكر، أو لاستئثاره تعالى بعِلمه، فلعلّ كلًّا مِن هلاك الخلق جميعًا وبَعْثهم وجزائهم في يوم واحد، يموت اللعين في أوّله ويُبعث في أواسطه ويعاقب في بقيّته. يُروى أنّ بين موتِه وبعثه أربعين سنة مِن سِني الدنيا مقدارَ ما بين النفختين.[2]

ونُقل عن / الأحنف بن قيس[3] رحمه الله أنّه قال: قدِمتُ المدينة أريدُ أمير المؤمنين عمرَ رضي الله تعالى عنه، فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعبُ الأحبار فيها يُحدِّث الناس وهو يقول: «لمّا حضر آدمَ عليه السلام الوفاةُ قال: "يا ربِّ سيشمت بي عدوّي إبليسُ إذا رآني ميّتًا وهو مُنظَر إلى يوم القيامة"، فأجيبَ [٢٩٥و]

---

١ الحجر، ١٥/٣٥.

٢ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨١/٤.

٣ هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر (ت. ٧٢هـ/٦٩١م). هو سيّد تميم، والعالم النبيل، وأحد العظماء الدُّهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يُضرب بحلمه وسؤدده المَثل. وُلد في البصرة وأدرك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يرَه. شهد الفتوح في خراسان وشهد صفّين مع عليّ رضي الله عنه واعتزل الفتنة يوم الجمل، وولي خراسان. وله خطب وكلمات متفرّقة في كتب التاريخ والأدب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٨٦/٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٦/١.

"أن يا آدمُ إنّك ستَرِد إلى الجنّة ويُؤخَّر اللعين إلى النظِرة ليذوقَ ألم الموت بعدد الأوّلين والآخِرين"، ثمّ قال لملَك الموت: "صِف كيف تُذيقه الموت"، فلمّا وصفه قال: "يا ربّ حسبي"». فضجّ الناسُ وقالوا: «يا أبا إسحاقَ كيف ذلك؟» فأبى، فألحّوا فقال: «يقول الله سبحانه وتعالى لمَلَك الموت عقِيبَ النفخةِ الأولى: "قد جعلتُ فيك قوّة أهل السماوات[١] وأهلِ الأرضِين السبع، وإنّي ألبستُك اليوم أثواب السخط والغضب كلَّها، فانزِلْ بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليسَ فأذِقْه الموتَ واحمِلْ عليه فيه مرارة الأوّلين والآخِرين مِن الثقلين أضعافًا مضاعَفة، وليكن معك مِن الزبانية سبعون ألفًا قد امتلئوا غيظًا وغضبًا، وليكُن مع كلّ منهم سِلسلةٌ مِن سلاسل جهنّم وغُلٌّ مِن أغلالها، وانزع روحَه المُنتِن بسبعين ألف كُلّاب مِن كلاليبها، ونادِ مالكًا ليفتح أبواب النيران". فينزِل مَلَك الموت بصورةٍ لو نظر إليها أهل السماوات والأرضِين لَماتوا بغتةً مِن هولها، فينتهي إلى إبليس فيقول: "قِف لي يا خبيثُ لأُذيقنّك الموت! كم مِن عمر أدركتَ وقرونٍ أضللتَ! وهذا هو الوقتُ المعلوم"». قال: «فيهرُب اللعين إلى المشرِق فإذا هو بمَلَك الموت بين عينيه، فيهرُب إلى المغرِب فإذا هو به بين عينيه، فيغوص البحارَ فتنزُّ منه البحار فلا تقبله، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا محيصَ له[٢] / ولا ملاذَ، ثمّ يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدمَ عليه السلام، ويتمرَّغ في التراب مِن المشرِق إلى المغرِب ومِن المغرِب إلى المشرِق، حتّى إذا كان في الموضع الذي أُهبِط فيه آدمُ عليه السلام، وقد نَصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب، ويبقى في النزع.والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى، ويقال لآدمَ وحواءَ: اطّلِعا اليوم إلى عدوّكما كيف يذوق الموت، فيطّلِعان فينظران إلى ما هو فيه مِن شدّة العذاب فيقولان: ربّنا أتممتَ علينا نعمتك».[٣] [٢٩٦و]

---

١ س + السبع.

٢ ظهر اللوح ٢٩٥ مِن نسخة المؤلّف أبيضُ، والكلام متّصل بعده.

٣ ما وجدت مصدر المُصنِّف في هذا الخبر.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ "الباء" للقسم، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والجواب ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ﴾ أي: أقسِم بإغوائك إيّايَ لأزينن[1] لهم المعاصيَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في الدنيا التي هي دارُ الغرور، كقوله تعالى: ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف، ١٧٦/٧]. وإقسامُه بعزّة الله المُفسَّرة بسلطانه وقهره لا يُنافي إقسامه بهذا، فإنّه فَرْع مِن فروعها وأثر مِن آثارها، فلعلّه أقسَم بهما جميعًا فحُكي تارة قسمُه بهذا وأخرى بذاك، أو للسببيّة. وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابُ قَسَم محذوف، والمعنى: بسبب تسبيبك لإغوائي أقسِم لأفعلنّ بهم مثلَ ما فعلتَ بي مِن التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصي وتسويل الأباطيل.

والمعتزلة أوّلوا الإغواء بالنسبة إلى الغيّ أو التسبّب له بأمره إيّاه بالسجود لآدم عليه السلام، واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطه له على إغواء بني آدم بأنّه تعالى قد علِم منه وممّن تبِعه أنّهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُمهِل أم لم يُمهَل، وأنّ في إمهاله تعريضًا لمَن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب.[2]

/ ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ لأحمِلنّهم على الغواية، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [٢٩٦ظ] الذين أخلصتَهم لطاعتك وطهّرتَهم مِن الشوائب، فلا يعمل فيهم كيدي، وقُرئ بكسر اللام،[3] أي: الذين أخلصوا نفوسَهم لله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١﴾

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي: حقّ عليَّ أن أُراعيَه ﴿مُسۡتَقِيمٌ﴾ لا عِوجَ فيه، والإشارة إلى ما تضمّنه الاستثناء وهو تخلّص المخلَصين مِن إغوائه، أو الإخلاصُ على معنى أنّه طريق يؤدّي إلى الوصول إليّ مِن غير اعوجاج وضلال،

---

١ س: لأزيّنن.

٢ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤١/٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

والأظهرُ أنّ ذلك لِما وقع في عبارة إبليسَ حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، [الأعراف، ٧/١٦-١٧]، وقُرِئ: "عَلِيٌّ"[١] مِن عُلوّ الشرف.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ وهم المشار إليهم بالمخلَصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ تسلُّط وتصرُّف بالإغواء ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ وفيه مع كونه تحقيقًا لِما قاله اللعين تفخيمٌ لشأن المخلَصين وبيانٌ لمنزلتهم ولانقطاع مَخالِب الإغواء عنهم، وأنّ إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان؛ بل بطريق اتّباعهم له بسوء اختيارهم.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ أي: موعدُ المتَّبِعين أو الغاوين، والأوّلُ أنسَب وأَدخَل في الزجر عن اتّباعه، وفيه دلالةٌ على أنّ جهنّم مكان الوعد وأنّ الموعود ممّا لا يُوصَف في الفظاعة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير أو حال، والعاملُ فيها الوعد إن جُعل مصدرًا على تقدير المضاف، أو معنى الإضافة إن جُعل اسم مكان.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ يدخُلونها لكثرتهم، أو سبعُ طبقات ينزِلونها بحسب مراتبهم في الغَواية والمُتابعة، وهي: جهنّم، ثمّ لظى، ثمّ الحُطَمة، ثمّ السعير، ثمّ سَقَر، ثمّ الجحيم، ثمّ الهاوية.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ مِن الأتباع أو الغُواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ حزب مُعيَّن مُفرَز مِن غيره حسبما يقتضيه استعداده: / فأعلاها للموحِّدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ جهنّم لمَن ادّعى الربوبيّة، [٢٩٧و]

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠١.

ولظى لعبَدة النار، والحُطَمة لعبدة الأصنام، وسَقَر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحِّدين».[١]

ولعلّ حصْرَها في السبع لانحصار المهلِكات في المحسوسات بالحواسّ الخمس ومقتضياتِ القوّة الشهويّة والغضبيّة. وقُرئ بضمّ الزاي،[٢] وبحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل.[٣] و﴿مِنۡهُمۡ﴾ حال مِن ﴿جُزۡءٞ﴾ أو مِن ضميره في الظرف لا في ﴿مَّقۡسُومٌ﴾، لأنّ الصفة لا تعمل فيما تقدّم موصوفَها.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مِن اتّباعه في الكفر والفواحش فإنّ غيرهما مُكفَّرة. ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ أي: مستقرّون فيها خالدين، لكلّ واحد منهم جنّة وعين، أو لكلّ منهم عدةٌ منهما، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٤٦/٥٥]. وقُرئ بكسر العين[٤] حيث وقع في القرآن العظيم.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾

﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ على إرادة القول أمرًا مِن الله تعالى لهم بالدخول. وقُرئ: "أَدْخِلُوهَا"[٥] أمرًا منه تعالى للملائكة بإدخالهم، وقرأ الحسن: "أُدْخِلُوهَا"[٦] مبنيًّا للمفعول على صيغة الماضي مِن الإدخال. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ ملتبِسين بسلام، أي: سالمين أو مسلَّمًا عليكم، ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن الآفات والزوال.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧﴾

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ كان في الدنيا، وعن عليّ رضي الله عنه:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٥/٢. وقريب منه عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٢/٤-٣٨٣. ولم أجده في مظانّه.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

٤ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢٢٦/٢.

٥ قرأ بها يعقوب. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٦١/٧؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٣/١١.

٦ قرأ بها رويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠١/١. ونسبها الزمخشري إلى الحسن في الكشّاف، ٤٢٥/٢.

«أرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبير منهم».[١] رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال مِن الضمير في قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾،[٢] / أو مِن فاعل [٢٩٧ظ]
﴿ٱدْخُلُوهَا﴾،[٣] أو مِن الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾،[٤] أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة، وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾. ويجوز كونهما صفتين لـ﴿إِخْوَٰنًا﴾ أو حالين مِن ضميره، لأنّه بمعنى متصافِّين، وكونُ الثاني حالًا مِن المستكنّ في الأوّل. وعن مجاهد: تدور بهم الأسرّة حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب بألّا يكونَ لهم فيها ما يُوجِبه مِن الكدّ في تحصيل ما لا بُدّ لهم منه، لحصول كلّ ما يريدونه مِن غير مزاولة عمل أصلًا، أو بألّا يعتريَهم ذلك وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوتِهم، وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال مِن الضمير في ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدَ الآباد لأنّ تمام النعمة بالخلود.

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ وهم الذين عُبّر عنهم بالمتقين ﴿أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ فذلكة لِما سلَف مِن الوعد والوعيد وتقريرٌ له، وفي ذِكر المغفرة إشعارٌ بأن ليس المراد بالمتّقين مَن يتّقي جميع الذنوب كبيرَها وصغيرَها. وفي وَصْف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القَصْر دون التعذيب إيذانٌ بأنّهما ممّا تقتضيهما الذات وأنّ العذاب إنّما يتحقّق بما يُوجِبه مِن خارج.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾،[٥] والمقصود اعتبارُهم بما جرى

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٤/٧٦-٧٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٥.
[٢] الحجر، ١٥/٤٥.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] الحجر، ١٥/٤٩.

على إبراهيمَ عليه السلام مِن البشرى في تضاعيف الخوف، وبما حلّ بقوم لوط مِن العذاب ونجاته عليه السلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف، وتنبُّههم لحلول انتقامه تعالى مِن المجرمين، وعِلمُهم بأنّ عذاب الله هو العذاب الأليم.

﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ عن ابن عبّاس: أنّهم جبريلُ عليه السلام وملكانِ معه،[1] وقال محمّد بن كعب: وسبعةٌ معه عليه السلام. وقيل: جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم السلام. / وقال الضحّاك: كانوا تسعةً، وعن السُّدّي: كانوا [٢٩٨و] أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم، وعن مقاتل: أنّهم كانوا اثني عشَرَ ملَكًا عليهم السلام.[2] وإنّما لم يتعرَّض لعنوان رسالتهم لأنّهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه السلام؛ بل إلى قوم لوط حسبما يأتي ذِكره.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ نصب بفعل مضمَر معطوف على ﴿نَبِّئْ﴾، أي: واذكر وقت دخولهم عليه، أو خبرٌ مُقدَّر مضاف إلى ﴿ضَيْفِ﴾،[3] أي: خبر ضيف إبراهيمَ حين دخولهم عليه، أو بنفس ﴿ضَيْفِ﴾[4] على أنّه مصدر في الأصل. ﴿فَقَالُواْ﴾ عند ذلك ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: نُسلِّم سلامًا أو سلَّمنا أو سَلِمتَ سلامًا.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، فإنّ الوجَل: اضطراب النفس لتوقّع مكروه. قاله عليه السلام حين امتنعوا مِن أكل ما قرَّبه إليهم مِن العجل الحنيذ، لِما أنّ المعتاد عندهم إذا نزَل بهم ضيف فلم يأكُل مِن طعامهم ظنُّوا أنّه لم يجئ بخير، لا عند ابتداء دخولهم، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود، ٧٠/١١]، فلا مجالَ لكون خوفه عليه السلام بسبب دخولِهم بغير إذن ولا بغير وقت، إذ لو كان كذلك

---

١ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

٢ هذه الأقوال الخمسة في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٤ (هود، ٦٩/١١)؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٢ (هود، ٦٩/١١)؛ وجامع البيان للطبري، ٤٦٥/١٢ (هود، ٦٩/١١).

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

لأجابوا حينئذ بما أجابوا به، ولم يتصدَّ عليه السلام لتقريب الطعام إليهم، وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما بُيِّن في غير هذا الموضع، ألا يُرى إلى أنّه لم يُذكر ههنا ردُّه عليه السلام لسلامهم.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، وقُرِئ: "لَا تَأْجَلْ"،[١] و"لَا تُوجَلْ"[٢] مِن أَوجَله، أي: أخافَه، و"لا تُواجَلْ"[٣] مِن واجله بمعنى أَوجَله. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف لتعليل النهي عن الوجَل، فإنّ المُبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حُزن، كيف لا، وهو بِشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود، ٧١/١١]، ولم يتعرَّض ههنا لِبشارة يعقوبَ عليه السلام / اكتفاءً بما ذُكِر في سورة هود. [٢٩٨ظ] ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ، وفي موضع ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثّر فيَّ، تعجَّب عليه السلام مِن بِشارتهم بالولد في حالة مُباينة للولادة، وزاد في ذلك فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أي: بأيّ أعجوبة تبشِّرونني أو بأيّ شيء تُبشِّرونني، فإنّ البِشارة بما لا يُتصوّر وقوعه عادة بِشارة بغير شيء، أو بأيّ طريقة تُبشِّرونني. وقُرِئ بتشديد النون المكسورة[٤] على إدغام نون الجمع في نون الوقاية.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يكون لا محالةَ، أو باليقين الذي لا لَبسَ فيه، أو بطريقة هي حقّ وهو أمرُ الله تعالى.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥.

[٤] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مِن الآيسين مِن ذلك، فإنّ الله تعالى قادر على أن يخلُق بشرًا بغير أبوين، فكيف مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقُرئ: "مِنَ القَنِطِينَ".[١] وكان مقصِده عليه السلام استعظامَ نعمته تعالى عليه في ضمن التعجّب العادي المبنيّ على سُنّة الله تعالى المَسلوكة فيما بين عباده، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه، كما ينبئ عنه قولُ الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، دون أن يقولوا: مِن المُمترين أو نحوه.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا يقنط ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٢] المخطِئون طريقَ المعرفة والصواب، فلا يعرِفون سَعةَ رحمته وكمالَ عِلمه وقدرته، كما قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف، ٨٧/١٢]، ومرادُه نفي القُنوط عن نفسه على أبلغ وجه، أي ليس بي قنوط مِن رحمته تعالى، وإنّما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة عليّ. وفي التعرّض لوصف الربوبيّة والرحمة / ما لا يخفى مِن الجزالة. [٢٩٩و] وقُرئ بضمّ النون،[٣] وبكسرها[٤] مِن "قنَط" بالفتح. ولم يكن هذه المفاوضة مِن الملائكة مع إبراهيمَ عليه السلام خاصّة؛ بل مع سارةَ أيضًا حسبما شُرح في سورة هود،[٥] ولم يُذكر ذلك ههنا اكتفاءً بما ذُكِر هناك، كما أنّه لم تُذكَر هذه هناك اكتفاء بما ذُكر ههنا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش، والجعفيُّ عن أبي عمرو، وطلحة بن مصرف وابن أبي عبلة، وابن الصبّاح عن حمزة، والصوفي والعنبري والكفَرتوثي والبصريُّ كلُّهم عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

٢ س + أي.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر والأشهب العقيلي وأبي عمرو وعيسى بن عُمر والأعمش وأبي البَرَهسم، والعنبري عن أبي بكر، وأبي طاهر عن أبي الحارث عن الكسائي، وطلحة والزعفراني وزيد بن علي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

٤ قرأ بها الكسائي وأبو عمرو ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٢/٢.

٥ في الآية التاسعة والستّين منها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ، وتوسيطُه بين قوله السابق وبين قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذي لأجله أُرسلتم سوى البِشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ صريحٌ[١] في أنّ بينهما مقالة مطويّة لهم أشيرَ به إلى مكانها، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الآية، [الإسراء، ٦١/١٧-٦٢]، فإنّ قوله الأخير ليس موصولًا بقوله الأوّل، بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾،[٢] فإنّ توسيط ﴿قَالَ﴾ بين قوليه للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره.

ثمّ خطابُه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجرّدًا عن ذلك مع تصديره بـ"الفاء" دليلٌ على أنّ مقالتهم المطويّة كانت متضمِّنةً لبيان أنّ مجيئهم ليس لمجرّد البِشارة؛ بل لهم شأنٌ آخرُ لأجله أُرسلوا فكأنّه قال عليه السلام: إن لم يكن شأنكم مجرّد البِشارة فماذا هو؟ فلا حاجةَ إلى الالتجاء إلى أنّ عِلمه عليه السلام بأنّ كلّ المقصود ليس البِشارة بسبب أنّهم كانوا ذوي عدد، والبِشارةُ لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتُفيَ بالواحد في زكريا عليه السلام ومريمَ، ولا إلى أنّهم بشّروه[٣] في تضاعيف الحالِ / لإزالة [٢٩٩ظ]
الوجَل، ولو كانت تمامَ المقصود لابتدءوا بها. فتأمّل.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوط، لكن وُصِفوا بالإجرام، وجيء بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانة بهم.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ استثناء متّصل مِن الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾،[٤] أي: إلى قوم أَجرموا جميعًا إلّا آلَ لوط، فـ"القوم" و"الإرسال" شاملان للمجرمين وغيرهم،

---

١ السياق: وتوسيطه... صريح...

٢ الحجر، ٣٤/١٥.

٣ لسياق: فلا حاجةَ إلى الالتجاء... ولا إلى أنهم...

٤ في الآية السابقة.

والمعنى: إنّا أُرسِلنا إلى قوم أجرَم كلُّهم إلّا آلَ لوط، لنُهلِك الأوّلين ونُنجّيَ الآخِرين، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي: لوطًا وآله ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: ممّا يُصيب القوم، فإنّه استئناف للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامهم، أو لبيان ما فُهِم مِن الاستثناء مِن مطلَق عدم شمول العذاب لهم، فإنّ ذلك قد يكون بكون حالهم بينَ بينَ، أو لتعليله، فإنّ مَن تعلّق بهم التنجيةُ بمَنجى مِن شمول العذاب.

أو منقطِعٌ[1] مِن ﴿قَوْمٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ متصلٌ بـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ جارٍ مَجرى خبر "لكنّ"، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء مِن ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أو مِن ضميرهم، وعلى الأوّل مِن الضمير خاصّة لاختلاف الحُكمين، اللّهمّ إلّا أن يُجعَل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضًا. وقُرئ بالتخفيف.[3]

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين مع الكفَرة لتُهلَك معهم، وقُرئ: "قدَرْنا"[4] بالتخفيف، وإنّما عُلِّق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمُّنه معنى العِلم، ويجوز حمله على معنى "قلنا" لأنّه بمعنى: القضاء قول، وأصلُه جَعْل الشيء على مِقدار غيره، / وإسنادُهم له إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لِما لهم مِن الزُّلفى والاختصاص. [٣٠٠و]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ شروع في بيان كيفيّة إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أُجمِل في الاستثناء[5] ثمّ فُصِّل في التعليل[6] نوعَ تفصيل. ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بأنّ مجيئهم لتحقيق ما أُرسلوا به مِن الإهلاك والتنجية، وليس المراد به ابتداءَ مجيئهم؛ بل مطلقُ كينونتهم عند آل لوط، فإنّ ما حُكيَ عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

---

[1] السياق: استثناء متّصل... أو منقطع...
[2] في الآية السابقة.
[3] قرأ بها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.
[4] قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٢.
[5] وفي هامش م: بقوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾. «منه».
[6] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية.

إنّما قاله عليه السلام[1] بعد اللُّتيا والتي[2] حين ضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلل، لِما لم يشاهِد مِن المرسَلين عند مُقاساته الشدائدَ ومُعاناته المكائدَ مِن قومه الذين يريذون بهم ما يُريدون ما هو المعهودُ والمعتاد مِن الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذَر عند تجشّمه في تخليصهم إنكارًا لخذلانهم له وتركِ نصرته في مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم، حيث لم يكونوا مباشِرين معه لأسباب المدافَعة والممانَعة حتّى ألجأته إلى أن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود، ١١/٨٠]، حسبما فُصِّل في سورة هود.

لا أنّه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفًا أن يطرُقوه بشَرّ كما قيل، كيف لا، وهم بجوابهم المَحكي بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بالعذاب الذي كنتَ تتوعّدهم به فيمترون فيه ويُكذِّبونك، قد قشَروا العصا وبيّنوا له عليه السلام / جليّةَ الأمر، فأنّى يمكن أن يعتريَه بعد ذلك المَساءةُ وضيق الذَّرْع؟ [٣٠٠ظ]

وليست كلمةُ ﴿بَلْ﴾ إضرابًا عن مُوجَب الخوف المذكور على معنى: ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله؛ بل بما يسُرّك وتقَرّ به عينُك؛ بل هي إضراب عمّا فهمه عليه السلام مِن تَرْك النُّصرة له، والمعنى: ما خذلناك وما خلَّينا بينك وبينهم؛ بل جئناك بما يدمّرهم مِن العذاب الذي كانوا يُكذِّبونك حين كنتَ تتوعّدهم به.

ولعلّ تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة مِن المجادلة للمسارعة إلى ذِكر بِشارة لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عَقيبَ ذِكر بِشارة إبراهيمَ بهما، وحيث كان ذلك مستدعيًا لبيان كيفيّة النجاة وترتيبِ مباديها أشيرَ إلى ذلك إجمالًا، ثمّ ذُكر ما فَعل القوم وما فُعل بهم ولم يُبالَ بتغيير الترتيب الوقوعي ثقةً بمراعاته في مواقعَ أُخَرَ.

ونسبة المجيء بالعذاب إليه عليه السلام مع أنّه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره إليه لا بطريق نزوله عليه، كأنّهم جاءوه به وفوّضوا أمره إليه، ليُرسله عليهم حسبما كان يتوعّدهم به.

---

[1] م – عليه السلام.

[2] اللُّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۝ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝﴾

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا مجالَ فيه للامتراء والشكّ وهو عذابهم، عُبِّر عنه بذلك تنصيصًا على نفي الامتراء عنه، أو المرادُ بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ الإخبارُ بمجيء العذاب المذكور. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ تأكيد له، أي: آتيناك فيما قلنا بالخبر الحقّ، أي: المطابق للواقع، وإنّا لصادقون في ذلك الخبر أو في كلّ كلام، فيكون كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأوّل تأكيدٌ إثرَ تأكيد.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ شروع[1] في ترتيب مبادي النجاة، أي: اذهب بهم في الليل، وقُرئ بالوصل،[2] وكلاهما مِن "السُّرى" وهو: السير في الليل. وقُرئ: "فَسِرْ"[3] مِن "السَّير". ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفة منه، أو مِن آخره، قال:

افتحي البابَ وانظُري في النجومِ كم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[4]

وقيل: هو بعد ما مضى منه شيءٌ صالح.[5]

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وكن على أثرهم تذُودهم وتُسرع بهم وتطّلع على أحوالهم. ولعلّ إيثارَ الاتّباع على السَّوق مع أنّه المقصود بالأمر المبالغةُ في ذلك، إذ السَّوق ربّما يكون بالتقدّم / على بعض مع التأخّر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخِّر والالتفاتُ[6] المنهيّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه مِن الهَول فلا يُطيقَه أو يُصيبَه ما أصابهم، أو ولا ينصرفْ منكم أحد ولا يتخلفْ لغرض فيُصيبَه العذاب. [٣٠١و]

وقيل: نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسهم على المهاجرة، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه، أو هو للإسراع في السير فإنّ الملتفِت قلّما يخلو عن أدنى وَقْفَة.[7]

---

١ م: شروعي. | وهو سهو.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٦٦.

٤ مضى بتخريجه في تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة يونس.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.

٦ وفي هامش م: عطفٌ على "الغفلة". «منه».

٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٢٨.

وعدمُ ذِكر استثناء المرأة عن الإسراء أو الالتفات لا يستدعي عدم وقوعه، فإنّ ذلك كما عرفتَ مرارًا للاكتفاء بما ذُكر في مواضعَ أخرَ.

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمُضيّ إليه وهو الشام أو مصر. وحذفُ الصلتين على الاتّساع المشهور، وإيثارُ المُضيّ إلى ما ذُكر على الوصول إليه واللُّحوق به للإيذان بأهميّة النجاة ولمراعاة المناسبة بينه وبين ما سلف مِن الغابرين.

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي: أوحينا ﴿إِلَيۡهِ﴾ مَقضيًّا، ولذلك عُدِّيَ بـ"إلى". ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ مُبهَمٌ، يُفسّره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ على أنّه بدل منه. وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتّصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحُكم، أي: دابرَ هؤلاء المجرمين. وإيراد صيغة المفعول بدلَ صيغة المضارع لكونها أدخَل في الدلالة على الوقوع.

وفي لفظ "القضاء" والتعبير عن العذاب بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ والإشارة إليه بذلك وتأخيره عن الجارّ والمجرور وإبهامِه أوّلًا ثمّ تفسيره ثانيًا مِن الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى. وقُرئ بالكسر على الاستئناف، والمعنى: أنهم يُستأصَلون عن آخرهم حتّى لا يبقى منهم أحد.

﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصُّبح، وهو حال مِن هؤلاء أو مِن الضمير في ﴿مَقۡطُوعٞ﴾، وجمَعه للحمل على المعنى، فإنّ ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى: مُدبري هؤلاء.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ شروع في حكاية ما صدَر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف مِن الفعل والقول، وما ترتّب عليه بعدما أُشيرَ إلى ذلك إجمالًا حسبما نُبّه عليه، أي: جاء أهل سذومَ منزلَ لوطٍ عليه السلام ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: مستبشِرين بأضيافه عليه السلام طمعًا فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾

/ ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ الضيف حيث كان مصدرًا في الأصل أطلقَ على الواحد والمتعدِّد والمذكّر والمؤنّث، وإطلاقُه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زِيّ الضيف. والتأكيد ليس لإنكارهم بذلك؛ بل لتحقيق اتّصالهم به وإظهار اعتنائه بشأنهم وتشمُّره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أي: عندهم بأن تتعرَّضوا لهم بسوء فيعلموا أنّه ليس لي عندكم قدر وحُرمة، أو لا تفضحونِ بفضيحة ضيفي فإنّ مَن أسيءَ إلى ضيفه فقد أسيءَ إليه، يقال: فضحَه فَضْحًا وفضيحةً إذا أظهَر مِن أمره ما يلزمه العار. [٣٠١ظ]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لِما يسوءني، ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ أي: لا تُذِلّوني ولا تُهِينوني بالتعرّض لمَن أجَرْتُهم بمثل تلك الفَعْلة الخبيثة. وحيث كان التعرّض لهم بعد أن نهاهم عليه السلام عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾[١] أكثرَ تأثيرًا في جانبه عليه السلام وأجلبَ للعار إليه، إذ التعرّض للجارّ قبل شعور المُجير بذلك ربّما يُتسامَح فيه، وأمّا بعد الشعورِ به والمُناصَبةِ لحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظم العار، عبَّر عليه السلام[٢] عمّا يعتريه مِن جهتهم بعد النهي المذكور بسبب لَجاجهم ومُجاهرتهم بمخالفته بالخِزي وأمرَهم بتقوى الله في ذلك، وإنّما لم يصرِّح بالنهي عن نفس تلك الفاحشة لأنّه كان يعرِف أنّه لا يفيدهم ذلك.

وقيل: المراد تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشة.[٣] ولا يساعده توسيطُه بين النهيَين عن أمرين متعلِّقين بنفسه عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: عن التعرّض لهم بمنعهم عنّا وضيافتهم. و"الهمزة" للإنكار و"الواو" للعطف على مقدَّر، أي: ألم نتقدَّم إليك ولم ننْهَك عن ذلك، فإنّهم كانوا يتعرَّضون / لكلّ أحد مِن الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام [٣٠٢و]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: وحيث كان... عبَّر عليه السلام...

٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٤٦.

ينهاهم عن ذلك بقدر وُسعِه، وكانوا قد نهَوْه عليه السلام عن أن يُجير أحدًا، فكأنّهم قالوا: ما ذكرتَ مِن الفضيحة والخِزي إنّما جاءك مِن قِبَلك لا مِن قِبَلنا إذ لولا تعرُّضك لِما نتصدّى له لَما اعتراك تلك الحالة.

ولمّا رآهم لا يُقلِعون عمّا هم عليه ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ يعني: نساءَ القوم، فإنّ نبيّ كلّ أمّة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقةً، أي: فتزوّجوهنّ، وقد كانوا مِن قبلُ يطلبُونهنّ ولا يُجيبهم لخُبثهم وعدم كفاءتهم، لا لعدم مشروعيّة المُناكحة بين المسلمات والكفّار. وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: قضاءَ الوطر، أو ما أقول لكم.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسَم مِن الله تعالى بحياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو مِن الملائكة بحياة لوطٍ عليهم السلام، والتقدير: لعَمرُك قسَمي، وهي لغة في "العُمر" يختصّ به القَسَم إيثارًا للخِفّة لكثرة دوَرانه على الألسنة.

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ غَوَايَتهم أو شدّة غِلْمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطأ والصواب ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ويتمادَون فكيف يسمعون النصح؟ وقيل: الضمير لقريش والجملةُ اعتراض.[٢]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة الهائلة. وقيل: صيحة جبريلَ عليه السلام.[٣] ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ عاليَ المدينة أو عاليَ قُراهم، وهو المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلْنَا﴾.

---

١ في الكلام على تفسير الآية الثامنة والسبعين منها.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٩/٢.

وقوله تعالى: ﴿سَافِلَهَا﴾ مفعول ثانٍ له، وهو أدخَل في الهَول والفظاعة مِن العكس كما مرّ.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كائنة ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، أو طينٍ عليه كتاب، وقد فُصِّل ذلك في سورة هود.[١]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن القصّة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لَعلاماتٍ يُستدلّ بها على حقيقة الحقّ ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المتفكِّرين المتفرِّسين الذين يتثبّتون في نظرهم حتّى يعرِفوا حقيقة الشيء بِسِمَته. [٣٠٢ظ]

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة أو القُرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: طريق ثابت يسلُكه الناس ويرَون آثارها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكر مِن المدينة أو القُرى، أو في كونها بمَرأى مِن الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿لَءَايَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله، فإنّهم الذين يعرِفون أنّ ما حاق بهم مِن العذاب الذي ترك ديارَهم بلاقعَ[٢] إنّما حاق بهم لسوء صنيعهم، وأمّا غيرُهم فيحمِلون ذلك على الاتّفاق أو الأوضاع الفلَكيّة. وإفراد "الآية" بعد جَمْعها فيما سبق لِما أنّ المشاهد ههنا بقيّةُ الآثار لا كلُّ القصّة كما فيما سلف.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾

﴿وَإِن كَانَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة، أي: وإنّ الشأن كان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة واللَّيكة: الشجرة الملتفّة المتكاثفة، وكانت عامّة شجرهم المُقْل وكانوا يسكنونها، فبعثه الله تعالى إليهم. ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ متجاوزين مِن الحدّ.

---

١ في الكلام على تفسير الآية الثانية والثمانين منها.

٢ البلاقع جمع بَلْقَع: وهو الخالي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «بلقع».

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ۝٧٩﴾

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بالعذاب. رُوي أنّ الله تعالى سلّط عليهم الحَرّ سبعة أيّام، ثمّ بعث سحابة فالتجئوا إليها يلتمسون الرَّوْح،[١] فبعث الله تعالى عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فهو عذابُ يوم الظُّلّة. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سذوم والأيكة. وقيل: الأيكة ومَديَنَ، فإنّه عليه السلام كان مبعوثًا / إليهما، فذِكرُ أحدهما مُنبّه على الآخر.[٢] [٣٠٣و]

﴿لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ لبطريق واضح. والإمام: اسم ما يؤتمّ به سُمِّيَ به الطريق ومَطمَر البنّاء[٣] واللوح الذي يُكتَب فيه لأنّها ممّا يؤتمّ به.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٨٠﴾

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ يعني ثمود ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: صالحًا، فإنّ مَن كذّب واحدًا مِن الأنبياء فقد كذّب الجميع لاتّفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار. وقيل: المراد صالحٌ ومَن معه مِن المؤمنين، كما قيل: الخُبَيْبُون لخُبيب بن عبدِ الله بن الزُّبير[٤] وأصحابه.[٥] والحِجْر: وادٍ بين المدينة والشام كانوا يسكنونه.[٦]

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١﴾

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ وهي الآياتُ المنزلة على نبيّهم، أو المعجزاتُ مِن الناقةِ وسَقْيها وشِربها ودرّها، أو الأدلّةُ المنصوبة لهم. ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ إعراضًا كليًّا، بل كانوا معارِضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا.

---

[١] الرَّوْح: نسيم الرِّيح. انظر: لسان العرب لابن منظور، «روح».

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٠.

[٣] المِطمَر: الخيط الذي يُقوّم عليه البناء. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طمر».

[٤] هو خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوّام الأسدي (ت. ٩٢هـ/٧١٠م). كان عالمًا، روى عن أبيه وعن عائشة رضي الله عنها. ذكروا أنّه كان يعلم علمًا كثيرًا لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه، يشبه ما يدّعي الناس مِن علم النجوم. كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامله في المدينة عمر بن عبد العزيز أن يضربه خمسين سوطًا ففعل وصبّ على رأسه قربة في يوم بارد، وأوقفه على باب المسجد يومًا فمات، فندم عمر على ذلك وسقط في يديه واستعفى مِن المدينة. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/١٠٨٩.

[٥] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣٠.

[٦] انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/٢٢٠.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ مِن الانهدام ونقب اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقتها، أو مِن العذاب لحُسبانهم أنّ ذلك يحميهم منه. عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «مررنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الحِجْر فقال: "لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبَكم مثلُ ما أصاب هؤلاء"، ثمّ زجَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم راحلته فأسرع حتّى خلّفها».[١]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ وهكذا وقع في سورة هود. قيل: صاح بهم جبريلُ عليه السلام. وقيل: أتتهم مِن السماء صيحة فيها صوتُ كلّ صاعقة وصوتُ كلّ شيء في الأرض، فتقطّعت قلوبهم في صدورهم. وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف، ٧/٧٨] أي: الزلزلة، ولعلّها مِن روادف الصيحة المستتبِعة لتموّج الهواء تموّجًا شديدًا يُفضي إليها كما مرّ في سورة هود.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ مِن بناء البيوت الوثيقة والأموال الوافرة والعُدد المتكاثرة، وفيه تهكّمٌ بهم، و"الفاء" لترتيب عدم الإغناء الخاصّ بوقت نزول العذاب / حسبما كانوا يرجونه لا عدمِ [٣٠٣ظ]
الإغناء المطلَق فإنّه أمر مستمرّ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلّا خلقًا ملتبِسًا بالحقّ والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور،

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٩/٤ (٣٣٨١)؛ وصحيح مسلم، ٢٢٨٦/٤ (٢٩٨٠)؛ وجامع البيان للطبري، ١٠٣/١٤-١٠٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

ولذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعًا لفسادهم وإرشادًا لمَن بقيَ إلى الصلاح، أو إلّا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممّن كذّبك، ﴿فَٱصْفَحِ﴾ أي: أعرِض عنهم ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ إعراضًا جميلًا وتحمّلْ أذِيَّتهم ولا تعجَلْ بالانتقام منهم، وعامِلْهم معاملة الصفوح الحليم. وقيل: هي منسوخة بآية السيف.[1]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يُبلِّغك إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها، فلا يخفى عليه شيء ممّا جرى بينك وبينهم، فهو حقيق بأن تكِل جميع الأمور إليه ليحكُم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلِم تفاصيل أحوالكم وقد علِم أنّ الصفح اليوم أصلحُ إلى أن يكون السيف أصلح، فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين، وفي مصحف عثمانَ وأُبيّ رضي الله عنهما: "هُوَ الخَالِقُ"[2] وهو صالح للقليل والكثير، و﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ مختصّ بالكثير.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

[٣٠٤و] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ / سبع آيات[3] وهي "الفاتحة"، وعليه عمرُ وعليّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، والحسنُ وأبو العالية ومجاهد والضحّاك وسعيد بن جُبير وقَتادة رحمهم الله تعالى.[4] وقيل: سبعُ سور وهي الطوال التي سابعتها "الأنفال" و"التوبة" فإنّهما في حُكم سورة واحدة،

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار وسليم التيمي والجَحدري والمُعلّى وزائدة عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف أُبيّ وعثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٠٩٢.

[3] وفي هامش م: وتنكير ﴿سَبْعًا﴾ للتفخيم، وفي الإبهام والتفسير ما لا يخفى من التمكين والتقرير.

[4] انظر: جامع البيان للطبري، ١١٣/١٤-١١٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣١/٢.

ولذلك لم يُفصَل بينهما بالتسمية.[١] وقيل: "يونسُ" أو الحواميم السبع. وقيل: الصحائف السبع وهي الأسباع.[٢]

﴿مِنَ ٱلْمَثَانِي﴾ بيان للسبع مِن التثنية وهي التكرير: فإن كان المراد "الفاتحة" وهو الظاهر، فتسميتها مثانيَ لتكرّر قراءتها في الصلاة، وأمّا تكرّر قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارًا للتسمية، ولأنّها تُثنّى بما يقرأ بعدها في الصلاة، وأمّا تكرّر نزولها فلا يكون وجهًا للتسمية لأنّها كانت مسمّاة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني، إذ السورة مكيّة بالاتّفاق؛ وإن كان المراد غيرها مِن السوَر[٣] فوجه كونها مِن المثاني أنّ كلًّا مِن ذلك يُكرَّر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه، أو مِن الثناء لاشتماله على ما هو ثناء على الله تعالى، واحدتها "مَثْناة" أو "مَثْنية" صفة للآية.

وأمّا الصحائف[٤] وهي[٥] الأسباع فلِما وقَع فيها مِن تكرير[٦] القِصص والمواعظ والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، ولِما فيها مِن الثناء على الله تعالى كأنّها تُثنى عليه سبحانه بأفعاله وصفاتِه الحسنى. ويجوز أن يُراد بـ﴿ٱلْمَثَانِي﴾ القرآن لِما ذُكر، أو لأنّه مُثنى عليه بالإعجاز؛ أو كُتُب الله كلُّها فـ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وعلى الأوّل للبيان.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[٧] إن أريدَ بـ"السبع" الآياتُ أو السوَر فمِن عَطْف الكلّ على البعض أو العامّ على الخاصّ، وإن أريدَ به الأسباع أو كلّ القرآن فهو عطفُ أحد الوصفين على الآخر كما في قوله:

إلى الملِكِ القَرم وابنِ الهُمامِ   وليثِ الكتائبِ في المُزدَحَمْ[٨]

أي: ولقد آتيناك ما يقال له: السبع المثاني والقرآن.

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٠٧-١١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٣١.

[٣] ط س - من السوَر.

[٤] ط س: السُوَر. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٥] ط س: أو. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٦] س: تكرُّر.

[٧] وفي هامش م: أي: العظيم القدر. «منه».

[٨] مضى بتخريجه وشرحه في الكلام على تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة هود.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمَحْ ببَصَرك طُموحَ راغب ولا تُدِمْ نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ مِن زخارف الدنيا وزينتها ومحاسنها وزَهرتها.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[١] أصنافًا مِن الكفَرة فإنّ ما في الدنيا مِن أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَر لا يُعبأ به أصلًا، وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه: / «مَن أوتيَ القرآن فرأى أنّ أحدًا أوتيَ أفضل ممّا أوتيَ فقد صغّر عظيمًا وعظّم صغيرًا»،[٢] ورُوي أنّه وافَت مِن بُصرى[٣] وأذرِعاتٍ سبعُ قوافلَ ليهود بني قُريظةَ والنَّضير فيها أنواعُ البَزّ والطِّيب والجواهر وسائرُ الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها وأنفقناها في سبيل الله، فقيل لهم: قد أُعطِيتُم سبع آياتٍ وهي خير مِن هذه القوافل السبع.[٤] [٣٠٤ظ]

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظِموا في سِلك أتباعك ليتقوّى بهم ضعفاء المسلمين. وقيل: أو أنّهم المتمتّعون به.[٥] ويأباه كلمة "على" فإنّ تمتّعهم به لا يكون مدارًا للحزن عليهم. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تواضَعْ لهم، وارفُق بهم، وألِنْ جانبك لهم، وطِبْ نفسًا مِن إيمان الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: المنذِر المُظهِر لنزول عذاب الله وحلوله.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل:[٦] إنّه متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾... إلخ،[٧] أي: أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب.

---

[١] وفي هامش م: وفي إبهامه تحقير له.

[٢] جامع البيان للطبري، ١٢٧/١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣١/٢-٤٣٢.

[٣] بُصرى: بالضمّ والقصر، إحداهما: بالشام مِن أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا ذكروها كثيرًا في أشعارهم، والثانية: بُصرى مِن قرى بغداد قرب عكبراء. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٤١/١.

[٤] الخبر في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٨٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٢.

[٥] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/٢.

[٦] وفي هامش م: صاحب الكشّاف. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

[٧] الحجر، ٨٧/١٥.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ أي: قسموه إلى حقّ وباطل، حيث قالوا عِنادًا وعدوانًا: بعضُه حقّ موافِق للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطل مخالف لهما، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً حيث كان يقول بعضهم: سورة البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آل عمران لي، وهكذا؛[1] أو قسموا ما قرءوا مِن كتبهم وحرّفوه فأقرّوا ببعضه وكذّبوا بعضه.

وحُمِل توسُّط قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[2] على إمداد ما هو المراد بالكلام مِن التسلية.[3] وعُقِّب[4] ذلك بأنّه جلّ المقامُ عن التشبيه، ولقد أُوتيَ عليه السلام ما لم يؤتَ أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه.[5]

وقيل: إنّه متعلِّق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإنّه في قوّة الأمرِ بالإنذار، كأنّه قيل: أنذِرْ قريشًا مثلَ ما أنزلنا مِن العذاب[6] على المقتسِمين، يعني اليهودَ، وهو ما جرى على بني قريظةَ والنَّضير بأن جُعل المتوقَّع كالواقع وقد وقَع كذلك.[7]

وأنت خبير بأنّ ما يُشبَّه به العذاب المنذَر لا بدّ أن يكون محقَّقَ الوقوع / معلومَ الحال عند المنذَرين إذ به يتحقَّق فائدة التشبيه، وهي تأكيد الإنذار وتشديده، وعذابُ بني قريظةَ والنَّضير مع عدم وقوعه إذ ذاك لم يسبِق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة مَحْضة وشكّ مُريب، وتنزيلُ المتوقَّع منزلةَ الواقع له موقع جليل مِن الإعجاز، لكن إذا صادف مقامًا يقتضيه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح، ١/٤٨] ونظائرِه، على أنّ تخصيص الاقتسام باليهود بمجرَّد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شِركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقة والمخالفة، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين؛ بل تخصيصُ العذاب المذكور بهم مع كونه مِن نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ مِن غير مخصِّص. [٣٠٥و]

---

١ وفي هامش م: فهو تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. «منه».

٢ الحجر، ٨٨/١٥.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

٤ وفي هامش م: المُعقِّب صاحب الكشف.

٥ انظر: الكشف لسراج الدين القزويني، ١٧٦ظ-١٧٧و.

٦ ط س - من العذاب.

٧ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

وقد جُعل الموصول مفعولًا أوّلَ لـ"أَنذِرْ"، أي: أَنذِرْ المُعَضِّين الذين يُجزّئون القرآن إلى سِحر وشِعر وأساطيرَ، مثلَ ما أنزلنا على المقتسِمين وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخلَ مكّة أيّام الموسِم فقعد كلّ منهم في مَدخَل ليُنفِّروا الناس عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يقول بعضُهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنّه ساحر، ويقول الآخر: شاعر، والآخر: كذّابٌ، فأهلَكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفاتٍ.[١]

وفيه -مع ما فيه مِن الاشتراك لِما سبق في عدم كون العذاب الذي شُبِّه به العذاب المنذَر واقعًا ولا معلومًا للمنذَرين ولا موعودَ الوقوع- أنّه لا داعيَ إلى تخصيص وصف التعضِية بهم وإخراجِ المقتسِمين مِن بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإنّ وصفهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما وصفوا مِن السِّحر والشِّعر والكذب متفرّع على وصفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلّا نفسُ التعضية، ولا إلى إخراجهم مِن حُكم الإنذار على أنّ ما نزل بهم مِن العذاب لم يكن مِن الشدّة بحيث يُشبَّه به عذاب غيرهم ولا مخصوصًا بهم، بل عامًّا لكلا الفريقين، أعني المعضِّين والمُقتسِمين[٢] وغيرِهم مع أنّ بعض المنذَرين كالوليد بن المغيرة والعاصِ بن وائل[٣] والأسودِ بن المطلّب[٤] قد هلكوا قبل مهلِك أكثرِ المقتسِمين يوم بدر، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأوّل كما ترى.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٢.

٢ ط س - أعني المُعضِّين والمقتسمين.

٣ هو العاص أو العاصي بن وائل بن هاشم السهمي مِن قريش (ت. نحو ٦٢٠م). هو أحد الحكّام في الجاهليّة وكان نديمًا لهشام بن المغيرة. أدرك الإسلام وظلّ على الشِرك ويُعدّ مِن المستهزئين الذين ماتوا كفّارًا، وكان على رأس بني سهم في حرب الفجّار، وهو والد الصحابي عمرو بن العاص، نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر، ٣/١٠٨]. ولوفاته خبر عجيب في كتب التراجم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٤٧/٣.

٤ وفي هامش م: هؤلاء أشراف قريش ورؤساؤهم، ومنهم الأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن الطّلاطلة، وكان رئيسهم الوليد بن المغيرة، وهم المستهزءون بأعيانهم، والمُقتسمون للقرآن العظيم بقول بعضهم: هذه السورة لي، وبعضهم: هذه السورة لي، وأمّا المُقتسمون لمداخل مكّة وعِقابها لتنفير الناس وصدّهم عن الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهم بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك هؤلاء الماردين، وإنّما هم مِن أعقاب الناس تابعون لأوامر هؤلاء فيما يأتون وما يذرون. قال مقاتل بن سليمان: كانوا ستّة عشرَ رجلًا بعثهم الوليد بن المغيرة أيّام الموسم، »

وقيل:[١] إنّه وصف لمفعول ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أقيمَ مُقامه، والمقتسِمون هم القاعدون في مداخل مكّة كما حُرِّر.[٢]

وفيه مع ما مرّ أنّ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ صريحٌ في أنّه مِن قول الله تعالى لا مِن قول الرسول عليه السلام، والاعتذارُ بأنّ ذلك مِن باب ما يقوله بعض خواصّ المَلِك: "أمرنا بكذا" وإن كان الآمر هو المَلِك حسبما سلَف في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر، ٦٠/١٥] تعسّفٌ لا يخفى،[٣] / وأنّ إعمال [٣٠٥ظ] الوصف[٤] الموصوف ممّا لم يُجوّزه البصريّون،[٥] فلا بدّ مِن الهرَب إلى مَسلَك الكوفيّين أو المصيرِ إلى جَعْله مفعولًا غيرَ صريح، أي: أنا النذير المُبين بعذاب مثل عذابِ المقتسِمين.[٦]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[٧] الرهطُ الذين تقاسموا على أن يُبيّتوا صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله تعالى.[٨]

وأنت تدري أنّ عذابهم حيث كان متحقِّقًا ومعلومًا للمنذَرين حسبما نطَق به القرآن العظيم صالح لأن يقع مشبَّهًا به للعذاب المنذَر، لكنّ الموصول المذكور عَقيبَه حيث لم يُمكن كونه صفةً لـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ حينئذ، فسواء جعلناه مفعولًا أوّلَ لـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾[٩] أو لِما دلّ هو عليه مِن "أَنْذرْ" لا يكون للتعرّض لعنوان التعضِية

﴿ فاقتسموا عِقاب مكّة وطرقها قعدوا على أبوابها وأنقابها، فإذا جاء الحاجّ قال فريق منهم: لا تغترّوا بالخارج منّا والمدّعي للنبوّة، فإنّه مجنون، وقال فريق منهم: إنّه كاهن، وقال فريق آخرُ: إنّه عرّاف، وقال فريق آخرُ: إنّه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصَبوه حكمًا، فإذا سئل عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: صدق هؤلاء المقتسمون. وُروي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه يقرب عددهم مِن أربعين. وقيل: هم اثنا عشرَ رجلًا فعلوا ما فعلوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر بعد هلاك الوليد وأصحابه حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّهم ماتوا قبل بدر فمن لم يفرق بين الفريقين فقد اشتبه عليه الشئون. «منه». | انظر: جامع البيان للطبري، ١٤/١٤٧-١٥٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٤.

١ وفي هامش م: أي: قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾. «منه».

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٣ السياق: وفيه... تعسّف...

٤ وفي هامش م: وهو ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ الموصوف بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾. «منه».

٥ وفي هامش م: والسرّ في ذلك أنّ بالوصف يترجّح جانب الأهميّة ويزول عنه ما كان فيه من الدلالة على الحدث فلا يعمل. «منه».

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٧ في الآية السابقة.

٨ القول في اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١١.

٩ الحجر، ٨٩/١٥.

في حيّز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيّز المفعول الثاني فائدة، لِما أنّ ذلك إنّما يكون للإشعار بعلّيّة الصلة والصفة للحُكم الثابت للموصول والموصوف، فلا يكون هناك وجه شبَه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصّة لعدم اشتراكهم في السبب، فإنّ المُعَضّين بمَعزِل مِن التقاسُم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك، كما أنّ أولئك بمَعزِل مِن التعضِية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقةَ بين السببين مفهومًا ولا وجودًا تُصحِّح وقوعَ أحدِهما في جانب والآخرِ في جانب، واتّفاقُ الفريقين على مطلَق الاتّفاق على الشرّ المفهوم مِن الاتّفاق على الشرّ المخصوص الذي هو التبييت المدلول عليه بالتقاسُم غير مفيد، إذ لا دلالةَ لعنوان التعضِية على ذلك، وإنّما يدلّ عليه اقتسامُ المداخِل.

وجعلُ الموصول مبتدأ على أنّ خبره الجملة القَسَميّة لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنِه الجليل.

إذا عرفتَ هذا فاعلم أنّ الأقرب مِن الأقوال المذكورة أنّه متعلِّق بالأوّل، وأنّ المراد بـ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾[1] أهلُ الكتابَين، وأنّ الموصول مع صلته صفة مُبيّنة لكيفيّة اقتسامهم، ومحلُّ الكاف النصب على المصدريّة، وحديثُ جلالة المقام عن التشبيه مِن لوائح النظر الجليل، والمعنى: لقد آتيناك سبعًا مِن المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثِلًا لإنزال الكتابَين على أهلهما.

وعدمُ التعرّض لذِكر ما أُنزلَ عليهم مِن الكتابين لأنّ الغرض بيان المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلَّقَيهما. والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه[2] بأن يقال: كما آتينا المقتسِمين حسبما وقَع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾... إلخ [البقرة، ١٢١/٢]، للتنبيه على ما بين الإيتاءين مِن التنائي،[3] فإنّ الأوّل على وجه التكرِمة والامتنان فشتّان بينه وبين الثاني.

ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبَّهًا به، فإنّ ذلك إنّما هو لمُسلَّميّته عندهم وتقدّمِ وجوده على المشبّه زمانًا لا لمَزيّة تعود إلى ذاته كما في الصلوات الخليليّة،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] س - على ما في جانب المشبَّه.
[3] في هامش م: أي التباعُد.

فإنّ التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على إبراهيمَ عليه السلام وآله أتمَّ وأكملَ ممّا فاض على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما ذلك للتقدّم في الوجود والتنصيصِ عليه في القرآن العظيم، فليس في التشبيه شائبةُ إشعار بأفضليّة المشبّه به مِن المشبَّه، فضلًا عن إيهام أفضليّة ما تعلّق به الأوّل ممّا تعلّق به الثاني.[١]

وإنّما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكارًا لاتّصافهم به مع تحقّق ما ينفيه مِن الإنزال المذكور وإيذانًا بأنّه كان مِن حقّهم أن يؤمنوا بكُلّه حسب إيمانهم بما أُنزل عليهم بحُكم الاشتراك في العلّة والاتّحادِ في الحقيقة التي هي مطلق الوحي.

/ وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾... إلخ،[٢] لكمال اتّصاله بما هو المقصود [٣٠٦و]
مِن بيان حال ما أُوتيَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولقد بُيّن أوّلًا علوُّ شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجِب اغتباطَه عليه السلام بمكانه واستغناءَه به عمّا سواه، ثمّ نُهي عن الالتفات إلى زَهرة الدنيا، وعُبّر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المُنبئ عن وَشْك زوالها عنهم ثمّ عن الحزَن بعدم إيمان المنهمكين فيها، وأُمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسمِ النِّذارة حسبما فُصِّل في تضاعيف ما أوتيَ مِن القرآن العظيم، ثمّ رُجِع إلى كيفيّة إيتائه على وَجْه أُدمِج فيه ما يُزيح شُبَهَ المنكِرين ويستنزِلهم مِن العِناد مِن بيان مشاركته لِما لا ريبَ لهم في كونه وحيًا صادقًا، فتأمّل، والله عنده عِلم الكتاب.

هذا وقد قيل:[٣] المعنى: قل إنّي أنا النذير المُبين كما قد أنزلنا في الكتب أنّك ستأتي نذيرًا على أنّ المقتسِمين أهل الكتاب.[٤] يريد أنّ ﴿مَا﴾ في ﴿كَمَا﴾[٥] موصولةٌ، والمراد بالمشابهة المستفادة مِن الكاف الموافقةُ، وهي مع ما في حيّزها في محلّ النصب على الحاليّة مِن مفعول ﴿قُلْ﴾،[٦] أي: قل هذا القول حالَ كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين، أي: موافقًا لذلك.

---

١ في هامش م: فيما نحن فيه.
٢ الحجر، ١٥/٨٨.
٣ وفي هامش م: قاله صاحب اللباب. وعبارته: ويحتمل أن يكون المعنى... إلخ. | انظر: اللباب لابن عادل، ١١/٤٩١.
٤ وفي هامش م: انتهى.
٥ الحجر، ١٥/٩٠.
٦ الحجر، ١٥/٨٩.

فالأنسبُ حينئذ حَمْل الاقتسام على التحريف ليكون وَصْفهم بذلك تعريضًا بما فعلوا مِن تحريفهم وكِتمانهم لنَعْت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿عِضِينَ﴾ جَمْع "عِضَة" وهي الفِرقة، أصلها عِضْوَة "فِعْلَة" مِن "عضّى الشاة تعضِيَة" إذا جعلها أعضاءَ، وإنّما جُمعت جمع السلامة جبرًا للمحذوف كـ"سِنين" و"عِزين". والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضِيَة -التي هي: تفريق الأعضاء مِن ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياته وإبطال اسمه دون مطلَق التجزئة والتفريق اللذَين ربّما يوجدان فيما لا يضرّه التبعيض مِن المِثليّات- للتنصيص على كمال قُبح ما فعلوه بالقرآن العظيم، وقيل: هي فِعلة مِن "عضهتُه" إذا بهتُّه. وعن عكرِمةَ: العَضْهُ:[1] السِّحر بلسان قريش،[2] فنقصانها على الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لنسألنَّ يوم القيامة أصناف الكفَرة مِن المقتسِمين وغيرهم سؤالَ توبيخ وتقريع.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن قول وفعل وتَرْك، فيدخُل فيه ما ذُكِر مِن الاقتسام والتعضِيَة دخولًا أوّليًا، ولنجزيَنَّهم بذلك جزاءً موفورًا. وفيه مِن التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى. و"الفاء" لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذُكِر بعضها. وفي التعرّض لوَصْف الربوبيّة مضافًا إليه عليه السلام إظهارُ اللطف به عليه السلام.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، مِن "صَدَع بالحجّة" إذا تكلّم بها جهارًا، أو افرُق بين الحقّ والباطل، وأصلُه الإبانة والتمييز، و﴿مَا﴾ مصدريّة أو موصولة والعائد محذوف، أي: ما تؤمَر به مِن الشرائع المُودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه

---

[1] س: العِضَة.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٣٣/٢.

مِن المثاني السبع والقرآنِ العظيم. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبالِ بهم ولا تتصدَّ للانتقام منهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ بقمعهم وتدميرهم، / قيل: كانوا خمسة مِن [٣٠٦ظ] أشراف قريش: الوليدُ بن المغيرة، والعاصُ بن وائل، والحارثُ بن قيس بن الطُّلاطِلة،[١] والأسوَدُ بن عبد يغُوثَ،[٢] والأسودُ بن المطّلب، يبالغون في إيذاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والاستهزاء به، فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: «أُمِرت أن أكفيَكَهم»، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنبّال فتعلّق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظُّمًا لأخذه، فأصاب عِرقًا في عَقِبه فقطَعه فمات؛ وأومأ إلى أخمَص العاص، فدخلت فيها شوكةٌ، فقال: «لُدِغتُ لُدِغتُ»، وانتفخت رجلُه حتّى صارت كالرَّحى فمات؛ وأشار إلى عينَي الأسود بن المطَّلب، فعمِيَ؛ وإلى أنف الحارث، فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسوَد بن عبد يغوثَ وهو قاعد في أصل شجرة، فجعَل ينطح برأسه الشجرة ويضرِب وجهه بالشوكة حتّى مات.[٣]

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ وصَفهم بذلك تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهوينًا للخَطْب عليه بإعلام أنّهم لم يقتصروا على الاستهزاء به

---

١ هو الحارث بن قيس بن الطُّلاطلة، وأمّه غيطلة، وهو مِن المستهزئين بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان مِن بين مَن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر، ٩٥/١٥]. قيل: كان يطوف بالكعبة ومرّ به النبيّ ومعه جبريل عليه السلام فأشار إلى رأسه فامتخط قيحًا فمات. انظر: سيرة ابن هشام، ٨/٤؛ والروض الأنف للسهيلي، ١٧/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٧/٥.

٢ هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو ابن أخي آمنة بنت وهب أمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وذكر البيهقي أنّه كان شديد العداوة والاستهزاء للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وأصيبَ له ثلاثة مِن أبنائه في بدر: زمعة وعقيل والحارث. خرج يومًا إلى البريّة فعطش فاسودّ وجهه فأتى داره فلم يعرفوه وأغلقوا الباب في وجهه فمات عطشًا. انظر: نشوة الطرب لابن سعيد الأندلسي، ٣٦٦/١؛ والكامل لابن الأثير، ١٣٢/٢.

٣ بمعناه في السنن الكبرى للبيهقي، ١٤/٩-١٥ (١٧٧٣١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلَعي، ٢٢٠/٢.

عليه السلام، بل اجترءوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ ما يأتون ويذَرون.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن كلمات الشِّرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك. وتحليةُ الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيق ما تتضمّنه مِن التسلية، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرار العِلم حسب استمرار متعلَّقه باستمرار ما يُوجبه مِن أقوال الكفَرة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابَك مِن ضيق الصدر والحرَج بالتسبيح والتقديس ملتبِسًا بحمده. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ما لا يخفى مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الحُكم، أعني الأمرَ بالتسبيح والحمد.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلّين يَكفِك ويكشِف الغُمَم عنك، أو فنزِّهْه عمّا يقولون ملتبِسًا بحمده على أنْ هداك للحقّ المُبين، وعنه عليه السلام أنّه «كان إذا حزَبه أمرٌ فزِع إلى الصلاة».[1]

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ دُمْ على ما أنت عليه مِن عبادته تعالى. وإيثار الإظهار بالعنوان السالف آنفًا لتأكيد ما سبق مِن إظهار اللطف به عليه السلام والإشعارِ بعلّة الأمرِ بالعبادة.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت، فإنّه مُتيقَّن اللُّحوقِ بكلّ حيّ مخلوق. وإسنادُ الإتيان إليه للإيذان بأنّه متوجِّه إلى الحيّ طالب للوصول إليه، والمعنى: دُمْ على العبادة ما دمت حيًّا مِن غير إخلال بها لحظةً.

---

[1] جامع البيان للطبري، ١٥٤/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٧/٤. وبلفظ «إذا حزبه أمر صلّى» في مسند أحمد، ٣٣٠/٣٨ (٢٣٢٩٩)؛ وسنن أبي داود، ٤٨٥/٢ (١٣١٩)؛

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ الحِجْر كان له مِن الأجر عشرُ حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمّد»[١] صلّى الله عليه وسلّم تسليمًا كثيرًا.[٢]

---

١ بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢٦/١٥ (الحجر، ١/١٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/٢. وهو جزء من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٢١/٢.

٢ س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهت المطالعة بفضل الله سبحانه في آواخر شهر ربيع الأوّل، سنة ستّ وخمسين وتسعمئة، حامدًا لله سبحانه ومُصلّيًا على سيّدنا محمّد عليه السلام.

١٥

سورة الحجر

مكية، تسع وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ـ والإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿وقُرآنٍ مُبِينٍ﴾: مُظهِرٍ للحقّ من الباطل. عطفٌ بزيادة صِفة. ٢ ـ ﴿رُبَّما﴾ ـ بالتشديد والتخفيف ـ ﴿يَوَدُّ﴾: يتمنّى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، ﴿لَو كانُوا مُسلِمِينَ﴾. ورُبَّ: للتكثير، فإنه يكثر منهم تمنّي ذلك. وقيل: للتقليل، فإنّ الأهوال تُدهشهم فلا يُفيقون حتّى يتمنَّوا ذلك إلاّ في أحيان قليلة.

٣ ـ ﴿ذَرْهُم﴾: اترُكِ الكُفّارَ ـ يا مُحمّد ـ ﴿يأكُلُوا ويَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم، ﴿ويُلْهِهِمُ﴾: يَشغلْهُم ﴿الأمَلُ﴾ بطُول العُمر وغيره عن الإيمان. ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم. وهذا قبل الأمر بالقتال.

سورة الحجر

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ): نافعٌ وعاصمٌ[1].

قولُهُ: (يَومَ القِيَامةِ) أو عند نزولِ النَّصرِ، أو حلولِ الموتِ.

قولُهُ: (عَنِ الإيمَانِ) والاستعدادِ للمَعادِ.

قولُهُ: (عَاقِبَةَ أَمرِهِم) أو سوءَ صنيعِهم إذا عايَنوا جزاءَهُم.

قولُهُ: (بالقِتَالِ) والأظهرُ: أنَّ المرادَ إقناطُ الرَّسولِ مِن انزجارِهِم عن القبيحِ، وأنَّ نصحَهُم بعد ذلك اشتغالٌ بما لا طائلَ تحتَهُ، وفيه تحذيرٌ عن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يؤدِّي إليه طولُ الأملِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٠).

٤ ـ ﴿وما أهلَكْنا مِن﴾: زائدةٌ ﴿قَرْيةٍ﴾ أُريدَ أهلُها ﴿إلاّ ولَها كِتابٌ﴾: أجل ﴿مَعلُومٌ﴾: محدود لهلاكها، ٥ ـ ﴿ما تَسبِقُ مِن﴾: زائدةٌ ﴿أُمّةٍ أجَلَها، وما يَستأخِرُونَ﴾: يتأخّرون عنه.

٦ ـ ٧ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة للنبيّ: ﴿يا أيُّها الّذِي نُزِّلَ علَيهِ الذِّكرُ﴾: القرآنُ في زعمه، ﴿إنَّكَ لَمَجنُونٌ. لَوما﴾: هلاّ ﴿تأتِينا بالمَلائكةِ، إن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في قولك: إنك نبيّ، وإنّ هذا القُرآن من عند الله. ٨ ـ قال تعالى: ﴿ما تَنَزَّلُ﴾ ـ فيه حذف إحدى التاءين ـ ﴿المَلائكةُ إلاّ بِالحَقِّ﴾: بالعذاب، ﴿وما كانُوا إذًا﴾ أي: حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿مُنظَرِينَ﴾: مُؤخَّرين. ٩ ـ ﴿إنّا نحنُ﴾: تأكيدٌ لاسم «إن» أو فَصْلٌ ﴿نَزَّلْنا الذِّكرَ﴾: القُرآنَ، ﴿وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ من التبديل والتحريف والزيادة والنقص.

١٠ ـ ١١ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا مِن قَبلِكَ﴾ رُسلاً ﴿في شِيَعِ﴾: فِرَقِ ﴿الأوّلِينَ، وما﴾ كان ﴿يأتِيهِم مِن رَسُولٍ إلاّ كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك. وهذا تسلية له ﷺ..........

قولُهُ: (مَحْدُودٌ) مقدَّرٌ كُتِبَ في اللَّوحِ.

قولُهُ: (هَلَّا) يعني: ﴿لَو مَا﴾ كـ: لَولا، للتَّحضِيضِ.

قولُهُ: (فِيهِ حَذْفٌ) وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالنُّونِ ونصبِ ﴿الملائكةَ﴾، وأبو بكرٍ بالتاءِ والبناءِ للمفعولِ[1]، وقولُ البيضاويِّ: بالياءِ مسنداً إلى ضَميرِ اسمِ اللهِ، وقُرِئَ: ﴿تنزَّلُ﴾ بمعنى: تتنزَّلُ[2]؛ سهوٌ من وجهَين؛ جعلَ الشَّاذَّ أصلاً، وعبَّرَ عن الأصلِ بقُرِئَ.

قولُهُ: (أي: حِينَ) الظَّاهرُ: أنَّ ﴿إذنْ﴾ جوابٌ لهم، وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ؛ أي: ولو نزَّلنا الملائكةَ ما كانوا منظَرينَ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أو بالوَحيِ.

قولُهُ: (تَأكِيدٌ لاسمِ ﴿إنَّ﴾) أو مبتدأٌ مع خبرِه خبرُ ﴿إنَّ﴾، وأمَّا قولُه: (أو فَصلٌ) فلا يظهرُ وجهُه.

قولُهُ: (مِنَ التَّبدِيلِ) قيل: وإنَّا لَنَحفظُه في قلوبِ أوليائنا، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿لَهُ﴾ للنَّبيِّ ﷺ.

قولُهُ: (رُسُلاً) حُذفَ لدلالةِ الإرسالِ عليه.

قولُهُ: (فِرَق) جمعُ: شيعةٍ، وهي الفرقةُ المتَّفقةُ على طريقٍ ومذهبٍ، من شاعَهُ: إذا تبعَهُ، وهو من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصُوفِ.

قولُهُ: (كَانَ) قدَّرَه لأنَّ ﴿ما﴾ للحالِ لا يدخلُ إلَّا مُضارعاً بمعنى الحالِ، أو ماضياً قريباً منهُ، والأَولى أن يُحمَلَ على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٠٧). وأورد عليه أنّ قراءة الياء لم يقرأ بها أحد من العشرة، ولم توجد في الشواذ أيضًا والمصنف رحمه الله تعالى بنى تفسيره عليها، وحكى قراءة السبعة بصيغة التمريض. انظر: «حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٨٣).

١٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: مِثلَ إدخالنا التكذيبَ في قُلوب أُولئك نُدخله ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كُفّارِ مكة، ١٣ ـ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: بالنبيّ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سُنّةُ الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم ـ وهؤلاء مِثلُهم ـ ١٤ ـ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ﴾: في الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾: يصعدون، ١٥ ـ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾: سُدّت ﴿أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: يُخيَّل إلينا ذلك.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عَشَرَ: الحَمَلَ والثَّور والجَوزاء والسَّرَطان والأسَد والسُّنبلة والمِيزان والعَقرب والقَوس والجَدْي والدَّلْو والحُوتَ ـ هي منازل الكواكبِ السبعةِ السيّارةِ: المِرّيخُ وله الحَمَلُ والعَقرب، والزُّهَرةُ ولها الثَّورُ والمِيزان، وعُطارِدٌ وله الجَوزاءُ والسُّنبلة، والقمرُ وله السَّرَطانُ، والشمسُ ولها الأسَدُ، والمُشتري وله القَوسُ والحُوت، وزُحَلُ وله الجَدْيُ والدَّلو ـ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب ﴿لِلنَّاظِرِينَ، وَحَفِظْنَاهَا﴾ بالشُّهب ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾: مرجوم، ١٨ ـ ﴿إِلَّا﴾ لكنْ ﴿مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾: خَطِفَه، ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: كوكب يُضيء، يُحرقه أو يَثقبه أو يُخبِّله.

قولُهُ: (مِثْلَ إدخَالِنَا) السَّلكُ: إدخالُ الشَّيءِ في شيءٍ كالخيطِ في المخِيطِ والرُّمحِ في المطعونِ.

قولُهُ: (التَّكْذِيبَ) الظَّاهرُ: الاستهزاءَ.

قولُهُ: (بالنَّبيِّ) أو الذِّكرِ.

قالَ تعالى: (﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾) أي: على المقترحينَ.

قولُهُ: (يصعَدُونَ) إليها ويرَونَ عجائبَها طولَ نهارِهم.

قولُهُ: (سُدَّت) من الإبصارِ بالسِّحرِ، مأخوذٌ من السَّكْرِ، وهو سَدُّ النَّهرِ، أو: حُيِّرَت؛ من السُّكرِ ـ بالضَّمِّ ـ وابنُ كثيرٍ: بالتَّخفيفِ[1].

قالَ تعالى: (﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾) أي: المعتَبرينَ المستدلِّينَ بها على قُدرةِ مبدِعِها وتَوحِيدِ صَانعِها.

قولُهُ: (بالشُّهُبِ) فلا يقدرُ أن يصعدَ إليها ويوسوِسَ أهلَها ويتصرَّفَ في أمرِها ويطَّلِعَ على أحوالِها.

قولُهُ: (لَكِنْ) يعني: الاستثناءُ منقطعٌ، ويصحُّ الاتِّصالُ بأن يكونَ ﴿مَنِ استرقَ﴾ بدلاً مِن ﴿كلِّ شيطانٍ﴾.

قولُهُ: (كَوْكَبٌ مُضِيءٌ) تفسيرٌ لـ﴿شهابٌ﴾، وأمَّا ﴿مُبِينٌ﴾ فظاهرٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢).

١٩ ـ ﴿والأرضَ مَدَدْناها﴾: بسطناها، ﴿وألقَينا فِيها رَواسِيَ﴾: جِبالاً ثوابتَ لئلاّ تتحرّكَ بأهلها، ﴿وأنبَتْنا فِيها مِن كُلِّ شَيءٍ مَوزُونٍ﴾: معلومٍ مُقدّر، ٢٠ ـ ﴿وجَعَلْنا لكُم فِيها مَعايِشَ﴾ ـ بالياء ـ من الثمار والحبوب، ﴿وَ﴾ جعلنا لكم ﴿مَن لَستُم لَهُ بِرازِقِينَ﴾ من العبيد والدوابّ والأنعام. فإنما يرزقُهم الله.

٢١ ـ ﴿وإن﴾: ما ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَيءٍ إلاّ عِندَنا خَزائنُهُ﴾: مَفاتيحُ خزائنه، ﴿وما نُنَزِّلُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعلُومٍ﴾ على حسَبِ المصالح، ٢٢ ـ ﴿وأرسَلْنا الرِّياحَ لَواقِحَ﴾: تُلقِح السحابَ فيمتلئ ماء، ﴿فأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ﴾: السحابِ ﴿ماءً﴾: مطرًا ﴿فأسقَيناكُمُوهُ، وما أنتُم لَهُ بِخازِنِينَ﴾ أي: ليست خزائنه بأيديكم، ٢٣ ـ ﴿وإنّا لَنَحنُ نُحيِي ونُمِيتُ، ونَحنُ الوارِثُونَ﴾: الباقون نَرِثُ جميعَ الخلق.

٢٤ ـ ﴿ولَقَد عَلِمْنا المُستَقدِمِينَ مِنكُم﴾ أي: من تقدّم من الخلق من لدن آدم، ﴿ولَقَد عَلِمْنا المُستأخِرِينَ﴾: المتأخّرين إلى يوم القيامة، ٢٥ ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحشُرُهُم ـ إنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في صُنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ـ..

قالَ تعالى: (﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾) في الأرضِ، أو: فيها وفي الجبالِ.

قولُهُ: (مُقدَّرٍ) بمقدارٍ معيَّنٍ تقتضيهِ حكمتُهُ، أو: مستَحسنٍ مناسبٍ، من قولِهِم: كلامٌ مَوزونٌ، أو: ما يوزَنُ ويقدَّرُ، أو: له وزنٌ وقَدرٌ في أبوابِ النِّعمةِ والمنفَعةِ.

قولُهُ: (بالياءِ) تعيشونَ بها من المطاعِمِ والملابسِ، وقُرِئَ: بالهمزِ على التَّشبيهِ بشمائِلَ[1].

قولُهُ: (﴿وَ﴾ جَعَلنَا) عطفٌ على: ﴿معايش﴾ من العبيدِ والعيالِ والخدمِ وسائرِ ما يظنُّونَ أنَّهم يَرزقونَهُ ظنًّا كاذباً.

قولُهُ: (زَائِدةٌ) للتَّأكيدِ؛ أي: ما من شيءٍ إلَّا ونحنُ قادرونَ على إيجادِهِ وتكوينِهِ أضعَافَ ما وُجِدَ منه، فضربُ الخزائِنِ مثلٌ لاقتدارِهِ.

قولُهُ: (المَصَالح) وتعلُّقِ المشيئةِ.

قولُهُ: (تُلقِحُ) اللَّقَحُ ـ محرَّكةً ـ: الحَبلُ؛ أي: حوامِلَ، شبَّهَ الرِّيحَ الَّتي جاءَت بخيرٍ من إنشاءِ سَحابٍ ماطرٍ بالحامل، كما شبَّهَ ما لا يكونُ كذلك بالعَقيمِ، أو: مُلقِحاتٍ للشَّجرِ أو السَّحابِ، ونظيرُهُ الطَّوائحُ بمعنى المطِيحاتِ، وبهذا عرفتَ أنَّ قولَهُ: (تلقحُ) من الإلقاحِ، وقرأَ حمزةُ: بالإفرادِ على تأويلِ الجنسِ[2].

قولُهُ: (أي: لَيسَتْ... إلخ) أو: حافظينَ في الغُدْرانِ والعُيونِ والآبارِ.

---

(١) قرأ بها الأعرج وخارجة عن نافع. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٤٧٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢).

٢٦ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْنا الإنسانَ﴾: آدمَ ﴿مِن صَلصالٍ﴾: طينٍ يابس يُسمَع له صلصلة إذا نُقر، ﴿مِن حَمَإٍ﴾: طينٍ أسود ﴿مَسْنُونٍ﴾: متغيِّر، ٢٧ ـ ﴿والجانَّ﴾ أبا الجنّ ـ وهو إبليسُ ـ ﴿خَلَقْناهُ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ خلقِ آدمَ ﴿مِن نارِ السَّمُومِ﴾، هي نار لا دخان لها تَنفذ من المَسامّ.

٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائكةِ: إنِّي خالِقٌ بَشَرًا، مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنُونٍ. فإذا سَوَّيتُهُ﴾: أتممتُه، ﴿ونَفَختُ﴾: أجريتُ ﴿فيهِ مِن رُوحِي﴾، فصار حيًا ـ وإضافةُ الروح إليه تشريف لآدم ـ ﴿فقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ سجودَ تحيّة بالانحناء. ٣٠ ـ ﴿فسَجَدَ المَلائكةُ كُلُّهُم أجمَعُونَ﴾ ـ فيه تأكيدان ـ ٣١ ـ ﴿إلاّ إبلِيسَ﴾ هو أبو الجنّ كان بين الملائكة، ﴿أبَى﴾: امتنع من ﴿أن يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ﴾.

٣٢ ـ ٣٣ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿يا إبلِيسُ، مالَكَ﴾: ما منعك ﴿ألاّ﴾ ـ زائدةٌ ـ ﴿تَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ؟ قالَ: لَم أكُنْ لِأسجُدَ﴾: لا ينبغي لي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ، خَلَقْتَهُ مِن صَلصالٍ مِن حَمَإٍ مَسنُونٍ﴾.

قولُهُ: (أَسْودَ) أي: اسوَدَّ وتغيَّرَ من طولِ مجاوَرةِ الماءِ.

قولُهُ: (وهُو إبلِيسُ) وفي البيضاويِّ: وقيلَ: إبليسَ[1]. فيدلُّ على المغايَرةِ، وهو الظَّاهرُ قالَ: ويجوزُ أن يُرادَ به الجنسُ كما هو الظَّاهرُ من ﴿الإنسانَ﴾[2].

قولُهُ: (أتمَمْتُهُ) أي: أحكمْتُ خلقتَهُ وهيَّأتُه لنفخِ الرُّوحِ فيه.

قالَ تعالى: (﴿فَقَعُوا﴾) أمرٌ من وقعَ يقعُ؛ أي: اسقُطوا.

قولُهُ: (تَأكِيدَانِ) للمُبالغَةِ في التَّعميمِ ومنعِ التَّخصيصِ.

وقيلَ: أكَّدَ بالكلِّ للإحاطَةِ، وبأجمعينَ للدَّلالةِ على أنَّهُم سجَدوا مجتَمِعينَ دفعةً.

وفيه نظرٌ، إذ لو كانَ الأمرُ كذلك كانَ الثَّاني حالاً لا تأكيداً.

قولُهُ: (هُو أبُو الجِنِّ) إن جعلَ منقطعاً اتَّصلَ به قولُهُ: (﴿أَبَى﴾) أي: ولكنَّ إبليسَ أبى، وإن جُعِلَ متَّصِلاً كانَ استِئنافاً على أنَّهُ جوابُ سائلٍ قال: هلَّا سجدَ.

قولُهُ: (زَائِدَةٌ) لقولِهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥]، وفي البيضاويِّ: أيُّ غرضٍ لك في أن لا تكونَ[3]؟ وهو الأحسنُ؛ إذ لا يُقالُ بالزِّيادةِ إلَّا عند الضَّرورةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

٣٤ ـ ﴿قَالَ: فاخرُجْ مِنها﴾ أي: من الجنّة، وقيل: من السماوات. ﴿فإنَّكَ رَجِيمٌ﴾: مطرود، ٣٥ ـ ﴿وإنَّ عليكَ اللَّعْنَةَ إلَى يَومِ الدِّينِ﴾: الجزاءِ. ٣٦ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، فأنظِرْنِي إلَى يَومِ يُبعَثُونَ﴾ أي: الناسُ.

٣٧ ـ ٣٨ ـ ﴿قالَ: فإنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ، إلَى يَومِ الوَقتِ المَعلُومِ﴾: وقت النفخة الأُولى. ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، بِما أغوَيتَنِي﴾ أي: بإغوائك لي، والباء: للقسم، وجوابه: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُم في الأرضِ﴾ المعاصيَ ﴿ولأُغوِيَنَّهُم أجمَعِينَ، إلاَّ عِبادَكَ مِنهُمُ المُخلَصِينَ﴾ أي: المُؤمنين.

قولُهُ: (أي: مِنَ الجَنَّةِ) أو زُمَرِ الملائكةِ، أو الصُّورةِ الملكيَّةِ[1].

قولُهُ: (مَطرُودٌ) من رحمةِ اللهِ والخيرِ والكرامَةِ، فإنَّ من يُطرَدُ يرجَمُ بالحجرِ، أو: شيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهبِ، وهو وعيدٌ يتضمَّنُ الجوابَ عن شبهتِهِ.

قولُهُ: (الجَزَاءِ) فإنَّهُ منتهَى أمدِ اللَّعنِ؛ لأنَّه يناسبُ أيَّامَ التَّكليفِ، وليسَ منه زمانُ الجزاءِ.

أقولُ: وإذا جُعلَ ما بعدَ ﴿إلى﴾ داخلاً، و﴿يَومِ الدِّينِ﴾ ممتدًّا شاملاً لجزاءِ الفريقينِ في دارَي الثَّوابِ والعقابِ= فلا إشكالَ.

قولُهُ: (أَي: النَّاسُ) أرادَ أن يجدَ وسعةً في الإغواءِ ونجاةً من[2] الموتِ، إذ لا موتَ بعد وقتِ البعثِ، فأجابَهُ إلى الأوَّلِ دونَ الثَّاني لحكمةٍ بالغَةٍ.

قولُهُ: (وَقتِ النَّفخَةِ الأُولَى) عليه الجمهورُ.

قولُهُ: (بإغوَائِكَ) يعني: ﴿ما﴾ مصدريَّةٌ.

قولُهُ: (والباءُ: للقَسَمِ) وقيلَ: للسَّببيَّةِ، إذ في انعِقادِ القَسَمِ بأفعالِ اللهِ تعالى خلافٌ[3].

قولُهُ: (المَعَاصِي) في الدُّنيا الَّتي هي دارُ الغرورِ؛ كقولِهِ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي: الدُّنيا.

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) الَّذين أخلصْتَهُم لطاعتِكَ، فلا يعملُ فيهم كَيدِي، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو: بالكسرِ[4]؛ أي: الَّذينَ أخلصُوا نفوسَهُم للهِ.

---

(١) في (م): «أو الصور الملائكة».

(٢) في (ص) و(د): «عن».

(٣) انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٣٤).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٥٨).

٤١ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿هذا صِراطٌ عليَّ مُستَقِيمٌ﴾، وهو ٤٢ ـ ﴿إنَّ عِبادِي﴾ أي: المُؤمنين ﴿لَيسَ لَكَ علَيهِم سُلطانٌ﴾: قُوّة، ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ﴾: الكافرين، ٤٣ ـ ﴿وإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُم أجمَعِينَ﴾ أي: مَن اتّبعك معك، ٤٤ ـ ﴿لَها سَبْعةُ أبوابٍ﴾: أطباقٍ، ﴿لِكُلِّ بابٍ﴾ منها ﴿مِنهُم جُزءٌ﴾: نصيب ﴿مَقسُومٌ﴾.

قالَ تعَالى: (﴿عليَّ﴾) أي: حقٌّ عليَّ أن أراعيَهُ (﴿مستقيمٌ﴾): لا انحِرافَ عنه، والإشارَةُ إلى ما تضمَّنَهُ الاستثناءُ، وهو تخليصُ المخلَصينَ من إغوائِهِ، أو الإخلاصِ على معنى: أنَّ الإخلاصَ طريقٌ عليَّ يؤدِّي إلى الوصُولِ إليَّ من غيرِ اعوِجاجٍ وضلالٍ.

وقُرئ: (عَلِيٌّ) من علوِّ الشَّرفِ[١].

قولُهُ: (وهُو) أي: الصِّراطُ.

قولُـهُ: (أي: مَـنْ اتَّبعَـكَ) أي: موعدُ المُغْـوي والمتَّبعِ، ففيـه تغليبٌ، وقيـلَ: مَوعدُ الغاويـنَ والمتَّبِعينَ، و(﴿أجمعينَ﴾) تأكيدٌ.

قالَ تعالى: (﴿أَبْوَابٍ﴾) يدخلونَ فيها لكثرَتِهِم.

قولُهُ: (طِبَاقٍ) أي: طبَقاتٍ ينزلونَها بحسَبِ مراتبِهِم في المتابعةِ[٢]، وهي: الحطمَةُ ولظًى وسقرُ والجحيمُ وسعيرُ وجهنَّمُ والهاوِيةُ، وهي أسفلُها، كذا في «المبهماتِ»[٣].

قالَ تعالى: (﴿منهم﴾) منَ الأتباعِ، حالٌ من ﴿جزءٌ﴾، وقرأ أبو بكرٍ: بضمِّ الزَّاي[٤]، قالَ الضَّحَّاكُ: بابٌ لليهودِ، وبابٌ للنَّصارى، وبابٌ للصَّابئينَ، وبابٌ للمَجوسِ، وبابٌ للذين أشرَكوا؛ وهم كفَّارُ العربِ، وبابٌ للمنافقينَ، وبابٌ لأهلِ التَّوحيدِ. أخرجَه ابنُ أبي حاتمٍ[٥]، كذا في «المبهماتِ»[٦].

لكن قالَ البيضاويُّ[٧]: أعلاها للموحِّدينَ العُصاةِ، وأسفَلُها للمُنافقينَ. وهو الصَّحيحُ.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٦٥) ونسبت ليعقوب ومجاهد وحميد.

(٢) في (ن): «المبايعة».

(٣) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٦٢).

(٤) انظر: «تحبير التيسير» (ص: ٣٠٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٨٢).

(٦) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٦٢).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٢).

٤٥ ـ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾: بساتينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجري فيها، ويقال لهم: ٤٦ ـ ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ﴾ أي: سالمين من كُلّ مَخُوف، أو مع سلام أي: سَلّموا وادخلوا ﴿آمِنِينَ﴾ من كُلّ فزع. ٤٧ ـ ﴿وَنَزَعْنا ما في صُدُورِهِم مِن غِلٍّ﴾: حِقد ﴿إِخوانًا﴾: حالٌ من «هم» ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾: حالٌ أيضًا، أي: لاينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم، ٤٨ ـ ﴿لا يَمَسُّهُم فِيها نَصَبٌ﴾: تعب ﴿وما هُم مِنها بِمُخرَجِينَ﴾ أبدًا.

٤٩ ـ ﴿نَبِّئْ﴾: خبِّرْ ـ يا مُحمّد ـ ﴿عِبادِيَ أَنِّيَ أَنا الغَفُورُ﴾ للمؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، ٥٠ ـ ﴿وأَنَّ عَذابِي﴾ للعُصاة ﴿هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ﴾: المُؤلم، ٥١ ـ ﴿وَنَبِّئْهُم عَن ضَيفِ إبراهِيمَ﴾ ـ وهم ملائكة اثنا عشَرَ أو عشَرةٌ أو ثلاثةٌ منهم جِبريل ـ ٥٢ ـ ﴿إذ دَخَلُوا علَيهِ فَقالُوا: سَلامًا﴾ ـ أي: هذا اللفظَ. ﴿قالَ﴾ إبراهيمُ لمّا عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا: ﴿إنّا مِنكُم وَجِلُونَ﴾: خائفون. ٥٣ ـ ﴿قالُوا: لا تَوجَلْ﴾: تَخَفْ. ﴿إنّا﴾ رُسلُ ربّك ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾: ذي عِلم كثير، هو إسحاق كما ذُكر في سورة «هود».

قولُهُ: (سَالِمِينَ) أو مسلَّماً عليكُم من اللهِ أو الملائكةِ.

قولُهُ: (مِنْ كلِّ فَزعٍ) وآفةٍ وزوالٍ وانتِقالٍ.

قولُهُ: (حِقْدٍ) أي: نزَعْنا في الدُّنيا بما أَلَّفَ بين قلوبِهم، أو في الجنَّةِ بتطييبِ نفوسِهم من حقدٍ كانَ في الدُّنيا، وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: أرجُو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزُّبيرُ منهم(١)، أو من التَّحاسدِ على درجاتِ الجنَّةِ ومراتبِ القربةِ.

قولُهُ: (حَالٌ مِنْ هُمْ) أي: الضَّميرِ المضافِ إليه، والعاملُ فيه الإضافَةُ، أو مِن الضَّميرِ في ﴿جنَّاتٍ﴾ أو فاعلِ ﴿ادخلُوهَا﴾، أو الضَّميرِ في ﴿آمنين﴾.

قولُهُ: (أبداً) فإنَّ تمامَ النِّعمةِ بالخلودِ.

قولُهُ: (خَبِّرْ) هذا فَذْلَكةُ ما سبَقَ من الوَعدِ والوَعيدِ وتقريرٌ له.

قولُهُ: (أي: هذَا اللَّفظُ) أو: نسلِّمُ عليكَ سلاماً، أو: سلَّمْنا سلاماً.

قولُهُ: (لَمَّا عَرَضَ) الأَوْلى أن يقولَ: قالَ: سلامٌ ولمَّا...

قولُهُ: (ذِي عِلمٍ كَثِيرٍ) إذا بلَغَ.

قولُهُ: (فِي هُودٍ) ﴿فبشَّرْنَاهَا بإسحاقَ﴾ [هود: ٧١].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٩٠١)، والطبري في «تفسيره» (١٤٦٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٤٦٦).

٥٤ ـ ﴿قالَ: أَبَشَّرتُمُوني﴾ بالولد ﴿علَى أن مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾: حالٌ، أي: مع مسّه إياي؟ ﴿فَبِمَ﴾: فبأيِّ شيءٍ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾؟ استفهام تعجّب. ٥٥ ـ ﴿قالُوا: بَشَّرْناكَ بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق. ﴿فلا تَكُنْ مِنَ القانِطِينَ﴾: الآيسينَ. ٥٦ ـ ﴿قالَ: ومَن﴾ أي: لا ﴿يَقنِطُ﴾ ـ بكسر النون وفتحها ـ ﴿مِن رَحْمةِ رَبِّهِ إلاّ الضّالُّونَ﴾: الكافرون؟

٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿قالَ: فما خَطبُكُم﴾: شأنكم؟ ﴿أيُّها المُرسَلُونَ. قالُوا: إنّا أُرسِلْنا إلَى قَومٍ مُجرِمِينَ﴾: كافرين أي: قوم لوط لإهلاكهم، ٥٩ ـ ﴿إلاّ آلَ لُوطٍ. إنّا لَمُنَجُّوهُم أجمَعِينَ﴾ لإيمانهم، ٦٠ ـ ﴿إلاّ امرأتَهُ قَدَّرْنا: إنَّها لَمِنَ الغابِرِينَ﴾: الباقين في العذاب لكُفرها.

٦١ ـ ٦٢ ـ ﴿فلَمّا جاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أي: لوطًا ﴿المُرسَلُونَ قالَ﴾ لهم: ﴿إنَّكُم قَومٌ مُنكَرُونَ﴾: لا أعرِفكم. ٦٣ ـ ﴿قالُوا: بَل جِئناكَ بِما كانُوا﴾ أي: قومُك ﴿فِيهِ يَمتَرُونَ﴾: يشُكّون ـ وهو العذاب ـ.....

قولُهُ: (فبأيِّ شَيءٍ؟) فإنَّ البشارَةَ بما لا يُتصوَّرُ وقوعُه عادةً بشارَةٌ بغيرِ شيءٍ، وابنُ كثيرٍ بتشديدِ النُّونِ، ونافعٌ بكسرِ النون[1]، وقولُ القاضِي[2]: في كلِّ القرآنِ. غفلةٌ، إذ لم يُعرَف له ثانٍ.

قولُهُ: (بكَسرِ النُّونِ): بصريٌّ وكِسائيٌّ[3].

قولُهُ: (شَأنُكُم) الَّذي أرسِلتُم لأجلِهِ سوى البشارةِ، والخطبُ: الشَّأنُ العَظيمُ.

قالَ تعالى: (﴿إلَّا آلَ لُوطٍ﴾) إن كان استِثناءً من ﴿قومٍ﴾؛ كان منقطعاً إذِ القومُ مقيَّدٌ بالإجرامِ، وآلُ لوطٍ لم يكونُوا مجرمينَ، وإن كانَ استثناءً من الضَّميرِ في ﴿مجرمين﴾ كانَ متَّصلاً، والقومُ والإرسالُ شاملَينَ للمجرمينَ وآلِ لوطٍ المؤمنينَ به، وكأنَّ المعنى: إنَّا أُرسِلْنا إلى قومٍ أجرمَ كلُّهم إلَّا آلَ لوطٍ منهم.

وقرأ حمزةُ والكَسائيُّ بتخفيفِ ﴿منجُوهُم﴾، وشعبةُ بتخفيفِ ﴿قدَّرْنَا﴾[4].

قولُهُ: (أي: لُوطاً) لا حاجةَ إلى القولِ بزيادةِ ﴿آلَ﴾، وإن كانَ المقصودُ بالذَّاتِ لوطاً، بخلافِ ﴿ما تركَ آلُ موسَى وآلُ هارونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

قولُهُ: (العَذَابُ) الَّذي توعَّدَهُم به.

---

(١) والباقون: ﴿تبشرون﴾ بفتح النون. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٨٤).

٦٤ ـ ﴿وأتَيناكَ بِالحَقِّ، وإنّا لَصادِقُونَ﴾ في قولنا. ٦٥ ـ ﴿فأسْرِ بِأهلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيلِ، واتَّبِعْ أدبارَهُم﴾: امشِ خلفهم، ﴿ولا يَلتَفِتْ مِنكُم أَحَدٌ﴾ لئلاّ يرى عظيم ما ينزل بهم، ﴿وامضُوا حَيثُ تُؤمَرُونَ﴾، وهو الشام.

٦٦ ـ ﴿وقَضَينا﴾: أوحَينا ﴿إلَيهِ ذلِكَ الأمرَ﴾، وهو ﴿أنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقطُوعٌ مُصبِحِينَ﴾: حالٌ أي: يتمّ استئصالهم في الصباح، ٦٧ ـ ﴿وجاءَ أهلُ المَدِينَةِ﴾ مدينةِ سَدُومَ ـ وهم قوم لوط ـ لمّا أُخبروا أنّ في بيت لوط مُردًا حِسانًا وهم الملائكة، ﴿يَستَبشِرُونَ﴾: حالٌ طمعًا في فِعل الفاحشة بهم.

٦٨ ـ ٦٩ ـ ﴿قالَ﴾ لوطٌ: ﴿إنَّ هؤُلاءِ ضَيفِي. فلا تَفضَحُونِ، واتَّقُوا اللهَ ولا تُخزُونِ﴾ بقصدكم إياهم بفِعل الفاحشة. ٧٠ ـ ﴿قالُوا: أوَلَم نَنهَكَ عَنِ العالَمِينَ﴾: عن إضافتهم؟ ٧١ ـ ﴿قالَ: هؤُلاءِ بَناتِي، إن كُنتُم فاعِلِينَ﴾ ما تُريدون من قضاء الشهوة فتزوّجوهنّ.

قولُهُ: (لِئَلَّا يَرَى) أو: فيصيبَهُ ما أصابَهُم.

قولُهُ: (وهُو الشَّامُ) أو مصرُ.

قولُهُ: (أَوحَيْنَا) مقضيًّا[1]، إشارةٌ إلى أنَّهُ عُدِّي بـ﴿إلى﴾ لتضمُّنِهِ[2] معنى أوحَيْنا.

قولُهُ: (وهُو) أي: ﴿ذلكَ الأمرَ﴾ مُبهَمٌ يُفسِّرُهُ ما بعدَهُ، ومحلُّه النَّصبُ على البدلِ منه، وفي ذلك تفخيمٌ للأمرِ.

قولُهُ: (حَالٌ) مِن ﴿هؤلاءِ﴾.

قولُهُ: (فِي الصَّبَاحِ) أي: حالَ كونِهم داخلينَ في الصَّباحِ.

قولُهُ: (سَدُوم) قالَ صاحبُ «الكشفِ»: في «تهذيبِ الأزهريِّ» بالذَّالِ المعجمةِ[3]. والأشهرُ بالدَّالِ غيرِ المعجمَةِ.

قولُهُ: (حَالٌ) أي: مستَبْشرينَ بأضيافِ لوطٍ.

قولُهُ: (عَن ضِيافَتِهِم) وفي نسخةٍ: «إضافتِهم»، أو: عن أن تُجيرَ منهُم أحدًا.

قولُهُ: (ما تُرِيدُونَ) أو: ما أقولُ لكُم من نكاحِ بَناتِي.

---

(١) أي: معنى (قضينا إليه): أوحينا إليه مقضيًّا.

(٢) في (د) و(ن): «التضمينه».

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٦٠).

٧٢ ـ قال تعالى: ﴿لَعَمرُكَ﴾ ـ خِطاب للنبيّ ﷺ ـ أي: وَحَياتِك ﴿إِنَّهُم لَفِي سَكْرتِهِم يَعمَهُونَ﴾: يتردّدون. ٧٣ ـ ﴿فأَخَذَتْهُمُ الصَّيحةُ﴾ صيحة جِبريلَ ﴿مُشرِقِينَ﴾: وقتَ شُروق الشمس، ٧٤ ـ ﴿فجَعَلْنا عالِيَها﴾ أي: قُراهم ﴿سافِلَها﴾ بأن رفعها جِبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض، ﴿وأمطَرْنا علَيهِم حِجارةً مِن سِجِّيلٍ﴾: طِينٍ طُبخ بالنار.

٧٥ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّة الله ﴿لِلمُتَوَسِّمِينَ﴾: للناظرين المُعتبرين، ٧٦ ـ ﴿وإنَّها﴾ أي: قُرى قوم لُوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾: طريقِ قُريشٍ إلى الشام لم تندرس. أفلا يعتبرون بهم؟

٧٧ـ٧٨ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآيَةً﴾: لَعِبرة ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وإنْ﴾: مُخففةٌ، أي: إنّه ﴿كانَ أصحابُ الأَيكةِ﴾ هي غَيضةُ شجر بقُرب مَدْيَنَ ـ وهم قوم شُعيب ـ ﴿لَظالِمِينَ﴾ بتكذيبهم شُعيبًا، ....

قولُهُ: (لِلنَّبِيِّ) وقيل: للوطٍ.

قولُهُ: (أي: وحَيَاتكَ) أو التَّقديرُ: لعمرُكَ قسَمي، وهو لغةٌ في العُمرِ يختصُّ به القسَمُ لإيثارِ الأخفِّ فيه؛ لأنَّهُ كثيرُ الدَّورِ على ألسنتِهِم.

قالَ تعَالى: (﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾) أي: غوايَتِهِم.

قولُهُ: (يَتَرَدَّدُونَ) متحيِّرِيْنَ، فكيفَ يسمعونَ نصحكَ؟

قولُهُ: (صيحَةُ جِبرِيلَ) وقيلَ: صيحةٌ هائلةٌ مُهلكةٌ.

قولُهُ: (وَقتَ) أي: داخلينَ في وقتٍ.

قولُهُ: (أَي: قُرَاهُم) أي: عالي قراهُم، أو المدينةِ.

قولُهُ: (النَّاظِرِينَ) المتفكِّرينَ المتفرِّسينَ الَّذين يعرِفونَ الشَّيءَ بالعلامةِ، وفي الحديثِ: «اتَّقُوا فِرَاسةَ المؤمنِ فإنَّهُ ينظرُ بنُورِ اللهِ»[1].

قولُهُ: (أي: قُرَى) أو: المدينةَ.

---

(١) رواه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٨٤٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب.

ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١١٥٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٠٢) (٧٤٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١١٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٦٦٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٣٥٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١١٩٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

وفي «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني، وإسناده حسن.

٧٩ ـ ﴿فانتقَمْنا مِنهُم﴾ بأن أهلكناهم بشِدّة الحرّ، ﴿وإنَّهما﴾ أي: قُرى قوم لُوط والأيكة ﴿لَبِإمامٍ﴾: طريقٍ ﴿مُبِينٍ﴾: واضح. أفلا يعتبر بهم أهل مكّة؟

٨٠ ـ ﴿ولَقَد كَذَّبَ أصحابُ الحِجرِ﴾: وادٍ بين المدينة والشام ـ وهم ثمودُ ـ ﴿المُرسَلِينَ﴾ بتكذيبهم صالحًا لأنه تكذيب لباقي الرُّسل لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، ٨١ ـ ﴿وآتَيناهُم آياتِنا﴾ في الناقة، ﴿فكانُوا عَنها مُعرِضِينَ﴾: لا يتفكّرون فيها، ٨٢ ـ ٨٣ ـ ﴿وكانُوا يَنحِتُونَ مِنَ الجِبالِ بُيُوتًا آمِنِينَ، فأخَذَتْهُمُ الصَّيحةُ مُصبِحِينَ﴾: وقتَ الصباح، ٨٤ ـ ﴿فما أغنَى﴾: دَفَعَ ﴿عَنهُم﴾ العذابَ ﴿ما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من بناء الحُصون وجمع الأموال.

٨٥ ـ ﴿وما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما إلاّ بِالحَقِّ، وإنَّ السّاعةَ لَآتِيةٌ﴾ ـ لا محالةَ ـ فيُجازَى كُلّ أحد بعمله. ﴿فاصفَحِ﴾ ـ يا مُحمّد ـ عن قومك ﴿الصَّفحَ الجَمِيلَ﴾: أعرِضْ عنهم إعراضًا لا جزعَ فيه. وهذا منسوخ بآية السيف. ٨٦ ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاّقُ﴾ لكُلّ شيء ﴿العَلِيمُ﴾ بكُلّ شيء.

٨٧ ـ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ﴿ولَقَد آتَيناكَ سَبعًا مِنَ المَثانِي﴾، قال ﷺ: «هِيَ الفاتِحةُ». رواه الشيخان........

قولُهُ: (بَينَ مَكَّةَ) الأظهرُ: «بينَ المدينةِ» كما في بعضِ النُّسخِ[١]

قولُهُ: (لِاشتِرَاكِهِم فِي المَجِيءِ بالتَّوحِيدِ) هذا التَّعليلُ غيرُ مستقيمٍ؛ لأنَّ الموحِّدَ إذا أنكرَ نبيًّا كافرٌ؛ لأنَّ من شُروطِ الإيمانِ تصديقَ الأنبياءِ في دَعوى نبوَّتِهم.

قولُهُ: (فِي النَّاقَةِ) أي: ولدِها وشربِها ودرِّها، أو ما نصبَ لهم من الأدلَّةِ.

قالَ تعَالى: (﴿آمنينَ﴾) مِن الانهِدامِ ونقبِ اللُّصوصِ وتخريبِ الأعداءِ لوَثاقتِها، أو: من العَذابِ لفرطِ غفلتِهم.

قولُهُ: (وجَمعِ الأَموَالِ) والعددِ.

قالَ تعالى: (﴿إلَّا بِالْحَقِّ﴾) أي: إلَّا خلقاً ملتبِساً بالحقِّ.

قولُهُ: (فيُجَازَى) بالياءِ أو النُّونِ.

قولُهُ: (وهَذا مَنسُوخٌ) كذا قيلَ، قالَ النَّسفيُّ: وهو بعيدٌ؛ لأنَّ المقصودَ مِن ذلك أن يُظهِرَ العفوَ والصَّفحَ، فكيف يصيرُ منسوخاً[٢]؟

---

(١) وكذا هي في النسخ المعتمدة في تحقيق متن الجلالين.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ١٩٨).

لأنها تُثنَى في كُلّ رَكعة، ﴿والقرآنَ العَظِيمَ ـ لا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إلَى ما مَتَّعْنا بِهِ أزواجًا﴾: أصنافًا ﴿مِنهُم، ولا تَحزَنْ عليهِم﴾ إن لم يُؤمنوا، ﴿واخفِضْ جَناحَكَ﴾: ألِنْ جانبَك ﴿لِلمُؤمِنِينَ، وقُلْ: إنِّيَ أنا النَّذِيرُ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم ﴿المُبِينُ﴾: البيِّنُ الإنذار ـ ٩٠ ـ ﴿كَما أنزَلْنا﴾ العذابَ ﴿علَى المُقتَسِمِينَ﴾ اليهودِ والنصارى ٩١ ـ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ﴾: أي: كُتبهم المُنزلة عليهم ﴿عِضِينَ﴾: أجزاء حيثُ آمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقيل: المُراد بهم الذين اقتسموا طُرق مكّة يصدّون الناس عن الإسلام، وقال بعضهم في القرآن: سِحر، وبعضهم: كِهانة، وبعضهم: شِعر.

قولُهُ: (لأَنَّهَا تُثنَّى) أي: تُكرَّرُ، مِن التَّثنيةِ، فقولُهُ: (في كلِّ ركعةٍ) زائدٌ، أو يحملُ على ركعةٍ ثانيةٍ، أو المرادُ: في كلِّ صلاةٍ، فيؤيِّدُ مذهَبَنا أنَّ الرَّكعةَ الواحدةَ ليسَت بصلاةٍ.

قالَ تعالى: (﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾) أي: لا تنظُرْ نظرَ اختيارٍ، بل انظُرْ نظرَ اعتبارٍ.

قولُهُ: (أَصْنَافاً) مِن الكفَّارِ، فإنَّهُ مستحقَرٌ بالإضافةِ إلى ما أوتيتَهُ، فإنَّهُ كمالٌ مطلوبٌ بالذَّاتِ مُفضٍ إلى دوامِ اللَّذَّاتِ، وعن أبي بكرٍ: «مَنْ أوتيَ القرآنَ فرأى أنَّ أحداً أوتيَ مِنَ الدُّنيا أفضَلَ ممَّا أوتي فقد صغَّرَ عظيماً وعظَّم صغيراً» رواهُ الطَّبرانيُّ[1].

قولُهُ: (أَلِنْ) أي: تواضَعْ لهُم وارفُق بهم.

قولُهُ: (العَذَابَ) أي: مثلَ العذابِ الَّذي أنزَلْنا عليهم، فهو وصفٌ لمفعولِ ﴿النَّذيرُ﴾ أُقيمَ مقامَهُ.

قولُهُ: (اليَهُودِ... إلخ) حيثُ قالوا عناداً: بعضُهُ حقٌّ موافقٌ للتَّوراةِ والإنجيلِ، وبعضُهُ باطلٌ مخالفٌ لهما.

قولُهُ: (أي: كتُبَهُم المُنَزَلَة) على أنَّ القرآنَ ما يقرؤونَهُ من كتبِهِم.

قولُهُ: (﴿عِضِينَ﴾ أجزَاءً) جمعُ: عِضَة، وأصلُها عِضْوةٌ، مِن عَضا الشَّاةَ: إذا جَعلَها أعضاءً، وإنَّما جُمِعَ جمعَ السَّلامةِ جبراً لما حُذفَ.

قولُهُ: (الَّذينَ اقتَسَمُوا) كانُوا اثني عشرَ.

قولُهُ: (طُرُق مكَّةَ) أيَّامَ الموسمِ، فأهلكَهُمُ اللهُ يومَ بدرٍ.

قولُهُ: (وقَالَ بعضُهُم) فيكونونَ[2] هُم المرادَ بـالمقتَسِمينَ، وهذا قولٌ آخرُ.

قولُهُ: (وبعضُهُم: شِعرٌ) وبعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، فعَلى هذينِ القولينِ المرادُ بـ﴿القرآن﴾ كتابُنا.

---

(١) قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (ص: ٩٤): لم أجده عن أبي بكر. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٥٧٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٥٩): فيه إسماعيل بن رافع وهو متروك.

(٢) في (ص): «فيكون».

٩٢ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أجمَعِينَ﴾ سُؤالَ توبيخ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ﴿عَمّا كانُوا يَعمَلُونَ. فاصدَعْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿بِما تُؤمَرُ﴾ به، أي: اجهَرْ بـه وأمضِهِ، ﴿وأعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ﴾. هذا قبل الأمر بالجهاد. ٩٥ ـ ﴿إنّا كَفَيناكَ المُستَهزِئِينَ﴾ بـك بأن أهلكنا كُلًّا منهم بآفة ـ وهـم: الوليدُ بن المُغيرةِ، والعاصِ بنُ وائلٍ، وعديُّ بن قيسٍ، والأسْودُ بن المُطّلبِ، والأسودُ بن عبدِ يَغوثَ ـ ٩٦ ـ ﴿الَّذِينَ يَجعَلُونَ مَعَ اللهِ إلٰهًا آخَرَ﴾: صفةٌ، وقيل: مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره، وهو: ﴿فَسَوفَ يَعلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم.

٩٧ ـ ﴿ولَقَد﴾: للتحقيق ﴿نَعلَمُ أنَّكَ يَضِيقُ صَدرُكَ بِما يَقُولُونَ﴾..........................

قولُهُ: (بِهِ) فما موصولَةٌ، والرَّاجعُ محذوفٌ؛ أي: بما تؤمرُ به من الشَّرائعِ.

قولُهُ: (أي: اجهَرْ) أو: افرُقْ بين الحقِّ والباطِلِ.

قولُهُ: (هذَا) أو المعنى: فلا تلتَفِتْ إلى ما يقولونَ.

قولُهُ: (الوَلِيدُ) مرَّ بنبَّالٍ، فتعلَّقَ بثوبِهِ سهمٌ، فلم يلتفِتْ ـ تعظُّماً ـ لأخذِهِ، فأصابَ عرقاً في عقبِهِ فقطعَهُ فماتَ[1].

قولُهُ: (والعَاص) دخلَتْ شوكةٌ في أخمصِهِ فانتفخَتْ رجلُهُ حتَّى صارَت كالرَّحى وماتَ.

قولُهُ: (عَدِيُّ بنُ قيسٍ) المنقولُ في «الدُّرِّ» والبغويِّ والبيضاويِّ بدلَهُ: حارثةُ بنُ قيسٍ، وفي بعضِ نسخِ البيضاويِّ: عديُّ بن قيسٍ[2]، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ، أشارَ جبريلُ إلى أنفِهِ، فامتخطَ قيحاً فماتَ.

قولُهُ: (ابنُ المُطَّلبِ) أشارَ جبريلُ إلى عينِهِ فعميَ.

قولُهُ: (ابنُ عَبدِ يَغُوثَ) جعلَ ينطحُ رأسَهُ بشجرةٍ ويضربُ وجهَهُ بالشَّوكِ حتَّى ماتَ.

قولُهُ: (عَاقِبَةَ أَمرِهِمْ) في الدَّارين.

قولُهُ: (للتَّحقِيقِ) ويمكنُ التَّقليلُ لقلَّةِ التَّضييقِ؛ إذ يلزمُ من قلَّةِ المعلومِ قلَّةُ تعلُّقِ العلمِ.

---

(١) هذا والذي بعده جاء فيما رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٩٨٦)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٧٧٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٧): فيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٤٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٥٧) عن مقسم مولى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (٥/ ١٠٢)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٦٨). وفي «أنوار التنزيل» (٣/ ٢١٨): عدي بن قيس.

من الاستهزاء والتكذيب. ٩٨ ـ ﴿فسَبِّحْ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿وكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ﴾: المُصلّين، ٩٩ ـ ﴿واعبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يأتِيَكَ اليَقِينُ﴾: الموتُ.

قولُهُ: (مِن الاستِهزَاءِ) أو: فينا وفيكَ وفي القرآنِ.

قولُهُ: (المُصَلِّينَ) وكانَ ﷺ إذا حزبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصَّلاةِ[1].

قولُهُ: (المَوْتُ) فإنَّهُ متيقَّنٌ لحاقُه كلَّ حيٍّ مخلوقٍ.

وقالَ الغزاليُّ: الموتُ يقينٌ يشبهُ الشَّكَّ[2].

قالَ صاحبُ «الكشفِ»: ظاهرُه ما ذكرَهُ المصنِّفُ، وباطنُهُ يومئُ إلى أنَّ السَّفرَ في اللهِ لا ينقطعُ، والشُّهودَ الَّذي عليه يستقرُّ لا يحصلُ أبداً، وعن لسانِ هذا المقامِ: ﴿ربِّ زدنِي علماً﴾ [طه: ١١٤]، واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٢٩٩)، والطبري في «تفسيره» (٨٤٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤٧٣٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩١٢) عن حذيفة رضي الله عنه.

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٣/ ١٧٢): أخرجه أبو داود بإسناد حسن.

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٧٣).

سورة الحجر

أخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس وابنِ الزبير ﷺ أنَّها نزلَت بمكة[1]، ورُوي ذلك عن قتادة ومجاهد، وفي «مجمع البيان» عن الحسن أنَّها مكيةٌ إلا قوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾)، وقوله سبحانه: (كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾)[2].

وذكر الجلالُ السيوطيُّ في «الإتقان» عن بعضهم استثناءَ الآية الأُولَى فقط، ثم قال: قلتُ: ويَنبغي استثناءُ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الآية [٢٤]؛ لما أخرجَه الترمذيُّ وغيرُه في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاةِ[3]، وعلى هذا فقولُ أبي حيان ومثله في «تفسير الخازن»: إنَّها مكية بلا خلاف[4]. الظاهرُ في عدم الاستثناء ظاهرٌ في قلَّة التتبُّع، وهي تسعٌ وتسعون آية، قال الداني، وكذا الطبرسي: بالإجماع[5]، وتحتوي ـ على ما قيل ـ على خمسِ آياتٍ نسخَتْها آيةُ السيف.

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢، وأخرج أثر ابن عباس ابن الضُّرَيس في فضائل القرآن ص٣٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٨٢.

(٢) مجمع البيان ١٤/ ٥.

(٣) الإتقان ١/ ٤٦، والحديث عند الترمذي (٣١٢٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٨٣)، وابن ماجه (١٠٤٦)، والنسائي ٢/ ١١٨ من حديث ابن عباس ﷺ، أن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فكان البعض يستقدم في الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخَّر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله الآية. وأورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: غريب جداً، وفيه نكارة شديدة، ورجَّح أنه من كلام أبي الجوزاء الذي رواه عن ابن عباس ﷺ.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٣، وتفسير الخازن ٤/ ٥٥.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ١٤/ ٥، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨١.

ووجهُ مناسبتها لما قبلَها؛ أنَّها مُفتَتَحة بنحو ما افتتحَ به السورة السابقة، ومشتملةٌ أيضاً على شرح أحوالِ الكفرةِ يوم القيامة ووَدادتهم لو كانوا مسلمين، وقد اشتملَت الأولَى على نحو ذلك، وأيضاً ذُكر في الأُولَى طرفٌ من أحوال المجرمين في الآخرة، وذُكر هنا طرفٌ مما نال بعضاً منهم في الدنيا، وأيضاً قد ذكر سبحانه في كلٍّ مما يتعلَّق بأمر السماوات والأرض ما ذَكَر، وأيضاً فعل سبحانه نحو ذلك فيما يتعلَّق بإبراهيم عليه السلام، وأيضاً في كلٍّ مِن تسلية نبِّينا ﷺ ما فيه، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ قد تقدَّم الكلامُ فيه[1] ﴿تِلْكَ﴾ اختار غيرُ واحدٍ أنَّه إشارةٌ إلى السورة، أي: تلك السورةُ العظيمة الشأن ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الكاملِ الحقيق باختصاصِ اسم الكتاب به على الإطلاق كما يُشعرُ به التعريفُ، أي: بعضٌ منه مترجم مستقلٌّ باسم خاصٍّ، فالمرادُ به جميعُ القرآن، أو جميعُ المنزل إذ ذاك.

﴿وَقُرْءَانٍ﴾ عظيم الشأن، كما يُشعر به التنكير ﴿مُّبِينٍ ۝١﴾ مُظهِرٍ في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام، أو لسبيل الرُّشدِ والغيِّ، أو فارقٍ بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو ظاهر معانيه، أو أَمْرِ إعجازه، فالمبين إمَّا من المتعدِّي أو اللازم، وفي جمع وصْفَي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه، حيث أُشيرَ بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس[2] الكُتُب الإلهية، فكأنَّه كلُّها، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن غيره نسيج وحده، بديعاً في بابه، خارجاً عن دائرة البيان، قرآناً غيرَ ذي عوجٍ، ونحو هذا فاتحة سورة النمل خلا أنَّه أَخَّر هاهنا الوصفَ بالقرآنية عن الوصفِ بالكتابية، لما أنَّ الإشارةَ إلى امتيازه عن سائرِ الكتب - بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه منها - أَدخلُ في المدح، لئلَّا يتوَهَّم من أوَّل الأمر أنَّ امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصَّةٍ به، من غير اشتماله على

(١) ينظر ١/ ٣١٨ وما بعدها.

(٢) قوله: جنس، ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٦٣.

نُعوت كمالِ سائر الكُتُب الكريمةِ، وعكَسَ هناك؛ نظراً إلى حال تقدُّم القرآنية على حال الكتابية. قاله بعضُ المحقِّقين.

وجُوِّز أنْ يراد بالكتاب اللوحُ المحفوظُ؛ وذكر أنَّ تقديمه هنا باعتبار الوجود، وتأخيرَه هناك باعتبار تعلُّق عِلْمنا؛ لأنَّا إنما نعلمُ ثبوتَ ذلك من القرآن.

وتُعقِّب بأنَّ إضافَة الآياتِ إليه تُعكرُ على ذلك، إذ لا عهدَ باشتماله على الآيات.

والزمخشريُّ جعَلَ هنا الإشارةَ إلى ما تضمَّنَتْه السورةُ، والكتابُ وما عُطفَ عليه عبارةٌ عن السورة(١). وذكر هناك أن الكتاب إمَّا اللوح، وإما السورة، وإما القرآن(٢)، فآثر هاهنا أحدَ الأوجه هناك.

قال في «الكشف»: لأنَّ الكتاب المطلَق على غير اللوح أظهرُ، والحملُ على السورة أوجَهُ مبالغةً كما دلَّ عليه أسلوبُ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١] وليطابق المشار إليه، فإنَّه إشارةٌ إلى آيات السورة، ثم قال: وإيثارُ الحملِ على اتِّحاد المعطوف والمعطوف عليه في الصدق؛ لأنَّ الظاهرَ من إضافة الآيات ذلك.

ولمَّا كان في التعريف نوعٌ من الفخامة، وفي التنكير نوعٌ آخرُ، وكان الغرضُ الجمعَ، عرَّف الكتاب ونكَّر القرآن ها هنا، وعكس في النمل، وقدَّم المعرَّف في الموضعَين؛ لزيادةِ التنويه، ولما عقَّبه سبحانه بالحديث عن الخصوص هنالك قدَّم كونَه قرآناً؛ لأنَّه أدلُّ على خصوص المُنزَل على محمد ﷺ للإعجاز.

وتُعقِّب تفسيرُ ذلك بالسورة دون جميع القرآن، أو المُنزَل إذ ذاك بأنَّه غيرُ متسارِع إلى الفهم، والمتسارعُ إليه عند الإطلاق ما ذكر، وعليه يترتَّبُ فائدةُ وَصْف الآياتِ بنعت ما أُضيفَت إليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارةً عن السورة، إذ هي في الاتِّصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يُستغنى عن التصريح بالوصف على أنَّها عبارةٌ عن جميع آياتها، فلا بدَّ من جعل «تلك» إشارةً إلى كلِّ واحدةٍ منها. وفيه من التكلُّف ما لا يخفَى.

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٣/ ١٣٤-١٣٥.

ثم إن الزمخشريَّ بعد أنْ فسَّر المتعاطفَين بالسورة أشار إلى وجه التغايُرِ بينهما بقوله: كأنَّه قيل: الكتابُ الجامعُ للكمال والغرابةِ في البيانِ[1]، ورَمَزَ إلى أنَّه لما جُعِلَ مستقلًّا في الكمال والغرابة قصد قصدهما، فعطف أحدهما على الآخر، فالغرضُ من ذكر الذاتِ في الموضعَين الوصفان، وهذه فائدةُ إيثار هذا الأسلوب، ومِن هذا عدَّه مَن عدَّه من التجريد، قاله في «الكشف».

وقال الطيبي بعد أنْ نَقَل عن البغوي[2] توجيهَ التغايرِ بين المتعاطفَين: بأنَّ الكتاب ما يُكتَب، والقرآن ما يُجمَع بعضُه إلى بعض: فإن قلتَ: رَجَع المآل إلى أنَّ «الكتاب وقرآن» وصفان لموصوفٍ واحدٍ أُقيما مقامه، فما ذلك الموصوف؟ وكيف تقديرُه؟ فإنْ قدَّرتَه معرفةً دَفَعَهُ[3] «وقرآنٍ مبينٍ»، وإنْ ذهبتَ إلى أنَّه نكرة أَبَاهُ لفظُ «الكتاب»؟ قلتُ: أُقدِّرُه معرفةً و«قرآنٍ مبينٍ» في تأويل المعرفة؛ لأنَّ معناه: البالغُ في الغرابة إلى حدِّ الإعجاز، فهو إذاً محدودٌ بل محصورٌ، إلى آخر ما قال. وهو كلامٌ خالٍ عن التحقيق كما لا يخفَى على أربابه.

وقيل المرادُ بالكتاب التوراةُ والإنجيلُ، وبالقرآن الكتاب المنزَل على نبيِّنا ﷺ، وأخرج ذلك ابنُ جرير عن مجاهد وقتادة[4]، وأَمْرُ العطف على هذا ظاهرٌ جدًّا إلا أنَّ ذلك نفسه غيرُ ظاهرٍ، وفي المراد بالإشارة عليه خفاء أيضاً.

وفي «البحر»: أنَّ الإشارةَ على هذا القول إلى آيات الكتاب[5]، وهو كما ترى.

ثمَّ إنَّه سبحانه لمَّا بيَّنَ شأن الآيات لتوجيه المخاطَبين إلى حُسْنِ تلقي ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ شَرَع جلَّ شأنه في بيان المتضمَّن، فقال عزَّ قائلاً: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما يجبُ الإيمان به، ووَدَادتهم[6] ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ مؤمنين بذلك، وقيل: المرادُ كفرُهم بالكتاب والقرآن وبكونه من

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٦.
(٢) في تفسيره ٣/ ٤٥.
(٣) في (م): رفعه، والمثبت من الأصل.
(٤) تفسيره الطبري ١٤/ ٥- ٦بنحوه.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٦) ليست في (م).

عند الله تعالى، ووَدَادَتُهم الانقيادُ لحكمه والإذعانُ لأمره، وفيه إيذانٌ بأنَّ كفرَهم إنَّما كان بالجحود، وفيه نظرٌ، وهذه الودادةُ يومَ القيامة عند رؤيتهم خروجَ العصاةِ من النار.

أخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة والبيهقيُّ وغيرُهم عن ابن عباس وأنس ﷺ أنَّهما تذاكرا هذه الآيةَ فقالا: هذا حيثُ يجمعُ الله تعالى بين أهلِ الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، فيقولُ المشركون: ما أغنَى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضبُ الله تعالى لهم، فيخرجُهم بفَضْل رحمته[١].

وأخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ صحيحٍ عن جابر بنِ عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ناساً من أمتي يُعذَّبون بذنوبهم فيكونُونَ في النار ما شاء الله تعالى أنْ يكونوا، ثمَّ يعيِّرهم أهل الشرك فيقولون: ما نَرَى ما كنتم فيه من تصديقكم نَفَعَكم، فلا يَبقَى موحِّدٌ إلا أَخرَجه اللهُ تعالى من النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية[٢].

وأخرج غيرُ واحدٍ عن عليٍّ ـ كرم الله تعالى وجهه ـ وأبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري نحو ذلك يرفَعُهُ كلٌّ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام[٣].
وروي ذلك عن كثير من السلف الصالح.

فقول الزمخشري: إنَّ القول به بابٌ من الودادة[٤]؛ بيتٌ من السفاهة قَعيدته[٥] عقيدته الشوهاء.

---

(١) الزهدُ لابن المبارك (١٦٠٢)، والبعث والنشور للبيهقي (٨٢)، والطبري ١٤/ ٨، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢.
(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٥١٤٦)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٢. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٩: رجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي وهو ثقة.
(٣) أخرج حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ابنُ أبي عاصم في السنة (٨٤٣)، والطبري ١٤/ ٨، والحاكم ٢/ ٢٤٢، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ابنُ حبان (٧٤٣٢). وذكر حديث علي بن أبي طالب ﷺ السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٣ وعزاه لابن أبي حاتم، ولابن شاهين في السنة.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٦.
(٥) قَعيدةُ الرجل وقَعيدة بيته: امرأتُه. تاج العروس (قعد).

وقال الضحاك: إنَّ ذلك في الدنيا عند الموت وانكشافِ وخامة الكفر لهم، وعن ابن مسعود: إنَّ الآيةَ في كفار قريش وَدُّوا ذلك يومَ بدر حينَ رأوا الغلَبَة للمسلمين. وفي روايةٍ عنه وعن أُناس من الصحابة ﷺ: إنَّ ذلك حين ضُربَتْ أعناقُهم فعرضوا على النار.

وذكر ابنُ الأنباري أنَّ هذه الودادة من الكفار عند كلِّ حالةٍ يُعذَّبُ فيها الكافرُ ويَسلَم المسلمُ[(١)].

و«ربَّ» على كثرة وقوعِها في كلام العربِ لم تقع في القرآن إلا في هذه الآية، ويقال فيها «رُبَّ» بضم الراء وتشديد الباء وفتحها، و«رَبَّ» بفتح الراء، و«رُبُّ» بضمهما، و«رُبَّتَ» بالضمِّ وفتح الباء والتاء، و«رُبَّتْ» بسكون التاء، و«رَبَّتَ»[(٢)] بفتح الثلاثة، و«رَبَّتْ» بفتح الأوَّلين وسكون التاء، وتخفيف الباء من هذه السبعة، و«رُبَّتا» بالضمِّ وفتح الباء المشدَّدة، و«رُبْ» بالضم والسكون، و«رَبْ» بالفتح والسكون، فهذه سبعَ عشرةَ لغةً حكاها ـ ما عدا «رُبَّتا» ـ ابنُ هشام في «المغني»[(٣)]. وحكى أبو حيان إحدَى عشر منها، منها[(٤)]: «رُبَّتا»[(٥)]. وإذا اعتبر ضمُّ الاتصال بـ «ما» والتجرُّد منها بلغت اللغات ما لا يخفى، وزَعَم ابنُ فضَّال[(٦)] في «الهوامل والعوامل» أنَّها ثنائية الوضع كـ : «قد»، وأنَّ فتح الباء مخفَّفة دون التاء ضرورةٌ، وأنَّ فتح الراء مطلقاً شاذٌّ، وهي حرف جرٍّ، خلافاً للكوفية والأخفشِ في أحد قولَيه[(٧)] وابنِ الطَّرَاوة[(٨)]، زعموا أنَّها اسمٌ مبنيٌّ كـ : «كم»، واستدلُّوا على اسميتها

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٢) قوله: بسكون التاء وربت، ليست في الأصل وأثبتناه من (م).
(٣) مغني اللبيب ص ١٨٤.
(٤) قوله: منها، ليس في (م).
(٥) ذكر في تذكرة النحاة ص٥ اثني عشر وجهاً، ولم يذكر منها: ربَّتا.
(٦) في هامش (م): هو أبو الحسن علي. اهـ منه. وهو علي بن فضَّال بن علي، يعرف بالفرزدقي القيراوني النحوي المجاشعي، وله أيضاً كتاب «النكت في القرآن»، و«إكسير الذهب في صناعة الأدب والنحو»، و«شرح عنوان الإعراب»، توفي سنة (٤٧٩ هـ). معجم الأدباء ١٤/ ٩٠، والسير ١٨/ ٥٢٨.
(٧) ينظر معاني القرآن ٢/ ٦٠٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٢.
(٨) سليمان بن محمد بن عبد الله أبو الحسين السبائي المالقي النحوي، أخذ عن أبي الحجاج =

بالإخبار عنها في قوله:

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلَكَ لم يكُنْ عاراً عليكَ وربَّ قَتْلٍ عارْ[١]

ف «رب» عندهم مبتدأٌ و«عارِ» خبرُه، وتقعُ عندهم مصدراً ك : ربَّ ضربة ضربْتَ، وظرفاً ك : ربَّ يوم سرت، ومفعولاً به ك : ربَّ رجلٍ ضربْتَ، واختار الرضي اسميتَها إلا أنَّ إعرابها عندَه رفعٌ أبداً، على أنَّها مبتدأ لا خبَرَ له كما اختار ذلك في قولهم: أقلُّ رجلٍ يقولُ ذلك إلا زيداً، وقال: إنَّها إنْ كُفَّت ب : «ما»، فلا محلَّ لها حينئذٍ؛ لكونها كحرف النفي الداخل على الجملة، ومنَعَ ذلك البصريُّون بأنَّها لو كانت اسماً لجازَ أنْ يتعدَّى إليها الفعلُ بحرف الجر فيقال: بِرُبَّ رجلٍ عالم مررتُ، وأنْ يعود عليها الضمير ويُضاف إليها، وجميعُ علامات الاسم مُنْتَفيةٌ عنها. وأجيبَ عن البيت بأنَّ المعروفَ: وبعضُ، بدل: رُبَّ، وإنْ صحَّت تلك الروايةُ، «فعار» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو عارٌ، كما صرّح به في قوله:

يا رُبَّ هيجَا هي خيرٌ من دَعَه[٢]

والجملةُ صفةُ المجرور أو خبرُه، إذ هو في موضع مبتدأ، ويرد قياسَها على «كم» كما قال أبو علي: إنَّهم لم يفصِلُوا بينها وبين المجرور كما فَصَلوا بين «كم» وما تعمل فيه.

وفي مفادها أقوال: أحدُها: أنَّها للتقليل دائماً، وهو قولُ الأكثرين، وعُدَّ في «البسيط» منهم الخليلُ وسيبويه والأخفش والمازنيُّ والفارسيُّ[٣] والمبرّد[٤] والكسائيُّ والفرَّاء وهشام، وخَلْق آخرون.

= الأعلم والأديب أبي بكر المرشاني، له: المقدمات على كتاب سيبويه، توفي (٥٢٨هـ). الوافي بالوفيات ١٥/ ٤٢٢، وبغية الوعاة ١/ ٦٠٢.

(١) البيت لثابت بن قطنة، كما في الأغاني ١٤/ ٢٧٩، وشواهد المغني للسيوطي ١/ ٩٨، وخزانة الأدب ٩/ ٥٧٦. وجاء في الأغاني: بعض، بدل: رب.

(٢) عجز بيت للبيد، وهو في ديوانه ص٥٩، وصدره: لا تَزجُرِ الفتيان عن سُوء الرِّعَةْ.

(٣) ينظر كتاب الشعر له ٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) ينظر المقتضب ٤/ ١٣٩ و٢٨٩، وممن قال بذلك ابن السراج كما في أصول النحو ١/ ٤١٦.

ثانيها: أنَّها للتكثير دائماً وعليه صاحبُ «العين»[١] وابنُ درستويه وجماعة، وروي عن الخليل.

ثالثها: واختاره الجلالُ السيوطيُّ[٢] وِفاقاً للفارابي وطائفة أنَّها للتقليل غالباً والتكثير نادراً.

رابعها: عكسُه، وجَزَم به في «التسهيل»[٣] واختاره ابنُ هشام في «المغني»[٤].

وخامسها: أنَّها لهما من غير غلبةٍ لأحدِهما، نقله أبو حيان عن بعضِ المتأخِّرين[٥].

سادسها: أنَّها لم تُوضع لواحدٍ منهما، بل هي حرفُ إثباتٍ لا يدلُّ على تكثيرٍ ولا تقليلٍ، وإنَّما يُفهم ذلك من خارجٍ، واختاره أبو حيان[٦].

سابعها: أنَّها للتكثير في المباهاة، وللتقليل فيما عداه، وهو قول الأعلم وابنِ السِّيد.

---

(١) المشهور أن كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، في حين ذكر الأزهري في مقدمة كتابه «تهذيب اللغة» ١/ ٢٨-٢٩ في ذِكْر علماء انتقدهم: فمن المتقدِّمين الليث بن المظفر الذي نَحَل الخليلَ بنَ أحمد تأليفَ كتاب العين جملةً لينفِّقه باسمه، ويرغِّب فيه من حوله، وأُثبتَ لنا عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي الفقيه أنه كان يقول: كان الليث بن المظفَّر رجلاً صالحاً، ومات الخليل ولم يفرغ من كتاب العين، فأحبَّ الليث أن ينفِّق الكتاب كلَّه، فسمَّى لسانه الخليل، فإذا رأيت في الكتاب: «سألت الخليل بن أحمد» أو: «أخبرني الخليل بن أحمد» فإنه يعني الخليل نفسَه، وإذا قال: «قال الخليل» فإنما يعني لسانه نفسه، وإنما وقع الاضطراب في الكتاب من قِبَل خليل الليث. مقدمة تهذيب اللغة ١/ ٢٨-٢٩.
وقال الزبيدي في «مختصر العين» ١/ ٢٤: ونحن نَرْبأ بالخليل عن نسبة الخلل إليه أو التعرُّض للمقاومة له، بل نقول: إن الكتاب لا يصح له ولا يثبت عنه، وأكثر الظن فيه أن الخليل سبَّب أصله وثقَّف كلام العرب ثم هلك قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك سببَ الخلل الواقع فيه والخطأ الموجود فيه. اهـ ولعلَّه ـ والله تعالى أعلم ـ هو الصواب.

(٢) الإتقان ١/ ٥١٥.

(٣) ص ١٤٧.

(٤) ص ١٨٠. وفي أوضح المسالك ص٣٦٤.

(٥) تذكرة النحاة ص٥.

(٦) النهر الماد (بهامش البحر المحيط) ٥/ ٤٤٣، وتذكرة النحاة ص٥.

ثامنها: أنَّها لمبهمِ العددِ، وهو قول ابنِ الباذش وابنِ طاهر. وتُصدَّر وجوباً غالباً، ونحو قوله:

تيقَّنتُ أنْ رُبَّ امرئٍ خِيْلَ خائناً أمينٍ وخوَّانٍ يُخالُ أمينا[١]

وقوله:

ولو عَلِم الأقوامُ كيف خَلفتُهم لَرُبَّ مُفدٌ في القبور وحامدِ[٢]

يحتمل أنْ يكونَ ـ كما قال الشُّمُنِّي ـ ضرورةً[٣]. وقال أبو حيان[٤]: المرادُ تصدُّرها على ما تتعلَّق به، فلا يقال: لقيتُ رُبَّ رجلٍ عالمٍ، وذَكَروا أنَّها قد تُسبَقُ بـ «ألا» كقوله:

ألا رُبَّ مأخوذٍ بإجرامِ غَيرِه فلا تَسْأَمَنْ هجرانَ مَن كان أَجْرَما[٥]

وبـ «يا» صدر جواب شرط غالباً كقوله:

فإنْ أُمسِ مكروباً فيارُبَّ فتية[٦]

ومِن غير الغالب: «يا رُبَّ كاسيةٍ» الحديث[٧] ولا تُجرُّ غيرَ نكرة، وأجازَ بعضُهم جرَّها المعرَّف بـ: «أل» احتجاجاً بقوله:

رُبَّما الجامِل المؤبَّل فيهم وعَناجِيجُ بَينهنَّ المِهارُ[٨]

---

(١) خزانة الأدب ٩/ ٥٦٧، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٣.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ينظر المنصف من الكلام على المغني ١/ ٢٧٦ ذكره عند شاهد آخر من قول حاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥١:

أماويَّ إنِّي ربَّ واحدِ أُمِّه أَجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

(٤) تذكرة النحاة ص٥.

(٥) الدرر اللوامع ٤/ ١٣٥.

(٦) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٦، وعجزه: كَشَفْتُ إذا ما اسودَّ وجْهُ الجبان وفيه: بهمة، بدل: فتية.

(٧) أخرجه أحمد (٢٦٥٤٥)، والبخاري (١١٢٦) من حديث أم سلمة ﵂.

(٨) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ٢٩، والمغني ص١٨٣، والخزانة ٩/ ٥٨٨، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٤-١٢٥. والجامل: اسم جمع الإبل لا واحد له من لفظه. والمؤبَّل: المُعَدُّ للقُنية. والعناجيج: جياد الخيل، واحدها: عنجوج كعصفورٍ.

وأجابَ الجمهورُ بأنَّ الروايةَ بالرفع، وإنْ صحَّ الجرُّ فـ «أل» زائدةٌ.

وفي وجوب نَعت مجرورِها خلف، فقال المبرِّدُ[(١)] وابنُ السراج[(٢)] والفارسيُّ[(٣)]، وأكثرُ المتأخِّرين، وعُزيَ للبصريين: يجبُ؛ لإجرائها مجرى حرف النفي، حيث لا تقعُ إلا صدراً، ولا يُقدَّم عليها ما يَعملُ في الاسم بعدَها، وحُكمُ حرف النفي أنْ يدخُلَ على جملةٍ، فالأقيسُ في مجرورها أنْ يوصف بجملةٍ لذلك، وقد يُوصَف بما يجري مجراها من ظرفٍ أو مجرورٍ أو اسمِ فاعلٍ أو مفعولٍ، وجزم به ابنُ هشام في «المغني»[(٤)] وارتضاه الرضي، وقال الأخفشُ والفرَّاءُ والزجَّاجُ وابنُ طاهر وابنُ خروف وغيرُهم: لا يجبُ[(٥)]، وتضمُّنُها القلَّة أو الكثرةَ يقومُ مقامَ الوصف، واختارَه ابنُ مالك[(٦)]، وتَبِعَهُ أبو حيان[(٧)]، ونظر في الاستدلال المذكور بما لا يخفَى، وتجرُّ مضافاً إلى ضمير مجرورها معطوفاً بالواو كـ: رُبَّ رجلٍ وأخيه. ولا يقاس على ذلك عند سيبويه[(٨)]، وما حكاه الأصمعيُّ من مباشرة «رُبَّ» للمضاف إلى الضمير حيث قال لأعرابية: أَلِفُلان أبٌ أو أخٌ؟ فقالت: رُبَّ أبيه رُبَّ أخيه. تريدُ: رُبَّ أبٍ له، رُبَّ أخٍ له، تقديراً للانفصال، لكون «أب» و«أخ» من الأسماء التي يجوز الوصفُ بها، فلا يقاسُ عليه اتِّفاقاً. وتَجرُّ ضميراً مفرداً مذكَّراً يُفسِّره نكرةٌ منصوبةٌ مطابقةٌ للمعنى الذي يقصدُه المتكلِّمُ غيرُ مفصولةٍ عنه، وسُمِعَ جرُّه في قوله:

وربَّـهُ عَـطِـبٍ أنـقـذت مِـن عَـطَـبِهْ[(٩)]

= وهي الخيل الطويلة الأعناق. والمهار: جمع مهر، وهو ولد الفرس، والأنثى مهرة. ينظر الدرر اللوامع.

(١) المقتضب ٤/ ٢٩٠.

(٢) أصول النحو ١/ ٤١٨.

(٣) ينظر كتاب الشعر له ١/ ٩٣-٩٤.

(٤) المغني ص١٨١.

(٥) قول الزجاج وابن طاهر وابن خروف في تذكرة النحاة ص٦.

(٦) التسهيل ص١٤٧.

(٧) تذكرة النحاة ص٦.

(٨) ينظر الكتاب ٢/ ٥٤-٥٥.

(٩) شرح ابن عقيل ٢/ ١٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٧، وصدر البيت:

واهٍ رَأَيْـتُ وشـيـكـاً صَـدْعَ أعـظـمـه

على نِّية «مِن» وهو شاذٌ، وجوَّز الكوفيةُ مطابقة الضمير للنكرة المفسَّرة تثنيةً وجمعاً وتأنيثاً كما في قوله:

رُبَّـهـا فـتـيـةً دَعَـوتُ إلـى مـا يُـورثُ الـحـمـدَ دائـمـاً فـأجـابُـوا[١]

والأصح أنَّ هذا الضميرَ معرفةٌ جَرَى مجرى النكرة، واختار ابنُ عصفور ـ تبعاً لجماعة ـ أنَّه نكرة، وأنَّ جرَّها إياه ليس قليلاً ولا شاذًّا خلافاً لابن مالك، وأنَّها زائدةٌ في الإعراب لا المعنى، وأن محلَّ مجرورها على حسب العامل لا لازم النصبِ بالفعل الذي بعدُ، أو بعاملٍ محذوفٍ خلافاً للزجَّاج[٢] ومتابعيه في قولهم بذلك، لما يلزم عليه مِن تعدِّي الفعل المتعدِّي بنفسه إلى مفعوله بالواسطة، وهو لا يحتاج إليها فيعطف على محلِّه كما يعطف على لفظه، كقوله:

وَسِـنٍّ كَـسُـنَّـيْـقٍ سـنـاءً وسُـنَّـمـا ذَعَـرتُ بـمـدلاجِ الـهَـجيـرِ نـهُـوضِ[٣]

وأنـها تتعلَّقُ كسائر حروف الجرِّ، وقال الرُّمَّاني وابنُ طاهر: لا تتعلَّق كالحروف[٤] الزائدة، وأنَّ التعلُّقَ بالعامل الذي يكونُ خبراً لمجرورها، أو عاملاً في موضعه، أو مفسِّراً له، قاله أبو حيان[٥]، وقال ابن هشام: قولُ الجمهور: إنَّها معدِّية للعامل، إنْ أرادوا المذكور فخطأٌ؛ لأنه[٦] يتعدَّى بنفسه، أو محذوفاً يقدَّر بـ «حَصَل» ونحوه، كما صرَّح به جماعةٌ، ففيه تقدير ما معنى الكلام مستغنٍ عنه ولم

---

(١) المغني ص٦٣٨، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٨.

(٢) كما في المغني ص١٨٢.

(٣) البيت لامرئ القيس، وقيل: لأبي دؤاد الإيادي، وهو في ديوان امرئ القيس ص٧٦، وفي المغني ص ١٨٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٢٩، وسنٍّ؛ الواو واو ربَّ، والسِّنُّ هنا: الثور. وسُنَّيْق: جبل. وسناء: ارتفاعاً، ونصبه على أنه حال. وسُنَّماً: السُّنُّم: البقرة الوحشية، وقيل: إنه اسم جبل. ومدلاج: أي: فرس كثير السير. والهجير: القائلة. ونُهوض، بضمِّ النون: كثير النهوض. ينظر شرح شواهد المغني للسيوطي ١/ ٤٠٤، وورد في حاشية الشمني على المغني ١/ ٢٧٨: بالمدلاح، بالحاء المهملة، وهو الفرس الكثير العرق. . . .

(٤) في الأصل: الحرف، والمثبت من (م)، وقول الرماني وابن طاهر في تذكرة النحاة ص٧.

(٥) ينظر تذكرة النحاة ص٧.

(٦) في (م): إنه.

يلفظ به في وقتٍ، ثمَّ على التعليق، قال لُكْذةُ[1]: حذفُه لحنٌ. والخليلُ وسيبويه[2]: نادرٌ، كقوله:

ودوِّيَّةٍ قَفْرٍ تُمَشِّي نَعامُها ... كمَشْي النصارَى في خفاف اليرندجِ[3]

أي: قَطَعْتُها، ويَرُدُّ لكذةُ هذا، وقولهم: رُبَّ رجلٍ قائم، ورُبَّ ابنةٍ خيرٌ من ابنٍ، وقوله:

ألا رُبَّ مَنْ تَغْتَشُّه لك ناصحٌ ... ومؤتَمَنٍ بالغيب غيرِ أمينِ[4]

والفارسيُّ والجزوليُّ: كثير[5]، وبه جَزَم ابنُ الحاجب. ورابعُها: واجبٌ كما نقله صاحبُ «البسيط» عن بعضهم. وخامسُها ـ ونقِلَ عن ابن أبي الربيع ـ: يجبُ حذفُه إنْ قامت الصفةُ مقامَه، وإلا جاز الأمران، سواءٌ كان دليل أم لا؟ ويجبُ عند المبرّد والفارسيِّ وابنِ عصفور، وهو المشهورُ كما قال أبو حيان: ورأيُ الأكثرين كونُه ماضياً معنًى[6]، وقال ابن السَّرَّاج: يأتي حالاً. وابنُ مالك: يأتي مستقبلاً[7]. واختارَه في «البحر»[8] إلا أنَّه قال بقلَّته وكثرةِ وقوع الماضي، وأنشدَ له قولَ سليم القشيري:

ومُعتَصِمٍ بالجبن مِن خَشْية الرَّدَى ... سَيَرْدَى وغازٍ مُشفِقٍ سَيؤُوبُ[9]

---

(١) الحسن بن عبد الله، المعروف بـ: لُغْذة، أو: لُكذة، الأصبهاني أبو علي، من طبقة أبي حنيفة الدينوري، مشايخهما سواء، له «النوادر»، وكتاب «الصفات». بغية الوعاة ١/ ٥٠٩، ومعجم الأدباء ٨/ ١٣٩، وكلامه بنحوه في تذكرة النحاة ص٧.

(٢) ينظر الكتاب ٣/ ١٠٣.

(٣) البيت للشماخ كما في الكتاب ٣/ ١٠٤، والمعاني الكبير ١/ ٣٤٦، والدرر اللوامع ٤/ ١٣٢، الدوية: الصحراء. تُمشِّي: تُكثر المشي. واليرندج والأرندج: الجلد الأسود، ينظر الدرر اللوامع.

(٤) الكتاب ٢/ ١٠٩، واللسان (غشش)، والدرر اللوامع ١/ ٣٠١.

(٥) قول الفارسي والجزولي في تذكرة النحاة ص٧.

(٦) ينظر تذكرة النحاة ص٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٧) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ص١٠٦، والتسهيل ص١٤٨.

(٨) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٩) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤، واللباب ١١/ ٤٢٤، وشرح أبيات المغني ٣/ ٢٠٤.

وقول هند:

يا رُبَّ قائلةٍ غداً يا لهف أمِّ معاويه[١]

وجعل كابن مالك الآيةَ من ذلك، وتأوَّلَها الأكثرون بأنَّه وُضع فيها المضارعُ موضعَ الماضي على حدِّ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩].

وتعقَّبه ابنُ هشام بأنَّ فيه تكلُّفاً لاقتضائه أنَّ الفعل المستقبلَ عبّر به عن ماضٍ متجوَّز به عن المستقبل[٢].

وأجاب الشُّمُنِّي بأنَّه لا تكلُّف فيه؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ هذه الحالة المستقبلة جُعلَت بمنزلة الماضي المتحقق، فاستعمل معها «ربما» المختصة بالماضي وعدل إلى لفظ المضارع؛ لأنَّه كلامُ مَن لا خُلْفَ في إخباره، فالمضارعُ عنده بمنزلة الماضي، فهو مستقبل في التحقيق ماضٍ بحسب التأويل[٣]. وهو كما ترى.

وعن أبي حيان أنَّه أجاب عن بيت هند بأنَّه من باب الوصف بالمستقبل، لا مِن باب تعلُّق «رُبَّ» بما بعدها، وهو نظيرُ قولك: رُبَّ مُسيءٍ اليومَ يُحسِنُ غداً. أي: رُبَّ رَجلٍ يُوصَفُ بهذا الوصف.

وتأوَّل الكوفيون كما في «المطول» الآية بأنَّها بتقدير «كان»، أي: ربما كان يودُّ الذين كفروا، فحذف لكثرة استعمال «كان» بعد «ربما»، وضعَّف ذلك أبو حيان؛ بأنَّ هذا ليس من مواضع إضمار كان[٤].

وفي «جمع الجوامع» وشرحه: أنَّ «ما» تُزادُ بعد «رُبَّ»، فالغالبُ الكفُّ وإيلاؤها حينئذٍ الفعل الماضي؛ لأنَّ التكثيرَ أو التقليلَ إنَّما يكون فيما عُرف حدُّه، والمستقبلُ مجهولٌ كقوله:

رُبَّما أوفَيتُ في عَلَمٍ تَرْفَعَنْ ثَوبي شَمالاتُ[٥]

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤، وشواهد التوضيح والتصحيح ص١٠٦، والمغني ٣/ ٢١٢، والدرر اللوامع ٤/ ١٣٣.

(٢) المغني ص١٨٣.

(٣) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ١/ ٢٧٩.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٥) البيت لجذيمة الأبرش وهو في الكتاب ٣/ ٥١٨، والنوادر ص٢١٠، والمقتضب ٣/ ١٥، وشرحٍ

وقد يَليها المضارعُ كـ : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ الآية، وقد يليها الجملةُ الاسميةُ نحو:

رُبَّما الجامِلُ المؤبَّل فيهم

وقد لا تُكَفُّ نحو:

رُبَّما ضربةٍ بسيفٍ صَقيلٍ بَيْن بُصرَى وطعنةٍ نَجْلاءِ[(١)]

وقيل: يتعيَّن بعدها الفعليةُ إذا كُفَّت، وإليه ذهب الفارسيُّ[(٢)]، وأوَّل البيتَ على أنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بجملة حُذف مبتدؤها، أي: رُبَّ شيءٍ هو الجاملُ، وقد يُحذفُ الفعلَ بعدها كقوله:

فذلك إنْ يَلْقَ الكريهةَ يَلْقَها حَميداً وإنْ يَسْتغنِ يوماً فربَّما[(٣)]

وقد تلحق بها «ما» ولا تكفُّ كقوله:

ماويَّ يا رُبَّتَما غارةٍ شَعواءَ كاللَّذعةِ بالمِيسَمِ[(٤)]

انتهى. وبنحو تأويل الفارسي البيتَ أَوَّلَ بعضُهم الآيةَ فقال: إنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بجملة «يودُّ» إلى آخره، والعائد محذوفٌ، والفعل المتعلِّقُ به «رُبَّ» محذوفٌ، أي: رُبَّ شيءٍ يودُّه الذين كفروا تحقق وثبت، ونحوه قول ابنِ أبي الصلت:

رُبَّما تَجزعُ النفوسُ مِن الأمر له فرجةٌ كحلِّ العقالِ[(٥)]

= ابن يعيش ٩/ ٤٠، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٦٥، والمقرب ٢/ ٧٤، والمغني ص١٨٠.

(١) البيت لعدي بن الرَّعلاء الغساني كما في الأصمعيات ص١٥٢، ومعجم الشعراء ص٨٦، وأمالي ابن الشجري ٢/٥٦٦، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/١٩٧، والدرر اللوامع ٤/٢٠٥.

(٢) ينظر الحجة ٥/ ٤٠-٤١.

(٣) اختُلِفَ في نسبة البيت، هل هو لعروة بن الورد أو لحاتم الطائي، وصحَّح الأصبهانيُّ في الأغاني ٦/ ٣٢٣ نسبته إلى حاتم الطائي، وشَبَّهَ البغداديُّ في خزانة الأدب ١٠/ ١٠ البيتَ بقصيدةٍ لحاتم ولم يجزم به، وقال: والله أعلم بقائل أبيات الشاهد، وينظر الدرر اللوامع ٤/٢٠٧.

(٤) البيت لضمرة بن ضمرة النهشلي وهو في المعاني الكبير ٢/ ١٠٠٥، والنوادر ص٥٥، والخزانة الشاهد (٧٦٠)، والدرر اللوامع ٤/٢٠٨-٢٠٩، والإنصاف ١/١٠٥، وشرح المفصل ٨/ ٣١.

(٥) كما في صلة ديوانه ص١٨٨، والكتاب ٢/٢٠٩، والخزانة ٦/ ١١٢، ونسبه بعضهم إلى غيره، ينظر: الخزانة، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨١.

والتزمَ كون المتعلّقِ محذوفاً؛ لأنَّها حينئذٍ لا يجوز تعلُّقها بـ «يود» ولا بدَّ لها من فعلٍ تتعلَّق به، على ما صحَّحَهُ جمعٌ، وأما على ما اختاره الرضي من كونها مبتدأً لا خبرَ له، والمعنى: قليلٌ أو كثيرٌ ودادُ الذين كفروا، فلا حاجةَ إليه، وهذا التأويلُ ـ على ما قال السمرقندي ـ أحدُ قولَي البصريين.

وتعقَّبه العلامةُ التفتازاني بأنَّه لا يخفَى ما فيه من التعسُّف وبَتْرِ النظم الكريم، أي: قطع «لو كانوا مسلمين» عمَّا قبله، ووجْهُ التعسُّف أنَّ المعنى على تقليل أو تكثير ودادِهم، لا على تقليل أو تكثير شيءٍ، إلا أنْ يُرادَ: رُبَّ شيءٍ يودُّونه من حيث إنَّهم يودُّونه.

والمختارُ عندي ما اختاره أبو حيان(١)، وكذا صاحبُ «اللبِّ» من أنَّ «رُبَّ» تدخلُ على الماضي والمضارع إلا أنَّ دخولَها على الماضي أكثر، ومَن تَتَبَّعَ أشعارَ العرب رَأى فيها مما دخلَت فيه على المضارع ما يُبعِدُ ارتكابَ التأويلِ معه، كما لا يخفَى على المنصف المتتبِّع.

واختلفوا في مفادها هنا، فذهب جمعٌ كثيرٌ إلى أنَّه التقليلُ، وهو ظاهرُ أكثر الآثار، حيث دلَّت على أنَّ ودادَهم ذلك عند خروج عصاةِ المسلمين من جهنَّم وبقائهم فيها. نعم، زَعَم بعضُهم أنَّ الحقَّ أنَّ ما فيها محمولٌ على شدَّة ودادِهم إذ ذاك، وأنَّ نَفْس الوداد ليس مختصًّا بوقتٍ دون وقتٍ، بل هو متقرِّرٌ مستمرٌّ في كل آنٍ يمرُّ عليهم.

ووجَّه الزمخشريُّ الإتيان بأداة التقليل على هذا بأنَّه واردٌ على مذهب العرب في قولهم: لعلَّك ستندمُ على فعلك، ورُبَّما نَدِمَ الإنسان على ما فعل، ولا يشكُّون في تَندُّمه ولا يقصِدون تقليلَه، ولكنَّهم أرادوا لو كان الندمُ مشكوكاً فيه أو قليلاً لحقَّ عليك أنْ لا تفعل هذا الفعل؛ لأنَّ العقلاء يتحرَّزون من التعرُّض للغمِّ المظنون كما يتحرَّزون من التعرُّض للغمِّ المتيقَّن، ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودُّون الإسلام مرَّةً واحدةً فبالحري أن يُسارعوا إليه، فكيف وهم يودُّونه في كل ساعة(٢). اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٦.

والكلامُ عليه ـ على ما قيل ـ من الكناية الإيمائيَّة، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفَى. قال ابن المنير: لا شكَّ أنَّ العربُ تُعبِّر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصودِهِ كثيراً، ومنه ـ والله تعالى أعلم ـ: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] المقصودُ منه توبيخُهم على أذاهم لموسى عليه السلام، على توفُّر علمهم برسالته ومناصحته لهم، وقوله:

قــد أتــركُ الــقِــرنَ مُــصْــفَــرًّا أنــامِــلُــهُ[(١)]

فإنَّه إنَّما يتمدح بالإكثار من ذلك، وقد عبَّر بـ «قد» المفيدة للتقليل، وقد اختلفَ توجيهُ علماءِ البيان لذلك، فمنهم مَن وجَّهَهُ بما ذُكرَ عن الزمخشريِّ مِن التنبيه بالأدنَى على الأعلى. ومنهم مَن وجَّهَهُ بأنَّ المقصودَ في ذلك الإيذان بأنَّ المعنى قد بلَغَ الغاية، حتى كاد أنْ يرجع إلى الضدِّ، وذلك شأنُ كلِّ ما بلغ نهايتَه أنْ يعودَ إلى عكسه، وقد أفصحَ المتنبِّي[(٢)] عن ذلك بقوله:

ولَـجُدْتَ حتى كِدْتَ تَبْخلُ حائلاً ... لِـلـمُـنـتَـهَـى ومِـن الـسُّـرورِ بُـكـاءُ

وكلا الوجهَين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها، والعمدةُ في ذلك على سياق الكلام؛ لأنَّه إذا اقتضَى مثلاً تكثيراً فدخلَت فيه عبارةٌ يُشعرُ ظاهرُها بالتقليل، استيقَظَ السامعُ؛ لأنَّ المرادَ المبالغةُ على إحدى الطريقتَين المذكورتَين[(٣)].

وقال في «الكشف»: الأصلُ في هذا الباب أنَّ استعارةَ أحدِ الضِّدَّين للآخر تُفيدُ المبالغة للتعكيس، ولا تختصُّ بالتهكُّم والتلميح على ما يُوهمه ظاهرُ لفظِ

---

(١) عجز بيت لعبيد بن الأبرص وصدره:

كــأنَّ أثــوابَــهُ مُــجَّــتْ بــفِــرصــادِ

وهو في ديوانه ص٦٤، وشرح أبيات المغني ٤/ ١٠٣ وما بعد، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٦، ونُسِبَ للهذلي كما في الكتاب ٤/ ٢٢٤، وشرح ابن يعيش ٨/ ١٤٧، والمغني ص٢٣١، والمصنف في تفسيره ٧/ ١٣٤. القِرْن: المماثل في الشجاعة. والأنامل: رؤوس الأصابع. الفِرْصَاد: هو التوت، شبّه الدم بحمرة عصارته. والبيت تداوله الشعراء؛ فبعضهم أخذه بلفظه وبعضهم بمعناه، فروي عن كثير منهم. ينظر شرح أبيات المغني.

(٢) في شرح ديوانه ١/ ١٥٣.

(٣) الانتصاف ٢/ ٣٨٦.

صاحبِ «المفتاح»[١] في موضع، فهو الذي عدَّ المفازةَ من هذا القبيل لقصد التفاؤل، ثم قد يختصُّ موقعها بفائدةٍ زائدةٍ كما ذكره الزمخشريُّ في هذا المقام، وليس في ذلك كنايةٌ إيمائيَّةٌ، وإنَّما ذلك من فوائد هذه الاستعارةِ، وسيجيءُ إن شاء الله تعالى فيه كلامٌ أتمُّ بسطاً في سورة التكوير[٢]. اهـ.

والحقُّ أنَّه لا مانع من القول بالكناية الإيمائيَّةِ كما لا يخفَى.

وقيل: إنَّ التقليل بالنسبة إلى زمان ذهاب عقلهم من الدهشة بمعنى أنَّهم تُدهِشُهم أهوالُ القيامة فَيبهَتُون، فإنْ وُجِدَت منهم إفاقةٌ ما، تمنَّوا ذلك، وظاهرُ صنيع العلامة التفتازاني في «المطول» اختيارُه، وجوّز أنْ تكونَ مستعارةً للتكثير، والقولُ بالاستعارة له لا يُحتاج إليه على القول المحكي عن صاحب «العين» ومَن معه حسبما سمعت.

وذكر ابن الحاجب أنَّها نُقلَت من التقليل إلى التحقيق كما نقلوا «قد» إذا دخلَت على المضارع منه إليه.

ومفعول «يودُّ» محذوفٌ، أي: الإسلامَ؛ بدلالة «لو كانوا مسلمين» بناء على أنَّ «لو» للتمنِّي، والجملةُ في موقع الحال، أي: قائلين لو كانوا مسلمين، وتقديرُ المفعول ما ذكرنا، هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ. وقال الشهابُ: تقديرُه النجاة، ولا ينبغي تقديرُ الإسلام؛ لأنَّه يصيرُ تقديرُه: يودُّوا الإسلام لو كانوا مسلمين، وهو حشوٌ[٣]. وفيه نظر.

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنَّ «لو كانوا» إلى آخره مُنزَّلٌ منزلةَ المفعول. وتُعقِّب بأنَّه غيرُ ظاهرٍ، إذ ليس ذلك مما يعملُ في الجمل إلا أنْ يكونَ بمعنى ذكروا التمنِّي، ويجري مجرَى القول على مذهب بعض النحاة.

والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك: حلَفَ بالله تعالى ليفعلَنَّ، ولو قلت: لَأفعلَنَّ، لجاز، وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾

---

(١) ينظر مفتاح العلوم ص٣٧٥.

(٢) آية رقم (٢٣).

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٨٣.

[النمل:٤٩] بالنون والياء[١]، وإيثارُ الغيبة أكثرُ؛ لئلا يلتبس، والتعليل بقلَّة التقدير ليس بشيءٍ كما كشف ذلك في «الكشف».

وأنكرَ قومٌ ورودَ «لو» للتمنِّي، وقالوا: ليست قِسْماً برأسها، وإنَّما هي الشرطيَّة أُشرِبَتْ معنى التمنِّي، وعلى الأول الأصحّ لا جوابَ لها على الأصحِّ. وقد نصَّ على ذلك ابنُ الضائع[٢] وابنُ هشام الخضرواي[٣]، ونَقْلُ أنَّهما قالا: تحتاجُ إلى جوابٍ كجواب الشرط، سَهْوٌ؛ وذكر أبو حيان[٤] أنَّ الذي يظهرُ أنَّها لابدَّ لها مِن جوابٍ، لكنَّه التزم حذفه، لإشرابها معنى التمنِّي؛ لأنَّه متى أمكنَ تقليلُ القواعد وجَعْلُ الشيءِ من باب المجاز كان أَولَى من تكثير القواعد وادِّعاء الاشتراك؛ لأنَّه يحتاجُ إلى وضعَين، والمجازُ ليس فيه إلا وضعٌ واحدٌ وهو الحقيقةُ.

وقيل: إنَّها هنا امتناعيةٌ شرطيَّةٌ، والجوابُ محذوفٌ تقديرُه: لفازوا، ومفعول «يود» ما علمتَ.

وزعم بعضُهم مصدريَّتَها فيما إذا وقعَت بعد ما يدلُّ على التمنِّي، فالمصدرُ حينئذٍ هو المفعول، وهو على القول بأنَّ «ما» نكرةٌ موصوفةٌ بدل منها كما في «البحر»[٥].

وقرأ عاصم ونافع: «ربما» بتخفيف الباء[٦]، وعن أبي عمرو التخفيف

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف: «لَتُبَيِّتُنَّه» بتاء الخطاب وضم التاء الثانية، وقرأ الباقون بالنون وفتح التاء. كما في التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨، وقرأ بالياء مجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش كما في القراءات الشاذة ص١١٠، والبحر المحيط ٧/ ٨٤، وستأتي في مكانها.

(٢) هو علي بن محمد بن علي بن يوسف الكُتَامي الإشبيلي، أبو الحسن، المعروف بابن الضائع، لازم الشَّلَوبين، له «شرح الجمل»، و«شرح كتاب سيبويه» جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف باختصار حسن، توفي (٦٨٠هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٢٠٤.

(٣) هو محمد بن يحيى بن هشام الخضراوي، أبو عبد الله، يعرف بابن البَرْذَعي، أخذ العربية عن ابن خروف والرندي، والقراءات عن أبيه، أخذ عنه الشَّلَوبين، له «الإفصاح بفوائد الإيضاح»، و«المسائل النُّخَب»، توفي (٦٤٦هـ). ينظر بغية الوعاة ١/ ٢٦٧. وينظر كلامهما في المغني ص٣٥٢.

(٤) ينظر تذكرة النحاة ص٤٢.

(٥) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٤٤.

(٦) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر.

والتشديد[١]، وقرأ طلحة بنُ مصرِّف وزيدُ بنُ عليٍّ ﷺ «رُبَّتما» بزيادة تاء[٢].

هذا، وإنما أطنبتُ الكلامَ في هذه الآية لا سيَّما فيما يتعلَّق بـ «رُبَّ» لما أنَّه قد جرَى لي بحثٌ في ذلك مع بعض العظاميين فأَبَانَ عن جهلٍ عظيم وحُمقٍ جَسيم، ورأيتُه ـ ورَبِّ الكعبة ـ أجهلَ مَن رأيتُ من صغار الطلبة بـ «رُبَّ»، نعم له مِن العظاميين أمثالٌ، أَصمَّهم الله تعالى وأعمَى بالَهم وقلَّلهم ولا أكثرَ أمثالَهم.

﴿ذَرْهُمْ﴾ أي: اتركهُم، وقد استُغني غالباً عن ماضيه بماضيه، وجاء قليلاً: وَذَرَ، وفي الحديث «ذَرُوا الحبَشَةَ ما وَذَرُوكم»[٣] والمرادُ من الأمر التخليةُ بينهم وبينَ شهواتهم، إذ لم تَنفعْهم النصيحةُ والإنذارُ، كأنه قيل: خَلِّهم وشأْنَهم.

﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم، وفي تقديم الأكل إيذانٌ بأنَّ تمتُّعهم إنَّما هو من قبيل تمتُّع البهائم بالمآكل والمشارب، والفعلُ وما عُطِفَ عليه مجزومٌ في جواب الأمر، وأشار في «الكشاف» أنَّ المرادَ المبالغةُ في تخليتهم حتى كأنَّه عليه السلام أُمِرَ أنْ يأمرَهم بما لا يزيدُهم إلا نَدَماً[٤].

ووجَّهَه المدقِّقُ صاحب «الكشف» فقال: أُريدَ الأمرُ من حيث المعنَى؛ لأنَّه جعل أكْلَهم وتمتُّعَهم الغاية المطلوبةَ من الأمر بالتخلية، والغاياتُ المطلوبةُ إنْ صحَّ الأمرُ بها كانت مأموراً بها بنفس الأمر وأبلغ من صريحه، فإذا قلتَ: لازِمْ سدَّةَ العالِم تَعلم منه ما يُنجيك في الآخرة، كان أبلغَ مِن قولك: لازِم وتعلم؛ لأنَّك جعلت الأمرَ وسيلَةَ الثاني، فهو أشدُّ مطلوبيةً، وإنْ لم يصحَّ جُعلت مأموراً بها مجازاً كقولك: أسلم تَدخُلِ الجنَّة. وما نحن فيه لما جعل غايةَ الأمر على التجوُّز صار مأموراً به على ما أرشدت إليه. اهـ. وهو من النفاسة بمكان.

---

(١) قراءة التشديد في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وقراءة التخفيف في المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٤.
(٣) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ٥/ ٢٢٥ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ يرفعه، وأخرجه أحمد (٢٣١٥٥) بلفظ: «اتركوا الحبشة ما تركوكم...» ـ ينظر تمام تخريجه ثمَّة ـ وهو عند أبي داود (٤٣٠٩) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٦-٣٨٧.

وظنَّ أنَّ انفهامَ الأمر[١] من تقدير لامه قبل الفعل من بعض الأمر، وما في «البحر»: من أنَّه إذا جعل «ذَرْهم» أمراً بترك نصيحتهم وشُغْلِ بالهِ ﷺ بهم لا يترتَّبُ عليه الجواب، لأنَّهم يأكلون ويتمتَّعون، سواءٌ تَرَكَ نصيحتهم أم لا = وقوفٌ في ساحل التحقيق كما لا يخفَى على من غاص في لُجَّة المعاني فاستخرج دُرَرَ الأسرار واستظْهرَ أنَّه أُمِرَ بترك قتالهم وتخلية سبيلهم وموادعتهم، ثم قال: ولذلك صحَّ أنْ يكونَ المذكورُ جواباً؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لو شَغَلَهم بالقتال ومصالتةِ السيوف وإيقاع الحروب ماهنَّأهم أكلٌ ولا تمتُّعٌ، ويدلُّ على ذلك أنَّ السورةَ مكيةٌ. وهو كما ترى[٢].

ثم المرادُ ـ على ما قيل ـ دوامُهم على ما هم عليه لا إحداثُ ما ذكر، أو تمتُّعهم بلا استماعِ[٣] ما ينغِّصُ عيشَهم، والتمتُّع كذلك أمرٌ حادثٌ يصلُحُ أنْ يكون مرتباً على تخليتهم وشأنهم، فتأمَّل.

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلُهم التوقُّعُ لطول الأعمار وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال، وأنْ لا يلقوا إلا خيراً في العاقبة والمآل، عن الإيمان والطاعة أو عن التفكُّر فيما يصيرون إليه.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ سوءَ صنيعِهم إذا عاينوا جزاءَه ووخامةَ عاقبته، أو حقيقة الحال التي ألجأتهم إلى التمنِّي.

وظاهرُ كلام الأكثرين أنَّ المرادَ علمُ ذلك في الآخرة، وقيل: المرادُ سوف يعلمون عاقبةَ أمرهم في الدنيا من الذُّلِّ والقتل والسبي، وفي الآخرة من العذاب السرمديِّ، وهذا كما قيل مع كونه وعيداً أيَّما وعيدٍ وتهديداً غِبَّ تهديدٍ تعليلٌ للأمر بالترك، وفيه إلزامُ الحُجَّة ومبالغةٌ في الإنذار، إذ لا يتحقَّقُ الأمرُ بالضدِّ حسبما علمتَ إلا بعد تكرُّر الإنذار وتقرُّر الجحود والإنكار، ومن أنذر فقد أعذر، وكذلك ما يترتَّب عليه من الأكل وما بعده.

---

(١) ليس في الأصل.
(٢) ينظر البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٣) في (م): استمتاع.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ التلذُّذ والتنعُّم وعدمَ الاستعداد للآخرة والتأهُّب لها ليس من أخلاق مَن يطلب النجاة، وجاء عن الحسن: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العمل.

وأخرجَ أحمدُ في «الزهد» والطبراني في «الأوسط» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عمرو بنِ شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، لا أعلمه إلا رَفَعه قال: «صلاحُ أوَّلِ هذه الأمةِ بالزُّهدِ واليقينِ، ويَهلكُ آخرُها بالبخل والأمل»[1].

وفي بعض الآثار عن عليٍّ كرم الله تعالى وجْهَه: إنَّما أخشَى عليكم اثنتَين: طول الأمل واتِّباع الهوى، فإنَّ طولَ الأملِ يُنسي الآخرةَ واتِّباع الهوى يَصدُّ عن الحقِّ.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ أيَّ قرية من القُرَى بالخسف بها وبأهلها الكافرين، كما فُعِل ببعضها، أو بإخلائها عن أهلها بعدَ إهلاكهم كما فعل بآخرين.

﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في ذلك الشأن ﴿كِتَابٌ﴾ أجلٌ مقدَّرٌ مكتوبٌ في اللوح ﴿مَّعۡلُومٌ ﴿٤﴾﴾ لا يُنسَى ولا يُغفَل عنه حتى يُتصوَّر التخلُّف عنه بالتقدُّم والتأخُّر، وهذا شروعٌ في بيان سرِّ تأخير عذابهم.

و«كتاب» مبتدأٌ، خبرهُ الظرفُ، والجملةُ حالٌ من «قرية»، ولا يلزمُ تقدُّمها لكون صاحبها نكرةً؛ لأنَّها واقعةٌ بعد النفي، وهو مسوِّغٌ لمجيء الحال؛ لأنَّه في معنى الوصف لا سيَّما وقد تأكَّد بكلمة «مِن» والمعنى: ما أهلكنا قريةً مِن القرى في حالٍ من الأحوال إلا حالَ أنْ يكونَ لها كتابٌ معلومٌ لانُهلِكُها قبل بلوغِهِ، ولا نَغْفُلُ عنه ليمكن مخالفتُه، أو مرتفعٌ بالظرف، والجملة كما هي حالٌ أيضاً، أي: ما أهلكنا قريةً من القرى في حالٍ من الأحوال إلا وقد كان لها في حقِّ إهلاكها أجلٌ مقدَّرٌ لا يُغفَل عنه.

وقال الزمخشري: الجملةُ صفةٌ لـ «قرية»، والقياس أنْ لا يتوسَّط الواو بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]

---

(١) الزهد ص١٠، والمعجم الأوسط (٧٦٥٠)، وشعب الإيمان (١٠٨٤٤)، وأخرجه أيضاً ابن أبي الدنيا في اليقين (٣) بنحوه. قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤٨٩٥): وفي إسناده احتمالٌ للتحسين.

وإنَّما توسَّطَت لتأكيد لُصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيدٌ عليه ثوب، و: جاءني وعليه ثوب[1]. ووافَقَه على ذلك أبو البقاء[2].

وتعقَّبَه في «البحر»[3]: بأنّا لا نعلم أحداً قاله من النحاة، وهو مبنيٌّ على أنَّ ما بعد «إلا» يجوزُ أنْ يكونَ صفةً، وقد صرَّح الأخفشُ والفارسيُّ بمنع ذلك، وقال ابنُ مالك: إنَّ جعْلَ ما بعد «إلا» صفةً لما قبلها مذهبٌ لم يُعرَف لبصريٍّ ولا كوفيٍّ، فلا يُلتفَتُ إليه، وأَبطَلَ القولَ بأنَّ الواو توسَّطت لتأكيد اللصوق.

ونُقل عن منذر بنِ سعيد[4] أنَّ هذه الواو هي التي تُعطي أنَّ الحالةَ التي بعدَها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] واعتذر السَّكاكيُّ بأنَّ ذلك سهوٌ ولا عيبَ فيه[5].

ولم يرضَ بذلك صاحب «الكشف» وانتصَرَ للزمخشريِّ وقال: قد تكرَّر هذا المعنَى منهم في هذا الكتاب فلا سهوَ كما اعتذَرَ صاحب «المفتاح»، وإذا ثبَتَ إقحامُ الواو كما عليه الكوفيون، والقياس لا يدفعه لثبوتِهِ في الحال، وفيما أُضمِرَ بعده الجارُّ في نحو: بعتُ الشاء شاةً ودرهماً وكم وكم، وهذه تدلُّ على أنَّ الاستعارةَ شائعةٌ في الواو نوعيةً بل جنسيةً، فلا نعتبرُ النقلَ الخصوصيَّ، ولا يكونُ من إثبات اللغةِ بالقياس؛ لثبوت النقلِ عن نحارير الكوفة، واعتضادِهِ بالقياس والمعنى.

ولا يبعدُ من صاحب «المعاني» ترجيحُ المذهب الكوفي إذا اقتضاه المقامُ، كما رجَّحوا المذهبَ التميميَّ على الحجازيِّ في باب الاستثناء عنده[6]، ولا خفاءَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.
(٢) الإملاء ٣/ ٤١٨.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٤) هو منذر بن سعيد، القاضي، أبو الحكم، له كتاب «أحكام القرآن»، و«الناسخ والمنسوخ»، وغير ذلك، توفي (٣٤٩هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٣٠١. وكلامه في البحر المحيط ٥/ ٤٤٥.
(٥) مفتاح العلوم ص٢٥١.
(٦) في هامش (م): وذلك أن بني تميم يجوزون الرفع في الاستثناء المنقطع، وقد قال تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] والمعنى الصحيح فيه على الانقطاع، وعلى الاتصال يحتاج إلى تكلف لصحة المعنى، فافهم. اهـ منه.

أنَّ المعنى على الوصف أبلغ، وأنَّ هذا الوصفَ ألصقُ بالموصوف منه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ لأنَّه لازمٌ عقليٌّ، وذلك عاديٌّ جرى عليه سنة الله تعالى اهـ. وفي «الدر المصون»: أنَّه قد سبَقَ الزمخشريَّ إلى ما قاله ابنُ جنِّي، وناهيكَ به من مُقتَدى[1].

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ الموصوفَ ليس القريةَ المذكورة، وإنَّما هو قريةٌ مقدَّرةٌ وقَعت بدلاً من المذكورة على المختار، فيكونُ ذلك بمنزلة كونِ الصفةِ لها، أي: ما أهلكنا قريةً من القرى إلا قريةً لها كتابٌ معلومٌ، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧] فإنَّ «لا يُسمن» إلخ صفةٌ، لكنْ لا للطعام المذكور، لأنَّه إنَّما يدلُّ على انحصار طعامهم الذي لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع في الضريع، وليس المرادُ ذلك، بل للطعام المقدَّر بعد «إلا» أي: ليس لهم طعامٌ مِن شيءٍ من الأشياء إلا طعامٌ لايُسمن إلخ، فليس هناك الفصلُ بين الموصوفِ والصفةِ بـ «إلا». وأما توسيطُ الواو ـ وإنْ كان القياسُ عدمَه ـ فللإيذان بكمال الاتِّصال[2]. انتهى.

ولا يخفى أنَّه لم يأت في أمر التوسيط بما يدفعُ عنه القال والقيل، وما ذكره من تقدير الموصوف بعد «إلا» يدفعُ حديثَ الفصل، لكن نقل أبو حيان عن الأخفش أنَّه قال بعدَ مَنْع الفصلِ بين الصفةِ والموصوف بـ «إلا»[3]: ونحو: ما جاءني رجلٌ إلا راكبٌ. تقديره: إلا رجلٌ راكبٌ، وفيه قُبحٌ لجعلك الصفةَ كالاسم، ولعلَّ الجوابَ عن هذا سهلٌ.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «إلا لها» بإسقاط الواو[4]، وهو على ما قيل يُؤيِّدُ القولَ بزيادتها.

ولما بيَّن سبحانه أنَّ الأُمَم المهلكةَ كان لكلٍّ منهم وقتٌ معيَّنٌ لهلاكهم، وأنَّه لم يكن إلا حسبما كان مكتوباً في اللوح، بيَّن جلَّ شأنه أنَّ كلَّ أمةٍ من الأمم منهم

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٤٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٥-٦٦ وفيه: بكمال الالتصاق، بدل: بكمال الاتصال.

(٣) قوله: إلا، ليس في الأصل، وأثبتناه من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٤٥ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٥.

ومِن غيرهم لهم كتابٌ لا يُمكن التقدُّمُ عليه ولا التأخُّر عنه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المهلكةِ وغيرهم، فـ «مِن» مزيدةٌ للاستغراق، وقيل: إنَّها للتبعيض، وليس بذاك ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوبَ في كتابها، أي: لا يجيءُ هلاكُها قبل مجيء كتابها، أو لا تمضي أمةٌ قبل مُضيِّ أجلها، فإن السبق كما نَقَل الإمامُ[1] عن الخليل إذا كان واقعاً على زمانيٍّ، فمعناه المجاوزةُ والتخليفُ، فإذا قلتَ: سبَقَ زيدٌ عَمْراً، فمعناه أنَّه جاوَزَه وخلَّفَه وراءه، وأنَّ عَمْراً قَصَّر عنه ولم يبلغه، وإذا كان واقعاً على زمان، كان على عكس ذلك، فإذا قلتَ: سبَقَ فلانٌ عامَ كذا، كان معناهُ مَضَى قبل إتيانه ولم يَبلُغْه.

والسرُّ في ذلك على ما في «إرشاد العقل السليم»[2]: أنَّ الزمانَ يُعتَبرُ فيه الحركةُ والتوجُّه، فما سبَقَه يتحقَّق قبل تحقُّقه، وأما الزماني فإنَّما يُعتَبرُ فيه الحركةُ والتوجُّه إلى ما سيأتي من الزمان، فالسابقُ ما تقدَّمَ إلى المقصد، وإيرادُه بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق، كما أنَّ إيرادَه بعنوان الكتاب باعتبار ما يُوجبه من الإهلاك.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ أي: وما يتأخَّرون، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعَجْزهم عن ذلك مع طلبهم له، وإيثارُ صيغة المضارع في الفعلَين بعد ما ذَكَر نَفْيَ الإهلاك بصيغة الماضي؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامهما فيما بين الأممِ الماضية والباقية، وله نظائرُ في كتاب الكريم.

وإسنادُهما إلى الأمة بعد إسنادِ الإهلاك إلى القرية؛ لِمَا أنَّ السبقَ والاستئخار حالُ الأمة بدون القرية، مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القُرَى وغيرِهم ممن أُخِّرَت عقوباتُهم إلى الآخرة. وتأخيرُ عدم سبقهم مع كون المقامِ مقامَ المبالغةِ في بيان تحقُّق عذابهم إمَّا باعتبار تقدُّم السبق في الوجود، وإمَّا باعتبار أنَّ المرادَ بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابهم مع استحقاقهم لذلك.

وأُوردَ الفعلُ على صيغة جمع المذكر؛ رعايةً لمعنى «أمة» مع التغليب،

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/١٥٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي السعود في تفسيره ٥/٦٦.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٦٦.

كما روعي لفظُها أوّلاً مع رعاية الفواصل، ولهذا حذف الجارّ والمجرور، والجملةُ مبيِّنةٌ لما سبَقَ ولذا فُصِلَت، والمعَنى: أنَّ تأخيرَ عذابهم إلى يوم الوِدادةِ حسبما أُشيرَ إليه إنَّما هو لتأخير أَجَلهم المقدَّر، لِمَا يقتضيه من الحكم، ومن جملة ذلك ما علم الله تعالى من إيمان بعضِ مَن يخرجُ منهم. قاله شيخ الإسلام[١]. واستدلَّ بالآية على أنَّ كلَّ من مات أو قتل، فإنَّما هو ميِّتٌ بأجله، وقد بيَّن ذلك الإمام[٢].

﴿وَقَالُواْ﴾ شروعٌ في بيان كفرهم بمَن أنزلَ عليه الكتاب، المتضمِّنِ للكفر به وبيانِ ما يؤول إليه حالُهم.

والقائل أهلُ مكة، قال مقاتل: نزلَت الآيةُ في عبد الله بن أُمية، والنضر بنِ الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة، وهم الذين قالوا له ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: القرآن، وخاطبوه عليه الصلاة والسلام بذلك، مع أنَّهم الكفرةُ الذين لا يعتقدون نزولَ شيءٍ، استهزاءً وتهكُّماً، وإشعاراً بعلَّة حكمهم الباطل في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ۝٦﴾[٣] يعنون: يا مَن يدَّعي مثل هذا الأمرِ العظيم الخارق للعادة، إنَّك بسبب تلك الدعوى متحقِّقٌ جنونُك على أتمِّ وجهٍ، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعدُه: أنت مجنون. وقيل: حكمُهم هذا لِمَا يَظهرُ عليه عليه الصلاة والسلام من شبه الغشْي حِين ينزِلُ عليه الوحي بالقرآن، والأوّلُ على ما قيل هو الأنسبُ بالمقام.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المقول الجملةُ المؤكدةُ دون النداء، أمَّا هو فمِن كلام الله تعالى؛ تبرئةً له عليه الصلاة والسلام عما نسبوه إليه مِن أوّل الأمر.

وتعقب بأنَّه لا يناسب قولَه تعالى: (إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ) إلخ، فإنَّه ـ كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى ـ ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم.

وقد يُجابُ بأنَّ ذلك على هذا ردٌّ لما عَنَوه في ضمن قولهم المذكور، لكنَّ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٦٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١٩/١٥٧.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/٣٨٣، والبحر المحيط ٥/٤٤٦.

الظاهر كونُ الكل[(١)] كلامهم، وقد سبقهم إلى نظيره فرعونُ ـ عليه اللعنة ـ بقوله في حقِّ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وتقديم الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل ـ كما قيل ـ لأنَّ إنكارَهم متوجِّهٌ إلى كون النازلِ ذكراً من الله تعالى لا إلى كون المنزَل عليه رسول الله ﷺ بعد تسليم كونِ النازل منه تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فإنَّ الإنكار هناك متوجِّه إلى كون المنزَلِ عليه رسولَ الله عليه الصلاة والسلام.

وإيرادُ الفعلِ على صيغة المجهول لإيهام أنَّ ذلك ليس بفعلٍ له فاعلٌ، أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى إسناده إلى الفاعل.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «نَزَلَ عليه الذكرُ» بتخفيف «نزل» مبنياً للفاعل، ورفع «الذِّكْرُ» على الفاعل[(٢)]، وقرئ: «يا أيها الذي أُلقي عليه الذكرُ»[(٣)] قال أبو حيان: وينبغي أنْ تُجعَلَ هذه القراءة تفسيراً، لمخالفتها سوادَ المصحف[(٤)].

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا﴾ كلمة «لوما» كـ «لولا» تُستعَمل في أحد معنَيَيْن: امتناعِ الشيء لوجود غيره، والتحضيض، وعند إرادة الثاني منها لا يليها إلا فعلٌ ظاهرٌ أو مضمَرٌ، وعند إرادة الأوَّل لا يليها إلا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدَّر عند البصريين، ومنه قول ابنِ مُقْبِل:

لوما الحياءُ ولوما الدِّينُ عِبتُكما ... ببعض ما فيكما إذْ عِبتُما عَوَرِي[(٥)]

---

(١) في الأصل: الكلام.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.
(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١ والزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٨٧ إلى الأعمش. وفي المحرر: إليه، بدل: عليه.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.
(٥) ديوان تميم بن مقبل ص٧٦، ومجاز القرآن ١/ ٣٤٦، والطبري ١٤/ ٥، والكشاف ٢/ ٣٨٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥١، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٨/ ١١٨، ورواية الديوان: لولا، بدل: لوما. وجاء في (م): الحياة، بدل: الحياء. وجاء في حاشيتها: بالراء، وقيل: بالدال، وهو السؤدد، والقصيدة على ما قال بعض الفضلاء رائية. اهـ منه.

وعن بعضهم أنَّ الميم في «لوما» بدلٌ من اللام في «لولا»، ومثله: استَوْلَى واستَوْمَى، وخالَلْتُه وخالَمْتُه، فهو خِلِّي وخِلْمي، أي: صديقي. وذكر الزمخشريُّ: أنَّ «لو» تركَّب مع «لا» و«ما» لمعنَيَيْن، و«هل» لا تركَّبُ إلا مع «لا» وحدَها للتحضيض[1]، واختار أبو حيان فيهما البساطةَ، وأنَّ الميم ليسَت بدلاً من اللام[2]، وقال المالقي: إنَّ «لوما» لا تَرِدُ إلا للتحضيض، وهو محجوجٌ بالبيت السابق.

وأيّاما كان فالمرادُ هنا التحضيض، أي: هلَّا تأتينا ﴿بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يشهدون لك ويعضُدُونك في الإنذار كقوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] أو يُعاقبون على تكذيبك، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلهم.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ في دعواك أنَّ قدرةَ الله تعالى على ذلك مِّما لا ريبَ فيه، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرك، إذ لا نُصدِّقك في ذلك الأمر الخطير بدونه، أو إنْ كنتَ من جملة تلك الرسلِ الصادقين الذين عُذِّبَت أُممهم المكذِّبةُ لهم.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنون، على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل، وهي قراءة حفص والأخوَين وابنِ مُصرِّف[3].

وقرأ أبو بكر عن عاصم ويحيى بن وثاب: «تُنَزَّلُ الملائكة» بضمِّ التاء وفتح النون والزاي مبنيًّا للمفعول، ورفع: «الملائكةُ»[4] على النيابة عن الفاعل.

وقرأ الحِرميَّان وباقي السبعة: «تَنَزَّل الملائكةُ» بفتح التاء والزاي على أنَّ الأصل «تَتَنَزَّل» بتاءَين، فحذِفَت إحداهما تخفيفاً، ورفع «الملائكةُ»[5] على

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٤٢.

(٣) قراءة حفص والأخوين (حمزة والكسائي) في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وهي قراءة خلف، وقراءة طلحة بن مصرف في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

(٤) قراءة شعبة في التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، وقراءة ابن وثاب في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

(٥) التيسير ص١٣٥، والنشر ٢/ ٣٠١، والحِرْميَّان هما: نافع وابن كثير.

الفاعليَّة، وإبقاءُ الفعل على ظاهره أولَى من جعله بمعنى تَنَزَّل الثلاثي.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «ما نَزَلَ» ماضياً مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل، ورفع «الملائكةُ» على الفاعلية(١).

والبيضاوي بَنَى تفسيرَه على أنَّ الفعل «يُنزِلُ» بالياء التحتيَّة مبنيًّا للفاعل، وهو ضمير الله تعالى، و«الملائكةَ» بالنصب على أنَّه مفعوله(٢).

واعتُرض عليه بأنَّه لم يقرأ بذلك أحدٌ من العشرة، بل لم تُوجد هذه القراءة في الشواذِّ، وهو خلافُ ما سلَكه في تفسيره، ولعله رحمه الله تعالى قد سَهَا.

وهذا الكلام مسوقٌ منه سبحانه إلى نبيِّه ﷺ جواباً لهم عن مقالتهم المحكيَّة، وردًّا لاقتراحهم الباطلِ الصادرِ عن محض التعصُّب والعناد، ولشدَّة استدعاء ذلك للجواب قدَّمَ ردَّه على ما هو جواب عن أوَّلها، أعني قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ إلخ، والعدولُ عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح بأنْ يقالَ مثلاً: ما تأتيهم بهم للإيذان بأنَّهم قد أخطؤوا في الاقتراح، وأنَّ الملائكةَ لعلوِّ رُتبتهم أعلَى مِن أنْ يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخَر منها، بل من الأسفل إلى الأعلى، وأنْ يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرةَ، وأنْ يدخلوا تحت ملكوت أحدٍ من البشر، وإنَّما الذي يليقُ بشأنهم النزول من مقامهم العالي، وكون ذلك بطريق التنزيلِ من جناب الربِّ الجليل. قاله شيخ الإسلام(٣).

وقيل: لعلَّ هذا جوابٌ لِمَا عسى أنْ يخطر بخاطره الشريف عليه الصلاة والسلام حين طلبوا منه الإتيانَ بالملائكة مِن سؤال التنزيلِ رغبةً في إسلامهم، فيكونُ وجهُ ذكرِ التنزيلِ ظاهراً، وهو غيرُ ظاهرٍ كما لا يخفَى.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا تنزيلاً ملتبساً بالوجه الذي اقتضَتْه الحكمةُ، فالباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الصفةِ للمصدر المحذوفِ مستثنًى استثناء مُفَرَّغاً، وجوَّز فيه الحاليَّةُ من الفاعل والمفعول.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٤.

(٣) أبو السعود في تفسيره ٥/ ٦٧.

وجوَّز أبو البقاء أنْ تكونَ الباء للسببية متعلِّقة بـ «ننزِّل»[١]، وإليه يُشير كلام ابنِ عطيَّة الآتي إن شاء الله تعالى، والأوَّل أولَى، ومقتضى الحكمةِ التشريعيَّة والتكوينيةِ على ما قيل أنْ تكون الملائكةُ المنزلون بصُور البشر، وتنزيلُهم كذلك يُوجب اللَّبسَ، كما قال الله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩] وهذا إشارةٌ إلى نَفْي ترتُّبِ الغَرَض وعدمِ النفع في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ إشارةٌ إلى حصول الضَّرر وترتُّبِ نقيض المطلوب، وكأنَّه عطف على مقدَّر يقتضيه الكلامُ السابق، كأنَّه قيل: ما نُنزِّل الملائكةَ عليهم إلا بصُوَرِ الرجال؛ لأنَّه الذي تقتضيه الحكمةُ، فيحصل اللَّبسُ فلا ينتفعون. وما كانوا ـ إذا أنزلناهم ـ منظَرين، أي: ويتضرَّرون بتنزيلهم، لأنَّا نُهلكُهم لا محالةَ ولا نُؤخِّرهم، لأنَّه قد جَرت عادتُنا في الأمم قبلَهم أنَّا لم نأتهم بآيةٍ اقترحوها إلا والعذابُ في إثرها إنْ لم يؤمنوا؛ وقد علمنا منهم ذلك، والمقصودُ نَفْيُ أنْ يكونَ لاقتراحهم الإتيانَ بهم وجهٌ على أتمِّ وجهٍ، بالإشارة إلى عدم نَفْعِه أوَّلاً، والتصريحِ بضرره ثانياً.

وقيل: يقدَّر المعطوف عليه: لا يؤمنون، كأنَّه قيل: ما ننزِّل الملائكة إلا بصُوَرِ البشر لاقتضاء الحكمةِ ذلك، فلا يؤمنون وما كانوا إذاً منظرين. وفي النفس من هذا ومما قبله شيءٌ.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ المعنى: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا مُلتبساً بالوجه الذي يحقُّ ملابسة التنزيل به، مما تقتضيه الحكمةُ وتجري به السُّنَّة الإلهيَّة، والذي اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادةِ لديهم وهم هم، ومنزلتهم في الحقارة[٢] منزلتُهم، مما لا يكادُ يدخُل تحت الصِّحة والحكمةِ أصلاً، فإنَّ ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكادُ يُفتَح على غير الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام مِن أفراد كلِّ المؤمنين، فكيف على أمثال أولئك الكفرةِ اللئام، وإنما الذي يدخلُ في حقِّهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيلُ للتعذيب والاستئصال كما فُعِلَ بأضرابهم من الأمم السالفةِ، ولو فُعِل ذلك لاستؤصلوا بالمرَّة، وما كانوا إذاً

(١) الإملاء ٣/ ٤١٩.

(٢) في الأصل و(م): الحقائق، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٦٧ والكلام منه.

مؤخَّرين، كدأب سائر الأمم المكذِّبةِ المستهزئةِ، ومع استحقاقهم لذلك قد جَرَى قلمُ القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أُجمِلَ في الآيات قبلُ، وحالَ حائلُ الحكمة بينهم وبين استئصالهم؛ لتعلُّقِ العلم بازديادهم عذاباً، وبإيمان بعضِ ذراريهم، ونَظْمُ إيمان بعضهم في سِمْط الحكمةِ يأباه تماديهم في الكفر والعناد، فـ «ما كانوا» إلخ جوابٌ لشرطٍ مقدَّر، أي: ولو أنزلناهم ما كانوا... إلخ.

واعترض بـ أنَّ الأوفق بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩] أنْ يكونَ الوجهُ الذي يحقُّ ملابسة التنزيلِ به لمثل غَرَضِهم كونهم بصُوَر الرجال، وذلك ليس من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكادُ يكون لهم أصلاً، فلا يتمُّ كلامُه، وفيه بحثٌ كما لا يخفَى.

وقد أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وغيرُهما عن مجاهد تفسير «الحقِّ» هنا بالرسالة والعذاب[1]. ووُجِّهت الآيةُ على ذلك نحو هذا التوجيه، فقيل: المعنى: ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلا بالرسالة والعذاب، ولو نَزَّلناهم عليهم ماكانوا منظرين؛ لأنَّ التنزيلَ عليهم بالرسالة مما لا يكادُ، فتعيَّن أنْ يكونَ التنزيل بالعذاب، وذكر الماورديُّ الاقتصارَ على الرسالة[2]، ورُوي عن الحسن الاقتصار على العذاب، وفي معنى ذلك ما رُوي عن ابن عباس مِن أنَّ المعنى: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا بالحقِّ الذي هو الموتُ الذي لا يقعُ فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ.

وقال ابن عطيَّة: الحقُّ ما يجب ويحقُّ من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده، والمعنى: ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بحقٍّ واجبٍ من وحيٍ ومنفعةٍ لا باقتراحكم، وأيضاً لو نَزَّلنا لم تُنْظَروا بعد ذلك بالعذاب[3]؛ لأنَّ عادتنا إهلاكُ الأُمم المقترِحة إذا آتيناهم ما اقترحوه، وفيه ما فيه.

وقال الزمخشريُّ: المعنى: إلا تنزُّلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمةَ في أنْ تأتيَكم عياناً تُشاهِدونهم ويَشهدون لكم بصدق النبيِّ ﷺ؛ لأنَّكم حينئذٍ

---

(١) الطبري ١٤/ ١٨، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٤.
(٢) النكت والعيون ٣/ ١٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥١.

مصدِّقون عن اضطرار[1]. وهو مبنيٌّ على أنَّ الإنزال بصُوَرهم الحقيقية، ومنه أخذ صاحبُ القيل المذكورِ أوَّلاً قيلَه.

والبيضاويُّ جَعَل المنافي للحكمة إنزالَهم بصور البشر، حيث قال: لا حكمةَ في أنْ تأتيَكم بصورٍ تشاهدونها، فإنَّه لا يزيدكم إلا لَبساً[2].

وقال بعضهم: أريدَ أنَّ إنزالَ الملائكةِ لا يكونُ إلا بالحقِّ وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفرة أنَّه لو أنزل إليهم الملائكةَ لبقُوا مُصرِّين على كفرهم، فيصيرُ إنزالُهم عبثاً باطلاً ولا يكونُ حقًّا.

وتعقَّب الأقوالَ الثلاثةَ البعضُ من المحقِّقين بأنَّه مع إخلال كلٍّ من ذلك بفظيعة الآتي، لا يلزمُ من فَرْض وقوعِ شيءٍ من ذلك تعجيلُ العذاب الذي يُفيده قولُه سبحانه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

ومِن الناس مَن تكلَّفَ لتوجيه اللزومِ على بعض هذه الأقوال بما تكلَّف.

واختار بعضُهم كونَ المراد من «الحقِّ» الهلاكَ، والجملةُ بعد جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، فكأنَّه لمَّا قيل: ما نُنزِّل الملائكةَ إلا بالهلاك، إذ هو الذي يحقُّ لأمثالهم من المعاندين، قيل: فليكُن ذلك، فأُجيَب بأنَّه لو فعلنا ما كانوا مُنظَرين، أي: وهم قد كانوا منظرين، كما أجمِلَ فيما قبل من قوله سبحانه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وحاصلُ الجواب حينئذٍ على ما قيل أنَّ ما طلبوه من الإتيان بالملائكة ليشهدوا بصدق النبيِّ ﷺ مما لا يكون لهم؛ لأنَّ ما اقتضَته حكمتنا وجرَت به عادتُنا مع أمثالهم ليس إلا التنزيل بالهلاك دونَ الشهادة، فإنَّ الحكمة لا تقتضيه والعادةَ لم تَجْرِ فيه؛ لأنه إنْ كان والملائكةُ بصُوَرِهم الحقيقية لم يحصل الإيمانُ بالغيب ولم يتحقَّق الاختيارُ الذي هو مدارُ التكليف، وإنْ كانَ وهم بصُوَرِ البشر حصل اللَّبسُ، فكان وجوده كعدمه، ولزم التسلسلُ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٢) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٤.

ويَمنعُ من التنزيل بالهلاك كما فُعِل مع أضرابهم من المعاندين أنَّا جعلناهم منظرين، فلو نَزَّلنا الملائكةَ وأهلكناهم عاد ذلك بالنقض لما أبرمناه حسبما نَعلَمُ فيه من الحكم.

وقيل في توجيه الآية على تقدير كونِ اقتراحهم لإتيان الملائكةِ لتعذيبهم: إنَّ المعنى: إنَّا ما نُنزِّل الملائكةَ للتعذيب إلا تنزيلاً ملتبساً بما تقتضيه الحكمةُ، ولو نَزَّلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك ملتبساً بما تقتضيه؛ لأنَّها اقتضَت تأخيرَ عذابهم إلى يوم القيامة، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقةِ الحكمة نوعُ إيهامٍ لعدم استحقاقهم التعذيبَ، عدل عما يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظمُ الكريم، فكأنَّه قيل: لو نزلناهم ما كانوا منظرين، وذلك غيرُ موافقٍ للحكمة، فتدبَّر جميع ذاك، والله تعالى يتولَّى هُداك.

هذا، ولفظة «إذاً» قال في «الكشاف»: جواب وجزاء؛ لأنَّ الكلامَ جوابٌ لهم وجزاءٌ لشرطٍ مقدَّرٍ، أي: ولو نَزَّلنا[1]، وصرَّح بإفادتها هذا المعنَى سيبويهِ[2] إلا أنَّ الشَّلوبين حمل ذلك على الدوام وتكلَّف له، وأبو عليٍّ على الغالب. وقد تتمحَّضُ للجواب عنده وهي حرفٌ بسيطٌ عند الجمهور.

وذهب قومٌ إلى أنَّها اسمُ ظرفٍ، وأصلُها «إذا» الظرفيَّة لَحِقَها التنوينُ عوضاً من الجملة المضاف إليها، ونُقِلَت إلى الجزائيَّة، فبقي فيها معنى الربطِ والسببِ.

وذهب الخليل إلى أنَّها حرفٌ تَركَّب من «إذ» و«أنْ» وغَلَب عليها حكم الحرفيَّة، ونُقِلَت حركةُ الهمزةِ إلى الذال ثم حُذِفَت، والتُزِمَ هذا النقل، فكأن المعنى إذا قال القائل: أزورُك. فقلْتَ: إذاً أزورك. قلت حينئذٍ: زيارتي واقعةٌ، ولا يتكلَّم بهذا.

وذهبَ أبو عليٍّ عمرُ بنُ عبد المجيد الزيديّ إلى أنَّها مركَّبةٌ من «إذا» و«أنْ»، وكلاهما يُعطي ما يُعطي كلُّ واحدةٍ منهما، فيعطي الربطَ كـ: إذا، والنصب كـ: أنْ، ثم حُذِفَت همزةُ «أنْ» ثم ألفُ «إذا» لالتقاء الساكنين، والظاهرُ أنَّه لو قُدِّر في

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٨٧.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٣٤.

الكلام شرطٌ كانت لمجرَّد التأكيد، وجعلوا مِن ذلك قولَه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا﴾ [البقرة: ١٤٥] إلخ.

ونُقِل عن الكافيجي أنَّه قال في مثل ذلك: ليست «إذاً» هذه الكلمةَ المعهودةَ، وإنَّما هي «إذا» الشرطيَّة حُذفت جملتها التي تُضافُ إليها وعوِّضَ عنها التنوين، كما في «يومئذٍ». وله سلفٌ في ذلك، فقد قال الزركشي في «البرهان» بعد ذكره لـ «إذاً» معنَيَين: وذَكَر لها بعضُ المتأخِّرين معنًى ثالثاً، وهو أنْ تكونَ مركَّبةً من «إذا»[1] التي هي ظرفُ زمانٍ ماضٍ، ومِن جملةٍ بعدها تحقيقاً أو تقديراً، لكنَّها حُذِفَت تخفيفاً وأبدِلَ منها التنوين كما في قولهم: حينئذٍ، وليسَت هذه الناصبةَ للمضارع؛ لأنَّ تلك تختصُّ به وهذه لا، بل تدخل على الماضي نحو: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وعلى الاسم نحو: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] ثم قال: وهذا المعنى لم يذكره النحويُّون، لكنَّه قياس ما قالوه في «إذ»[2].

وفي «التذكرة» لأبي حيَّان: ذكر لي عَلَم الدين[3] أنَّ القاضي تقيَّ الدين بنَ رزين كان يذهبُ إلى أنَّ تنوينَ «اذاً» عِوَضٌ من الجملة المحذوفة، وليس بقول نحويٍّ.

وقال الجونيُّ: وأنا أظنُّ أنَّه يجوزُ أنْ تقول لمن قال: أنا آتيك: إذاً أكرمُكَ بالرفع، على معنى: إذا أتيتَني أكرمُك. فحذفت «أتيتَني» وعوَّضت التنوينَ فسقطَت الألفُ لالتقاء الساكنَين والنصب الذي اتفق عليه النحاة لحملها على غير هذا المعنى، وهو لا يَنْفي الرفعَ إذا أُريدَ بها ما ذكر.

وذكر الجلالُ السيوطي أنَّ الإجماع في القرآن على كتابتها بالألف، والوقف عليه دليلٌ على أنَّها اسمٌ منوَّنٌ لا حرفٌ آخرُه نونٌ، خصوصاً إذا لم تقع ناصبةً للمضارع، فالصواب إثباتُ هذا المعنى لها كما جنح إليه شيخنا الكافيجي ومَن سَبَق النقلُ عنه[4].

---

(١) في الأصل ومطبوع البرهان: إذ، والمثبت من (م) والإتقان ١/ ٤٧٥، والنقل منه.
(٢) البرهان ٤/ ١٨٧-١٨٨. والكلام الآتي منه.
(٣) هو أحمد بن إبراهيم بن حسن، القرشي الأموي، علم الدين القِمَّني، روى عن ابن الجُمَّيْزَى وغيره، توفي بالقاهرة (٦٨٦هـ). الوافي بالوفيات ٦/ ٢١٧.
(٤) الإتقان ١/ ٤٧٦.

وعلى هذا فالأَولَى حملُها في الآية على ما ذكر، وقد ذكرنا فيما مضى بعضاً من هذا الكلام فتذكَّر.

ثم إنَّه تعالى ردَّ إنكارهم التنزيلَ واستهزاءَهم برسول الله ﷺ وسلَّاه عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نحن بعِظَم شأننا وعلوِّ جانبنا نزَّلنا الذي أنكروه وأنكروا نزولَه عليك، وقالوا فيك لادعائه ما قالوا، وعمَّموا[1] منزله حيث بَنَوا الفعلَ للمفعول؛ إيماءً إلى أنَّه أمرٌ لا مصدرَ له، وفعلٌ لا فاعل له.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ أي: من كلِّ ما يقدحُ فيه كالتحريف والزيادة والنقصان وغير ذلك، حتى إنَّ الشيخَ المهيبَ لو غيَّر نقطةً يردُّ عليه الصبيان ويقول له مَن كان: الصوابُ كذا. ويدخلُ في ذلك استهزاءُ أولئك المستهزئين وتكذيُبهم إياه دخولاً أوليًّا، ومعنى حفظه من ذلك عدمُ تأثيره فيه، وذبُّه عنه، وقال الحسن: حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أنْ يُراد حفظُه بالإعجاز في كلِّ وقتٍ ـ كما يدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ ـ من كلِّ زيادةٍ ونقصان وتحريفٍ وتبديلٍ.

ولم يَحفَظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك بل استحفَظَها جلَّ وعلا الربَّانِيِّيْنَ والأحبارَ، فوقَعَ فيها ما وقع، وتولَّى حفظَ القرآن بنفسه سبحانه، فلم يزل محفوظاً أوَّلاً وآخِراً، وإلى هذا أشار في «الكشاف»[2]، ثم سأل بما حاصلُه: إن الكلام لمَّا كان مسوقاً لردِّهم وقد تمَّ الجواب بالأوَّل، فما فائدةُ التذييل بالثاني، وإنما يحسنُ إذا كان الكلامُ مسوقاً لإثبات محفوظيَّةِ الذِّكر أوَّلاً وآخِراً؟ وأجابَ بأنَّه جيء به لغرض صحيحٍ وأدمجَ فيه المعنَى المذكور أماماً، وهو أنْ يكون دليلاً على أنَّه منزَّلٌ من عند الله تعالى آيةً. فالأوَّل وإنْ كان ردًّا كان كمجرَّد دعوى، فقيل: ولولا أنَّ الذكر من عندنا لما بقيَ محفوظاً من الزيادة والنقصان كما سِواهُ من الكلام، وذلك لأنَّ نظمَه لمَّا كان مُعجِزاً لم يمكن زيادةٌ عليه ولا نقصٌ؛ للإخلال بالإعجاز كما[3] في «الكشف» وفيه إشارةٌ إلى وجه العطف وهو ظاهر.

---

(١) في (م): عملوا.
(٢) ٢/ ٣٨٨.
(٣) في (م): كذا.

وأنت تعلمُ أنَّ الإعجاز لا يكون سبباً لحفظه عن إسقاط بعض السُّوَرِ؛ لأنَّ ذلك لا يخلُّ بالإعجاز كما لا يخفى، فالمختارُ أنَّ حِفْظَ القرآن وإبقاءَه كما نزل حتى يأتيَ أمرُ الله تعالى بالإعجاز وغيرِه مما شاء الله عزَّ وجلَّ، ومِن ذلك توفيقُ الصحابة ﷺ لجمعِهِ حسبما علمتَه أوَّل الكتاب. واحتجَّ القاضي بالآية على فساد قول بعضٍ من الإمامية لا يُعبأ بهم: إنَّ القرآن قد دخله الزيادة والنقصان.

وضعَّفه الإمام بأنَّه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه؛ لأنَّ للقائلين بذلك أن يقولوا: إنَّ هذه الآية من جملة الزوائد[1]. ودعوى الإعجاز في هذا المقدار لا بدَّ لها من دليل.

واحتجَّ بها القائلون بحدوث الكلامِ اللفظي، وهي ظاهرةٌ فيه، ومن العجيب ما نَقَلَه عن أصحابه حيث قال: قال أصحابنا: في هذه الآية دلالةٌ على كون البسملةِ آيةً من كلِّ سورةٍ؛ لأنَّ الله تعالى قد وعَدَ حفظَ القرآن، والحفظُ لا معنى له إلا أنْ يبقَى مصوناً من الزيادة والنقصان، فلو لم تكن البسملةُ آيةً من القرآن لما كان مصوناً عن التغيير، ولَمَا كان محفوظاً عن الزيادة، ولو جاز أنْ يُظَنَّ بالصحابة أنَّهم زادوا لجاز أنْ يُظَنَّ بهم أنَّهم نقصوا، وذلك يوجبُ خروجَ القرآن عن كونه حجَّةً. اهـ.

ولعمري، إنَّ تسميةَ مثلِ هذا بالخَبال[2] أولَى من تسميته بالاستدلال.

ولا يخفَى ما في سبك الجملتَين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة، وعلى فخامة شأن التنزيل، وقد اشتملتا على عدَّةٍ من وجوه التأكيد، و«نحن» ليس فصلاً لأنَّه لم يقع بين اسمَين، وإنَّما هو إمَّا مبتدأ، أو توكيدٌ لاسم «إنَّ» ويُعلَم مما قرَّرنا أنَّ ضمير «له» للذِّكْر، وإليه ذهب مجاهد وقتادة والأكثرون، وهو الظاهرُ.

وجوَّز الفراءُ[3] ـ وذهب إليه النزرُ ـ أنْ يكون راجعاً إلى النبيِّ ﷺ، أي: وإنَّا للنبيِّ الذي أُنزل عليه الذكرُ لحافظون من مكر المستهزئين كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة:٦٧] والمعوَّل عليه الأوَّل.

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦١.
(٢) في الأصل: بالخيال.
(٣) معاني القرآن ٢/ ٨٥.

وأُخِّر هذا الجوابُ مع أنَّه ردٌّ لأوَّلِ كلامهم الباطل؛ لِمَا أشرنا إليه فيما مرَّ، ولارتباطه بما يعقبُه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: رسلاً، كما رُوي عن ابن عباس، وإنَّما لم يُذكر؛ لظهور الدلالة عليه ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ متعلِّقٌ بـ «أرسلنا»، أو بمحذوفٍ وقَع نعتاً لمفعوله المحذوفِ، أي: رسلاً كائنةً من قبلك ﴿فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ أي: فِرَقهم، كما قال الحسن والكلبيُّ، وإليه ذهب الزجَّاج[1]، وهو ـ وكذا: أشياع ـ جمع: شِيْعَة، وهي الفِرقة[2] الجماعةُ المتَّفقةُ على طريقةٍ ومذهب، مأخوذٌ من شاع المتعدِّي، بمعنى: تَبع، لأنَّ بعضَهم يُشايعُ بعضاً ويتابعه.

وتطلقُ الشِّيْعة على الأعوان والأنصار، وأصلُ ذلك على ما قيل من الشِّيَاع ـ بالكسر والفتح ـ صغارُ الحطب يُوقَد به الكبار.

والمناسبةُ في ذلك نظراً للإطلاق الثاني ظاهرةٌ، وللإطلاق الأوَّلِ أنَّ التابعَ من حيث إنَّه تابعٌ أصغرُ ممن يتبعُه. وإضافتُه إلى «الأوَّلين» من إضافة الموصوفِ إلى صفته عند الفرَّاء[3]، ومن حذف الموصوف عند البصريين، أي: شِيَع الأُمم الأوَّلين، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أرسلنا».

ومعنى إرسالِ الرسل في الشيع جعلُ كلٍّ منهم رسولاً فيما بين طائفةٍ منهم ليتابعوه في كلِّ ما يأتي ويَذَرُ من أمور الدين، وكأنَّه لو قيل: «إلى» بدل «في» لم يظهر إرادةُ هذا المعنى. وقيل: إنَّما عَدَل عن «إلى» إليها، للإعلام بمزيد التمكين، وزعَمَ بعضُهم أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ للمفعول المقدَّرِ أو حالٌ، ولا يخفَى بُعدُه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية كما قال الزمخشريُّ؛ لأنَّ «ما» لا تدخُلُ على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريبٌ من الحال[4]، وهو قولُ الأكثرين.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٧٤.
(٢) في الأصل و(م): والفرقة، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٦٩ والكلام منه.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٧، واللباب ١١/ ٤٣٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٨٨.

وقال بعضهم: إنَّ الأكثر دخولُ «ما» على المضارع مراداً به الحال، وقد تدخلُ عليه مراداً به الاستقبال، وأنشدَ قولَ أبي ذؤيب:

أَودَى بَنِيَّ وأَودَعُوني حَسْرةً عند الرُّقاد وعَبْرةً ما تُقْلِعُ[1]

وقولَ الأعشى[2] يمدحُ النبيَّ ﷺ:

له نافلاتٌ ما يغِبُّ نوالُها وليس عطاءُ اليومِ مانعَه غدَا

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: ١٥] ولعله المختار، وإنْ كان ما هنا على الحكاية، والمرادُ نفْيُ إتيان كلِّ رسولٍ لشيعته الخاصة به، لا نَفْي إتيانِ كلِّ رسولٍ لكلِّ واحدةٍ من تلك الشِّيَع جميعاً، أو على سبيل البدل، أي: ما أَتَى شيعةً من تلك الشيع رسولٌ خاصٌّ بها ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١﴾ كما يفعلُه هؤلاء الكفرة، والجملةُ ـ كما قال أبو البقاء ـ في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ من ضمير المفعول في «يأتيهم» إنْ كان المرادُ بالإتيان حدوثَه، أو في محلِّ الرفع أو الجرِّ على أنَّها صفة «رسول» على لفظه أو موضعه[3]؛ لأنَّه فاعل.

وتعقب جعلُها صفةً له باعتبار لفظه بأنَّهُ يفضي إلى زيادة «من» الاستغراقيَّة في الإثبات لمكان «إلا» وتقدير العمل في النعت بعدها.

وجوِّز أنْ تكونَ نصباً على الاستثناء وإنْ كان المختارُ الرفعَ على البدليَّة. وهذا كما ترى تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأنَّ هذه شِنْشِنةُ جُهَّال الأمم مع المرسلين عليهم السلام قبلُ.

وحيث كان الرسول مصحوباً بكتاب من عند الله تعالى تضمَّن ذكْرُ استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب، ولذلك قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل السَّلْك

---

(١) ديوان الهذليين ص٢، والمفضليات ص٤٢١، وخزانة الأدب ١/ ٤٢٠، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٧ والكلام منه.

(٢) كما في ديوانه ص٤٦، والمغني ص٣٨٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٧ والكلام منه، ولفظ صدره في الديوان هكذا: له صدقات ما تغب ونائلٌ.

(٣) الإملاء ٣/ ٤١٩.

الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤوا به ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: نُدخلُه، يقال: سلكتُ الخيطَ في الإبرة، والسِّنانَ في المطعون، أي: أدخلتُ، وقرئ: «نُسْلِكُه»[1]. وسَلَك وأَسْلَكَ كما ذكر أبو عبيدة بمعنًى واحد[2]، والضميرُ عند جمعٍ ـ ومنهم الحسنُ على ما ذكره الغزنويُّ ـ للذِّكر.

﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: أهل مكة، أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولاً أوليًّا، ومعنى المِثْليَّة كونُه مقروناً بالاستهزاء غير المقبول لِمَا تقتضيه الحكمة، وحاصلُه أنَّه تعالى يُلقي القرآن في قلوب المجرمين مُستهزَأً به غيرَ مقبولٍ، لأنَّهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاقٌ لقبول الحقِّ، كما أَلقى سبحانه كُتبَ الرسل عليهم السلامُ في قلوب شِيَعهم مستهزأً بها غيرَ مقبولةٍ لذلك، وصيغةُ المضارع لكون المشبَّه به مقدَّماً في الوجود وهو السلك الواقع في شيع الأولين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الضميرُ للذِّكر أيضاً، والجملةُ في موضع الحال من مفعول «نَسلُكُه» أي: غيرَ مُؤمَنٍ به، وهي إما مقدَّرة وإما مقارِنة، على معنى أنَّ الإلقاء وقَعَ بعدَه الكفرُ من غير توقُّفٍ، ، فهما في زمانٍ واحدٍ عُرفاً، ويجوزُ أنْ تكونَ بياناً للجملة السابقة، فلا محلَّ لها من الإعراب. قال في «الكشف»: وهو الأوجهُ، لأنَّ في طريقة الإبهام والتفسير لاسيما في هذا المقام ما يُجلُّ موقع الكلام.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّه قد جعل ضمير «نَسْلُكه» للاستهزاء المفهوم من «يستهزئون» فتتعيَّن البيانيَّةُ إلا أنْ يُجعل ضمير «به» له أيضاً، على أنَّ الباء للملابسة، أي: يَسلك الاستهزاء في قلوبهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين بملابسة الاستهزاء[3].

وقد ذهب إلى جواز إرجاع الضميرَين إلى الاستهزاء ابنُ عطيةَ إلا أنَّه جعَلَ الباء للسببية[4]، وكذا الفاضل الجلبي. ولا يخفى أنَّ بُعدَ ذلك يُغني عن ردِّه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ١٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والكشاف ٢/ ٣٨٨.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤٧.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٧٠.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣.

وذهب البيضاوي[١] إلى كون الضمير الأول للاستهزاء، وضميرِ «به» للذكر، وتفريقُ الضمائرِ المتعاقبةِ على الأشياء المختلفةِ إذا دلَّ الدليل عليه ليس ببِدْع في القرآن، وجوَّز على هذا كونَ الجملة حالاً من «المجرمين» ولا يتعيَّن كونُها حالاً من الضمير ليتعيَّن رجوعُه للذكر، وذكَرَ أنَّ عودَه على الاستهزاء لا يُنافي كونَها مفسِّرةً بل يقوِّيه، إذ عدمُ الإيمان بالذكرِ أنسبُ بتمكُّن الاستهزاء في قلوبهم، وجَعَل الآية دليلاً على أنَّه تعالى يوجد الباطلَ في قلوبهم، ففيها ردٌّ على المعتزلة في قولهم: إنَّه قبيحٌ فلا يصدرُ منه سبحانه، وكأنَّه رحمه الله تعالى ظَنَّ أنَّ ما فعله الزمخشريُّ[٢] من جعل الضميرَين للذكر، كان رعايةً لمذهبه ففعل ما فعل، ولا يخفَى أنَّه لم يُصِب المحزَّ، وغَفَل عن قولهم: الدليل إذا طرقه الاحتمالُ بطل به الاستدلالُ.

وفي «الكشف» بعد كلام: إنَّ رَجْع الضميرِ إلى الاستهزاء أو الكفر مع ما فيه من تنافر النظم لا ينكره أهلُ الاعتزال إلا كإنكار سَلْك الذكر بصفة التكذيب، والتأويل كالتأويل، وكأنَّهم غَفَلوا عمَّا ذكره جارُ الله في الشعراء حيث أجابَ عن سؤال إسنادِ سَلكِ الذكر بتلك الصفة إلى نفسه جلَّ وعلا بأنَّ المراد تمكُّنُه مكذَّباً في قلوبهم أشدَّ التمكُّن، كشيءٍ جُبِلُوا عليه[٣]؛ ولَخَّص المعنى ها هنا بأنَّه تعالى يلقيه في قلوبهم مكذَّباً، لا أنَّ التكذيبَ فِعْلُه سبحانه.

نعم أخرج ابنُ أبي حاتم عن أنس والحسن تفسيرَ ضمير «نَسلُكُه» إلى الشرك[٤]، وأخرج هو وابنُ جرير عن ابن زيد أنَّه قال في الآية: هم كما قال الله تعالى: هو أضلَّهم ومنَعَهم الإيمان[٥]، لكنْ هذا أمرٌ وما نحنُ فيه آخر.

واعترض بعضُهم رجوعَ الضمير إلى «الذكر» بأنَّ نون العظمة لا تناسبُ ذلك، فإنَّها إنَّما تحسُنُ إذا كان فعل المعظِّم نفسَه فعلاً يَظهرُ له أثرٌ قويٌّ، وليس كذلك هنا، فإنَّه تدافعٌ وتنازعٌ فيه.

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٢٨٥بنحوه.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٣٨٨.

(٣) الكشاف ٣/ ١٢٩.

(٤) عزا الأثرين السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٤ إلى ابن أبي حاتم، وأخرج أثر الحسن عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) الطبري ١٤/ ٢١-٢٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٥ لابن أبي حاتم.

وأجاب بأنَّ المقام إذا كان للتوبيخ يَحسُنُ ذلك، ولا يلزمُ أنْ تكونَ العظمة باعتبار القهر والغلبة، فقد تكونُ باعتبار اللطف والإحسان.

وتعقب ذلك الشهابُ بقوله: لا يخفَى أنَّه باعتبار القهر والغلبة يقتضي أنْ يؤثِّر ذلك في قلوبهم، وليس كذلك؛ لعدم إيمانهم به، وكذا باعتبار اللُّطف والإحسانِ يقتضي أنْ يكونَ سلكه في قلوبهم إنعاماً عليهم، فأيّ إنعامٍ عليهم بما يقتضي الغضب، فلا وجْهَ لما ذكر[1].

وأنت تعلم أنَّه إذا كان المرادُ سَلْكَ ذلك وتمكينه في قلوبهم مكذَّباً به غيرَ مقبولٍ، فكونُ الإسناد باعتبار القهر والغلبة مما لا ينبغي أنْ يَنْتَطح به كبشان، والأثر الظاهرُ القويُّ لذلك بقاؤهم على الكفر والإصرار على الضلال ولو جاءتهم كلُّ آية.

ولا يخفى ما في «كذلك» ممَّا يناسب نون العظمة أيضاً، وقد مرَّ التنبيه عليه غير مرَّةٍ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مضَتْ ﴿سُنَّةُ﴾ طريقة ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ والمرادُ عادةُ الله تعالى فيهم على أنَّ الإضافة لأدنَى ملابسةٍ، لا على أنَّ الإضافَة بمعنى «في»، والمرادُ بتلك العادةِ ـ على تقدير أنْ يكونَ ضميرُ «نَسْلُكُه» للاستهزاء ـ الخِذلانُ وسَلْكُ الكفر في قلوبهم، أي: قد مضَت عادتُه سبحانه وتعالى في الأوَّلين ممَّن بَعَث إليهم الرسُلَ عليهم السلام أنْ يخذُلَهم ويسلُكَ الكفرَ والاستهزاء في قلوبهم، وعلى تقدير أنْ يكونَ للذكر الإهلاكُ، وعلى هذا قولُ الزمخشريِّ: أي: مضَت طريقتُهم التي سنَّها الله تعالى في إهلاكهم حينَ كذَّبوا برسلهم والمنزَّل عليهم، وذَكَر أنَّه وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم[2]. وإلى الأوَّل ذهَبَ الزجَّاج[3]، وادَّعى الإمامُ أنَّه الأليَقُ بظاهر اللفظ[4].

وبيَّن ذلك الطيبي قائلاً: إنَّ التعريفَ في «المجرمين» للعهد، والمرادُ بهم المكذِّبون مِن قوم رسولِ الله ﷺ، لأنَّهم المذكورون بعدُ، أي: مثل ذلك السَّلك

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٨٨.
(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧٤.
(٤) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٥-١٦٦.

الذي سَلَكناه في قلوب أولئك المستهزئين المكذِّبين للرسُل الماضين نَسلُكه في قلوب هؤلاء المجرمين، فلك أسوةٌ بالرسل الماضية مع أممهم المكذِّبة، ولستَ بأوحديٍّ في ذلك وقد خَلَت سنةُ الأولين، والمقامُ مقتضٍ[1] التقريرَ والتأكيدَ، فيكون في هذا مزيدُ تسليةٍ للرسول عليه الصلاة والسلام، والوعيدُ بعيدٌ؛ لأنَّه لم يَسبِق لإهلاك الأمم ذكرٌ، وإيثارُ ذلك؛ لأنَّه أقربُ إلى مذهب الاعتزال. اهـ.

وفيه غَفْلةٌ عن مَغْزَى الزمخشريِّ، وقد تفطَّن لذلك صاحبُ «الكشف» ولله تعالى درُّه حيث قال: أرادَ أنَّ موقعَ «قد خَلَت» إلى آخره موقعُ الغاية في «الشعراء»، أعني قوله تعالى هناك: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠١] فإنَّهم لما شُبِّهوا بهم، قيل: لا يؤمنون، وقد هلَكَ مَن قبلهم ولم يؤمنوا، فكذلك هؤلاء، ومنه يظهرُ أنَّ الكلامَ على هذا الوجه شديدُ الملاءمةِ.

وأمَّا أنَّ الوعيدَ بعيدٌ لعدم سَبْق ذكرٍ لإهلاك الأمم، ففيه أنَّ لفظ السُّنَّة مضافاً إلى ما أُضيفَ إليه يُنبئُ عن ذلك أشدَّ الإنباء، ثمَّ إنَّه ليس المقصود منه الوعيدَ على ما قرَّرناه، وقد صرَّح أيضاً بعضُ الأجلة أنَّ الجملة استئنافيةٌ جيءَ بها تكملةً للتسلية، وتصريحاً بالوعيد والتهديدِ.

ثم ما ذهب إليه الزمخشريُّ من المراد بالسُّنَّة مرويٌّ عن قتادة فقد أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وغيرهما عنه أنَّه قال في الآية: قد خَلَت وقائعُ الله تعالى فيمَن خلا من الأمم[2]. وعن ابن عباس أنَّ المراد سُنَّتهم في التكذيب، ولعلَّ الإضافة على هذا على ظاهرها.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهرُه: باباً ما، لا باباً مِن أبوابها المعهودة كما قيل ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب ﴿يَعْرُجُونَ ۝١٤﴾ يصعدون حسبما نُيسِّرُه لهم، فيَرون ما فيها من الملائكة والعجائبِ طولَ نهارهم، مُستوضِحين لِمَا يرونه كما يفيده «ظلوا» لأنَّه يقال: ظلَّ يعملُ كذا: إذا فَعَلَه في النهار حيث يكونُ للشخص ظلٌّ. وجوَّز في «البحر» كونَ

---

(١) في (م): يقتضي.

(٢) الطبري ١٤/ ٢٢، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٤-٩٥.

«ظل» بمعنى «صار»[1]. وهو مع كونه خلافَ الأصل مما لا داعيَ إليه.

وأيًّا ما كان فضميرُ الجمع للمقترِحين، وهو الظاهرُ المرويُّ عن الحسن، وإليه ذهب الجبائي وأبو مسلم[2]. وأخرج ابنُ جرير[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه للملائكة، ورُوي ذلك عن قتادة أيضاً، أي: فظلَّ الملائكةُ الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون في ذلك الباب وهم يَرَوْنَهم على أتمِّ وجهٍ.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة: «يعرِجون» بكسر الراء[4]، وهي لغةُ هذيل في العروج بمعنى الصعود.

﴿لَقَالُوٓاْ﴾ لِفَرْط عنادهم وغُلوِّهم في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحقِّ: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت ومُنِعَت من الإبصار حقيقةً، وما نراه تخيُّل لا حقيقةَ له، أخرجه ابن أبي حاتم وغيرُه عن مجاهد[5]، وروي أيضاً عن ابن عباس وقتادة، فهو من السَّكر بالفتح.

وقال أبو حيان: بالكسر: السَّدُّ والحَبْس[6]، وقال ابن السيد[7]: السَّكر، بالفتح، سدُّ الباب والنهر، وبالكسر: السَّدُّ نفسُه، ويجمع على سُكُور، قال الرَّفَّاء:

غِناؤنا فيه ألحان السكور إذا ... قلَّ الغِناءُ ورناتُ النواعير[8]

ويشهد لهذا المعنى قراءة ابن كثير والحسن ومجاهد: «سُكِرَتْ أبصارُنا»

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٤٨.
(٢) مجمع البيان ١٤/ ١٥.
(٣) في الأصل و(م): جريج، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٩٥، والأثر عند الطبري ١٤/ ٢٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.
(٥) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ٢٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٤٨.
(٧) عبد الله بن محمد بن السيد البَطَلْيَوسيّ، كان عالماً باللغات والآداب متبحراً فيها، له «شرح أدب الكاتب»، و«الحلل في شرح أبيات الجمل»، توفي (٥٢١هـ). بغية الملتمس للضبي ص٣٣٧، والمغرب في حلى المغرب للمغربي ١/ ٣٨٥-٣٨٦.
(٨) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٦. والرفَّاء: هو السري بن أحمد بن السري أبو الحسن الكندي الموصلي، الشاعر المشهور: أسلمه أبوه الرفَّائين صبيًّا بالموصل، فكان يرفو ويطرِّز. معجم الأدباء ١١/ ١٨٢.

بتخفيف الكاف مبنيًّا للمفعول[(١)]؛ لأنَّ سَكَرَ المخفَّف المتعدِّي اشتهر في معنى السَّدِّ، وعن عمرو بنِ العلاء أنَّ المراد: حُيِّرت، فهو من السُّكر ـ بالضَّمِّ ـ ضدُّ الصحو، وفسَّروه بأنَّه حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، وأكثرُ ما يستعمل ذلك في الشراب، وقد يعتري من الغضب والعشق، ولذا قال الشاعر:

سُكرانِ سُكْرُ هوًى وسكرُ مدامةٍ ... أنَّى يفيقُ فتى به سُكرانِ[(٢)]

والتشديد في ذلك للتعدية؛ لأنَّ سَكِرَ كفَرِحَ، لازمٌ في الأشهر، وقد حُكي تعدِّيه، فيكونُ للتكثير والمبالغة، وأرادوا بذلك أنَّه فسَدَت أبصارُنا واعتراها خللٌ في إحساسها كما يعتري عقلَ السكران ذلك، فيختلّ إدراكُه، ففي الكلام على هذا استعارةٌ، وكذا على الأوّل عند بعضٍ، ويشهد لهذا المعنى قراءة الزهريّ: «سَكِرَت» بفتح السين وكسر الكاف مخفَّفةً مبنيًّا للفاعل[(٣)]؛ لأنَّ الثلاثي اللازم مشهورٌ فيه، ولأنَّ سَكَر بمعنى سدَّ، المعروفُ فيه فتحُ الكاف.

واختار الزجَّاج أنَّ المعنى: سكَنَت عن إبصار الحقائق، من سَكِرَت الريحُ تسكُر سكراً: إذا ركَدَت[(٤)]، ويقال: ليلةٌ ساكرةٌ: لا ريحَ فيها، والتضعيف للتعدية، ولهم أقوالٌ أُخَرُ متقاربةٌ في المعنى.

وقرأ أبانُ بنُ تغلب ـ وحُمِلَت لمخالفتها سواد المصحف على التفسير ـ: «سحرت أبصارنا»[(٥)].

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ قد سحرنا محمدٌ ﷺ كما قالوا ذلك عند ظهورِ سائر الآياتِ الباهرةِ، والظاهرُ على ما قال القطب: إنَّهم أرادوا أولاً سُكِّرَت أبصارنا لا عقولُنا، فنحن وإن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا، لكن نعلمُ بعقولنا أنَّ

---

(١) قراءة ابن كثير في التيسير ص١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠١، وقراءة الحسن ومجاهد في معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٢) البيت للخليع الشامي كما في يتيمة الدهر ١/ ٣٣، ونسبه أبو القاسم الحسن النيسابوري في عقلاء المجانين ص٢١ لديك الجن.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٠-٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٨.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ١٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

الحال بخلافه، ثم أضربوا عن الحصر في الإبصار وقالوا: بل تجاوز ذلك إلى عقولنا.

وفسَّر الزمخشريُّ الحصرَ بأنَّ ذلك ليس إلا تسكيراً[1]. فأورد عليه بأنَّ «إنما» إنما تفيدُ الحصرَ في المذكور آخراً، وحينئذٍ يكونُ المعنى ما تقدَّم، وهو مبنيٌّ على أنَّ تقديمَ المقصورِ على المقصور عليه لازمٌ، وخلافه مُمتنعٌ، وقد قال المحقِّق في شرح «التخليص»: إنَّه يجوزُ إذا كان نفسُ التقديم يُفيد الحصرَ، كما في قولنا: إنَّما زيداً ضربت، فإنَّه لقَصْر الضرب على زيد، وقال أبو الطَّيِّب:

صفاتُه لم تَزِدْهُ معرفةً ... لكنَّها لذَّةً ذكرناها[2]

أي: ما ذكرناها إلا لذةً. إلا أنَّ هذا لا ينفعُ فيما نحن فيه.

نعم نقل عن «عروس الأفراح» أنَّ حكم أهل المعاني غيرُ مسلَّم، فإنَّ قولك: إنَّما قمتُ، معناه: لم يَقَع إلا القيامُ، فهو لحصر الفعل وليس بآخر، ولو قصد حصرَ الفاعل لانفصل، ثم أورد عدَّةَ أمثلة من كلام المفسِّرين تدلُّ على ما ذكروه في المسألة، فالظاهرُ أنَّ الزمخشريَّ لا يرى ما قالوه مطَّرداً، وهم قد غَفَلوا عن مراده هنا، قاله الشهاب[3]، وما نقله عن «عروس الأفراح» في: إنَّما قمتُ، مِن أنَّه لحصر الفعل، ولو كان لحصر الفاعل لانفصل، يُخالفُه ما في شرح المفتاح الشريفي من أنَّه إذا أُريدَ حصر الفعل في الفاعل المضمَر، فإنْ ذُكِرَ بعد الفعل شيءٌ من متعلَّقاته وجَبَ انفصالُ الفاعل وتأخيرُه، كما في قولك: إنَّما ضَرَبَ اليومَ أنَا، وكما في قول الفرزدق:

أنا الذائدُ الحامي الذمار وإنَّما ... يُدافعُ عن أحسابهم أنا أو مثلي[4]

وإنْ لم يُذكر احتملَ الوجوبَ طرداً للباب وعدمه، بأنْ يجوز الانفصالُ نظراً إلى المعنى، والاتِّصالُ نظراً إلى اللفظ، إذ لا فاصل لفظيًّا. اهـ.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٩.

(٢) البيت في شرح ديوانه ٤/ ٤١٠، وفيه: أسامياً، بدل: صفاته، و: إنما، بدل: لكنها.

(٣) في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٨٦.

(٤) ديوان الفرزدق ٢/ ١٥٣، والمحتسب ٢/ ١٩٥، وتذكرة النحاة ص٨٥، وخزانة الأدب ٤/ ٤٦٥، وروي صدره بلفظ: أنا الضامن الراعي عليهم وإنما.

فإنَّه صريحٌ في أنَّ: إنَّما قمتُ، لحصر الفاعل وإنْ لم يجب الانفصالُ، لكن اختارَ السعدُ في شرحه وجوبَ الانفصال مطلقاً، وحكم بأنَّ الظاهر أنَّ معنى: إنَّما أقومُ، ما أنا إلا أقوم، كما نقله السمرقنديُّ. وأبو حيان مع طائفةٍ يسيرةٍ من النحاة أنكروا إفادة «إنَّما» للحصر أصلاً، وليس بالمعوَّل عليه عند المحقِّقين، لكنهم قالوا: إنَّها قد تأتي لمجرَّد التأكيد. وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلَب من محلِّه.

ووجَّه الشهابُ الإضرابَ بعد أنْ قال: هو جعْلُ الأوَّلِ في حكم المسكوت عنه دون النفي، ويحتمل الثاني بأنَّه إضرابٌ لأنَّ هذا ليس بواقع في نفس الأمر، بل بطريق السحر، أو هو باعتبار ما تُفيدُه الجملة من الاستمرار الذي دلَّت عليه الاسميَّةُ، أي: مسحورِيَّتُنا لا تختصُّ بهذه الحالة، بل نحن مستمرُّون عليها في كل ما يُرينا من الآيات[1].

هذا، وفي هذه الآية من وصفهم بالعناد وتواطُئهم على ما هم فيه من التكذيب والفساد ما لا يخفى، وفي ذلك تأكيدٌ لما يُفهم من الآية الأولى.

وقد ذكر ابنُ المنير في المراد منها وجهاً بعيداً جدًّا فيما أرى فقال: المرادُ والله تعالى أعلم إقامةُ الحجَّة على المكذِّبين بأنَّ الله تعالى سَلَك القرآن في قلوبهم وأدخلَه في سويدائها كما سلك في قلوب المؤمنين المصدِّقين، فكذَّب به هؤلاء وصدَّق به هؤلاء، كلٌّ على علم وفَهْم ليهلِكَ من هَلَك عن بينةٍ ويحيا من حيَّ عن بينة، ولئلا يكونَ للكفار على الله تعالى حجَّةٌ بأنَّهم ما فهموا وجْهَ الإعجاز كما فهمها مَن آمن، فأعلمهم الله تعالى ـ وهم في مُهلةٍ وإمكان ـ أَنَّهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين غيرَ معذورين، ولذلك عقَّبه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ إلخ أي: هؤلاء فهموا القرآنَ وعلموا وجوهَ إعجازه وولج ذلك في قلوبهم ووَقَر، ولكنَّهم قومٌ سجيَّتُهم العنادُ وسِمَتُهم اللدادُ، حتى لو سَلَك بهم أوضحَ السبل وأدعاها إلى الإيمان، لقالوا بعد الإيضاح العظيم: إنَّما سُكِّرت أبصارُنا، وسُحِرْنا، وما هذه إلا خيالات لا حقائِقَ تحتها، فأسجل سبحانه عليهم

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٦-٢٨٧.

بذلك أنَّهم لا عُذرَ لهم بالتكذيب من عدم سماعٍ ووعي، ووصولٍ إلى القلوب، وفهمٍ كما فَهِمَ غيرُهم من المصدِّقين؛ لأنَّ ذلكَ كان حاصلاً لهم، وليس بهم إلا العنادُ والإصرارُ لا غير[١]. اهـ. فليتأمَّل، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

ثم إنَّه تعالى لمَّا ذَكَر حال منكري النبوَّة وكانت مفرَّعةً على التوحيد ذكر دلائلَهُ السماويَّةَ والأرضيَّةَ فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ إلخ، وإلى هذا ذهب الإمام[٢] وغيرُه في وجه الربط.

وقال ابن عطية: إنَّه سبحانه لما ذكر أنَّهم لو رَأَوا الآيةَ المطلوبة في السماء لعاندوا وبَقُوا على ما هم فيه من الضلال، عَقَّب ذلك بهذه الآية، كأنَّه جل شأنه قال: وإنَّ في السماء لَعِبراً منصوبةً غيرَ هذه المذكورة، وكفرُهم بها وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعتوٌّ[٣]. اهـ.

والظاهرُ أنَّ الجعلَ بمعنى الخَلْق والإبداع، فالجارُّ والمجرور متعلِّقٌ به، وجُوِّز أنْ يكونَ بمعنى التصيير فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ له، و«بروجاً» مفعوله الأول.

والبروجُ جمع بُرْجٍ، وهو لغةً: القصرُ والحصن. وبذلك فسَّره هنا عطيَّة. فقد أخرج عنه ابنُ أبي حاتم أنَّه قال: جعلنا قصوراً في السماء فيها الحرسُ، وأخرج عن أبي صالح أنَّ المرادَ بالبروج الكواكبُ العظام[٤]، وفي «البحر» عنه: الكواكبُ السيَّارة[٥]، وروى غيرُ واحدٍ عن مجاهد وقتادة أنَّها الكواكبُ من غيرِ قيدٍ. وروي عن ابن عباس تفسيرُ ذلك بالبروج الاثني عشر المشهورة، وهي ستَّةٌ شمالية، ثلاثة ربيعيَّة وثلاثةٌ صيفيَّةٌ، وأوَّلُها الحَمَلُ، وستَّةٌ جنوبيَّةٌ، ثلاثةٌ خريفيَّةٌ وثلاثةٌ شتائيَّة، وأوَّلُها الميزان، وطولُ كلِّ برجٍ عندهم «ل» درجة وعرضُه «قف» درجة، «ص» منها في جهة الشمال، ومثلُها في جهة الجنوب، وكأنَّها إنما سمِّيَت بذلك؛ لأنَّها

---

(١) الانتصاف ٢/ ٣٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٤.

(٤) عزا السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ٩٥ الأثرين لابن أبي حاتم.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

كالحصن أو القصر للكوكب الحالِّ فيها، وهي في الحقيقة أجزاءُ الفلك الأعظم، وهو المحدَّد المسمَّى بلسانهم الفلكُ الأطلسُ، وفلكُ الأفلاك، وبلسان الشرع بعكسه، ولهذا يُسمِّي الشيخُ الأكبر قدِّسَ سرُّه الفلكَ الأطلسَ بفَلَك البروج[١]، والمشهور تسميةُ الفلك الثامن، وهو فَلَكُ الثوابتِ به لاعتبارهم الانقسام فيه، وكأنَّ ذلك لظهور ما تتعيَّن به الأجزاءُ من الصور فيه، وإنْ كان كلٌّ منها منتقلاً عما عيَّنه إلى آخَرَ منها، لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على خلاف التوالي وإنْ لم يُثْبِتها لها ـ لعدم الإحساس بها ـ قدماءُ الفلاسفة كما لم يُثبت الأكثرون حركَتَها على نفسها، وأثبتها الشيخُ أبو عليٍّ ومَن تَبِعَه من المحقِّقين، وقد صرَّحوا بأنَّ هذه الصُّوَرَ المسماةَ بالأسماء المعلومةِ تُوُهِّمَت على المنطقة وما يقرب منها من الجانبَين من كواكب ثابتةٍ تنظمها خطوطٌ موهومةٌ وقَعَت وقت القسمة في تلك الأقسام.

ونقل ذلك في «الكفاية»[٢] عن عامَّة المنجِّمين، وأنَّهم إنَّما توهَّمُوا لكلِّ قسمٍ صورةً ليحصلَ التفهيم والتعليم، بأنْ يقال: الدَّبَران مثلاً عينُ الأسد.

وتعَقَّب ذلك بقوله: وهذا ليس بسديدٍ عندي؛ لأنَّ تلك الصُّورَ لو كانت وهميَّةً لم يكن لها أثرٌ في أمثالها من العالم السفلي، مع أنَّ الأمر ليس كذلك، فقد قال بَطْلِيمُوس في «الثمرة»[٣]: الصُّور التي في عالم التركيب مطيعةٌ للصُّوَر الفلكيةِ، إذ هي في ذواتها على تلك الصور، فأدركَتها الأوهامُ على ما هي عليه، وفيه بحث.

ثم هذه البروجُ مختلفةُ الآثار والخواصّ، بل لكلِّ جزءٍ من كلٍّ منها ـ وإنْ كان أقلَّ من عاشرة بل أقلَّ الأقلِّ ـ آثارٌ تخالف آثارَ الجزءِ الآخر، وكلُّ ذلك آثارُ حكمة الله تعالى وقدرته عزَّ وجلَّ. وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سرُّه في بعض كتبه أنَّ آثارَ النجومِ وأحكامها مفاضةٌ عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدد.

وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلاث مئة من فتوحاته مامنه: إنَّ الله تعالى قَسم الفلكَ الأطلسَ اثني عشر قِسْماً، سمَّاها بروجاً، وأسكنَ

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٤٣٧.

(٢) كفاية التعليم في صناعة التنجيم، فارسي، للإمام ظهير الدين أبي المحامد محمد بن مسعود بن الزكي الغزنوي. كشف الظنون ٢/ ١٤٩٧.

(٣) الثمرة في أحكام النجوم. كشف الظنون ١/ ٥٢٤.

كلِّ برجٍ منها مَلَكاً، وهؤلاء الملائكة أئمة العالم، وجعَلَ لكلٍّ منهم ثلاثين خزانة، تحتوي كلٌّ منها على علومٍ شتَّى يهبون منها للنازل بهم قدر ما تُعطيه رُتْبَتُه، وهي الخزائنُ التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] وتُسمَّى عند أهل التعاليم بدرجات الفلك، والنازلون بها هم الجواري، والمنازلُ وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الإلهيَّة هي ما يظهرُ في عالم[1] الأركان من التأثيرات، بل ما يظهرُ في مُقعَّر فلك الثوابت إلى الأرض[2]. إلى آخِرِ ما قال، وقد أطال قُدِّسَ سره الكلام في هذا الباب، وهو بمعزل عن اعتقاد المحدِّثين نقلةِ الدين عليهم الرحمة.

ثم إنَّ في اختلاف خواصِّ البروج حسبما تشهدُ به التجربة مع ما اتَّفق عليه الجمهورُ من بساطة السماء أدلَّ دليلٍ على وجود الصانع المختار جلَّ جلاله.

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ أي: السماء بما فيها من الكواكب السيَّارات وغيرها، وهي كثيرةٌ لا يَعلمُ عدَدها إلا الله تعالى. نعم المرصودُ منها ألفٌ ونَيِّف وعشرون، ورتَّبوها على ستٍّ مراتب وسمَّوها أقداراً متزايدة سُدُساً حتى كان قطرُ ما في القَدْر الأوَّل ستَّةَ أمثالِ ما في القدر السادس، وجعلوا كلَّ قدرٍ على ثلاث مراتب، وما دون السادس لم يُثْبتوه في المراتب، بل إنْ كان كقطعة السحاب يُسمونه سحابيًّا وإلا فمظلماً.

وذكر في «الكفاية» أنَّ ما كان منها في القدر الأوَّل فَجِرمُه مئةٌ وستَّةٌ وخمسون مرَّةً ونصفُ عشر الأرض. وجاء في بعض الآثار أنْ أصغرَ النجوم كالجبل العظيم.

واستظهر أبو حيَّان عود الضمير للبروج، لأنَّها المحدَّث عنها والأقرب في اللفظ[3]. والجمهور على ما ذكرنا حذراً من انتشار الضمائر.

﴿لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ أي: بأبصارهم إليها، كما قاله بعضُهم؛ لأنَّه المناسب

---

(١) في (م): عام.
(٢) الفتوحات ٣/ ٤٣٣-٤٣٤.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٩.

للتزيين، وجُوِّز أنْ يُرادَ بالتزيين ترتيبُها على نظامٍ بديعٍ مستتبعاً للآثار الحسنة، فيُراد بالناظرين المتفكِّرون المستدلُّون بذلك على قُدرة مُقدِّرها وحكمةِ مدبِّرها جلَّ شأنه.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ مطرودٍ عن الخيرات، ويُطلَق الرجمُ على الرمي بالرِّجام وهي الحجارة، فالمرادُ بالرجيم المرميّ بالنجوم، ويُطلَق أيضاً على الإهلاك والقتل الشنيع.

والمرادُ بحفظها من الشيطان إما منعه عن التعرُّض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ متَّصلٌ.

وإما المنعُ عن دخولها والاختلاط مع أهلها على نحو الاختلاط مع أهل الأرض، فهو حينئذٍ منقطعٌ.

وعلى التقديرَين محلُّ «مَن» النصبُ على الاستثناء، وجوَّز أبو البقاء[1] والحوفي كونَه في محلِّ جرٍّ على أنَّه بدلٌ من «كلِّ شيطانٍ» بدل بعضٍ من كلٍّ، واستغنى عن الضمير الرابط بـ «إلا».

واعتُرِضَ بأنَّه يشترط في البدليَّة أنْ تكونَ في كلامٍ غير موجبٍ، وهذا الكلام مثبت.

ودُفع بأنَّه في تأويل المنفي، أي: لم نمكِّن منها كلَّ شيطانٍ، أو نحوه، وأُورِدَ أنَّ تأويل المثبت في غير «أَبَى» ومتصرفاته غيرُ مقيسٍ ولا حسن، فلا يقال: مات القومُ إلا زيدٌ، بمعنى: لم يعيشوا، ولعلَّ القائل بالبدليَّة لا يُسلِّم ذلك، وقد أَوَّلوا بالمنفي قوله تعالى: «فشربوا منه إلا قليل»[2] [البقرة:٢٤٩]، وقولَه عليه الصلاة والسلام: «العالَمُ هلكى إلا العالمون» الخبر[3]، وغيرَ ذلك مما ليس فيه «أَبَى» ولا شيء من متصرِّفاته، لكن الإنصاف ضَعْفُ هذه البدليَّة، كما لا يخفى.

وجوَّز أبو البقاء أيضاً أنْ يكون في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والخبرُ جملة قوله

---

(١) ينظر الإملاء ٣/ ٤٢١.
(٢) وهي قراءة ابن مسعود والأعمش وأُبي، كما في البحر ٢/ ٢٦٦، وتقدَّمت في موضعها.
(٣) حديث موضوع، وقد تقدم الكلام عليه ٢/ ٢٨٢.

تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ١٨﴾ وذَكَر أنَّ الفاء من أجل أنَّ «مَن» موصولٌ أو شرطٌ[(١)].

والاستراقُ: افتعالٌ من السرقة، وهو أخذُ الشيء بخُفْيةٍ، شُبّه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] والمرادُ بالسمع المسموع.

والشهابُ ـ على ما قال الراغب ـ الشعلةُ الساطعةُ من النار الموقَدةِ ومن العارض في الجوِّ[(٢)]، ويُطلَقُ على الكوكب؛ لبريقه كشعلة النار، وأصلُه من الشُّهبةُ، وهي: بياضٌ مختلِطٌ بسوادٍ، وليست البياض الصافي كما يغلطُ فيه العامَّة فيقولون: فرسٌ أشهبُ للقرطاسي.

والمراد بـ «مبينٌ» ظاهرٌ أمرُه للمبصرين، ومعنى «أَتْبَعَه»: تَبِعَه، عند الأخفش نحو: رَدِفْتُه وأَردَفْتُه، فليسَت الهمزةُ فيه للتعدية[(٣)]، وقيل: «أَتْبَعَه» أخصُّ من تَبِعَه لِمَا قال الجوهريُّ: تَبِعتُ القومَ تبعاً وتَبَاعَةً ـ بالفتح ـ إذا مشيتَ خلفهم، أو: مرُّوا بك فمضيتَ معهم، وأَتْبَعْتُ القومَ ـ على أَفْعَلْتُ ـ إذا كانوا قد سبقوك فلحقتَهم[(٤)]. واستحسَنَ الفرقَ بينهما الشهابُ[(٥)].

ولمَّا كان الإتباع محتملاً للإهلاك وغيره اختلف العلماءُ في ذلك فحكى القرطبي عن ابن عباس أنَّ الشهاب يجرحُ ويحرقُ ولا يقتلُ، وعن الحسن وطائفة أنَّه يقتل، وادَّعى أنَّ الأوَّل أصحُّ[(٦)]، ونقل غيرُ واحدٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: إنَّ الشياطين يركبُ بعضُهم على بعضٍ[(٧)] إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ من الملائكة عليهم السلام، فيُرْمَون بالكواكب، فلا تُخطِئُ أبداً، فمنهم من تقتلُه ومنهم

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٢١-٤٢٢.
(٢) مفردات الراغب (شهب).
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٨.
(٤) الصحاح (تبع).
(٥) في حاشيته ٥/ ٢٨٨.
(٦) تفسير القرطبي ١٢/ ١٨٩.
(٧) في (م): بعضهم بعضاً.

من تحرقُ وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله تعالى، ومنهم مَن تَخبِلُه فيصيرُ غولاً فيضلُّ الناس في البراري. ومما لا يعوَّلُ عليه ما يُروى مِن أنَّ منهم مَن يقعُ في البحر فيكونُ تمساحاً.

ومن الناس مَن طعن ـ كما قال الإمام[1] ـ في أمر هذا الاستراق والرمي من وجوه.

أحدها: أنَّ انقضاضَ الكواكب مذكورٌ في كتب قدماء الفلاسفة، وذكروا فيه أنَّ الأرض إذا سَخُنَت بالشمس ارتفَعَ منها بخارٌ يابسٌ، فإذا بلَغَ كرة النار التي دون الفلك احترقَ بها، فتلك الشعلةُ هي الشهاب، وقد يبقَى زماناً مشتعلاً إذا كان كثيفاً، وربما حميت الأدخنةُ في برد الهواء للتعاقب فانضغَطَت مشتعلةً، وجاء أيضاً في شعر الجاهلية كما قال بشر بن أبي حازم:

والعَيْرُ يلحقها الغبار وجَحْشُها ... يَنْقَضُّ خَلْفَهما انقضَاضَ الكوكبِ[2]

وقال أوس بن حجر:

وانقضَّ كالدِّرِّيءِ يَتبعُه ... نَقْعٌ يثُورُ تَخالُه طُنُبا[3]

إلى غير ذلك.

وثانيها: أنَّ هؤلاء الشياطين كيف يجوز فيهم أنْ يُشاهدوا ألوفاً من جنسهم يسترقون السمعَ فيحترقون، ثم إنَّهم مع ذلك يعودون لصنيعهم، فإنَّ مَن له أدنى عقلٍ إذا رأى هلاكَ أبناءِ جنسه من تعاطي شيءٍ مراراً، امتنع منه.

وثالثها: أنْ يقال: إنَّ ثخنَ السماء خمس مئة عام، فهؤلاء الشياطين إنْ نفَذُوا في جِرمها وخرقوها، فهو باطلٌ لنفي أنْ يكون لها فُطورٌ على ما قال سبحانه: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣] وإنْ كانوا لا ينفُذُون فكيف يمكنُهم سماع أسرارِ الملائكة عليهم السلام مع هذا البعد العظيم؟!.

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ٦١.

(٢) الديوان ص٨١، وتأويل مشكل القرآن ص٣٣٣، والمعاني الكبير ٢/ ٧٣٩.

(٣) الديوان ص٣، وتأويل مشكل القرآن ص٣٣٣-٣٣٤، والمعاني الكبير ٢/ ٧٣٩، والحيوان ٦/ ٢٧٤، وتهذيب اللغة ١٤/ ٥٨، واللسان (درأ)، الدريء: الكوكب المنقض يدرأ على الشيطان. تخالُه طُنُبا: يريد تخاله فسطاطاً مضروباً. ينظر تهذيب اللغة واللسان.

ورابعها: أنَّ الملائكةَ عليهم السلام إنَّما اطَّلعوا على الأحوال المستقبلة، إما لأنَّهم طالعوها من اللوح المحفوظ، أو لأنَّهم تلقَّفوها بالوحي، وعلى التقديرَين لِمَ لَمْ يسكُتُوا عن ذكرها حتى لا تتمكَّنَ الشياطينُ من الوقوف عليها؟.

وخامسها: أنَّ الشياطينَ مخلوقون من النار، والنارُ لا تحرق النارَ، بل تقوِّيها فكيف يُعقَل زجرُهم بهذه الشهب؟.

وسادسُها: أنَّكم قلتُم: إنَّ هذا القذفَ لأجل النبوَّة، فَلِمَ دامَ بعد وفاة النبيِّ ﷺ؟.

وسابعها: أنَّ هذه الشهبَ إنما تحدث بقُرْب الأرضِ بدليل أنَّا نُشاهدُ حركاتها، ولو كانَت قريبةً من الفلك لَمَا شاهدناها، كما لم نشاهد حركاتِ الأفلاكِ والكواكب، وإذا ثَبت أنَّها تَحدُثُ بالقرب من الأرض فكيف يقال: إنَّها تمنعُ الشياطينَ من الوصول إلى الفلك؟.

وثامنها: أنَّ هؤلاء الشياطينَ لو كان يمكنهم أنْ ينقلوا أخبارَ الملائكة عليهم السلام عن المغيبات إلى الكهنة، فَلِمَ لم ينقلوا أسرار المؤمنين إلى الكفار حتى يتوصَّلوا بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟.

وتاسعها: لِمَ لم يمنعهم الله تعالى من الصعود ابتداءً حتى لا يحتاج في دَفْعهم إلى هذه الشهب.

وقال بعضهم: أيضاً: إنَّ السماع إنَّما يُفيدهم إذا عرفوا لغةَ الملائكةِ، فلِمَ لم يجعلهم الله سبحانه جاهلين بلغتهم؛ لئلَّا يُفيدَهم السماع شيئاً، وأيضاً إن انقطع الهواء دون مُقعَّر فلك القمرِ لم يحدث هناك صوتٌ، إذ هو مِن تَموُّج الهواء، والمفروض عدمه، وإنْ لم ينقطع كان دونَ ذلك أصواتٌ هائلةٌ من تَموُّج الهواء بحركة الأجرام العظيمة، وهي تمنعُ من سماع أصواتِ الملائكة عليهم السلام في محاوراتهم، ولا يكادُ يُظَنُّ أنَّ أصواتَهم في المحاورات تغلبُ هاتيك الأصوات لتسمع معها، وأيضاً ليس في السماء الدنيا إلا القمر، ولا نراه يرمى به، وسائرُ السيَّارات فوقُ ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] والثوابتُ في الفَلَك الثامن، والرمي بشيءٍ من ذلك يستدعي خرقَ السماء وتشقُّقَها ليصلَ الشهابُ إلى الشيطانِ، وهو مما لا يكاد يقال.

وأجاب الإمام[١] عن الأوَّل أولاً: بأنَّ الشهبَ لم تكن موجودة قبل البعثة، وهذا قولُ ابنِ عباس، فقد رُوي عنه أنَّه قال: كان الجنُّ يصعَدون إلى السماء فيستمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها أشياءَ من عند أنفسهم، فلما بُعثَ النبيُّ ﷺ مُنعوا مقاعدَهم، ولم يكن النجوم يُرمى بها قبلَ ذلك، فقال لهم إبليسُ: ما هذا إلا لأمرٍ حدَثَ. الخبر[٢].

وروي عن أُبَيِّ بنِ كعب أنَّه قال: لم يرمَ بنجم منذ رُفِعَ عيسى عليه السلام، حتى بُعثَ رسولُ الله ﷺ فرُميَ بها، فرَأَت قريشٌ ما لم تَرَ قبلُ، فجعلوا يُسيِّبون أنعامَهم، ويعتقون رقابَهم، يظنُّون أنَّه الفناء، فبَلَغ ذلك كبيرَهم فقال: لِمَ تفعلون؟ فقالوا: رُمي بالنجوم. فقال: اعتبروا، فإنْ تكُن نجومٌ معروفةٌ فهو وقتُ فناء الناس، وإلا فهو أمرٌ حدثٌ، فنظروا فإذا هي لا تعرف، فأخبروه، فقال: في الأمر مهلةٌ، وهذا عند ظهور نبيٍّ[٣]. الخبر.

وكُتُب الأوائل قد توالَت عليها التحريفاتُ، فلعلَّ المتأخِّرين ألحقُوا هذه المسألةَ بها؛ طعناً في هذه المعجزةِ، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلقة عليهم.

وثانياً ـ وهو الحقُّ ـ بأنَّها كانت موجودة قبل البعثة لأسباب أُخَر، ولا نُنكر ذلك إلا أنَّه لا يُنافي أنَّها بعد البعثةِ قد تُوجدُ بسببِ دفعِ الشياطين وزجرهم. يُروى أنَّه قيل للزهري: أكانَ يُرمَى في الجاهلية؟ قال: نعم. قيل: أفرأيت قولَه تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] قال: غُلِّظَ وشُدِّد أمرُها حين بُعثَ النبيُّ[٤] ﷺ، وعلى نحو هذا يُخرَّج ما رُوي عن ابن عباس وأُبيٍّ رضي الله عنهما إنْ صحَّ.

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ٦١.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) في هامش (م): يروى أنه أول مَن فزع للرمي بالنجوم هذا الحيُّ من ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أدهى العرب فقال لهم نحو ما ذكر في هذا الخبر. اهـ منه. وأخرج هذا الأثر ابن سعد في الطبقات ١/ ١٦٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٨٢)، والترمذي (٣٢٢٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن الثاني: بأنَّه إذا جاء القَدَرُ عمي البصرُ، فإذا قضَى الله تعالى على طائفةٍ منهم الحرقَ؛ لطغيانهم وضلالهم، قيَّض لها من الدواعي ما تُقدِم معه على الفعل المفضي إلى الهلاك.

وعن الثالث: بأنَّ البعدَ بين الأرض والسماء خمس مئة عام، فأما ثخنُ الفلك فإنَّه لا يكون عظيماً.

وعن الرابع: بأنَّه روي عن الزهريِّ، عن علي بنِ الحسين بن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، عن ابن عباس قال: بينا النبيُّ ﷺ جالسٌ في نفرٍ من أصحابه إذ رُميَ بنجم فاستنار، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنتُم تقولون في الجاهلية إذا حدَثَ مثلُ هذا؟» قالوا: كنَّا نقول: يولد عظيمٌ أو يموتُ عظيمٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «فإنَّها لا تُرمَى لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكنَّ ربَّنا تعالى إذا قَضى الأمرَ في السماء سبَّحَت حملةُ العرشِ، ثم سبَّح أهلُ السماء، وسبَّح أهلُ كلِّ سماءٍ حتى يَنتهي التسبيحُ إلى هذه السماء، ويَستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم؟ فيُخبرونهم، ولا يزالُ يَنتهي الخبرُ إلى هذه السماء، فيتخطفه الجنُّ، فيُرمَون، فما جاؤوا به فهو حقٌّ، ولكنَّهم يَزيدُون فيه»[(1)].

وعن الخامس: بأنَّ النار قد تكونُ أقوى من نارٍ أخرى، فالأقوى تُبطلُ ما دونَها.

وعن السادس: بأنَّه إنَّما دامَ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام أَخبَرَ ببطلان الكهانة[(2)]، فلو لم يدُم هذا القذفُ لعادَت الكهانةُ، وذلك يقدَحُ في خبر الرسولِ ﷺ عن بطلانها.

وعن السابع: بأنَّ البعدَ على مذهبنا غيرُ مانعٍ من السماع، فلعلَّه سبحانه وتعالى أجرَى عادتَه بأنَّهم إذا وَقفُوا في تلك المواضع سمِعُوا كلامَ الملائكة عليهم السلام.

وعن الثامن: بأنَّه لعلَّ الله تعالى أَقْدَرَهم على استماع الغيوبِ من الملائكة وأعجزَهم عن إيصال أسرارِ المؤمنين إلى الكفار.

وعن التاسع: بأنَّه عزَّ وجل يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريد.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٢) و(١٨٨٣)، ومسلم (٢٢٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٠)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها. وسيأتي ص٤٣٢ من هذا الجزء.

وبهذا يُجابُ عن الأول فيما قيل.

وأُجيبَ عن الثاني: بأنَّا نختارُ انقطاعَ الهواء، والسماعُ عندنا بخَلْقِ الله تعالى، ولا يتوقَّفُ على وجود الهواء وتموُّجه، وقد يختارُ عدم الانقطاع، ويقال: إنَّه تعالى شأنه قادرٌ على منع الهواء من التموُّج بحركة هاتيك الأجرام، وكذا هو سبحانه قادرٌ على إسماعهم ـ مع هاتيك الأصوات الهائلةِ ـ السرَّ وأخفى.

وعن الثالث: بأنَّ كونَ الثوابتِ في الفَلَك الثامن هو الذي ذَهَب إليه الفلاسفة، واحتجُّوا عليه بأنَّ بعضَها فيه، فيجبُ أنْ يكونَ كلُّها كذلك.

أما الأول؛ فلأنَّ الثوابتَ التي تكونُ قريبةً من المنطقةِ تنكسِفُ بالسيَّارات، فوجَبَ أنْ تكونَ الثوابتُ المنكسِفَةُ فوق السيَّارات الكاسفة.

وأما الثاني؛ فلأنَّها بأسرها متحركة حركةً واحدةً بطيئةً في كلِّ مئة سنة أو أقل على الخلافِ درجةً، فلا بدَّ أنْ تكونَ مركوزةً في كرةٍ واحدةٍ، وهو احتجاجٌ ضعيفٌ، لأنَّه لا يلزمُ من كون بعضِ الثوابتِ فوقَ السيَّارات كون كلّها هناك، لأنَّه لا يبعدُ وجودُ كرةٍ تحت كرة القمرِ، وتكونُ في البطء مساويةً لكرة الثوابت، وتكونُ الكواكبُ المركوزةُ فيما يُقارب القطْبَين مركوزةً في هذه الكرة السُّفلية، إذ لا يبعدُ وجودُ كرتَين مختلفتَين بالصِّغَر والكِبَر مع كونهما متشابهتَين في الحركة، وعلى هذا لا يمتنعُ أنْ تكونَ هذه النجومُ في السماء الدنيا.

وقد ذكر الجلالُ السيوطي وغيرُه أنَّه جاء في بعض الآثار أنَّ الكواكبَ معلَّقةٌ بسلاسل من نور بأيدي ملائكةٍ في السماء الدنيا يُسيِّرونها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء[1]، إلا أنَّ في صحة ذلك ما فيه.

على أنَّ ما ذُكِرَ في السؤال من أنَّ ذلك يستلزمُ الخرقَ وهو مما لا يكادُ يقال، إما أنْ يكونَ مبنيًّا على القول بامتناع الخرقِ والالتئام على الفَلَك المحدَّد وغيره، وقد تقرَّر فسادُ ذلك وحقِّق إمكانُ الخرق والالتئام بما لا مزيدَ عليه في غير كتابٍ من كتب الكلام.

---

(١) الأثر في الوسيط ٤/٤٢٨ عن الكلبي وعطاء.

وإما أنْ يكونَ مبنيًّا على مجرَّد الاستبعاد، فهو مما لا يفيدُ شيئاً؛ لأنَّ أكثرَ الممكنات مستبعدَةٌ، وهي واقعةٌ، ولا أظنُّك في مِريةٍ من ذلك، بل قد يقال: نحن لا نلتزمُ أنَّ الكوكبَ نفسَه يتبعُ الشيطان فيحرقَه، والشهابُ ليس نصًّا في الكوكب؛ لِمَا علمتَ ما قيل في معناه، وإنْ قيل: إنَّه بنفسه ينقضُّ ويَرمي الشيطانَ ثم يعودُ إلى مكانه لظاهر إطلاق الرجومِ على النجوم، وقولهم: رُمي بالنجم، مثلاً.

وكذا لا نلتزمُ القولَ بأنَّه ينفصلُ عن الكوكب شعلةٌ كالقبسِ الذي يُؤخَذ من النار فيُرْمَى بها، كما قاله غيرُ واحد، لنحتاجَ في الجواب عن السؤال بما تقدَّم، إذ يجوزُ أنْ يقال: إنَّه يؤثِّر حيث كان بإذن الله تعالى هذه الشعلة المسماة بالشهاب ويحرقُ بها مَن شاء الله تعالى من الشياطين.

وإطلاقُ الرجوم على النجوم وقولهم: رمي بالنجم، يحتملُ أنْ يكونَ مبنيًّا على الظاهر للرائي كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦].

وقال الإمام(١): إنَّ هذه الشهبَ ليسَت هي الثوابت المركوزة في الفلك، وإلا لظهر نقصانٌ كثيرٌ في أعدادها، مع أنَّه لم يوجد نقصان أصلاً. وأيضاً إنَّ في جعلها رجوماً ما يُوجب النقصانَ في زينة السماء، بل هي جنسٌ آخرُ غيرُها، يُحدِثُها الله تعالى ويجعلُها رجوماً للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] حيث أفادَ أنَّ تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها؛ لأنَّا نقول: كلُّ نيِّرٍ يحصُل في الجوِّ العالي فهو مصباحٌ لأهل الأرض، إلا أنَّ المصابيح منها باقيةٌ على وجه الدهر آمنةٌ من التغيُّر والفساد، ومنها ما لا يكونُ كذلك، والشهبُ من هذا القسم. وحينئذٍ يزول الإشكال. انتهى.

والجرحُ والتعديلُ بين القولَين مفوَّضان إلى شهاب ذهنك الثاقب، وفي أجوبته السابقة رحمه الله تعالى ما لا يخفَى ضعفُه، وكذا شاهدةٌ عليه بقلَّة الاطِّلاع على الأخبار الصحيحة المشهورة، ألا ترى قولَه في الجواب عن ثالث الأسئلة التسعة: إنَّ البعد بين السماء والأرض خمس مئة عام، وأمّا ثِخَنُ الفلك فإنَّه لا يكونُ عظيماً، فإنَّه مخالفٌ لما نطقَت به الشريعةُ وهَذَت به الفلسفة، أما مخالفتُه للأوَّل؛

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

فلأنَّه قد صحَّ أنَّ سَمْكَ كلِّ سماءٍ خمس مئة عام، كما صحَّ أنَّ بين السماء والأرض[(١)] كذلك.

وأما مخالفتُه للثاني؛ فلأنَّه لم يقل أحدٌ من الفلاسفة: إنَّ بين السماء والأرض هذه المسافة التي ذكرها، والأفلاكُ عندَهم مختلفةٌ في الثِّخَن، وقد بيَّنوا ثِخَنَ كلٍّ بالفراسخ حسبما ذكر في كتب الأجرام والأبعاد، وذكروا في ثخن المحدَّد ما يشهد بمزيد عظمة الله جلَّ جلاله، لكن لا مستندَ لهم قطعيٌّ في ذلك، بل إنَّ قولهم: لا فضل في الفلكيَّات مع كونه أشبه شيء بالخطابيَّات يُعكِّرُ عليه.

وقوله في الجواب عن السادس: إنَّه إنما دامَ؛ لئلَّا يقدح انقطاعُه في خبر الرسول ﷺ عن بُطلان الكهانة، فإنَّه مستلزمٌ للدور، إذ الظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما أخبر بذلك لعلمه بدوام القذفِ المانعِ من تحقُّق ما تتوقَّف عليه الكهانة.

وفي قوله في الجواب عن الخامس: إنَّ النار قد تكونُ أقوى من نارٍ أخرى فتبطلها، ظاهرٌ في أنَّ الشياطين نارٌ صِرْفة، وليس كذلك، بل الحقُّ أنَّهم يغلبُ عليهم العنصرُ الناريُّ، وقد حصل لهم بالتركيب ولو مع غَلبة هذا العنصرِ ما ليس للنار الصِّرفة، وهو ظاهر.

هذا، ثم اعلم أنَّه يجوز أنْ يكونَ استراقُ السمع من الملائكة الذين عند السماء، لا من الملائكة الذين بين كلِّ سماءٍ وسماء، ليجيءَ حديثُ الثخنِ واستبعاد السماع معه، ويشهدُ لهذا ما رواه البخاريُّ عن عروةَ بنِ الزبير عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ الملائكةَ تنزلُ في العَنَان ـ وهو السَّحابُ ـ فَتذْكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السماء، فَتَستَرِقُ الشياطينُ السمعَ فتسمَعُهُ، فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذِبُون مع الكلمة مئةَ كَذبةٍ مِن عند أنفسِهم»[(٢)].

ولا يُنافيه ما رواه أيضاً عن عكرمة أنَّه قال: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قَضى اللهَ تعالى الأمرَ في السماء ضَرَبَت الملائكةُ أجنحتَها

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٨٦: رجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح البخاري (٣٢١٠)، وأخرجه مسلم (٢٢٢٨).

خُضْعاناً لقوله سبحانه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قُلُوبهم قَالُوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الحقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيسمَعَها مُستَرِقُ السَّمْع» الخبر[١]، إذ ليس فيه أكثر من سماعِ المستَرقِ الكلمةَ بعد قولِ الملائكة عليهم السلام بعضهم لبعض.

وعدمُ منافاة هذا لذاك ظاهرٌ عند مَن ألقى السَّمعَ وهو شهيد، وأنَّه ليس في الآيات ما هو نصٌّ في أنَّ ما نراه من الشُّهب لا يكونُ إلا لرَمْي شيطانٍ يسترقُ، بل غايةُ ما فيها أنَّه إذا استرقَ شيطانٌ أَتْبَعَهُ شهابٌ ورمي بنجمٍ، وأينَ هذا من ذاك؟

نعم في خبر الزهريِّ ما يحتاجُ معه إلى تأمُّل، وعلى هذا فيجوزُ أنْ يكونَ حدوث بعضِ ما نراه من الشُّهب لتصاعد البخار حسبما تقدَّم عن الفلاسفة، وكذا يجوزُ أنْ يكونَ صعودُ الشياطين للاستراق في كلِّ سنةٍ مثلاً مرَّةً، ولا يخفَى نفعُ هذا في الجواب عن السؤال الثاني.

ومن الناس مَن أجابَ عنه بأنَّه لا يبعدُ أنْ يكونَ المسترقونَ صنفاً من الشياطين، تقتضي ذواتُهم التصاعدَ نظيرَ تصاعد الأبخرةِ، بل يجوزُ أنْ يكونَ أولئك الشياطينُ أبخرةً تعلَّقَت بها أنفسٌ خبيثةٌ على نحو ما ذكر الفلاسفة من أنَّه قد يتعلَّقُ بذوات الأذناب نفسٌ فتغيبُ وتطلعُ بنفسها. وفيه بحثٌ.

ونقل الإمام[٢] عن الجبَّائي أنَّه قال في الجواب عن ذلك: إنَّ الحالةَ التي تعتريهم ليس لها موضعٌ معيَّنٌ، وإلا لم يذهبوا إليه، وإنَّما يُمنَعون من المصير إلى مواضعِ الملائكةِ، ومواضعها مختلفةٌ، فربَّما صاروا على موضعهم فتُصيبهم الشهبُ، وربَّما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا يُصيبهم شيءٌ، فلمَّا هلكوا في بعض الأوقات وسَلِمُوا في بعضها جاز أنْ يصيروا إلى موضعٍ يغلبُ على ظنونهم أنَّها لا تُصيبُهم فيه، كما يجوزُ فيمَن يسلك البحر أنْ يسلكَه في موضع يغلبُ على ظنِّه حصول النجاة فيه.

وتعقَّبه بقوله: ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّهم إنْ صَعِدُوا فإمَّا أنْ يصلوا إلى مواضع

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٠١) و(٤٨٠٠).

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

الملائكة، أو إلى غيرها، فإنْ وصلُوا إلى الأول احترقوا، وإن إلى الثاني لم يَظفَروا بمقصودٍ أصلاً، فعلى كلا التقديرَين المقصودُ غيرُ حاصل، فإذا حصلَت هذه التجربة وثَبَت بالاستقراء أنَّ الفوزَ بالمقصود مُحالٌ[1] وَجَب أنْ يَمتنِعُوا، وهذا بخلاف حال المسافر في البحر، فإنَّ الغالب على المسافرين فيه الفوزُ بالمقصود، ثم قال: فالأقرب في الجواب أنْ نقولَ: هذه الواقعةُ إنما تتفقُ في الندرة، فلعلَّها لا تشتهرُ بسبب كونها نادرةً فيما بين الشياطين. اهـ.

وأنت تعلمُ أنَّ هذا لا يكادُ يتمُّ إلا مع القول بأنَّه ليس كلُّ ما نراه من الشهب يحرقُ به الشياطين، والأمر مع هذا القولِ سهلٌ كما لا يخفى.

وذكر البيضاوي أنَّ استراقَ السمع خطفتُهم اليسيرة من قُطَّان السماوات لِمَا بينهم من المناسبة في الجوهر، أو بالاستدلال مِن أوضاع الكواكب وحركاتها[2].

وذَكَر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] أنَّ السمعَ مشروطٌ بمشاركتهم في صفات الذات وقبول فَيَضان الحقِّ والانتقاش بالصورة الملكوتيةِ، ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانيةٌ شريرةٌ بالذات لا تَقبل ذلك[3].

ولا يخفَى ما فيه. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ الاستراق يقتضي مناسبةَ الجوهر، والسمع التامّ يقتضي المشاركةَ المذكورةَ، وهو لا يتمشَّى على أصول الشرع، وفي أنَّ تلقيهم يكونُ من الأوضاع الفلكيَّةِ، وهو مخالفٌ لصريح النَّظْم والأحاديث، مع أنَّه يقتضي أنْ يكونَ قُطَّان السماء بمعنى الكواكب وشمول «مَن» شياطين الإنس من المنجِّمين، وهو كما ترى.

وذَكَر هو وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الشياطين كانوا لا يُحجَبُون عن السماوات، فلمَّا وُلد عيسى عليه السلام مُنِعُوا من ثلاث سماوات، ولمَّا وُلد النبيُّ ﷺ مُنِعُوا من السموات كلِّها[4]، اهـ.

---

(١) في (م): محقق، والمثبت من الأصل ومفاتيح الغيب ٢٦/ ١٢١.

(٢) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٥/ ٢٨٧.

(٣) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٢٨.

(٤) تفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٥/ ٢٨٧.

ومن الناس من ذهب أخذاً ببعض الظواهر إلى أنَّ المنعَ عند البعثة، والله تعالى أعلم.

بَقِيَ ها هنا إشكالٌ ذكره الإمامُ مع جوابه فقال: ولقائل أن يقول: إذا جوَّزتم في الجملة أنْ يصعد الشيطانُ إلى السماء ويَسمع أخبارَ الغيوب من الملائكة عليهم السلام ثم يلقيها إلى الكهنة، وَجَب أنْ يخرجَ الإخبارُ عن المغيبات عن كونه معجزاً دالًّا على الصدق؛ لأنَّ كلَّ غيبٍ يُخبرُ عنه الرسولُ عليه الصلاة والسلام يقومُ فيه هذا الاحتمال، ولا يقال: إنَّ الله تعالى أَخبرَ أنَّهم عجزوا عن ذلك بعد مولده ﷺ لأنَّا نقول: هذا العجزُ[١] لا يمكنُ إثباتُه إلا بعدَ القطع بكونه عليه الصلاة والسلام رسولاً، وبكون القرآن حقًّا، والقطعُ بهذا لا يمكنُ إلا بواسطة المعجِز، وكونُ الإخبار عن الغيوب معجزاً لا يثبتُ إلا بعد إبطال هذا الاحتمال، وحينئذٍ يلزم الدور، وهو محال.

ويمكنُ أنْ يُجابَ عنه بأنَّا نثبت كونَه ﷺ رسولاً بسائر المعجزات، ثم بعد العلم بثبوت ذلك نقطعُ بأنَّ الله تعالى أَعْجَزَ الشياطينَ عن تلقُّف الغيبِ بهذا الطريق، وعند ذلك يصيرُ الإخبار عن الغيوب معجزاً، ولا يلزمُ الدور[٢]. اهـ فتدبَّر، والله سبحانه وليُّ التوفيق وبيده أَزِمَّةُ التحقيق.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها، قال الحسن: أخذ الله تعالى طينةً فقال لها: انبسطي، فانبسطَت. وعن قتادة أنَّه قال: ذُكِرَ لنا أنَّ أمَّ القُرى مكةُ، ومنها دُحيَت الأرضُ وبُسطَت. وعن ابن عباس أنَّه قال: بسطناها على وجه الماء. وقيل: يحتمل أنْ يكونَ المرادُ: جعلناها ممتدةً في الجهات الثلاث الطولِ والعرضِ والعمقِ، والظاهرُ أنَّ المرادَ بسطُها وتوسعتُها ليحصل بها الانتفاعُ لمن حلَّها، ولا يلزمُ من ذلك نَفْي كرويتها، لِمَا أنَّ الكرةَ العظيمةَ لعظمها تُرى كالسطح المستوي.

ونصب «الأرض» على الحذف على شريطة التفسير، وهو في مثل ذلك أرجحُ من الرفع على الابتداء، للعطف على الجملة الفعلية، أعني قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) في الأصل و(م): المعجز، والمثبت من مفاتيح الغيب، والكلام منه.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٦٩-١٧٠.

جَعَلْنَا) إلخ، وليوافق ما بعدَه أعني قولَه سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ، جمع راسية جمع راسٍ، على ما قيل.

وقد بيَّن حكمةَ إلقاء ذلك فيها في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى لما بَسَط الأرضَ على الماء مالَت كالسفينة فأرساها بالجبال الثقال؛ لئلا تميلَ بأهلها، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[١].

وزعم بعضُهم[٢] أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ أنَّه تعالى فعلَ ذلك لتكونَ الجبالُ دالَّةً على طرق الأرض ونواحيها، فلا تميدُ الناسُ عن الجادَّة المستقيمةِ، ولا يقعون في الضلال، ثم قال: وهذا الوجهُ ظاهرُ الاحتمال. وأنت تعلم أنَّه لا يسوغ الذهابُ إليه مع وجود أخبارٍ تأباه كالجبال.

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وهي إما شاملةٌ للجبال؛ لأنَّها تُعدُّ منها، أو خاصَّةٌ بغيرها؛ لأنَّ أكثرَ النباتِ وأحسنَه في ذلك. وجوِّز أنْ يكونَ الضميرُ للجبال والأرض بتأويل المذكورات مثلاً، أو للأرض بمعنى ما يقابل السماء بطريق الاستخدام، وعوده على الرواسي؛ لقربها، وحملُ الإنبات على إخراج المعادن بعيدٌ.

﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: مقدَّر بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمةُ، فهو مجازٌ مستعمَلٌ في لازم معناه، أو كنايةٌ، أو مِن كلِّ شيءٍ مستحسَنٍ متناسبٍ، من قولهم: كلامٌ موزون، وأنشد المرتضَى في «درره» لهذا المعنى قولَ عمر بن أبي ربيعة:

وَحَديثٍ أَلَذُّه وهو مِمَّا ... تَشْتَهيه النفوسُ يُوزَنُ وَزْنا[٣]

---

(١) في الآية (٣) من سورة الرعد.

(٢) وقع في حاشية (م): هو الإمام الرازي. اهـ منه. وكلامه في تفسيره ١٩/ ١٧١.

(٣) كذا في حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٨ والكلام منه، ولم نقف عليه في ديوان عمر بن أبي ربيعة، ثم إن المرتضى في أماليه (درره) ١/ ١٤ نسبه لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري، وكذلك نُسب لمالك في البيان والتبيين ١/ ١٤٧، والشعر والشعراء ٢/ ٢٨٢، ومجالس ثعلب ص٥٣١، والأغاني ١٧/ ٢٣٦، وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٤، وفصل المقال شرح كتاب الأمثال ١/ ٥، وتاريخ دمشق ٤٥/ ٤٣٩ و٥٦/ ٣٥٨، وسمط اللآلي شرح أمالي القالي ١/ ١٦، ولسان العرب (لحن).

وقد شاع استعمالُ ذلك في كلام العجم والمولّدِين، فيقولون: قوامٌ موزون، أي: متناسبٌ معتدِلٌ.

أو: ما لَه قدرٌ واعتبارٌ عند الناس في أبواب النعمة والمنفعة، وقال ابنُ زيد: المرادُ ما يوزن حقيقةً كالذهب والفضَّة وغيرهما.

و «مِن» كما في «البحر» للتبعيض[1]، وقال الأخفش[2]: هي زائدة، أي: كلّ شيء.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والمشاربِ والملابس وغيرها مما يتعلَّق به البقاء، وهو بياء صريحة.

وقرأ الأعرجُ وخارجةُ عن نافع بالهمز، قال ابنُ عطية[3]: والوجهُ تركُه؛ لأنَّ الياءَ في ذلك عينُ الكلمة، والقياسُ في مثله أنْ لا يُبدلَ همزةً، وإنما يُبدل إذا كان زائداً، كياء شمائل وخبائث، ولكن لمَّا كان الياءُ هنا مشابهاً للياء هناك في وقوعه بعد مَدَّةٍ زائدةٍ في الجمع، عُومل معاملتَه على خلاف القياس.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ عطف على «معايش»، أي: وجعلنا لكم مَن لستُم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدوابِّ وما أشبهها، على طريقة التغليب كما قال الفراء[4] وغيرُه. وذكَّرهم بهذا العنوانِ؛ لردِّ حسبان بعض الجهلة أنَّهم يُرتَزَقون منهم، أو لتحقيق أنَّ الله تعالى يرزقُهم وإياهم مع ما في ذلك من عظيم الامتنان.

ويجوزُ عطفه على محلِّ «لكم»، وجوَّز الكوفيون ويونسُ والأخفشُ وصحَّحه أبو حيان العطفَ على الضمير المجرور[5]، وإنْ لم يُعَد الجارُّ، والمعنى على التقديرَين سواء، أي: وجعلنا لكم معايشَ ولمن لستُم له برازقين.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٢) ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٧٢، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥، وقراءة الأعرج وخارجة السابقة فيه، وفي البحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٤) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٨٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٠.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٥١، وقول يونس والأخفش فيه.

وقال الزجاج[١]: إنَّ «مَن» في محلِّ نصبٍ بفعلٍ محذوفٍ والتقدير: وأَعَشْنَا مَن لستُم... إلخ، أي: أمماً غيرَكم؛ لأنَّ المعنى أعشناكم، وقيل: إنَّه في محلِّ رفعٍ على الابتداء، وخبرُه محذوفٌ لدلالة المعنى عليه، أي: ومَن لستُم له برازقين جعلنا له فيها معايش، وهو خلافُ الظاهر.

وقال أبو حيان: لا بأسَ به، فقد أجازوا: ضربتُ زيداً وعمرٌو، بالرفع على الابتداء، أي: وعمرٌو ضربتُه، فحذف الخبر؛ لدلالة ما قبله عليه[٢].

وأخرج ابن المنذر وغيرهُ عن مجاهد أنَّ المراد بـ «مَن لستُم» إلخ الدوابُّ والأنعام[٣]، وعن منصور: الوحش، وعن بعضهم: ذاك والطير. فـ «مَن» على هذه الأقوال لِمَا لا يعقل.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ «إنْ» نافية و«مِن» مزيدةٌ للتأكيد، و«شيءٍ» في محلِّ الرفع على الابتداء، أي: ما شيءٌ من الأشياء الممكنةِ، فيدخل فيها ما ذُكِرَ دخولاً أوليًّا، والاقتصارُ عليه قصورٌ. وزعم ابنُ جريج وغيرُه أنَّ الشيءَ هنا المطرُ خاصَّة.

﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ الظرف خبرٌ للمبتدأ، و«خزائنُه» مرتفعٌ به على أنَّه فاعلُه لاعتماده، أو مبتدأٌ، والظرفُ خبرُه، والجملةُ خبرٌ للمبتدأ الأول، والخزائنُ جمع خزانة ولا تُفتَح، وهي: اسمٌ للمكان الذي يُحفَظ فيه نفائسُ الأموال لا غير، غَلَبت - على ما قيل - في العرف على ما للملوك والسلاطين من خَزائن أرزاقِ الناس، شُبِّهت مقدوراتُه تعالى الفائقة[٤] للحصر المندرجةُ تحت قدرته، الشاملةُ في كونها مستورةً عن علوم[٥] العالمين ومصونةً عن وصول أيديهم مع وفور رغبتهم فيها، وكونها متهيِّئة متأتيةً لإيجاده وتكوينه، بحيث متى تعلَّقَت الإرادةُ بوجودها وُجِدَت بلا تأخُّرٍ = بنفائس الأموال المخزونةِ في الخزائن السلطانية، فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية. قاله غير واحد.

---

(١) ينظر معاني القرآن له ٣/ ١٧٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٥١ والكلام منه.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.

(٣) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ٣٧.

(٤) في (م): الغائبة.

(٥) في الأصل: عيون، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٢.

وجوّز أنْ يكونَ قد شُبِّه اقتدارُه تعالى على كلِّ شيءٍ وإيجادُه لِمَا يشاء بالخزائن المودَعةِ فيها الأشياء المعدَّة لأنْ يخرجَ منها ما شاء، فذكر ذلك على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، والمرادُ: ما مِن شيءٍ إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه.

وقيل: الأنسبُ أنَّه مَثَلٌ لعلمه تعالى بكلِّ معلومٍ، ووجهه - على ما قيل - أنَّه يبقى «شيء» على عمومه؛ لشموله الواجب والممكن، بخلاف القدرة، ولأنَّ «عند» أنسبُ بالعلم؛ لأنَّ المقدور ليس عنده إلا بعد الوجود.

وتُعقِّب بأنَّ كون المقدوراتِ في خزائن القدرة ليس باعتبار الوجودِ الخارجيِّ بل الوجود العلمي.

وقال قومٌ: الخزائنُ على حقيقتها، وهي الأماكن التي تُحفَظ فيها الأشياءُ وأنَّ للريح مكاناً وللمطر مكاناً، ولكلِّ مكانٍ حَفَظةٌ من الملائكة عليهم السلام، ولا يخفَى أنَّه لا يمكن مع تعميم الشيء.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ أي: ما نُوجِدُ وما نكوِّنُ شيئاً من تلك الأشياء مُلتبساً بشيء من الأشياء ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ أي: إلّا ملتبساً بمقدارٍ معيَّنٍ تقتضيه الحكمةُ وتستدعيه المشيئةُ التابعةُ لها من بين المقدورات الغير المتناهية، فإنَّ تخصيصَ كلِّ شيءٍ بصفةٍ معيَّنة وقَدْرٍ معيَّنٍ ووقتٍ محدودٍ دون ما عدا ذلك مع استواء الكلِّ في الإمكان[1] وصحةِ تعلُّق القدرة به لا بدَّ له من حكمةٍ تقتضي اختصاصَ كلٍّ من ذلك بما اختصَّ به، وهذا لبيان سرِّ عدم تكوُّن الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في الخزائن، وهو إمَّا عطفٌ على مقدَّر، أي: ننزِّله، وما ننزِّله إلا بقدرٍ إلى آخره، أو حالٌ مما سبق، أي: عندنا خزائنُ كلِّ شيءٍ، والحال أنَّا ما نُنزِّله إلا بقدرٍ إلى آخره. فالأوَّل لبيان سعةِ القدرة، والثاني لبيان بالغِ الحكمة. قاله مولانا شيخ الإسلام[2].

وقرأ الأعمشُ: «وما نرسله إلا» إلى آخره، وهي على ما في «البحر» قراءةُ تفسير؛ لمخالفتها لسواد المصحف[3]، والأَوْلَى في التفسير ما ذكرنا، وإنَّما عبَّر عن إيجاد ذلك وإنشائه بالتنزيل لِمَا أنَّه بطريق التفضُّل من العالم العلويِّ إلى العالم السفليِّ.

---

(١) في الأصل و(م): الأشكال، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٧٢ والكلام منه.

(٢) أبو السعود في تفسيره ٥/ ٧٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.

وقيل: لِمَا أنَّ فيه إخراج الشيء مما تميلُ إليه ذاتُه من العدم إلى ما لا تميلُ إليه ذاتُه من الوجود، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وكأنَّ مَن حمل الشيءَ على المطر غرَّه ظاهرُ التنزيل، فارتكب خلافَ ظاهره جدًّا، وكأنَّه لمَّا كان ذلك بطريق التدريجِ عبَّر عنه بالتنزيل، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

واستدلَّ بعضُ القائلين بشيئيَّةِ المعدوم على ذلك بهذه الآية، وقد بيَّن وجهَهُ والجوابَ عنه الإمامُ[١]، ونحن مع القائلين بالشيئيَّة.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ عطف على «جَعَلنا لكم فيها معايشَ» وما بينهما اعتراضٌ لتحقيق ما سبَقَ وترشيحِ ما لَحِقَ.

واللواقح جمع لاقِح، بمعنى: حامل، يقال: ناقةٌ لاقِحٌ، أي: حاملٌ، ووَصْفُ الرياحِ بذلك على التشبيه البليغ، شُبِّهت الريحُ التي بالسحاب الماطرِ بالناقة الحاملِ؛ لأنَّها حاملةٌ لذلك السحاب أو للماء الذي فيه. وقال الفرَّاء: إنَّها جمعُ لاقح على النسب كـ: لابن وتامر، أي: ذات لقاح وحمل[٢]، وذهب إليه الراغب[٣]، ويقال لضدِّها: ريحٌ عقيم، وقال أبو عبيدة: «لواقح» أي: مَلاقِح جمع مُلْقِحة كالطوائح في قوله:

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومُخْتَبطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ[٤]

أي: المطاوِح، جمع مُطيحَة، وهو مِن ألقَحَ الفحلُ الناقةَ: إذا ألقى ماءَه فيها لتحمل. والمرادُ مُلقِحات للسحاب أو الشجر، فيكونُ قد استُعير اللَّقح لصَبِّ المطر في السحاب أو الشجر، وإسنادُه إليها على الأوَّل حقيقةٌ وعلى الثاني مجازٌ، إذ المُلقي في الشجر السحابُ لا الريحُ.

---

(١) في مفاتيح الغيب ١٩/ ١٧٥.
(٢) ينظر معاني القرآن ٢/ ٨٧، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩.
(٣) مفردات الراغب (لقح).
(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٤٩ ونَسَب البيت فيه لنهشل، وتقدم ٥/ ٣٦٩.

والرياحُ اللواقحُ هي ريحُ الجنوب كما رواه ابنُ أبي الدنيا عن قتادة مرفوعاً[١]، وروى الديلميّ بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة نحوَه[٢]، وأخرجَ ابنُ جرير وغيرُه عن عُبيد بن عُمير قال: يبعثُ الله تعالى المبشِّرةَ فتقُمُّ الأرضَ قَمًّا، ثم يبعثُ المثيرةَ فتُثيرُ السحابَ فتجعله كسَفاً، ثم يبعثُ المؤلِّفةَ فتُؤَلِّفُ بينه فيجعلُه ركاماً، ثم يبعثُ اللواقحَ فتُلقِحُه فيمطر[٣].

وقرأ حمزة: «وأرسلنا الريح» بالإفراد[٤] على تأويل الجنس، فتكونُ في معنى الجمع، فلذا صحَّ جعلُ «لواقح» حالاً منها، وذلك كقولهم: أهلَكَ الناسَ الدينارُ الصُّفْرُ والدرهم البيضُ. ولا تخالِفُ هذه القراءة ما قالوه في حديث: «اللهمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»[٥] من أنَّ الرياح تُستعمَل للخير والريحَ للشرِّ، لِمَا قال الشهاب: مِن أنَّ ذلك ليس من الوضع، وإنما هو من الاستعمال، وهو أمرٌ أغلبيٌّ لا كُلِّيٌّ، فقد استُعمِلَت الريحُ في الخير أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أو هو محمولٌ على الإطلاق بأنْ لا يكونَ معه قرينةٌ كالصفة والحال، وأمَّا كونُ المرادِ بالخير الدعاءَ بطول العُمُر ليَرَى رياحاً كثيرةً، فلا وجْهَ له[٦].

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياحِ سحاباً ماطراً ﴿مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سُقْيا تَسقُون به مزارعَكم ومواشيكم، وهو على ما قيل أبلغُ من:

---

(١) عزاه لابن أبي الدنيا السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٦، وقال الشافعي في الأم ١/ ٢٢٥ ـ ونقله عنه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٦٤ ـ: وبلغني أن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما هبت جنوبٌ قطُّ إلا أسالت وادياً». وهو هكذا مرسل.

(٢) أخرجه الديلمي (٣٠٨١)، وابن أبي الدنيا في كتاب السحاب (١٣٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٠٤) و(٨٠٥)، والطبري ١٤/ ٤٦، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وضعَّف إسناده.

(٣) الطبري ١٤/ ٤٥، وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٧١٩)، ونقله المؤلف بواسطة الدر المنثور ٤/ ٩٦ والكلام منه.

(٤) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣، وقرأ بها خَلَف.

(٥) أخرجه الشافعي في مسنده ص٨١، وأبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبري في الكبير (١١٥٣٣)، وابن عدي ٢/ ٧٦٣، وأبو الشيخ في العظمة (٨٧٤)، والخطيب في تاريخ بغداد ٧/ ١٠٠، من حديث ابن عباس ﵄، وتقدم ٣/ ٧١.

(٦) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩.

سقيناكم، لِمَا فيه من الدلالة على جعل الماء مُعدًّا لهم ينتفعون به متى شاؤوا، وقد فرَّقَ بين أَسْقَى وسَقَى غيرُ واحدٍ، فقد قال الأزهريُّ: العربُ تقول لكلِّ ما كان من بطون الأنعام، أو من السماء، أو من نهرٍ جارٍ: أسقيتُه، أي: جعلتُ شِرْباً له وجعلتُ له منه مسقًى، فإذا كان للشَّفَةِ قالوا: سَقَى، ولم يقولوا: أَسْقَى[1]. وقال أبو عليٍّ: يقال: سقيتُه حتى رَوِيَ، وأسقيتُه نهراً: جعلتُه شرباً له[2]. وربما استعملوا سَقَى بلا همزة كأسقى، كما في قول لبيد يصفُ سحاباً:

أَقولُ وصوبُهُ مِنّي بعيدٌ ... يَحُطُّ الشَّثَّ من قُلَلِ الجبالِ
سَقَى قومي بني مَجْدٍ وأَسْقَى ... نُميراً والقبائلَ من هلالِ[3]

فإنَّه لا يريدُ بـ : سَقَى قومي، ما يَروي عِطاشَهم، ولكنْ يُريدُ: رزقَهم سقياً لبلادهم يخصبون بها، وبعيدٌ أنْ يسألَ لقومه ما يروي، ولغيرهم ما يخصبون به، ولا يرد على قول الأزهريِّ ـ أنَّه لا يقال: أسقَى، في سُقيا الشَّفَة ـ قولُ ذي الرُّمَّة:

وأُسْقيهِ حتى كادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... يُكلِّمُني أحجارهُ ومَلاعبُهْ[4]

قال الإمام[5]: لأنَّه أرادَ بـ : أُسقيه، أدعو له بالسقيا، ولا يقال في ذلك كما قال أبو عبيدة[6] سوى أَسْقَى.

هذا، وقد جاء الضميرُ هنا متَّصلاً بعد ضمير منصوبٍ متَّصلٍ أَعرفُ منه، ومذهب سيبويه في مثل ذلك وجوب الاتِّصال[7].

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٢٢٨، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥١.
(٣) البيتان في ديوان لبيد ص٩٣ وجاء في الأصل و(م): وصوته، بدل: وصوبه، واللثّ، بدل: الشَّثَّ، ونجد، بدل: مجد. والمثبت من الديوان والمصادر. قال شارح الديوان: صوبه: مصاب مطره، والشثّ: شجر من شجر السراة. مجد: ابنة تيم بن غالب، وهي أم كلاب وكعب وعامر بني ربيعة بن عامر بن صعصعة.
(٤) ديوان ذي الرُّمة ٢/ ٨٢١، ومجاز القرآن ١/ ٣٥٠.
(٥) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٧٧.
(٦) في (م): أبو عبيد، والمثبت الصواب، وقوله في مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.
(٧) ينظر الكتاب ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾ نَفَى سبحانه عنهم ما أثبتَه لجنابه بقوله جلَّ جلاله: (وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ) كأنَّه قيل: نحن القادرون على إيجاده وخَزْنِهِ في السحاب وإنزاله، وما أنتم على ذلك بقادرين، وقيل: المرادُ نَفْي حِفْظِهِ، أي: وما أنتم له بحافظين في مجاريه عن أنْ يغورَ، فلا تنتفعون به، وعن سفيان أنَّ المعنى: وما أنتم له بمانعين لإنزاله من السماء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلةِ لها ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها عنها، فالحياةُ صفةٌ وجوديةٌ، وهي كما قيل صفةٌ تقتضي الحسَّ والحركةَ الإرادية، والموتُ زوالُ تلك الصفة، وقال بعضهم: إنَّه صفةٌ وجوديَّةٌ تضادّ الحياة لظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك: ٢] وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك. وقد يُعَمَّم الإحياء والإماتةُ بحيث يشملُ[1] الحيوانَ والنباتَ مثل أنْ يقال: المرادُ إعطاءُ قوَّةِ النَّماء وسَلْبها.

وتقديمُ الضمير؛ للحصر، وهو إما توكيدٌ للأول، أو مبتدأٌ خبرُه الجملةُ بعده، والمجموع خبرٌ لـ «إنَّا»، وجوَّزَ كونُه ضميرَ فصلٍ، وردَّه أبو البقاء بوجهَين: أحدهما: أنَّه لا يدخُل على الخبر الفعلي. والثاني: أنَّ اللام لا تدخُل عليه[2].

وتعقب ذلك في «الدر المصون»: بأنَّ الثاني غلطٌ فإنَّه ورَدَ دُخولُ اللام عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢][3] ودخولُه على المضارع مما ذهب إليه الجرجانيُّ[4] وبعضُ النحاة، وجعلوا من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣] ولعلَّ ذلك المجوِّزَ ممن يَرَى هذا الرأيَ، والعجبُ من أبي البقاء، فإنه ردَّ ذلك هنا، وجوَّزه في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠] كما نقله في «المغني»[5].

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾ أي: الباقون بعد فناء الخَلْق قاطبةً، المالكون للملك عند

---

(١) في الأصل: يعم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٣.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٢٥.
(٣) الدر المصون ٧/ ١٥٥.
(٤) المغني ص٦٤٢، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨٩ والكلام منه.
(٥) الإملاء ٤/ ٢١٨-٢١٩، والمغني ص٦٤٢، وحاشية الشهاب٥/ ٢٩٠ والكلام منه.

انقضاءِ زمان الملكِ المجازيِّ، الحاكمون في الكلِّ أوّلاً وآخِراً، وليس لأحدٍ إلا التصرفُ الصوريُّ والملك المجازيُّ، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ المتأخِّر ليس بوارثٍ للمتقدِّم كما يتراءى من ظاهر الحال، وتفسيرُ الوارث بالباقي مرويٌّ عن سفيان وغيره، وفُسِّر بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ متِّعنا بأسْماعنا وأَبْصارنا وقُوّتنا ما أَحْيَيْتَنا، واجْعَلْهُ الوارِثَ منَّا»[1] وهو من باب الاستعارة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ مَن مات ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ مَن هو حيٌّ لم يَمُت بعدُ، أخرجه ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن ابن عباس[2]، وفي روايةٍ أُخرَى عنه «المستقدمين» آدمُ عليه السلام ومَن مضَى من ذُرِّيته، و«المستأخرين» مَن في أصلاب الرجال، ورُوي مثله عن قتادة، وعن مجاهد «المستقدمين» مَن مضَى من الأمم، و«المستأخرين» أمةُ محمدٍ ﷺ، وقيل: مَن تقدَّم ولادةً وموتاً ومَن تأخَّر كذلك مطلقاً، وهو من المناسبة بمكان، ورُوي عن الحسن أنَّه قال: مَن سَبَق إلى الطاعة ومَن تأخَّر فيها.

ورُوي عن مُعتمر أنَّه قال: بلَغَنا أنَّ الآية في القتال، فحدَّثتُ أُبيًّا، فقال: لقد نزلَت قبل أنْ يُفرضَ القتالُ[3]. فعلى هذا أخذ الجهاد في عموم الطاعة ليس بشيءٍ، على أنَّه ليس في تفسير ذلك بالمستقدمين والمستأخرين فيها كمالُ مناسبةٍ.

والمرادُ مِن عِلْمِهِ تعالى بهؤلاء علمُه سبحانه بأحوالهم، والآية لبيان كمالِ علمه جلَّ وعلا بعد الاحتجاج على كمال قدرته تعالى، فإنَّ ما يدلُّ عليها دليلٌ عليه ضرورةَ أنَّ القادر على كلِّ شيءٍ لابدَّ من علمه بما يصنعُه، وفي تكرير قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا) ما لا يخفَى من الدلالة على التأكيد.

---

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر، والحاكم ١/ ٥٢٣ و٢/ ١٤٢ من حديث أبي هريرة. وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٦٥) من حديث أنس بن مالك. وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٨٢ من حديث عائشة، وتقدم ٣/ ٣٢١، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٧، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٠ وتتمة الآثار فيه.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٦١-٢٢٦٢.

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابنُ ماجه والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ في «سننه» وجماعةٌ من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأةٌ تُصلِّي خَلْفَ رسولِ الله ﷺ حسناءُ من أحسن الناسِ، فكانَ بعضُ القوم يتقدَّمُ حتى يكونَ في الصف الأوَّلِ لئلا يراها، ويستأخرُ بعضُهم حتى يكونَ في الصف المؤخَّر، فإذا ركع نَظَر مِن تحت إبطَيْه، فأنزل الله تعالى الآية[1].

وأخرج عبد الرزاق وابنُ المنذر عن أبي الجوزاء أنَّه قال في الآية: ولقد عَلمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاةِ[2] ولم يَذْكُر مِن حديث المرأة شيئاً، قال الترمذي[3]: هذا أشبه أنْ يكونَ أصحَّ.

وقال الربيع بن أنس: حرَّض النبيُّ ﷺ على الصفِّ الأوَّل في الصلاة، فازدحَمَ الناس عليه وكان بنو عُذْرة دورُهم قاصيةٌ عن المسجد، فقالوا: نبيعُ دورَنا ونشتري دوراً قريبةً من المسجد، فأنزل الله تعالى الآية[4].

وأنت تعلم أنَّ العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومن هنا قال بعضُهم: الأَوْلَى الحملُ على العموم، أي: علمنا من اتَّصف بالتقدُّم والتأخُّر في الولادة والموت والإسلام وصفوفِ الصلاة وغير ذلك.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء، وتوسيط الضمير؛ قيل: للحصر، أي: هو سبحانه يحشرُهم لا غير، وقيل عليه: إنَّه في مثل ذلك يكونُ الفعل مُسلَّم الثبوت، والنزاعُ في الفاعل، وها هنا ليس كذلك، فالوجهُ جعلُه لإفادة التقوى.

وتعقِّب بأنَّ هذا في القصر الحقيقي غير مُسلَّم، وتصدير الجملة بـ «إنَّ» لتحقيق الوعد، والتنبيه على ما سبق يدلُّ على صحَّة الحكم. وفي الالتفات والتعرُّض

---

(١) مسند أحمد (٢٧٨٣)، وسنن الترمذي (٣١٢٢)، والمجتبى ٢/ ١١٨، وسنن ابن ماجه (١٠٤٦)، والحاكم ٢/ ٣٥٣، والسنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٩٨. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب جدًّا وفيه نكارة شديدة. واستظهرأن يكون من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذِكْر.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٤٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٧.

(٣) عند الحديث (٣١٢٢).

(٤) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٩٦، واللباب ١١/ ٤٤٩.

لعنوان الربوبيَّة إشعارٌ بعلَّته. وفي الإضافة إلى ضميره ﷺ دلالةٌ على اللطف به عليه الصلاة والسلام.

وقرأ الأعمش: «يَحْشِرُهم» بكسر الشين[١].

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ بالغُ الحكمة، متقنٌ في أفعاله. والحكمةُ عندهم عبارةٌ عن العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي.

﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ وَسِعَ علمُه كلَّ شيءٍ، ولعلَّ تقديمَ وصفِ الحكمة؛ للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء، وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ الجملةَ مستأنفَةٌ للتعليل.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: هذا النوع، بأنْ خَلَقنا أَصْلَه وأَوَّلَ فرد من أفراده خَلْقاً بديعاً منطوياً على خلق سائرِ أفرادِه انطواءً إجماليًّا.

﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: طين يابس، يُصَلْصِلُ، أي: يُصوِّتُ إذا نُقِرَ. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادة[٢]، ونقلَه في «الدر المصون»[٣] عن أبي عبيدة[٤]، ونَقَل عنه أبو حيان أنَّه قال: هو الطين المخلوطُ بالرمل[٥]. وهو روايةٌ عن ابن عباس، وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه الطينُ المرقَّق الذي يُصنَع منه الفخَّار، وفي أُخرى نحو الأول.

وقيل: هو من صَلْصَلَ: إذا[٦] أَنتَنَ، تضعيفُ صلَّ، يقال: صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ، إذا أَنتَنَ، وهذا النوع من المضعَّف مصدره[٧] يُفتَح أولُه ويُكسَر، كالزلزال، ووزنه عند جمهور البصريين فَعْلَال، وقال الفرَّاء وكثيرٌ من النحويين: «فَعْفَع» كُرِّرَت الفاءُ والعين ولا لامَ، وغلَّطَهم في «الدر المصون» لأنَّ أقلَّ الأصول ثلاثةٌ: فاء وعين ولام، وقال بعضُ البصريين والكوفيين: فَعْفَل، ونُسبَ أيضاً إلى الفرَّاء، بل قيل:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥١، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٨ للأعرج.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٨.

(٣) ٧/ ١٥٥.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٥٠.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٤٢، والنهر الماد ٥/ ٤٥٢.

(٦) في (م): إذ، والمثبت من الأصل وتفسير البيضاوي ٥/ ٢٩٠.

(٧) في (م): مصدر.

هو المشهورُ عنه، وعن بعضٍ آخر من الكوفيين أنَّ وَزْنه فعَّل بتشديد العين، والأصلُ صَلَّل مثلاً، فلمَّا اجتمع ثلاثةُ أمثالٍ أُبدلَ الثاني من جنس الفاء. وخصَّ بعضُهم هذا الخلاف بما إذا لم يختلَّ المعنى بسقوط الثالث ك: لَمْلَم، وكَبْكَبَ، فإنَّك تقول: لَمَّ، وكَبَّ، فلو لم يصحَّ المعنى بسقوطه نحو: سِمْسِم، فلا خلاف في أصالة الجميع[١]. وقال اليمني: ليس معنى قولهم: إنَّ الأصل صَلَّل أنَّه زيد فيه صادٌ، بل هو رباعي ك: زلزل، والاشتراكُ في أصل المعنَى لا يقتضي أنْ يكونَ منه، إذ الدليلُ دالٌّ على أنَّ الفاء لا تُزادُ، ولكن زيادةُ الحرف تدلُّ على المعنى[٢]. وذكر في «البحر» أنَّ «صلصال» بمعنى «مصلصل» كالقضقاض بمعنى المقضقض، فهو مصدرٌ بمعنى الوصف، ومثله كثير[٣].

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ من طينٍ تغيَّر واسودَّ من مجاورة الماء، ويقال للواحدة: حَمْأَةٌ، قال الليث: بتحريك الميم، ووهمَ في ذلك، وقالوا: لا نعرفُ الحمأة في كلام العرب إلا ساكنةَ الميم، وعلى هذا أبو عبيدة والأكثرون[٤].

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة لـ: «صَلصال» كما هو السنَّةُ الشائعةُ في الجارِّ والمجرور بعد النكرة، أي: من صلصال كائنٍ من حَمَأ، وقال الحوفيُّ: هو بدلٌ ممَّا قبله بإعادة الجارِّ، فكأنَّه قيل: خلقناه من حَمَأ ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مُصوَّر من سُنَّة الوجه وهي صورتُه، وأنشد لذلك ابنُ عباس قولَ عمِّه حمزةَ يمدحُ النبيَّ ﷺ:

أغرُّ كأنَّ البدرَ سُنَّةُ وَجْهِهِ ... جَلا الغيمَ عنه ضوؤُه فتبدَّدا[٥]

وأنشد غيره قول ذي الرُّمَّة:

تُرِيكَ سُنَّةَ وجهٍ غيرَ مُقْرفةٍ ... ملساءَ ليس بها خالٌ ولا نَدَبُ[٦]

---

(١) الدر المصون ٧/ ١٥٥-١٥٦.

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٩٠.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٤٢ ووقع في الأصل و(م): كالقضاض، بدل: كالقضقاض، وهو تحريف.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٥١، ونقله عنه ـ وقولَ الليث ـ بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٤٣.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٩٨، وأضواء البيان ٣/ ١٤٣.

(٦) ديوان ذي الرمة ١/ ٢٩، وفي هامش (م) عند قوله: غير مقرفة: من قرفت الجرح: قشرته. اهـ. منه.
وعند قوله: ندب (بالتحريك): أثر الجرح. اهـ. منه.

أو مصبوبٌ من: سَنَّ الماءَ، صبَّه، ويقال: شَنَّ بالشين أيضاً، أي: مفرغ على هيئة الإنسان كما تُفرغ الصُّوَرُ من الجواهر المذابة في القوالب، وقال قتادة ومعمر: المسنون: المنتن. قيل: وهو من سَنَنْتُ الحجَرَ على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيلُ بينهما سنين، ولا يكونُ إلا مُنتناً.

وقيل: هو من سَنَنتُ الحديدةَ على المِسَنِّ إذا غيرتَها بالتحديد. وأصلُه الاستمرار في جهة، من قولهم: هو على سَنَنٍ واحدٍ.

وهو صفةٌ لـ «حمأ»، ويجوز أنْ يكونَ صفةً لـ «صلصال» ولا ضيرَ في تقدُّم الصفة الغير الصريحةِ على الصريحة، فقد قال الرضي: إذا وُصِفَت النكرةُ بمفرَدٍ أو ظرفٍ أو جملة، قُدِّم المفرد في الأغلب، وليس بواجب، خلافاً لبعضهم، والدليل عليه قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢] لكنَّه يحتاجُ إلى نكتةٍ لا سيَّما في كلام الله تعالى؛ لأنَّه لا يعدلُ عن الأصل لغير مقتض، ولعلَّ النكتة هاهنا مناسبة المقدَّم لما قبله في أنَّ كلًّا منهما من جنس المادة، وقيل: إنما أُخِّرت الصفةُ الصريحة؛ تنبيهاً على أنَّ ابتداءَ مسنونيتهِ ليس في حال كونه صلصالاً بل في حال كونه حمأً، كأنَّه سبحانه أفرَغَ الحمأَ فصُوِّر من ذلك تمثالُ إنسانٍ أجوف، فيبس حتى إذا نُقِرَ صَوَّت، ثم غيَّره طوراً بعد طورٍ حتى نَفَخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسنُ الخالقين.

وقيل: المسنون: المنسوب، أي: نسب إليه ذريته، وهو كما ترى.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ هو أبو الجنِّ كما روي عن ابن عباس، ويُجمَع على جنان كحائط وحِيطان، وراعٍ ورُعيان. قاله الطبرسي، وقيل: هو إبليسُ، وروي عن الحسن وقتادة[١]، لكنْ في «الدر المصون» أنَّه هو أبو الجن[٢]، وقال ابنُ بحر: هو اسمٌ لجنس الجنِّ، وتشعُّب الجنس لما كان من فردٍ واحدٍ مخلوقٍ من مادةٍ واحدةٍ كان الجنسُ مخلوقاً منها.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «والجأن» بالهمزة[٣]. وانتصابه بفعل يفسره

---

(١) مجمع البيان ١٤/ ٢٤.

(٢) ينظر الدر المصون ٧/ ١٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٩١.

(٣) القراءات الشاذة ص٧١، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٣.

﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ وهو هنا أقوى من الرفع، للعطف على الجملة الفعلية ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل خَلْق الإنسان، قيل: ومن هنا يظهرُ جوازُ كون المراد بـ «المستقدمين» أحدَ الثقلين وبـ «المستأخرين» الآخر، والخطاب بقوله تعالى: «منكم» للكلِّ، وهو بعيدٌ غاية البعد.

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: الريح الحارَّةُ التي تقتل، وروي ذلك عن ابن عباس، وأكثرُ ما تهبُّ في النهار وقد تهبُّ ليلاً. وسُمِّيت سَموماً؛ لأنَّها بلطفها تنفذُ في مسامِّ البَدَن، ومنه السمُّ القاتل، ويقال: سُمَّ يومُنا يُسَمُّ، إذا هبَّت فيه تلك الريح. وقيل: السمومُ: نارٌ لا دخانَ لها، ومنها تكونُ الصواعق، ورَوَى ذلك أبو روق عن الضحاك، عن ابن عباس، فالإضافةُ من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ.

وقيل: السمومُ: إفراط الحرِّ، والإضافةُ من إضافة الموصوف إلى الصفة، والمرادُ: من النار المفرطة الحرارة.

وقد جاء في بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ النار التي خُلقَ منها الجانُّ أشدُّ حرارة من النار المعروفة؛ فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «رُؤيا المسلم جزءٌ من سبعينَ جزءاً من النبوَّة، وهذه النارُ جزءٌ من سبعين جزءاً من السَّموم التي خُلقَ منها الجانُّ» وتلا عليه الصلاة والسلام الآية[1]. واستُشكل الخلقُ من النار بأنَّه كيف تُخلَق الحياةُ فيها، وهي بسيطةٌ ليست متركِّبةً من أجزاء مختلفةِ الطبع، والحياةُ كالمزاج لا تكونُ إلا في المركبات، وقد اشترَط الحكماء فيها البنية المركَّبة؟

وأُجيبَ بمنع ذلك؛ لأنَّها إذا خُلقَت في المجرَّدات كالملائكة[2] على قولٍ والعقولِ العشرة[3] التي أثبتَها الفلاسفةُ، فبالطريق الأولَى البسائط، بل لا مانعَ

---

(١) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٨-٩٩، وقوله: «رؤيا المسلم جزءٌ من سبعين جزءاً من النبوة» أخرج نحوه أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث ابن عمر وله شواهد ينظر المسند.

وقوله: «وهذه النار جزءٌ. . .» أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤.

(٢) في الأصل: كما في الملائكة.

(٣) ليس في (م).

أيضاً أنْ تُخلَقَ في الأجزاء الفَرْدَة، خلافاً للمعتزلة حيث اشترطوا البنية المركَّبَةَ من الجواهر، وليس لهم سِوَى شُبَهٍ أوهن من بيت العنكبوت على أنَّ ذلك غيرُ واردٍ رأساً؛ لأنَّ معنى كون الجنِّ مخلوقةً من نارٍ أنَّها الجزء الأعظم الغالب عليها، كالتراب في الإنسان، فليست بسيطةً.

وقال بعضُهم: إنَّ الجنَّ أجسامٌ هوائيةٌ أو ناريةٌ بمعنى أنَّهم يغلب عليهم ذلك، وهم مركَّبون من العناصر الأربعةِ كالملائكة عليهم السلام على قول.

ثم إنَّ النقلَ الظاهرَ عن أكثر الفلاسفةِ إنكارُ الجنِّ، وليس ذلك مذهب جميعهم، فقد ذهب جمعٌ عظيمٌ من قدمائهم إلى وجودهم، وهو مذهبُ جمهورِ أرباب الملل وأصحابِ الروحانيَّات، ويسمُّونهم بالأرواح السفليَّة، وزعموا أنَّهم أسرعُ إجابةً من الأرواح الفَلَكيَّة إلا أنَّها أضعفُ.

ثم[1] اختلَفَ المثبتُون، فمنهم مَن زَعَم أنَّهم ليسوا أجساماً ولا حالِّين فيها، بل هم جواهر قائمةٌ بأنفسها لكنَّها أنواعٌ مختلفةٌ بالماهية، كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحلِّ، فبعضُها كريمةٌ حرَّةٌ مُحبَّةٌ للخيرات، وبعضُها دنيَّةٌ خسيسةٌ محبَّة للشرور، ولا يعلم عددَ أنواعهم إلا الله تعالى، ولا يَبعدُ أنْ يكونَ في أنواعها مَن يقدرُ على أفعالٍ شاقَّةٍ يعجزُ عنها قدرةُ البشر، وكذا لا يبعدُ لكلِّ نوعٍ منها تعلُّقٌ بنوعٍ مخصوصٍ من أجسام هذا العالم.

ومن الناس مَن زَعَم أنَّ هذه الأرواحَ البشرية والنفوسَ الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادَت قوَّةً وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانيَّة، فإذا اتَّفق حدوثُ بدنٍ مشابهٍ للبدن الذي فارَقَته[2]، فبسبب تلك المشابهة يحصُل لتلك النفس المفارقةِ تعلُّقٌ ما بهذا البدن، وتصيرُ معاونةً لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن اتَّفقَت هذه الحالةُ في النفوس الخيِّرة، سُمي ذلك المعيَّنُ مَلَكاً وتلك الإعانةُ إلهاماً، وإن اتَّفقَت في النفوس الشريرةِ، سُمِّي ذلك المعينُ شيطاناً وتلك الإعانةُ وَسْوسةً.

---

(١) في (م): نعم.
(٢) في (م): فاوقته.

ومنهم مَن قال: إنَّهم أجسامٌ، لكن اختلفوا، فقال بعضُهم: هي مختلفةُ الماهية وإن اشتركَت في صفة. وقال آخرون: إنَّها متساويةٌ في تمام الماهية.

وقد أطال الكلامَ في ذلك الإمامُ في تفسير سورة الجنِّ(١). وذَكَر في تفسير هذه الآية أنَّهم اختلفوا في الجنِّ، فقال بعضُهم: إنَّهم جنسٌ غير الشياطين، والأصحُّ أنَّ الشياطينَ قسمٌ من الجنِّ، فكلُّ مَن كان منهم مؤمناً فإنَّه لا يُسمَّى بالشيطان، وكلُّ مَن كان منهم كافراً سُمِّي بهذا الاسم، والدليلُ على صحَّة ذلك أنَّ لفظَ الجنِّ مشتَقٌّ من الاستتار، فكلُّ مَن كان كذلك، كان من الجنِّ(٢). اهـ.

وما ذكره من الأصحِّ هو الذي ذهب إليه المُعظَمُ، لكن ما ذكره من الدليل ضعيف.

وقال وهب: إنَّ من الجنِّ مَن يُولَد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومنهم مَن هو بمنزلة الريح لا يتوالدُون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين(٣).

وذكر ابن عربي: أنَّ تناسلَ الجنِّ بإلقاء الهواء في رحم الأُنثَى، كما أنَّ التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم، وأنَّهم محصورون في اثنَتي عشرةَ قبيلةً أصولاً؛ ثم يتفرَّعون إلى أفخاذٍ، ويقعُ بينهم حروبٌ، وبعضُ الزوابع يكونُ عند حربهم، فإنَّ الزوبعةَ تَقابلُ ريحَين تمنع كلٌّ صاحبتَها أنْ تخترقَها، فيؤدِّي ذلك إلى الدور، وما كلُّ زوبعةٍ حرب(٤).

وأخرج البيهقي في «الأسماء» وأبو نعيم والديلمي وغيرُهم بإسناد صحيح - كما قال العراقي - عن أبي ثعلبة مرفوعاً: «الجنُّ ثلاثةُ أصنافٍ، فصنفٌ لهم أجنحةٌ يطيرونَ في الهواء، وصنفٌ حيَّاتٌ وكلابٌ، وصنفٌ يَحُلُّون ويَظْعَنُون»(٥) وفي هذه

(١) مفاتيح الغيب ٣٠/ ١٤٨ وما بعد.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٨٠.
(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٦٥، وأبو الشيخ في العظمة (١٠٩٩).
(٤) الفتوحات المكية ١/ ١٣٢-١٣٣.
(٥) الأسماء والصفات (٨٢٧)، والحلية ٥/ ١٣٧، ومسند الفردوس (٢٦٤٣)، وتخريج أحاديث الإحياء ٣/ ٣٩، وأخرجه أيضاً ابن حبان (٦١٥٦)، والحاكم ٢/ ٤٥٦، وابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٥، والاستذكار ٢٧/ ٢٦٠-٢٦١، وقال عقبه: هذا إسناد جيد، رواته أئمة ثقات.

القسمة عندي إشكالٌ يظهرُ بالتدبُّر، ولعلَّ حاصلها أنَّ صنفاً منهم يغلبُ عليهم الطيرانُ في الهواء، وصنفٌ يغلبُ عليهم الحلُّ والارتحالُ، وصنفٌ يغلبُ عليهم المُكْثُ والتوطُّنُ ببعض المواطن، وعبَّر عنهم بالحيَّات والكلاب؛ لكثرة تشكُّلهم بذلك دون الصنفَين الآخرَين، فإنَّهم وإنْ جاز عليهم التشكُّل بالأشكال المختلفة؛ لأنَّهم من الجنِّ، وقد قالوا: إنَّهم قادرون على ذلك، وإنْ نُوزع فيه بأنَّه يستلزمُ أنْ لا تبقَى ثقةٌ بشيءٍ.

وردَّ بأنَّ الله تعالى قد تكفَّل لهذه الأمَّة بعصمتها عن أنْ يقعَ فيها ما يترتَّبُ عليه الريبةُ في الدين، ورفعُ الثقة بعالم وغيره، فاستحال شرعاً الاستلزام المذكور إلا أنَّهم لا يكثُرُ تشكُّلهم بذلك.

وربما يقال: إنَّ القدرة على التشكل إنما هي لصنفِ المتوطِّنين، وإثباتها في كلامهم للجنِّ يكفي فيه صحتُها باعتبار بعض الأصناف، لكنَّه بعيدٌ جدًّا، فليُتَدبَّر حقَّه. وقد قال الهيثمي[1]: إنَّ رجال هذا الحديثِ وُثِّقوا، وفي بعضهم ضعفٌ. فإنْ كان الحديثُ لذلك ضعيفاً، فلا قيل ولا قال، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وسيأتي إن شاء الله تعالى استيفاءُ الكلام في هذا المقام بعون الله تعالى الملك العلَّام[2].

ثم إنَّ مساقَ الآية الكريمة ـ على ما قيل ـ كما هو، للدلالة على كمال قدرته تعالى شأنه وبيانِ بَدْء خَلْق الثقلَين، فهو للتنبيه على مقدِّمةٍ يتوقَّفُ عليها إمكانُ الحشر، وهي قبول المواد للجمع والإحياء، فتدبَّر.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ نُصِبَ بإضمار: اذكر، وتذكيرُ الوقت لِمَا مرَّ مراراً من أنَّه أدخلُ في تذكير ما وَقَع فيه، وفي التعرُّض لوصف الربوبيَّةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعارٌ بعلَّة الحكم وتشريفٌ له ﷺ، أي: اذكر وقتَ قوله تعالى ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الظاهرُ أنَّ المراد بهم ملائكةُ السماء والأرض، وزَعَم بعضُ الصوفيَّة أنَّ المرادَ بهم ملائكةُ الأرض ولا دليلَ له عليه:

---

(١) مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦.
(٢) في سورة الجن آية (١).

﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ فيما سيأتي؛ وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنَّه تعالى فاعلٌ لذلك البتةَ من غير صارفٍ ولا عاطف ﴿بَشَرًا﴾ أي: إنساناً، وعبَّر به عنه؛ اعتباراً بظهور بَشَرته، وهي ظاهرُ الجلْد عكس الأَدَمةِ ـ خلافاً لأبي زيد، حيث عكَسَ، وغلَّطه في ذلك أبو العبَّاس[1] ـ وغيرِه من الصوف والوبر ونَحوهما، ولبعض أكابر الصوفيَّة وجهٌ آخرُ في التسمية سنذكره إن شاء الله تعالى في باب الإشارة.

ويستوي فيه الواحدُ والجمعُ وذكر الراغبُ أنَّه جاء جمعُ البشرة بَشَراً وأَبْشَاراً[2]، وقيل: أُريد جسماً كثيفاً يلاقي ويُباشر، أو جسيماً بادي البشرة ولم يُرد إنساناً وإنْ كان هو إياه في الواقع، وبعضُ مَن قال إنَّه المراد قال: ليس هذا صيغةَ عينِ الحادثة وقت الخطاب، بل الظاهرُ أنْ يكونَ قد قيل لهم: إنِّي خالقٌ خلقاً من صفته كيت وكيت، ولكن اقتصَرَ عند الحكاية على الاسم.

﴿مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ متعلِّقٌ بـ «خالق» أو بمحذوفٍ وقع صفة «بشراً» ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ تقدَّم تفسيرُه وإعرابُه، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ فعلتُ فيه ما يصيرُ به مستوياً معتدلاً مستعدًّا لفيضان الروح، وقيل: صوَّرتُه بالصُّوَر الإنسانية والخلقة البشرية. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النفخُ في العُرف: إجراءُ الريح من الفم أو غيرِه في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، والمرادُ هنا تمثيلُ إفاضةِ ما به الحياة بالفعل على المادة القابلةِ لها، وليس هناك نفخٌ حقيقةً.

وقال حجَّةُ الإسلام: عبَّر بالنفخ الذي يكونُ سبباً لاشتعال فتيلة القابل من الطين الذي تعاقبَت عليه الأطوارُ حتى اعتَدَل واستَوَى واستعدَّ استعداداً تامًّا بنور الروح؛ كما يكونُ سبباً لاشتعال الحطب القابل مثلاً بالنار عن نتيجته ومُسبَّبِهِ، وهو ذلك الاشتعال، وقد يُكنَى بالسبب عن الفعل المستفادِ الذي يحصُلُ منه على سبيل المجاز، وإنْ لم يكن الفعلُ المستفادُ على صورة الفعل المستفاد منه.

---

(١) ينظر تهذيب اللغة ١١/ ٣٦٠، ومفردات الراغب (بشر).

(٢) مفردات الراغب (بشر).

ثم هذا الروحُ عنده وكذا عند جماعةٍ من المحقِّقين ليس بجسم يَحُلُّ البدنَ حلولَ الماء في الإناء مثلاً، ولا هو عَرَضٌ يحلُّ القلبَ أو الدماغَ حلولَ السوادِ في الأسود والعِلْم في العالِم، بل هو جوهرٌ مجرَّدٌ ليس داخلَ البدن ولا خارجَه، ولا متَّصلاً به ولا مُنفصلاً عنه، ولهم على ذلك عدَّة أدلَّة:

الدليلُ الأولُ: أنَّ الإنسان يمكنُه إدراكُ الأمور الكلِّيَّة، وذلك بارتسام صُوَر المدركات في المدرك، فمحلُّ تلك الصورِ إنْ كان جسماً فإمَّا أنْ يحلَّ غيرَ منقسم أو منقسماً، والأوَّلُ محالٌ؛ لأنَّ الذي لا ينقسمُ من الجسم طرفٌ نقطيٌّ، والنقطةُ تمتنعُ أنْ تكونَ محلًّا للصور العقليَّة؛ لأنَّها مما لا يُعقَل حصولُ المزاج لها حتى يختلفَ حالُ استعدادها في القابليَّة وعدمها، بل إنْ كانت قابلةً للصور المذكورة وجبَ أنْ يكونَ ذلك القبولُ حاصلاً أبداً، ولو كان كذلك لكان المقبولُ[1] حاصلاً أبداً لِمَا أنَّ المبادي الفعَّالة المفارقة عامَّةُ الفيض، فلا يتخصَّص إلا لاختلاف أحوالِ القوابل، فلو كان القابلُ تامَّ الاستعدادِ لكان المقبولُ واجبَ الحصول، وحينئذٍ يكونُ جميعُ الأجسام ذوات النقط عاقلةً، ويجبُ أيضاً أنْ يبقَى البدنُ بعد الموت عاقلاً لبقاء محلِّ الصور على استعداده، وليس كذلك.

والثاني أيضاً محالٌ؛ لأنَّ الحالَّ في المنقسِم منقسمٌ، فيلزمُ أنْ تكونَ تلك الصورةُ منقسمةً أبداً، وذلك محالٌ لوجوهٍ مقرَّرة فيما بينهم.

الدليلُ الثاني: ما عوَّل عليه الشيخ وزَعَم أنَّه أجلُّ ما عنده في هذا الباب، وهو أنَّه يُمكننا أنْ نعقلَ ذواتنا، وكلُّ مَن عقل ذاتاً، فله ماهيةُ ذلك الذات؛ فإذن لنا ماهيةُ ذاتنا، فلا يخلو إمَّا أنْ يكونَ تعقُّلنا لذاتنا لأجل صورةٍ أخرى مساويةٍ لها تحصل فيها، وإمَّا أنْ لا يكونَ بل لأجل أنَّ نفسَها حاضرةٌ لها، والأولُ محالٌ؛ لأنَّه يُفضي إلى الجمع بين المثلَين، فتعيَّن الثاني، وكلُّ ما ذاته حاصلٌ لذاته كان قائماً بذاته، فإذن القوَّةُ العاقلةُ وهي الروح والنفسُ الناطقةُ قائمةٌ بنفسها، وكلُّ جسمٍ أو جسمانيٍّ فإنَّه غيرُ قائمٍ بنفسه، وأكْثَرَ تلامذتُه من الاعتراضات وأجاب عنها.

---

(١) في الأصل: القبول.

الدليلُ الثالث: ما عوَّل عليه أفلاطون، وهو أنَّا نتخيَّل صوراً لا وجودَ لها في الخارج، ونُميِّزُ بينها وبين غيرها، فهذه الصور أمورٌ وجوديةٌ ومحلُّها يمتنع أنْ يكونَ جسمانيًّا، فإنَّ جملة بدننا بالنسبة إلى الأمور المتخيلة لنا قليلٌ من كثير، فكيف ينطبقُ الصور العظيمة على المقادير الصغيرة؟ وليس يمكنُ أنْ يقال: إنْ بعضَ تلك الصور منطبعةٌ في أبداننا وبعضها في الهواء المحيط بنا، إذ الهواءُ ليس من جملة أبداننا ولا آلة لنفوسنا في أفعالها أيضاً، وهو ظاهرٌ، فإذن محلُّ هذه الصور شيءٌ غيرُ جسمانيٍّ، وذلك هو النفسُ الناطقةُ.

الدليل الرابع: لو كان محلُّ الإدراكات شيئاً جسمانيًّا لصحَّ أنْ يقومَ ببعض ذلك الجسم علمٌ، وبالبعض الآخر جهلٌ، فيكونُ الشيء الواحدُ عالماً جاهلاً بشيءٍ واحدٍ في حالةٍ واحدةٍ.

الدليل الخامس: أنَّ الروح لو كان منطبعاً في جسم مثل قلبٍ أو دماغٍ لكان إمَّا أنْ يعقلَ دائماً ذلك الجسم، أو لا يعقلُه كذلك، أو يعقلُه في وقت دون وقت، والأقسام باطلةٌ فالقول بانطباعه باطل، وبيانُ ذلك أنْ تعقُّل الروح لذلك الجسم إمَّا أنْ يكونَ لأجل أنَّ الآلة حاضرةٌ عنده، أو لأنَّ صورةً أخرى من تلك الآلةِ تحصلُ له، فإنْ كان الأولُ فالروح إنْ أمكنَه إدراك تلك الآلةِ وإدراك نفسِ مقارنتها له، فما دامَت الآلةُ مقارنةً وجَبَ أنْ يعقلها الروح، فيكونُ دائمَ الإدراك لتلك الآلة، وإن امتَنَع على الروح إدراكُ الآلة وَجَب أنْ لا يُدركَها أبداً، فظاهر أنَّه لو كان تعقُّلُ الروح لتلك الآلة لأجل المقارنة لوجب أنْ يعقلَها دائماً أو لا يعقلها كذلك، وكلا القسمَين باطلٌ، وأمَّا إنْ كان تعقُّله لها لأجل حصول صورةٍ أُخرَى منها، فالروح إنْ كانت في تلك الآلة والصورة الثانية حاصلة فيه يكونُ الصورة الثانية للآلة حالَّةً أيضاً في الآلة؛ لأنَّ الحالَّ في الحالِّ في الشيء حالٌّ في ذلك الشيء، فيلزمُ الجمعُ بين المثلَين، وإنْ لم يكن الروح في تلك الحالة بل مجرَّدة، فذلك المطلوب. واستدلَّ بغير ذلك أيضاً.

وقد ذكر الإمامُ في «المباحث»[1] من الأدلَّة اثني عشَرَ دليلاً ـ منها ما ذُكر ـ

(١) قوله: المباحث، ليس في الأصل، والمثبت من (م)، واسمه: المباحث الشرقية في العلم الإلهي والطبيعي. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٥٧٧.

وأطالَ الكلامَ في ذلك جرحاً وتعديلاً وعوَّل في إثبات هذا المطلب على غير ذلك فقال: والذي نعوِّلُ عليه أنْ نقول: إنَّ كلَّ عاقلٍ يجدُ من نفسه أنَّه الذي[1] كان قبل، فهويَّتُه إمَّا أنْ تكونَ جسماً، وإمَّا أنْ تكونَ قائمةً بالجسم، وإمَّا أنْ لا تكونَ شيئاً من الأمرَين، والأوَّلُ باطل[2].

أما أولاً: فلأنَّ الإنسان قد يكونُ عالماً بهويَّته عند ذُهوله عن جملة أعضائه الظاهرةِ والباطنةِ.

وأما ثانياً: فلأنَّ الأبعاضَ الجسمانيةَ دائمةُ التحلُّل والتبدُّل؛ لأنَّ الأسباب المحالة من الحرارةِ الخارجيةِ والداخليةِ والحركات النفسانية والبدنية مما لا تختصُّ بجزءٍ دون جزءٍ، والبدن مركَّبٌ من الأعضاء المركَّبة، وهي مركَّبةٌ من الأعضاء البسيطةِ، مثل اللحم والعظم، فيكون كلُّ جزءٍ من اللحم مثلَ الآخر في الاستعداد للتحلُّل، فإذا كانت الأجزاءُ كلُّها متساويةً في ذلك كانت نسبةُ المحلِّلات[3] إلى كلِّ واحدٍ من الأجزاء كنسبته إلى الجزء الآخر، فلم يكن عروضُ التحلُّل لبعضٍ أَوْلَى من عروضه للبعض الآخر، فثَبتَ أنَّ هويَّةَ الإنسان ليست جسماً وليست أيضاً قائمةً بالجسم؛ لأنَّ القائمَ به يجبُ أنْ يتبدَّل عند تبدُّله لاستحالة انتقال الأعراضِ، فكان يلزمُ أنْ لا يجدَ الإنسانُ من نفسه أنَّه الذي كان موجوداً قبل، ولمَّا كان هذا العلمُ من العلوم البديهيَّة علمنا أنَّ هويَّةَ الإنسان ليست جسماً ولا محتاجةً إليه، فهو جوهرٌ مجرَّدٌ، وهو المطلوب.

ولا يلزمُ أنْ يكونَ لسائر الحيوانات هذا الجوهر؛ لأنَّا وإنْ عرفنا أنَّها تعلمُ هويَّات أنفسها لكنْ لا نعرفُ أنَّها تعلمُ من أنفسها أنَّها هي التي كانت موجودةً قبل.

ويمكن أنْ يحتجَّ أيضاً على هذا المطلب بأنَّا قد دَلَلْنا على أنَّ المُدرِك بجميع أصنافِ الإدراكات لجميع المُدْرَكات شيءٌ واحدٌ في الإنسان، فنقول: ذلك المُدرِك إمَّا أنْ يكونَ جسماً، أو قائماً به، أو لا ولا، والأوَّلُ ظاهرُ الفساد؛ لأنَّ الجسم من حيث هو جسمٌ لا يمكنُ أنْ يكونَ مُدرِكاً.

(١) تكررت في (م).
(٢) في (م): بالباطل.
(٣) في الأصل: المحلات.

والثاني أيضاً باطلٌ؛ لأنَّ تلك الصفةَ إما أنْ تكونَ قائمةً بجميع أجزاء البدن أو ببعضٍ دون بعض، والأوَّلُ باطلٌ، وإلا لكان كلُّ جزءٍ من أجزاء البدن مبصراً سامعاً متخيِّلاً متفكِّراً عاقلاً، وليس كذلك، وبطلَ أيضاً أنْ يقال: إنَّ بعضَ الأعضاء قامت به القوَّة المدرِكةُ لجميع هذه المدرَكات؛ لأنَّه يلزمُ أنْ يكونَ في البدن عضوٌ واحدٌ سامع مبصرٌ متخيِّلٌ متفكِّر عاقل، ولسنا نجدُ ذلك فينا، وبهذا ظهرَ أيضاً فسادُ ما قيل: لعلَّ القوَّةَ المدرِكة لجميع المدركات قائمةٌ بجسمٍ لطيفٍ محصورٍ في بعض الأعضاءِ لظهور أنَّا لا نجد من أبداننا موضعاً مُشتمِلاً على هذا الجسم اللطيف السامع المبصر المتخيِّل المتفكِّر العاقل.

وليس لأحدٍ أنْ يقول: هب أنَّكم لا تعرفون هذا الموضع، لكنَّ ذلك لا يدلُّ على عدمه، لأنَّا نقول: إنَّا قد دَلَّلنا على أنَّا السامعون المبصرون المتخيِّلون العاقلون، فلو كان بعضُ الأجسام ـ سواء كان جزءاً من البدن أو محصوراً في جزءٍ منه ـ موصوفاً بالقوَّة المتعلِّقة بجميع هذه المدرَكات لم يكن حقيقتُنا وهويتُنا إلا ذلك الجسم، فلو لم نعرفه لَكُنَّا لا نعرف حقيقةَ أنفسنا، وذلك باطلٌ، فثبت أنَّ الموصوف بالقوَّة المدرِكة لجميع المدرَكات ليس جسماً أصلاً ولا قائماً به، فهو جوهرٌ مجرَّدٌ، وهو المطلوب.

وذكر هؤلاء الذاهبون إلى التجرُّد أنَّه متعلِّقٌ بالبدن كتعلُّق العاشق ـ عشقاً جِبلِّيًّا إلهاميًّا ـ بالمعشوق، حتى إنَّه لا ينقطعُ ذلك التعلُّق ما دام البدنُ مستعدًّا لأنْ يتعلَّق به، بل تعلُّق الروح أقوَى من هذا التعلُّق بكثير، وهو تعلُّقُ التدبير والتصريف.

وإضافتُه إلى ضميره تعالى في الآية؛ لأنَّه سبحانه وتعالى خلقَه من غير واسطةٍ تجري مجرى الأصل والمادة، أو للتشريف.

وسئل حجَّةُ الإسلام عن ذلك فقال: لو نطقَت الشمسُ وقالت: أفضتُ على الأرض من نوري، يكونُ ذلك صدقاً، ويكون معنى النسبة: أنَّ النورَ الحاصل للأرض من جنس نور الشمس بوجهٍ من الوجوه. وإنْ كان في غاية من الضعف بالنسبة إليه.

وقد عرفتَ أنَّ الروح منزَّهٌ عن الجهة والمكان، وفي قوَّته العلمُ بجميع الأشياء، وذلك مضاهاةٌ ومناسبةٌ، ولذلك خُصَّ بالإضافة، وهذه المضاهاة ليست للجسمانيَّات أصلاً.

وليس لأحدٍ أنْ يقولَ: إنَّ في تنزيه الروح عن المكان وصفاً له بصفة الله تعالى شأنه وتقدَّسَت صفاتُه، بل بأخصِّ صفاته سبحانه، ويلزمُ من ذلك عدمُ التميُّزِ، فقد قالوا: كما يستحيلُ اجتماعُ جسمَين في مكان واحدٍ يستحيلُ أنْ يجتمَع اثنان لا في مكان، لأنَّه إنما استحال اجتماع جسمَين في مكان؛ لأنَّه لو اجتمعا لم يتميَّز أحدُهما عن الآخر، فكذلك لو وُجد اثنان كلٌّ واحدٍ منهما ليس في مكان، لم يحصل التميزُ والفرقُ بينهما، ولذا قالوا: لا يجتمعُ سوادان في محلٍّ واحدٍ حتى قيل: المثلان كالضِّدَّين؛ لأنَّا نقول: التميُّز غيرُ منحصرٍ بالمكان بل يكون به لجسمَين في مكانين وبالزمان كسوادَين في جوهر واحدٍ في زمانين، وبالحدِّ والحقيقة كالأعراض المختلفة في محلٍّ واحدٍ مثل الطعم واللون والبرودة والرطوبة في جسم واحدٍ، فإنَّ تميُّزَ كلٍّ منها عن الآخر بذاته لا بمكان ولا زمان، ومثل ذلك العلم والإرادة والقدرة، فإنَّ تميُّزَ كلٍّ أيضاً بذاته وإن كان الجميع لشيءٍ واحدٍ، فإذا تُصوِّرَ أعراضٌ مختلفةُ الحقائق في محلٍّ واحدٍ، فبأَنْ يُتصَوَّر أشياء مختلفةُ الحقائق بذواتها في غير مكان أَولَى.

وكونُ الوجود لا في مكان أخصَّ صفاته سبحانه في حيِّز المنع، بل الأخصُّ أنَّه جل شأنه قَيُّومٌ، أي: قائمٌ بذاته، وكلُّ ما سواه قائمٌ به، وأنَّه تبارك وتعالى موجودٌ بذاته، وكلُّ ما سواه تعالى موجودٌ لا بذاته، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدمُ، وإنَّما لها الوجودُ من غيرها على سبيل العارية، والوجودُ له سبحانه ذاتيٌّ غيرُ مستعارٍ، فالقيوميَّة ليس إلا لله عزَّ وجلَّ. انتهى.

وهذا الذي قالوه من تجرُّد الروحِ خلافُ ما عليه جمهورُ أهل السنة.

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي: قد خاض سائرُ الفرق غمرةَ الكلام في الروح، فما ظَفِروا بطائلٍ ولا رجعوا بنائل، وفيها أكثرُ من ألف قولٍ وليس فيها ـ على ما قال ابن جماعة ـ قولٌ صحيح، بل كلُّها قياساتٌ وتجلِّياتٌ عقليَّة، وجمهورُ أهل السنة على أنَّها جسمٌ لطيفٌ يخالفُ الأجسام بالماهية والصفة، متصرِّفٌ في البدن، حالٌّ فيه حلولَ الزيت في الزيتون والنار في الفحم، يعبَّرُ عنه بـ: أنا وأنت[1]. وإلى ذلك ذهب إمامُ الحرمين.

---

(١) فيض القدير ٢/ ٣٤٣، وقول ابن جماعة منه.

وقال اللقاني: جمهورُ المتكلِّمين على أنَّها جسمٌ مخالفٌ بالماهية للجسم الذي تتولَّد منه الأعضاء، نورانيٌّ عُلْويٌّ خفيفٌ، حيٌّ لذاته،نافذ في جوهر الأعضاء، سارٍ فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الفحم، لا يتطرَّق إليه تبدُّلٌ ولا انحلالٌ، بقاؤه في الأعضاء حياةٌ، وانفصالُه عنها إلى عالم الأرواح موتٌ.

وزَعَم بعضُهم أنَّ الإنسان هو هذا الهيكلُ المحسوس وروحُه عَرَضٌ قائمٌ به، وعزاه بعضُ المتأخِّرين من المعاصرين إلى جمهور المتكلِّمين، وجعله وامتناع اتِّحاد القابل والفاعل دليلاً على إبطال كون العبد خالقاً لأفعاله.

وقد ردَّ الإمام في التفسير ذلك الزعم، وارتَضَى ما نقلناه عن الجمهور فقال: إنَّهم قالوا: لا يجوزُ أنْ يكون الإنسان عبارةً عن هذا الهيكل المحسوس(١)؛ لأنَّ أجزاءَه أبداً في الذبول والنمو، والزيادة والنقصان، والاستكمال والذوبان، ولاشكَّ أنَّ الإنسان من حيث هو هو أمرٌ باقٍ من أوَّل عُمُرِه إلى آخره، وغيرُ الباقي غيرُ الباقي، فالمشارُ إليه عند كلِّ أحدٍ بقوله: أنا، وجب أنْ يكون مغايراً لهذا الهيكل.

ثم اختلفوا عند ذلك في أنَّ المشارَ إليه بـ : أنا، أيُّ شيءٍ هو؟ والأقوالُ فيه كثيرةٌ إلَّا أنَّ أَسدَّها تحصيلاً وتلخيصاً أنَّها أجزاءٌ جسمانيَّة ساريةٌ في هذا الهيكل سريانَ الماء في الورد، والدهن في السمسم، ثم إنَّ المحقِّقين منهم قالوا: إنَّ الأجسام التي هي باقيةٌ من أول العمر إلى آخره مخالفةٌ بالماهية لِمَا تَركَّب منه الهيكل، وهي حيَّةٌ لذاتها، مدركةٌ لذاتها، نورانيَّةٌ لذاتها، فإذا خالطَت ذلك وصارَت ساريةً فيه، صارَ مستنيراً بنورها متحرِّكاً بتحريكها، ثم إنَّه أبداً في الذوبان والتحلُّل والتبدُّل، وتلك الأجزاء لمخالفتها له بالماهية باقيةٌ بحالها، وإذا فَسَد انفصلَت عنه إلى عالم القدس إن كانت سعيدةً أو عالم الآفات إنْ كانت شقيةً(٢). اهـ.

ومنه يعلم بطلانُ الاستدلال على تجرُّد الروح بإبطال كون الإنسان عبارةً عن الهيكل المحسوس كما يقتضيه كلامُ صاحب «الهياكل»(٣) حسبما يدلُّ عليه كلامُ

(١) في هامش (م): وبه يرد على بعض المعاصرين أيضاً، تدبَّر. اهـ منه.
(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٩١- ٩٢بنحوه.
(٣) تقدم ٤/ ٩٤.

شارحه الجلال حيث قال في الهيكل الثاني: أنت لا تغفلُ عن ذاتك أبداً، وما جزءٌ من أجزاء بدنك إلا تنساه أحياناً ولا يُدرَكُ الكلُّ إلا بأجزائه، فلو كنتَ أنت هذه الجملةَ ما كان يستمرُّ شعورُك بذاتك مع نسيانها، فأنت وراء هذا البدن. وقال الجلال: فلا تكون النفسُ جسماً أصلاً؛ لأنَّ غايةَ ذلك إثباتُ أنَّ النفسَ وراء هذا البدن لا إثباتُ أنَّها مع ذلك مجرَّدةٌ، لجواز أنْ تكونَ جسماً لطيفاً كما علمتَ.

وزعم القاضي أنَّ مذهب أكثر المتكلِّمين أنَّ الروح عَرَضٌ، وأنَّها هي الحياةُ، واختاره الأستاذ أبو إسحاق ولم يبالِ بلزوم قيام العَرَض بالعَرَض.

واعترض هذا الزاعم القولَ بالجسميَّة، بأنَّها لو كانت جسماً لجاز عليها الحركةُ والسكونُ كسائر الأجسام، فيلزمُ أنْ تكونَ كلُّها أرواحاً، ولوجب أنْ يكون للروح روحٌ أخرى لا إلى نهاية.

وفيه أنَّه إنَّما يلزمُ ما ذكر أنْ لو كان الجسم إنَّما كان روحاً لكونه جسماً، وليس فليس، فإنَّه إنَّما كان روحاً لمعنًى خصَّه الله تعالى به.

وقد علمتَ أنَّ القائل بالجسميَّة يقولُ: إنَّه حيٌّ لذاته، فلا يلزمُ التسلسل، وبينه وبين الجسم عنده علاقةٌ بحسب بخار لطيفٍ يُعبَّر عنه بالروح الحيواني، وعرَّفه في «الهياكل» بأنَّه جسمٌ لطيفٌ بخاريٌّ يتولَّدُ من لطائف الأخلاط وينبعثُ من التجويف الأيسر من القلب، وينبثُّ في البدن بعد أنْ يكتسبَ السلطانَ النوري من النفس الناطقة، ولولا لطفُه لما سَرَى، وهو مطيَّةُ تصرُّفات النفس، ومتى انقطَعَ انقطع تصرُّفُها.

وقال بعضهم: إنَّه اعتدال مزاجِ دم القلب، والأمرُ في ذلك سهل.

وذهب بعضُ المحقِّقين إلى أنَّ الروح تُطلَقُ على الروح التي ذُكِرَ أنَّها جسمٌ لطيفٌ سارٍ في البدن سريانَ ماء الورد في الورد، وهو غيرُ الروح الحيواني، وعلى أمرٍ ربانيٍّ شريفٍ له إشراقٌ على ذلك الجسم اللطيف، ولعلَّ ذلك هو سببُ حياة الروح بالمعنى الأوَّل وإدراكها ونورانيتها، ويُعبَّر عنه بالروح الأمري، وهو المراد من الروح في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية، ويطلقون كثيراً على الروح بالمعنى الأوَّل النفسَ الإنسانيَّةَ، وعليها بالمعنى الثاني النفسَ الناطقة.

والذي يقال فيه: إنَّه جوهرٌ مجرَّدٌ ليس جسماً ولا جسمانِياً، ولامتصلاً ولا منفصلاً، ولا داخلَ العالم ولا خارجَه، وأنَّه نورٌ من أنوار الله تعالى القائمة لا في أين، من الله عزَّ وجلَّ مَشرقُه، وإليه سبحانه مغربُه، هو الروح بهذا الإطلاق.

واختلفوا في أنَّ حدوثها هل هو قبل الأبدان أو بعدها، فقال حجَّة الإسلام: الحقُّ أنَّ الأرواح حدثَت عند استعدادِ الجسدِ للقبول، كما حدثَت الصورةُ في المرآة بحدوث الصقالة، وإنْ كان ذو الصورة سابقَ الوجود على الصقيل. وقد قال بذلك من الفلاسفة أرسطو ومتَّبعوه، واستدلُّوا عليه بأنَّها لو كانت موجودةً قبل الأبدان؛ فإمَّا أنْ تكونَ واحدةً أو كثيرةً، وعلى الأوَّل إما أنْ تتكثَّر عند التعلُّق بالبدن أَوْ لا، فإنْ لم تتكثَّر كانت الروحُ الواحدةُ روحاً لكلِّ بدنٍ، ولو كان كذلك لكان ما عَلِمَه إنسانٌ علمه الكلُّ، وما جهله جهله، وذلك محالٌ، وإنْ تكثَّرت لزم انقسامُ ما ليس له حجمٌ، وهو أيضاً محال.

وعلى الثاني لابدَّ أنْ يمتازَ كلٌّ واحدةٍ منها عن صاحبتها إمَّا بالماهية أو لوازمها أو عوارضها، والأوَّلان محالان؛ لأنَّ الأرواحَ متَّحدةٌ بالنوع، والواحدُ بالنوع يَتَساوَى جميعُ أفراده بالذاتيات ولوازمها. وأمَّا العوارض فحدوثُها إنَّما هو بسبب المادة، وهي هنا البدنُ فقبله لا مادة، فلا يمكن أنْ يكون هناك عوارض مختلفةٌ.

وبعد أنْ ساق حجَّةُ الإسلام الدليلَ على هذا الطَّرْز، قيل له: ما تقول في خبر: «إنَّ الله تعالى خلَق الأرواحَ قَبْل الأجسام بألفي عام»[1]. وقوله ﷺ: «أنا أوَّل الأنبياء خَلْقاً، وآخرُهم بعثاً، وكنتُ نبيًّا وآدمُ بين الماء والطين»[2].

فقال رحمه الله تعالى: نعم هذا يدلُّ بظاهره على تقدُّم وجود الروحِ على الجسد، ولكنَّ أمرَ الظواهر هيِّنٌ لسعة بابِ التأويل، وقد قالوا: إنَّ البرهان القاطع لا يُدرأ بالظاهر بل يُؤوَّل له الظاهرُ كما في ظواهر الكتاب والسنة في حقِّ الله تعالى

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٨٧ من حديث علي رضي الله عنه، وسيأتي الكلام عليه عند الآية [٨٥] من سورة الإسراء، قال السيوطي في الحاوي ١/ ٥٧٢-٥٧٣: ورد بإسناد ضعيف جداً فلا معوَّل عليه، والمعول عليه في ذلك الحديث الصحيح: «إن الله قدر المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». اهـ.

(٢) سلف ٨/ ١٤٠.

المنافية لِمَا يدلُّ عليه البرهان القطعي، وحينئذٍ يقال: لعلَّ المراد من الأرواح في الخبر الأوَّل الملائكةُ عليهم السلام، وبالأجساد أجسادُ العالم من العرش والكرسيِّ والسماوات ونحوها، وإذا تفكَّرت في عِظَم هذه الأجساد لم تكَدْ تستحضر أجسادَ الآدميين، ولم تفهمها من مُطلق لفظ الأجساد، ونسبةُ أرواحِ البشر إلى أرواح الملائكة عليهم السلام كنسبة أجسادهم إلى أجساد العالم، ولو انفتحَ عليك بابُ معرفةِ أرواح الملائكة لرأيت الأرواح البشريةَ كسراجٍ اقتبس من نارٍ عظيمة طَبقَت العالم، وتلك النارُ هي الروح الأخير من أرواح الملائكة.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا أوَّلُ الأنبياء خَلْقاً» فالخلقُ فيه بمعنى التقدير دون الإيجاد، فإنَّه ﷺ قبل أنْ يُولدَ لم يكن مخلوقاً موجوداً، ولكنَّ الغايات سابقةٌ في التقدير ولاحقةٌ في الوجود، وهو معنى قول الحكيم: أوَّلُ الفكر آخرُ العمل، فالدارُ الكاملةُ أوَّلُ الأشياء في حقِّ المهندس مثلاً تقديراً وآخرها وجوداً، وما يتقدَّم على وجودها من ضَرْب اللَّبن ونحوه وسيلةٌ إليها ومقصودٌ لأجلها، ولمَّا كان المقصودُ من فطرة الآدميين إدراكَهم لسعادة القُرْب من الحضرة الإلهية، ولم يُمكنهم ذلك إلا بتعريف الأنبياء عليهم السلام كانت النبوَّة مقصودةً، والمقصودُ كمالها وغايتُها لا أوَّلها، وتمهيدُ أوَّلها وسيلةٌ إلى ذلك، وكمالُها به ﷺ، فلذلك كان أوَّلاً في التقدير وآخراً في الوجود.

وقولُه عليه الصلاة والسلام: «كنت نبيًّا وآدمُ بين الماء والطين» إشارةٌ إلى هذا أيضاً، وأنَّه لم يشأ سبحانه خَلْق آدم إلا لينتزعَ الصافي من ذُرِّيته، ولم يزل يُستصفى تدريجاً إلى أنْ بلَغَ كمال الصفاء، ولا يُفهَم هذا إلا بأنْ يعلم أنَّ للدار مثلاً وجودَين، وجوداً في ذهن المهندس حتى كأنَّه ينظر إلى صورتها، ووجوداً خارجَ الذهن مسبباً عن الوجود الأوَّل، فهو سابق عليه لا محالة.

وحينئذٍ يقال: إنَّ الله تعالى يُقدِّر أوَّلاً ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً، والتقديرُ يُرسَم في اللوح المحفوظ كما يُرسَم تقديرُ المهندس أوَّلاً في لوحٍ أو قرطاس، فتصير الدار موجودةً بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون سبباً للوجود الحقيقي، وكما أنَّ هذه الصورة تَرتَسِمُ في لوح المهندس بواسطة القلم، والقلمُ يجري على وفق العلم، بل العلمُ يُجريه، كذلك تقديرُ صُوَرِ الأمور الإلهيَّة تَرتسمُ أوَّلاً في اللوح

المحفوظِ بواسطة القلم الإلهي، والقلم يجري على وفق العلم السابق الأزلي. واللوحُ عبارةٌ عن موجودٍ قابلٍ لنقش الصُّوَر، والقلمُ عبارةٌ عن موجودٍ منه تَفيضُ الصورُ على اللَّوح، وليس من شرطهما أنْ يكونا جسمَين، ولا يَبْعدُ أنْ يكونَ قلمُ الله تعالى ولوحُه لائقين لأصبعه ويده، وكلُّ ذلك على ما يليقُ بذاته الإلهيَّة، ويُقدَّس عن حقيقة الجسميَّة.

وقد يقال: إنَّهما جوهران روحانيان؛ أحدُهما متعلِّمٌ وهو اللوح، والآخر مُعلِّم وهو القلم، وقد أُشير إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] فإذا فهمْتَ معنى الوجود، فقد كان نبيُّنا ﷺ قَبْلُ بالمعنى الأوَّل منهما دون المعنى الثاني. اهـ.

واعترض على الاستدلال من وجوهٍ، منها ما هو جارٍ على رأي الفلاسفة المستدلِّين بذلك أيضاً، ومنها ما لا اختصاص له برأيهم:

الأوَّل: لِمَ لا يجوز أنْ يقال: إنَّها كانت قبلَ الأبدان واحدة ثم تكثَّرت، ولا يقال: الكلُّ لو كان واحداً وكان قابلاً للانقسام يلزمُ أنْ تكونَ وحدتُه اتِّصاليةً فيكونَ جسماً؛ لأنَّا نقول: مسلَّمٌ أنَّ كلَّ ما وحدتُه اتِّصالية فإنَّه واحدٌ قابلٌ للانقسام، ولا نسلِّمُ أنَّ كلَّ واحدٍ قابل للانقسام، فوحدتُه اتِّصالية؛ لأنَّ الموجبةَ الكلِّيَّة لا تنعكس كنفسها.

الثاني: سلَّمنا أنَّها كانت متكثِّرةً، لكن لِمَ قلتمُ لابدَّ أنْ يختصَّ كلٌّ بصفةٍ مميزةٍ؛ لأنه لو كان التميُّز للاختصاص بأمرٍ ما لكان ذلك الأمر أيضاً متميِّزاً عن غيره، فإمَّا أنْ يكون تميزُه بما به تميزه، فيلزمُ الدور، أو بثالثٍ فيلزمُ التسلسل؛ ولأنَّ التميزَ لا يختصُّ بشيءٍ بعينه إلا بعد تميزه، فلو كان تميزُ الشيء عن غيره باختصاصه بشيء لزم الدور.

الثالث: سلَّمنا أنَّه لابدَّ من مميز، فَلِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ بذاتيٍّ؟ وبيانُه ما بيَّنوه من اختلاف النفوس بالنوع.

الرابع: سلَّمنا أنَّها لا تتميز بشيءٍ من الذاتيَّات، فَلِمَ لا يجوزُ أنْ تتميز بالعوارض؟ قولكم: إنَّ حدوثها بسبب المادة وهي هنا البدنُ، ولا بدنَ، فنقول: لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ هناك بدنٌ تتعلَّقُ به وقَبلَه آخرُ، وهكذا، ولا مخلص من هذا

إلا بإبطال التناسخ فتتوقَّفُ[1] حجَّةُ إثباتِ حدوث الأرواح على ذلك الإبطال، مع أنَّ الحكماء بنَوا ذلك على الحدوث حيث قالوا بعد الفراغ من دليله: إذا ثَبَت حدوثُ النفس فلابدَّ وأنْ يكونَ لحدوثها سببٌ، وذلك هو حدوث البدن، فإذا حدَثَ البدنُ وتعلَّقَت به نفسٌ على سبيل التناسخ، وثَبَت أنَّ حدوثَ النفس سببٌ لأَنْ يحدُثَ عن المبادي المفارقة نفسٌ أخرى، فحينئذٍ يلزمُ اجتماع نفسَين في بدن فيجيءُ الدور.

الخامس: سلَّمنا عدمَ تعلُّقها ببدنٍ قبلُ، لكنْ لِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ موصوفةً بعارضٍ باعتباره كانت متميِّزةً، ثم يكونُ كلُّ عارضٍ بسبب عارضٍ آخر لا إلى أول.

السادس: المعارضةُ وهي أنَّ الأرواح عند الفريقَين باقيةٌ بعد المفارقة، ولا يكونُ تمايزُها بالماهية ولوازمها، بل بالعوارض، لكن الأرواح الهيولانية التي لم تكتسب شيئاً من العوارض إذا فارقَت لا يكونُ فيها شيءٌ من العوارض سوى أنَّها كانت متعلِّقةً بأبدانٍ، فإنْ كفى هذا القدْرُ في وقوع التمايز، فلْيَكْفِ أيضاً كونها بحيث يحدثُ لها بعد التعلُّق بأبدانٍ متمايزةٍ، والجواب[2] قولهم: لِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ قبلُ واحدةً فتكثَّرَت، قلنا: لا يجوزُ؛ لأنَّ[3] كلَّ ما انقسم وَجَب أنْ يكونَ جزؤه مخالفاً لكلِّه ضرورةَ أنَّ الشيءَ مع غيره ليس هو لا مع غيره، فتلك المخالفة إنْ كانت بالماهية أو لوازمها وجَبَ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ من الأجزاء مخالفاً للآخر بالماهية، فتكونُ تلك الأجزاء قد كانت متميزةً أبداً وكانت موجودةً قبلَ التعلُّق.

فهذه الأمورُ المتعلِّقةُ الآن بالأبدان كانت متميزةً قبلَ التعلُّق بها، وإن كانت المخالفةُ لا بالماهية ولا بلوازمها، فلا بدَّ أنْ يكون الجزءُ أصغرَ مقداراً من الكلِّ، وإلا لم يكن أحدُهما أولَى بأنْ يكونَ جزء الآخر من العكس، فثبت أنَّ كلَّ واحدٍ قابل للانقسام، فلا بدَّ أنْ يكونَ ذا مقدار.

سلَّمنا أنَّ المجرَّد لا يمكن أنْ ينقسمَ بعدَ وحدتِهِ، لكن تعيُّنات تلك الأجزاء إنَّما تحدثُ بعدَ الانقسام الحاصل بعد التعلُّق بالبدن، فيكونُ تعيُّنُ كلِّ واحدٍ من

(١) في (م): فتوقف.
(٢) ليست في (م).
(٣) في الأصل: إن، والمثبت من (م).

تلك الأجزاء بعدَ التعلُّق بالبدن، فيكون تعيُّنُ كلِّ واحدةٍ من تلك النفوس من حيث هي حادثاً، وهو المطلوب.

وقولُهم: لِمَ قلتُم: إنَّ الامتياز لا يوجدُ إلا عند الاختصاصِ بوصفٍ؟ قلنا: يجابُ بنحو ما ذكروه في تشخُّص التشخص.

وقولُهم: لِمَ قلتُم: إنَّ النفوس لا يجوزُ أنْ تتمايزَ بالصفات المقومة؟ قلنا: هَبْ أنَّ الأمرَ كما قلتموه إلا أنَّا لا نعرفُ بالبديهة أنَّ كلَّ نوعٍ من أنواعها فإنَّها مقولةٌ على أشخاص عدَّة بالضرورة، فإنَّا نعلمُ أنَّه ليس يجبُ أنْ يكونَ كلُّ إنسان مخالفاً لجميع الناس في الماهية، وإذا وُجِد في كلِّ نوعٍ من أنواعها شخصٌ فقد تمَّت الحجَّةُ.

وقولهم: إنَّ هذه الحجةَ مبنيَّةٌ على إبطال التناسخ. قلنا: ليس كذلك؛ لأنَّا إذا وجدنا من النوع الواحدِ شخصين، علمنا أنَّ تلك الشخصيةَ ليست معلولةً لتلك الماهيةِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان كذلك كان نوعُه في شخصه، ولمَّا لم يكن كذلك علمنا أنَّ شخصيتَه ليست من لوازم ماهيته، فهي إذن لعلَّةٍ خارجيَّةٍ، وقد عرفت أنَّ العلة هي المادة، ومادةُ النفس هي البدنُ، فإذن تعيُّنها لابدَّ وأنْ يكون للتعلُّق ببدنٍ معيَّنٍ، فتكون لا محالة غيرَ متعينةٍ قبل ذلك البدن، فهي معدومةٌ قبلَه.

وبهذا يظهرُ أنَّ كلَّ ما نوعُه مقولٌ على كثيرين بالفعل فهو محدَثٌ، فاتَّضح من هذا أنَّه متى سلم كون النفوسِ متَّحدةً في النوع يلزمُ حدوثُها، وأنَّه لا يحتاجُ في ذلك إلى إبطال التناسخ ليجيءَ الدورُ السابق.

قولهم: لم لا يجوز أنْ تكونَ موصوفةً بعارضٍ إلخ؟ قلنا: لا يجوزُ أنْ يكونَ امتيازها بذلك؛ لأنَّ تميز النفس المعيَّنة عن غيرها حكمٌ معيَّنٌ لابدَّ له من علَّةٍ معيَّنةٍ، وتلك العلَّة لا يمكنُ أنْ تكونَ حالَّةً فيها؛ لأنَّ ذلك متوقِّفٌ على امتيازها عن غيرها، فلو توقَّف ذلك الامتيازُ على حلول ذلك الحالِّ لزم الدورُ، فإذن تلك العلَّة أمرٌ عائدٌ إلى القابل، وقبل البدن لا قابلَ، فلا تميُّزَ. والمتكلِّمون يُبطلون مثل ما ذُكِرَ بلزوم التسلسل الذي يبطله برهان التطبيق.

وأما المعارضة، فالجواب عنها بأنَّ النفوس الهيولانية يتميَّزُ بعضُها عن البعض أوَّلاً بسبب تعلُّقها بالقابل المعين، ثم إنَّه يلزمُ من تعيُّن كلِّ واحدٍ منها شعورها

بذاتها الخاصة، وقد بُيِّن أنَّ شعورَ الشيء بذاته حالةٌ زائدةٌ على ذاته، ثم إنَّ ذلك الشعورَ يستمرُّ، فلا جَرَمَ يَبْقَى الامتياز.

والحاصلُ أنَّ الامتياز لابدَّ وأنْ يحصلَ أوَّلاً بسببٍ آخرَ حتى يحصلَ لكلٍّ من النفوس شعورٌ بذاته الخاص، وذلك السببُ في النفوس الهيولانية تعلُّقها بالأبدان، وأمَّا التي قبلَ الأبدان فلو تميَّزت لكان المميِّزُ سوى الشعور؛ حتى يترتَّبَ هو عليه، وقد بُيِّنَ أنَّه ليس هناك مميِّزٌ، فلا جَرَم استَحَالَ حصولُ التميُّز، وظهر الفرق، والله تعالى الموفِّق.

وقد استدل صاحب «المعتبر»(١) على حدوثها بأنَّها لو كانت موجودةً قبل الأبدان لكانت إما متعلِّقةً بأبدانٍ أُخَرَ أَوْ لا، والأوَّل باطلٌ؛ لأنَّه قولٌ بالتناسخ، وهو باطل؛ لأنَّ أنفسَنا لو كانت من قبلُ في بدنٍ آخرَ لكنَّا نعلم الآن شيئاً من الأحوال الماضية، ونتذكَّرُ ذلك البدن، وليس فليس. والثاني كذلك؛ لأنَّها تكونُ حينئذٍ معطلةً ولا معطل في الطبيعة، وهو دليلٌ بجميع مقدماته ضعيفٌ جدًّا فلا تعتبره.

وزعم قومٌ من قدماء الفلاسفة قِدَمَها، وأوردوا لذلك أموراً:

الأولُ: أنَّ كلَّ ما يحدثُ فلا بدَّ أنْ يكونَ له مادةٌ تكونُ سبباً لأَنْ يصيرَ أَولَى بالوجود بعد أنْ كان أَولَى بالعدم، فلو كانت النفوسُ حادثةً لكانت مادية، وليس فليس.

الثاني: أنَّها لو كانت حادثةً لكان حدوثُها لحدوثِ الأبدان، لكنَّ الأبدانَ الماضية غيرُ متناهيةٍ، فالنفوسُ الآن غيرُ متناهيةٍ لكن ذلك محالٌ؛ لكونها قابلةً للزيادة والنقصان، والقابلُ لهما متناهٍ، فهي الآن متناهيةٌ، فإذن ليس حدوثُ الأبدان علةً لحدوثها، فلا يتوقَّفُ صدورُها عن عللها على حدوث أمرٍ، فتكون قديمة.

الثالث: أنَّها لو لم تكن أزليَّةً لم تكن أبديَّةً؛ لِمَا ثبت أنَّ كلَّ كائنٍ فاسدٌ، لكنَّها أبديَّةٌ إجماعاً، فهي أزليَّةٌ، ويرد عليهم أنَّه إنْ أُريد بكونها ماديَّةً أنَّ حدوثها يكونُ

---

(١) المعتبر في المنطق لأبي بركات هبة الله بن علي بن ملكا، العلامة الفيلسوف شيخ الطب، كان يهوديًا، ثم أسلم في أواخر عمره، توفي سنة نيف وخمسين وخمس مئة. السير ٢٠/ ٤١٩.

متوقِّفاً على حدوث البدن، فالأمرُ كذلك، وإنْ أُريد به أنَّها تكونُ منطبعةً في البدن فَلِمَ قلتُم: إنَّه لو توقَّفَ حدوثُها على حدوث البدنِ وَجَب أنْ تكونَ منطبعةً فيه، وأيضاً للمانع أنْ يمنعَ فسادَ لزومِ كونِ النفوس الآن غيرَ متناهيةٍ، والمقدمةُ القائلة: إنَّ كلَّ قابلٍ للزيادة والنقصان متناهٍ، ليست من الأوَّليات قطعاً كما هو ظاهر، فإذن لا تصحُّ إلاّ ببرهان، وهو لا يتقرَّر إلا فيما يحتمل الانطباق على ما بُيِّن في محلِّه.

وقولهم: لو لم تكن أزليَّةً لم تكن أبديَّةً، قضيةٌ لا حجَّةَ لهم على تصحيحها فلا تُقبل، ثم إنَّ كونَ النفوس متَّحدةً بالنوع مما قد صرَّح به جماعةٌ من المتكلِّمين كالغزالي وغيرِه، وإليه ذهب الشيخُ من الفلاسفة إلا أنَّه لم يأتِ لذلك بشبهة فضلاً عن حجَّة، واستدلَّ غيرُه بأمور:

الأول: أنَّ النفوس مشتركةٌ في أنَّها نفوسٌ بشريةٌ، فلو انفصَلَ بعضُها عن بعضٍ بمقوِّمٍ ذاتيٍّ مع هذا الاشتراك، لزم التركيبُ فكانت جسمانيةً.

الثاني: أنَّا نرى الناسَ مشتركين في صحَّة العلم بالمعلومات، وفي صحَّة التخلُّق بالأخلاق، فالنفوسُ متساويةٌ في صحَّة اتِّصافها بالأفعال الإدراكيَّة والتحريكيَّة، وذلك يُوجب أنْ تكونَ متساويةً مطلقاً؛ لأنَّا لا نعقل من صفاتها إلا كونَها مدركةً ومتحرِّكةً بالإرادة، وهي متساويةٌ فيهما، فهي إذن متساويةٌ في جميع صفاتها المعقولة، فلو اختلَفت بعد ذلك لكان اختلافُها في صفاتٍ غير معقولة، ولو فتحنا هذا الباب لزم تعذُّر الحكم بتماثل شيئَين؛ لجواز اختلافهما في غير معقول عندنا، وذلك يؤدِّي إلى القدح في تماثل المتماثلات.

الثالث: أنَّه بُيِّن في محلِّه أنَّ كلَّ ماهيةٍ مجرَّدةٍ لابدَّ وأنْ تكونَ عاقلةً لحقيقةِ ذاتها، لكنَّ نَفْسَ زيدٍ مثلاً مجرَّدةٌ، فهي عاقلةٌ لذلك، ثم إنَّها لا تعقلُ إلا ماهية قويَّة على الإدراك والتحريك، فإذن ماهيتُه هذا القدرُ، وهو مشترَكٌ بينه وبين سائر النفوس بالأدلة التي ذكروها في بيان أنَّ الوجودَ مشترَكٌ فيكونُ حينئذٍ تمامُ ماهيته مقولاً على سائر النفوس، ويمتنعُ أنْ يكونَ هذا المشترَكُ فصل مقوّم في غيره، إذ هو غيرُ محتاجٍ إليه في زيد إلى فصلٍ يُميِّزُه عن غيره، فلا يحتاجُ في غيره أيضاً إلى فصل، فإنَّ الطَّبيعة الواحدةَ لا تكونُ محتاجةً غنيةً معاً، فثبَت الاتفاقُ في النوع.

وهي أدلةٌ واهيةٌ:

أما الأول: فلقائل أنْ يقولَ: لِمَ لا يجوزُ أنَّ هذه النفوسَ وإن كانت مختلفةً بالنوع فهي غيرُ متشاركةٍ في الجنس، فلا يلزمُ من ذلك الاختلافِ كونُها مركَّبةً؟ والاشتراكُ في كونها نفوساً بشريةً ونحوِه يجوزُ أنْ يكونَ اشتراكاً في أمورٍ لازمةٍ لجوهرها، ولا تكون مقوّمةً لها، فتكون مختلفةً في تمام ماهياتها، ومشتركةً في اللوازم الخارجية، مثل اشتراك الفصول المقوّمة لأنواع جنسٍ واحدٍ في ذلك الجنس، فلا يلزمُ التركيب، ولو سلَّمنا أنَّ هذه الأوصافَ ذاتيةٌ، فلِمَ لا يجوزُ أنْ تكونَ النفوسُ مركَّبةً في ماهياتها مع عدم كونها جسمانيًا، فالسوادُ والبياض مثلاً مندرجان تحت جنسٍ، وهو اللون، فيكونُ كلٌّ منهما مركَّباً لا تركيباً جسمانيًا، ومثل هذا يقال هنا، كيف لا وقد قالوا: الجوهرُ مقولٌ على النفس والجسم.

وأما الثاني فمدارُه الاستقراءُ، ويضعف ذلك لوجهَين: أحدُهما: أنَّه لا يمكننا أنْ نحكمَ على كلِّ إنسانٍ بكونه قابلاً لجميع المدرَكات. وثانيهما: أنَّه لا يمكننا أيضاً أنْ نحكمَ على النفس التي علمنا قبولَها لصفةٍ أنَّها قابلةٌ لجميع الصفات، كيف وضبط الصفات غيرُ ممكن.

وأما الثالث: فهو يقتضي أنْ يكونَ جميعُ المفارقات نوعاً واحداً وهو مما لا سبيلَ إليه، وذهب شِرْذمة إلى اختلافها بالنوع، وهذا المعتبرُ عند صاحب «المعتبر» وطوَّلَ الكلامَ في ذلك، وأحسنُ ما عوَّل عليه في الاستدلال له اختلافُ الناس في العلم والجهل، والقوَّة والضعف، والغضب والتحمُّل، وغير ذلك، فقال: ليس ذلك لاختلاف المزاجِ؛ لِمَا أنَّا نجدُ متساويين مزاجاً مختلفين أخلاقاً وبالعكس، وأيضاً أنَّ نفسَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام تبلغُ قوَّتها إلى حيث تكونُ قويَّةً على التصرُّف في هيولَى هذا العالم، ومعلومٌ أنَّ ذلك ليس لقوَّة مزاجه، فليس ذلك الاختلافُ إلا لاختلافِ الجواهر.

وأنت تعلمُ أنَّ هذا ليس في الحقيقة من البراهين، بل هو من الإقناعات الضعيفة، فتدبَّر جميعَ ما ذكرناه، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةٌ للكلام في هذا المقام(١)، وهو لَعَمْرُ الله تعالى طويلُ الذيل، وبالجملة إنَّ الوقوفَ على حقيقة

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ...﴾ [الإسراء: ٨٥].

الروحِ أمرٌ عَسِرٌ، والطريق إليه وَعِرٌ، وقد جعل الله سبحانه ذلك من أعظم آياته الدالَّة على جلالة ذاته، وكمال صفاته، فسبحانه من إلهٍ ما أجلَّه، ومن ربٍّ ما أكمله.

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أمرٌ للملائكة عليهم السلام بالسجود لآدمَ عليه السلام على وَجْه التحيةِ والتعظيم، أو لله تعالى، وهو عليه السلام بمنزلة القِبْلةِ حيث ظهرَت فيه تعاجيبُ آثارِ قدرته عزَّ وجلَّ كقول حسان:

أَلَـيْس أَوَّلَ مَـنْ صـلَّـى لـقـبـلـتـكـم   وأَعـلـمَ الـنـاسِ بـالـقـرآن والـسُّـنَـنِ[1]

وفي أمرهم بالوقوع، أي: السقوط، دليلٌ على أن ليس المأمورُ به مجرَّدَ الانحناء كما قيل، بل السجودُ بالمعنى المتبادر.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقَه فسوَّاه فنفخ فيه من روحه فسجدَ له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشذَّ منهم أحدٌ ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بحيث لم يتأخَّر في ذلك أحدٌ منهم عن أحدٍ، بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقتٍ واحدٍ، هذا على ما ذهب إليه الفرَّاء والمبرّد من دلالة «أجمعين» على الاجتماع في وقت الفعل، وقال البصريون: إنَّها كـ: «كل»، لإفادة العموم مطلقاً. ومن هنا منع تعاطفهما، فلا يقال: جاء القومُ كلُّهم وأجمعون، وردُّوا على ذلك بقوله تعالى حكايةً عن إبليس: (لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) لظهور أنْ لا اجتماعَ هناك.

وردَّه في «الكشف» بأنَّ الاشتقاقَ من الجمع يقتضيه؛ لأنَّه ينصرفُ إلى أكمل الأحوال، فإذا فهمت الإحاطة من لفظٍ آخَرَ وهو «كل» لم يكن بدٌّ من كونه في وقتٍ واحدٍ، وإلا كان لغواً، والردُّ بالآية منشؤه عدمُ تصوُّر وجه الدلالة. ومنه يعلم وجه فساد النظر بأنَّه لو كان الأمرُ كذلك لكان حالاً لا تأكيداً، فالحقُّ في المسألة مع الفرَّاء والمبرِّد، وذلك هو الموافق لبلاغة التنزيل، وزَعَم البصريون أنَّه إنما أكّد بتأكيدَين؛ للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص.

وزعم غيرُ واحدٍ أنَّه لا يؤكَّدُ بـ «أجمع» دون «كل» اختياراً، والمختارُ وفاقاً

---

(١) نسبه لحسان البيضاويُّ في تفسيره ٢/ ١٣١، وأبو السعود ١/ ٨٧، والشهاب في حاشيته على البيضاوي ٢/ ١٣١، وتقدم ٢/ ١٠٨.

لأبي حيان جوازه؛ لكثرة وروده في الفصيح، ففي القرآن عدَّةُ آياتٍ من ذلك[1] وفي الصحيح: «فله سلبه أجمع»[2]، «فصلُّوا جلوساً أجمعون»[3] ولعلَّ منشأ الزعم وجوبُ تقديم «كلّ» عند الاجتماع.

ويردُّه أنَّ النفسَ يجبُ تقديمها على العين إذا اجتمعا، مع جواز التأكيد بالعين على الانفراد، وما ذكروه من وجوب تقديمِ «كلّ» إنَّما هو بناءً على ما علمت من الحقِّ لرعاية البساطة والتركيب.

هذا، ثم إنَّه قد تقدَّم الكلامُ في تحقيق أنَّ سجودَهم هذا هل ترتَّب على ما حُكيَ من الأمر التعليقيِّ كما يقتضيه هذه الآية الكريمة، أو على الأمر التنجيزيِّ[4]، كما يستدعيه بعضُ الآيات. فتذكَّر.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متَّصلٌ إما لأنَّه كان جنيًّا مُفرداً مغموراً بألوف من الملائكة، فَعُدَّ منهم تغليباً، وإما لأنَّ من الملائكة جنساً يتوالدون يقالُ لهم: جنٌّ، وهو منهم، وإما لأنَّه مَلَكٌ لا جنيٌّ، وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] مؤولٌ كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء بناءً على أنَّه من الإثبات نَفْيٌ، ومن النفي إثباتٌ، وهو الذي تميلُ إليه النفس، فإنَّ مطلقَ عدم السجود قد يكونُ مع التردُّد، وبه عُلِمَ أنَّه مع الإباء والاستكبار.

وجوِّز أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعاً، فجملةُ «أَبَى» إلخ متَّصلةٌ بما قبلها، ووَجه ذلك بأنَّ «إلا» بمعنى «لكنَّ» و«إبليس» اسمُها، والجملةُ خبرُها، كذا قيل. وفي «الهمع»: إنَّ البصريين يُقدِّرون المنقطعَ بـ «لكنَّ» المشدَّدة ويقولون: إنَّما يُقدَّر بذلك؛ لأنَّه في حكم جملةٍ منفصلةٍ عن الأولى، فقولك: ما في الدار أحدٌ إلَّا

---

(١) منها قوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، و﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]، و﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٢٣)، ومسلم (١٧٥٤) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٥٠٢)، والبخاري (٧٢٢)، ومسلم (٤١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) تقدم ٢/١١٦.

حماراً، في تقدير: لكنَّ فيها حماراً، على أنَّه استدراكٌ يُخالفُ ما بعد «لكنَّ» فيها ما قبلها غير أنَّهم اتَّسعوا فأجروا «إلَّا» مجرى «لكنَّ»، لكنْ لمَّا كانت لا يقعُ بعدها إلا المفرد ـ بخلاف «لكنَّ» فإنَّه لا يقع بعدها إلا كلامٌ تامٌّ ـ لقَّبوه بالاستثناء تشبيهاً بها إذا كانت استثناءً حقيقةً، وتفريقاً بينها وبين «لكنَّ».

والكوفيون يُقدِّرونه بـ «سوى».

وقال قومٌ منهم ابن يسعون: «إلا» مع الاسم الواقع بعدها في المنقطع يكونُ كلاماً مستأنفاً، وقال في قوله:

.... وما بالرَّبْع مِن أَحَدِ

إلا الأَوَارِيَّ[1] ....

«إلا» فيه بمعنى «لكنَّ» والأَوَارِيَّ اسمٌ لها منصوبٌ بها، والخبرُ محذوفٌ، كأنَّه قال: لكن الأَوَارِيَّ بالربع، وحذف خبرَ «إلَّا» كما حذف خبر «لكنَّ» في قوله: ولكنَّ زنْجيًّا عظيمَ المشافِرِ[2]. اهـ.

والظاهرُ منه أنَّ البصريين وإنْ قدَّروه بـ «لكنَّ» لا يُعربونه هذا الإعراب، فهو تقديرُ معنًى لا تقديرُ إعرابٍ، ولعلَّ التوجيهَ السابق مبنيٌّ على مذهب ابنِ يسعون إلا أنَّه لم يُصرِّح فيه بورود الخبر مصرَّحاً به، نعم صرَّح بعضُهم بذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمَّةٌ لهذا المبحثِ في هذه السورة[3]، فافهم.

---

(١) هذان جزءان من بيتي شعر للنابغة الذبياني هما:

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُها عَيَّت جواباً وما بالرَّبعِ من أحد
إلا الأَوَارِيَّ لأياً ما أُبَيِّنُها والنُّؤيُ كالحوض بالمظلومةِ الجَلَدِ

وهما في ديوانه ص٣٠. قوله: أصيلاناً تصغير أُصْلان جمع أصيل، والأَوَاريّ: جمع آري وهو محبس الدابة، واللَّأيُ: الشدة والإبطاء، والنُّؤيُ: حفيرة حول الخباء؛ لئلا يدخله ماء المطر. والجَلَد: الأرض الصلبة. ينظر الصحاح (أرا) (أصل) (جلد) (نأي).

(٢) البيت للفرزدق، وهو بهذا اللفظ في المحتسب ٢/ ١٨٢، والخزانة ١٠/ ٤٤٤، وبلفظ: زنجيًّا غليظاً مشافره، في الأغاني ٢١/ ٣٣٢، وشواهد المغني ص ٧٠١، والخزانة ١٠/ ٤٤٦، وبلفظ: زنجيٌّ غليظ المشافر، في الكتاب٢/ ١٣٦، والمقرب ١/ ١٠٨، والإنصاف ١/ ١٨٢، وشرح ابن يعيش ٨/ ٨٢، وفي البيت خلاف ينظر الخزانة.

(٣) عند تفسير الآية رقم (٥٨).

ووَجْهُ الانقطاع ظاهرٌ؛ لأنَّ المشهور أنَّه ليس من جنس الملائكة عليهم السلام، والانقطاعُ ـ على ما قال غيرُ واحدٍ ـ يتحقَّق بعدم دخوله في المستثنَى منه، أو في حكمه.

وما قيل: إنَّه حينئذٍ لا يكونُ مأموراً بالسجود فلا يلزمُ[١]، والاعتذارُ عنه بأنَّ الجنَّ كانوا مأمورين أيضاً، واستغنى بذكر الملائكةِ عليهم السلام عنهم وأنَّه معنى الانقطاع وتوجُّهِ اللَّوم = مِن ضيق العَطَن.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال مَن قال: فماذا قال الربُّ تعالى عند إبائه؟ فقيل: قال سبحانه: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ أي: أيُّ سببٍ لك، كما يقتضيه الجواب، وقولُه تعالى: ما منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ أي: في أن لا تكون ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لِمَا خلقتُ مع أنَّهم هم ومنزلتُهم في الشرف منزلتُهم، وكأنَّ في صيغة الاستقبال إيماء إلى مزيد قُبحِ حاله، ولعلَّ التوبيخَ ليس لمجرَّد تخلُّفه عن أولئك الكرام بل لأُمورٍ حُكِيَت متفرِّقةً؛ إشعاراً بأنَّ كلًّا منها كافٍ في التوبيخ وإظهارِ بطلان ما ارتكبه وشناعتهِ، وقد تُركَت حكايةُ التوبيخ رأساً في غير سورةٍ؛ اكتفاءً بحكايتها في موضعٍ آخر[٢]، والظاهر أنَّ قولَ الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطةٍ، وهو منصبٌ عالٍ إذا كان على سبيل الإعظامِ والإجلال دون الإهانة والإذلال، كما لا يخفى.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ على نحو ما تقدَّم ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ اللام لتأكيد النَّفْي، أي: ينافي حالي ولا يستقيمُ منِّي أنْ أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسمانيٍّ كثيفٍ ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾﴾ إشارةٌ إجماليةٌ إلى ادِّعاء خيريَّته وشرفِ مادته، وقد نُقِل عنه ـ لعنه الله تعالى ـ التصريحُ بذلك في آية أخرى[٣]، وقد عَنى اللعينُ بهذا الوصف بيانَ مزيدِ خِسَّةِ أصلِ[٤] مَن لم يسجد له ـ وحاشاه ـ وقد اكتُفي في غير موضع بحكاية بعضِ ما زعمه موجباً للخِسَّة، وفي عُدُولِه عن تطبيق جوابه على السؤال رَومٌ للتفصِّي عن المناقشة، وأنَّى له ذلك، كأنَّه قيل: لَمْ أمتنع عن الانتظام في سلك الساجدين، بل عمَّا لا يليقُ بشأني من السجود للمفضول، وقد أخطأَ اللعينُ حيث

---

(١) في حاشية الشهاب ٥/ ٩٢، (والكلام منه): فلا يذم.

(٢) في سورة صَ، آية (٧٧-٧٨).

(٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

(٤) ليس في الأصل.

ظنَّ أنَّ الفضل كلَّه باعتبار المادة، وما درى أنَّه يكونُ باعتبار الفاعل، وباعتبار الصورة، وباعتبار الغاية، بل إنَّ ملاكَ الفضل والكمال هو التخلِّي عن الملكات الرَّديَّة، والتحلِّي بالمعارف الربانيَّة:

فشمالٌ والكاسُ فيها يمينٌ ويمينٌ لا كاسَ فيها شمالُ[1]

ولله تعالى درُّ مَن قال:

كُن ابنَ مَن شِئتَ واكتَسِبْ أدباً يُغنيكَ مضمونُه عن النَّسبِ
إنَّ الفتى مَن يقولُ ها أنا ذا ليسَ الفتى مَن يقول كان أبي[2]

على أنَّ فيما زعَمَه من فضل النار على التراب منعاً ظاهراً، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[3].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما تقدَّم أيضاً ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ قيل: الظاهرُ أنَّ الضمير للسماء وإنْ لم يَجْرِ لها ذكرٌ، وأُيِّد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣] وقيل: لزمرة الملائكة عليهم السلام. ويلزمُ خروجُه من السماء إذ كونه بانزوائه عنهم في جانب لا يعدُّ خروجاً في المتبادر، وكفَى به قرينةً. وقيل: للجَنَّة؛ لقوله تعالى: (ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ) ولوقوع الوسوسةِ فيها، ورُدَّ بأنَّ وقوعَها كان بعدَ الأمر بالخروج.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامةٍ، فإنَّ مَن يُطرد يُرجَم بالحجارة، فالكلامُ من باب الكناية، وقيل: أي: شيطانٌ يُرجَم بالشُّهب، وهو وعيدٌ بالرجم بها، وقد تضمَّن هذا الكلامُ الجوابَ عن شبهته، حيث تضمَّن سوءَ حاله، فكأنَّه قيل: إنَّ المانع لك عن السجود شقاوتُك وسوء خاتمتك وبُعْدُك عن الخير لا شرفُ عنصرك الذي تزعُمه.

وقيل: تَضمُّنُه ذلك؛ لأنَّه عَلِمَ منه أنَّ الشرف بتشريف الله تعالى وتكريمه، فبطل ما زَعَمه مِن رجحانِهِ، إذ أبعدَه الله تعالى وأهانه، وقرَّب آدم عليه الصلاة والسلام وكرَّمه.

---

(١) عزاه العاملي في الكشكول ١/ ٣٦، للشيخ محمد البكري الصديقي.
(٢) البيتان في الديوان المنسوب لسيدنا علي ﷺ ص٢٥، ونَسَبَ ياقوت الحموي في معجم الأدباء ١٩/ ٢٠ البيتَ الأول فقط لميمونة بن أبي ربيعة الأصبهاني.
(٣) ينظر ٩/ ٣٨.

وقيل: تضمنه للجواب بالسكوت، كما قيل: جوابُ ما لا يُرتَضَى السكوتُ، وفي تفسير الرجيم بالمرجوم بالشُّهب إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ اللعينَ لمَّا افتخَرَ بالنار عُذِّب بها في الدنيا فهو كعابدِ النارِ يَهْوَاها وتَحْرِقُه.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ الإبعاد على سبيل السُّخْط، وذلك مِن الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاعٌ مِن قبول فيضِهِ تعالى وتوفيقه سبحانه، ومِن الإنسان دعاءٌ بذلك، والظاهرُ أنَّ المرادَ لعنةُ الله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ [ص:٧٨].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ إلى يوم الجزاء، وفيه إشعارٌ بتأخير جزائه إليه، وأنَّ اللعنةَ مع كمال فظاعتها ليسَت جزاءً لفعله، وإنَّما يتحقَّق ذلك يومئذٍ، وفيه من التهويل ما فيه، وجعل ذلك غاية أمدِ اللعنة، قيل: ليس لأنَّها تنقطعُ هنالك، بل لأنَّه عند ذلك يُعذَّبُ بما يَنْسَى به اللعنة مِن أفانينِ العذاب، فتصير هي كالزائل، وقيل: إنَّما غَيَّى بذلك؛ لأنَّه أبعدُ غايةٍ يضربها الناسُ في كلامهم، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] على قول.

وقال بعضُهم: إنَّ المرادَ باللعنة لَعْنُ الخلائق له، لعنةُ الله تعالى عليه، وذلك منقطعٌ إذا نُفخ في الصور وجاء يوم الدين، دون لَعْنِ الله تعالى له وإبعاده إياه فإنَّه متَّصلٌ إلى الأبد.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ أمْهِلْني وأخِّرني ولا تُمِتْني، والفاء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ مفهوم من الكلام، أي: إذ جعلْتَني رجيماً فأمهلْني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: آدم عليه السلام وذُرِّيَّته للجزاء، وأراد بذلك أنْ يَجِدَ فسحةً لإغوائهم ويأخذَ منهم ثأرَه.

قيل: ولينجو من الموت، إذ لا موتَ بعد البعث، وهو المرويُّ عن ابن عباس والسدي، وكأنَّه ـ عليه اللعنة ـ طَلَبَ تأخيرَ موته لذلك ولم يكتفِ بما أشار إليه سبحانه في التَّغْيِي من التأخير لِمَا أنَّه يمكنُ كونُ تأخيرِ العقوبةِ كسائر مَن أُخِّرَت عقوباتُهم إلى الآخرة من الكفرة.

﴿قَالَ﴾ الرَّبُّ سبحانه ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: من جملتهم، ومُنتَظِم في سِلْكهم. قال بعضُ الأجلَّة: إنَّ في ورود الجواب جملة اسميَّة مع التعرُّض لشمول

ما سألَه الآخرينَ على وجهٍ يُؤذِن بكون السائلِ تَبَعاً لهم في ذلك دليلاً على أنَّه إخبارٌ بالإنظار المقدَّر لهم لا لإنشاء إنظارٍ خاصٍّ به وقع إجابةً لدعائه، أي: إنَّك من جملة الذين أُخِّرَت آجالُهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار بالاستنظار كما في قوله:

فـإنْ تَـرْحَـمْ فـأنْـتَ لـذاكَ أهـلٌ   وإنْ تَـطْـرُدْ فَـمـنَ يَـرْحَـمْ سـواكـا[1]

لا لربط نفسِ الإنظار به، وأنَّ استنظارَه لتأخير الموتِ إذ به يتحقَّقُ كونُه من جملتهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل، ونَظْمُه في سلك مَن أُخِّرَت عقوبتُهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سَبَق من الجنِّ ولَحِقَ من الثقلَين، لا يلائم مقامَ الاستنظار مع الحياة؛ ولأنَّ ذلك التأخيرَ معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث. انتهى.

وقيل: إنَّ الفاء متعلِّقةٌ كالفاء الأولى بمحذوفٍ، والكلامُ إجابةٌ له في الجملة، أي: إذ دعوتَني فإنَّك من المنظرين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وهو وقتُ النفخة الأولى كما روي عن ابن عباس، وعليه الجمهور.

ووصفُه بالمعلوم إمَّا على معنى أنَّ الله تعالى استأثَرَ بعلمه، أو على معنى معلومٌ حالُه، وأنَّه يَصعَقُ فيه مَن في السموات ومَن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى. وقال آخرون: إنَّه عليه اللعنةُ أُعطِيَ مسؤولَهُ كَمَلاً[2]، وليس إلا البقاءُ إلى وقت النفخةِ الأولَى وهو آخر أيام التكليفِ، والوقتُ المشارفُ للشيء المتصل به معدودٌ منه، فأولُ يوم الدين، وأولُ يوم البعث، كأنَّه من ذلك الوقت.

واستُظهِرَ ذلك بأنَّ الملعون عالِمٌ فلا يَسأل ما يَعلمُ أنَّه لا يُجابُ إليه، وبأنَّ ما في «الأعراف»[3] لعدم ذِكْر الغايةِ فيه يدلُّ على الإجابة.

---

(١) نسبه المصنف عند تفسير الآية (٨٢) من سورة «صٓ» للشافعي. وهو في معاهد التنصيص ١/ ١٧٠ دون نسبة.

(٢) كَمَلاً: أي: كلّه. مختار الصحاح (كمل).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الآيتان: ١٤-١٥].

واعترض على الأوَّل بأنَّه غيرُ بيِّنٍ ولا مبين، وكونُه على غالب الظنِّ لا يُجدي في مثله.

وعلى الثاني بأنَّ تَرْكَ الغايةِ في سورة الأعراف يحتملُ أنْ يكونَ كتركِ الفاء في الاستنظار والإنظار تعويلاً على ما ذكر ها هنا وفي سورة «ص»(١)، فإنَّ إيرادَ كلام واحدٍ على أساليبَ متعددةٍ غيرُ عزيز في الكتاب العزيز.

ومن الناس القائلين بالمغايرة مَن قال: إنَّ المرادَ باليوم المعلوم اليومُ الذي عَلِمَ الله تعالى فيه انقضاءَ أجله، وهو يومُ خروج الدابة، فإنَّها هي التي تقتلُه، وقد قدَّمنا نَقْلَ هذا القولِ عن بعض السلف، وهو من الغرابة بمكان. وأغربُ منه ما قيل: إنَّه هلك في بعض غزواته ﷺ، وقد ذكرنا قبلُ أنَّ هذا مما لا يكادُ يُقبل بظاهره أصلاً.

والمشهورُ المعوَّلُ عليه عند الجمهور هو ما ذكرناه من أنَّه يموتُ عند النفخة الأولى، وبينها وبين النفخة الثانية التي يقومُ فيها الخلقُ لربِّ العالمين أربعون سنة، ونُقِلَ عن الأحنف بن قيس ـ عليه الرحمة ـ أنَّه قال: قدمتُ المدينة أُريدُ أميرَ المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه، فإذا أنا بحَلْقةٍ عظيمةٍ، وكعبُ الأحبار فيها يُحدِّث وهو يقول: لمَّا حضرَ آدمَ عليه السلام الوفاةُ قال: يا ربِّ سيشمتُ بي عدوِّي إبليس إذا رآني ميتاً، وهو مُنتَظَر إلى يوم القيامة، فأُجيبَ أنْ يا آدم إنَّك ستُرَدُّ إلى الجنة ويُؤخَّرُ اللعين إلى النظرة ليذوقَ ألم الموتِ بعدد الأوَّلين والآخرين، ثم قال لملك الموت: صِفْ لي كيف تذيقُه الموت؟ فلما وصَفَه، قال: يا ربِّ حسبي. فضجَّ الناسُ وقالوا: يا أبا إسحاق كيف ذلك؟ فأبى وألَحُّوا فقال: يقول الله سبحانه لملك الموت عقيبَ النفخة الأولى: قد جعلتُ فيك قوَّةَ أهلِ السماوات وأهل الأرضين السبع، وإنِّي اليوم ألبستُكَ أثوابَ السُّخْط والغضب كلِّها، فابرُزْ بغَضَبي وسَطْوَتي على رَجيمي إبليسَ، فأذِقْه الموتَ واحْمِل عليه فيه مرارةَ الأوَّلين والآخرين من الثقلَين أضعافاً مضاعفةً، وليكن معكَ من الزبانية سبعونَ ألفاً قد امتلؤوا غيظاً وغَضَباً، وليكن مع كلٍّ منهم سلسلةٌ من سلاسل جهنَّم، وغلٌّ من أغلالها، وانْزَع

---

(١) في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الآيتان: ٧٩-٨٠].

روحَه المنتنَ بسبعين ألفِ كلَّاب من كلاليبها، ونادِ مالكاً ليفتحَ أبوابَ النيران، فينزلُ الملكُ بصورةٍ لو نَظَر إليها أهلُ السماوات والأرضين لماتوا بغتةً من هولها، فينتهي إلى إبليسَ فيقولُ: قف لي يا خبيث، لأُذيقَنَّك الموتَ، كم من عُمرٍ أدركْتَ، وقَرْنٍ أضْلَلْتَ، وهذا هو الوقتُ المعلومُ. قال: فيهربُ اللعينُ إلى المشرقِ، فإذا هو بملَك الموتِ بين عينَيه، فيهربُ إلى المغرب، فإذا هو به بين عينَيه، فيغوصُ البحارَ فيثيرُ منها البخارَ فلا تقبلهُ، فلا يزالُ يهربُ في الأرض ولا محيصَ له ولا ملاذَ، ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبرِ آدمَ عليه السلام، ويتمرَّغُ في التراب من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، حتى إذا كان في الموضع الذي أُهبطَ فيه آدمُ عليه السلام، وقد نَصَبَت له الزبانيةُ الكلاليبَ، وصارتَ الأرضُ كالجمرة، احتَوَشَتْه الزبانيةُ وطعنوه بالكلاليب، فيبقَى في النزع والعذابِ إلى حيث يشاءُ الله تعالى.

ويقال لآدم[1] وحواء عليهما السلام: اطَّلِعا اليومَ على عدوِّكما يذوقُ الموت، فيطَّلعانِ فينظران إلى ما هو فيه من شدَّة العذاب فيقولان: ربَّنا أتممْتَ علينا نعمتَك[2].

وجاء في بعضِ الأخبار أنَّه حينَ لا يجدُ مفرًّا يأتي قبرَ آدمَ عليه السلام فيحثو الترابَ على رأسه ويُنادي: يا آدمُ أنت أصلُ بليَّتي. فيقال له: يا إبليسُ اسجُدْ الآن لآدمَ عليه السلام فيرتفعُ عنك ما تَرَى، فيقول: كلَّا، لم أسجد له حيًّا فكيف أسجدُ له ميتاً، وهذا إنْ صحَّ يدلُّ على أنَّ اللعينَ من العناد بمكان لا تصلُ إلى غايته الأذهان.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي: بسبب إغوائك إيَّاي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ أي: أُقسمُ لأُزيِّننَّ ﴿لَهُمْ﴾ أي: لذرِّيَّته، وهو مفهومٌ من السياق وإنْ لم يَجْرِ له ذكرٌ، وقد جاء مُصرَّحاً به في قوله تعالى حكايةً عن اللعين أيضاً: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٦٢] ومفعول «أُزَيِّنَنَّ» محذوفٌ أي: المعاصي ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هذا الجرمِ المدحوِّ، وكأنَّ اللعينَ أشارَ بذلك إلى أنِّي أقدِرُ على الاحتيال لآدمَ والتزيين له الأكلَ من

(١) في (م): يقال آدم.
(٢) ذكره أبو السعود في تفسيره ٥/ ٧٧-٧٨.

الشجرة في السماء، فأنا على التزيين لذريَّته في الأرض أقدرُ، ويجوزُ أنَّه أراد بالأرض الدنيا؛ لأنَّها محلُّ متاعها ودارها.

وذكر بعضُهم أنَّ هذا المعنى عرفيٌّ للأرض، وأنَّها إنما ذُكرَت بهذا اللفظ تحقيراً لها، ولعلَّ التقييد على ما قيل؛ للإشارة إلى أنَّ للتزيين محلًّا يُقوِّي قبولَه، أي: لأُزيننَّ لهم المعاصي في الدنيا التي هي دارُ الغرور.

وجوّز أنْ[1] يُراد بها هذا المعنى، ويُنزَّل الفعل منزلةَ اللازم ثم يعدَّى بـ «في» وفي ذلك دلالةٌ على أنَّها مُستقَرُّ التزيين، وأنَّه تمكن المظروف في ظرفه، ونحوه قول ذي الرُّمَّة:

فإنْ تَعْتَذِرْ بالمَحْلِ من ذي ضُروعها إلى الضَّيف يَجْرَحْ في عَرَاقيبها نَصْلي[2]

والمعنَى: لأُحَسِّنَنَّ الدنيا وأُزيِّنَنَّها لهم حتى يشتغلوا بها عن الآخرة، وجوِّزَ جعلُ الباء للقَسَم، و«ما» مصدرية أيضاً، أي: أُقسم بإغوائك إيَّاي لأُزيِّنَنَّ، وإقسامُه بعزَّة الله تعالى المفسَّرة بسلطانه وقهرِه لا ينافي إقسامَه بهذا، فإنَّه فرعٌ من فروعها وأثرٌ من آثارها، فلعلَّه أقسمَ بهما جميعاً، فحُكي تارة قَسَمُه بهذا وأُخرَى بذاك.

وزَعَم بعضُهم أنَّ السببيَّة أولَى؛ لأنَّه وقع في مكانٍ آخر: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] والقصةُ واحدةٌ، والحملُ على مُحاورتَين لا موجبَ له؛ ولأنَّ القَسَم بالإغواء غيرُ متعارفٍ. انتهى.

وفيه نظرٌ ظاهرٌ، فإنَّ قولَه: (فَبِعِزَّتِكَ) يحتملُ القَسَميَّة أيضاً، وقد صرَّح الطيبي بأنَّ مذهبَ الشافعية أنَّ القسمَ بالعزَّة والجلال يمين شرعاً، فالآيةُ على الزاعم لا له.

نعم إنَّ دعواه عدمَ تعارفِ القسم بالإغواء مسلَّمةٌ، وهو عندي يكفي لأولويَّة السببية، ولعدم التعارف مع عدم الإشعار بالتعظيم لا يعدُّ القسم بها يميناً شرعاً، فإنَّ القائلين بانعقاد القَسَم بصفةٍ له تعالى يشترطون أنْ تُشعِرَ بتعظيمٍ ويُتعارَف مثلُها.

---

(١) بعدها في (م): يكون.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ١٥٦، وخزانة الأدب ٢/ ١٢٨.

وفي(١) نسبة الإغواء إليه تعالى بلا إنكارٍ منه سبحانه قولٌ بأنَّ الشرَّ كالخير من الله عزَّ وجل، وأوَّلَ المعتزلةُ ذلك وقالوا: المرادُ النسبةُ إلى الغيِّ ك: فَسَّقْتُه، نسبتُه إلى الفسق، لا فَعَّلْتُه، أو أنَّ المرادَ فَعَل به فعلاً حسناً أفضَى به لخبثه إلى الغي حيث أمرَه سبحانه بالسجود فأبَى واستكبر، أو أَضلَّه عن طريق الجنة وترك هدايَته واللطف به، واعتذروا عن إنظار الله تعالى إياه(٢) مع أنَّه مفضٍ إلى الإغواء القبيح بأنَّه تعالى قد علم منه وممن اتَّبعه أنَّهم(٣) يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار، أُنظِرَ أم لم يُنظَر، وأنَّ في إنظاره تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيدِ الثواب.

وأنت تعلم أنَّ في إنظار إبليسَ ـ عليه اللعنة ـ وتمكينِهِ من الإغواء وتسليطِهِ على أكثر بني آدم ما يأبى القولَ بوجوب رعاية الأصلح المشهور عن المعتزلة، وأيضاً من زعم أنَّ حكيماً أو غيرَه يحصُر قوماً في دارٍ ويُرسلُ فيها النارَ العظيمة والأفاعي القاتلةَ الكثيرة، ولم يُرد أذَى أحدٍ من أولئك القوم بالإحراق أو اللَّسع، فقد خرج عن الفطرة البشرية. فحينئذٍ الذي تحكُم به الفطرة أنَّ الله تعالى أرادَ بالإنظار إضلالَ بعض الناس، فسبحانه مِن إلهٍ يفعلُ ما يشاء ويحكمُ ما يريد.

وتمسَّك بعضُ المعتزلة في تأويل ما تقدَّم بقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ حيث أفادَ أنَّ الإغواء فعله، فلا ينبغي أنْ يُنسَب إلى الله تعالى.

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ به هنا الحملُ على الغواية لا إيجادها، وتأويل اللاحق للسابق أَوْلَى من العكس، وبالجملة ضعفُ الاستدلال ظاهرٌ، فلا يصلح ذلك مُتمسَّكاً لهم.

﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: كلّهم، فهو لمجرَّد الإحاطة هنا.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ بفتح اللام، وهو قراءة الكوفيين ونافع والحسن والأعرج(٤)، أي: الذين أَخْلَصْتَهم لطاعتك وطهَّرتَهم مِن كلِّ ما يُنافي ذلك، وكأن

---

(١) في الأصل: في. بدون واو.
(٢) ليس في الأصل.
(٣) ليس في الأصل، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٧٨.
(٤) قراءة الكوفيين ونافع في التيسير ص ١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، وقرأ بها أبو جعفر وخلف، وقراءة الحسن والأعرج في البحر المحيط ٥/ ٤٥٤.

الظاهر: وأنَّ منهم مَن لا أغويه مثلاً، وعَدَل عنه إلى ما ذكر؛ لكون الإخلاص والتمحُّض لله تعالى يستلزمُ ذلك، فيكونُ من ذكر السبب وإرادة مُسبِّبه ولازِمه على طريق الكناية، وفيه إثباتُ الشيء بدليله، فهو من التصريح به، وقرأ باقي السبعةِ والجمهورُ بكسر اللام[1]، أي: الذين أَخلَصُوا العملَ لك ولم يشركوا معك فيه أحداً.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي: حقٌّ لابدَّ أنْ أُراعيه ﴿مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ لا انحرافَ فيه، فلا يُعدَل عنه إلى غيره، والإشارةُ إلى ما تضمَّنه الاستثناء وهو تخلُّص المخلَصين من إغوائه، وكلمة «عليّ» تُستعمَل للوجوب، والمعتزلة يقولون به حقيقةً؛ لقولهم بوجوب الأصلح عليه تعالى، وقال أهلُ السُّنَّة: إنَّ ذلك وإنْ كان تفضُّلاً منه سبحانه إلا أنَّه شُبِّهَ بالحقِّ الواجب لتأكيد ثبوتِهِ وتحقُّق وقوعه بمقتضَى وعده جلَّ وعلا، فجيء بـ «على» لذلك.

أو إلى ما تضمَّنه «المخلصين» بالكسر، من الإخلاص على معنى أنَّه طريقٌ يُؤدِّي إلى الوصول إليَّ مِن غير اعوجاجٍ وضلال، وهو على نحو: طريقُك عليَّ، إذا انتهى المرور عليه.

وإيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء؛ لتأكيد الاستقامةِ والشهادةِ باستعلاء مَن ثبت عليه، فهو أدلُّ على التمكُّن من الوصول، وهو تمثيلٌ، فلا استعلاء لشيء عليه سبحانه، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيراً.

وليسَت «على» فيه بمعنى «إلى»، نعم أخرج ابنُ جرير عن الحسن أنَّه فسَّرها بها، وأخرج عن زياد بنِ أبي مريم وعبد الله بنِ كثير أنَّهما قرأا: «هذا صراط عليٌّ مستقيم»[2] وقالا: «عليَّ» هي «إليَّ» وبمنزلتها. والأمرُ في ذلك سهل، وهي متعلِّقةٌ بـ «يمر» مقدَّراً، و«صراط» متضمِّنٌ له فيتعلَّق به.

وقال بعضهم: الإشارةُ إلى انقسامهم إلى قسمَين ـ أي: ذلك الانقسام إلى غاوٍ وغيرِه ـ أمرٌ مصيرُه إليَّ، وليس ذلك لك، والعربُ تقول: طريقُك في هذا الأمر على فلان، على معنًى: إليه يصيرُ النظرُ في أمرك.

---

(١) التيسير ص ١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٤.

(٢) في الأصل و(م): هذا صراط مستقيم، والمثبت من تفسير الطبري ١٤/ ٧٠.

وعن مجاهد وقتادة: إنَّ هذا تهديدٌ للَّعينِ، كما تقوُل لغيرك: افعل ما شئتَ فَطريقك عليَّ، أي: لا تفوتُني، ومثلُه على ما قال الطبرسيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1] [الفجر:١٤] والمشارُ ـ على هذا ـ إليه ما أَقسَم مع التأكيد عليه، وأظهرُ هذه الأوجه على ما قيل هو الأوَّلُ، واختار في «البحر» كونَها إلى الإخلاص[2].

وقيل: الأظهرُ أنَّ الإشارةَ لِمَا وقع في عبارة إبليس عليه اللعنة، حيث قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ [الأعراف:١٦-١٧] إلخ، ولا أدري ما وجه كونه أظهر؟!.

وقرأ الضحاكُ وإبراهيم وأبو رجاء وابنُ سيرين ومجاهد وقتادة وحميد وأبو شرف ـ مولى كندة ـ ويعقوب وخلق كثير: «عليٌّ مستقيم» برفع «عليٌّ» وتنوينه[3]، أي: عالٍ؛ لارتفاع شأنه.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلُّطٌ وتصرُّفٌ بالإغواء، والمرادُ بالعباد المشارُ إليهم بالمخلصين، فالإضافة للعهد، والاستثناء على هذا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ منقطعٌ، واختارَ ذلك غيرُ واحدٍ، واستَدَلَّ عليه بسقوط الاستثناءِ في «الإسراء»[4].

وجوَّز أنْ يكونَ المرادُ بالعباد العمومَ، والاستثناءُ متَّصلٌ، والكلامُ كالتقرير لقوله: (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ) ولذا لم يُعطَف على ما قبله، وتغييرُ الوضع؛ لتعظيم المخلصين بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء.

وفي الآية دليلٌ لمن جوَّز استثناءَ الأكثر، وإلى ذلك ذهب أبو عبيد والسيرافي وأكثرُ الكوفيَّة، واختاره ابن خروف والشلوبين وابن مالك[5]، وأجاز هؤلاء أيضاً

(١) مجمع البيان ١٤/ ٢٨.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٤.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠١، وقراءة باقي المذكورين في المحتسب ٢/ ٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٤.
(٤) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الآية: ٦٥].
(٥) التسهيل ص ١٠٣.

استثناء النصف، وذهب بعضُ البصريَّة إلى أنَّه لا يجوزُ كونُ المستثنَى قَدْرَ نصف المستثنى منه أو أكثر، ويتعيَّن كونُه أقلَّ من النصف، واختاره ابنُ عصفور[(١)] والآمديُّ، وإليه ذهب أبو بكر الباقلاني من الأصوليِّين، وذهب البعضُ الآخرُ من علماء البلدين إلى أنَّه يجوزُ أنْ يكونَ المخرَجُ النصفَ فما دونه، ولا يجوزُ أنْ يكونَ أكثرَ، وإليه ذهب الحنابلة، واتَّفق النحويُّون كما قال أبو حيان وكذا الأصوليُّون عند الإمام[(٢)] والآمدي ـ خلافاً لِمَا اقتضاه نقلُ القَرافي عن «المدخل» لابن طلحة[(٣)] ـ على أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ المستثنى مستغرقاً للمستثنى منه، ومن الغريب نَقلُ ابنِ مالك عن الفرَّاء جوازَ: له عليَّ ألفٌ إلا ألفَين.

وقيل: إنْ كان المستثنَى منه عدداً صريحاً يمتنع فيه استثناءُ النصف والأكثر، وإنْ كان غيرَ صريحٍ لا يمتنعان، وتحقيق هذه المسألة في الأصول. والمذكورُ في بعض كتب العربيةِ عن أبي حيان[(٤)] أنَّه قال: المستقرأُ مِن كلام العرب إنَّما هو استثناءُ الأقل، وجميعُ ما استُدلَّ به على خلافه محتمِل التأويل؛ وأنت تعلم أنَّ الآيةَ تدفعُ مع ما تقدَّم قولَ مَن شَرَط الأقلَّ لِمَا يلزم عليه من الفساد؛ لأنَّ استثناء «الغاوين» هنا يستلزمُ على ذلك أنْ يكونوا أقلَّ من «المخلصين» الذين هم الباقون بعد الاستثناء من جنس العباد، واستثناء «المخلصين» هناك يستلزم أنْ يكونوا أقلَّ من «الغاوين» الذين هم الباقون بعد الاستثناء من ذلك، فيكون كلٌّ من المخلصين والغاوين أقلَّ من نفسه، وهو كما ترى.

وأجاب بعضُهم بأنَّ المستثنَى منه هنا جنسُ العباد الشامل للمكلَّفين وغيرِهم ممن مات قبل أنْ يكلَّف، ولا شكَّ أنَّ الغاوين أقلُّ من الباقي منهم بعد الاستثناء وهم المخلصون ومن مات غيرَ مكلَّفٍ، والمستثنى منه هناك المكلَّفون إذ هم الذين

---

(١) المقرب ١/١٦٦.

(٢) المحصول ٣/٣٧-٣٨.

(٣) هو أبو بكر عبد الله بن طلحة بن محمد اليابري، له معرفة بالنحو والأصول والفقه والتفسير، ألَّف كتاباً في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد القيرواني، و«المدخل» إلى كتاب آخر سماه: «سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام»، توفي سنة (٥١٨هـ). نفح الطيب للمقري ٢/٦٤٨، وبغية الوعاة ٢/٤٦.

(٤) ينظر تذكرة النحاة ص ٢٩٤.

يُعقَل حملُهم على الغواية والضلال، إذ غيرُ المكلَّف لا يُوصَف فعلُه بذلك، والمخلصون أقلُّ من الباقي منهم بعد الاستثناء أيضاً، ولا محذور في ذلك.

وذكر بعضُهم أنَّ الكثرةَ والقلَّة الادِّعائيَّتين تكفيان لصحَّة الشرط، فقد ذكر السّكاكي في آخر قسم الاستدلال: وكذا لا تقول: لفلان عليَّ ألفٌ إلا تسع مئة وتسعين، إلا وأنت تُنزلُ ذلك الواحد منزلةَ الألف بجهة من الجهات الخطابيَّة[1]. اهـ. مع أنَّه ممن يشترط كون المستثنَى أقلَّ من الباقي. وظاهرُ كلام الأصوليين يُنافيه.

وجوِّز أنْ يكونَ الاستثناء منقطعاً على تقدير إرادةِ الجنس أيضاً، ويكون الكلامُ تكذيباً للملعون فيما أوْهَم أنَّ له سلطاناً على مَن ليس بمخلص من عباده سبحانه، فإنَّ مُنتهَى قدرته أنْ يَغُرَّهم ولا يقدر على جَبْرهم على اتِّباعه كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فحاصل المعنى أنَّ مَن اتَّبعك ليس لك عليهم سلطان وقهر، بل أطاعوك في الإغواء واتَّبعوك لسوء اختيارهم، ولا يضرُّ في الانقطاع دخولُ الغاوين في العباد بناءً على ما قالوا من أنَّ المعتبَر في الاتصال والانقطاع الحكمُ، ويُفهِمُ كلامُ البعض أنَّه يجوز أنْ تكون الآية تصديقاً له ـ عليه اللعنة ـ في صريح الاستثناء وتكذيباً في جعل الإخلاص علَّةً للخلاص حسبما يُشيرُ إليه كلامُه، فإنَّ الصبيان والمجانين خلصوا من إغوائه مع فقد هذه العلَّة.

و«مِن» على جميع الأوجه المذكورة لبيان الجنس، أي: الذين هم الغاوون. واستدلَّ الجبائي بنفي أنْ يكونَ له سلطان على العباد على ردِّ قولِ مَن يقول: إنَّ الشيطان يمكنه صرعُ الناس وإزالة عقولهم، وقد تقدَّم الكلام في إنكار المعتزلةِ تخبُّط الشيطان، والردُّ عليهم[2].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الضميرُ لمن اتَّبع أو للغاوين، ورُجِّح الثاني بالقرب وظهور ملاءمته للضمير، والأوَّل بأنَّ اعتباره أدخلُ في الزجر عن اتِّباعه مع أنَّ الثاني جيء به لبيانه.

---

(١) مفتاح العلوم ص ٥٠٩، والمؤلف نقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٢٩٥.
(٢) ٣/ ٧٦.

و«أجمعين» توكيدٌ للضمير، وجوِّز أنْ يكونَ حالاً منه، ويُجعَل على هذا «الموعد» مصدراً ميميًّا ليتحقق شرط مجيء الحال من المضاف إليه، وهو كونُ المضاف مما يعملُ عملَ الفعل، فإنَّهم اشترطوا ذلك، أو كونُ المضاف جزءَ المضاف إليه أو كجزئه، على ما ذكره ابنُ مالك[1] وغيرُه، ليتَّحد عاملُ الحال وصاحبُها حقيقةً أو حكماً، لكن يُقدَّر حينئذٍ مضافٌ قبله؛ لأنَّ جهنم ليسَت عين الموعد بل محلُّه، فيقدَّر محلُّ وعدِهم أو مكانه، وليس بتأويل اسم المفعول كما وهم.

وجوِّز أنْ يكونَ الموعدُ اسمَ مكانٍ، وحينئذٍ لا يحتاجُ إلى تقدير المضافِ إلا أنَّ في جواز الحاليَّة بحثاً؛ لأنَّ اسمَ المكان لا يعملُ عملَ فعله كما حقِّق في النحو، وكونُ العامل معنى الإضافة وهو الاختصاصُ على القول بأنَّه الجارُّ للمضاف إليه غيرُ مقبولٍ عند المحقِّقين؛ لأنَّ ذلك من المعاني التي لا تنصب الحال، ولا يخفَى ما في جعل «جهنم» موعداً لهم من التهكُّم والاستعارة، فكأنَّهم كانوا على ميعاد، وفيه أيضاً إشارةٌ إلى أنَّ ما أُعِدَّ لهم فيها مما لا يُوصَف في الفظاعة.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي: سبع طبقاتٍ ينزلُونها بحَسَب مراتبهم في الغواية والمتابعة، روي ذلك عن عكرمة وقتادة، وأخرج أحمدُ في «الزهد» والبيهقي في «البعث» وغيرُهما من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال: أبوابُ جهنَّم سبعةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، فيملأ الأوَّل ثم الثاني ثم الثالث، حتى تُملأ كلّها[2].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ: إنَّها جهنَّمُ والسعيرُ ولَظَى والحُطَمَة وسَقَر والجحيمُ والهاويةُ، وهي أسفلُها[3]. وجاء في ترتيبها عن الأعمش وابنِ جُريج وغيرِهما غيرُ ذلك.

وذكر السهيلي في كتاب «الإعلام» أنَّه وقع في كُتُب الرقائق أسماءُ هذه

---

(١) التسهيل ص ١١٠.
(٢) الزهد ص ١٦٣، والبعث والنشور (٥٠٦) و(٥٠٧)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٤، والطبري ١٤/ ٧٤.
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٩.

الأبواب، ولم ترد في أثرٍ صحيح، وظاهرُ القرآن والحديث يدلُّ على أنَّ منها ما هو من أوصاف النار نحو: السَّعير والجحيم والحُطَمة والهاوية، ومنها ما هو عَلَمٌ للنار كلِّها نحو: جهنَّم وسَقَر ولظى، فلذا أضربنا عن ذكرها[١]. اهـ.

وأقربُ الآثار التي وقَفْنا عليها إلى الصحة فيما أظنُّ ما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه؛ لكثرة مخرِّجيه، وتحتاجُ جميع الآثار إلى التزام أنْ يقال: إنَّ جهنم تُطلَق على طبقةٍ مخصوصةٍ، كما تُطلَق على النار كلِّها. وقيل: الأبوابُ على بابها، والمرادُ أنَّ لها سبعةَ أبوابٍ يدخلونها؛ لكثرتهم والإسراع بتعذيبهم.

والجملةُ ـ كما قال أبو البقاء ـ يجوزُ أنْ تكونَ خبراً ثانياً، ويجوزُ أنْ تكونَ مستأنفةً، ولا يجوزُ أنْ تكونَ حالاً من «جهنم»؛ لأنَّ «إنَّ» لا تعمل في الحال[٢].

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الأتباع والغواة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ فريقٌ معيَّنٌ مفروزٌ من غيره حسبما يقتضيه استعدادُه، فبابٌ للموحِّدين العصاة، وبابٌ لليهود، وبابٌ للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للمشركين، وباب للمنافقين، وروي هذا الترتيب في بعض الآثار.

وعن ابن عباس أنَّ جهنم لمن ادَّعى الربوبيةَ، ولَظَى لعَبَدة النار، والحُطمة لعبدة الأصنام، وسَقَر لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحِّدين العاصين، وروي غير ذلك. وبالجملة في تعيين أهلها كترتيبها اختلافٌ في الروايات.

ولعلَّ حكمةَ تخصيصِ هذا العددِ انحصارُ مجامع المهلِكات في المحسوسات بالحواسِّ الخمس ومقتضيات القوة الشهوانية والغضبية[٣]، أو أنَّ أصول الفِرَق الداخلين فيها سبعة.

وقرأ ابنُ القعقاع: «جُزٌّ» بتشديد الزاي من غير همزٍ[٤]، ووجهه أنَّه حذَفَ

(١) التعريف والإعلام ص ٨٩.
(٢) الإملاء ٣/ ٤٢٨.
(٣) في (م): الشهوانية الغضبية. دون واو.
(٤) النشر ١/ ٤٣٢.

الهمزةَ وألقَى حركتَها على الزاي ثم وَقَف بالتشديد، ثم أجرى الوصل مجرَى الوقف. وقرأ ابنُ وثاب: «جُزُءٌ» بضمِّ الزاي والهمز[1].

و«منهم» حالٌ من «جزء» وجاء من النكرة لتقدُّمه ووصفها، أو حال من ضميره في الجارِّ والمجرور الواقع خبراً له، ورجح بأنَّ فيه سلامةً مما في وقوع الحال من المبتدأ، والتزم بعضُهم لذلك كون المرفوع فاعلاً بالظرف ولا يجوز أنْ يكونَ حالاً من الضمير في «مقسوم» لأنَّه صفة «جزء» فلا يصح عملُه فيما قبل الموصوف، وكذا لا يجوز أنْ يكونَ صفةَ «باب» لأنَّه يقتضي أنْ يقال منها، وتنزيلُ الأبواب منزلَةَ العقلاء لا وَجْهَ له هنا كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى ذمِّ مَن كان همُّه بطنَه وتنفيذَ شهواته، وقال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان همُّه ذلك، فإنَّه محرومٌ عن الوصول إلى حَرَم القرب.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ رَمَوه وحاشاه ﷺ بالجنون مُشيرين إلى أنَّ سبَبَه دعواه عليه الصلاة والسلام نزول الذِّكر الذي لم تَتَّسع له عقولُهم، والإشارةُ في ذلك أنَّه لا ينبغي لمن لم يتَّسع عقلُه لِمَا مَنَّ الله سبحانه به على أوليائه من الأسرار أنْ يُبادروهم بالإنكار ويرموهم بما لا ينبغي، كما هو عادةُ كثيرٍ من المنكرين اليومَ على الأولياء الكاملين، حيث نسبوهم فيما تكلَّموا به من الأسرار الإلهية والمعارف الرَّبانية إلى الجنون، وزَعَموا أنَّ ما تكلَّموا به من ذلك تُرَّهاتٌ وأباطيلُ خُيِّلَت لهم من الرياضات، ولا أعني بالأولياء الكاملين سوى مَن تحقَّق لدى المنصفين موافقتهم للشرع فيما يأتون ويَذَرُون، دون الذين يزعمون انتظامهم في سلكهم وهم أولياءُ الشيطان، وحزبُهم حزبُه، كبعض متصوِّفة هذا الزمان، فإنَّ الزنادقةَ بالنسبة إليهم أتقياء موحِّدون، كما لا يخفى على مَن سَبَر أحوالَهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥٥، وهي قراءة شعبة كما في التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢١٦.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال ابنُ عطاء: أي: إنَّا نزَّلنا هذا الذكر شفاءً ورحمةً وبياناً للهدى فينتفعُ به مَن كان موسوماً بالسعادة منوَّراً بتقديس السرِّ عن دَنَس المخالفة. «وإنَّا له لحافظون» في قلوب أوليائنا، فهي خزائنُ أسرارنا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أشار سبحانه إلى سماء الذات وبروج الصفات والجلال، فيسيرُ في ذلك القلبُ والسرُّ والعقلُ والروح فيحصل للروح التوحيدُ والتجريدُ والتفريدُ، وللعقل المعارفُ والكواشفُ، وللقلب العشقُ والمحبةُ، والخوفُ والرجاء، والقَبْض والبسط، والعلم والخشية والأُنس والانبساط، وللسرِّ الفناءُ والبقاء، والسُّكر والصَّحْوُ.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى مَنْع كشفِ جمال صفاته سبحانه وجلال ذاته عزَّ وجل عن أبصار البطَّالين والمدَّعين والمبطلين الزائغين عن الحقِّ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ اختلس شيئاً من سُكان هاتيك الحظائرِ القُدْسية من الكاملين ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ نار التحيُّر فهلَكَ في بوادي التيه، أو صار غولاً يُضِلُّ السائِرين السالكين لتحصيل ما ينفعُهم.

وقيل: الإشارة في ذلك: إنَّا جعلنا في سماء العقل بروجَ المقامات ومراتبَ العقول من العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، وزيَّناها بالعلوم والمعارفِ للناظرين المتفكِّرين، وحفظناها من شياطين الأوهام الباطلةِ إلا مَن اخْتَطف الحكم العقلي باستراق السمع لقربه مِن أُفُق العقل فأتبعه شهابُ البرهان الواضح فطَرَده وأَبطَلَ حكمه. اهـ.

ولا يخفَى ما في تزيين كلِّ مرتبةٍ من مراتب العقولِ المذكورة بالعلوم والمعارفِ للمتفكِّرين من النظر على من تفكَّر.

وقيل: الإشارةُ إلى أنَّه تعالى جَعَل في سماء القلوب بروجَ المعارف تسيرُ فيها سيَّاراتُ الهمم، وجَعَلها زينةً للناظرين إليها المطَّلعين عليها من الملائكة والروحانيين، وحَفِظها من الشياطين، فلو دَنَا إبليسُ أو جنودُه من قلب عارفٍ احترقَ بنور معرفتِهِ، ورُدَّ خاسئاً.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى بَسَط بأنوار تجلِّي جماله وجلاله سبحانه أرضَ قلوبِ أوليائه حتى إنَّ العرش وما حوى بالنسبة إليها كحلقةٍ في فَلَاة، بل دون ذلك بكثير، وفي الخبر: «ما وَسِعَني أرضي ولا سمائي ولكنْ وسعني قلبُ عبدي المؤمن»[1] ثم إنَّه تعالى لمَّا تجلَّى عليها تزلْزَلَت من هيبته فألقَى عليها رواسي السكينة فاستقرَّت، وأنبتَ فيها بمياه بحارِ زلال نور غَيْبِهِ من جميع نباتات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وكلٌّ من ذلك موزون بميزان علمه وحكمته.

وقال بعضهم: نفوسُ العابدين أرضُ العبادة، وقلوبُ العارفين أرضُ المعرفة، وأرواحُ المشتاقين أرضُ المحبة، والرواسي: الرجاءُ والخوف والرغبةُ والرهبة، والأزهار: الأنوار التي أشرقت فيها من نور اليقين ونور العرفان ونور الحضور ونور الشهود ونور التوحيد إلى غير ذلك.

وقيل: أُشيرَ بالأرض إلى أرض النفس، أي: بَسَطْنا أرض النفس بالنور القلبي وألقينا فيها رواسي الفضائل، وأنبتنا فيها كلَّ شيءٍ من الكمالات الخلقية والأفعال الإرادية والملكات الفاضلة والإدراكات الحسية معين مقدَّر بميزان الحكمة والعدل.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ بالتدابير الجزئية ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ ممن يُنسَب إليكم ويتعلَّق بكم، قال بعضُهم: إنَّ سَبَب العيش مختلفٌ، فعيش المريدين بيُمْنِ إقباله تعالى، وعَيْشُ العارفين بلُطفِ جماله سبحانه، وعيشُ الموحِّدين بكَشْف جلاله جلَّ جلاله.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: ما من شيءٍ إلا له عندنا خزانةٌ في عالم القضاء ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ في عالم الشهادة ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ من شكلٍ وقَدرٍ ووَضْعٍ ووقت ومحلٍّ حسبما يقتضيه استعدادُه، قيل: إنَّ الإشارة في ذلك إلى دعوةِ العباد إلى حقائق التوكل وقطع الأسباب والإعراض عن الأغيار، ومن هنا قال حمدون: إنَّه سبحانه قطَعَ أطماع عبيده جلَّ وعلا بهذه الآية، فمن رفع بعد هذا حاجةً إلى غيره ـ تعالى شأنه ـ فهو جاهلٌ مَلُومٌ، وكان الجنيد قدِّس سرُّه إذا قرأ هذه الآية

(١) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (٢٩٣)، وتقدم ٤/ ٢٢١.

يقول: فأين تذهبون؟ ويقال: خزائنُه تعالى في الأرض قلوبُ العارفين وفيها جواهرُ الأسرار، ومنهم مَن قال: النفوسُ خزائنُ التوفيق، والقلوبُ خزائنُ التحقيق، والألسنة خزائن الذكر، إلى غير ذلك.

﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ على القلوب ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ النفحات الإلهية ﴿لَوَٰقِحَ﴾ بالحكم والمعارف، قال ابنُ عطاء: رياحُ العناية تُلقِّحُ الثبات على الطاعات، ورياحُ الكرم تلقِّح في القلوب معرفَة المنعم، ورياحُ التوكُّل تلقح في النفوس الثقةَ بالله تعالى والاعتمادَ عليه، وكلٌّ مِن هذه الرياح تظهرُ في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، وقد شَقِيَ[1] من حُرِمَها.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سماء الروح ﴿مَآءً﴾ من العلوم الحقيقية ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ وأحييناكم به ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لذلك الماء ﴿بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لخلوِّكم عن العلوم قبل أنْ نُعلِّمَكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ﴾ القلوبَ بماء العلم والمشاهدة ﴿وَنُمِيتُ﴾ النفوسَ بالجدِّ والمجاهدة، وقيل: نحيي بالعلم، ونميت بالإفناء في الوحدة، وقيل: نحيي بمشاهدتنا قلوبَ المطيعين من موت الفراق، ونميتُ نفوسَ المريدين بالخوف منَّا وقَهْر عظمتنا عن حياة الشهوات. وقال الواسطي: نحيي مَن نشاء بنا، ونميت مَن نشاء عنَّا. وقال الورَّاق: نُحيي القلوبَ بنور الإيمان، ونميتُ النفوسَ باتِّباع الشيطان. وقيل وقيل.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ للوجود، والباقون بعد الفناء ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ وهم المشتاقون الطالبون للتقدُّم ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ وهم المنجذبُون إلى عالم الحسِّ باستيلاء صفات النفس، الطالبون للتأخُّر عن عالم القدس وروضاتِ الأنس، ومن هنا قال ابن عطاء: مِن القلوب قلوبٌ هِمَّتُها مرتفعةٌ عن الأدناس والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطةٌ بها مقترنةٌ بنجاستها لا تنفكُّ عنها طرفة عين. وقيل: «المستَقْدِمين» الطالبون كشفَ أنوارِ الجمال والجلال، و«المستأخرين» أهل الرسوم الطالبون للحظوظ والأعراض. وقيل: الأوَّلون هم أربابُ الصَّحو الذين يتسارعون

---

(١) في (م): وشقى.

إذا دُعُوا إلى الطاعة، والآخرون سُكارى التوحيدِ والمعرفة والمحبة. وقيل: الأوَّلون هم الآخذون بالعزائم، والآخرون هم الآخذون بالرُّخَص، وقيل غيرُ ذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى عِظَم شأنِ آدمَ عليه السلام، حيث أَخْبَر سبحانه بخلقه قبل أنْ يخلقَه، وسماه بشراً؛ لأنَّه جلَّ شأنه باشَرَ خلْقَه بيديه، ولم يثن سبحانه اليدَ لأحدٍ إلا له، وهو النسخةُ الإلهية الجامعة لصفات الجمال والجلال.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أضافَ سبحانه الروحَ إلى نفسه؛ تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها، لِمَا أنَّها سرٌّ خفيٌّ من أسراره جلَّ وعلا، ولذا قيل: مَن عَرَف نفسه عَرَف ربَّه، وعلَّق تبارك شأنه الأمر بالسجود بالتسوية والنفخ لِمَا أنَّ أنوارَ الأسماء والصفات وسناءَ سبحات الذات إنَّما تظهرُ إذ ذاك، ولذا لمَّا تمَّ الأمرُ وجُلِّدَت[1] النسخةُ، فظهرَت أنوارُ الحقِّ، وقُرِئت سطورُ الأسرار، استَصْغَرُوا أنفسهم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لمَّا أعمَى الله تعالى عينَه عن مشاهدة ما شاهدوه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ولو شاهد ذلك لسجَدَ كما سجدوا.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ غلط اللعينُ في زَعْمه أنَّه خيرٌ من آدمَ عليه السلام، ولم يخطُر في باله أيضاً أنَّ المحبَّ الصادقَ يمتثلُ أمر محبوبه كيف كان، ومن هنا قيل:

لو قال تيهاً قِفْ على جَمْر الغَضَى لوقفتُ ممتثلاً ولم أتوقَّفِ[2]

وقال بعضُ أهل الوحدة: إنَّ الملعونَ ظنَّ أنَّه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره تعالى، وقد أخطأ أيضاً لأنَّه لا غيرَ هناك؛ لأنَّ في حقيقة جَمْعِ الجمع ترتفعُ الغيريَّةُ وتزولُ الاثنينيَّةُ، وأنت تعلم أنَّ هذا بمراحلَ عمَّا يدلُّ عليه كلامُه، وأنَّ الغيريَّة إذا ارتفَعَت في هذا المقام ترتفعُ مطلقاً، فلا تبقَى غيريَّةٌ بين آدم وإبليسَ

---

(١) جاء في هامش (م): هي كلمة مستعملة عند العامة يقولون: جَلَّدْتُ الكتاب، أي: وضعتُ له جلداً، وبهذا المعنى استُعملَت هنا جرياً على المتعارف عندهم، وإلا قال بعض الأفاضل: جلدت الكتاب، بمعنى: أزلتُ جلدهُ فليحفظ. اهـ منه.

(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص ١٥٣، وتقدم ١/ ٣٢٣.

بل ولا بينهما وبينَ شخصٍ من الأشخاص الخارجية والذهنية، ومن هنا قال قائلهم:

ما آدمُ في الكون ما إبليسُ ما ملك سليمان وما بِلقيسُ
الكلُّ عبارةٌ وأنت المعنى يا مَن هو للقلوب مغناطيسُ[١]

وقال الحسينُ بنُ منصور:

جُحُودي لك تقديس وعَقْلي فيك مَنْهوسُ[٢]
فَمَنْ آدمُ إلَّاك ومَن في البَيْن إبليسُ[٣]

وقد انتشَرَ مثلُ هذا الكلام اليومَ في الأسواق ومجالس الجهلةِ والفسَّاق، واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وتفاقَمَ الأمرُ، وما له سوى الله تعالى من دافع.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ طريدٌ عن ساحة القرب؛ إذ القرب يقتضي الامتثال، وكلَّما ازداد العبدُ قرباً من ربِّه ازداد خضوعاً وخشوعاً.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لم يُرد سبحانه أنَّه بعد ذلك يحصلُ له القرب، خلافاً لبعض أهل الوحدة، بل أرادَ جلَّ وعلا بعضَ ما قدَّمناه.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لأُزيننَّ لهم الشهواتِ في الجهة السفلية ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصتَهم لك واصطفيتَهم لمحبَّتك، أو المخلصين في طاعتهم لك، ولا يلتفتون لأحدٍ سواك، وفيه من مَدْح الإخلاص ما فيه، وفي الخبر: «العالِمُ هلكَى إلا العالِمون، والعالمون هلكَى إلا العاملون، والعاملون هلكَى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر ـ أي: شرف ـ عظيم»[٤] كما ذكره السيد السند في بعض تعليقاته.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: الذين يُناسبونك في الغواية والبعد ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ عدد الحواسِّ

---

(١) لم نقف عليها، وسينسبها المصنف إلى ابن عربي عند نهاية تفسير سورة فصلت.
(٢) في هامش (م) أصله: القليل اللحم من الرجال. اهـ منه. ينظر القاموس (نهس).
(٣) تفسير القشيري ٢/ ٢٧٢، دون نسبة.
(٤) سلف ٢/ ٢٨٢.

الخمسِ والقوَّتَين الشَّهويَّة والغَضَبية، وهاتان القوّتان بابان عظيمان للضلالة المفضية إلى النار.

أخرج ابنُ جرير عن يزيد بنِ قُسَيط قال: كانت للأنبياء عليهم السلام مساجدُ خارجةٌ من قراهم، فإذا أرادَ أحدُهم أنْ يَستنبئَ ربَّه عن شيءٍ، خرج إلى مسجده فصلَّى ما كتبَ الله تعالى، ثم سأل ما بدا له، فبينما نبيٌّ في مسجده إذ جاء إبليسُ حتى جلَسَ بينه وبين القِبلة، فقال النبيُّ: أعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ثلاثاً، فقال إبليس: أخبرني بأيِّ شيءٍ تنجو منِّي؟ قال النبيُّ: بل أخبرني بأيِّ شيءٍ تغلبُ ابنَ آدم؟ فأجدَّ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه، فقال النبيُّ: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾. قال إبليس: قد سمعتُ هذا قبل أنْ تولد. قال النبيُّ: ويقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وإنِّي والله تعالى ما أحسَسْتُ بك قطُّ إلا استعذْتُ بالله تعالى منك. قال إبليس: صدقتَ بهذا تنجو منِّي. فقال النبيُّ: أخبرني بأيِّ شيءٍ تغلبُ ابنَ آدم؟ قال: آخذُهُ عند الغضب وعند الهوى(١).

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ فيكونُ لكلِّ بابٍ فرقةٌ تغلبُ عليها قوَّةُ ذلك الباب، نسألُ الله تعالى أنْ يُجيرنا منها بحرمة سيِّد ذوي الألباب ﷺ.

❋ ❋ ❋

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: مستقرُّون في ذلك خالدون فيه، والمرادُ بهم ـ على ما في «الكشاف» عن ابن عباس ﵄ ـ الذين اتَّقَوا الكفرَ والفواحشَ، ولهم ذنوبٌ تكفِّرها الصلواتُ وغيرُها(٢).

وفيه أنَّ المتقي على الإطلاق مَن يتَّقي ما يجبُ اتِّقاؤه مما نُهي عنه.

ونقل الإمامُ عن جمهور الصحابة والتابعين وذَكَر أنَّه المنقولُ عن الحبر أنَّ المرادَ بهم الذين اتَّقَوا الشرك، ثم قال: وهذا هو الحقُّ الصحيحُ، والذي يدلُّ عليه

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧١-٧٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٢.

أنَّ المتقي هو الآتي بالتقوى مرَّةً واحدةً، كما أنَّ الضارب هو الآتي بالضرب مرَّةً، فليس من شرط صدْقِ الوصف بكونه مُتَّقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى، والذي يُقرِّر ذلك أنَّ الآتي بفردٍ واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى، فإنَّ الفردَ مشتملٌ على الماهية بالضرورة، وكلُّ آتٍ بالتقوى يجبُ أنْ يكونَ مُتَّقياً، فالآتي بفردٍ يجبُ كونه متقياً، ولهذا قالوا: ظاهرُ الأمر لا يفيدُ التكرار، فظاهرُ الآية يقتضي حصولَ الجنَّات والعيون لكلِّ مَن اتَّقى عن ذنبٍ واحدٍ إلا أنَّ الأمة مجمعةٌ على أنَّ التقوى عن الكفر شرطٌ في حصول هذا الحكم، وأيضاً هذه الآية ورَدَت عقيبَ قولِ إبليسَ: (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾) وعقيبَ قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ) فلذا اعتُبر الإيمان في هذا الحكم، فوجب أنْ لا يُزادَ فيه قيدٌ آخرُ؛ لأنَّ تخصيصَ العامِّ لما كان خلافَ الظاهر، فكلَّما كان التخصيصُ أقلَّ كان أوفقَ بمقتضَى الأصل والظاهر، فثبتَ أنَّ الحكمَ المذكورَ يتناولُ جميعَ القائلين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ﷺ، ولو كانوا مِن أهل المعصية، وهذا تقريرٌ بيِّنٌ وكلامٌ ظاهرٌ»[1]. اهـ.

وقد يقال: لا شبهةَ في أنَّ السياق يدلُّ على أنَّ المتقين هم المخلصون السابقُ ذكرُهم، وأنَّ المطلَق يُحمَلُ على الكامل، والكامل ما أشار إليه الزمخشري ولابأس بالحمل عليه، وقيل: إنَّه الأنسبُ.

وإخراجُ العصاة من النار ثابتٌ بنصوصٍ أُخَر، وكذا إدخالُ التائبين الجنةَ، بل غيرهم أيضاً، فلا يلزمُ القائل بذلك القول بما عليه المعتزلةُ من تخليد أصحاب الكبائر، كما لا يخفى.

و«أل» للاستغراق، وهو إما مجموعيٌّ، فيكونُ لكلِّ واحدٍ من المتقين جنةٌ وعينٌ، أو إفراديٌّ فيكونُ لكلٍّ جناتٌ وعيونٌ.

والمرادُ بالعيون يحتمل ـ كما قيل ـ أنْ يكونَ الأنهارَ المذكورةَ في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ الآية [محمد: ١٥].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ١٩١-١٩٢.

ويحتمل أنْ يكونَ منابعَ مغايرة لتلك الأنهارِ، وهو الظاهر، وهل كلٌّ من المتقين مختصٌّ بعيونه، أو ليس مختصًّا، بل تجري من بعضٍ إلى بعضٍ، احتمالان، فإنَّه يمكن أنْ يكونَ لكلٍّ واحدٍ عينٌ وينتفعُ بها مَن في معيته، ويمكنُ أنْ تجريَ العينُ من بعضهم إلى بعضٍ؛ لأنَّهم مطهَّرون عن الحقد والحسد. وضمُّ العين من «عُيون» هو الأصلُ، وبه قرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام، وقرأ الباقون بالعكس[١]؛ وهو لمناسبة الياء.

﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ أمرٌ لهم بالدخول مِن قِبَلِهِ تعالى، وهو بتقدير القول على أنَّه حالٌ، أي: وقد قيل لهم: ادخُلُوها، فلا يرد أنَّه بعد الحكم بأنَّهم في الجنة، كيف يقال لهم: ادخُلوها، وجوِّز أنْ يقدَّرَ مقولاً لهم ذلك، والمقارنة عرفيَّة؛ لاتِّصالهما، وقيل: يقدَّر: يقال لهم، فيكونُ مستأنفاً، ووجهُ ذِكر هذا الأمرِ بعد الحكم السابق بأنَّهم لمَّا ملكوا جنَّاتٍ كثيرةً كانوا كلَّما خرجُوا من جنةٍ إلى أخرى قيل لهم: ادخُلُوها، إلى آخره، وهو إنَّما يجري على تقدير أنْ يكونَ لكلٍّ جناتٌ، وبغير ذلك مما فيه دخل.

وقرأ الحسن: «أُدْخِلُوها»[٢] على أنَّه ماضٍ مبنيٌّ للمفعول من باب الإفعال، والهمزةُ فيه للقطع، وأصلُ القياس أنْ لا يُكسَر التنوين قبلها إلا أنَّ الحسن كسره على أصل التقاء الساكنَين إجراءً لهمزة القطعِ مجرى همزةِ الوصل في الإسقاط.

وقرأ يعقوب في رواية رويس كذلك إلا أنَّه ضمَّ التنوين بإلقاء حركةِ همزة القطع عليه[٣]، وعنه: «أَدخِلوها» بفتح الهمزة[٤] وكسر الخاء على أنَّه أمرٌ للملائكة بإدخالهم إياها، وفتَحَ في هذه القراءةِ التنوينَ بإلقاءِ فتحةِ الهمزة عليه.

وعلى القراءة بصيغة الماضي لا حاجةَ إلى تقدير القول، والفاعلُ عليها هو الله تعالى، أي: أَدْخَلَهم الله سبحانه إياها.

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: ملتبسين به، أي: سالمين، أو مُسلَّماً عليكم، وعلى الأول يُراد سلامتُهم من الآفة والزوال في الحال، ويرادُ بالأمن في قوله سبحانه:

---

(١) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٢٢٦.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٦، وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٠، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٩٧.
(٣) النشر ٢/ ٢٢٦، وهي غير المشهورة عنه.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٥٦.

﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الأمنُ من طروِّ ذلك في الاستقبال، فلا حاجةَ إلى تخصيص السلامة بما يكون جسمانيًّا والأمن بغيره.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: حقدٍ، وأصلُه على ما قيل من الغِلالَة وهو ما يُلبَسُ بين الثوبَين الشِّعارِ والدِّثارِ، وتُستَعَار للدِّرع كما يُستعارُ الدرعُ لها، وقيل: قيل للحقد: غِلٌّ؛ أَخْذاً له من انغلَّ في كذا وتَغلَّل: إذا دَخَل فيه، ومنه قيل للماء الجاري بين الشجر: غَلَل، وقد يُستعمَل الغِلُّ فيما يُضمَر في القلب ممَّا يُذَمُّ كالحسد والحقد وغيرهما.

وهذا النزع قيل في الدنيا، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال: قلتُ لأبي جعفر: إنَّ فلاناً حدَّثني عن علي بنِ الحسين رضي الله عنهما أنَّ هذه الآية نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضي الله عنهم[1]: (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) قال: والله إنَّها لفيهم أنزلَت، وفيمَن تنزلُ إلا فيهم؟! قلتُ: وأيُّ غلٍّ هو؟ قال: غلُّ الجاهليةِ، إنَّ بني تَيْم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية، فلمَّا أسلم هؤلاء القوم تحابُّوا، فأَخذَت أبا بكر الخاصرةُ، فجَعَل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه يُسخِّن يَده فيكوي بها خاصرةَ أبي بكر رضي الله عنه، فنزلت هذه الآية[2].

ويُشعر بذلك على ما قيل ما أخرجَه سعيدُ بنُ منصور وابن جرير وابن المنذر والحاكم وغيرُهم من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال لابن طلحةَ: إنِّي لأرجو أنْ أكونَ أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى: (وَنَزَعْنَا) الآية، فقال رجلٌ من هَمْدان: إنَّ الله سبحانه أعدلُ من ذلك. فصاحَ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَهُ عليه صيحةً تداعى لها القصرُ، وقال: فَمَن إذن إنْ لم نكن نحن أولئك[3]؟.

---

(١) جاء في هامش (م): رأيت في بعض النسخ: وعثمان رضي الله عنه، وآخِرُ الخبر لا يقتضيها، فتأمل. اهـ منه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٦٧، وتاريخ دمشق ٣٠/ ٣٣٨ و٥٤/ ٢٨٩، وأخرجه الطبري ١٤/ ٨٠، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٨١.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٧٧، والمستدرك ٢/ ٣٥٣، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٢٢٩، وأحمد في الفضائل (١٣٠٠).

وقيل: إنَّ ذلك في الآخرة بعد دخول الجنة، فقد أخرجَ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه من طريق القاسم عن أبي أمامة قال: يدخلُ أهلُ الجنة الجنةَ على ما في صدورهم في الدنيا من الشَّحناء والضغائن حتى إذا تَدانَوا وتقابلوا على السرر، نَزَع الله تعالى ما في صدورهم في الدنيا من غِل[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم بنِ رُشَيد قال: ينتهي أهلُ الجنة إلى باب الجنة وهم يتلاحَظُون تلاحُظ الغَيران، فإذا دخلوها نَزَع الله تعالى ما في صدورهم من الغل[2].

وقيل: فيها قبل الدخول، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم أيضاً عن الحسن قال: بلغَني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُحبَسُ أهلُ الجنةِ بعدَ ما يَجوزُون الصراطَ حتى يُؤخَذَ لبعضهم مِن بعضٍ ظلاماتهم في الدنيا، ويدخلون الجنةَ وليس في قلوب بعضِهم على بعضٍ غلٌّ»[3].

وهذا ونحوه يُؤيِّد ما قاله الإمام في المتقين[4].

وقيل: معنى الآية: طهَّر الله تعالى قلوبَهم مِن أنْ يتحاسدوا على الدرجات في الجنة، ونَزَع سبحانه منها كلَّ غلٍّ، وألقى فيها التوادَّ والتحابَّ، والآيةُ ظاهرةٌ في وجود الغلِّ في صدورهم قبل النزع، فتأمَّل.

﴿إِخْوَانًا﴾ حالٌ من الضمير في «في جنات» وهي حالٌ مترادفةٌ إنْ جُعِل «ادخلوها» حالاً من ذلك أيضاً، أو حال من فاعل «ادخلوها» وهي مقدَّرة إنْ كان النزعُ في الجنة، أو من ضمير «آمنين» أو الضمير المضاف إليه في «صدورهم» وجازَ؛ لأنَّ المضاف بعضٌ مِن ذلك، وهي حالٌ مقدَّرةٌ أيضاً، ويقال نحو ذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ويجوزُ أنْ يكونا صِفتَين لـ «إخواناً»، أو حالَين من الضمير المستتر فيه؛ لأنَّه في معنَى المشتقِّ، أي: متصافيين، ويجوزُ أنْ يكونَ «متقابلين»

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٧٥، وعزاه لابن أبي حاتم ولابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠١.
(٣) ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٧٨.
(٤) سلف قريباً.

حالاً من المستتر في «على سُرُرٍ» سواء كان حالاً أو صفةً، وأبو حيان[1] لا يَرَى جوازَ الحال من المضاف إليه إذا كان جزأه أو كجزئه، ويخصُّه فيما إذا كان المضافُ مما يعمل في المضاف إليه الرفعَ أو النصبَ، وزَعَم أنَّ جواز ذلك في الصورتَين السابقتَين مما تفرَّد به ابن مالك[2]، ولم يقف على أنَّه نقله في «فتاويه» عن الأخفش وجماعة وافقوه فيه، واختار كون «إخواناً» منصوباً على المدح.

والسُّرُر بضمَّتَين جمع سرير، وهو معروفٌ، وأَخذُه من السرور إذا كان ذلك لأُولي النعمة، وإطلاقُه على سرير الميِّتِ؛ للتشبيه في الصورة، وللتفاؤُل بالسرور الذي يَلحَقُ الميت برجوعه إلى جوار الله عزَّ وجلَّ، وخلاصِه من سجنه المشارِ إليه بما جاء في بعض الآثار: «الدنيا سِجنُ المؤمن»[3].

وكلب وبعضُ بني تميم يفتحون الراء، وكذا كلُّ مضاعفِ فعيل، ويُجمَع أيضاً على أَسِرَّة، وهي على ما رُوي عن ابن عباس ﵄ مِن ذهب مكلَّلة باليواقيت والزَّبرجَد والدُّرِّ. وسعَةُ كلٍّ كسعَة ما بين صنعاء إلى الجابية. وفي كونهم على سُرُرٍ إشارة إلى أنَّهم في رفعة وكرامةٍ تامَّةٍ.

وروي عن مجاهد أنَّ الأسرَّة تدورُ بهم حيثما داروا، فهم في جميع أحوالهم متقابلون لا ينظرُ بعضُهم إلى قفا بعض، فالتقابل: التواجه، وهو نقيضُ التدابر، ووصفهم بذلك إشارة إلى أنَّهم على أشرف أحوالِ الاجتماع. وقيل: هو إشارةٌ إلى أنَّهم يجتمعون ويتنادَمُون، وقيل: معنى «متقابلين»: متساوين في التواصل والتزاور.

وفي بعض الأخبار: إنَّ المؤمن في الجنة إذا أراد أنْ يلقَى أخاه المؤمنَ سارَ كلُّ واحدٍ منهم إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدَّثان[4].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٥٧.

(٢) التسهيل ص ١١٠، وألفيته بشرح ابن عقيل ١/ ٦٤٣.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٥٢، وإحياء علوم الدين ٤/ ٥٤٢. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس، وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد وتفرد به عن أنس، والربيع بن صبيح ضعيف جدًا. ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسلاً دون ذكر أنس. اهـ.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ما، إمَّا بأنْ لا يكونَ لهم فيها ما يُوجبُه من السعي في تحصيل ما لابدَّ لهم منه لحصول كلِّ ما يشتهونه مِن غير مزاولةِ عملٍ أصلاً، وإمَّا بأنْ لا يعتريَهم ذلك وإنْ باشروا الحركات العنيفة؛ لكمال قوَّتهم.

وفي بعض الآثار: «إنَّ قوَّةَ الواحدِ منهم قوَّةُ أربعين رجلاً من رجال الدنيا»(١).

والجملةُ استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ، أوحالٌ من الضمير في «في جنات»، أو من الضمير في «إخواناً»، أو من الضمير في «متقابلين»، أو من الضمير في «على سُرُرٍ».

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: هم خالدون فيها، فالمرادُ استمرارُ النفي، وذلك لأنَّ إتمامَ النعمة بالخلود، وهذا متكرِّرٌ مع «آمنين» إنْ أُريدَ منه الأمنُ من زوالهم عن الجنة وانتقالهم منها، وارتكب ذلك؛ للاعتناء والتأكيد، وإنْ أُريدَ به الأمنُ من زوال ما هم عليه من النعيم والسرورِ والصحةِ لا يتكرَّر.

وبحث بعضُهم في لزوم التكرار بأنَّ الأمنَ من الشيء لا يستلزمُ عدمَ وقوعه، كأمن الكَفَرة من مكر الله تعالى مثلاً، وأنَّه يجوزُ أنْ يكون المرادُ زوالَ أنفسهم بالموت لا الزوال عن الجنة.

وتُعقِّب بأنَّ الثاني في غاية البعد، فإنَّه لا يقال للميت: إنَّه فيها وإنْ دُفن بها كالأول، فإنَّ الله تعالى إذا بشَّرهم بالأمن منه كيف يُتوهَّم عدمُ وقوعه.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ قيل: مطلقاً، وقيل: الذين عبَّر عنهم بالمتقين، أي: أَخبِرْهم ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ وهذا إجمالٌ لِما سبَقَ من الوعد والوعيد وتأكيدٌ له، و«أنا» إما مبتدأ، أو تأكيدٌ، أو فصلٌ، و«هو» إما مبتدأ أو فصلٌ، و«أنَّ» وما بعدها ـ قال أبو حيان ـ سادٌّ مسدَّ مفعولي «نبئ» إنْ قلنا: إنَّها تعدَّت إلى ثلاثة، ومسدَّ واحدٍ إنْ قلنا: تعدَّت إلى اثنين(٢).

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٢٦٩)، وابن حبان (٧٤٢٤) من حديث زيد بن الأرقم ﷺ، وجاءت الروايات بلفظ: «مئة رجل».

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٥٧.

وفي ذكر المغفرة إشعارٌ على ما قيل بأنْ ليس المرادُ بالمتقين مَن يتَّقي جميعَ الذنوب، إذ لو أُريدَ ذلك لم يكن لذكرها موقع. وقيل: إنَّ ذكرها حينئذٍ لدفع توهُّم أنَّ غيرَ أولئك المتقين لا يكونُ في الجنة بأنَّه يدخلُها وإنْ لم يتب؛ لأنَّه تعالى الغفورُ الرحيم، وله وجه.

وفي توصيف ذاته تعالى بالمغفرة والرحمة دونَ التعذيب، حيث لم يقل سبحانه: وإني أنا المُعذِّب المؤلمُ؛ ترجيحٌ لجانب الوعد على الوعيد، وإنْ كان الأليمُ على ما قال غيرُ واحدٍ في الحقيقة صفةَ العذاب، وكذا لا يضرُّ في ذلك الإضافةُ؛ لأنَّها لا تقتضي حصولَ المضافِ إليه بالفعل، كما إذا قيل: ضَرْبي شديدٌ، فإنَّه يصحُّ أنْ يُرادَ منه ذاك شديدٌ إذا وقع، ويكفي في الإضافة أدنَى ملابسةٍ، ويُقوِّي أمرَ الترجيح الإتيانُ بالوصفَين بصيغتَي المبالغة، وكذا ما أخرج ابنُ جرير وابنُ مردويه من طريق عطاء بنِ أبي رباح عن رجلٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: اطَّلَع علينا رسولُ الله ﷺ من الباب الذي [يدخلُ] منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبَرَ، حتى إذا كان عند الحجرِ رَجَع إلينا القَهْقَرَى فقال: «إنِّي لمَّا خرجْتُ جاء جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد، إنَّ الله تعالى يقولُ: لِمَ تُقنِّطُ عبادي؟ ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾» الآية(١). وتقديمُ الوعد أيضاً يؤيِّدُ ذلك، وفيه إشارةٌ إلى سَبْق الرحمة حسبما نَطَق به الخبر المشهور.

ومع هذا كلِّه في الآية ما تخشعُ منه القلوب، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وجماعةٌ عن قتادة أنَّه قال في الآية: بلَغَنا أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «لو يَعلَم العبدُ قدرَ عَفْوِ الله تعالى لَمَا تورَّعَ مِن حرامٍ، ولو يَعلَم قدرَ عذابه لبَخَعَ نفسَه»(٢).

وأخرج الشيخان وغيرُهما عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله سبحانه خَلَق الرحمةَ يوم خلقها مئةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين رحمةً وأرسلَ في خلقه كلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يعلم الكافرُ كلَّ الذي عندَه مِن رحمة لم

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٨٢، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٢، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٨٩٢)، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) عزاه لعبد بن حميد السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٢، وأخرجه الطبري ١٤/ ٨١-٨٢.

يَيْأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمنُ بكلِّ الذي عندَ الله تعالى من العذاب لم يأمن مِن النار»[١].

ثم إنَّه تعالى لمَّا ذكر الوعدَ والوعيد ذكَر ما يُحقِّق ذلك لِمَا تضمَّنه من البشرى والإهلاك بقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ إلخ، وقيل: إنَّه تفصيلٌ لِمَا تضمَّنَته الآيةُ السابقةُ منهما لا مِن الوعيد فقط كما قيل، والمرادُ بـ «ضيف إبراهيم» الملائكةُ عليهم السلام الذين بشَّروه بالولد وبهُلْك قومِ لوط عليه السلام، وإنَّما سُمُّوا ضيفاً؛ لأنَّهم في صورة مَن كان ينزلُ به عليه السلام من الأضياف، وكان لا ينزل به أحدٌ إلا أضافه، وكان لقَصْره عليه السلام أربعةُ أبواب، من كلِّ جهةٍ بابٌ، لئلا يفوتَه أحدٌ، ولذا كان يُكنَى أبا الضيفان. واختلف في عددهم كما تقدَّم.

وهو في الأصل مصدرٌ ـ والأفصحُ أنْ لا يُثنَّى ولا يُجمَع ولا يؤنَّث ـ للمثنى والمجموع والمؤنَّث، فلا حاجةَ إلى تكلُّف إضمارٍ، أي: أصحاب ضيف، كما قاله النحَّاس[٢] وغيرُه، ولم يتعرَّض سبحانه لعنوان رسالتهم؛ لأنَّهم لم يكونوا مُرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ عليه السلام كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكره.

وقرأ أبو حيوة: «ونبِّيهم» بإبدال الهمزة ياء[٣].

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ بفعل محذوفٍ معطوفٍ على «نبئ» أي: واذكر وقتَ دخولهم عليه، أو ظرفٌ لـ «ضيف» بناء على أنَّه مصدرٌ في الأصل، وجوَّز أبو البقاء[٤] كونه ظرفاً له بناءً على أنَّه مصدر الآن مضاف إلى المفعول، حيث كان التقدير: أصحابُ ضيف، حسبما سمعتَه عن النحاس وغيره، وأنْ يكون ظرفاً لخبر مضافاً إلى «ضيف» أي: خبر ضيف إبراهيم حين دخولهم عليه ﴿فَقَالُوا﴾ عند ذلك: ﴿سَلَامًا﴾ مقتطعٌ من جملة محكيةٍ بالقول، وليس منصوباً به، أي: سلَّمت

(١) صحيح البخاري (٦٤٦٩)، وصحيح مسلم (٢٧٥٢)، وسنن الترمذي (٣٥٤١)، ومسند أحمد (٨٤١٥).

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٣٨٢، ونقله عنه المؤلف بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٣) البحر ٥/ ٤٥٨.

(٤) الإملاء ٣/ ٤٣١-٤٣٢.

سلاماً من السلامة، أو سلَّمنا سلاماً من التحية، وقيل: هو نعتٌ لمصدر محذوفٍ تقديرُه: فقالوا قولاً سلاماً.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي خائفون، فإنَّ الوجلَ اضطرابُ النفس لتوقُّع مكروه، وقوله عليه السلام هذا كان ـ عند غير واحدٍ ـ بعد أنْ قرَّب إليهم العجلَ الحنيذَ فلم يأكلُوا منه، وكان العادةُ أنَّ الضيفَ إذا لم يأكل مما يقدَّم له، ظنُّوا أنَّه لم يجئ بخير. وقيل: كان عند ابتداء دخولهم حيث دخلُوا عليه عليه الصلاة والسلام بغير إذنٍ وفي وقتٍ لا يُطرق في مثله، وتُعقِّب بأنَّه لو كان كذلك لأجابوا حينئذٍ بما أجابوا به، ولم يكن عليه السلام ليقرِّب إليهم الطعام، وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] ظاهرٌ فيما تقدَّم، ولعلَّ هذا التصريحَ كان بعد الإيجاس.

وقيل: يحتملُ أنْ يكونَ القول هنا مجازاً بأنْ يكونَ قد ظهرَت عليه عليه الصلاة والسلام مخايلُ الخوفِ، حتى صار كالقائل المصرّح به، وإنَّما لم يُذكر هنا تقريبُ الطعام؛ اكتفاءً بذكره في غير هذا الموضع، كما لم يُذكر ردُّه عليه السلام السلامَ عليهم؛ لذلك، وقد تقدَّم ما ينفعك هنا مفصَّلاً في «هود»[1] فتذكَّره.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، وقرأ الحسن: «لا تُوجَل» بضمِّ التاء[2] مبنيًّا للمفعول من الإيجال، وقرئ: «لا تُواجَل»[3] مِن واجَلَه بمعنى أَوْجَلَه، و: «لا تَاجَل» بإبدال الواو ألفاً[4] كما قالوا: تابة في توبة.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئنافٌ في معنى التعليل للنهي عن الوجل، فإن المبَشَّر لا يكادُ يحومُ حولَ ساحته خوفٌ ولا حزنٌ، كيف لا وهي بشارةٌ ببقائه وبقاءِ أهله في عافيةٍ وسلامةٍ زماناً طويلاً.

---

(١) الآية رقم (٧٠).
(٢) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحتسب ٢/ ٤.
(٣) قرأ بها أصحاب عبد الله كما في القراءات الشاذة ص ٧١، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٨.
(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧١ لأبي معاذ، ووردت في البحر المحيط ٥/ ٤٥٨ دون نسبة.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام؛ لأنَّه قد صُرِّح به في موضعٍ آخرَ، وقد جعل سبحانه البشارةَ هنا لإبراهيمَ، وفي آيةٍ أخرى لامرأته[1]، ولكلٍّ وجهةٌ، ولعلَّها هنا كونُها أوفقَ بإنباء العربِ عما وقَعَ لجدِّهم الأعلى عليه السلام، ولعلَّه سبحانه لم يتعرَّض ببشارة يعقوبَ؛ اكتفاءً بما ذكر في سورة هود.

والتنوينُ للتعظيم، أي: بغلامٍ عظيمِ القدر ﴿عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ ذي علم كثير، قيل: أُريدَ بذلك الإشارةُ إلى أنَّه يكون نبيًّا، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات:١١٢].

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وأثَّر فيَّ، والاستفهام للتعجُّب، و«على» بمعنى «مع» مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧] على أحد القولين في الضمير، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، فيكونُ قد تعجَّب عليه السلام من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك.

ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ للإنكار، و«على» على ما سمعت بمعنى أنَّه لا ينبغي أنْ تكونَ البشارةُ مع الحال المذكورة.

وزعَمَ بعضُ المنتمين إلى أهل العلم أنَّ الأَوْلَى جعْلُ «على» بمعنى «في» مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [القصص:١٥] وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢] لوجهين: الاستغناءِ عن التقدير، وكونِ المصاحبة لصدقها بأوَّل المسِّ لا تُنافي البشارة. وهو لَعمري ضربٌ من الهذيان كما لا يخفَى على إنسان.

ثم إنَّه عليه السلام زادَ في ذلك فقال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ أي: فبأيِّ أُعجوبةٍ تُبشِّرون، أو بأيِّ شيءٍ تُبشّرون، فإنَّ البشارةَ بما لا يقعُ عادةً بشارةٌ بغير شيءٍ. وجوِّز أنْ تكونَ الباء للملابسة، والاستفهامُ سؤالٌ عن الوجه والطريقةِ، أي: تبشرون ملتبسين بأيِّ طريقةٍ؟! ولا طريقَ لذلك في العادة.

وقرأ الأعرج: «بشرتموني» بغير همزةِ الاستفهام، وابن محيصن: «الكُبْر» بضمِّ

---

(١) في سورة هود آية (٧١).

الكاف وسكون الباء[١]. وقرأ ابنُ كثير بكسر النونِ مشدَّدةً بدون ياءٍ على إدغام نونِ الجمع في نون الوقايةِ والاكتفاء بالكسرة عن الياء. وقرأ نافع بكسر النون مخففةً[٢]، واعترضَ على ذلك أبو حاتم بأنَّ مثله لا يكونُ إلا في الشعر[٣]، وهو مما لا يُلتفَتُ إليه، وخرِّج على حذف نونِ الرفع كما هو مذهبُ سيبويه[٤]؛ استثقالاً لاجتماع المثلَين ودلالةً بإبقاء نون الوقايةِ على الياء.

وقيل: حُذِفَت نونُ الوقاية وكُسرَت نون الرفع وحُذفَت الياء اجتزاءً بالكسرة، وحذفها كذلك كثيرٌ فصيحٌ. وقد قرئ به في مواضعَ عديدةٍ[٥]، ورُجِّح الأول؛ بقلَّة المؤونة، واحتمالُ عدمِ حذفِ نونٍ في هذه القراءةِ بأنْ يكون اكتُفيَ بكسر نون الرفع من أوَّل الأمر، خلافُ المنقول في كتب النحو والتصريف، وإنْ ذهب إليه بعضُهم.

وقرأ الحسن كابن كثير إلا أنَّه أثبتَ الياء[٦]. وباقي السبعة يقرؤون بفتح النون[٧]، وهي نونُ الرفع.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر المحقَّق لا محالةَ، أو باليقين الذي لا لَبْسَ فيه، أو بطريقة هي حقٌّ، وهو أمرُ مَن له الأمرُ، القادر على خلق الولد من غير أبَوين، فكيف بإيجاده من شيخ وعجوز.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: الآيسين من خرق العادة لك، فإنَّ ظهورَ الخوارق على يد الأنبياء عليهم السلام كثيرٌ حتى لا يعدّ بالنسبة إليهم مخالِفاً للعادة، وكأنَّ مقصدَه عليه السلام استعظامُ نعمته تعالى عليه في ضمن التعجُّب العادي المبنيِّ على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده جلَّ وعلا، لا استبعادُ ذلك بالنسبة إلى قدرته جلَّ جلاله، فإنَّه عليه السلام بل النبيّ مطلقاً أجلُّ قدراً من

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٢) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٤) الكتاب ٣/ ٥١٩-٥٢٠.

(٥) ينظر القراءات عند قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، و﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وغيرها.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٥، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٨.

(٧) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

ذلك، ويُنبئ عنه قولُ الملائكة عليهم السلام: «فلا تكُنْ من القانطين» على ما فيه من المبالغة دون أنْ يقولوا: من الممترين ونحوه.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يقنطُ ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: الكفرة المخطئون طريقَ معرفةِ الله تعالى، فلا يعرفون سعَةَ رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى، وهذا كقول ولدِه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. ومرادُه عليه السلام نَفْيُ القنوطِ عن نفسه بأبلغ وجهٍ، أي: ليسَ بي قنوطٌ من رحمته تعالى، وإنَّما الذي أقولُ؛ لبيان منافاةِ حالي لفيضان تلك النعمةِ الجليلة عليَّ، وفي التعرُّض لعنوان الربوبية والرحمة ما لا يخفَى من الجزالة.

وقرأ ابنُ وثاب وطلحة والأعمش وأبو عمرو في رواية: «القَنِطِين»[(١)]، والنحويَّان والأعمش: «يَقنِط» بكسر النون[(٢)]، وباقي السبعة بفتحها، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما والأشهبُ بضمِّها[(٣)]، وهو شاذٌّ، وماضيه مثله في التثليث.

واستُدِلَّ بالآية على تفسير الضالِّين بما سمعْتَ لما سمعتَ من الآية على أنَّ القنوط ـ وهو كما قال الراغب: اليأسُ من الخير[(٤)] ـ كفرٌ، والمسألة خلافيةٌ، والشافعيةُ على أنَّ ذاك وكذا الأمنُ من المكر من الكبائر؛ للحديث الموقوف على ابن مسعود[(٥)]، أو المرفوع: «مِن الكبائر: الإشراكُ بالله تعالى، واليأسُ من رَوْح الله تعالى، والأمنُ من مكر الله تعالى»[(٦)] وقال الكمال بنُ أبي شريف: العطفُ على

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٣-٣٨٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٢) قراءة النحويَّيْن (أبي عمرو بن العلاء والكسائي) في التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢، وقرأ بها يعقوب وخلف من العشرة، وقراءة الأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٣) المحتسب ٢/ ٧، والبحر المحيط ٥/ ٤٥٩.

(٤) مفردات الراغب (قنط).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ٤٦٠، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٠٤: إسناده صحيح.

(٦) أخرجه البزار (١٠٦ - كشف) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي إسناده نظر، والأشبه الموقوف على ابن مسعود، ينظر ما سلف ٩/ ٢٦٤.

الإشراك بمعنى مطلَقِ الكفر يقتضي المغايرة، فإنْ أُريدَ باليأس إنكارُ سعَةِ الرحمة الذنوبَ، وبالأمن اعتقادُ أنَّه لا مكرَ، فكلٌّ منهما كفرٌ اتِّفاقاً، لأنَّه ردٌّ للقرآن العظيم، وإنْ أُريد استعظامُ الذنوب واستبعادُ العفو عنها استبعاداً يدخل في حدِّ اليأس وغَلَبة الرجاء المدخِل له في حدِّ الأمن، فهو كبيرةٌ اتِّفاقاً. اهـ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك(١)، فتذكَّر.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمرُكم وشأنُكم الخطير الذي لأجله أُرسلتُم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ لعلَّه عليه السلام علم أنَّ كمالَ المقصود ليس البشارةَ، من مقالةٍ لهم في أثناء المحاورةِ مطويةٍ هنا، وتوسيطُ «قال» بين كلامَيْه عليه السلام مشيرٌ إلى أنَّ هناك ما طُوِيَ ذكرُه، وخطابُه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابق مجرَّداً عن ذلك مع تصديره بالفاء ظاهرٌ في أنَّ مقالَتهم المطويَّةَ كانت متضمِّنةً ما فُهِمَ منه ذلك، فلا حاجةَ إلى الالتجاء إلى أنَّ علمه عليه السلام بأنَّ كلَّ المقصود ليس البشارة بسبب أنَّهم كانوا ذوي عددٍ، والبشارة لا تحتاج إلى عدد، ولذلك اكتُفي بواحدٍ في زكريا ومريم عليهما السلام، ولا إلى أنَّهم بشَّروه في تضاعيف الحالِ لإزالة الوجل ولو كانت تمامَ المقصود لابتدؤوا بها، على أنَّ فيما ذكر بحثاً.

فقد قيل: إنَّ التعذيبَ كالبشارة لا يحتاجُ أيضاً إلى العدد؛ ألا يرى أنَّ جبريل عليه السلام قلبَ مدائنهم بأَحَدِ جناحيه، وأيضاً يَردُ على قوله: ولذلك اكتُفي. . . إلخ، أنَّ زكريا عليه السلام لم يكتفِ في بشارته بواحد كما يدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وأما مريمُ عليها السلام فإنَّما جاءها الواحدُ لنفخ الروح والهبةِ كما يدُلُّ عليه قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [مريم: ١٢]. وأما التبشيرُ فلازمٌ لتلك الهبة وفي ضمنها، وليست مقصودةً بالذات. وأيضاً يَخدِشُ قولَه: ولو كانت تمامَ المقصود لابتدؤوا بها، ما في قصة مريم عليها السلام قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٨-١٩]. فيجوز أنْ يكونَ قولهم: «لا تَوجَل» تمهيداً للبشارة.

---

(١) تقدم ١٢/ ٤٧٠-٤٧١.

وأجيبَ عن هذا بأنَّه لا وُرُود له؛ لأنَّ مريم عليها السلام ـ لنزاهة شأنها ـ أوَّل ما أبصَرَتْهُ مُتَمثِّلاً عاجلَته بالاستعاذة، فلم تَدعْه يبتدئُ بالبشارة، بخلاف ما نحن فيه، وعما تقدَّم بأنَّ المعنى إنَّ العادة الجاريةَ بين الناس ذلك، فيرسَلُ الواحدُ للبشارة، والجمعُ لغيرها من حربٍ وأخذٍ ونحو ذلك، والله تعالى يُجري الأمورَ للناس على ما اعتادوه، فلا يرد قصة جبريلَ عليه السلام في ذلك، وإنْ قيل: المراد بالملائكة في تلك الآية جبريلُ عليه السلام، كقولهم: فلانٌ يركبُ الخيل ويلبسُ الثيابَ، أي: الجنس الصادق بالواحد من ذلك، قاله بعض المحقِّقين.

وتعقِّب ما تقدَّم من كون العلم من كلامٍ وقَعَ في أثناء المحاورة وطُويَ ذِكرُه، بأنَّه بعيدٌ.

وتوسيطُ «قال» والفاء والخطاب بعنوان الرسالة لا يُقَرُّ به، أما الأول: فلِجَوَاز أنْ يكونَ لِمَا أنَّ هناك انتقالاً إلى بحث آخرَ، ومثله كثير في الكلام. وأما الثاني فلجواز أنْ تكونَ فصيحةً على معنى: إذا تحقَّقَ هذا فأخبروني ما أمرُكم الذي جئتُم له سوى البشرى؟ وأما الثالث: فلجواز أنْ يقال: إنَّه عليه السلام لم يعلم بأنَّهم ملائكةٌ مرسلون من الله تعالى إلا بعد البشارةِ، ولم يكُ يُحسنُ خطابهم بذلك عند الإنكار أو التعجب من بشارتهم، وكذا لا يحسن في الجواب كما لا يخفَى على أرباب الأذواقِ السليمةِ، بل قد يقال: إنَّه لا يحسن أيضاً عند قوله: (إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) على تقدير أنْ يكونَ عَلِمَ عليه السلام ذلك قبلَ البشارة، لِمَا أنَّ المقام هناك ضيِّقٌ مِن أنْ يطالَ فيه الكلامُ بنحو ذلك الخطاب، فتدبَّر.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ هم قومُ لوطٍ عليه السلام، وجيءَ بهم بطريق التنكير، ووُصِفُوا بالإجرام، استهانةً بهم وذمًّا لهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ قال الزمخشريُّ[1]: يجوزُ أنْ يكونَ استثناءً من «قوم» بملاحظة الصفةِ، فيكونُ الاستثناءُ منقطعاً؛ لأنَّهم ليسوا قوماً مجرمين، واحتمالُ التغليب مع هذه الملاحظة ليتَّصل الاستثناءُ ليس مما يقتضيه المقامُ، ولو سلم فغيرُ ضارٍّ فيما ذكر؛ لأنَّه مبنيٌّ على الحقيقة، ولا ينافي صحَّة الاتِّصال على تقديرٍ آخر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٣.

ويجوزُ أنْ يكون استثناءً من الضمير المستتر في «مجرمين» فيكونُ الاستثناءُ متصلاً؛ لرجوع الضمير إلى القوم فقط، فيكونُ الآلُ على الأوَّل مخرَجين من حكم الإرسال المرادِ به إرسالٌ خاصٌّ، وهو ما كان للإهلاك لا مطلَقِ البعث؛ لاقتضاء المعنى له، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾ خبرُ الإنباء على ما سمعتَ سابقاً، وعن الرضي أنَّ المستثنَى المنقطع منتصبٌ عند سيبويه[1] بما قبلَ «إلا» من الكلام، كما انتصَبَ المتَّصلُ به، وإنْ كانت «إلا» بمعنى «لكن»، وأمَّا المتأخِّرون من البصريين فلمَّا رأوها بمعنى «لكن» قالوا: إنَّها الناصبةُ بنفسها نصب «لكنَّ» للأسماء، وخبرُها في الأغلب محذوفٌ نحو: جاءني القومُ إلا حماراً، أي: لكنَّ حماراً لم يجئ. قالوا: وقد يجيء خبرها ظاهراً نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس:٩٨].

وقال الكوفيون: «إلا» في ذلك بمعنى «سوى»، والنصبُ بعدها في الانفصال كالنصب في الاتصال، وتأويل البصريين أولَى؛ لأنَّ المستثنى المنقطع يلزمُ مخالفتُه لِمَا قبله نفياً وإثباتاً، كما في «لكن»، وفي «سوى» لا يلزم ذلك؛ لأنَّك تقول: لي عليك ديناران سوى الدينار الفلاني. وذلك إذا كان صفةً، وأيضاً معنى «لكن» الاستدراك، والمرادُ به فيها دفعُ توهُّم المخاطَبِ دخولَ ما بعدها في حكم ما قبلَها مع أنَّه ليس بداخلٍ، وهذا هو معنى الاستثناء المنقطع بعينه. انتهى.

وزعَمَ بعضُهم أنَّ في كون «إلا» الاستثنائية تعملُ عمل «لكن» خفاءً من جهة العربية وقال: إنَّه في المعنى خبرٌ، وليس خبراً حقيقيًّا كما صرَّح به النحاة. ومما نقلناه يعلم ما فيه من النظر.

نعم صرَّح الزمخشريُّ[2] بأنَّ الجملة على تقدير الانقطاع جاريةٌ مجرى خبر «لكنَّ» وهو ظاهرٌ في أنَّها ليست خبراً في الحقيقة، وذَكَر أنَّه إنَّما قال ذلك لأنَّ الخبرَ محذوفٌ، أي: لكنَّ آلَ لوطٍ ما أُرسِلْنا إليهم، والمذكورُ دليلُه لتلازمهما، ولذا لم يجعله نفسَ الخبر بل جارٍ مجراه، وفيه غفلةٌ عن كونه مبنيًّا على ما نُقِلَ عن سيبويه.

---

(١) ينظر الكتاب ٢/٣١٩-٣٢٠.

(٢) ينظر الكشاف ٢/٣٩٣.

وزعم بعضهم أنَّه قال ذلك لأنَّ الجملةَ المصدَّرة بـ «أنْ» تمتنعُ أنْ تكونَ خبراً لـ «لكنَّ»، فليراجع.

وقيل: قال ذلك؛ لأنَّ المذكور «إلا» لا «لكنَّ» وهو كما ترى.

وعلى تقدير الاتصال يكونُ الآلُ مخرجين من حكم المستثنى منه وهو الإجرام، داخلين في حكم الإرسال بمعنى البعث مطلقاً، فيكونُ الملائكة قد أُرسِلُوا إليهم جميعاً لِيُهلكوا هؤلاء ويُنجُّوا هؤلاء. وجملة «إنَّا لمنجُّوهم» على هذا مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، كأنَّ إبراهيم عليه السلام قال لهم حين قالوا: «إنا أُرسِلنا إلى قومٍ مجرمين إلا آلَ لوطٍ»: فما حال آل لوط؟ فقالوا: «إنَّا لمنجُّوهم» إلخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ على التقديرَين عند جار الله مستثنى من الضمير المجرور في «لمنجُّوهم» ولم يُجوِّز أنْ يكونَ استثناءً[1] من الاستثناء في شيءٍ، قال: لأنَّ ذلك إنَّما يكونُ فيما اتَّحد الحكم فيه، كقول المطلِّق: أنت طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتَين إلا واحدةً، والمقرِّ: لفلانٍ عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا ثلاثةً إلا درهماً، وها هنا قد اختلف الحكمان؛ لأنَّ «آل لوطٍ» متعلِّقٌ بـ «أرسلنا» أو بـ «مجرمين»، و«إلا امرأتَه» تعلَّق بـ «منجُّوهم» فأنَّى يكونُ استثناءً من استثناء[2]. انتهى.

وقد يُتوَهَّم أنَّ الإرسال إذا كان بمعنى الإهلاك فلا اختلافَ؛ إذ التقدير: إلا آلَ لوطٍ لم نُهلِكْهم، فهو بمعنى منجُّوهم، فيكونُ من الاستثناء من الاستثناء على أحد التقديرَين.

وأجاب عن ذلك صاحب «التقريب»: بأنَّ شرطَ الاستثناءِ المذكور أنْ لا يتخلَّل لفظٌ بين الاستثناءين متعدِّدٌ يصلُحُ أنْ يكونَ مستثنًى منه، وها هنا قد تخلَّل «منجُّوهم»، ولو قيل: إلا آلَ لوطٍ إلا امرأتَه، لجازَ ذلك[3].

وتُعقِّب بأنَّه لا يدفع الشبهة؛ لأنَّ السببَ حينئذٍ في امتناعه وجودُ الفاصلِ لا اختلاف الحكمَين، فلا وجْهَ للتعبير به عنه.

---

(١) في (م): من الاستثناء.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٣-٣٩٤.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠١.

وفي «الكشف»: المرادُ من اتِّحاد الحكم اتحادُه شخصاً وعدداً، فلا يردُ أنَّ الإرسالَ إذا كان بمعنى الإهلاك كان قوله سبحانه: (إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ) وقوله تعالى: (إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ) في معنًى واحدٍ، فالاستثناء من الأول في المعنى، وإنَّما شُرِطَ الاتِّحادُ؛ لأنَّ المتصلَ كاسمه لا يجوزُ تخلُّلُ جملةٍ بين العصا ولحائها، وكذلك في المنقطع، وبه يتَّضحُ حالُ ما تقدَّمَ أتمَّ اتِّضاحٍ. وفيه أيضاً: فإنْ قلتَ: لِمَ لا يرجِعُ الاستثناء إليهما؟ قلتُ: لأنَّ الاستثناءَ متعلِّقٌ بالجملة المستقلَّةِ، والخلافُ في رجوعه إلى الجملتَين فصاعداً لا إلى جملةٍ وبعضِ جملةٍ سابقةٍ، هذا والمعنى مختلفٌ في ذلك، ومحلُّ الخلاف الجملُ المتعاطفةُ لا المنقطع بعضُها عن بعضٍ. انتهى.

والأمرُ كما ذكر في تعيين محلِّ الخلاف، والمسألةُ قَلَّ مَن تعرَّض لها من النحاة، وفيها مذاهب:

الأول: وهو الأصحُّ، وعليه ابنُ مالك[1] أنَّ الاستثناءَ يعودُ للكلِّ إلا أنْ يقومَ دليلٌ على إرادة البعضِ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٥] الآية، فإنَّ (إِلَّا ٱلَّذِينَ) فيه عائدٌ إلى فسقهم وعدم قبولِ شهادتهم معاً لا إلى الجَلْد؛ للدليل، ولا يضرُّ اختلافُ العامل؛ لأنَّ ذلك مبنيٌّ على أنَّ «إلا» هي العاملة.

الثاني: أنَّه يعود للكلِّ إنْ سيقَ الكلُّ لغرضٍ واحدٍ نحو: حَبَسْتُ داري على أعمامي، ووَقَفْتُ بستاني على أخوالي، وسبَّلْتُ سقايتي لجيراني، إلا أنْ يُسافروا. وإلا فللأخيرة فقط نحو: أكرم العلماءَ، واحبِس دارَك على أقاربكَ، وأَعتق عبيدَك إلا الفسقةَ منهم.

الثالث: إنْ كان العطفُ بالواو عادَ للكلِّ، أو بالفاء أو «ثم» عادَ للأخيرة، وعليه ابنُ الحاجب[2].

الرابع: أنَّه خاصٌّ بالأخيرةِ، واختاره أبو حيان[3].

---

(١) ينظر التسهيل ص ١٠٤.
(٢) مختصر ابن الحاجب ص ١٢٥-١٢٦.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٦٠.

الخامس: إن اتَّحد العاملُ فللكلِّ، أو اختلفَ فللأخيرة، إذ لا يمكنُ عملُ[1] المختلفات في مستثنًى واحدٍ. وعليه البهاباذي، وهو مبنيٌّ على أنَّ عامل المستثنى الأفعالُ السابقةُ دون «إلا».

هذا، ويُوهم كلامُ بعضهم أنَّه لو جعل الاستثناء من «آل لوطٍ» لزم أنْ تكونَ امرأتُه غيرَ مُهلَكَةٍ أو غيرَ مجرمةٍ، وهو توهُّمٌ فاحشٌ؛ لأنَّ الاستثناء من «آل لوطٍ» إنْ قلنا به بملاحظة الحكمِ عليهم بالإنجاء وعدم الإهلاك أو بعدم الإجرام والصلاح، فتكونُ الامرأةُ محكوماً عليها بالإهلاك أو الإجرام. ويُرشدك إلى هذا ما ذكره الرضي فيما إذا تعدَّد الاستثناءُ وأمكنَ استثناءُ كلِّ تالٍ من متلوِّه نحو: جاءني المكِّيون إلا قريشاً إلا بني هاشم إلا بني عقيل، حيث قال: لا يجوزُ في الموجب حينئذٍ في كلِّ وترٍ إلا النصبُ على الاستثناء؛ لأنَّه عن موجب، والقياسُ أنْ يجوزَ في كلِّ شَفعٍ الإبدالُ والنصبُ على الاستثناء؛ لأنَّه عن غير موجب، والمستثنى منه مذكور، والكلامُ في وَتْرٍ وشفعِ غير الموجب على عكس هذا، وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه الجمهور من أنَّ الاستثناء من النفي إثباتٌ، ومن الإثبات نفيٌ، خلافاً للكسائي حيث قال: إنَّ المستثنى مسكوتٌ عن نَفْي الحكم عنه أو ثبوته له، ولا دلالةَ في الكلام على شيءٍ من ذلك، واستِفَادةُ الإثبات في كلمة التوحيد مِن عُرْف الشرع، وكما وقَعَ الخلافُ في هذه المسألة بين النحويِّين وقع بينَ الأئمة المجتهدين، وتحقيق ذلك في محلِّه.

واختار ابنُ المنير كونَ «إلا آل لوط» مستثنى من «قوم مجرمين» على أنَّه منقطعٌ، قال: وهو أَولَى وأمكنُ؛ لأنَّ في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بُعداً من حيث إنَّ موقعَ الاستثناء إخراجُ ما لولاه لدخَل المستثنَى في حكم الأول، وهنا الدخول متعذّرٌ مع التنكير، ولذلك قلَّما تجدُ النكرةَ يُستثنَى منها إلا في سياق نَفْيٍ، لأنَّها حينئذٍ تعمُّ فيتحقَّق الدخول لولا الاستثناءُ، ومن ثَمةَ لم يَحسُن: رأَيتُ قوماً إلا زيداً. وحَسُنَ: ما رأيتُ أحداً إلا زيداً[2]. انتهى.

---

(١) في (م): حمل.
(٢) الانتصاف ٢/٣٩٣-٣٩٤.

ورُدَّ بأنَّ هذا ليس نظيرَ: رأيتُ قوماً إلا زيداً، بل من قبيل: رأيتُ قوماً أساؤوا إلا زيداً، فالوصفُ يُعيِّنُهم ويجعلُهم كالمحصورين.

قال في «همع الهوامع»: ولا يُستثنَى من النكرة في الموجب ما لم تُفِد، فلا يقال: جاء قومٌ إلا رجلاً، ولا: جاء رجالٌ إلا زيداً، لعدم الفائدة، فإنْ أفادَ جازَ نحو: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] و: قامَ رجالٌ كانوا في دارك إلا رجلاً، على أنَّ المرادَ بالقوم أهلُ القرية، كما صرَّح به في آيةٍ أخرى(١)، فهم معنًى محصورون.

ونقل المدقِّقُ عن السكاكي أنَّه صرَّح في آخر بحث الاستدلال من كتابه بأنَّ الاستثناء من جمعٍ غيرِ محصورٍ جائزٌ على المجاز(٢). مع أنَّ بعض الأصوليين أيضاً جوَّزوا الاستثناء من النكرة في الإيجاب، وأطلقُوا القول في ذلك. نعم المصرَّحُ به في كثير من كُتُب النحو نحوُ ما في «الهمع».

وزعم بعضُهم أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الاستثناءُ من الظاهر والضمير منقطعاً، وعلَّل ذلك بأنَّ الضميرَ في الصفة هو عينُ الموصوف المقيَّد بالصفة.

وذكر الجلالُ السيوطي أنَّ بعض الفضلاء رفَعَ هذا مع عدَّة أسئلةٍ نثراً ونظماً إلى الكمال بنِ الهمام، ولم يذكر أنَّه أجابَ عنها، والجوابُ عما زعمه هنا قد مرَّت إليه الإشارة، وأما الجواب عن سائر ما استشكله وسئل عنه الكمالُ فيُغني عنه الاطلاع على السؤال، فإنه مما يُتعجَّبُ منه ومن هنا قال الشهاب أظن أن ابن الهمام إنما سكت عن جواب ذلك لوضوح اندفاعه وأنَّه لا ينبغي أنْ يصدُرَ عمَّن تحلَّى بحِلية الفضل(٣).

نعم بعد كلِّ حساب الذي ينساقُ إلى الذِّهن أنَّ الاستثناء من الظاهر لكن ذكر(٤) الرضي أنَّه إذا اجتمع شيئان فصاعداً يصلحان لأنْ يُستثنَى منهما، فهناك تفصيلٌ؛

---

(١) وهي الآية (٣١) من سورة العنكبوت.

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ٥٠٨، ونقل المصنفُ الكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٠.

(٣) جاء في هامش (م) عند قوله جواب: وكلا الأمرين مذكور في حواشيه على البيضاوي، فارجع إليها إن أردت.

(٤) قوله: ذكر، ليست في (م).

فإمَّا أنْ يتغايرا معنًى أو لا، فإنْ تغايرا وأمكَنَ اشتراكهما في ذلك الاستثناء بلا بُعدٍ اشتركا فيه نحو: ما بَرَّ أَبٌ وابنٌ إلا زيداً، أي: زيدٌ أبٌ بارٌّ وابنٌ بارٌّ، فإنْ لم يُمكن الاشتراك نحو: ما فَضلَ ابنٌ أباً إلا زيداً، أو كان بعيداً نحو: ما ضَرَب أحدٌ أحداً إلا زيداً، فإن الأغلب مغايرةُ الفاعل للمفعول = نظرنا فإنْ تعيَّن دخولُ المستثنى في أحدهما دون الآخر فهو استثناءٌ منه وَلِيَهُ أو لا، نحو: ما فدَى وصيٌّ نبيًّا إلا عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه، وإن احتمل دخوله في كلٍّ واحدٍ منهما، فإنْ تأخَّر عنهما المستثنَى فهو من الأخير نحو: ما فَضل ابنٌ أباً إلا زيداً، وكذا: ما فضل أباً ابنٌ إلا زيداً[١]؛ لأنَّ اختصاصَه بالأقرب أَولَى لما تعذَّر رجوعُه إليهما.

وإنْ تقدَّمهما معاً، فإنْ كان أحدُهما مرفوعاً لفظاً أو معنًى فالاستثناء منه، لأنَّ مرتبتَه بعدَ الفعل، فكأنَّ الاستثناء وَلِيَهُ بعدَه نحو: ما فضل إلا زيداً أباً ابنٌ، أو: من ابنٍ، وإنْ لم يكن أحدُهما مرفوعاً فالأوَّل أولَى به لِقُربه نحو: ما فضلتُ إلا زيداً واحداً على أحد، ويُقدَّر للأخير عاملٌ.

وإن توسَّطهما فالمتقدِّم أحقُّ به؛ لأنَّ أصل المستثنَى تأخُّرُه عن المستثنى منه نحو: ما فضل أباً إلا زيدٌ ابنٌ، ويُقدَّر أيضاً للأخير عاملٌ.

وإنْ لم يتغايرا معنًى اشتركا فيه، وإن اختلَف العاملان فيهما، نحو: ما ضرب أحدٌ وما قتل إلا خالداً، لأنَّ فاعلَ «قتل» ضميرُ «أحد». انتهى.

وجزم ابنُ مالك فيما إذا تقدَّم شيئان مثلاً يصلُح كلٌّ منهما للاستثناء منه بأنَّ الاستثناء من الأخير[٢]، وأطلَق القولَ في ذلك، فليتأمَّل ذاك مع ما نحن فيه.

وقال القاضي البيضاوي: إنَّه على الانقطاع يجوزُ أنْ يجعل «إلا امرأتَه» مستثنى من «آل لوط» أو من ضمير «منجُوهم» وعلى الاتصال يتعيَّن الثاني؛ لاختلاف الحُكمَين، اللهمَّ إلا إذا جعلت جملة «إنا لمنجُّوهم» معترضة[٣]. انتهى.

ومخالفتُه لِمَا نُقِل عن الزمخشريِّ ظاهرةٌ حيث جوَّز الاستثناء من المستثنى في

---

(١) في (م): زيد.

(٢) التسهيل ص ١٠٣.

(٣) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٠٠-٣٠١.

الانقطاع، ومنَعَه الزمخشريُّ مطلقاً، وحيث جَعَل اختلاف الحُكمَين في الاتصال وأثبتَه الزمخشريُّ مطلقاً أيضاً، وبيَّن اختلاف الحكمَين بنحو ما بُيِّن به في كلام الزمخشري»[1].

ولم يرتَضِ ذلك مولانا سريُّ الدين، وقال: المرادُ بالحكمَين الحكمُ المفادُ بطريق استثناء الثاني من الأوَّل، وهو على تقدير الاتِّصال إجرامُ الامرأة، والحكم المقصودُ بالإفادة، وهو الحكم عليها بالإهلاك، وبَيَّنَ اتِّحاد هذا الحكم المقصود مع الحكم المفادِ بالاستثناء على تقدير الانقطاع بأنَّه على ذلك التقديرِ تكونُ «إلا» بمعنى «لكنَّ»، و«إنَّا لمنجُّوهم» خبراً له ثابتاً للآل، فيكون الحكمُ الحاصل من الاستثناء منه بعينه هو الحكم المقصود بالإفادة، ويقال على تقدير الاتصالِ والاعتراض: إنَّ الحكمين وإن اختلَفَا ظاهراً إلا أنَّه لمَّا كانت الجملةُ المعترضة كالبيان لِمَا يقتضيه الاستثناءُ الأول كان في المعنى كأنَّه هو، وصار الإخراج منه كالإخراج منه، وهذا بخلاف ما إذا كان استئنافاً، فإنَّه يكونُ منقطعاً عنه ويكونُ جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ، ولا يتمُّ الجواب بدون الاستثناء ولا يخلو عن الاعتراض.

وقال بعضُهم في توجيه الاستثناءِ على هذا: إنَّ هناك حُكمَين الإجرامَ والإنجاءَ، فيجرُّ الثاني الاستثناء إلى نفسه، كيلا يلزمَ الفصلُ إلا إذا جُعل اعتراضاً، فإنَّ فيه سعةً حتى يتخلَّل بَيْن الصفة وموصوفها، فيجوزُ أنْ يكون استثناءً من «آل لوط» ولذا جوَّز الرضي أنْ يقال: أكرم القومَ والنحاةَ بصريون إلا زيداً.

ويَرِدُ عليه أنَّ كونَ الحكم المفادِ بالاستثناء غير الحكم المقصودِ بالإفادة باقياً بحاله، ولا يحتاج الأمرُ إلى ما سمعتَ. وهو كما سمعتَ، والذي ينساقُ إلى الذهن ما ذَكَره الزمخشريُّ.

وفي «الحواشي الشهابيَّة» أنَّه الحقُّ درايةً وروايةً: أما الأول: فلأنَّ الحكم المقصودَ بالإخراج منه هو الحكمُ المخرج منه الأول، والثاني حكمٌ طارئٌ من تأويل «إلا» بـ «لكنَّ»، وهو أمرٌ تقديريٌّ، وأما الثاني: فلِمَا ذُكر في «التسهيل»[2] من

(١) ينظر الكشاف ٢/٣٩٣-٣٩٤، وحاشية الشهاب ٥/٣٠١-٣٠٢.

(٢) ينظر ص ١٠٣-١٠٤.

أنَّه إذا تعدَّد الاستثناءُ فالحكمُ المخرَج منه حكمُ الأول، ومما يدلُّ عليه أنَّه لو كان الاستثناءُ مفرَّغاً في هذه الصورةِ كما إذا قلتَ: لم يَبْقَ في الدار إلا اليعافيرُ أبقاها الزمانُ إلا يعفورٌ صِيدَ منها، فإنَّه يتعيَّن إعرابُه بحسب العامل الأوَّل، كقولك: ما عندي إلا عشرةٌ إلا ثلاثةً، ثم إنَّ كلامَه مبنيٌّ على أمرٍ ومانعٍ معنويٍّ لا على عدم جوازِ تخلُّل كلامٍ منقطعٍ بين المستثنى والمستثنى منه كما قيل، وإنْ كان مانعاً أيضاً كما صرَّح به الرضي، فتدبَّر[١]. انتهى. فافهم ذاك والله سبحانه يتولَّى هداك.

وقرأ الأخوان: «لَمُنْجُوْهُم» بالتخفيف[٢].

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ أي: الباقين في عذاب الله تعالى كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادة[٣]، أو الباقين مع الكفرة لتَهلِكَ معهم. وأصلُه من الغَبَرة وهي بقيَّة اللَّبَن في الضَّرع.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «قَدَرنا» بالتخفيف[٤]، وكُسِرَت همزةُ «إنَّ» لتعليق الفعل بوجود لام الابتداء التي لها صدرُ الكلام، وعُلِّق مع أنَّ التعليقَ في المشهور من خواصِّ أفعال القلوب، قال الزمخشريُّ: لتضمُّن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسَّر[٥] العلماءُ تقديرَ الله تعالى أفعالَ العباد بالعلم[٦].

والمرادُ بتَضْمينه ذلك قيل: المعنى المصطَلَح، وقيل: التجوُّز عن معناه الذي كأنَّه في ضِمْنه؛ لأنَّه لا يقدِّر إلا ما يعلم، ذَكَره المدقِّقُ توجيهاً لكلام الزمخشريِّ، ثم قال: وليس ذلك من باب تضمينِ الفعلِ معنى فعلٍ آخرَ في شيءٍ حتى يعترضَ بأنَّه لا ينفعُ الزمخشريَّ لبقاء معنَى الفعلين. نعم هو على أصلهم من أنَّه كنايةُ معلومٍ محقَّقٍ لا مقدَّر مرادٍ.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٢.

(٢) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٢٥٨، وهي قراءة يعقوب وخلف، والأخوان هما حمزة والكسائي.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥١٩ (٨٧٠٣)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٣٠٩.

(٤) التيسير ص ١٣٦، والنشر ٢/ ٣٠٢.

(٥) في (م): فسره.

(٦) الكشاف ٢/ ٣٩٤.

وقال القاضي: جاز أنْ يقال: أُجري مجرى القولِ؛ لأنَّ التقديرَ بمعنى القضاء قولٌ[١]. وأما أنا فلا أُنكرُ على جار الله أنَّ التعليقَ لتضمُّن معنى العلم، وإنما أُنكر نَفْيَ كونه مقدوراً مراداً. انتهى. وإنما أُنكره؛ لأنَّه اعتزالٌ تأباه الظواهرُ، ومن هنا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ فيما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم: بيني وبين القدريَّةِ هذه الآيةُ، وتلاها[٢].

والظاهر أنَّ هذا من كلام الملائكةِ عليهم السلام، وإنَّما أَسندُوا ذلك إلى أنفسهم، وهو فعلُ الله سبحانه؛ لِمَا لهم من الزُّلْفى والاختصاص، وهذا كما يقول حاشيةُ السلطان: أَمرنا ورَسَمنا بكذا، والآمرُ هو في الحقيقة، وقيل ـ ولا يخفَى بُعدُه ـ: هو من كلام الله تعالى، فلا يحتاجُ إلى تأويل، قيل: وكذا لا يحتاجُ إليه إذا كان المرادُ بالتقدير العلم مجازاً.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ شروعٌ في بيان إهلاك المجرمين وتنجيةِ آلِ لوطٍ، ووضع الظاهر موضع الضمير؛ للإيذان بأنَّ مجيئَهم لتحقيق ما أُرسلُوا به من ذلك، وليس المرادُ به ابتداءَ مجيئهم بل مطلَقُ كينونتهم عند آل لوطٍ، فإنَّ ما حكي عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إنما قاله عليه السلام بعد اللُّتيَّا والتي، حين ضاقَت عليه الحِيَلُ، وعَيت به العللُ، ولم يُشاهد من المرسلين عند مقاساةِ الشَّدائدِ ومعاناة المكائد من قومه الذين يُريدون بهم ما يريدون ما هو المعهودُ والمعتادُ من الإعانة والإمداد فيما يأتي ويَذَر عند تَجشُّمِه في تخليصهم = إنكاراً لخذلانهم وتركهم نَصْرَه في مثل هذه[٣] المضايقةِ المعترية له بسببهم، حيث لم يكونوا عليهم السلام مباشِرين معه لأسبابِ المدافعةِ والممانعة حتى ألجأته إلى أنْ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية: ٨٠] حسبما فُصِّل في سورة هود، لا أنَّه عليه السلام قاله عند ابتداء وُرُودهم له، على معنى: إنَّكم قومٌ تُنكرُكم نفسي وتنفرُ منكم فأخافُ أنْ تَطرقوني بشرٍّ، كما قيل. كيف لا وهم بجوابهم المحكي بقوله سبحانه: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: بالعذاب الذي كنتَ

(١) تفسير البيضاوي ٥/ ٣٠٢.
(٢) عزاه إلى ابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٢.
(٣) ليس في (م).

تتوعَّدُهم به فيمترون ويشكُّون ويكذبونك فيه، قد قشروا العصا وبيَّنوا له عليه السلام جليةَ الأمر فأنَّى يعتريه بعدَ ذلك المساءةُ وضيقُ الذَّرع(١). قاله العلامة أبو السعود(٢) وهو كلامٌ معقول.

وجعل «بل» إضراباً عمَّا حَسِبه عليه السلام من تَرْك النصرة له، والمعنى: ما خذلناك وما خلَّينا بينك وبينهم، بل جئناك بما يدمِّرهم من العذاب الذي كانوا يكذِّبونك فيه حين تتوعدُهم به.

وجعله غيرُ واحدٍ بعد أن فسَّر قوله عليه السلام بما سمعتَ إضراباً عن موجب الخوفِ المذكورِ على معنى: ما جئناك بما تُنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحُك وسرورُك وتَشَفِّيك من عدوِّك وهو العذابُ الذي كنتَ تَتَوَعَّدُهم به ويُكذبونك، ولم يقولوا: بعذابهم، مع حصول الغرض ليتضمَّن الكلامُ الاستئناسَ من وجهَين: تحقُّقِ عذابهم، وتحقُّقِ صدقه عليه السلام، ففيه تذكيرٌ لِمَا كان يُكابد منهم من التكذيب.

قيل: وقد كنَى عليه السلام عن خوفه ونِفَارِه بأنَّهم منكرون، فقابلوه عليه السلام بكناية أحسنَ وأحسنَ. ولا يمتنعُ فيما أرى حملُ الكلام على الكناية على ما نقلناه عن العلَّامة أيضاً، ولعلَّ تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة من المجادلة ـ كما قال ـ للمسارعة إلى ذِكْر بشارة لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومه المجرمين، وتَنْجيةِ آله عقيبَ ذِكْر بشارةِ إبراهيم عليه السلام بهما، وحيث كان ذلك مستدعياً لبيان كيفيَّة النجاةِ وترتيبِ مباديها أُشيرَ إلى ذلك إجمالاً ثم ذُكرَ فعلُ القومِ وما فُعل بهم، ولم يُبال بتغيير الترتيب الوقوعي ثقةً بمراعاته في موضعٍ آخرَ.

ونسبةُ المجيء بالعذاب إليه عليه السلام مع أنَّه نازلٌ بالقوم بطريق تفويضِ أمره إليه، كأنَّهم جاؤوه به وفوَّضُوا أمرَه إليه، ليرسلَه عليهم حسبما كان يتوعَّدُهم به، فالباء للتعدية، وجوِّز أنْ تكونَ للملابسة، وجوِّز الوجهان في الباء في قوله سبحانه: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر المحقَّق المتيقَّن الذي لا مجالَ للامتراء والشكِّ فيه،

---

(١) في الأصل: الذراع، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٨٣.

وهو عذابُهم، عبَّر عنه بذلك تنصيصاً على نَفْي الامتراء عنه، وجوِّز أنْ يُراد «بالحقِّ» الإخبارُ بمجيء العذاب المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ تأكيدٌ له، أي: أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقِّ، أي: المطابِق للواقع وإنَّا لصادقون في ذلك الخبر، أو في كلِّ خبرٍ، فيكونُ كالدليل على صدقهم فيه، وعلى الأول تأكيداً إثْرَ تأكيد.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ الباء للملابسة، وجعل الجارَّ والمجرور في موضع الحال من ضمير المفعول، ولا يخفَى حاله.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ شروعٌ في ترتيب مبادي النجاة، أي: اذهب بهم في الليل.

وقرأ الحجازيُّون[1] بالوصل على أنَّه من «سرى» لا من «أسرى» كما في قراءة الجمهور، وهما بمعنًى على ما ذهب إليه أبو عبيدة[2]، وهو سيرُ الليل، وقال الليث: يقال: أسْرى في السير أوَّل الليل، وسَرَى في السير آخره، وروى صاحب «الإقليد»: «فَسِرْ» من سار، وحكاها ابنُ عطيَّة[3] وصاحب «اللوامح» عن اليماني[4]، وهو عامٌّ، وقيل: إنَّه مختصٌّ في السير بالنهار وليس مقلوباً من سَرَى.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بطائفةٍ منه، أو من آخره، ومن ذلك قوله:

افتحي البابَ وانظُريْ في النجوم كم علينا من قِطعِ ليلٍ بهيمِ[5]

وقيل: هو بعدَ ما مضَى منه شيءٌ صالحٌ، وفي الكلام تأكيدٌ أو تجريدٌ على قراءة الجماعة على ما قيل، وعلى قراءة: «سِرْ» لا شيءَ من ذلك، وسيأتي لهذا تتمةٌ إن شاء الله تعالى[6]. وحكى منذر بنُ سعيد أنَّ فرقةً قرأت: «بقطَع» بفتح الطاء[7].

---

(١) وهم نافع وابن كثير وأبو جعفر، وفي (م): الحجازيان. التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.
(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٩٥.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٥) سلف ١١/ ١١٠.
(٦) في سورة الإسراء، آية (١).
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وكن على إثرهم تذودُهم وتُسرع بهم وتَطَّلعُ على أحوالهم، ولعلَّ إيثارَ الاتِّباع على السَّوق ـ مع أنَّه المقصودُ بالأمر كما قيل ـ للمبالغة في ذلك، إذ السَّوقُ ربَّما يكونُ بالتقدُّم على بعض مع التأخُّرِ عن بعض، ويلزمُه عادةً الغفلة عن حال المتأخِّر، والالتفاتُ المنهيُّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ أي: منك ومنهم ﴿أَحَدٌ﴾ فيرى ما وراءه من الهَوْل ما لا يُطيقُه، أو فيُصيبُه العذابُ، فالالتفات على ظاهره، وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: لا ينصرف أحدُكم ولا يتخلَّف لغرضٍ فيصيبَه ما يصيبُ المجرمين، فالالتفات مجازٌ؛ لأنَّ الالتفات إلى الشيء يقتضي محبَّتَه وعدمَ مفارقتِه فيتخلَّف عنده.

وذَكَر جارُ الله(١) أنَّه لمَّا بعَثَ الله تعالى الهلاكَ على قومه ونجَّاه وأهلَه إجابةً لدعوته عليهم وخَرجَ مهاجراً، لم يكن له بدٌّ من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأُمِرَ بأن يُقدِّمَهم؛ لئلا يشتغلَ بمن خلفَه قلبُه، وليكونَ مطَّلعاً عليهم وعلى أحوالهم، فلا تفرُط منهم التفاتةٌ احتشاماً منه، ولا غيرُها من الهفوات في تلك الحال المَهُولةِ المحذورة، ولئلا يتخلَّفَ أحدٌ منهم لغرضٍ فيُصيبَه العذابُ، وليكونَ مسيرُه مسيرَ الهارب الذي يُقدِّم سربَه ويفوتُ به، ونُهُوا عن الالتفات؛ لئلا يَرَوا ما يَنزلُ بقومهم فيرقُّوا لهم، وليوطِّنوا نفوسَهم على المهاجرة ويُطيِّبوها عن مساكنهم ويمضُوا قُدُماً غيرَ ملتفتين إلى ما وراءهم، كالذي يتحسَّر على مفارقة وطنِهِ، فلا يزال يلوي له أخادِعَه، كما قال:

تلفَّتُّ نحوَ الحيِّ حتى وجدتُني وَجِعتُ من الإصغاء لِيتاً وأَخدعَا(٢)

أو جعلَ النهيَ عن الالتفات كنايةً عن مواصلة السير وتَرْكِ التواني والتوقُّفِ؛ لأنَّ مَن يتلفَّتُ لابدَّ له في ذلك من أَدْنَى وقفة(٣). اهـ.

قال المدقِّق: وخُلاصةُ ذلك أنَّ فائدةَ الأمر والنهي أنْ يهاجرَ عليه الصلاة والسلام على وجهٍ يُمكِّنه وأهلَه التشمُّر لذِكْر الله تعالى والتجرُّد لشكره، وفيه مع

---

(١) في الكشاف ٢/ ٣٩٥.

(٢) البيت للصمة بن عبد الله القشيري، وهو في ديوانه ص٩٤، والإصغاء: الإمالة، واللِّيت: صفحة العنق. القاموس المحيط (ليت). الأخدع: عرق في جانب العنق. اللسان (خدع).

(٣) الكشاف ٢/ ٣٩٥.

ذلك إرشادٌ إلى ما هو أَدخلُ في الحزم للسير وأدبِ المسافرةِ، وما على الأمير والمأمورِ فيها، وتنبيهٌ على كيفيَّة السفر الحقيقيِّ وأنَّه أحقُّ بقَطْع العوائق وتقديم العلائق وأحقُّ، وإشارةٌ إلى أنَّ الإقبالَ بالكلية على الله تعالى إخلاصٌ[1]، فلله تعالى درُّ التنزيل ولطائفِهِ التي لا تحصى. اهـ.

وأنت تعلمُ أنَّ كونَ الفائدةِ المهاجرةَ على وجهٍ يُمكِن معه التشمُّرُ لذكر الله تعالى والتجرُّد لشكره غيرُ متبادِرٍ كما لا يخفى، ولعلَّه لذلك تركه بعضُ مختصِري كتابه، وإنما لم يَستثنِ سبحانه الامرأة عن الإسراء أو الالتفات؛ اكتفاءً بما ذكر في موضعٍ آخرَ، وليس نحو ذلك بدعاً في التنزيل.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قيل: أي: إلى حيث يأمرُكم الله تعالى بالمضيِّ إليه، وهو الشامُ على ما رُوي عن ابن عباس والسدي، وقيل: مصر، وقيل: الأردن، وقيل: موضعُ نجاةٍ غير معيَّنٍ، فعدَّى «امضوا» إلى «حيث»، و«تؤمرون» إلى الضمير المحذوف على الاتساع.

واعترض بأنَّ هذا مُسلَّم في تعدية «تؤمرون» إلى «حيث»، فإنَّ صلتَه ـ وهي الباء ـ محذوفةٌ، إذ الأصلُ: تؤمرون به، أي: بمضيِّه، فأوصل بنفسه[2]، وأما تعديةُ «امضُوا» إلى «حيث» فلا اتِّساعَ فيها، بل هي على الأصل؛ لكونه من الظروف المبهمةِ إلا أنْ يُجعل ما ذُكرَ تغليباً.

وأُجيبَ بأنَّ تعلُّق «حيث» بالفعل هنا ليس تعلُّق الظرفيَّة، ليتَّجه تعدِّي الفعل إليه بنفسه لكونه من الظروف المبهمة، فإنَّه مفعولٌ به غير صريحٍ نحو: سرتُ إلى الكوفةِ، وقد نصَّ النحاةُ على أنَّه قد يتصرَّف فيه، فالمحذوفُ ليس «في» بل «إلى»، فلا إشكال. اهـ.

والمذكورُ في كتب العربية أنَّ الأصل في «حيث» أنْ تكونَ ظرفَ مكانٍ، وتردُ للزمان قليلاً عند الأخفش، كقوله:

لِلفتى عقلٌ يعيشُ به حيث تَهدي ساقَهُ قدمُهْ[3]

---

(١) في الأصل: خلاص.

(٢) بعدها في الأصل: إليه، والكلام في حاشية الشهاب ٥/٣٠٣.

(٣) البيت لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص ٨٦، والدرر اللوامع ٣/١٢٦.

أرادَ: حين تَهدي، ولا تُستعمَل غالباً إلا ظرفاً، ونَدَر جرُّها بالباء في قوله:

كـان مـنَّـا بـحـيـث يُـعْـكـي الإزارَ[1]

وبـ «إلى» في قوله:

إلـى حـيـثُ ألـقَـتْ رحـلَـهـا أمُّ قَـشْـعَـمِ[2]

وبـ «في» في قوله:

فأصبحَ في حيثُ التَقَينا شريدُهم طَليقٌ ومكتوفُ اليدَين ومُرعَفُ[3]

وقال ابنُ مالك: تصرُّفها نادرٌ[4]. ومن وقوعها مجرَّدة عن الظرفية قوله:

إنَّ حـيـثُ اسـتـقـرَّ مَن أنت راعيـ ـه حـمًـى فـيـه عـزَّةٌ وأمـانُ[5]

فـ «حيث» اسم «إنَّ»، وقال أبو حيان: إنَّه غلطٌ؛ لأنَّ كونها اسم «إن» فرعٌ عن كونها تكونُ مبتدأً، ولم يُسمَع في ذلك البتة، بل اسم «إنَّ» في البيت «حمى» و«حيث» الخبر لأنَّه ظرف، والصحيحُ أنَّها لا تتصرَّفُ فلا تكونُ فاعلاً ولا مفعولاً به ولا مبتدأ. اهـ.

---

(١) اللسان (أزر)، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٦، ورواية اللسان: كان منها بحيث تُعْكَى الإزار. وفيه (عكا): عكا بإزاره يعكو عكياً: أغلظ مَعْقِده، وقيل: إذا شده قالصاً على بطنه لئلا يسترخي لضخم بطنه.

(٢) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٢٢، والمغني ص ١٧٦، وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٣٨٤، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/ ١٣٣، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٧، وصدر البيت: فشَدَّ ولم يُفزِعْ بيوتاً كثيرة. ورواية المصادر عدا الدرر وشرح أبيات المغني: لدى، بدل: إلى. وأم قشعم؛ قيل: هي الحرب، وقيل: العنكبوت. الدرر.

(٣) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٢٩، والكتاب ٢/ ١٠، وخزانة الأدب ٥/ ٣٦، ورواية المصادر: ومُزعَفُ بدل: ومرعف، وأزعَفْتُ عليه: إذا أجهزت عليه وتمّمت قتله كما ذكر صاحب الخزانة.

(٤) التسهيل ص ٩٦.

(٥) المغني ص ١٧٧، وشرح أبيات المغني ٣/ ١٣٩، والدرر اللوامع ٣/ ١٢٩، وخزانة الأدب شاهد (٥٠٢) دون نسبة، ووقع في الدرر: راجيه، بدل: راعيه.

ونقل ابن هشام وقوعها مفعولاً به عن الفارسي، وخرَّج عليه قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(1) [الأنعام: ١٢٤] وذكر أنَّها قد تُخفَضُ بـ «مِن» وبغيرها، وأنَّها لا تقعُ اسماً لـ «إنَّ» خلافاً لابن مالك(2)، وزعم الزجَّاج أنَّها اسم موصول، ومما ذكرنا يظهر حال التصرُّف فيها.

واعترض ما ذكره المجيبُ بأنَّه وإنْ دفع(3) به إشكال التعدِّي لكنَّه غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّهم قد صرَّحوا بأنَّ الجملَ المضاف إليها لا يعودُ منها ضميرٌ إلى المضاف، قال نجمُ الأئمة: اعلَمْ أنَّ الظرفَ المضافَ إلى الجملةِ لمَّا كان ظرفاً للمصدر الذي تضمَّنته الجملةُ لم يَجُز أنْ يعودَ من الجملة ضميرٌ إليه، فلا يقال: يومَ قَدمَ زيدٌ فيه، لأنَّ الربط الذي يُطَلبُ حصولُه حَصَل بإضافة الظرف إلى الجملة وجعله ظرفاً لمضمونها، فيكون كأنك قلت: يومَ قدوم زيد فيه(4). اهـ.

و«حيث» على ما ذكروا تلزمُ في الغالب الإضافة إلى الجملة، وكونُها فعليةً أكثرُ، وإضافتها إلى مفرد قليلةٌ نحو:

بِبِيْضِ المواضِيْ حيثُ ليِّ العمائمِ(5)

و: حيث سُهيلٍ طالعاً(6).

ولا يقاسُ على ذلك عند غير الكسائي، وأقلُّ من ذلك عدمُ إضافتها لفظاً بأنْ تُضافَ إلى محذوفة معوَّضاً عنها «ما» كقوله:

---

(1) المغني ص ١٧٦-١٧٧.

(2) المغني ص ١٧٧.

(3) في (م): رفع.

(4) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٣.

(5) شرح المفصل ٤/ ٩٢، والمغني ص ١٧٧، وشرح أبيات المغني للبغدادي ٣/ ١٤٠، وخزانة الأدب ٦/ ٥٥٣، وفي صدره اختلاف، قيل: ونطعنهم حيث الكلى بعد ضَرْبهم، ينظر خزانة الأدب، وفي الأصل و(م): بيض، بدل ببيض، والمثبت من المصادر.

(6) الرجز في المغني ص ١٧٨، وخزانة الأدب شاهد (٥٠١). والدرر اللوامع ٣/ ١٢٤، وتمامه:

أما ترى حيث سهيل طالعاً   نجماً يضيء كالشهاب ساطعا

إذا رَيْدَةٌ مِن حيثُ ما نَفَحَت لَه[1]

أي: مِن حيثُ هبَّتْ.

وهي هنا مضافةٌ للجملة بعدها فكيف يُقدّر الضمير في «. . .تؤمَرُون» عائداً عليها، وقد نصَّ بعضُهم على أنَّ «حيث» لا يصحُّ عودُ الضمير عليها، والذي في «البحر»: أنَّها ظرفُ مكان مبهم تعدَّى إليها «امضُوا» بنفسه، كما تقول: قعدْتُ حيثُ قعَدَ زيدٌ[2]، والظاهرُ أنَّ تعلُّق الفعل بها كما قال المجيب ليس تعلُّق الظرفيَّة، فلعلَّ ذلك مبنيٌّ على تضمين فعلٍ صالحٍ لأنْ يتعلَّقَ به الظرفُ المذكور، كالحلول والتوطُّن وغيرهما.

ونُقِل عن بعضهم القولُ بأنَّ «حيث» هنا ظرفُ زمانٍ، أي: امضُوا حين أُمرتُم، والمرادُ بهذا الأمر ما سبق من قوله تعالى: «فأسر بأهلك بقطع من الليل».

ورُدَّ بأنَّ الظاهر على هذا أُمرتُم دون «تؤمرون» مع أنَّ فيه استعمال «حيث» في أقلِّ معنييها وروداً من غير موجِبٍ.

وظاهرُ كلام بعض الأجلَّة أنَّ المضارع مُستعمَلٌ في مقام الماضي على المعنى الذي أُشيرَ إليه أوَّلاً، وهو يَقتضي تقدُّم أمرٍ بالمضيِّ إلى مكانٍ، فإنْ كان فصيغةُ المضارع لاستحضار الصورة، وإيثارُ المضيِّ إلى ذلك على ما قيل دون الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاةِ، ولمراعاةِ المناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين.

﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي: أوحينا ﴿إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ مقضيًّا مثبتاً، فقضَى مضمَّنٌ معنى «أوحى» ولذا عُدِّي تعديته، وجعْلُ المضمَّن حالاً كما أشرنا إليه أحدُ الوجهَين المشهورَين في التضمين، و«ذلك» مبهمٌ يُفسِّره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ على أنَّه

---

(١) وعجز البيت:

أتاه بِريَّاها خليلٌ يُواصلُه

ونسبه لأبي حية النميري السيوطيُّ في شرح شواهد المغني ١/ ٣٩٠، والبغدادي في الخزانة ٦/ ٥٥٩، والرَّيْدة: ريح لينة الهبوب. اللسان (ريد).

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.

بدلٌ منه كما قال الأخفش[(١)]، وجوَّز أبو البقاء كونَه بدلاً من «الأمر» إذا جعل بياناً لـ «ذلك» لا بدلاً، وعن الفرَّاء[(٢)] أنَّ ذاك على إسقاط الباء، أي: بأنَّ دابر. . .إلخ، ولعلَّ المشار إليه بـ «ذلك الأمر» عليه الأمر الذي تضمَّنه قوله تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ والباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: أوحينا ذلك الأمرَ المتعلِّق بنجاته ونجاةِ آله ملابساً لبيان حال قومِهِ المجرمين من قَطْع دابرهم، وهو حسنٌ إلا أنَّه لا يخلو عن بُعدٍ.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ والأعمشُ رحمهم الله تعالى: «إنَّ» بكسر الهمزة[(٣)]، وخُرِّج على الاستئناف البياني، كأنَّه قيل: ما ذلك الأمرُ؟ فقيل في جوابه: إنَّ دابرَ. . .إلخ، أو على البدليَّة بناءً على أنَّ في الوحي معنى القول، قيل: ويُؤيِّدُه قراءةُ عبد الله: «وقلنا إنَّ دابرَ»[(٤)]. . .إلخ، وهي قراءةُ تفسيرٍ لا قرآن؛ لمخالفتها لسواد المصحف.

والدابر الآخِر، وليس المرادُ قطعَ آخرهم، بل استئصالهم حتى لا يبقَى منهم أحدٌ.

﴿مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ أي: داخلين في الصباح، فإنَّ الأفعال يكون للدخول في الشيء نحو: أَتْهم وأَنْجد، وهو من أَصبح التامَّة، حال من «هؤلاء» وجاز بناءً على أنَّ المضافَ بعضُه، وقد قيل بجواز مجيء الحال من المضاف إليه فيما كان المضاف كذلك، وليس العاملُ معنى الإضافة، خلافاً لبعضهم، وكونُه اسمَ الإشارة توهُّمٌ؛ لأنَّ الحال لم يقل أحدٌ إنَّ صاحبها يعملُ فيها، واختار أبو حيَّان كونه حالاً من الضمير المستكن في «مقطوعٌ» الراجع إلى «دابر» وجاز ذلك مع الاختلاف إفراداً وجمعاً رعايةً للمعنى؛ لأنَّ ذلك في معنى: دابري هؤلاء، فيتَّفقُ الحال وصاحبها جمعية.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٠٣، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٩٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٣) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٩٠، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٦٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.

وقدَّر الفراءُ[١] وأبو عبيد[٢]: إذا كانوا مصبحين، كما تقول: أنت راكباً أحسنُ منك ماشياً. وتعقِّب بأنَّه إنْ كان تقديرَ معنًى فصحيح، وإنْ كان بيانَ إعرابٍ فلا ضرورةَ تدعو إلى ذلك[٣]. كما لا يخفى.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ شروعٌ في حكاية ما صدَرَ من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل وما ترتَّب عليه مما أُشيرَ إليه أوَّلاً على سبيل الإجمال، وهذا مقدَّمٌ وقوعاً على العلم بهلاكهم كما سمعتَ، والواوُ لا تدلُّ على الترتيب.

وقال ابنُ عطية: يحتملُ أنْ يكونَ هذا بعدَ[٤] العلم بذلك، وما صدر منه عليه السلام من المحاورة معهم كان على جهة التكتُّم[٥] عنهم والإملاء لهم والتربُّص بهم[٦]. ولا يخفَى أنَّ كونَ المساءة وضيق الذَّرع من باب التكتُّم والإملاء أيضاً[٧] مما يأبَى عنه الطبعُ السليم.

والمرادُ بالمدينة سذوم[٨]، وبأهلها أولئك القومُ المجرمون، ولعلَّ التعبير عنهم بذلك؛ للإشارة إلى كثرتهم مع ما فيه من الإشارة إلى مزيد فظاعةِ فعلهم، فإنَّ اللائق بأهل المدينة أنْ يُكرموا الغرباءَ الواردين على مدينتهم، ويُحسنوا المعاملة معهم، فهم عَدَلُوا عن هذا اللائق مع مَن حَسِبوهم غرباءَ واردين إلى قصد الفاحشةِ التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، وجاؤوا منزلَ لوطٍ عليه السلام ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ مستبشرين مسرورين إذ قيل لهم: إنَّ عنده عليه السلام

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٩٠، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٢) في الأصل: أبو عبيدة، والمثبت من (م) والبحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٤) قوله: بعد، ساقط من الأصل، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز.
(٥) وقع في المحرر: التهكم، بدل: التكتم، والمثبت موافق لما في البحر.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٦٨-٣٦٩، ونقله عنه بواسطة البحر المحيط ٥/ ٤٦١.
(٧) ليس في الأصل.
(٨) جاء في هامش (م): بفتح السين، على وزن فعول بفتح الفاء، وذاله معجمة، وروي إهماله، وقيل: إنه خطأ، وفي «الصحاح» والدال غير معجمة، وهو معرَّب، ولذا قيل: إنه بالإعجام بعد التعريب والإهمال قبله، وسميت المدينة باسم ملك من بقايا اليونان، وكان ظلوماً غشوماً، وكان بمدينة سرمين من أرض قنسرين. قاله الطبري. انتهى منه.

ضيوفاً مُرداً في غاية الحسن والجمال، فطمعُوا ـ قاتلهم الله تعالى ـ فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ الضيف ـ كما قدَّمنا[1] ـ في الأصل مصدرُ ضَافَه، فيطلق على الواحد والجمع، ولذا صحَّ جعلُه خبراً لـ «هؤلاء»، وإطلاقُه على الملائكة عليهم السلام بحَسَب اعتقادِه عليه السلام؛ لكونهم في زيِّ الضيف، وقيل: بحسب اعتقادهم لذلك، والتأكيدُ ليس لإنكارهم ذلك، بل لتحقيق اتِّصالهم به، وإظهارِ اعتنائه بهم عليهم السلام، وتشميرِه لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨﴾ أي: عندهم، بأنْ تتعرَّضوا لهم بسوءٍ فيعلموا أنَّه ليس لي عندكم قدرٌ، أو لا تفضحوني بفضيحة ضيفي، فإنَّ مَن أُسِيءَ إلى ضيفه فقد أُسِيءَ إليه، يقال: فضحتُه فَضْحاً وفضيحةً إذا أظهرَ مِن أمره ما يلزمُهُ به العارُ، ويقال: فضح الصُّبح إذا تبيَّن للناس.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مباشرتكم لما يسوؤني ﴿وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩﴾ أي: لا تُذلُّوني ولا تُهينوني بالتعرُّض بالسوء لِمَن أجرتُهم، فهو من الخِزْي بمعنى الذُّل والهوان، وحيث كان التعرُّض لهم بعد أنْ نهاهم عنه بقوله: «فلا تفضحون» أكثر تأثيراً في جانبه عليه السلام، وأجلب للعار إليه، إذ التعرُّض للجار قبل العلم ربَّما يُتسامح فيه، وأمَّا بعدَ العلم والمناصبةِ بحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظمُ العارِ، عبَّر عليه السلام عمَّا يَعتريه من جهتهم بعد النَّهي المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفتِهِ بالخزي، وأَمرَهم بتقوى الله تعالى في ذلك.

وجوِّز أنْ يكونَ ذلك من الخَزَاية وهي الحياء، أي: لا تجعلوني أستَحيي من الناس بتعرُّضكم لهم بالسوء، واستظهر بعضُهم الأوَّلَ، وإنَّما لم يُصرِّح عليه السلام بالنَّهي عن نفس تلك الفاحشةِ قيل: لأنَّه كان يعرفُ أنَّه لا يُفيدهم ذلك، وقيل: رعايةً لمزيد الأدب مع ضيفه حيث لم يُصرِّح بما يَثقُل على سمعهم وتَنفُر عنه طباعُهم، ويَرَى الحرُّ الموتَ ألذَّ طعماً منه.

وقال بعضُ الأجلَّة: المرادُ بـ «اتقوا الله» أمرُهم بتقواه سبحانه عن ارتكاب الفاحشةِ.

---

(١) ص٥٠٠ من هذا الجزء.

وتعقِّب بأنَّه لا يُساعد ذلك توسيطُه بين النهيَيْن المتعلِّقَين بنفسه عليه السلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾ أي: عن إجارة أحدٍ منهم وحيلولتِكَ بيننا وبينه، أو عن ضيافة أحدٍ منهم، والهمزةُ للإنكار، والواو على ما قال غيرُ واحدٍ للعطف على مقدَّرٍ، أي: ألم نتقدَّم إليك ولم نَنْهك عن ذلك، فإنَّهم كانوا يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ من الغرباء بالسوء، وكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقَدرِ وسْعِه ويحولُ بينهم وبين مَن يَعرِضُون له، وكانوا قد نَهَوه عن تعاطي مثل ذلك، فكأنَّهم قالوا: ما ذكرتَ من الفضيحة والخِزْي إنما جاءك مِن قِبَلك لا مِن قِبَلنا، إذ لولا تعرُّضُك لِمَا تَتصدَّى له لَمَا اعتراك[1].

ولما رآهم لا يُقلعون عمَّا هم عليه ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ يعني نساءَ القوم، أو بناته حقيقةً. وقد تقدَّم الكلام في ذلك[2]، واسمُ الإشارة مبتدأ، و«بناتي» خبرُه، وفي الكلام حذفٌ، أي: فتزوجوهنَّ، وجوّز أنْ يكونَ «بناتي» بدلاً أو بياناً، والخبرُ محذوف، أي: أطهرُ لكم كما في الآية الأخرى، وأنْ يكونَ «هؤلاء» في موضع نصبٍ بفعل محذوفٍ، أي: تزوَّجوا بناتي، والمتبادر الأوَّل.

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾ شكٌّ في قبولهم لقوله فكأنَّه قال: إنْ فعلتُم ما أقولُ لكم، وما أظنُّكم تفعلون. وقيل: إنْ كنتُم تريدون قضاءَ الشهوة فيما أحلَّ الله تعالى دون ما حرَّم، والوجه الأول كما في «الكشف» أوجَهُ.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: أنَّه أنسبُ بالشكِّ[3]. ويُفهِمُ صنيعُ بعضهم ترجيحَ الثاني، قيل: لتبادُرِه من الفعل، وعلى الوجهَين المفعولُ مقدَّرٌ، وجوِّز تنزيلُ الوصف منزلةَ اللازم، وجوابُ الشرط محذوفٌ، أي: فهو خيرٌ لكم، أو: فاقضوا ذلك.

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قَسَمٌ من الله تعالى بعُمر نبيِّنا ﷺ على ما عليه جمهور المفسرين.

---

(١) في الأصل: لما اعتراك الحالة، وفي أبي السعود ٥/ ٨٧، لما اعتراك تلك الحالة، والمثبت من (م).
(٢) تقدم في سورة هود، آية (٧٨).
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٤.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» وأبو نعيم وابنُ مردويه، وغيرُهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خَلَق الله تعالى وما ذَرَأ وما بَرَأ نفساً أكرمَ عليه من محمد ﷺ، وما سمعتُ اللهَ سبحانه أقسَمَ بحياة أحدٍ غيرِه قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾. . .إلخ[١].

وقيل: هو قَسَمٌ من الملائكة عليهم السلام بعُمْرِ لوطٍ عليه السلام، وهو مع مخالفته للمأثور محتاجٌ لتقدير القول، أي: قالت الملائكة للوطٍ عليهم السلام: «لعمرك». . .إلخ، وهو خلافُ الأصل، وإنْ كان سياقُ القصة شاهداً له وقرينةً عليه، فلا يرد ما قاله صاحب «الفرائد» من أنَّه تقديرٌ من غير ضرورةٍ، ولو ارتُكب مثلُه لأمكنَ إخراجُ كلِّ نصٍّ عن معناه بتقدير شيءٍ، فيرتفعُ الوثوقُ بمعاني النص، وأيًّا ما كان ف «عمرك» مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ وجوباً، أي: قسمي أو يميني أو نحو ذلك.

والعمر بالفتح والضمِّ: البقاء والحياة، إلا أنَّهم التزموا الفتح في القسم لكثرةِ دوره فناسَبَ التخفيف، وإذا دخلتهُ اللامُ التُزِمَ فيه الفتحُ وحذفُ الخبر في القسم، وبدون اللام يجوزُ فيه النصب والرفع وهو صريحٌ، وهو مصدرٌ مضافٌ للفاعل أو المفعول، وسُمِعَ فيه دخولُ الباء وذكرُ الخبرِ قليلاً، وذُكر أنَّه إذا تجرَّد من اللام لا يتعيَّنُ للقسم، ونقل ذلك عن الجوهري[٢]، وقال ابنُ يعيش: لا يُستعمَلُ إلا فيه أيضاً[٣]، وجاء شاذًّا: رعملي، وعدُّوه من القلب، وقال أبو الهيثم: معنى «لعمرُك» لدينك الذي تعمر، ويفسَّر بالعبادة، وأنشد:

أَيُّها المُنكِحُ الثريَّا سُهيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلْتقيانِ[٤]

أرادَ: عبادتَك اللهَ تعالى، فإنَّه يقال ـ على ما نُقِل عن ابن الأعرابي ـ: عَمَرْتُ ربِّي، أي: عَبَدتُه، وفلانٌ عامرٌ لربِّه، أي: عابدٌ، وتَرَكْتُ فلاناً يَعمُر ربَّه، أي: يعبدُه، وهو غريب[٥].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٨٨، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢١) و(٢٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٣، وأخرجه أيضاً أبو يعلى (٢٧٥٤)، والطبري ١٤/ ٩١-٩٢.
(٢) الصحاح (عَمَرَ).
(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ٩١-٩٢.
(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص ٢٢٩، وسلف ٤/ ٤٣٨.
(٥) اللسان (عمر)، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٢.

وفي البيت توجيهات، فقال سيبويه[١] فيه: الأصلُ: عمَّرتُك اللهَ تعالى تعميراً، فحذفَ الزوائد من المصدر وأُقيمَ مقامَ الفعل مضافاً إلى مفعوله الأوَّلِ، ومعنى عمَّرتُك: أعطيتُك عمراً بأنْ سألتُ الله تعالى أنْ يُعمِّرَك، فلمَّا ضُمِّن «عمر» معنى السؤال تعدَّى إلى المفعول الثاني ـ أعني الاسم الجليل ـ فهو على هذا منصوبٌ. وأجاز الأخفشُ رفعَهُ ليكونَ فاعلاً، أي: عمَّرك الله سبحانه تعميراً، وجوَّز الرضي أنْ يكونَ «عَمْرَك» فيه منصوباً على المفعول به لفعلٍ محذوفٍ، أي: أسألُ الله تعالى عَمْرَك، و«أسأل» متعدٍّ إلى مفعولَين، أو يكونَ المعنى: أسألُكَ بحقِّ تَعْمِيرك اللهَ تعالى، أي: اعتقادك بقاءَه وأبديَّتَه تعالى، فيكونُ انتصابُه بحذف حرفِ القسم نحو: اللهَ لأفعلنَّ، وهو مصدرٌ محذوفُ الزوائد مضافٌ إلى الفاعل، والاسمُ الجليل مفعولٌ به له، ولا بأسَ بإضافة «عَمْر» إليه تعالى، وقد جاء مضافاً كذلك، قال الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عليَّ بنو قشيرٍ ... لَعَمْرُ اللهِ أعجبني رضاها[٢]

وقال الأعشى:

ولَعَمْرُ مَن جَعَلَ الشهورَ علامةً ... مِنها تَبَيَّنَ نَقْصها وكَمالها[٣]

وزعَمَ بعضُهم أنَّه لا يجوزُ أنْ يقالَ: لَعَمْرُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبحانه أزَليٌّ أبديٌّ، وكأنَّه توهَّم أنَّ العمرَ لا يُقال إلا فيما له انقطاع، وليس ذلك، وجاء في كلامهم إضافتُهُ لضمير المتكلِّم، قال النابغة:

لَعَمْرِي وما عَمْري عليَّ بهيِّنٍ[٤]

وكره النخعيُّ ذلك؛ لأنَّه حَلِفٌ بحياة المقسِم، ولا أعرفُ وجْهَ التخصيص،

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٢٢-٣٢٣.

(٢) البيت للقحيف العقيلي، وهو في أدب الكاتب ص ٥٠٦، والخصائص ٢/ ٣١١، وخزانة الأدب ١٠/ ١٣٣.

(٣) ديوان الأعشى ص ١٥٢، ولفظ عجزه في الديوان:

قدراً فبيَّن نصفها وهلالها

(٤) ديوان النابغة ص ٨٠، وعجزه:

لقد نَطقَت بُطْلاً عليَّ الأقارعُ

فإنَّ في «العمرك» خطاباً لشخص حلفاً بحياة المخاطب، وحكم الحلفِ بغير الله تعالى مقرَّرٌ على أتمِّ وجهٍ في محلِّه.

وقرأ ابنُ عباس رضي الله عنهما: «وعَمْرِكَ» بدون لام[١].

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: لفي غوايتهم أو شدَّةِ غلمتهم التي أزالَت عقولَهم وتمييزَهم بين خطئهم والصواب الذي يُشار به إليهم.

﴿يَعْمَهُونَ ٧٢﴾ يتحيَّرون، فكيف يسمَعُون النُّصحَ، وأصل العَمَه عَمَى البصيرة، وهو مُورِّثٌ للحيرة، وبهذا الاعتبار فُسِّر بذلك، والضمائرُ لأهل المدينة، والتعبيرُ بالمضارع بناءً على المأثور[٢] في الخطاب لحكاية الحال الماضيةِ.

وقيل ـ ونسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ـ: الضمائر لقريش، واستبعدَهُ ابنُ عطية[٣] وغيرُه؛ لعدم مناسبةِ السباق والسياق، ومن هنا قيل: الجملة اعتراضٌ، وجملة «يعمهون» حالٌ من الضمير في الجارِّ والمجرور، وجوِّز أنْ تكون حالاً من الضمير المجرور في «سكرتهم» والعاملُ السكرة أو معنى الإضافة، ولا يخفاك حالُه.

وقرأ الأشهبُ: «سُكرَتهم» بضمِّ السين[٤]، وابن أبي عبلة: «سَكَرَاتهم» بالجمع[٥]، والأعمش: «سَكْرهم» بغير تاء[٦]، وأبو عمرو في رواية الجهضمي: «أَنَّهم» بفتح الهمزة[٧]، قال أبو البقاء: وذلك على تقدير زيادة اللام، ومثله قراءة سعيد بن جبير: «إلا أَنَّهم ليأكلون الطعام» بالفتح[٨]، بناءً على أنَّ لام الابتداء إنما تصحبُ «إنَّ» المكسورة الهمزة، وكأنَّ التقدير على هذه القراءة: لعمرك قسمي على أنَّهم. فافهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٢) في الأصل: على أن المأثور، والمثبت من (م).
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٠.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٧١ للأعمش.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٦) القراءات الشاذة ص ٧١، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٢.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٤٦٢، وهي غير المشهور عنه.
(٨) الإملاء ٣/ ٤٣٥، والآية من سورة الفرقان رقم (٢٠)، وسيأتي الكلام عليها.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ يعني: صيحةٌ هائلةٌ، والتعريفُ للجنس، وقيل: صيحةُ جبريل عليه السلام، فالتعريفُ للعهد، وقال الإمام: ليس في الآية دلالةٌ على هذا التعيين، فإنْ ثبت بدليل قويٍّ قيل به[1].

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج أنَّه قال في الآية: الصيحةُ مثل الصاعقة، فكلُّ شيءٍ أُهلِكَ به قومٌ فهو صاعقةٌ وصيحةٌ[2].

﴿مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ أي: داخلين في وقت شروقِ الشمس، قال المدقِّق: والجمعُ بين ـ «مصبحين» و«مشرقين» باعتبار الابتداء والانتهاء بأنْ يكونَ ابتداءُ العذاب عندَ الصبح، وانتهاؤُه عند الشروق؛ وأخذُ الصيحةِ قهرُها إيَّاهم وتمكُّنُها منهم، ومنه الأَخيذ الأسير، ولك أنْ تقول: «مقطوعٌ» بمعنى يقطع عما قريب. انتهى. وقيل: «مُشرقين» حالٌ مقدَّرة.

﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي: المدينة كما هو الظاهر. وجوِّز رجوعُه إلى القرى وإنْ لم يَسبق ذكرُها، والمرادُ بـ «عاليها» وجْهُ الأرض وما عليه وهو المفعول الأوَّل لجعل، و﴿سَافِلَهَا﴾ الثاني له، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك[3].

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ في تضاعيف ذلك ﴿حِجَارَةٗ﴾ كائنة ﴿مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ من طين متحجِّر وهو في المشهور معرَّب: سنك كل، وذهب أبو عبيدة[4] وطائفة إلى أنَّه عربي، وأنَّه يقال فيه: «سجين» بالنون، واحتجُّوا بقول تميم بن مُقبل:

ضَـرْبـاً تَـوَاصَـى بـه الأبـطـالُ سِـجِّـيـنـا[5]

وهو كما ترى. وسئل الأصمعيُّ عن معناه في البيت فقال: لا أُفسِّره، إذ كنتُ

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ٢٠٣.
(٢) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٣.
(٣) في سورة هود، آية (٨١-٨٢).
(٤) في الأصل و(م): أبو عبيد، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ١٨ و٢٩٦.
(٥) ديوان تميم بن أُبيّ بن مقبل ص ٣٣٣، ومجاز القرآن ١/ ٢٩٦ وفيه: سجيلا، بدل: سجينا، وصدر البيت:

ورَجْـلَـةً يـضـربـون الـبَـيْـض عـن عُـرُض

والبيض: جمع بيضة وهي الخوذة.

أسمعُ وأنا حدث: سِخِّينا ـ بالخاء المعجمة ـ أي: سَخِناً، وسجِّين بالجيم أيضاً، وقيل: هو مأخوذٌ من السجل وهو الكتاب، أي: من طينٍ كُتِب عليه أسماؤهم، أو كتب الله تعذيبَهم به، وقد مرَّ الكلام في ذلك أيضاً(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من القصة ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لعلاماتٍ يُستدَلُّ بها على حقيقة الحقِّ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ قال ابن عباس: للناظرين، وقال جعفر بنُ محمد ﷺ: للمتفرِّسين. وقال مجاهد: للمعتبرين. وقيل غير ذلك، وهي معانٍ متقاربة. وفي «البحر»: التوسُّم تفعُّلٌ من الوَسْم، وهو العلامة التي يستدلُّ بها على مطلوب. وقال ثعلب: التوسُّم: النظرُ من القرن إلى القَدَم، واستقصاءُ وجوه التعريف، قال الشاعر:

أَوَكُلَّما وَرَدَتْ عُكَاظَ قبيلةٌ بعثُوا إليَّ عريفَهم يتوسَّمُ(٢)

وذكر أنَّ أصلَه التثبُّتُ والتفكُّرُ، مأخوذٌ من الوَسْم، وهو التأثير بحديدةٍ محماة في جلدِ البعير أوغيره، ويقال: تَوَسَّمتُ فيه خيراً، أي: ظهرَت علاماتُه لي منه، قال عبد الله بنُ رواحة في رسول الله ﷺ:

إنِّي توسَّمتُ فيك الخيرَ أعرفُه والله يَعلمُ أنِّي ثابتُ البَصَرِ(٣)

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة «لآيات» أو متعلِّقٌ به، وهذه الآية ـ على ما قال الجلالُ السيوطي ـ أصلٌ في الفِراسة(٤)، فقد أخرج الترمذيُّ من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «اتَّقوا فِرَاسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله»(٥) ثم قرأ الآية.

---

(١) في سورة هود آية رقم (٨٣).
(٢) البيت لطريف بن تميم العنبري، كما في الكتاب ٤/٧، والأصمعيات ص ١٢٧، والبيان والتبيين ٣/١٠١.
(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٩٤، وتفسير القرطبي ١٢/ ٢٣٤، والبحر المحيط ٥/٤٥٦، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠٥ والكلام منه، ورواية الديوان:
إني تفرَّستُ فيك الخيرَ أعرفه فراسة خالَفَتْهم في الذي نظروا
(٤) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦٠.
(٥) سنن الترمذي (٣١٢٧)، وأخرجه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٤، والطبري ١٤/٩٦، والطبراني في الأوسط (٧٨٤٣)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وفيه عطية العوفي، قال ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً وكان شيعياً مدلِّساً، وقد روى هنا بالعنعنة. =

وكان بعضُ المالكية يحكمُ بالفِراسة في الأحكام جَرْياً على طريق إياس بنِ معاوية.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: المدينة المُهلَكة، وقيل: القرى ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: طريقٍ ثابتٍ يسلُكه الناسُ ويَرَون آثارها، وقيل: الضميرُ للآيات، وقيل: للحجارة، وقيل: للصيحة، أي: وإنَّ الصيحةَ لبِمَرْصدٍ لمن يعملُ عملَهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. و«مقيم» قيل: معلومٍ، وقيل: معتدٌّ دائمِ السلوك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمَرْأى من الناس يُشاهدونها عند مرورهم عليها ﴿لَأٓيَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ بالله تعالى ورسوله ﷺ، فإنَّهم الذين يعرفون أنَّ سوءَ صنيعهم هو الذي ترك ديارَهم بلاقع، وأمَّا غيرُهم فيحملون ذلك على الاتِّفاق أو الأوضاع الفلكية، وإفرادُ الآية بعد جمعها فيما سبَقَ قيل لِمَا أنَّ المشاهدَ هاهنا بقيَّةُ الآثار لا كلُّ القصة كما فيما سلف، وقيل: للإشارة إلى أنَّ المؤمنين يكفيهم آيةٌ واحدة.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ هم قوم شعيبٍ عليه السلام؛ و«الأيكة» في الأصل: الشجرة الملتفَّةُ، واحدةُ الأيك، قال الشاعر:

تَجْلُو بقادِمَتَي حمامةِ أيكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثَاتُه بالإثْمِدِ(١)

والمرادُ بها هنا غَيضة، أي: بقعة كثيفة الأشجارِ، بناءً على ما روي أنَّ هؤلاء القومَ كان يسكنون الغَيْضةَ وعامة شجرها الدَّومُ، وقيل: السدر، فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فأُهلكوا بما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى.

وقيل: بلدة كانوا يسكنونها، وإطلاقُها على ما ذكر إمَّا بطريق النقل أو تسميةِ

= وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٤٩٧)، وفي مسند الشاميين (٢٠٤٢)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١١٨، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٦٣)، من حديث أبي أمامة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٨: إسناده حسن. وفيه راشد بن سعد، قال ابن حجر في التقريب: ثقة كثير الإرسال.

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص ٤٠، القادمة: جمعها قوادم، وهي أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، شبه الشاعر الشفتين لرقتهما بقادِمَتَي حمامة، وشبه الأسنان بالبَرَد لشدة بياضه. القاموس المحيط (قدم)، وديوان المعاني للعسكري ١/ ٢٣٨.

المحلِّ باسم الحالِّ فيه، ثم غَلَب عليه حتى صار عَلَماً، وأُيِّد القول بالعلميَّة أنَّه قرئ في «الشعراء» و«صَ»: «ليكةَ» ممنوع مِن الصرف[١].

و«إنْ» عند البصريين هي المخفَّفة من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن محذوفٌ، واللامُ هي الفارقة، وعند الفرَّاء هي النافية، ولا اسمَ لها، واللام بمعنى «إلا»[٢]، والمعوَّل عليه الأوَّل، أي: وأنَّ الشأنَ كان أولئك القومُ متجاوزين عن الحدِّ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ جازَيناهم على جنايتهم السابقة بالعذاب؛ والضميرُ لـ «أصحاب الأيكة».

وزعم الطبرسيُّ أنَّه لهم ولقوم لوطٍ[٣]، وليس بذاك. روى غيرُ واحد عن قتادةَ قال: ذُكِرَ لنا أنَّه جل شأنه سلَّط عليهم الحَرَّ سبعة أيامٍ لا يُظلُّهم منه ظلٌّ ولا يمنعُهم منه شيءٌ، ثم بعث سبحانه عليهم سحابةً فجعلوا يلتمسون الرَّوح منها، فبعثَ عليهم منها ناراً فأكلَتهم، فهو عذابُ يومِ الظُّلة[٤].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: محلَّي قومِ لوطٍ وقومِ شُعيب عليهما السلام، وإلى ذلك ذهب الجمهور، وقيل: الضميرُ للأيكة ومدْيَن، والثاني وإنْ لم يذكر هنا لكن ذِكرُ الأوَّل يدلُّ عليه لإرسال شعيبٍ عليه الصلاة والسلام إلى أهلهما، فقد أخرج ابنُ عساكر وغيرُه عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مدينَ وأصحابَ الأيكةِ أمَّتان بَعَث الله تعالى إليهما شعيباً عليه السلام»[٥] ولا يخلو عن بعدٍ، بل قيل: إنَّ القولَ الأولَ كذلك أيضاً؛ لأنَّ الأخبار عن مدينة قوم لوطٍ عليه السلام بأنَّها ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أي: لبطريقٍ واضحٍ، يتكرَّر مع الأخبار عنها آنفاً بأنَّها لبسبيل

---

(١) الشعراء آية (٧٦)، و﴿ص﴾ آية (١٣)، وسيأتي في محلِّه.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٣.

(٣) مجمع البيان ١٤/ ٣٩.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ١٠٠.

(٥) عزاه لابن عساكر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٣، قال ابن كثير بعد تفسير الآية (١٧٦) من سورة الشعراء: وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. وفي سنده: معاوية بن هشام، قال أحمد بن حنبل: هو كثير الخطأ. وقال ابن سعد: كان صدوقاً كثير الحديث. قال أبو داود: ثقة. ومن أوهام معاوية بن هشام روايته عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «مدين وأصحاب الأيكة...». ينظر الميزان ٤/ ١٣٨، وتهذيب التهذيب ٤/ ١١٢-١١٣.

مقيم، على ما عليه أكثرُ المفسرين، وجمعُ غيرِها معها في الأخبار لا يدفعُ التكرارَ بالنسبة إليها، وكأنَّه لهذا قال بعضُهم: الضميرُ يعودُ على لوطٍ وشعيبٍ عليهما السلام، أي: وإنَّهما لبطريق من الحقِّ واضح.

وقال الجبَّائي: الضميرُ لخبر هلاكِ قوم لوطٍ وخبر هلاكِ قوم شعيبٍ، والإمام اسمٌ لِمَا يُؤتَمُّ به، وقد سُمِّي به الطريقُ، واللوحُ المحفوظ، ومطلَقُ اللوحِ المعدِّ للقراءة، وزِيْج البنَّاء، ويراد به على هذا اللوح المحفوظ.

وقال مؤرِّج: الإمامُ: الكتابُ في لغة حمير، والإخبار عنهما بأنَّهما في اللوح المحفوظ إشارةٌ إلى سَبْق حكمه تعالى بهلاك القومَين لِمَا عَلِمَه سبحانه مِن سوء أفعالهم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ يعني ثمود ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ حين كذَّبوا رسولَهم صالحاً عليه السلام، فإنَّ مَن كذَّب واحداً من رُسل الله سبحانه فكأنَّما كذَّب الجميع؛ لاتِّفاق كلمتهم على التوحيد والأصولِ التي لا تختلفُ باختلاف الأممِ والأعصار. وقيل: المرادُ بـ «المرسلين» صالحٌ عليه السلام ومَن معه من المؤمنين على التغليب وجعلُ الأَتْباع مرسلين كما قيل: الخبيبيُّون، لخبيب بن الزبير وأصحابه، وقال الشاعر:

قَدْنيَ مِن نَصْرِ الخُبَيْبين قَدِي[1]

والقول بأنَّه نزِّلَ كلٌّ من الناقة وسَقْبها منزلةَ رسولٍ؛ لأنَّه كالداعي لهم إلى اتِّباع صالح عليه السلام فجُمع بهذا الاعتبار، لا اعتبارَ له أصلاً فيما أرى.

والحِجْرُ: وادٍ بين الحجاز والشام كانوا يسكنونَه، قال الراغبُ: يُسمَّى ما أُحيط به الحجارة حِجْراً، وبه سُمِّي حِجْرُ الكعبة، وديارُ ثمود[2]، وقد نَهى ﷺ أصحابه ﷺ كما في «صحيح البخاري»[3] وغيرِه عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أنْ يكونوا باكين؛ حذراً من أنْ يُصيبَهم مثل ما أصابهم.

---

(١) البيت لحميد الأرقط كما في خزانة الأدب ٥/ ٣٩٣، وتقدم ٧/ ١٢٠.

(٢) مفردات الراغب (حجر).

(٣) برقم (٣٣٨٠) و(٣٣٨١) من حديث ابن عمر ﷺ، وهو عند مسلم (٢٩٨٠).

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ الناسَ عامَ غزوة تبوك استَقَوا مِن مياه الآبار التي كانت تشربُ منها ثمودُ، وعجنوا منها ونَصَبُوا القُدورَ باللحم، فأمَرَهم النبيُّ ﷺ بإهراقِ القدور، وأنْ يَعلِفُوا الإبلَ العجينَ، وأمَرَهم أنْ يستَقُوا من البئر التي كانت ترد الناقةُ[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ من الناقة وسَقْبِها[2] وشُربها ودَرِّها.

وذكر بعضُهم أنَّ في الناقة خمسَ آياتٍ: خروجَها من الصخرة، ودُنوَّ نتاجِها عند خروجها، وعظمَها حتى لم تُشبهْها ناقةٌ، وكثرةَ لَبنها حتى يكفيهم جميعاً.

وقيل: كانت لنبيِّهم عليه السلام معجزاتٌ غير ما ذكر، ولا يضرُّنا أنَّها لم تُذكر على التفصيل، وهو على الإجمال ليس بشيء.

وقيل: المرادُ بالآيات الأدلةُ العقليةُ المنصوبة لهم الدالةُ عليه سبحانه المبثوثةُ في الأنفس والآفاقِ، وفيه بعدٌ.

وقيل: آياتُ الكتاب المُنزَل على نبيِّهم عليه السلام.

وأُورد عليه أنَّه عليه السلام ليس له كتابٌ مأثورٌ إلا أنْ يقال: الكتابُ لا يلزمُ أنْ يُنزَل عليه حقيقةً بل يكفي كونُه معه مأموراً بالأخذ بما فيه، ويكونُ ذلك في حكم نُزوله عليه، وقد يقال بتكرار النزولِ حقيقةً. ولا يخفَى قوَّةُ الإيراد.

وقيل: يجوزُ أن يُراد بالآيات ما يشملُ ما بلَغَهم من آيات الرسل عليهم السلام، ومتى صحَّ أنْ يقال: إنَّ تكذيبَ واحدٍ منهم في حكم تكذيبِ الكلِّ فَلِمَ لم يصحَّ أنْ يقال: إنَّ ما يأتي به واحدٌ من الآيات كأنَّه أتى به الكلُّ. وفيه نظر، وبالجملة الظاهرُ هو التفسيرُ الأوَّل.

﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ غيرَ مقبلين على العمل بما تقتضيه، وتقديمُ المعمول؛ لرعاية تناسبِ رؤوس الآي.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) في الأصل: سقيها، والسَّقب: ولد الناقة، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٥.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من نزول العذاب بهم، وقيل: من الموت؛ لاغترارِهم بطولِ الأعمار. وقيل: من الانهدام ونقبِ اللصوص وتخريب[1] الأعداء، لمزيد وثاقتها.

وقال ابنُ عطية: أصحُّ ما يظهرُ لي في ذلك أنَّهم كانوا يأمنون عواقبَ الآخرة فكانوا لا يعملون بحَسبها، بل يعملون بحسب الأمن[2]. وتفريعُ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أظهرُ في تأييد الأوَّل، ووَقَع في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾[3] وَوُفِّق بينهما، بأنَّ الصيحة تُفضي إلى الرجفة، أو هي مجازٌ عنها، واستُشكل التقييدُ بـ «مُصبحين» مع ما روي في ترتيب أحوالهم بعد «أنْ» أوعدَهم عليه السلام بنزول العذابِ من أنَّه لمَّا كانت ضحوة اليوم الرابع تحنَّطوا بالصبر، وتكفَّنوا بالأنطاع[4] فأتَتْهم صيحةٌ من السماء فتقطَّعَت لها قلوبُهم. فإنَّ هذا يقتضي أنَّ أخْذَ الصيحة إيَّاهم[5] بعد الضحوة لا مصبحين.

وأُجيبَ بأنَّه إنْ صحَّت الرواية يحمل «مصبحين» على كون الصيحةِ في النهار دونَ الليل، أو أَطلق الصبحَ على زمانٍ مُمتدٍّ إلى الضحوة، وقيل: يُجمَعُ بين الآية والخبر بنحو ما جُمع به بين الآيتين آنفاً، وفيه تأمُّل، فتأمَّل.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ ولم يدفع عنهم ما نَزَل بهم ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من نَحْت البيوتِ الوثيقة، أو منه ومن جمع الأموال والعدَد، بل خَرُّوا جاثمين هلكى، فـ «ما» الأولى نافية وتحتمل الاستفهام، و«ما» الثانية يحتمل أنْ تكونَ مصدريةً وأنْ تكونَ موصولةً، واستظهره أبو حيان[6] والعائدُ عليه محذوفٌ، أي: الذي كانوا يكسبونَه.

وفي «الإرشاد»: أنَّ الفاء لترتيب عدم الإغناءِ الخاصِّ بوقت نزولِ العذاب

(١) في (م): تحزيب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٨٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٢.
(٣) الآية (٧٨).
(٤) النطع: البساط من الأديم. القاموس (نطع).
(٥) في الأصل: أتاهم، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠٦.
(٦) البحر المحيط ٥/ ٤٦٤.

حسبما كانوا يرجونه، لا عدم الإغناء المطلَق، فإنَّه أمرٌ مستمرٌّ[(١)]. وفي الآية من التهكُّم بهم ما لا يخفَى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا خلقاً متلبِّساً بالحقِّ والحكمة، بحيث لا يلائم استمرارَ الفساد واستقرارَ الشرور، وقد اقتضَت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء؛ دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بَقيَ إلى الصلاح.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ ولابدَّ، فننتقمُ أيضاً من أمثال هؤلاء، فالجملة الأولى إشارةٌ إلى عذابهم الدنيوي، والثانية إلى عقابهم الأُخرَوي، وفي كلتا الجملتَين من تسليته ﷺ ما لا يخفى، مع تضمُّن الأُولى الإشارةَ إلى وَجْه إهلاكِ أولئك بأنَّه أمرٌ اقتضَته الحكمةُ.

وفي «التفسير الكبير»[(٢)] في وَجْه النظم: أنَّه تعالى لمَّا ذَكَر إهلاكَ الكفار فكأنَّه قيل: كيف يَليقُ ذلك بالرحيم؟ فأجاب سبحانه بأنَّه إنَّما خلقتُ الخلقَ ليكونوا مُشتغلين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضُوا عنها وجَبَ في الحكمة إهلاكُهم وتطهيرُ الأرض منهم.

وتعقَّبه المفسِّرُ بأنَّه إنَّما يستقيمُ على قول المعتزلةِ، ثم ذَكر وجهاً آخرَ لذلك، وهو أنَّ المقصودَ من هذه القصةِ تصبيرُ النبيِّ ﷺ على سفاهة قومِهِ، فإنَّه عليه الصلاة والسلام إذا سمع أنَّ الأمم السالفةَ كانوا يعاملون أنبياءهم عليهم السلام بمثل هذه المعاملاتِ الفاسدةِ هانَ عليه عليه الصلاة والسلام تحمُّل سفاهةِ قومه.

ثم إنَّه تعالى لمَّا بيَّن إنزالَ العذابِ على الأمم السالفةِ المكذِّبة قال له ﷺ: «إنَّ الساعةَ لآتيةٌ» وإنَّ الله تعالى ينتقمُ لك فيها من أعدائك ويُجازيك وإيَّاهم على حسناتك وسيآتهم، فإنَّه سبحانه ما خَلَق السماوات والأرضَ وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف، فكيف يليقُ بحكمته إهمالُ أمركَ.

وإلى جواز تفسير «الحق» بالعدل ذهب شيخُ الإسلام[(٣)]، وأشار إلى أنَّ الباءَ

---

(١) إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود) ٥/ ٨٨.
(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ١٩/ ٢٠٥-٢٠٦.
(٣) هو أبو السعود، ينظر تفسيره ٥/ ٨٨.

للسببيَّة، وأنَّ المعنى: ما خلقنا ذلك إلا بسبب العدلِ والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وذَكر أنَّه يُنبئُ عن ذلك الجملةُ الثانية؛ ولعلَّ جَعْلَ كلِّ جملةٍ إشارة إلى شيءٍ، حسبما أشرنا إليه أَوْلَى.

واستدلَّ بالأُولى بعضُ الأشاعرةِ على أنَّ أفعالَ العباد مطلقاً مخلوقةٌ له تعالى لدخولها فيما بينهما، وزعَمَ بعضُ المعتزلة الردّ بها على القائلين بذلك؛ لأنَّ المعاصي من الأفعال الباطلة[1]، فإذا كانت مخلوقةً له سبحانه لكانت مخلوقةً بالحق، والباطلُ لا يكونُ مخلوقاً بالحقِّ، وهو كلامٌ خالٍ عن التحقيق.

﴿فَٱصۡفَحِ﴾ أي: أعرِض عن الكفرة المكذِّبين ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ وهو ما خلا عن عِتاب، على ما رَوَى غيرُ واحدٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما. وفسَّر الراغبُ «الصفح» نفسَه بتَرْك التثريب، وذَكَر أنَّه أبلغُ من العفو[2].

وفي أمره ﷺ بذلك إشارةٌ إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام قادرٌ على الانتقام منهم، فكأنَّه قيل: أَعرِضْ عنهم وتحمَّل أَذيَّتَهم ولا تَعجَل بالانتقام منهم وعاملهم معاملةَ الصفوحِ الحليمِ، وحاصلُ ذلك أَمره ﷺ بمخالفتهم بخُلُقٍ رضيٍّ وحِلمٍ وتأنٍّ بأنْ يُنذرَهم ويَدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال ثم يُقاتلهم، وعلى هذا فالآيَةُ غيرُ منسوخةٍ وعن ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك أنَّها منسوخةٌ بآية السيف، وكأنَّهم ذهبوا إلى أنَّ المرادَ بها مداراتُهم وتَرْكُ قتالهم.

وآثر هذا الأخيرَ العلامةُ الطيبيُّ، قال: ليكونَ خاتمةُ القصص جامعةً للتسلِّي والأمر بالمداراة، وتخلُّصاً إلى مشرعٍ آخر وهو قوله تعالى الآتي: ﴿وَلَقَدۡ﴾ إلى آخره، ففيه حديثُ الإعراض عن زهرةِ الحياة الدنيا، وهو من أعظم أنواع الصبر[3]، لكن ذَكَر في «الكشف» أنَّ الذي يقتضيه النظمُ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى آخره، جَمْعٌ بين حاشيتَي مُفصَّل الآيات البرهانية والامتنانية، ملخَّصٌ منها مع زيادة

---

(١) في (م): باطلة.
(٢) مفردات الراغب (صفح).
(٣) في (م): الضر.

مبالغة من الحصر ليُلقيه المحتجُّ به إلى المعاندين، ويتسلَّى به عن استهزاء الجاحدين، وتمهيدٌ لتطرية ذِكر المقصود من كون الذكر كاملاً في شأن الهداية، وافياً بكلِّ ما عُلِّق به من الغرض القائم له بحقِّ الرعاية، ثم قال: ومنه يظهرُ أنَّ الآية عطفٌ على «وما خلقنا» إلخ عطف الخاصِّ على العامِّ إشارة إلى أنَّه أتمُّ النعم وأحقُّ دليلٍ وأحقُّ ما يُتشفَّى به عن الغليل، وأنَّ مَن أُوتيَه لا يضرُّه فَقْدُ شيء سواه، ومَن طَلب الهوى في غيره تُرِكَ وهواه. اهـ. فتدبَّر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي يُبلِّغك إلى غاية الكمال ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لك ولهم ولسائر الأشياء على الإطلاق ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بأحوالك وأحوالهم وبكلِّ شيءٍ، فلا يخفَى عليه جلَّ شأنُه شيءٌ ممَّا جرَى بينك وبينهم، فحقيقٌ أنْ تَكِلَ الأمورَ إليه ليحكمَ بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلم تفاصيلَ أحوالكم، وقد علم سبحانه أنَّ الصفحَ الجميل اليومَ أصلحُ إلى أنْ يكونَ السيفُ أصلحَ، فهو تعليلٌ للأمر بالصفح على التقديرَين على ما قيل.

وقال بعض المدقِّقين: إنَّه على الأخير تذييلٌ للأمر المذكور، وعلى الأول لقوله سبحانه: (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ).

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما والجحدري والأعمش ومالك بن دينار: «هو الخالق» وكذا في مصحف أُبيٍّ وعثمان رضي الله عنهما[1]، وهو صالحٌ للقليل والكثير. و«الخلَّاق» مختصٌّ بالكثير و«العليم» أوفقُ به، وهو على ما قيل أنسبُ بما تقدَّم من قوله سبحانه: (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي: سبعَ آيات، وهي الفاتحة، ورُوي ذلك عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وأبي جعفر وأبي عبد الله والحسن ومجاهد وأبي العالية والضحاك وابن جبير وقتادة رضي الله عنهم، وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً إلى رسول الله ﷺ من حديث أُبيٍّ وأبي هريرة رضي الله عنهما[2].

(١) القراءات الشاذة ص ٧١، والمحتسب ٢/ ٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٥.

(٢) حديث أبيٍّ رضي الله عنه أخرجه الترمذي (٣١٢٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٢١٠٩٤).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه ينظر تخريجه في التعليق التالي.

وقيل: سبع سُوَرٍ، وهي الطُّوَل، ورُوي ذلك أيضاً عن عمر وابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد، وهي في روايةٍ: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، والأنفال وبراءة سورةٌ واحدة، وفي أخرى عدَّ براءةَ دون الأنفال السابعة، وفي أخرى عدَّ يونس دونهما، وفي أخرى عدَّ الكهف.

وقيل: السبع آل «حمٓ»، وقيل: سبع صحفٍ من الصُّحُف النازلة على الأنبياء عليهم السلام، على معنى أنَّه عليه الصلاة والسلام أُوتي ما يتضمَّنُ سبعاً منها وإنْ لم يكن بلفظها، وهي الأسباع، وعن زياد بن أبي مريم: هي أمورٌ سبْعٌ: الأمرُ والنهي والبشارة والإنذار وضربُ الأمثال وتعداد النعم وأخبار الأمم.

وأصحُّ الأقوال الأول، وقد أخرجه البخاريُّ وأبو داود والترمذيُّ ورفعوه[(١)].

وقال أبو حيَّان[(٢)]: إنَّه لا ينبغي العدولُ عنه، بل لا يجوزُ ذلك وأوردَ على القول بأنَّها السبع الطُّوَل أنَّ هذه السورةَ مكيَّةٌ وتلك السبع مدنيَّةٌ، ورُوي هذا عن الربيع، فقد أخرج البيهقي في «الشعب» وابن جرير وغيرهما أنَّه قيل له: إنَّهم يقولون: هي السبع الطُّوَل. فقال: لقد أُنزلَت هذه الآيةُ وما نزل من الطُّوَل شيءٌ[(٣)].

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ بإيتائها إنزالُها إلى السماء الدنيا، ولا فرقَ بين المدني والمكي فيها.

واعترض بأنَّ ظاهر «آتيناك» يأباه، وقيل: إنَّه تنزيلٌ للمتوقَّع منزلةَ الواقع في الامتنان، ومثله كثير.

﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ بيانٌ للسبع وهو ـ على ما قال في موضع من «الكشاف» ـ جمعُ مَثْنَى بمعنى مُردَّد ومكرَّر، ويجوزُ أنْ يكونَ مُثَنًّى مُفَعَّل من التثنية بمعنى التكرير والإعادةِ، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] أي: كرَّةً بعد كرَّة،

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٠٤)، وسنن أبي داود (١٤٥٧)، وسنن الترمذي (٣١٢٤)، وهو في مسند أحمد (٩٧٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٥.
(٣) شعب الإيمان (٢٤٢٠)، والطبري ١٤/ ١١٦.

ونحو قولهم: لبَّيك وسعدَيْكَ[١]. وأراد كما في «الكشف»: أنَّه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثُنِّي لذلك، لكنَّ استعمالَ المُثَنَّى في هذا المعنى أكثرُ؛ لأنَّه أولُ مراتبِ التكرار، ويحتملُ أنْ يريد أنَّ مَثْنَى بمعنى التكرير والإعادة كما أنَّ صريحَ المُثَنَّى كذلك في نحو «كرَّتين» ثم جُمِعَ مبالغةً، وقوله من التثنية إيضاحٌ للمعنى؛ لأنَّه من الثَّني بمعنى التثنية، والأولُ أرجحُ؛ نظراً إلى ظاهر اللفظ، والثاني نظراً إلى الأصل.

وقال في موضعٍ آخَر: إنَّه من التثنية أو الثناء، والواحدةُ: مثناة، أو مَثنية[٢]، بفتح الميم على ما في أكثر النسخ، والأقيسُ ـ على ما قال المدقق بحسب اللَّفظ ـ أنَّ ذلك مشتقٌّ من الثناء أو الثَّني، جمع مَثْنى مَفْعل منهما، إما بمعنى المصدَر جُمِع لمَّا صُيِّر صفةً، أو بمعنى المكان في الأصل نُقِلَ إلى الوصف مبالغةً نحو: أرض مَأسَدَة؛ لأنَّ محلَّ الثناء يقعُ على سبيل المجازِ على الثاني والمُثْنَى عليه، وكذلك محلُّ الثَّني، ولا بُعْدَ في باب العَدْل أنْ يكونَ منقولاً عنه لا مخترعاً ابتداءً.

وإطلاقُ ذلك على الفاتحة؛ لأنَّها تكرَّر قراءتُها في الصلاة، ورُوي هذا عن الحسن وأبي عبد الله رحمهما الله تعالى. وعن الزجَّاج لأنَّها تُثَنَّى بما يُقرَأُ بعدها من القرآن[٣]، وقيل ـ ونُسِبَ إلى الحسن أيضاً ـ: لأنَّها نَزلَت مرَّتَين مرَّةً بمكَّة ومرَّةً بالمدينة.

وتعقِّبَ بأنَّها كانت مسمَّاةً بهذا الاسم قبل نزولها الثاني، إذ السورةُ كما سمعْتَ غيرَ مرَّةٍ مكِّيةٌ.

وقيل: لأنَّ كثيراً من ألفاظها مكرَّرٌ كالرحمن، والرحيم، وإياك، والصراط، وعليهم.

وقيل: لاشتمالها على الثناء على الله تعالى، والقولان كما ترى.

وقيل ـ ونُسِب إلى ابن عباس ومجاهد ـ: إنَّ إطلاقَ المثاني على الفاتحة؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٩٥بنحوه.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٩٧بنحوه.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٨٥.

لأنَّ الله سبحانه استثناها وادَّخَرَها لهذه الأمةِ، فلم يُعطِها لغيرهم، ورُوي هذا الادِّخارُ في غيرها أيضاً، وفي غيرها أنَّ ذلك؛ لأنَّه تُكرَّر قراءتُه وألفاظُه، أو قِصَصُه ومواعظُهُ، أو لِمَا فيه من الثناء عليه تعالى بما هو أهلُه جلَّ شأنه، أو لأنَّه مُثْنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو يُثْنَى بذلك على المتكلِّم به، وعن أبي زيد البلخي أنَّ إطلاقَ المثاني على ذلك؛ لأنَّه يُثْني أهلَ الشرِّ عن شرِّهم، فتأمَّل.

وجوَّز أنْ يُراد بالمثاني القرآنُ كلُّه، وأخرج ذلك ابنُ المنذر وغيرُه عن أبي مالك[١]، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في توجيه إطلاقها عليه مع الاختلاف في الإفراد والجمع[٢].

وأنْ يُرادَ بها كُتُب الله تعالى كلُّها، فـ «مِن» للتبعيض، وعلى الأوَّل للبيان ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ بالنصب عطفٌ على «سبعاً».

فإنْ أُريدَ بها الآياتُ أو السُّورُ أو الأُمورُ السبعُ التي رُوِيَت عن زياد، فهو مِن عطف الكلِّ على الجزء بأنْ يُرادَ بالقرآن مجموعُ ما بين الدَّفتَين، أو من عطف العامِّ على الخاصِّ بأنْ يُرادَ به المعنى المشتركُ بين الكلِّ والبعض، وفيه دلالة على امتياز الخاصِّ حتى كأنَّه غيرُه، كما في عكسه.

وإنْ أُريدَ بها الأسباع فهو من عطف أحدِ الوصفَين على الآخر كما في قوله:

إلى الملك القَرمِ وابنِ الهمامِ[٣]

البيت، بناءً على أنَّ القرآنَ في نفسه الأسباعُ، أي: ولقد آتيناك ما يقال له: السبعُ المثاني والقرآن العظيم.

واختار بعضُهم تفسيرَ «القرآن العظيم» كـ «السبع المثاني» بالفاتحة لِمَا أخرجَه البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله ربِّ العالمين، هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه»[٤].

---

(١) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٥، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٢٠.
(٢) في سورة الزمر، عند قوله تعالى: ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الآية: ٢٣].
(٣) عجزه: وليث الكتيبة في المزدَحَم، وسلف ٢/ ٣٥٠.
(٤) صحيح البخاري (٤٤٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٥٧٣٠).

وفي «الكشف»: كونُها[1] الفاتحةَ أوفقُ لمقتضَى المقام لِمَا مرَّ في تخصيص «الكتاب وقرآن مبين» بالسورة، وأشدُّ طباقاً للواقع، فلم يكن إذ ذاك قد أُوتي ﷺ القرآن كلَّه. اهـ.

وأمر العطف معلومٌ مما قبله. وقرأت فرقةٌ: «والقرآنِ» بالجرِّ[2]، عطفاً على «المثاني»، وأبعدَ مَن ذهَبَ إلى أنَّ الواو مُقحمةٌ والتقدير: سبعاً من المثاني القرآنِ العظيمِ.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح بنظرك طموحَ راغبٍ، ولا تُدِم نظرك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارفِ الدنيا وزينتها ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفرة اليهود والنصارى والمشركين، وقيل: رجالاً مع نسائهم، والنَّهيُ قيل: له ﷺ وهو لا يقتضي الملابسةَ ولا المقاربةَ، وقيل: هو لأُمَّته وإن كان الخطابُ له عليه الصلاة والسلام، وأُيِّد بما أخرجه ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال في الآية: نُهِيَ الرجلُ أنْ يَتمنَّى مالَ صاحبه[3].

نعم كان ﷺ بعدَ نزول الآية شديدَ الاحتياط فيما تضمَّنته، فقد أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير أنّه عليه الصلاة والسلام مرَّ بإبلٍ لحيٍّ يقال لهم: بنو المُلَوَّح، أو بنو المصطلق، قد عَبَسَت في أبوالها وأَبْعارها مِن السِّمن، فَتَقنَّع بثوبه ومرَّ ولم ينظر إليها؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية[4]، ويُعدُّ نحو هذا الفعلِ من باب سدِّ الذرائع.

ومنهم مَن أيَّدَ الأوَّل بهذا وبدلالة ظاهر السياق عليه، وحاصلُها مع ما قبل: قد أُوتيتَ النعمةَ العظمَى، التي كلُّ نعمةٍ وإنْ عظُمَت فهي بالنسبة إليها حقيرةٌ، فعليك أنْ تستغنيَ بذلك ولا ترغبَ في متاع الدنيا، وجُعِلَ من ذلك قولُه عليه الصلاة

---

(١) في (م): كونهما.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٤٦٦ والكلام منه.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٢٨.

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٥٤، وعزاه لابن المنذر السيوطيُّ في الدر المنثور ٤/ ١٠٥-١٠٦، وفي الأصل و(م): عَنَسَت، بدل: عَبَسَت، والعَبَسُ: ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها يجفُّ عليها. ينظر القاموس (عبس).

والسلام: «ليس منَّا مَن لم يتغنَّ بالقرآن»(١) بناءً على أنَّ «يَتَغنَّ» من الغِنَى المقصور كيَستغني، وليس مقصوراً على الممدود، ويشهدُ لذلك ما في الحديث الصحيح في الخيل: «وأما التي هي له سِترٌ فرَجُلٌ رَبَطَها تغنِّياً وتعفُّفاً»(٢) وعن أبي بكر ﷺ: مَن أُوتي القرآن فرأى أنَّ أحداً أُوتيَ من الدنيا أفضل مما أُوتي، فقد صغَّر عظيماً وعظَّم صغيراً(٣). وقد أخرج ابنُ المنذر عن سفيان بن عُيينة ما هو بمعناه(٤)، وقال العراقي: إنَّ الخبر مرويٌّ ولكنْ لم أقف على روايته عن أبي بكر ﷺ في شيءٍ من كُتُب الحديث(٥).

وحكى بعضُهم في سبب نزولِ الآية أنَّه وافَت من بُصرى وأذرعات سبعُ قوافلَ لقُريظةَ والنضير في يومٍ واحدٍ، فيها أنواعٌ من البُرِّ والطِّيْب والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت لنا لتقوَّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله تعالى، فنزلت(٦). فكأنَّه سبحانه يقول: قد أعطيتُكم سبعاً هي خيرٌ من سبعِ قوافل، ورُوي هذا عن الحسن بن الفضل.

وتُعقِّب بأنَّه ضعيفٌ، أو لا يصحّ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، وقريظة والنضير كانوا بالمدينة فكيف يصحُّ أنْ يُقالَ ذلك؟ وهو كما ترى. نعم رُوي أنَّه ﷺ وافَى بأذرعات سبعَ قوافلَ ليهود بني قريظة والنضير فيها... إلخ، وهو غيرُ معروفٍ، وقد قالوا: إنَّه لم يُعهَد سفرُه ﷺ للشام.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧)، وهو عند أحمد (٧٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٣٩٨. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٣-٩٤: لم أجده عن أبي بكر.
وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٧٩٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٣٩٦ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وفيه: إسماعيل بن رافع الأنصاري، قال الهيثمي: متروك.

(٤) عزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وذكره أبو عبيد في فضائل القرآن ص٥٣، والطبري ١٤/ ١٢٧.

(٥) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١/ ٢٧٣، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٦.

(٦) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ٢٨٢.

واستُؤنس بخبر النزولِ على أنَّ النَّهي معنيٌّ به سيِّدُ المخاطبين عليه الصلاة والسلام كالنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث إنَّهم لم يؤمنوا، وكان ﷺ يودُّ أنْ يُؤمنَ كلُّ مَن بُعِثَ إليه، ويَشقُّ عليه عليه الصلاة والسلام لمزيد شَفَقته بقاءُ الكفرة على كفرهم، ولذلك قيل له: «ولا تَحزَن عليهم» وكأنَّ مرجعَ الجملةِ الأُولَى إلى النَّهي عن الالتفات إلى أموالهم، ومرجعَ هذه الجملة إلى النَّهي عن الالتفات إليهم، وليس المعنى: لا تحزن عليهم حيث إنَّهم المتمتِّعون بذلك، فإنَّ التمتُّع به لا يكون مداراً للحزن عليهم، وكونُ المعنى: لا تحزن على تمتُّعهم بذلك، فالكلامُ على حذف مضافٍ، لا يخفَى ما فيه من ارتكاب خلافِ الظاهر من غير داعٍ إليه.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ كناية عن التواضع لهم والرِّفق بهم، وأصلُ ذلك أنَّ الطائرَ إذا أرادَ أنْ يَضُمَّ فَرْخَه إليه بَسَط جناحَيه له، والجناحان من ابن آدم جانباه.

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ أي: المُنذِرُ الكاشِفُ نزول عذابِ الله تعالى ونِقَمِه المخوفةِ بمَن لم يُؤمن.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ قيل: إنَّه متعلِّقٌ بقوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ) إلخ على أنْ يكونَ في موضع نصبٍ نعتاً لمصدر من «آتينا» محذوفٍ، أي: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا، وهو في معنى: أَنزلْنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ أي: قسموه إلى حقٍّ وباطلٍ، حيث قالوا عناداً وعداوةً: بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، وتفسيرُ «المقتسمين» المذكورين بأهل الكتاب مما رُوي عن الحسن وغيرِه، وفي «الدر المنثور» أخرج البخاريُّ وسعيد بنُ منصور والحاكم وابنُ مردويه من طُرقٍ عن ابن عباس ﵄ أنَّه قال في الآية: هم أهل الكتاب جَزَّؤوه أجزاءً، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[1].

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٠٥)، والمستدرك ٢/ ٣٥٥، والدر المنثور ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٢٩.

وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً، فقد أخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» عن الحبر قال: سألَ رجلٌ رسول الله ﷺ قال: أرأيتَ قولَ الله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال عليه الصلاة والسلام: «اليهودُ والنصارى». قال: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ ما عِضِيْن؟ قال ﷺ: «آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض»(1).

أو اقتسَمُوه لأنفسهم استهزاءً به؛ فقد رُوي عن عكرمة أنَّ بعضَهم كان يقول: سورةُ البقرة لي، وبعضُهم: سورةُ آل عمرانَ لي، وهكذا؛ وجوِّز أنْ يُرادَ بـ «المقتسمين» أهلُ الكتاب، ويُراد من القرآن معناه اللغويُّ، أي: المقروء من كُتُبهم، أي: الذين اقتسَمُوا ما قرؤوا من كتبهم وحرَّفوه، وأقرُّوا ببعضٍ وكذَّبوا ببعضٍ، وحُمل توسُّطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلخ بين المتعلِّق والمتعلَّق على إمداد ما هو المرادُ بالكلام من التسلية.

وتُعقِّب القولُ بهذا التعلُّقِ بأنَّه جلَّ هذا المقامُ عن التشبيه، فلقد أُوتي ﷺ ما لم يُؤتَ أحدٌ قبلَه ولا بعدَه مثلَه، وفي حَمْل القرآن على المعنى اللغويِّ ما فيه.

وقيل: هو متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ لأنَّه في قوَّة الأمر بالإنذار كأنَّه قيل: أَنذِرْ قريشاً مثلَ ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني: اليهود، وهو ما جَرَى على قريظة والنضير، بأنْ جعل المتوقَّع كالواقع، وقد وَقَع كذلك.

وتُعقِّب بأنَّ المشبَّه به العذابُ المنذَرُ ينبغي أنْ يكونَ معلوماً حالَ النزول، وهذا ليس كذلك فيلغو التشبيه، وتنزيلُ المتوقَّع منزلة الواقع له موقعٌ جليلٌ من الإعجاز، لكن إذا صادفَ مقاماً يقتضيه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] ونظائرِه، على أنَّ تخصيصَ الاقتسام باليهود بمجرَّد اختصاصِ العذابِ المذكورِ بهم مع شِرْكَتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقةِ والمخالفة.

وفي الاقتسام بمعنى التحريفِ الشاملِ للكتابَين، بل تخصيص العذابِ المذكورِ بهم مع كونه من نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ من غير مخصِّص.

---

(1) المعجم الأوسط (٦٢٠٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٤٦: فيه حبيب بن حسان، وهو ضعيف.

وجوّز أنْ يُراد بـ «المقتسمين» جماعةٌ من قريش وهي اثنا عشر، وقال ابنُ السائب: ستَّة عشَرَ رجلاً: حنظلةُ بنُ أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بنُ المغيرة، وأبو جهل، والعاص بن هشام، وأبو قيس بنُ الوليد، وقيس بنُ الفاكه، وزهير بن أمية، وهلال عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو البختري ابن هشام، وزَمعة بنُ الحجاج، وأميَّة بنُ خَلَف، وأوس بنُ المغيرة، أرسلَهم الوليدُ بنُ المغيرة أيامَ الموسم لِيقِفُوا على مداخل طُرُقِ مكة لِيُنفِّرُوا الناسَ عن الإيمان برسول الله ﷺ، فانقسَمُوا على هاتيكَ المداخل يقولُ بعضُهم: لا تغترُّوا بالخارج فإنَّه ساحرٌ، ويقول الآخر: كذَّابٌ، والآخرُ: شاعرٌ، إلى غير ذلك من هَذَيانهم، فأهلكهم الله تعالى يومَ بدر وقبلَه بآفات، ويُجعَلُ «الذين» منصوباً بـ «النذير» على أنَّه مفعولُه الأول، و«كما» مفعوله الثاني، أي: أُنذرُ المُعْضِين الذين يُجزِّؤون القرآن إلى سِحْرٍ وشِعْرٍ وأساطيرَ مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسَمُوا مداخلَ مكة وهَذَوا مثل هَذَيانهم.

وتُعقِّب بأنَّ فيه مع ما فيه من المشاركة لِمَا سَبَق في عدم كونِ العذاب الذي شُبِّه به العذابُ المنذَرُ واقعاً ومعلوماً للمنذَرين، أنَّه لا داعيَ إلى تخصيص وصْفِ التعْضِيَة بهم وإخراجِ المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك، فإنَّ وصْفَهم لرسول الله ﷺ بما وَصَفُوا به من السحر والشعر والكذب متفرِّعٌ على وَصْفهم للقرآن بذلك، وهل هو إلا نفسُ التعضيةِ، ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذار، على أنَّ ما نَزَل بهم من العذاب لم يكن من الشدَّة بحيث يُشبَّهُ به عذابُ غيرِهم، ولا مخصوصاً بهم، بل هو عامٌّ لكلا الفريقَين وغيرهم، مع أنَّ بعضَ مَن عُدَّ مِن المنذَرين على قولٍ كالوليد بنِ المغيرة والأسود وغيرِهما قد هَلَكُوا قبل مَهلك أكثرِ المقتسمين يومَ بدر، ولا إلى تقديمِ المفعول الثاني على الأول كما ترى.

وقيل: إنَّه صفةٌ لمفعولِ «النذير» أُقيمَ مقامَه بعدَ حذفِهِ، والمقتسمون هم القاعدون في مداخل الطُّرق كما حُرِّر، أي: النذير عذاباً مثلَ العذاب الذي أنزلناه على المقتسمين.

وتُعقِّب أيضاً بأنَّ فيه مع ما مرَّ أنَّه يقتضي أنْ يكونَ «كما أنزلنا» من مقول الرسول ﷺ، وهو لا يصلُحُ لذلك.

واعتُذِرَ له بأنَّه كما يقول بعضُ خواصِّ الملك: أَمَرْنا بكذا، والآمرُ الملك كما تقدَّم غيرَ بعيدٍ، أو حكايةً لقول الله تعالى، وفيه من التعسُّف ما لا يخفى، وأيضاً فيه إعمالُ الوصف الموصوف في المفعول، وهو مما لا يجوز.

وأجيب بأنَّ الكوفيةَ تجوِّزُه، والقائلُ بَنَى الكلامَ على ذلك، أو أنَّ المرادَ بالمفعول المفعولُ الغيرُ الصريح، وتقديره: بعذاب، وهو لا يمنعُ الوصفَ من العمل فيه.

وقيل: المرادُ بـ «المقتسمين» على تقدير الوصفيَّة الرهطُ الذين تقاسَمُوا على أنَّ يُبيِّتُوا صالحاً عليه السلام فأهلَكَهم الله تعالى، والاقتسام بمعنى التقاسم، ولا إشكالَ في التشبيه؛ لأنَّ عذابهم أمرٌ محقَّقٌ نطَقَ به القرآن العظيمُ فيصحُّ أنْ يقَعَ مشبَّهاً به للعذاب المنذَرِ، والموصول إما مفعولٌ أوَّل للنذير، أو لِمَا دلَّ هو عليه من «أنذر».

وتُعقِّبَ أيضاً بأنَّ فيه بعد إغماضِ العين عمَّا في المفعوليَّة من الخلاف أو الخفاء أنَّه لا يكونُ للتعرُّض لعنوان التعضية في حيِّز الصلة، ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المَزْبورِ في حيِّز المفعولِ الثاني فائدةٌ، لِمَا أنَّ ذلك إنَّما يكونُ للإشعار بعلِّيَّة الصلةِ والصفةِ للحكم الثابتِ للموصول والموصوف، فلا يكونُ هناك وَجْهُ شَبَهٍ يدورُ عليه تشبيهُ عذابهم بعذابهم خاصةً، لعدم اشتراكهم في السبب، فإنَّ المُعضين بمعزلٍ من التقاسم على التبييت الذي هو السببُ لهلاك أولئك، مع أنَّ أولئك بمعزلٍ من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء، ولا علاقةَ بين السبَبَين مفهوماً ولا وجوداً تصحِّحُ وقوعَ أحدهما في جانب والآخر في جانب، واتِّفاقُ الفريقَين على مطلَق الاتِّفاق على الشرور المفهومِ من الاتِّفاق على الشرِّ المخصوصِ الذي هو التبييتُ المدلولُ عليه بالتقاسم، غيرُ مفيدٍ، إذ لا دلالةَ لعنوان التعضيةِ على ذلك، وإنما يدلُّ عليه اقتسامُ المداخل.

وجعلُ الموصول مبتدأً على أنَّ خبرَه الجملةُ القَسَمِيَّة لا يليقُ بجزالة التنزيلِ وجلالةِ شأنه الجليل. اهـ. وهذا الجَعلُ مرويٌّ عن ابن زيد، وفي روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجَها البيهقيُّ وأبو نعيم في «الدلائل» ما يقتضيه[1]، ومن هنا قيل

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٩٩-٢٠١ من طريق ابن إسحاق، وهو في السير والمغازي ص١٥٠-١٥٢، ولم نقف عليه عند أبي نعيم في مطبوع دلائل النبوة.

بمنعِ عدمِ اللَّياقة، وبعضُ من يُسلِّمها يقول: يجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ صفة «المقتسمين» مراداً بهم أولئك الرهطُ، ومعنَى جعلهم القرآنَ عِضين حُكمُهم بأنَّه مفترًى وتكذيبهم به، والمرادُ منه معناه اللغويُّ، فيؤول إلى وَصْفهم بتكذيبهم بكتابهم وإعراضِهم عن الإيمان به والعمل بما فيه.

ويُوافق ما مرَّ من قوله تعالى فيهم وفي قومهم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ بناءً على أنَّ المرادَ بالآيات آياتُ الكتاب المُنزَل على نبيِّهم عليه السلام حسبما قيل به فيما سبق، وإنْ أبيتَ ذلك بناءً على ما سمعتَ هنالك التزمنا كونَ الموصولِ مفعولاً، وقلنا: فائدةُ التعرُّضِ للعنوانَين المذكورَين على الوجه المذكور الإشارةُ إلى تَفْظيع أمرِ التكذيب وكونه في سَبَبيَّته للعذاب كالاقتسام على قتل النبيِّ، ويلتزمُ ما يُشعرُ به هذا من أفظَعيَّة الاقتسام المزبورِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلا عن تكذيبٍ ومزيدِ عداوةٍ للنبيِّ، وفيه بحث.

وقيل: المُصحِّحُ لوقوع أحدِ العنوانَين في جانبٍ والآخر في جانب أنَّ التكذيبَ يَنجرُّ بزعم المكذِّبين إلى إبطال أمرِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام وإطفاءِ نورِه، وهو العلَّةُ الغائيَّةُ لذلك، والاقتسام المذكورُ كذلك، وهو كما ترى.

وقال أبو البقاء ـ وليتَهُ لم يقل ـ: إنَّ «كما أنزلنا» متعلِّق بقوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ وهو في موضع نصبٍ، نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: متعناهم تمتيعاً كما أنزلنا، والمعنى: نعَّمنا بعضَهم كما عذَّبنا بعضَهم(١).

وذكر ابنُ عطيَّة وغيرُه أنَّه يحتملُ أنْ يكونَ المعنى: قل: إنِّي أنا النذيرُ المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنَّك ستأتي نذيراً على المقتسمين، أي: أهل الكتاب(٢).

ومرادُهم على ما قيل أنَّ «ما» في «كما» موصولة، والمرادُ من المشابهة المستفادةِ من الكاف الموافَقةُ، وهي مع ما في حيِّزها في محلِّ النصب على الحاليَّة من مفعول «قل» أي: قل هذا القولَ حالَ كونِهِ كما أنزلنا على أهل الكتابَين، أي:

---

(١) الإملاء ٣/ ٤٣٥-٤٣٦.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٧٤.

موافقاً لذلك، والأنسبُ على هذا حَمْلُ الاقتسام على التحريف، ليكونَ وصفُهم بذلك تعريضاً بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبيِّ ﷺ.

وأنت تعلم أنَّ فيه بعداً، لكنَّه أولَى بالنسبة إلى بعض ما تقدَّم، وقريبٌ منه ما قيل: المعنى: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً موافقاً للإيتاء الذي أنزلناه على أهل الكتابَين وأخبرناهم به في كتبهم، وفيه ما فيه.

وأما جعلُها زائدةً، والمعنى: أنا النذيرُ المبينُ ما أنزلنا. فحالُه غنيٌّ عن التنبيه عليه.

وقال العلَّامة أبو السعود بعد نقل أقوالٍ عقَّبها بما عقَّبها: والأقربُ من الأقوال المذكورة أنَّ «كما أنزلنا» متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ إلخ، وأنَّ المرادَ بـ «المقتسمين» أهلُ الكتابَين، وأنَّ الموصولَ مع صلته صفةٌ مبيِّنةٌ لكيفيَة اقتسامهم، ومحلُّ الكاف النصبُ على المصدريَّة، وحديثُ جلالةِ المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل.

والمعنى: لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثلاً لإنزال الكتابَين على أهلهما، وعدمُ التعرُّض لذكر ما أُنزلَ عليهم من الكتابَين؛ لأنَّ الغرَضَ بيانُ المماثلة بين الإيتاءَين لا بينَ متعلَّقيهما، والعدولُ عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه بأنْ يقال: كما آتينا المقتسمين حسبما وَقَع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١] إلخ للتنبيه على ما بين الإيتاءَين من التنائي، فإنَّ الأوَّل على وجه التكرمةِ والامتنان، فشتَّان بينه وبين الثاني، ولا يقدحُ ذلك في وقوعه مشبَّهاً به، فإنَّ ذلك إنَّما هو لمسلَّميَّتِه عندهم، وتقدُّم وجوده على المشبَّه زماناً لا لمزيَّةٍ تعودُ إلى ذاته، ونظيرُ ذلك ما قيل في الصلوات الإبراهيميَّة، فليس في التشبيه إشعارٌ بأفضليةِ المشبَّه به من المشبَّه، فضلاً عن إيهام ما تعلَّق به الأول مما تعلَّق به الثاني، وإنَّما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكاراً لاتِّصافهم به مع تحقُّق ما يَنفيه من الإنزال المذكور، وإيذاناً بأنَّهم كان من حقِّهم أنْ يُؤمنوا بكلِّه حسب إيمانهم بما أُنزل عليهم؛ بحكم الاشتراكِ في العلَّة والاتِّحادِ[1] في

(١) في الأصل: اتحاد.

الحقيقة التي هي مطلَقُ الوحي، وتوسيطُ قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلخ لكمال اتِّصاله بما هو المقصودُ من بيان حالِ ما أُوتي النبيُّ ﷺ.

ولقد بُيِّن أولاً عُلوُّ شأنه ورِفعةُ مكانِهِ ﷺ بحيث يستوجبُ اغتباطَه عليه الصلاة والسلام بمكانِهِ واستغناءه به عمَّا سواه، ثم نُهِيَ عن الالتفات إلى زهرة الدنيا، وعبَّر سبحانه عن إيتائها لأهلها بالتمتُّع المُنبئ عن وَشْك زوالها عنهم، ثم عن الحُزن؛ لعدمِ إيمانِ المُنهمكين فيها، وأمرَ بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم، وبإظهار قوَامِهِ بمواجب الرسالة ومَرَاسم النِّذارَة حسبما فُصِّل في تضاعيف ما أوتيَ من القرآن العظيم.

ثم رَجَع إلى كيفية إتيانِهِ على وَجْهٍ أَدمجَ فيه ما يزيحُ شُبَهَ المنكرِين ويستنزِلُهم من العناد من بيان مشاركتِهِ لِمَا لا ريبَ لهم في كونه وحياً صادقاً، فتأمَّل والله تعالى عندَه علمُ الكتاب[1]. اهـ وهو كلامٌ ظاهرٌ عليه مخايلُ التحقيق.

وفي «البحر» بعد نقلِ أكثرِ هذه الأقوالِ: وهذه أقوالٌ وتوجيهاتٌ مُكلفة، والذي يظهرُ لي أنَّه تعالى لمَّا أَمَره ﷺ بأنْ لا يحزَنَ على مَن لم يُؤمن، وأَمَره عليه الصلاة والسلام بخفضِ جناحِهِ للمؤمنين، أَمرَه ﷺ أنْ يُعلِمَ المؤمنين وغيرَهم أنَّه هو النذيرُ المبين، لئلَّا يَظُنَّ المؤمنون أنَّهم لمَّا أُمِرَ ﷺ بخفض جناحِهِ لهم خَرَجُوا مِن عُهدةِ النِّذارة، فأُمِرَ ﷺ بأنْ يقولَ لهم: ﴿إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لكم ولغيركم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وتكونُ الكافُ نعتاً لمصدر محذوفٍ، والتقدير: وقل قولاً مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين إنَّك نذيرٌ لهم، فالقولُ للمؤمنين في النِّذارة كالقول للكفار المقتسمين؛ لئلا يُظَنَّ إنذارُك للكفار مخالفاً لإنذار المؤمنين، بل أنت في وَصْف النِّذارة لهم بمنزلةٍ واحدةٍ تُنذِرُ المؤمنَ كما تنذرُ الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. اهـ بحروفه[2]، وهو كما ترى ركيكٌ لفظاً ومعنًى، والله تعالى أعلمُ بمراده، وعنده علم الكتاب.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٩١.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٦٩.

و«عضين» جمع عِضَة، وأصلُها: عِضَوَة بكسر العين وفتح الضاد بمعنى جزء، فهو معتلُّ اللام من عَضَّاه بالتشديد جعلَه أعضاءً وأجزاءً، فالمعنى: جعلوا القرآن أجزاءً.

وقيل: العِضَهُ في لغة قريش: السِّحرُ، فيقولون للساحر: عاضِهٌ، وللساحرة: عاضِهَةٌ، وفي حديث رواه ابنُ عدي في «الكامل» وأبو يَعلَى في «مسنده»: «لَعَنَ اللهُ العاضِهَةَ والمُستَعْضِهَة»[1] وأراد ﷺ الساحرةَ والمستسحرة، أي: المستعملة لسحرِ غيرها، وهو على هذا مأخوذٌ من عَضَهْتُه، فاللام المحذوفة هاء كما في شَفَة وشاة، على القول بأنَّ أصلهما: شَفَهةٌ وشَاهةٌ، بدليل جمعهما على: شِفَاه وشِيَاه، وتصغيرهما على: شُفَيهة وشُوَيهة.

وعن الكِسائي أنَّه مِن عَضَهَه عَضْهاً وعَضِيْهةً رماه بالبهتان، قيل: وأخذُ العِضَه بمعنى السِّحر من هذا؛ لأنَّ البهتانَ لا أصلَ له، والسحر تخييلُ أمرٍ لا حقيقةَ له، وذهب الفرَّاء إلى أنَّه من العضاه وهي شجرةٌ تؤذي كالشَّوك، واختار بعضُهم الأوَّلَ، وجَمْعُ السلامةِ لجَبْر ما حُذِف منه كعِزِين وسِنِين، وإلا فحقُّه أنْ لا يُجمَع جمعَ السلامةِ المذكَّر؛ لكونه غيرَ عاقلٍ ولتغيُّر مفردِه؛ ومثل هذا كثيرٌ مطَّردٌ.

ومِن العرب مَن يُلزِمُهُ الياء، ويجعل الإعرابَ على النون فيقول: عِضِيْنك كسِنِيْنك، وهذه اللغة كثيرةٌ في تميم وأسد.

والتعبير[2] عن تجزئة القرآن بالتعضية، التي هي تفريقُ الأعضاء مِن ذي الروح المستلزمِ لإزالة حياتِهِ وإبطالِ اسمِهِ دون مطلَقِ التجزئة والتفريقِ اللذَين ربما يُوجدان فيما لا يضرُّه التبعيضُ = للتنصيص على قُبح ما فعلوه بالقرآن العظيم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: لنسألَنَّ يومَ القيامة أصنافَ الكفرةِ مطلقاً المقتسمين وغيرهم سؤالَ تقريعٍ وتوبيخٍ ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا من قولٍ وفعلٍ وتَرْكٍ، فيدخل فيه ما ذُكر من الاقتسام والتعضية دخولاً أوليًّا، أو لنجازينَّهم

---

(١) التراجم الساقطة من الكامل ص١٠٧ من حديث ابن عباس ﷺ. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٩٤: في إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام، وهما ضعيفان، ولم نقف عليه في مطبوع مسند أبي يعلى.

(٢) في الأصل و(م): وفي التعبير. والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٩٢.

على ذلك، وعلى التقديرَين لا منافاةَ بين هذه الآيةِ وقولِهِ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] لأنَّ المرادَ هنا حسبما أَشرنا إليه إثباتُ سؤالِ التقريعِ والتوبيخ، أو المجازاة بناءً على أنَّ السؤالَ مجازٌ عنها، وهناك نَفْيُ سؤال الاستفهام؛ لأنَّه تعالى عالمٌ بجميع أعمالهم، ورُوي هذا عن ابن عباس، وضعَّف هذا الإمامُ بأنَّه لا معنَى لتخصيص نَفي سؤالِ الاستفهام بيوم القيامة؛ لأنَّ ذلك السؤال محالٌ عليه تعالى في كلِّ وقتٍ[1].

وأجيبَ بأنَّه بناءً على زعمهم كقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم:٢١] فإنَّه يظهرُ لهم في ذلك اليوم أنَّه سبحانه لا يخفَى عليه شيءٌ، فلا يحتاجُ إلى الاستفهام.

وقيل: المرادُ لا سؤالَ يومئذٍ منه تعالى ولا مِن غيره، بخلاف الدنيا فإنَّه ربما سألَ غيرُه فيها. ورُدَّ بأنَّ قوله: لأنَّه سبحانه عالمٌ بجميع أعمالهم، يأباه.

واختارَ غيرُ واحدٍ في الجمع أنَّ النفي بالنسبة إلى بعض المواقفِ، والإثباتَ بالنسبة إلى بعضٍ آخرَ، وسيأتي تمامُ الكلام في ذلك[2].

واستظهر بعضُهم عودَ الضمير في «لنسألنهم» إلى ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ للقُرْب، وجوَّزَ أنْ يعودَ على الجميع من مؤمنٍ وكافرٍ؛ لتقدُّم ما يُشعر بذلك من قوله سبحانه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

و«ما» للعموم كما هو الظاهر، وأخرج ابنُ جرير وغيرُه عن أبي العالية أنَّه قال في الآية: يُسأل العبادُ كلُّهم يومَ القيامة عن خَلَّتين: عمَّا كانوا يَعبدُون، وعمَّا أجابوا به المرسَلين[3].

وأخرج الترمذيُّ وجماعةٌ عن أَنَسٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يُسألونَ عن قول: لا إله إلا الله»[4] وأخرجه البخاريُّ في تاريخه والترمذيُّ من وجهٍ آخرَ عن أنسٍ موقوفاً[5]،

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩/ ٢١٤.

(٢) في سورة الرحمن عند تفسير الآية (٣٩).

(٣) الطبري ١٤/ ١٤١، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦ إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) سنن الترمذي (٣١٢٦)، والتاريخ الكبير ٨/ ٣٣، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ١٤٠.

(٥) التاريخ الكبير ٢/ ٨٦، والترمذي (٣١٢٦)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ١٣٩.

وروي أيضاً عن ابن عمرَ ومجاهد، والمعنى على ما في «البحر»: يسألون عن الوفاء بلا إله إلا الله والتصديقِ لمقالها بالأعمال[١].

والفاء قيل: لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذُكر بعضُها، وقيل: لتعليل النَّهي والأمرِ فيما سبق، وزعْمُ أنَّها الفاء الداخلة على خبر الموصول كما في قولك: الذي يأتيني فلَهُ درهمٌ، مبنيٌّ على أنَّ «الذين» مبتدأٌ، وقد علمتَ حالَ ذلك، وفي التعرُّض لوصفِ الربوبيَّة مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفَى من إظهار اللطف به ﷺ.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ قال الكلبي: أي: أَظْهِرْه واجهَرْ به، يقال: صَدَع بالحجَّةِ: إذا تكلَّمَ بها جهاراً، ومِن ذلك قيل للفجر: صديع؛ لظهوره.

وجوِّز أنْ يكونَ أمراً من صَدع الزُّجَاجة، وهو تفريقُ أجزائها، أي: افرُق بين الحقِّ والباطل، وأصلُه على ما قيل الإبانة والتمييزُ، والباء على الأول صلةٌ، وعلى الثاني سببيَّةٌ.

و«ما» جوِّزَ أنْ تكونَ موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، أي: بالذي تُؤمرُ به، فحُذِفَ الجارّ، فتعدَّى الفعل إلى الضمير فصار تُؤْمَره، ثم حُذف، ولعلَّ القائلَ بذلك لم يعتبر حذفَهُ مجروراً لفقد شرطِ حذفه بناءً على أنَّه يُشترَط في حذف العائدِ المجرور أنْ يكونَ مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً.

وقيل: التقديرُ: فاصدَع بما تُؤمَرُ بالصَّدع بهِ فحُذِفَت الباء الثانية ثم الثالثة ثم لام التعريف ثم المضاف ثم الهاء، وهو تكلُّفٌ لا داعيَ له، ويكاد يُورثُ الصُّداع.

والمرادُ بما يؤمرُ به الشرائعُ مطلقاً، وقول مجاهد كما أخرجَه عنه ابنُ أبي حاتم: إنَّ المعنى: اجهَرْ بالقرآن في الصلاة[٢]. يقتضي بظاهره التخصيصَ، ولا داعيَ له أيضاً كما لا يخفى. وأَظهرُ منه في ذلك ما روي عن ابن زيد أنَّ المرادَ بـ «ما تُؤمرُ» القرآن الذي أُوحي إليه ﷺ أنْ يُبلِّغَهم إياه. وأنْ تكون مصدريةً، أي: فاصْدَع بمأموريَّتك، وهو الذي عناه الزمخشريُّ بقوله: أي: بأمرك، مصدر من

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٦٩.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وأخرجه الطبري ١٤/ ١٤٣.

المبنيّ للمفعول[١]، وتعقبه أبو حيان بأنه مبني على مذهب من يجوز أن يراد بالمصدر «أن» والفعل المبني للمفعول والصحيحُ أنَّ ذلك لا يجوزُ[٢].

وردَّ بأنَّ الاختلافَ في المصدر الصريحِ هل يجوزُ انحلالُه إلى حرفٍ مصدريٍّ وفِعْلٍ مجهول، أم لا؟ أمَّا أنَّ الفعل المجهول هل يُوصَلُ به حرفٌ مصدريٌّ فليس محلَّ النزاع، فإنْ كان اعتراضُه على الزمخشريِّ في تفسيره بالأمر، وأنَّه كان ينبغي أنْ يقولَ بالمأمورية، فشيءٌ آخر سهلٌ، ثم لا يخفَى ما في الآية من الجزالة.

وقال أبو عبيدة عن رؤبة: ما في القرآن أجزل[٣] منها، ويُحكَى أنَّ بعضَ العربِ سمِعَ قارئاً يَقْرَؤها فسجَدَ، فقيل له في ذلك فقال: سجدتُ لبلاغةِ هذا الكلام، ولم يزل ﷺ مستخفياً ـ كما روي عن عبد الله بن مسعود ـ قبل نزولها[٤]، فلمَّا نزلَت خرج هو وأصحابُه عليه الصلاة والسلام[٥].

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ أي: لا تلتفِتْ إلى ما يقولون ولا تُبالِ بهم، فليسَت الآيةُ منسوخةً، وقيل: هي من آيات المهادنة التي نسخَتها آيةُ السيف، وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم وأبو داود في ناسخه عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦].

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ بك، أو بك وبالقرآن، كما رُوي عن ابن عباس؛ بقَمْعهم وتدميرهم. وأخرج الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في «الدلائل»، وابن مردويه بسندٍ حسن[٧] قال: المستهزؤون: الوليد بن المغيرة،

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٩.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.

(٣) قوله: أجزل، ساقط من (م).

(٤) في (م): نزول ذلك.

(٥) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٦، وعزاه للطبري، وهو عنده ١٤/ ١٤٣ عن عبد الله بن عبيدة.

(٦) الدر المنثور ٤/ ١٠٦.

(٧) المعجم الأوسط (٤٩٨٦)، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٦-٣١٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٣٥٢-٣٥٣ عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٧، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة ١/ ٤٠٨، والطبري ١٤/ ١٤٦ عن عروة.

والأسود بن عبدِ يَغُوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطل السهميّ، والعاص بن وائل، فأتاه جبريلُ عليه السلام فشكاهم إليه، فأراه الوليدَ فأومأ جبريلُ عليه السلام إلى أَكْحَله[1]، فقال ﷺ: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكه، ثم أَراه الأسود بنَ المطلب فأومأ إلى عينَيه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكه، ثم أَراه الأسودَ بن عبد يَغُوث فأومأ إلى رأسه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكه؛ ثم أَراه الحارث فأومأ إلى بَطْنه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكه، ثم أَراه العاص بنَ وائل فأومأ إلى أَخْمَصه فقال: «ما صنعتَ شيئاً». قال: كفيتُكه. فأما الوليدُ فمرَّ برجلٍ من خزاعة وهو يَريشُ نبلاً فأصابَ أكحله فقطَعَها، وأما الأسودُ بن المطلب فنزَلَ تحت سَمُرَةٍ فجعَلَ يقول: يا بنيَّ أَلَا تدفعون عنِّي قد هلكتُ أُطعَنُ بالشوك في عَيْنَي، فجعلوا يقولون: ما نَرَى شيئاً، فلم يَزَلْ كذلك حتى عَمِيَت عيناه، وأما الأسود بن عبد يَغُوث فخرج في رأسه قُروحٌ فمات منها، وأما الحارث فأخذَهُ الماء الأصفر في بطنه حتى خَرَج رجيعُه من فيه فمات منه، وأما العاص فركبَ إلى الطائف فربض على شبرقة فدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته.

وقال الكرماني في شرح «البخاري»: إنَّ المستهزئين هم السبعةُ الذين أَلقَوا الأذَى ورسولُ الله ﷺ يُصلِّي كما جاء في حديث البخاري وهم: عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عُتبة، وأمية بن خَلَف، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وعُمَارة بن الوليد[2].

وفي «الإعلام» للسهيلي أنَّهم قُذِفُوا بقَليبِ بدرٍ[3]، وعدَّهم بخلاف ما ذكر.

وفي «الدر المنثور» وغيره رواياتٌ كثيرةٌ مختلفةٌ في عِدَّتهم[4] وأسمائهم وكيفيَّة هلاكهم.

---

(١) في الأوسط ودلائل البيهقي: أبجله، بدل: أكحله، والأبجل: عِرقٌ غليظٌ في الرِّجْل أو في اليد بإزاء الأكحل.

(٢) شرح البخاري للكرماني ٤/ ٩٧، عند شرح الحديث رقم (٢٤٠).

(٣) التعريف والإعلام ص ٩٠-٩١، ونقله عنه بواسطة حاشية الشهاب ٥/ ٣٠٨.

(٤) جاء في حاشية (م): عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا ثمانية. اهـ منه. وينظر اختلاف الروايات في الدر المنثور ٤/ ١٠٧.

وعدَّ الشعبيُّ منهم هبَّارَ بن الأسود. وتعقَّبه في «البحر»: بأنَّ هباراً أسلمَ يوم الفتح ورَحَل إلى المدينة[١]. فعدّه وَهْمٌ، وهذا متعيِّنٌ إذا كانت كفايتُه عليه السلام إياهم بالإهلاك كما هو الظاهر.

وقد ذكر الإمامُ نحو ما ذكرنا من اختلاف الروايات، ثم قال: ولا حاجةَ إلى شيءٍ من ذلك، والقدر المعلوم أنَّهم كانوا طائفةً لهم قوَّةٌ وشوكةٌ؛ لأنَّ أمثالَهم هم الذين يَقدِرون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله ﷺ في علوِّ قدره وعِظَم مَنصِبه، ودلَّ القرآنُ على أنَّ الله سبحانه أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ أي: اتَّخذوا إلهاً يعبدونه معه تعالى، وصيغةُ الاستقبالِ لاستحضار الحالِ الماضيةِ، وفي وَصْفهم بذلك تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهوينٌ للخَطْب عليه عليه الصلاة والسلام بالإشارة إلى أنَّهم لم يقتصروا على الاستهزاء به ﷺ بل اجترؤوا على العظيمة التي هي الإشراك به سبحانه.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ما يأتون ويذرون، وفيه من الوعيد ما لا يخفى، وفي «البحر»: أنَّه وعيدٌ لهم بالمجازاة على استهزائهم وشركهم في الآخرة كما جُوزُوا في الدنيا[٣].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ من كلماتِ الشركِ والاستهزاءِ، وتحليةُ الجملةِ بالتأكيد لإفادة تحقُّقِ ما تضمَّنه من التسلية. وصيغةُ المضارع لإفادة استمرار العلمِ حسب استمرارِ متعلّقه باستمرار ما يُوجبه من أقوال الكفرة.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ فافزع إلى ربِّك فيما نابَكَ من ضِيْق الصدرِ بالتسبيح ملتبساً بحمده، أي: قل: سبحانَ اللهِ والحمدُ لله، أو: فنزِّهْهُ عما يقولون حامداً له سبحانه على أنْ هداك للحقِّ، فالتسبيحُ والحمدُ بمعناهما اللغويِّ، كما أنَّهما على الأول بمعناهما العُرفيِّ، أعني قولَ تَيْنك الجملتَين، وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ ما لا يخفَى من اللطف به عليه الصلاة والسلام، والإشعار بعلَّة الحكم، أعني الأمرَ المذكور.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩/ ٢١٥.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٧٠.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: المصلِّين، ففيه التعبيرُ عن الكلِّ بالجزء، وهذا الجزءُ على ما ذهب إليه البعضُ أفضلُ الأجزاء، لِمَا صحَّ من قوله ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ»(١). وليس هذا موضعَ سجدةٍ، خلافاً لبعضهم.

وفي أمره ﷺ بما ذُكِرَ إرشادٌ له إلى ما يكشِفُ به الغمَّ الذي يجدُه، كأنَّه قيل: افعل ذلك يَكشِفُ عنك ربُّك الغمَّ والضيقَ الذي تجدُه في صدرك، ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة جيء بالأمر بها كما تَرَى مغايراً للأمر السابق على هذا الوجه المخصوص، وفي ذلك من الترغيب فيها ما لا يخفَى. وقد كان ﷺ إذا أَحْزَنَه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة(٢). وصحَّ: «حُبِّبَ لي من دنياكم النساءُ، والطيبُ، وجُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(٣).

وذكر بعضُهم أنَّ في الآية إشارةً إلى الترغيب بالجماعة فيها. وأنَّ في عدم تقييد السجودِ بنحو: له، أو: لربِّك، إشارةً إلى أنَّه مما لا يكادُ يخطرُ بالبال إيقاعُه لغيره تعالى، فتدبَّر.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ دُمْ على ما أنت عليه من عبادتِهِ سبحانه، قيل: وفي الإظهار بالعنوان السالف آنفاً تأكيدٌ لِمَا سَبَق من إظهار اللطفِ به ﷺ والإشعارِ بعلَّة الأمر بالعبادة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: الموتُ كما روي عن ابن عمرَ والحسن وقتادة وابن زيد، وسُمّي بذلك؛ لأنَّه مُتيقَّن اللحوق بكلِّ حيٍّ، وإسنادُ الإتيان إليه؛ للإيذان بأنَّه متوجِّهٌ إلى الحيِّ، طالبٌ للوصول إليه، والمعنى: دُمْ على العبادة ما دُمْت حيًّا من غير إخلالٍ بها لحظةً، وقال ابنُ بحر: اليقينُ: النصرُ على الكافرين الذي وعده ﷺ.

وأيًّا ما كان فليس المراد به ما زعَمَه بعضُ الملحدين مما يسمُّونه بالكشف والشهود، وقالوا: إنَّ العبدَ متى حَصَل له ذلك سَقَط عنه التكليفُ بالعبادة، وهي ليسَت إلا للمحجوبين، وقد مَرَقُوا بذلك من الدين وخَرجُوا من رِبْقَة الإسلام وجماعة المسلمين.

---

(١) أخرجه أحمد (٩٤٦١)، ومسلم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وتقدم ٤/ ١٨٦.
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وتقدم ٤/ ٣٣٧.

وذكر بعضُ الثقات أنَّ هذا الأمرَ كان بعدَ الإسراء والعروج إلى السماء، أفترى أنَّه ﷺ لم يتَّضِح له ليلتئذٍ صُبْح الكشف والشهودِ، ولم يَمُنَّ عليه باليقين عظيمُ الكرمِ والجودِ؟ الله أكبرُ لا يتجاسرُ على ذلك من في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان، أو رُزِق حبَّة خردلٍ من عقلٍ ينتظمُ به في سلك الإنسان، وأيضاً لم يزل ﷺ - ما دامَ حيًّا - آتياً بمراسم العبادةِ، قائماً بأعباء التكليف، لم ينحرف عن الجادَّة قَدْرَ حادَّة، أَفَيُقال: إنَّه لم يأتِهِ عليه الصلاة والسلام حتى تُوفِّي ذلك اليقينُ، ولذلك بقي في مَشاقِّ التكليف إلى أنْ قَدِم على ربِّ العالمين؟! لا أَرَى أحداً يخطُر له ذلك بجَنان ولو طالَ سلوكُه في مهامِهِ الضلالةِ وبان.

نعم ذَكَر بعضُ العلماء الكرام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ إلخ كلاماً متضمِّناً شيئاً مما يذكُره الصوفية، لكنَّه بعيدٌ بمراحلَ عن مَرام أولئك اللئام، ففي «الكشف»: أنَّه تعالى بعدما هَدَم قواعدَ جهالاتِ الكفرةِ، وأبرقَ وأَرْعَدَ بما أَظْهَرَ من صنيعِهِ بالقائلين نحو مقالاتِ أولئك الفجرةِ، فَذْلَكَ الكلامَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ مؤكّداً هذا التأكيدَ البالغ الصادر عن مقام تَسَخُّطٍ بالغٍ وكبرياءٍ؛ ليُنَفِّسَ عن حبيبه عليه الصلاة والسلام أشدَّ التنفيس، ثم أرشدَ إلى ما هو أعلى من ذلك مما يؤهِّله لمسامرة الجليسِ للجليس، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارةً إلى التوجُّه إليه بالكلِّية، والتجرُّدِ التامِّ عن الأغيار، والتحلِّي بصفات مَن توجَّه إليه بحُسن القبول والافتقار، إذ ذلك مُقتضَى التسبيح والحمد لمن عَقَلهما.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ دلالةً على الاقتراب المضمَر فيه؛ لأنَّ السجودَ غايةُ الذِّلَّة والافتقار، وهو مظهرُ الفناءِ حتى نفسِهِ وشِرْكِ البقاء بمَن أَمَره بخَمْسِهِ.

وقوله تعالى شأنه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ إلخ، ظاهرُه ظاهرٌ، وباطنُه يُومي إلى أنَّ السَّفر في الله تعالى لا ينقطِعُ، والشهود الذي عليه يُستقرُّ لا يحصل أبداً، فما مِن طامَّةٍ إلا وفوقَها طامَّة.

إذا تَـغـيَّـبْـتُ بَـدَا وإنْ بـدا غَـيَّـبَـنـي[1]

---

(١) نسبه لأبي حمزة الصوفي الخطيبُ في تاريخ بغداد ١/ ٣٩٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥١/ ٢٥٨، ولأبي الحسين النوري أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٥٠.

وعن لسان هذا المقام ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] اهـ.

هذا ولا يخفَى مما ذكره غيرُ واحدٍ من المفسِّرين مناسبةُ خاتمةِ هذه السورةِ لفاتحتها، وأنَّ قولَه سبحانه: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ) إلخ في مقابلة (وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ) والله تعالى أعلم وأحكم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة فيما تقدَّم من الآيات ما قالوه مما ملخصه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: أَخبِرْهم بأنِّي أغفرُ خَطَراتِ قلوبِ العارفين بعد إدراكهم مواضعَ خطرها، وتداركهم ما هو مطلوبٌ منهم، وأرحمُهم بأنواع الفيوضات، وأُوصلُهم إلى أعلَى المكاشفات والمشاهدات.

﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ وهو عذابُ الاحتجاب والطَّردِ عن الباب، وقال ابن عطاء: هذه الآيةُ إرشادٌ له ﷺ إلى كيفية الإرشاد كأنَّه قِيل: أَقِمْ عبادي بين الخوفِ والرجاء، ليَصِحَّ لهم سبيلُ الاستقامة في الطاعة، فإنَّ مَن غَلَب عليه رجاؤه عطَّلَه، ومَنْ غَلَب عليه خوفُه أقنطَه.

وذكر بعضُهم أنَّ فيها إشارةً إلى ترجيح جانبِ الخوف على الرجاء؛ لأنَّه سبحانه أَجرَى وَصْفَي الرحمة على نفسه عزَّ وجلَّ، ولم يُجرِ العذابَ على ذلك السَّنَن.

وأنت تعلمُ أنَّ المذكور في كثيرٍ من الكتب أنَّه ينبغي للإنسان أنْ يكونَ معتدلَ الرجاءِ والخوفِ إلا عند الموت، فينبغي أنْ يكونَ رجاؤُه أَزْيدَ من خوفِه؛ وفي المقام كلامٌ طويل يُطلَبُ من موضعه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال النوري(١): أي: بحياتك التي خُصِّصْتَ بها من بين العالمين. وقال القرشيُّ: هذا قَسَمٌ بحياة الحبيب ﷺ. وإنما أَقسم سبحانه بها؛ لأنَّها كانت به تعالى.

---

(١) في (م): النووي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المتفرِّسين، وذَكَروا أنَّ للفِراسة مراتبَ: فبعضُها يحصُل بعين الظاهر.

وبعضُها ما يُدرِكُه آذان العارفين مما ينطِقُ به الحقُّ بألسنة الخَلْق.

وبعضُها ما يبدو في صورة المتفرِّس من أشكال تصرُّفِ الحقِّ سبحانه وإنطاقِهِ وجوده له حتى ينطِقَ جميعُ شعراتِ بدنه بألسنةٍ مختلفة، فيَرَى ويَسمَع من ظاهر نفسه ما يدلُّ على وقوع الأمور الغيبية.

وبعضُها ما يحصُل بحواسِّ الباطن، حيث وَجدَت بلطفها أوائلَ المغيبات باللائحة.

وبعضُها ما يحصُل من النفس الأمَّارة بما يبدو فيها من التمنِّي والاهتزاز، وذلك سرُّ محبته، فإنَّ الله تعالى إذا أرادَ فَتْحَ بابِ الغيب، أَلْقَى في النفس آثار بواديه، إما محبوبةً فتتمنَّى، وإما مكروهةً فتنفرُ فتفزع(١)، ولا يَعرفُ ذلك إلا ربانيُّ الصفة.

وبعضُها ما يحصُل للقلب إما بالإلهام وإما بالكشف.

وبعضُها ما يحصُل للعقل، وذلك ما يقعُ من أثقال الوحي الغيبيِّ عليه.

وبعضُها ما يحصل للروح بالواسطةِ وغيرِ الواسطة.

وبعضُها ما يحصل لِعين السرِّ وسمعه.

وبعضُها ما يحصل في سرِّ السرِّ، ظهورُ عرائس أقدارِ الغيبة ملتبسات بأشكالِ إلهيةٍ ربانيةٍ روحانية، فيبصر تصرُّفَ الذاتِ في الصفات، ويَسمَع الصفات بوَصْف الحديثِ والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهَى الكَشْف والفِراسة.

وسُئل الجنيدُ ﷺ عن الفِراسة فقال: آياتٌ ربانيةٌ تظهرُ في أسرار العارفين، فتنطِقُ ألسنتُهم بذلك فتُصادِفُ الحقَّ، ولهم في ذلك عباراتٌ أُخَرُ.

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ روى عمرو بنُ دينار عن محمد ابنِ الحنفية عن أبيه عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه قال: الصفحُ الجميل صفحٌ لا توبيخَ فيه، ولا حقدَ

---

(١) ليس في الأصل.

بعدَه، مع الرجوع إلى ما كان قبل ملابسةِ المخالفة، وقيل: الصفحُ الجميلُ: مواساةُ المذنبِ برَفْع الخجَل عنه، ومداواةُ موضعِ آلام الندم في قلبه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهي الصفاتُ السبع، أعني: الحياةَ والعلمَ والقدرةَ والإرادةَ والبصرَ والسمعَ[1] والكلامَ، ومعنى كونها مثاني: أنَّها ثُنِّي وكُرِّر ثبوتُها له ﷺ، فكانت له عليه الصلاة والسلام أولاً في مقام وجودِ القلب وتخلُّقِه بأخلاقه واتِّصافه بأوصافه، وثانياً في مقام البقاء بالوجود الحقَّانيِّ، وقيل: معنى كونها مثاني أنَّها ثَواني الصفاتِ القائمةِ بذاته سبحانه عزَّ وجلَّ ومواليدُها، وجاء: «لازالَ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به وبَصَرُه الذي يُبصرُ به»[2] الحديث.

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وهو عندهم: الذاتُ الجامعُ لجميع الصفات ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ إلى آخره. قال بعضُهم في ذلك: غَارَ الحقُّ سبحانه عليه عليه الصلاة والسلام أنْ يَستحسنَ من الكون شيئاً ويُعيره طَرْفَه، وأرادَ منه ﷺ أنْ تكونَ أوقاتُه مصروفةً إليه، وحالاتُه موقوفة عليه، وأنفاسُه النفيسةُ حبيسة عنده، وكان ﷺ كما أراد منه سبحانه، ولذلك وَقَع في المحلِّ الأعلى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ قد مرَّ عن «الكشف» ما فيه مقْنَعٌ لِمَن أراد الإشارةَ من المسترشدين.

هذا، وأسألُ الله سبحانه أنْ يحفظَنا من سوء القضا، ويَمُنَّ علينا بالتوفيق إلى ما يحبُّ ويرضَى، بحرمة النبيِّ ﷺ وآله وأصحابه ﷺ أجمعين ما جرى في تفسير كتاب الله تعالى قلم.

تم الجزء الثالث عشر من تفسير روح المعاني، ويليه الجزء الرابع عشر ويبدأ بسورة النحل

---

(١) في الأصل: السمع والبصر.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأحمد (٢٦١٩٣) من حديث عائشة ﷺ.

(سورة الحجر)

(مكّية تسع وتسعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾، ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب، والقرآن المُبين السورة، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابًا وأي قرآن مبين كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال وللغرابة في البيان ﴿رُّبَمَا﴾ (**بالتخفيف**: **مدني وعاصم**، **وبالتشديد**: **غيرهما**)، و«ما» هي الكافّة لأنها حرف يجرّ ما بعده، ويختصّ بالاسم النكرة فإذا كفّت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم. وإنما جاز ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لأن المترقَّب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقّقه فكأنه قيل: ربما ودّ، وَوِدادتهم تكون عند النَّزع أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، أو إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلمًا، كذا رُوِيَ عن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (سورة الحجر مكّية) أي إجماعًا (تسع وتسعون آية) أي إجماعًا أيضًا وستّمائة وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستّون حرفاً. **قوله**: (**بالتخفيف**) أي بتخفيف الباء الموحدة (**مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة، (**وعاصم**، **وبالتشديد غيرهما**) لغتان.

ابن عباس رضي الله عنهما (﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ **حكاية ودادتهم**). وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مُخبَر عنهم كقولك: «حلف بالله ليفعلن» ولو قيل: «حلف بالله لأفعلن» و«لو كنّا مسلمين» لكان حسنًا وإنما قلّل بـ «ربّ» لأن أهوال القيامة تشغلهم عن التمنّي فإذا أفاقوا من سَكَرات العذاب ودّوا لو كانوا مسلمين. وقول مَن قال: إن «ربّ» يعني بها الكثرة سهو لأنه ضد ما يعرفه أهل اللغة لأنها وُضعَت للتقليل.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿ذَرْهُمْ﴾ أمر إهانة أي اقطع طمعك من (**ارعوائهم**) ودعهم عن النهي عمّا هم عليه والصّدّ عنه بالتذكرة والنصيحة وخلّهم ﴿يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذّذ والتنعّم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ ولها كتاب جملة واقعة صفة لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء: الآية ٢٠٨] وإنما توسّطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيدًا لذلك. والوجه أن تكون هذه الجملة حالًا لـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ لكونها في حُكم الموصوفة كأنه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفًا. وقوله: ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي مكتوب معلوم وهو أجلها الذي كُتِب في اللوح المحفوظ وبين ألا ترى إلى قوله: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ في موضع

قوله: (﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ **حكاية ودادتهم**) يعني أنّ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حكاية لودادتهم بقول مقدّر، والتقدير يودّ الذين كفروا قائلين لو كانوا مسلمين، فالظاهر حينئذٍ أن يقال: لو كنّا مسلمين لتكون الحكاية مطابقة للمحكيّ، إلّا أنه جيء بها على لفظ الغيبة لتطابق اللفظ الذي ذكر قبلها، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

قوله: (**ارعوائهم**) بمعنى انزجارهم وانكشافهم عن القبيح.

كتابها ﴿وَمَا يَسْتَـْخِرُونَ﴾ أي عنه وحذف لأنه معلوم، وأنّث الأمة أولًا ثم ذكرها آخرًا حملًا على اللفظ والمعنى.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الكفار ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ يعنون محمدًا عليه السلام، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: الآية ٢٧] وكيف يقرّون بنزول الذِّكر عليه وينسبونه إلى الجنون والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكّم (سائغ) ومنه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: الآية ٢١]، ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: الآية ٨٧]، والمعنى إنك لتقول قول المجانين حيث تدَّعي أن الله نزّل عليك الذِّكر ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾ «لو» ركبت مع «لا» و«ما» لامتناع الشيء لوجود غيره أو للتحضيض، و«هل» رُكِّبَت مع «لا» للتحضيض (فحسب)، والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك، أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقًا.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾

(﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ كوفي غير أبي بكر)، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ (أبو بكر ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي تتنزل: غيرهم) ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزيلًا ملتبسًا بالحكمة ﴿وَمَا كَانُوٓا۟

قوله: (سائغ) جائز. **قوله:** (فحسب) أي فقط.

قوله: (﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾) بنونين الأولى مضمومة والأخرى مفتوحة وكسر الزاي مشدّدة مبنيًا للفاعل ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ بالنصب مفعولًا به (كوفي غير أبي بكر) يعني قرأه حفص وحمزة والكسائي ﴿تُنَزَّلُ الملائكة﴾ بضمّ التاء وفتح النون والزاي مشدّدة مبنيًا للمفعول الملائكة بالرفع نائب الفاعل (أبو بكر ﴿تَنَزَّلُ الملائكة) بفتح التاء والنون والزاي مشدّدة مبنيًا للفاعل مسنداً للملائكة، (أي تتنزّل) أي وأصله تتنزّل حذفت إحداهما تخفيفًا الملائكة بالرفع فاعله (غيرهم).

﴿إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، (﴿إِذًا﴾ جواب لهم وجزاء) الشرط مقدَّر تقديره: ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذًا وما أخَّر عذابهم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ للقرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (وهو ردٌّ لإنكارهم واستهزائهم) في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: الآية ٦] ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ فأكد عليهم إنه هو المُنَزِّل على القطع وأنه هو الذي نزَّله محفوظًا من الشياطين وهو حافِظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتولَّ حفظها وإنما استحفظها الربَّانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيًا فوقع التحريف، ولم يَكِل القرآن إلى غير حفظه وقد جعل قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ دليلًا على أنه مُنَزَّل من عنده آية إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرَّق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه، أو الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ لرسول الله ﷺ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ [المائدة: الآية ٦٧].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا في الفِرَق الأولين، والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة ﴿وَمَا

قوله: (﴿إِذًا﴾ **جواب لهم وجزاء**) فإنّ ﴿إِذًا﴾ إنما يذكر حيث خاطبك أحد بشيء وتريد أن تجيبه فتقول في جواب كلامه: إذًا يكون كما إذا قال لك إنسان: أنا آتيك فتقول: إذًا أُكرمك، كأنك قلت هٰهنا إن كان الأمر كما ذكرت أكرمك؛ فكذا هذه الآية. **قوله: (وهو ردّ لإنكارهم واستهزائهم)** فإنّ الكفرة قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ فقد أنكروا أن ينزل عليه ذكرٌ من ربّه، واستهزؤوا به حيث نادوه بهذا العنوان زاعمين أنه عليه الصّلاة والسلام غير موصوف به، فكأنهم قالوا: يا أيها المفتري إنّ الله تعالى لم ينزل عليك الذِّكر، وهذا الذي تزعم أنه من عند الله ليس منه، بل هو من إلقاء الجنّ و﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، وأكّده من وجوه تصدير الجملة بأن توسيط ضمير الفصل بين اسمها وخبرها والتعبير عن المتكلّم الواحد بضمير الجمع للتعظيم والإجلال وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وتقريره وإسمية الجملة.

﴿يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية لأن ما لا تدخل على المضارع إلا وهو في معنى الحال ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعزي نبيّه عليه السلام ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الأولين نسلكه أي الكفر أو الاستهزاء في قلوب المجرمين من أُمتك مَن اختار ذلك. يقال: سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الأصلح وخلق الأفعال ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالله أو بالذكر وهو حال ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مضت طريقتهم التي سَنَّها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون.

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ **(حُيرت أو حُبست من الإبصار من السُّكر أو)** من **(السَّكْر، ﴿سُكِرَتْ﴾ مكي)** أي حبست كما يحبس النهر من الجري، والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوّهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسّر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شيء نتخايله لا حقيقة له ولقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك، أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانًا لقالوا ذلك. وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مُستوضِحين لِما يرون وقال: إنما ليدلّ على أنهم يبتّون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيرًا للأبصار.

قوله: **(حُيرت)** بالبناء للمفعول **(أو حُبست من الإبصار)** بكسر الهمزة من الإفعال مصدر أبصر **(من السُّكر)** بضم السين ضد الصَّحو، ولما كانت الحيرة لازمة له فسّر ﴿سُكِّرَتْ﴾ بحيّرت، **(أو)** من **(السَّكْر)** بفتح السين وسكون الكاف وهو مصدر سكرت النهر أسكره إذا سددته. **قوله**: (﴿سُكِرَتْ﴾) بتخفيف الكاف وبناء المفعول **(مكّي)** أي ابن كثير المكّي رحمه الله. وباقي السبعة قرؤوا على بناء المفعول أيضًا إلّا أنهم شدّدوا الكاف.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾ نجومًا أو قصورًا فيها (الحرس) أو منازل للنجوم ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي السماء ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ أي السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ ملعون أو مَرمي بالنجوم ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي المسموع و«من» في محل النصب على الاستثناء ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ نجم ينقض فيعود ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمُبصِرين. قيل: كانوا لا يحجبون عن السمٰوات كلها فلما وُلِد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سمٰوات، فلما وُلِد محمد ﷺ مُنِعوا من السمٰوات كلها.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ بسطناها من تحت الكعبة، (والجمهور على أنه تعالى مدّها على وجه الماء) ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ في الأرض (جبالًا ثوابت) ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وزن بميزان الحكمة وقدِّر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة، أو ما يُوزَن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها، وخَصَّ ما يُوزَن (لانتهاء الكيل إلى الوزن).

قوله: (الحرس) جمع حارس مثل خادم وخدم.

قوله: (والجمهور على أنه تعالى مدّها على وجه الماء)، وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء وبعضها خارج عن الماء، وهو الجزء المعمور منها، واعتذروا عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ بأنّ الكرة إذا كانت عظيمة كان كلّ جزء منها كالسطح العظيم، فثبت بهذا الأمر أن الأرض محدودة مبسوطة وأنها كرة، وردّ هذا أصحاب التفاسير بأن الله أخبر في كتابه بأنها ممدودة وأنها مبسوطة، ولو كانت كرة لأخبر بذلك، والله أعلم بمراده وكيف مدّ الأرض. اهـ خازن. **قوله**: (جبالًا ثوابت) من رسى الشيء إذا ثبت جمع راسية. **قوله**: (لانتهاء الكيل إلى الوزن) لأن الصاع والمدّ مقدّران بالوزن.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾ ما يُعاش به من المطاعم جمع معيشة (وهي بياء صريحة) بخلاف الخبائث ونحوها (**فإن تصريح الياء فيها خطأ**) ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَازِقِينَ﴾، ﴿وَمَن﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿مَعَايِشَ﴾ (أو على محل ﴿لَكُمْ﴾) كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم مَن لستم له برازقين، أو جعلنا لكم فيها معايش ولِمَن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخَدَم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطئون فإن الله هو الرزَّاق يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدوابّ ونحو ذلك. ولا يجوز أن يكون محل ﴿وَمَن﴾ جرًّا بالعطف على الضمير المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجارّ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلًا لاقتداره على كل مقدور.

قوله: (وهي بياء صريحة) لكونها ياء أصلية بمنزلة الصاد من مناصر لكون الكلمة من العيش. **قوله**: (**فإن تصريح الياء فيها خطأ**) والصواب الهمزة؛ لأن الهمزة فيها زائدة لبناء فعائل كما في نحو قبيلة وقبائل وسحابة وسحائب وحمالة وحمائل. **قوله**: (**أو على محل** ﴿لَكُمْ﴾) وهو النصب؛ لأنه مفعول كأنه قيل: جعلناكم معايش، ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَازِقِينَ﴾ لكن حذف الجار وأوصل الفعل، وإنما قال على محل لكم لِمَا تقرّر في النحو من أنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلّا بإعادة الجار في حال السعة والاختيار عند البصريّين، ويجوز ترك الإعادة حال الضرورة؛ كما في قوله:

فاليوم قد بت تهجونا وتشمتنا   فاذهب وما بك والأيام من عجب

وأجاز الكوفيُّون ترك الإعادة في حال السعة بقوله تعالى: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النِّساء: الآية ١] بالجرّ في قراءة حمزة إذا تقرّر هذا فقد ظهر الفرق بين العطف على الضمير المجرور والعطف على محلّ مجموع الجار والمجرور والذي لم يجوّزه البصريون حال السعة هو الأول دون الثاني.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ جمع لاقحة أي وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب في جوفها كأنها لاقِحَة بها من لقحت الناقة حملت وضدّها العقيم. (﴿ٱلرِّيحَ﴾ **حمزة**) ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم **(سقيًا)** ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي نحيي بالإيجاد ونُميت بالإفناء، أو نُميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم. وقيل: للباقي وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ مَن تقدّم ولادةً وموتًا ومَن تأخر، أو مَن خرج من أصلاب الرجال ومَن لم يخرج بعد، أو مَن تقدم في الإسلام أو في الطاعة أو في وصف الجماعة أو في صفّ الحرب ومَن تأخر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ **(باهر الحكمة)** واسع العلم.

قوله: (﴿ٱلرِّيحَ﴾) بالإفراد على تأويل الجنس **(حمزة)** والباقون بالجمع.
قوله: (سقيًا)[1] بضمّ السين وسكون القاف كبشرى بمعنى مسقى يسقي به الأرض والمواشي، فليس أسقاه بمعنى سقاه، وإن ورد بهذا المعنى أيضًا.

قوله: **(باهر الحكمة)** أي عالم بالأشياء على ما هي عليه وفاعل لها كما ينبغي.

---

(١) أي جعلنا لكم ماء المطر معدًا لسقي أنفسكم وأراضيكم ومواشيكم. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي آدم ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لـ ﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ أي خلقه من صلصال كائن من حمإٍ أي طين أسود متغيّر ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصوّر وفي الأول كان ترابًا فعجن بالماء فصار طينًا فمكث فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصوِّر ويبس فصار صلصالًا فلا تناقض ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجن كآدم للناس أو هو إبليس وهو منصوب بفعل مُضمَر يفسِّره ﴿خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد **(النَّافذ في المسام. قيل: هذه السموم)** جزء من سبعين جزءًا من سموم النار التي خلق الله منها الجانّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممتَ خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وجعلت فيه الروح وأحييته **(وليس ثمّة نفخ)** وإنما هو تمثيل والإضافة للتخصيص ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ هو أمر من وقع يقع أي أسقطوا على الأرض يعني اسجدوا له، ودخل الفاء لأنه جواب «إذا» وهو دليل على أنه يجوز تقدّم الأمر عن وقت الفعل ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فالملائكة جمع عامّ محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله:

قوله: **(النافذ في المسام)** لشدّة لطفها وقوّة حرارتها، فإذا دخلت في الإنسان قتلته، والمسام هي ثقب البدن جمع سم بكسر السين على غير قياس كمحاسن جمع حسن. **قوله**: **(قيل: هذه السموم)**. . . الخ. قائله عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

قوله: **(وليس ثمّة نفخ)** ولا منفوخ.

﴿كُلُّهُمْ﴾ وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ظاهر الاستثناء يدل على أنه كان من الملائكة لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه. وعن الحسن أن الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة. قلنا: غير المأمور لا يصير بالتَّرك ملعونًا. وقال في الكشاف: كان بينهم مأمورًا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك: «رأيتُهم إلا هندًا» ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ امتنع أن يكون معهم و﴿أَبَىٰ﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلَّا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه ولكن إبليس أبى.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ حرف الجر مع أن محذوف تقديره ما لك في أن لا تكون مع الساجدين أي أيّ غرض لك في إبائك السجود ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصحّ مني أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ ضرب يوم الدين حدًّا للعنة لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم، والمراد به إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السمٰوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذّبت بما ينسى اللعن معه ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ فأخِّرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة. وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يُبعَثون لئلا يموت لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يُجَب إلى ذلك وأُنظِر إلى آخر أيام التكليف.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ الباء للقسم و«ما» مصدرية وجواب القسم لأزينّن لهم ومعنى أقسم بإغوائك إياي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصي ونحوه قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ [الحجر: الآية ٣٩]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [صَ: الآية ٨٢] في أنه إقسام إلا أن أحدهما إقسام (**بصفة الذات**) والثاني بصفة الفعل، وقد فرّق الفقهاء بينهما فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزّة يمين، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين. والأصح أن الأيمان مبنية على العُرْف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينًا ومالًا فلا، والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال. وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور، وأراد إني أُقدَر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدَر. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ (ٱلْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ **وبكسر اللام: بصري ومكي وشامي**) استثنى المخلصين لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (**أي هذا طريق حقّ عليَّ أن أُراعيه**) وهو أن لا يكون لك

قوله: (**بصفة الذات**)... الخ. وصفة الذات ما لا يجوز أن يوصف بضدّه، وصفة الفعل ما يجوز أن يُوصف بضدّه، فإنه تعالى يرضى بالإيمان ولا يرضى بالكفر. **قوله**: (﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾) قرأه نافع وعاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام، أي الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية (**وبكسر اللام بصري**) أي أبو عمرو البصري (**ومكّي**) أي ابن كثير المكّي، (**وشامي**) أي ابن عامر الشامي أي الذين أخلصوا دينك عن الشوائب.

قوله: (**أي هذا طريق حقّ عليَّ أن أُراعيه**) نحو: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: الآية ٤٧].

سلطان على عبادي إلا مَن اختار اتباعك منهم لغوايته. وقيل: معنى ﴿عَلَيَّ﴾ إلي. («عَلِيٌّ» **يعقوب**) من علو الشرف والفضل.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ الضمير للغاوين ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب معلوم (**مفرز**). قيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها، فأعلاها للموحّدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصائبين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ (وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ **وبضم العين: مدني وبصري وحفص**). المتقي على الإطلاق مَن يتقي ما يجب إتقاؤه مما نهي عنه. (**وقال في الشرح: إن دخل أهل الكبائر**) في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر وإلا فالمراد به الذين اتقوا الشرك.

قوله: (عَلِيٌّ) بكسر اللام وضم الياء منوّنة (**يعقوب**) وليس من السبعة، والباقون بفتح اللام والياء بلا تنوين.

قوله: (**مفرز**) في مختار الصحاح: فرز الشيء عزله عن غيره وأفرزه أيضًا وفارز شريكه فاصله وقاطعه.اهـ.

قوله: (﴿وَعُيُونٍ﴾) بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي (**وبضمّ العين مدني**) أي نافع (**وبصري**) أي أبو عمرو (**وحفص**). **قوله**: (**وقال في الشرح: إن دخل أهل الكبائر**)... الخ. عبارة التأويلات للإمام أبي منصور الماتريدي رحمة الله عليه: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ إن دخل أهل الكبائر في قوله لها سبعة أبواب، فيكون المراد بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتّقوا الكبائر، وإن كان أصحاب الكبائر لم يدخلوا في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتّقوا الشرك، والله أعلم. انتهت بحروفها.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ حال أي سالمين أو مسلَّما عليكم تسلِّم عليكم الملائكة ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الخروج منهما ومِنَ الآفات فيها وهو حال أخرى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وهو الحقد الكامن في القلب أي إن كان لأحدهم غلّ في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم. وعن **(علي)** رضي الله عنه: أرجو أن أكون أنا و**(عثمان)** و**(طلحة)** و**(الزبير)** منهم. وقيل: معناه طهَّر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غلّ وألقى فيها التوادد والتحابب ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كذلك قيل تدور بهم **(الأسِرَّة)** حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضًا ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ في الجنة تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فتمام النعمة بالخلود. ولما أتمّ ذكر الوعد والوعيد أتبعه.

قوله: (علي) بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم الهاشمي ابن عمّ رسول الله ﷺ وزوج ابنته من السابقين الأوّلين المرجح أنه أوّل مَنْ أسلم وهو أحد العشرة، مات في رمضان سنة أربعين وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض بإجماع أهل السنّة، وله ثلاث وستّون سنة على الأرجح.

قوله: (عثمان) بن عفان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس الأمويّ أمير المؤمنين ذو النورين أحد السابقين الأوّلين والخلفاء الأربعة والعشرة المبشّرة، استشهد في ذي الحجّة بعد عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة وعمره ثمانون، وقيل أكثر وقيل أقلّ.

قوله: (طلحة) بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة التيمي أبو محمد المدني أحد العشرة مشهور استشهد يوم الجمل سنة ستّ وثلاثين، وهو ابن ثلاث وستّين. **قوله**: (الزبير) بن العوام بن خُوَيْلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب أبو عبد الله القرشي الأسدي أحد العشرة المشهود لهم بالجنّة، قُتِل سنة ستّ وثلاثين بعد منصرفه من وقعة الجمل. **قوله**: (الأسرّة) جمع السرير.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ تقريرًا لما ذكر وتمكينًا له في النفوس. قال عليه السلام: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه (لبخع نفسه) في العبادة ولما أقدم على ذنب» وعطف ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ وأخبر أمتك. عطفه على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾ ليتخذوا ما أحلَّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي أضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكًا، والضيف يجيء واحدًا وجمعًا لأنه مصدر ضافه ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلّم عليك سلامًا أو سلّمنا سلامًا ﴿قَالَ﴾ أي إبراهيم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون لامتناعهم من الأكل أو لدخولهم بغير إذن وبغير وقت.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل أي إنك مبشّر آمن فلا توجل. (وبالتخفيف وفتح النون: حمزة) ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحٰق لقوله في سورة هود ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: الآية ٧١] ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أبشرتموني مع مسّ الكِبْر بأن يولد لي أي أن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكِبْر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ هي «ما» الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل: فبأي أُعجوبة تبشّرون، وبكسر النون والتشديد: (مكّي)، والأصل «تبشرونني» فأدغم نون الجمع في نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت

قوله: (لبخع نفسه) في مختار الصحاح: بخع نفسه قتله غمًّا وبابه قطع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: الآية ٦]. اهـ.

قوله: (وبالتخفيف وفتح النون) أي بفتح النون وسكون الباء وضمّ الشين مخفّفة (حمزة)، والباقون بضمّ النون وفتح الباء وكسر الشين مشدّدة. **قوله:** (مكّي) أي ابن كثير المكّي.

الكسرة دليلًا عليها. («تبشرونِ» بالتخفيف: نافع)، والأصل «تبشرونني» فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين، و(الباقون: بفتح النون)، وحذف المفعول والنون نون الجمع.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين الذي لا (لُبْس) فيه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ (وبكسر النون: بصري وعليّ) ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٨٧] أي لم أستنكر ذلك (قنوطًا) من رحمته ولكن استبعادًا له في العادة التي أجراها.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي قوم لوط ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ يريد أهله المؤمنين، والاستثناء منقطع لأن القوم موصوفون بالإجرام والمستثنى ليس كذلك، أو متصل فيكون استثناء من الضمير في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، والمعنى يختلف باختلاف الاستثنائين لأن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم

قوله: («تبشرونِ») بكسر النون (بالتخفيف: نافع). **قوله**: (الباقون: بفتح النون) مخفّفة.

قوله: (لُبْس) بالضمّ أي شبهة. **قوله**: (وبكسر النون: بصري) أي أبو عمرو البصري، وكذا يعقوب البصري وليس من السبعة، (وعليّ) الكسائي، والباقون بفتحها. **قوله**: (قنوطًا) في مختار الصحاح: القُنُوط اليأس وبابه جلس ودخل وطرب وسلم، فهو قَنِط وقَنُوط وقانط وقرىء: ﴿فلا تكن من القَنِطين﴾. وأمّا قنط يقنط ـ بالفتح ـ فيهما، وقنِط يقنِط ـ بالكسر ـ فيهما، فإنما هو على الجمع بين اللغتين. اهـ.

الإرسال يعني أنهم أُرسِلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يُرسَلوا إلى آل لوط أصلًا، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل: إنا أهلكنا قومًا مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال يعني أن الملائكة أُرسِلوا إليهم جميعًا ليهلكوا وينجوا هؤلاء. وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط لأن المعنى: لكن آل لوط مُنجون، وإذا اتصل كان كلامًا مستأنفًا كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط؟ فقالوا: إنّا لمنجّوهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ مستثنى من الضمير المجرور في ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وليس باستثناء من الاستثناء، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتّحد الحكم فيه بأن يقول: «أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته»، وهنا قد اختلف الحكمان لأن إلا آل لوط متعلق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أو بـ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ و﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ متعلق بـ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ فكيف يكون استثناء من استثناء. (﴿لمنْجوهم﴾ **بالتخفيف**: **حمزة وعلي** ﴿قَدَّرْنَآ﴾ **وبالتخفيف: أبو بكر**) ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب. قيل: لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح «إن» لأنه مع اسمه وخبره مفعول ﴿قَدَّرْنَآ﴾ ولكنه كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: الآية ١٥٨] وإنّما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي لا أعرفكم أي ليس عليكم (**زيّ السفر**) ولا أنتم من أهل (**الحضر**) فأخاف أن (**تطرقوني**

قوله: (﴿**لمنْجوهم**﴾ **بالتخفيف**) أي بسكون النون وتخفيف الجيم (**حمزة وعليّ**) الكسائي. **قوله**: (﴿قَدَّرْنَآ﴾) بتشديد الدال (**وبالتخفيف أبو بكر**) شعبة، والباقون بالتشديد وهما لغتان بمعنى التقدير لا القدرة، أي كتبنا.

قوله: (**زيّ السفر**) في المصباح: الزِّي ـ بالكسر الهيئة، وأصله زوى.اهـ. **قوله**: (**الحضر**) بفتحتين خلاف البدو.اهـ مصباح. **قوله**: (**تطرقوني**

بشر) ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورك وتَشَفِّيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكّون ويكذّبونك ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار بنزوله بهم.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في آخر الليل أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾وسرّ خلفهم لتكون مُطَّلعًا عليهم وعلى أحوالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن مَن يلتفت لا بدَّ له في ذلك من أدنى وقفة ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ حيث أمركم الله بالمضي إليه وهو الشام أو مصر.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ **(عدّى ﴿قضينا﴾ بـ «إلى» لأنه ضمّن معنى أوحينا)** كأنه قيل: وأوحينا إليه مَقضيًا مبتوتًا، وفسَّر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر ودابرهم آخرهم أي يَستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقت دخولهم في الصبح **(وهو حال من** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾).

بشرَ) في تاج العروس[1]: طرق القوم يطرقهم طرقًا وطروقًا جاءهم ليلًا، فهو طارق. انتهى.

قوله: (عدّى ﴿قضينا﴾ بإلى لأنه ضمّن معنى أوحينا) وإلّا ففعل القضاء لا يتعدّى بإلى، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: الآية ٢٣]، وقد عدى هٰهنا إلى لوط عليه الصّلاة والسلام بكلمة إلى باعتبار المضمن. **قوله: (وهو حال من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾)**، وجاز لكون المضاف بعض

(١) وأيضًا فيه: يقال: طرقه الزمان بنوائبه ونعوذ بالله من طوارق السوء، وقال الراغب: كنى عن الحوادث ليلًا بالطوارق. اهـ. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ (سدوم) التي ضرب بقاضيها المثل في الجور ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بالملائكة طمعًا منهم في ركوب الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي لأن مَن أساء إلى ضيفي أساء إليَّ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ (أي ولا تذلوني بإذلال ضيفي من الخزي) وهو الهوان. **(وبالياء فيهما: يعقوب)** ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ عن أن نُجير منهم أحدًا أو تدفع عنهم فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرّض له فأوعدوه وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين أو عن ضيافة الغرباء.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفّار جائزًا ولا تتعرَّضوا لهم ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلَّ الله دون ما حرَّم فقالت الملائكة للوط عليه السلام ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ أي في غوايتهم التي أذهبَت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتحيَّرون فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك، أو الخطاب لرسول الله ﷺ وهو قَسَم بحياته وما أقسم

المضاف إليه؛ إذ الدابر أصل الشيء وجزؤه باعتبار هؤلاء كلّاً، فيكون الدابر جزؤه ولكون الدابر نائب الفاعل باعتبار ضميره المستكن في مقطوع، فكأنه حال مِنْ مفعول ما لم يسمّ فاعله.

قوله: (سدوم) بفتح السين على وزن فعول وذاله معجمة، ورُوي إهمالها، وقيل: إنه خطأ. **قوله**: (أي ولا تذلون بإذلال ضيفي من الخزي) وهو الهوان، أو ولا تخجلون فيهم من الخزاية وهو الحياء. اهـ بيضاوي. **(وبالياء فيهما)** أي في ﴿تَفۡضَحُونِ﴾، و﴿تُخۡزُونِ﴾ [الحجر: الآية ٦٩] في الحالين (يعقوب).

بحياة أحد قطّ تعظيمًا له. (والعَمر والعُمر) واحد وهو البقاء إلا أنهم خصّوا القَسَم بالمفتوح إيثارًا للأخف لكثرة دَور الحلف على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق وهو (بزوغ) الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ للمتفرّسين المتأمّلين كأنهم يعرفون باطن الشيء (بسِمَة) ظاهرة ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن هذه القرى يعني آثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد. وهم يُبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصَّافَّات: الآيتان ١٣٧، ١٣٨]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ لأنهم المُنتفِعون بذلك.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وإن الأمر والشأن كان أصحاب الأيكة أي (**الغيضة**) ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم لمّا كذبوا شعيبًا ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني قرى قوم لوط والأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح (**والإمام اسم ما يُؤتَمّ به**) فسُمّي به الطريق (**مطمر البناء**) لأنهما مما يُؤتَمّ به ﴿وَلَقَدْ

(والعَمر) بفتح العين (**والعُمر**) بضمّها. **قوله**: (بزوغ) أي طلوع.

قوله: (بسِمَة) أي بعلامة.

قوله: (**الغَيْضة**) في الأصل: اسم للشجر الملتفّ والمراد بها هنا البقعة التي فيها شجر مزدحم، ففي الكلام مجاز من إطلاق اسم الحال على المحل. **قوله**: (**والإمام اسم ما يُؤتَمّ به**) أي ما يُقتدى به. **قوله**: و(**مطمر البناء**) المطمر بكسر

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ ـ هم ثمود، والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام ـ المُرسَلين يعني بتكذيبهم صالحًا لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرُّسل جميعًا، فمَن كذب واحدًا منهم فكأنما كذبهم جميعًا، **(أو أراد صالحًا ومَن معه من المؤمنين كما قيل «الخُبَيبيّون» في ابن الزبير وأصحابه)**.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ أي أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي ينقبون في الجبال بيوتًا أو يبنون من الحجارة ﴿ءَامِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ومن **(نقب اللصوص)** والأعداء، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العذاب ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ **(في اليوم الرابع وقت الصبح)** ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ من بناء البيوت الوثيقة و**(اقتناء الأموال النفيسة)**.

الميم كالمِطمار خيط البنائين الذي يقدرون به البناء. **قوله**: **(أو أراد صالحاً ومَنْ معه مِنَ المؤمنين)** بطريق تغليب صالح على أُمّته المؤمنين **(كما قيل الخبيبيون في ابن الزبير وأصحابه)**، هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشيّ الأسدي أبو بكر وأبو خُبَيْب بالمعجمة مصغّرًا، كان أوّل مولود في الإسلام بالمدينة من المهاجرين وولي الخلافة تسع سنين، قُتل في ذي الحجّة سنة ثلاث وسبعين رضي الله تعالى عنهما.

قوله: **(نقب)** أي خرق. في المصباح: نقبت الحائط ونحوه نقبًا من باب قتل خرقته. اهـ. **قوله**: **(اللصوص)** جمع اللّصّ السارق بكسر اللام وضمّها لغة حكاها الأصمعيّ. **قوله**: **(في اليوم الرابع وقت الصبح)** قال ابن عباس: إنه تعالى لمّا أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغّبهم في الإيمان، ثم قالوا لصالح عليه السلام: وما علامة ذلك؟ قال: تصير وجوهكم في اليوم الأوّل مصفرّة، وفي الثاني محمرّة، وفي الثالثة مسودّة، ثم يأتيكم العذاب في اليوم الرابع؛ فلما رأوا وجوههم مسودّة أيقنوا حينئذٍ بالعذاب، فتحنّطوا واستعدّوا للعذاب، فصبّهم اليوم الرابع. **قوله**: **(اقتناء الأموال النفيسة)** في المصباح: اقتنيته اتّخذته لنفسي قنية لا للتجارة، هكذا قيّدوه. اهـ.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ **(إلا خلقًا مُلتبسًا بالحق)** لا باطلًا وعبثًا أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة لتوقعها كل ساعة ﴿لَأٓتِيَةٌ﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويُجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم فإنه ما خلق السمٰوات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضًا جميلًا بحلم **(وإغضاء)**. قيل: هو منسوخ بآية السيف، وإن أُريد به المخالفة فلا يكون منسوخًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا﴾ أي سبع آيات وهي الفاتحة أو سبع سور وهي **(الطِّوال)**، واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما، **(وقيل: سورة يونس)** أو أسباع القرآن ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هي من التثنية وهي التكرير لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة، أو من الثَّناء لاشتمالها على ما هو ثناء من الله، والواحدة **(مَثْناة)** أو **(مُثنية)** صفة للآية. وأما السور أو الأسباع فلِما وقع

قوله: (إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقّ) أشار إلى أن الباء للملابسة، وبالحقّ صفة للمفعول المطلق المحذوف. **قوله: (وإغضاء)** في المصباح: أغضى الرجل عينه بالألف قارَب بين جفنيها، ثم استعمل في الحلم، فقيل: أغضى على القذى، إذا أمسك عفوًا عنه. اهـ.

قوله: (الطِّوال) بكسر الطاء جمع طويل ككريم وكرام واقتصر عليه. في الصحاح: وأمّا بالضم فالرجل الطويل كما صرح به ابن مالك في مثلثه. **قوله: (وقيل: سورة يونس)** أي السابعة، هي سورة يونس. **قوله: (مثناة)** بفتح الميم وسكون الثاء، وهو إمّا من التَّثْنِية، أي من الثني بمعنى التثنية، أو هو من الثناء وهو إمّا مصدر سُمّي به المفعول مبالغة أو اسم مكان سُمّي به المفعول مبالغةً أيضاً. **قوله: (مثنية)** بضم الميم وكسر النون اسم فاعل أسند الثناء إليها إسنادًا مجازًا لاشتمالها الثناء على الله تعالى.

فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله، وإذا جعلت السبع مثاني فـ «من» للتبيين، وإذا جعلت القرآن مثاني فـ «من» للتبعيض ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه لأنه إذا أُريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: الآية ٣]. يعني سورة يوسف، وإذا أُريد به الأسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم أي الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعِظَم.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

ثم قال لرسوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي (لا تطمح ببصرك طموح راغب) فيه مُتَمَنٍّ له ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافًا من الكفَّار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أُوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك أن تستغني به ولا تمدنّ عينيك إلى متاع الدنيا. وفي الحديث («ليس منا مَن لم يتغنَّ بالقرآن»)،

قوله: (لا تطمح ببصرك) الباء المتعدية، وطمح بمعنى ارتفع. **قوله**: (طموح راغب) قيّد به لأنه المنهيّ عنه. **قوله**: (ليس منّا مَنْ لم يتغنّ بالقرآن) أي مَنْ لم يتغنّ على أن يكون التغنّي المقصور وهو اليسار، وقد جاء التغنّي في الحديث الصحيح وهو قوله عليه الصّلاة والسلام: «إن الخيل لرجل أجر[1] ولآخر ستر[2] ولثالث وزر»[3]، ثم قال: «وأما الذي هي له ستر، فرجلٌ ربطها تغنّيًا وتعفّفًا، ثم لم ينسَ حق الله تعالى في رقابها»، والمشهور حمله على تحسين الصوت بجعله من الغناء الممدود، فإن التغنّي بهذا المعنى أشهر، كيف وقد قيل لبعض رواة هذا الحديث: يا أبا محمّد، أرأيت إن لم يكن حسن الصوت؟ قال:

(١) أي ثواب عظيم. ١٢ منه.
(٢) أي كحاله في معيشته لحفظه من الاحتياج والسؤال. ١٢ منه.
(٣) أي ثقل وأثم.

وحديث (أبي بكر) «مَن أُوتي القرآن فرأى أن أحدًا أُوتي من الدنيا أفضل مما أُوتي (فقد صغَر) عظيمًا وعظَّم صغيرًا» ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تتمنَّ أموالهم ولا تحزن عليهم (أنهم لم يؤمنوا) فيتقوَّى بمكانهم الإسلام والمسلمون ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتواضع لمَن معك من فقراء المؤمنين وطِب نفسًا عن إيمان الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ وهم أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أجزاء (**جمع عِضَة وأصلها عضوة**) فعلة (**من عضّى الشاة إذا جعلها أعضاء**) حيث قالوا بعنادهم:

يحسّنه ما استطاع، ويشهد له الحديث الآخر: «زيّنوا القرآن بأصواتكم». وقيل: المراد من التغنّي بالقرآن الإفصاح بألفاظه، وقيل: إعلانه والجهر به، وقيل: قراءته على خشية من الله ورقّة من فؤاده، وقيل: معناه كشف الغموم بقراءته وذلك أن الإنسان إذا أصابه غمّ ربما تغنّى بالشعر فطلب بذلك وجه مما هو فيه، والصدّيقون همومهم المعاد وضيق صدورهم بما يشغلهم عن الله ولا يفرّجون كربهم إلا بذكر كلام ربّهم، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لم يتغنّ بالقرآن فليس منّا»، أي مَنْ لم يتفرّج من غمومه بقراءة القرآن والتدبّر فيه، فليس منّا خلقًا وسيرة.

قوله: (أبي بكر) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة التيمي، أبو بكر بن أبي قُحافة الصدِّيق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ، مات في جُمادى الأُولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستّون سنة. **قوله**: (فقد صغر)... الخ. علّة للمحذوف تقديره: فقد خاب وخسر خسرانًا مبينًا؛ لأنه صغّر عظيمًا. **قوله**: (أنهم لم يؤمنوا) بفتح الهمزة بدل اشتمال من الضمير المجرور، ويجوز أن يكون على تقدير اللام، أي لأنهم لم يؤمنوا.

قوله: (جمع عِضَة) بكسر العين وفتح الضاد بمعنى جزء فهو معتلّ اللام، ولذا قال: (**وأصلها عضوة من عضَى الشاة**) بالتشديد (**إذا جعلها أعضاءً**) وأجزاءً فاعل فصار عضة.

بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مُخالِف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي، ويقول الآخر سورة آل عمران لي. أو أُريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسموه؛ فاليهود أقرَّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرَّت ببعض الإنجيل وكذبَت ببعض، ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ منصوبًا بـ ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ أي أنذر المعضين الذين يجزِّئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المُقتَسِمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مدخل مكة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين ليُنفِّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر **(فأهلكهم الله)**. ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ على الوجه الأول اعتراض بينهما، لأنه لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسّف على كُفرهم ومن الأمر بأن يُقبِل بكليَّته على المؤمنين.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحدًا واحدًا من هؤلاء المقتسمين عمّا قالوه في رسول الله ﷺ أو في القرآن أو في كتب الله ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به وأظهِره. يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا من الصديع وهو الفجر، أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الإبانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أُمِرْتَ به

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو أمر استهانة بهم.

قوله: (فأهلكهم الله) يوم بدر.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الجمهور على أنها **(نزلت في خمسة نفر)** كانوا يُبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم: الوليد بن المغيرة **(مرّ بنبّال)** فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقًا في عقبه فقطعه فمات، والعاص بن وائل دخل في **(أخمصه)** شوكة فانتفخت رجله فمات، والأسود ابن عبد المطلب عَمِي، والأسود بن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، والحارث بن قيس **(امتخط قيحًا)** ومات ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ **(عاقبة)** أمرهم يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ فيك أو في القرآن أو في الله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ **(فافزع فيما نابك)** إلى الله، والفزع إلى الله هو الذِّكر الدائم وكثرة السجود يكفيك ويكشف عنك الغمّ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودُمْ على عبادة ربك ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموت يعني ما دمت حيًّا فاشتغِل بالعبادة وكان رسول الله ﷺ **(إذا حَزَبَه)** أمر فزع إلى الصلاة.

قوله: **(نزلت في خمسة نفر)**... الخ. كونهم خمسة قول، وفي شرح البخاري بأنهم سبعة، وفي بعض أسمائهم اختلاف مفصّل في كتب الحديث. **قوله**: **(مرّ بنبال)** بفتح النون وتشديد الباء الموحدة من يَصْنع النبال، أي السّهام. **قوله**: **(أخمصه)** الأخمص ما دخل في باطن القدم بحيث لا يصيب الأرض. **قوله**: **(امتخط قيحًا)** أي خرج قيح من أنفه بدل مخاطه. **قوله**: **(عاقبة)** أشار إلى مفعوله.

قوله: **(فافزع)** الفزع هنا بمعنى الالتجاء. **قوله**: **(ما نابك)** بمعنى ما نزل بك. **قوله**: **(إذا حَزَبَه)** بالباء الموحدة والنون أيضًا، أي أهمّه ونزل به **(أمر فزع إلى الصلاة)** أي قام إليها واشتغل بها.

تمت سورة الحجر والحمد لله ربّ العالمين

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم